الجاحظ

رسائل الجاحظ

الرّسائل الكلاميّة
كشّاف آثار الجاحظ

دار ومكتبة الهلال

رسائل الجاحظ

الجاحظ

رسائل الجاحظ

الرسائل السياسية

قدم لها وبوبها وشرحها
الدكتور علي أبو ملحم

الطبعة الأخيرة

2002 م

تطلب منشوراتنا من :

دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر

بئر العبد - شارع مكحول - بناية برج الشاطئ - ملك دار ومكتبة الهلال

تلفون ٨٣٦٩٨١/ ٨٢٠٦٣٢ - فاكس ١٠٣٦٨٦ ١ (٩٦١) - ص.ب: ١٥/٥٠٠٣ - بيروت لبنان

مقدمة عامة

هذه عشر رسائل انتهت الينا من مؤلفات الجاحظ السياسية العديدة . وقد ضاعت سائر الكتب التي عالجت موضوع السياسة ولا يعرف سوى عناوينها الواردة في لائحة كتبه . (انظر « كشاف آثار الجاحظ » الذي نشرناه) .

وتدور الرسائل حول ست مسائل أساسية . المسألة الاولى هي مفهوم السياسة واصولها وطريقة اقامة الرئيس . لقد فهم الجاحظ السياسة بمعنى التدبير ، تدبير شؤون الناس ومعاشهم . وكثيراً ما يستعمل لفظة السياسة مقترنة بلفظة التدبير . وترجع السياسة الى اصلين هما الترغيب والترهيب . وفي ذلك تتفق السياسة الدنيوية مع السياسة الدينية : فكما رغب الله عباده بالجنة وخوفهم من النار ، هكذا ينبغي ان يفعل الحاكم مع الرعية لكسب طاعتهم ، عليه ان يرغبهم بما يحبونه، ويوفره لهم ، كما عليه ان يحذرهم مما يكرهونه وينفذ ما حذر منه . وهذان الاصلان يقابلان أحد مبادىء المعتزلة الخمسة وهو الوعد والوعيد . وقد اوضح الجاحظ مفهوم السياسة واصولها في رسالة المعاش والمعاد التي وجهها الى احد اولي الأمر ، وهو قاضي القضاة محمد بن احمد بن ابي دؤاد الذي يشرف على الولاة والقضاة في الدولة العباسية .

وبصدد اقامة الرئيس ، رئيس الدولة ، جاء الجاحظ بنظرية جديدة تقول

ان العامة لا تصلح لاختيار الامام لجهلها وغلبة الأهواء عليها . وهذه المهمة ملقاة على عاتق الخاصة التي بوسعها معرفة من يستحق الامامة دون سواه . والأمام يفرض نفسه على الناس بسيرته واعماله ومواقفه واقواله ، بحيث يدفعهم للاقرار بفضله وتقديمه على نحو ما قدم عمرو بن عبيد عند المعتزلة ، ومرداس بن ادية عند الخوارج . وقد وردت هذه الآراء مفصلة في رسالة العثمانية ورسالة الحكمين .

المسألة الثانية هي الوطنية . وهي تعني تعلق الانسان بالارض التي يعيش عليها ، بحيث يفضلها على غيرها من البلدان ، ويتعصب لها ويدافع عنها ضد الاعداء او المغتصبين . عالج ابو عثمان هذه المسألة في رسالة الاوطان والبلدان ، وعاد الى الحديث عليها في رسالة الترك وعامة جند الخلافة . ويمكن اعتبار الجاحظ رائداً في هذه القضية التي اكتسبت اهمية عظمى في العصر الحديث .

والمسألة الثالثة هي الصراع الحزبي الذي شغل ثلاث رسائل : العثمانية ، والحكمين ، والعباسية . كان يوجد ثلاثة احزاب هامة تصطرع على السلطة هي : الشيعة والعباسية والعثمانية . وقد شرح الجاحظ نظرية الشيعة في الامامة في رسالة استحقاق الامامة التي نشرناها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية لأنه يعالجها هناك من منطلق كلامي . وعاد الى معالجة النظرية من منطلق سياسي في رسالة الحكمين ورسالة العثمانية . وشرح نظرية العباسية او حزب بني العباس في رسالة العباسية ، كما شرح نظرية العثمانية او حزب ابي بكر وعمر وعثمان واتباعهم في رسالة العثمانية ورسالة العباسية . وهناك فئة من العثمانية سماهم الجاحظ بالسفيانية والغيلانية والمروانية والنابتة ايدوا خلافة معاوية ، سرد آراءهم في رسالة الحكمين ورسالة النابتة التي نشرناها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية لأنها تنطوي على قضايا تخص علم الكلام .

والمسألة الرابعة هي الصراع القبلي المتمثل بالمنافسة القديمة التي ترقى الى العصر الجاهلي بين بطنين من بطون قريش على الحكم هما عبد شمس وهاشم .

وقد عرض الجاحظ صورة عن هذا الصراع في رسالة فضل هاشم على عبد شمس .

والمسألة الخامسة هي الشعوبية . ويبدو أنها استفحلت في عصر الجاحظ فحاول أن يكبح جماحها فخصص لها رسالة مناقب الترك ، ورسالة فخر السودان على البيضان . كما تطرق اليها في كتاب البيان والتبيين . ونجد في هذه الكتب عرضاً مفصلاً لدعاوى الشعوب الاعجمية في تفوقهم على العرب والاشادة بماضيهم وخصالهم وافعالهم .

والمسألة السادسة والاخيرة تعتبر ملحقة بالسياسة لانها تدور حول عمل الموظفين الذين يساعدون الخليفة في ادارة الدولة وهم الحجاب والكتاب . ولا نجد للجاحظ آراء اصيلة حول هذه المسألة .

لم نحقق الرسائل السياسية ، اذ سبقنا الى أداء هذا العمل العديد من الباحثين (انظر كتابنا كشاف آثار الجاحظ ، الذي يتحدث على الطبعات المختلفة واصولها) . ولكننا قمنا بكتابة مقدمات لها تحللها وتلقي الضوء على فكر الجاحظ المتشعب المرامي والانحاء . كما وضعنا عناوين لفقرها تسهل القاء نظرة شاملة عليها وتبرز مطالبها ، وشرحنا افكار الجاحظ وعلقنا عليها وربطناها فيما بينها ، وغايتنا هي اماطة اللثام عن الجاحظ المتفلسف والمتكلم المتبحر ، وهي الناحية التي اهملها الباحثون المحدثون .

وقد اعتمدنا في رسائل المعاش والمعاد ، والاوطان والبلدان ، ومناقب الترك ، وفخر السودان على البيضان ، والحجاب ، وذم اخلاق الكتاب ، على طبعة عبد السلام هارون الصادرة في القاهرة عن مكتبة الخانجي سنة ١٩٦٤ و ١٩٧٩ م ، في اربعة اجزاء ، بعنوان « رسائل الجاحظ » ، وقد اعتمد بدوره على مخطوطة مكتبة داماد ابراهيم بتركيا ، رقم ٩٤٩ ، وعلى مخطوطة المتحف البريطاني رقم ١١٢٩ ، وعلى مخطوطة المكتبة التيمورية المودعة بدار الكتب المصرية رقم ١٩ .

وفي رسالة العثمانية اعتمدنا على طبعة عبد السلام هارون الصادرة في

القاهرة عن مطابع دار الكتاب العربي سنة ١٩٥٥ م ، وقد عول فيها على مخطوطة كوبريلي بتركيا ، رقم ٨١٥ .

وفي رسالة الحكمين عدنا الى طبعة المستشرق الفرنسي شارل بلا المنشورة في مجلة المشرق ، عدد تموز ـ تشرين الاول ، سنة ١٩٥٨ . وقد عاد فيها الى مخطوطة ميلان رقم ١٢٩ . H .

اما في رسالة فضل هاشم على عبد شمس ورسالة العباسية فقد اعتمدنا على طبعة حسن السندوبي الصادرة عن المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٣٣ م .

١ ـ مقدمة رسالة المعاش والمعاد

الرسالة موجهة الى محمد بن احمد بن ابي دؤاد قاضي بغداد بعد والده احمد بين سنتي ٢٣٣ و ٢٣٧ هـ . ولي وعزل من قبل المتوكل . وقد توثقت صلة الجاحظ بابيه وبه . وقد حاول الجاحظ أن يرشده ويوجهه نظراً لحداثة سنه فكتب اليه عدة رسائل منها رسالة المعاش والمعاد .

يستهل الرسالة بمقدمة اضافية يمتدح بها رجاحة عقل القاضي وكرم خلقه ويتزلف اليه قائلاً « وخرجت نسيج وحدك أوحدياً في عصرك ، حكمت وكمل الله عندك ـ وهو عقلك ـ على هواك ... » . ويشكره على النعمة: «وكان من تمام شكري لربي ولي كل نعمة ، والمبتدىء بكل احسان الشكر لك والقيام بمكافأتك بما امكن من قول او فعل » . ويهديه كتاباً في الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش وعلل الاشياء .

ثم يحدد موضوع الكتاب بانه وصف للطبائع التي ركب عليها الخلق واسباب شهواتهم وكيف تُسْتَمالُ قلوبهم ، وكيف يصرفون الطبائع المذمومة الى الشيم المحمودة .

ويعلن قاعدة عامة ينبغي مراعاتها هي الوحدة بين آداب الدين والدنيا لأن الآداب آلاتتصلح ان تستعمل في الدين كما تصلح ان تستعمل في الدنيا . فما

صح من اصول التدبير في الدين صح في الدنيا وما فسد هنا فسد هناك « وانما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والأخرة فقط ، والحكم هنا هنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ولا ثبتت دولة ولا استقامت سياسة » .

والآداب وضعت على اساس الطبائع ، واهم الطبائع اثنان هما حب المنافع وكره المضار . ويدخل في حب المنافع حب الراحة والدعة والازدياد والعلو والعز والغلبة وما تستلذ الحواس من المناظر والروائح والطعوم والاصوات والملامس . ويدخل في المكاره اضداد هذه .

وإذا ترك الناس وطباعهم انساقوا مع الهوى وابتعدوا عن الفضائل نظراً للانانية المستولية عليهم ، فكان لا بد من وازع او رادع ، ومن تربية وتأديب . والتأديب يقوم على اصلين هما الترغيب والترهيب . وهذا الاصلان يصلحان في الدين والدنيا لأنهما اصلا كل تدبير وعليهما مدار كل سياسة كما يقول الجاحظ « فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره الا بما وصفت لك من الرغبة (بالجنة) والرهبة (من النار) ، فاعجز الناس رأياً وأخطأهم تدبيراً ، واجهلهم بموارد الأمور ومصادرها ، من أمل او ظن او رجا ان احداً من الخلق ـ فوقه او دونه او من نظرائه ـ يصلح له ضميره ، او يصح له بخلاف ما دبرهم الله عليه ، فيما بينه وبينهم ، فالرغبة والرهبة اصلا كل تدبير وعليهما مدار كل سياسة عظمت او صغرت » .

بيد ان الرهبة والرغبة لا تصلحان الا اذا قرنتا بالعدل . فالعدل هو الاصل الثالث للسياسة . وهو يعني الانصاف والمساواة .

يضاف الى العدل الوعد والوعيد وهو الاصل الرابع في السياسة . وهذا يعني التنفيذ والاثابة على العمل الصالح والعقوبة على العمل الطالح « ليعمل كل عامل على ثقة مما وعده واعده» وتعلق قلوب العباد بالرغبة والرهبة ، ويطرد التدبير وتستقيم السياسة لموافقتها ما في الفطرة ، وأخذهما بجامع المصلحة» . ولهذا يوصي الجاحظ القاضي بالتزام العدل في معاملة الناس . كما يوصيه بالجود مع

تثمير المال وتجنب الفقر « لأن تثمير المال آلة للمكارم وعون على الدين والدنيا ومتألف للاخوان ، ولان من فقد المال قلت الرغبة منه ومن لم يكن بموضع رغبة او رهبة استهان الناس بقدره » .

اما في معاملة العدو فينصح ابو عثمان بثلاث خلال : ان يبتديء عدوه بالحسنى عله يحوله عن عداوته لأن كثرة الاعداء كريهة . وأن يكتم اسراره عنه ولا يطلعه على تدبيره ، وان يستعد لمواجهته .

وفي معاملة الصديق ينصحه كما نصح ابن المقفع قبله بالاكثار من الاصدقاء لانهم جند معدون له وعون في الشدائد . ثم ان يحافظ عليهم .

ويحذره من ثلاث خلال هي الكذب الذي هو جماع كل شر ، ثم الغضب لأنه لؤم وسوء مقدرة ، ثم الجزع عند المصيبة التي لا ارتجاع لها .

كما يحذره من المفاخرة بالانساب لانها تورث العداوة بين الاخوان . ومن العتاب لأنه سبب للقطيعة ، ومن المزاح لأن الافراط فيه يذهب بالبهاء . ثم الاعتداد بالنفس لان نشر المحاسن من صاحبها لا يليق به ولا يقبل . ثم حذره من ان يولي اموره الجسيمة امرا لا يكون صلاحه متعلقاً بصلاح الحاكم .

وفي النهاية يحث الجاحظ القاضي على استعمال الأدب والنصح في معاملة السلطان العادل ، وعلى استعمال الحيلة والرفق في معاملة السلطان الاخرق .

٢ ـ مقدمة الاوطان والبلدان(١)

يزعم الجاحظ في مقدمة الكتاب انه وضعه نزولاً عند رغبة شخص سأله ان يكتب له كتاباً في تفاضل البلدان وقناعة النفس بالاوطان ، وأثر ملازمتها في الفشل والنقص ، وأثر مبارحتها في التجارب والعقل .

ولكن الجاحظ يرى ان تأثير البلدان لا يقتصر على الفقر والغنى والمكاسب واغناء العلم بالتجارب ، بل يتعداه الى الاخلاق والآداب واللغات والهيئات والصور لأنه يعتقد ان للبيئة دوراً هاماً في الانسان بمختلف قواه الجسمية والعاطفية والعقلية ، وقد أوضح ذلك في اماكن عديدة من كتبه لأنه كان فيلسوفاً طبيعياً . (١)

ان حب الاوطان طبيعة فطرها الله في الانسان ليعمر البلدان ، فلولاها لما سكن الناس الفيافي والادغال وقلل الجبال والقفار الموحشة والبلدان المجدبة القاحلة ، والاصقاع الباردة او الحارة . ولطلبوا جميعا السكن في البلاد المعتدلة المناخ ، الخصبة التربة .

---

(١) انظر حول هذا الموضوع كتابنا « المناحي الفلسفية عند الجاحظ » المنحى الطبيعي ، ص ٦٦ .

ولو راموا جميعاً « اختيار ما هو ارفع ورفض ما هو اوضع من اسم او كنية وفي تجارة وصناعة ، ومن شهوة وهمة ، لذهبت المعاملات وبطل التميز ، ولوقع التجاذب والتغالب ، ثم التحارب ، ولصاروا عرضاً للتفاني واكلة للبوار » .

فالجاحظ يربط حب الاوطان مهما كانت خصائصها من الرفعة او الضعة ومن الجمال او القبح ومن الصلاح او الطلاح بمبدأ عام يرجع الى حكمة الله في خلقه ، هو الطبائع التي فطر عليها الناس . وفي هذا الرأي يعبر عن فلسفة الطبيعة احسن تعبير .

وحب الاوطان هو الذي يحفز الناس على الذود عنها والقتال في سبيل استرجاعها اذا اغتصبت . والى ذلك اشارت الآية الكريمة ﴿ وما لنا ألاّ نقاتل في سبيل الله وقد اخرجنا من ديارنا وابنائنا ﴾ (البقرة ٢٤٦) .

وبما ان حب الاوطان فطرة طبيعية لذا يستوي فيها الانسان والحيوان . ويلاحظ الجاحظ ان صاحب المنزل اذا هجر منزله واختار غيره لم يتبعه فرس ولا بغل ولا حمار ولا ديك ولا دجاجة ولا حمامة ولا هر ولا شاة ولا عصفور .

ويخصص الجاحظ قسماً كبيرا من الرسالة للحديث عن مكة ولكنه يستطرد من ذكر مكة الى الكلام عن خصال قريش فخصال هاشم وهو يعترف بهذا الاستطراد المخل بالتأليف - والاستطراد سمة من سمات أسلوب الجاحظ في جميع كتبه - ويقول : « ولم يكن قصدنا في اول هذا الكتاب الى ذكر هاشم ، وقد كان قصدنا الاخبار عن مكة بما قد كتبناه في صدر هذا الكتاب ، ولكن خصال مكة جر ذكر خصال قريش ، وذكر خصال قريش جر ذكر خصال هاشم » . كما يقول انه عالج هذا الموضوع اي خصال هاشم في كتاب آخر ، ذلك الكتاب هو على الارجح « فضل هاشم على عبد شمس » .

ان الخصال التي امتازت بها قريش عن سائر العرب هي رغبة جميع القبائل لانتساب اليها في حين لا نجد قرشياً انتسب الى قبيلة من قبائل العرب .

ومن صفات قريش انها اعز العرب واقواها لذلك لا نجد سبية من قريش ، ولم تنهزم قريش في المعارك التي خاضتها مثل معركة الفجار وذات كهف .

ومن صفات قريش انهم تركوا الغزو وعملوا بالتجارة ومع ذلك لم يعترهم البخل الذي عرف به التجار لأن البخل خلقة في الطباع . وفي هذا القول يطبق الجاحظ فلسفة الطبيعة القائلة بان الاخلاق طباع .

من صفات قريش سمو الخلق ورجاحة العقل والحلم والوداعة والبعد عن الجفاء والغلظة ، وطيب المآكل .

ومن صفاتها ايضاً جمعها بين التدين والفروسية على عكس ما نرى في الروم والترك ، فان هؤلاء عندما اعتنقوا النصرانية التي تنهي عن القتل والقتال والثأر صارت حالهم الى الجبن والقعود عن القتال . اما قريش فقد ظلوا رغم تشددهم في التدين وعزوفهم عن الغزو واشتغالهم بالتجارة على بسالتهم وفروسيتهم .

ويحاول الجاحظ أن يستخرج قانوناً يحكم العلاقة بين التدين والبسالة ويطبقه على الخوارج الذين اشتهروا ببسالتهم في القتال فيقول ان سبب ذلك هو عقيدتهم الدينية التي تدعو الى الجهاد وبذل الروح للتخلص من الحاكم الظالم . وهذا ما يفسر لنا استواءهم في النجدة والفروسية رغم اختلاف بلدانهم واعراقهم

ولم يتوقف الجاحظ طويلاً عند خصال هاشم لانه افاض بها في كتاب فضل هاشم على عبد ' مس . وهو يختصر هنا ما اسهب به هناك . ان اهم خصال هاشم « النبوة التي هي جماع خصال الخير واعلاها وافضلها واجلها واسناها » .

ومن خصالهم الملك ، وملكهم من مغرس النبوة لأن العباسيين استمدوا ملكهم من جدهم العباس ، والعباس هو عم النبي ، والعم وارث كالأب .

ومن خصال هاشم طول سني ملكهم الذي يناهز ، عدا حكم علي بن ابي

طالب حتى ايام الجاحظ ، مائة وست عشرة سنة .

ومن خصال هاشم ان الأذكار فيهم غالب ، مع كثرة الولد وقد احصي آل ابي طالب فكانوا نحو الفين وثلاثماية . أما في سائر البلدان عدا خرسان فلا نجد الا مئناثا. ولذا كان عدد الاناث اكثر من عدد الذكور ولهذا السبب احل الله للرجل ان يتزوج اربع حرائر وما ملكت يمينه من الاماء لكي لا تبقى امرأة دون زوج .

ومن خصال هاشم الشجاعة ومنازلة الاقران والتقى . فكان علي بن ابي طالب اشجع الناس واكثرهم فتكا بالرؤساء والسادة والقادة . وكان اسبقهم الى الاسلام وازهدهم في الاموال .

اما مكة فهي المدينة المقدسة ، وفيها بيت الله الحرام الذي يضم الحجر الاسود . وفيها ايضاً بئر زمزم الذي يشرب منها البدو والحضر .

وبسبب قدسيتها لم يطأها عدو ظالم الا قهره الله . فصاحب الحبشة رام تدنيسها فارسل الله على جيشه جماعات الطير ترميهم بالحجارة . ولذا عاش اهلها احراراً لم يخضعوا لطاغية او غاز ولا يؤدون الاتاوة لأحد .

واذا دخلها ملك فلاجل تأدية فريضة الحج او التبرك والتعظيم كما فعل تبع ملك اليمن وبعض ملوك غسان ولخم .

ان الجاحظ يكتب صفحة من تاريخ مكة يحاول ان يظهر فيها ان تلك المدينة المحرمة لم تقهر ولم تغلب ولم تدسها اقدام الطغاة منذ القدم . وأن اهلها من قريش أعز الناس وأفضلهم أخلاقاً .

بعد مكة يتحدث ابو عثمان عن المدينة ، فيلاحظ انها تختص بخاصة فريدة هي طيب تربتها وهوائها . فان من يمر بها يشم رائحة زكية تفوح من حيطانها وارضها لا تشبهها رائحة في الدنيا . ولذا صنعوا الخرز والعقود من بلحها واترجها تحملها الصبيان والنساء في اعناقها . ولذا سميت طَيْبة .

وثمة ميزة اخرى للمدينة هي خلوها من الطاعون والجذام وهذا راجع الى طيب هوائها .

والميزة الثالثة التي نقع عليها في المدينة هي شهرتها في الفقه حتى قال عبد الملك بن مروان يمدح روح بن زنباع : « جمع ابو زرعة فقه الحجاز ، ودهاء العراق ، وطاعة اهل الشام » .

والبلد الثالث الذي تكلم عليه ابو عثمان هو مصر التي ورد ذكرها في القرآن . . وكان ملكها القديم يدعى فرعوناً . وتشتهر مصر بمنف او قصرالفرعون المصنوع من الحجر الصلد . كما تشتهر بمهارة اهلها في السحر . ويشير الجاحظ الى خراجها الضخم الذي يدل على خصبها والبالغ اربعة آلاف دينار .

وبعد مصر تحدث ابو عثمان على الكوفة والبصرة في العراق . واورد قول زياد الجامع في صفاتها : « الكوفة جارية جميلة لا مال لها ، فهي تخطب لجمالها ، والبصرة عجوز شوهاء ذات مال فهي تخطب لمالها » . والبصرة خير من الكوفة لأنها اوسع ارضاً واكثر عدداً وادنى الى البحر وانقى هواء واخصب تربة واكثر عمرانا .

وماء البصرة عذب صاف عندما يبيت في القلل . والآجر الذي تصنع منه البيوت اصفر ، وبين الآجر يوضع الجص الابيض فتبدو المنازل اقرب الى الفضة بين تضاعيف الذهب .

وماء الكوفة أسرع الى الجفاف . ومعظم الكوفة خراب يباب تشبه قرية من القرى يسمع قربها ضباح الثعالب واصوات السباع .

ونخيل البصرة اكثف واجمل ولا تجد نخلة في الكوفة الا واعوجت كالمنجل .

واسواق الكوفة تدل على فقر اهلها ، وهم يكرهون اهل البصرة اكثر مما يكرههم هؤلاء . وأهل البصرة احسن جواراً واقل بذخاً واقل فخراً » .

ويتحدث الجاحظ على الأوضاع الاقتصادية في البصرة والكوفة ويقارنها بأوضاع الشام ومصر وبغداد وغيرها . فيجد الأموال غزيرة في الشامات والاشياء رخيصة لبعد المنقل وقلة عدد السكان ، ولأن ما تنتجه ارضهم يفضل عن حاجتهم اما الاهواز وبغداد والعسكر فكثيرة الدراهم والمبيع لكثرة عدد السكان . واما في البصرة فالاثمان مقبولة ويكلف بناء الدور نصف ما يكلف بناء مثلها في بغداد . ويدخل ميناءها كل يوم نحو الفي سفينة . ويوجز خصائص البصرة بقوله : « ولم نر بلدة قط تكون اسعارها ممكنة مع كثرة الجماجم بها الا البصرة : طعامهم اجود الطعام ، وسعرهم أرخص الاسعار ، وتمرهم أكثر التمور ، ورِيع دبسهم اكثر ، وعلى طول الزمان أصبر ، يبقى تمرهم الشهريز عشرين سنة . . » .

وفي آخر الرسالة شيء عن الحرة في العراق ، وهي لا تحظى برضا الجاحظ ، إنها بيضاء اللون ، وتربتها غبراء مشربة سواداً ، وهي باردة الطقس شتاء ، حارة صيفاً . ولا يرى فيها داراً تذكر سوى دار عون النصراني العبادي .

وللجاحظ رسالة أخرى عنوانها « الحنين الى الاوطان » . وقد شك السندوبي في نسبتها الى الجاحظ بينما اكد عبد السلام هارون تلك النسبة ولم يقطع بروكلمان في الأمر . ويبدو لي انها منحولة لأن موضوعها أي تعلق الانسان بوطنه قد طرقه الجاحظ في كتاب : الأوطان والبلدان ، وتناوله في القسم الأول منه . وليس من الحكمة في شيء اعادة معالجته مجدداً . وهذه الرسالة اعني الحنين الى الاوطان تخلو من الاصالة الفكرية التي نلفيها في كتاب « الأوطان والبلدان » حيث نجد الجاحظ ينم عن عمق في التفكير وحرص على ربط الظواهر باسبابها . اما في الرسالة فلا شيء سوى جمع اقوال واشعار وأحاديث تتعلق بحب الانسان وطنه .

وفي الرسالة نعرة شعوبية، والجاحظ كان خصماً عنيداً للشعوبية . وهذه النعرة تبدو من قول منسوب الى اعرابي موجه للجاحظ ظاهر الاضطراب

والتناقض . فهو يقول للجاحظ : « لعن الله ارضا ليس بها عرب » ثم يقول : « ان هذه العريب في جميع الناس كمقدار القرحة في جلد الفرس ، فلولا ان الله رق عليهم فجعلهم في حشاة لطمست هذه العجم آثارهم . أترى الاعيار اذا رأت العتاق لا ترى لها فضلاً والله ما امر الله نبيه صلى الله عليه وسلم بقتلهم ، اذ لا يدينون بدين ، الا لضنه بهم ، ولا ترك قبول الجزية منهم الا تنزيهاً لهم » . وهو يتهمهم بالضعف : ولولا الفلاة التي تحميهم لقضى عليهم العجم ، كما يتهمهم بالكفر . ولو كان الكتاب للجاحظ لرد على هذا الاعرابي . او اعترض على مزاعمه .

وتبدو الشعوبية في ناحية أخرى من الرسالة هي تمجيد الفرس واليهود وذكر مآثرهم واخبارهم وحبهم لاوطانهم رغم استيلائهم على بلدان كثيرة غريبة .

وثمة دليل آخر على نحل الكتاب هو كلف صاحبه بالالفاظ الغريبة المتكلفة التي يكرهها الجاحظ ويدعو الى الفصاحة في اللفظ ، والابتعاد عن الاغراب والوحشية والتكلف البياني ، مثل الجناس والطباق . وهذا التكلف يبدو في كلام الاعرابي « اني والله غاوي إعباب ، لاصق القلب بالحجاب ، مالي عهد بمضاغ الا شلو يربوع وجد مممعة مني ، فانسلت ، فاخذت منه بنافقائه وقاصعائه ودامائه وراهطائه . . . » .

٣ ـ مقدمة العثمانية

وضع الجاحظ هذه الرسالة الطويلة لتبيان حجج العثمانية في تأييد خلافة أبي بكر الصديق . وهذا التأييد يقوم على تفضيل ابي بكر على علي بن ابي طالب فمن ثبت انه افضل من علي كان احق منه بالخلافة . والعثمانية فرقة من الفرق الاسلامية نشطت في عصر الجاحظ وكانت تقف في وجه الحركة الشيعية التي اشتد ساعدها في ذلك العصر ايضاً وراحت تبث دعايتها وتروج لمبادئها التي تدور حول الامامة واحقية علي وابنائه فيها . فكان لا بد للحركة المناوئة لها التي اتخذت اسم العثمانية ـ أي أتباع عثمان ـ أن تنهض للرد على الشيعة والوقوف في وجههم ودحض حججهم المؤيدة لعلي وابنائه بالخلافة بعد النبي .

ان افضلية أبي بكر على علي ترتكز الى الحجج التالية :

١ ـ انه افضل الناس اسلاما بشهادة النبي وعلي وابن عباس. واذا كان علي قد اسلم قبل ابي بكر كما يقول شيعته فانما اسلم وهو ابن سبع سنين عندما كان حدثاً غريراً ، واسلامه لا يلحق باسلام البالغين ، بل كان اسلام تقليد لا اسلام تمييز ومعرفة . ولو سلمنا انه اسلم وهو بالغ في الرابعة عشرة او الخامسة عشرة كما يدعي الشيعة فان اسلامه يظل ادنى من اسلام ابي بكر وزيد ابن حارثة وخباب بن الأرت لأن اسلام هؤلاء لم يكن عن عادة ومحاكاة مثل

اسلام علي . واسلام هؤلاء يفضل اسلام علي من وجه آخر ، وهو ان علياً اسلم وهو يعلم ان له ظهراً يقيه كأبي طالب وبني هاشم ، بينما اسلم هؤلاء وهم ضعفاء لا نصير لهم .

٢ ـ كان ابو بكر قبل إسلامه عريض الجاه غنياً سيداً ، فلما اسلم فقد جاهه وثروته وتعرض للاهانة والضرب والتنكيل . اما علي فلم يكن صاحب ثراء يخشى عليه ، ولم يتعرض للعنت والأذى من المشركين .

٣ ـ كان أبو بكر صاحب النبي الأوحد عندما هاجر من مكة الى المدينة فراراً من أذى المشركين الذين قرروا قتله . وقد ذكر له القرآن هذه المكرمة . ولا يضارع هذه المكرمة نوم علي في فراش النبي في تلك الليلة لأن النبي قال له : نم فلن يخلص اليك شيء تكرهه .

٤ ـ بذل أبو بكر في سبيل الاسلام اكثر مما بذل علي . لقد بنى مسجداً قرب بيته يصلي فيه ويدعو الناس الى الاسلام بصوته الرقيق المؤثر ويقرأ القرآن ويبكي فيتوقف المارة يصغون اليه . وقد اسلم على يديه عدد غفير من الناس منهم طلحة والزبير وسعد وعثمان وعبد الرحمن ، خمسة من اهل الشورى . وقد انفق ماله البالغ أربعين الف درهم في سبيل نصرة الاسلام .

٥ ـ ان حجة الشيعة في تفضيل علي شجاعته وفروسيته وفتكه بالأعداء أثناء المعارك . ولكن كثرة القتل ليست فضيلة بالضرورة ، لأن النبي لم يشتهر بالفروسية ولم يقتل سوى رجل واحد . وقد يبعث على الاقدام الغرارة والهوج والحمية والشهرة . وقد بالغ الشيعة في التحدث عن قوة من فتك بهم علي امثال عمرو بن ود يوم الخندق والوليد بن عتبة بن ربيعة يوم بدر . فلم يكن هؤلاء اشجع من غيرهم . أضف الى ذلك ان ابا بكر ثبت يوم احد الى جانب النبي كما ثبت علي فلا فخر لاحدهما على الآخر في الشجاعة .

وقد الف ابو جعفر الاسكافي (٨٥٥ م) المعتزلي رسالة ينقض فيها العثمانية وينتصر لعلي سماها : نقض كتاب العثمانية . وهو يعرض لآراء

العثمانية واحداً تلو الآخر وينقضها . ويبين في مقدمة رسالته الحملات التي شنت على علي من قبل جميع الفرق « من خارجي مارق ، وناصبي حنق ، ونابتي مستبهم ، وناشيء معاند ، ومنافق مكذب ، وعثماني حسود يعترض فيها ويطعن ، ومعتزلي قد نظر في الكلام وابصر علم الاختلاف وعرف الشبه ومواضع الطعن وضروب التأويل ، قد التمس الحيل في ابطال مناقبه وتأويل مشهور فضائله . . » .

ان حجة العثمانية التي تقول ان ابا بكر اقدم الناس اسلاماً باطلة ، ولو كانت صحيحة لاحتج بها ابو بكر يوم السقيفة . ورواية ابن عباس ان ابا بكر أولهم اسلاماً تنقضها رواية صادرة عنه ايضاً . وقد روي عن النبي انه قال لابنته فاطمة : لقد زوجتك أقدم الأمة اسلاماً . رواه إبن عباس وغيره .

وقد كثرت الروايات في السن التي أسلم فيها علي وتراوحت بين تسع سنين وخمس عشرة سنة . والصحيح انه أسلم وهو بالغ قد ناهز الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة . وفي هذه السن يكون قد اكتمل عقله وقدرته على التمييز بين الحق والباطل والخير والشر . ويسقط قول العثمانية بانه اسلم عن تلقين وتقليد . ولم يسبقه احد الى الاسلام اذ استنبيء النبي يوم الاثنين واسلم علي يوم الثلاثاء . وقد قال في ذلك : صليت قبل الناس سبع سنين .

اما حجة العثمانية بان أبا بكر احتمل من الأذى في سبيل الدين اكثر مما احتمل علي لأن علياً كان ذا ظهر يحميه من بني قومه فغير صحيح ايضاً . لأن قوم علي كانوا اكثر الناس عداء للنبي وعلي وسائر المسلمين أمثال عمه ابي لهب وامرأته ، وعقبة بن ابي معيط ابن عمه الخ . ولم يكن لابي بكر قرابة تؤذيه ، مثل علي ، ولا نعلم انه تعرض للأذى الشديد ، لأن العذاب كان ينصب على عبد او عسيف او على من لا عشيرة تمنعه .

وأما حجة العثمانية في صحبة أبي بكر للنبي ليلة الهجرة وانها افضل من نوم علي في فراش الرسول في تلك الليلة لأنها مذكورة في القرآن فباطلة ايضاً ،

لأن القــرآن أشـار اليهــا ﴿ واذ يمكـر بـك الـذين كفــروا ليثبتـوك او يقتلوك او يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خـير الماكـرين ﴾ والحديث الـذي نسـبه العثمـانية الى النبي يأمر علياً بالاصـطجاع محـرف . والآية التي استشهـد بها العثمـانية عـلى فضـل ابي بكـر﴿إذ يقول لصـاحبـه لا تحـزن ان الله معنا﴾هي ضدهم لانها تفيد ان ابا بكر خاف وحزن ، وهما صفتان خسيستان .

اما حجتهم في فضـل أبي بكـر عـلى الاسـلام من حيث دعـوة النــاس اليه واسلامهم على يديه فغير صـحيحة لأنه عجز عن اقناع ابنه عبـد الرحمن الـذي ظل على كفره حتى يوم الفتح . وكذلك امـرأته . ومن عجـز عن ابنه وامرأته فهـو عن غيرهما أعجز . وقل الشيء ذاته في انفاق ماله عـلى نوائب الاسـلام وهو الـذي باع من رسول الله بعيرين عند خروجه الى يثرب واخذ منه الثمن .

واخيرا احتج العثمانية بان شجاعـة علي لا تعـد فضيلة لأن الشجاعـة ليست فضيلة ولأن النبي لم يكن فارساً شجاعاً ولم يشترك في المعارك . وهذه فرية عظيمة على النبي وعلي ، لأن النبي أشجـع البشر وقد خـاض الحروب وثبت في المعـارك . وكيف لا تكون الشجاعة فضيلة وقد نهضت عمد الاسلام عـلى القتال والاقـدام . والفـرسـان الـذين قتلهم عـلي اشهـر من ان يعـرفــوا ، وقـد حفلت كتب السـير باخبارهم . فـابن اسحق يروي القصـائد الـطوال التي انشدت في اقـدام عمرو بن ود العامري وشجاعته . وكذا القول في الوليد البـطل الشجاع . وادعـاء العثمانيـة بـان ابا بكـر ثبت مع النبي كعـلي يـوم أحـد فـباطـل لأنـه لم يبق معـه سـوى عـلي وطلحة والزبير وابو دجانة .

وابو جعفر الاسكافي عندما يقدم هـذا الدفـاع الجدلي عن عـلي بن ابي طالب يحدد موقفه بقوله : « اننا لا ننكر فضل الصحابة وسوابقهم ، ولسنا كـالاماميـة الذين يحملهم الهوى على جحد الامور المعلومة ، ولكننا ننكـر تفضيل احـد من الصحابة على علي ابن ابي طالب ، ولسنا ننكر غير ذلـك ، وننكر تعصب الجـاحظ للعثمانية وقصده الى فضائل هذا الرجل ومناقبه بالرد والابطال » .

فالاسكافي اذاً ليس من الشيعة الامامية الذين يجحدون فضائل أبي بكر وعمر وعثمان ، وانما هو معتزلي زيدي المذهب يعترف بفضائل الخلفاء الراشدين المذكورين مع تفضيل علي عليهم ويقول مثل الزيدية بجواز خلافة المفضول مع وجود الافضل .

بعد الاسكافي بثلاثة قرون نهض أحمد بن موسى بن جعفر بن طاووس احد فقهاء الشيعة الامامية ومحدثيهم لنقض رسالة الجاحظ برسالة اسماها« بناء المقالة الفاطمية في نقض الرسالة العثمانية » [1] وفيها يرد على الجاحظ بكلام مقذع ، فيرميه بالنصب والكذب والجهل والفسق الخ . . . ويقول مثلاً « انك اذا تأملت تقرير قواعد كتاب الجاحظ رأيته مبنياً على الباطل ، اذ سمى فرقة بالعثمانية ، ثم جعل ينطق بغير الصواب عنها ملقحاً الفتن بينها وبين الفرقة الامامية، متعدياً قواعد الحرورية » [2] . .

وهو يرفض ما جاء في رسالة العثمانية للجاحظ من ان اسلام ابي بكر افضل من اسلام علي لانه اسلم وهو صغير ، ويقول هذا غير صحيح ، لأنه اسلم وهو عاقل مميز ناهز الخامسة عشرة من عمره او السادسة عشرة [3] .

ولا يرى في تضحيات أبي بكر في سبيل الاسلام من انفاق المال وتحمل الأذى والضرب والتهجير ما يجعل اسلام ابي بكر افضل من اسلام علي « لأن هذا شيء لا تعلق له بتقدم الاسلام ، ولا يشرف اسلام هذا من اسلام ذاك ، اذ الذي يدعي وقوعه من الضرب كان بعد الاسلام لا معه » [4] . ثم ان ما بذله أبو بكر من ماله وما اعتقه من المعذبين « فمما لا يثبت برهانه » [5] . اذ لم

---

(١) حققها ونشرها الدكتور ابراهيم السامرائي (دار الفكر للنشر والتوزيع ، عمان ، الأردن، ١٩٨٥).

(٢) المصدر ذاته ، ص ٢٦ .

(٣) المصدر عينه ، ص ٢٧ .

(٤) المصدر عينه ، ص ٣٦ .

(٥) المصدر عينه ، ص ٣٨ ـ ٣٩ ؛ ٤٤ .

ينفق درهماً واحداً .

اما صحبة ابي بكر للنبي واللجوء الى الغار فليست فضيلة له لأنه كان خائفاً جباناً . ومجرد الصحبة لا يقارنها مدح ولا ذم . ومبيت علي في فراش النبي دليل على الشجاعة والتضحية بالنفس في سبيل الدين . وينكر ما روي عن النبي من انه قال لعلي : ليس يصل اليك شيء تكرهه [١] .

ويؤكد ابن طاووس ان الشجاعة والاقدام في الحرب فضيلة لا بد منها للرئيس . ويرفض ادعاء العثمانية انها ليست فضيلة وحجتهم ان النبي لم يشتهر بها ولم يقتل سوى واحد [٢] . ويذكر في هذا الصدد حديثاً عن ابي جعفر محمد إبن علي يقول : « نادى مناد من السماء يوم بدر يقال له رضوان : لا سيف الا ذو الفقار ولا فتى الا علي » [٣] .

وحجة ابن طاووس في تقديم علي على ابي بكر وسائر الصحابة تعتمد على حديث رواه عن النبي ابو اسحق الثعلبي عن الحسن بن محمد وهذا نصه : « لما نزلت الآية ﴿ وانذر عشيرتك الأقربين ﴾ ، انذرهم رسول الله فقال : يا بني عبد المطلب ، اني انا النذير اليكم من الله ، والبشير لما يجيء به أحد ، جئتكم بالدنيا والآخرة ، فاسلموا واطيعوا تهتدوا . ومن يؤاخيني ويؤازرني يكن وليي ووصيي بعدي ، وخليفتي في اهلي ، فسكت القوم ، واعاد ذلك ثلاث مرات ، وفي كل ذلك يسكت القوم ويقول علي انا ، فقال : انت » [٤]

لقد اتهم كل من إبي جعفر الاسكافي وابن طاووس الجاحظ بالنصب والتعصب للعثمانية وابطال فضائل علي . وقد اشار الجاحظ في مقدمة كتاب

---

(١) المصدر ذاته ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .
(٢) المصدر ذاته ، ص ٥٠ ـ ٥١ .
(٣) المصدر ذاته ، ص ٥٤ .
(٤) المصدر ذاته ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

الحيوان الى هذه التهمة التي رمي بها لأنه قرأ دون شك رسالة الاسكافي التي تنقض العثمانية ، ونفاها بقوله انه عرض اقوال العثمانية وردودهم على الشيعة ، وهذا العرض لا يجعله عثمانياً ، كما لا يجعله زيدياً عرضه لآراء الزيدية ، وخارجياً عرضه لاقوال الخوارج الخ . .

والحق ما قاله الجاحظ لا ما قاله الاسكافي وابن طاووس . فهو ليس عثمانياً وانما هو معتزلي . وقد ظهر موقفه المحايد ، في رسالة العثمانية ، من المفاضلة بين ابي بكر وعلي ، في قوله : « فان كان ما رويتم (الضمير عائد على الشيعة) في فضيلة علي حقاً ، وما رووا (العثمانية) في فضيلة ابي بكر حقاً ، فابو بكر خير من علي ، وعلي خير من ابي بكر ، وهذا هو التناقض ، والحق لا يتناقض » . فهو يشك في اقوال العثمانية والشيعة ، لأنها اذا كانت جميعها صحيحة وقعنا في التناقض والحق لا يتناقض . وضرب امثلة على الاحاديث المتناقضة لدى الفريقين .

وبما ان موضوع الخلاف بين الشيعة والعثمانية هو الامامة ومن هو الشخص الذي يصلح لها ومن يقيم الامام فقد اوضح الجاحظ نظريته الاصيلة في الامامة في آخر الرسالة ، بعد ان فرغ من سرد حجج الشيعة والعثمانية بصددها . وملخصها أنه يجب على الناس ان يقيموا إماماً لأنه لا بد من وجود الامام ليحق الحق ويفصل بين الناس ويرشدهم . وان العامة لا تصلح لاقامة الامام لانها لا تعرف معنى الامامة وتأويل الخلافة وضرورتها وسبيلها ، ولأنها تنقاد لأهوائها ولا تميز بين من يصلح لها ومن لا يصلح . وان الخاصة مكلفة باقامة الامام اذا لم يمنعها مانع من ذلك كبغي المتغلب ، وغموض امر المستحق ، واختلافهم فيما بينهم . وان المستحق للامامة لا بد أن يعرف لأنه اكمل الناس واكمل الناس لا يخفى علمه وفضله كما بان عمرو بن عبيد عند المعتزلة ، ومرداس بن ادية عند الخوارج الخ . . وهذا الوجه في اقامة الامام يختلف عن الوجه الذي تمت فيه اقامة الناس لابي بكر ، والوجه الذي تمت فيه الشورى

لاقامة عثمان . وكذلك يختلف عن اقامة الامام بالوصية والقرابة كما يذهب الشيعة . وقد التقى الجاحظ مع العثمانية في القول بعدم اقامة الامامة على القرابة .

٤ ـ مقدمة رسالة الحكمين وتصويب أمير المؤمنين علي بن ابي طالب في حكمه .

موضوع الرسالة سياسي ، وهو الخلاف الذي نشب بين الامام علي بن ابي طالب ومعاوية بن ابي سفيان حول الخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان الخليفة الثالث ، والذي بلغ ذروته في معركة صفين وما آلت اليه من التحكيم الفاشل .

ويسارع الجاحظ الى التأكيد على انه لا يريد ان يبخس معاوية خصاله من العقل والحلم والدهاء والفهم والجزم والبيان وكتابة الوحي وتولية عمر اياه ارباع الشام وتثبيت عثمان ذلك له وتزكيته في حسن تدبيره الأمور . ولكن هذه الخصال لا تكفي لاستحقاق الامامة . فالامامة لا تستوجب الا بالتقدم في الفضل والسوابق ، على ان يكون ذلك الفضل ظاهراً ومشهوراً عند الناس ، او بالشورى ، أو بالميراث ، او بالوصية ، او باجتماع القرابة وحرمة العترة بالاضافة الى الخصال الكريمة . هذه الوجوه الخمسة لاقامة الامام عددها الجاحظ لانها تمثل آراء اهم الفرق في عصره . فالمعتزلة قالوا بالوجه الأول وقد عرضه الجاحظ في رسالة العثمانية ، والعباسيون قالوا بالوجه الثالث وقد بسطه الجاحظ في رسالة العباسية ، والشيعة الامامية قالوا بالوجه الرابع ، والزيدية قالوا بالوجه الخامس . اما الوجه الثاني او الشورى فقد نادى به اهل السنة والجماعة .

ومعاوية لا ينطبق عليه وجه من هذه الوجوه الخمسة ، فهو لم يتقدم في الاسلام وليس من اصحاب السوابق وانما هو رجل من عرض المسلمين ومن الطلقاء ، واذا كتب الوحي فقد شاركه فيه وسبقه اليه العديدون امثال ابن ابي سرح وزيد بن ثابت وحنظلة الأسدي وعلي ابن ابي طالب ولم يدع احدهم الامامة بسبب الكتابة . وليس من اهل الشورى ولا الميراث ولم يوص له بها .

وقد ادعى معاوية الخلافة زاعما انه اولى الناس بالمطالبة بدم عثمان ومن يطالب بدم الخليفة أحق الناس بالخلافة . وليس هذا سبباً كافياً للامامة . وقد اعتمد معاوية على القوة والبطش للوصول الى الخلافة ، كما استند الى موقف سعد بن ابي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب . واستغل للوصول الى غايته انتشار جند علي وعدم تماسك جنده ؛ ولجأ الى الترغيب بالمال والمناصب ليستميل الناس اليه . واحتال برفع المصاحف على رؤوس الرماح ليخدع جند علي ويشق صفوفهم ، واستفاد من دهاء عمرو بن العاص ومواقف ابي موسى الاشعري في التحكيم او انقلابه على علي .

ويتوقف الجاحظ عند دور ابي موسى في التحكيم ، ويرى كما رأى النظام قبله ان ابا موسى لم يكن غبياً كما يقول الشيعة بل كان عاقلاً صحيح التدبير سديد الكيد متفقها في الدين عالما بالقياس والحجج مشهوراً بالحلم وكان والياً ناجحاً للخلفاء السابقين وقائداً للفتوح . كما يرى أنه خلع علياً في التحكيم لأنه انقلب عليه ومال الى موقف سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وصهيب بن سنان وأسامة بن زيد من النهي عن القتال وتحريمه ، واسر ان تصير الخلافة الى عبد الله بن عمر بن الخطاب . وفضل قحطان على عدنان .

واذا كان ابو موسى على هذه الحال فلم اختاره علي ليمثله في التحكيم ؟ . وهنا يرفض الجاحظ كما رفض النظام استاذه دعوى الشيعة بانه حمل على القبول به حملاً لا خيار له فيه نزولاً عند رغبة اليمانية المؤيدين لابي موسى ، لأن ابا موسى لم يكن له أنصار اقوياء يفرضونه فرضاً على الخليفة ، ولم يكن علي ضعيف

الرأي ليقبل ان يمثله في التحكيم عدو مرصد . وانما قبل علي بالتحكيم تلافيا للشقاق يدب في صفوف عسكره بسبب رفع المصاحف ويوم نادى منادي معاوية : « اخرجوا الينا قتلة عثمان » ، فابتلي علي « بعقد لا سبيل الى حله وبقفل لا حيلة في فتحه » فلو سلمهم قتلة عثمان لامتنعوا بعشائرهم الذين قالوا « كلنا قتال عثمان » ولتواثب بعض عسكره على بعض ، ولانقضّ عليهم معاوية وفتك بهم . ولو قال كذبوا لم يكن ذلك تدبيراً لأن السواد الأعظم ومنهم اصحاب الحديث والقضاة والنوابت استنكروا قتل عثمان وطالبوا بالاقتصاص من قتلته . وان قال صدقوا خلعه من يرى الوقوف في عثمان وعلي ، ومن يرى تبرئة علي ويدعي ان قتل عثمان من طاعات الله وهم أشد أنصاره . فكان قبول التحكيم هو المخرج الوحيد المفتوح امامه .

والمسألة الثانية بعد التحكيم التي وقف عندها الجاحظ هي ترك علي للقتال . وقد اتهمه خصومه بانه ترك القتال اما جبنا واما طمعاً في توبة معاوية وعمرو واما ندماً على ما اراق من دماء . وكل هذا من سوء التدبير والعجز .

بيد ان الجاحظ يرد جميع هذه التهم لأن علياً « اشد الناس قلباً واشراً واكثرهم للاقران قتلاً » . ولأنه كان يدرك خدعة معاوية وعمرو وقد حذر اتباعه في خطبه منها ودعاهم الى مواصلة القتال . ويرى ان عليا ترك القتال عندما تحقق من تفكك عسكره ومللهم الحرب ، وسأمهم مقارعة الشر ، وبعدهم عن اوطانهم وعيالهم ، بعدما قال كبراؤهم : « لا نعود حتى نشمر الكراع ونحد السلاح ونجبي المال » .

والمسألة الثالثة التي عالجها الجاحظ هي « كتاب القضية » وهو الاتفاق الذي زعم خصوم علي انه تم بين علي ومعاوية على تحكيم عمرو بن العاص وابي موسى الاشعري في ما شجر بينهما . وقد أثبت الجاحظ هذا النص وحلله فوجد انه مدخول وغير صحيح . فالفاظه تخلو من الفصاحة والبلاغة ويشيع فيها اللحن مما يدل على انها من كلام المولدين . والشهود مشكوك في نسبهم ومختلف في

إسمـائهم ، والسنة التي ارادوا الرجوع اليهـا لم يردنـا ان الحكمين تذاكرا فيهـا أبداً.

والمسألة الرابعة التي توسع فيهـا الجاحظ هي احتجـاجات السفيـانية ، اتباع معاوية ، لحقه بالخلافة . لقـد ذهبوا الى ان الخلافة شـورى كما ارتـأى عمر بن الخطاب عندمـا اختار ستة رجال وامـرهم باختيـار الخليفة بعـده ، منهم . ولم يبق منهم سـوى اربعة وكلهم لا يصلحـون للخلافـة . فسعـد بن ابي وقـاص لا يستحقها لأنه « جليس لا يـرى ان يدفـع ضيماً ولا يمنـع حريمـاً » . وطلحة والـزبير لا يصلحان لها لأنها بايعا علياً ثم نكثا البيعة . واما عـلي بن ابي طالب فقـد سقط حقه فيها لاشتراكه بدم عثمان وحمايته قتلته ولأنه لم يعمل بالشـورى ولم تجمع عليـه الناس .

ومعاوية برأي اتباعه اولى بالخلافة من بقيـة الشورى لأنـه ابرأهم سـاحة من العيـوب التي رموا بهـا ولأنه اولى من انتـدب لحسم الخـلاف وتسلم مقـاليـد الملك وتفـريج الكـرب عن الناس ، ولأن عمـر ولاه وعثمـان زكـاه ، ولأنـه اولى النـاس بالمطالبة بدم عثمان الخ . . .

وقد رد الجاحظ على هذه الحجج بقولـه ان معاويـة لم يدل بهـذه الحجج التي تلهج بها السفيانة . ولو احتج بهـا معاويـة لرواهـا اصحاب الاخبـار والسير امثـال الزهري ومحمد بن اسحق وقتادة وغيرهـم . ويرى ان هـذه الاحتجاجـات من عمل المتكلمين المتأخرين .

ثم ان حجة السـفيانية بان خلافة علي باطلة بسبب عدم توافـر الاجماع عليهـا لا قيمة لها . لأن الاصل في القضية هو توافـر الفضيلة ، فاذا وجـدت فعلى النـاس الاجماع على صـاحبها ، فـان اختلفوا فـالحق لا يزول وعـلى صاحبـه الصبر . وقـد كان فضل علي ظاهراً ، واذا كانوا اختلفوا فيه فقد أصـاب الموافق واخـطأ المخالـف ولم يضم ذلك علياً .

وكـذلك حجـة السـفيانيـة بان خـلافة عـلي باطلة لانها لم تنـل بالشـورى لأن

عليا لم يجمع بقية الشورى ليختاروه ، ساقطة ايضاً، لأن تلك الشورى ارتآها عمر وليس علي ملزماً بالعمل بها .

واما حجة السفيانية بان حق علي بالخلافة قد سقط لاشتراكه بدم عثمان فتجن مطلق ، لأن علياً لم يشترك بدم عثمان ولم يحرض على قتله ولم يعن عليه .

بقي الاعتراف بحق علي بالخلافة للقدم في الاسلام والفضائل التي امتاز بها من زهد وفقه وشجاعة وتضحية في سبيل الدين اضف الى ذلك الرواية والقرابة .

واذا كان السفيانية قد ضلوا السبيل في موقعهم من علي ومناصبتهم إياه ، فان الشيعة والخوارج قد غفلوا بدورهم عن تدبيره . فالشيعة اخطأوا في تأويلهم لتدبيره في قضية الحكمين وحرب صفين كما مر معنا ، والخوارج جهلوا تدبيره ايضاً مرتين الاولى عندما دعاهم الى مواصلة القتال إثر رفع المصاحف فاحجموا وقالوا لنحكم كتاب الله بيننا ، والثانية عندما دعوه بعد التحكيم الى استئناف القتال فرفض لتشتت جيشه ، فكفروه وحاربوه .

اما موقف الجاحظ الخاص فقد حدده بقوله انه ينطلق من مبدأ المعتزلة في المنزلة بين المنزلتين ، اي التوسط في الاحكام بين الافراط والتفريط ، وبين الايمان والكفر في حق مرتكب الكبيرة . فالمعتزلة لا يغلون كالخوارج فيكفرون علياً ، ولا يقصرون كالمرجئة فيطلقون الحكم ويتركون الامر لله . وانما يقتصدون ويتوسطون « وهذا الاشتقاق ، وهو التوسط والاقتصاد هو الاعتزال لغلو من غلا وتقصير من قصر » والاصل الذي نبني عليه امورنا فيمن ليس عندنا كعلي وسابقته وأرومته وكامل خصاله بل في ادنى رجل من اوليائنا ، انا متى وجدنا له عملاً يحتمل الخطأ والصواب لم يكن لنا ان نجعل عمله خطأ حتى يعيينا فيه وجه الصواب ، وليس لنا بعد ان قضينا بانه خطأ ان نقضي بانه خطيئة حتى يعيينا القدر بانه سليم من طريق المآثم ، فان قضينا بانه اثم فليس لنا ان نقضي بانه ضلال ونحن نجد لصرف الدفع عنه انه ضلال الى الاثم متحملاً ، وان قضينا بانه ضلال فليس لنا

ان نقضي بـانه كفـر الا بعد ان نجـد من ذلك بـدأ فيكون الحق احق مـا قضي به وصبـر عليه . فمن كـانـت ـ حفظك الله ـ هـذه سيرتـه وطريقتـه في ادنى اوليائـه ، فكيف تـظنه في ارفـع اوليائـه ؟ فهذا مـا لا يحل لي ان اظنـه بعلي بن ابي طـالـب ، فان كان عنـدك برهـان واضح ودليـل بين يكشف لنـا عن الحال حتى يتبـين به انـه كان سبباً في اراقة دمه ، فعلينا السمع واليقـين والاقرار ، وعليـك البيان والافهـام بالدليل والحرص » .

لقد اوضح الجاحظ في هذا المقطع طريقـة المعتزلـة في الحكم على النـاس بمن فيهم عـلي . وهي طـريقـة تتسم بـالاعتـدال وتتجنب الغلو والتقصـير ، وتضـع درجات في سلم الأعمال تتوسط بين الكفر والايمان وهـذه الدرجـات هي الصواب والخطأ والخطيئـة والاثم والضلال . ثم تلتـزم بعدم اصـدار الحكم الا بعد تـوافـر الادلة التي تفضي الى اليقين .

وبناء على هـذه القاعـدة لا يجد الجـاحظ دليلاً كـافياً يتبين منه ان علياً كان سببا في اراقة دم عثمـان ، فيصدر عليـه حكماً بـالكفر . اما معاوية فـلا يستحق الامامة لعدم توافر اسبابها فيه ، وقـد اغتصبـها بـالقوة والخديعة ومختلف الـوسـائل التي تـوافق الكتاب والسنة وتخالفهـا على عكس عـلي الـذي كـان يلتـزم الكتـاب والسنة ولا يلجأ الى المكـائد . واذا كـان الجاحظ لم يجهـر باكفـار معاوية في رسالـة الحكمين فانه كفره صراحة في رسـالة النابتة . لقـد فسق وضل لاغتصابه الخـلافة وكفـر حين جحد حكم الرسول في ولـد الفـراش وادعى ان زيـاد بن سميـة أخـوه (انظر رسالة النابتة ، ضمن رسائل الجاحظ الكلامية ، التي نشرناها) .

والجاحظ يؤكد انه يلزم الحياد بين العلويين والعثمـانيين وانـه ليس ممن « يميل في شق عن شق ، ويتعصـب لبعض عـلى بعض ، ومـن يبخس حق الـدون ، فكـأنـك بـه قـد تبخس حق من فـوقـه حتى تصـير الى أئمتـه المهتـدين وخلفـائـه الـراشـدين ، لست عمـريـاً دون ان اكـون علوياً ، ولا علويـاً دون ان اكـون عثمـانياً ، اللهم الا بمـا اخص به العترة بسبب القرابـة ، واما في غـير ذلك فليس

شأني الا محبة الجميع والتوفير على الكل ودفع الظلامة عن الكبير والضعيف على قدر ما شاهدنا عليه من الحالات . . » .

وهو يعلن ان كتابه هذا ليس من كتب اصحاب الاهواء او المتكسبين او المتقربين ، او من كتب المنافقين والمموهين للباطل . وان غايته هي تبيان الحق والدعوة اليه .

٥ و ٦ ـ مقدمة رسالة فضل هاشم على عبد شمس

ورسالة العباسية

في هاتين الرسالتين يصور الجاحظ الصراع المستحكم بين فخذين من افخاذ قريش على الخلافة . هذان الفخذان هما بنو هاشم وبنو عبد شمس . ويبدو الخلاف بينهما واضحاً منذ العصر الجاهلي في تنافسهما على مقاليد السلطة في مكة الممثلة باللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابة . . وحسم هذا الخلاف لصالح بني هاشم عندما ظهر النبي محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشي يحمل رسالة الاسلام ويبشر بها وينشرها . وبانتصاره على المشركين الذين كان يتزعمهم ابو سفيان بن حرب بن امية بن عبد شمس القرشي . والذي توج بفتح مكة وتسلم النبي محمد مفتاحها . بيد أن الامويين سكتوا على مضض حتى اذا خلف عثمان بن عفان قبضوا على مقاليد السلطة وتوزعوها فيما بينهم لأن عثمان ولى اقرباءه الامويين على الامصار واعتمد عليهم في الحكم . وعندما قتل عثمان على ايدي الثوار وبويع علي أعلن معاوية بن أبي سفيان الأموي العصيان وتمرد على سلطة الخليفة الهاشمي ، وبعد حروب طويلة استتب الأمر لمعاوية على اثر مصرع علي على يد عبد الرحمن بن ملجم الخارجي . ولم ييأس بنو هاشم وراحوا يبثون دعوتهم سراً سحابة حكم بني أمية الذي دام زهاء قرن من الزمان

واستطاعوا اخيراً ان يعلنوا الثورة على الامويين ويقوضوا لحكمهم سنة ٧٥٠ م ويبطشوا ببني امية بطشاً شديداً . وقد انقسم الهاشميون فرعين : ابناء علي بن أبي طالب ، وابناء العباس عم النبي وكل منهما كان يدعو لنفسه ويدعي انه احق بالخلافة من الأخر . وقد اطلق على ابناء علي اسم العلويين وسمي انصارهم بالشيعة . واطلق على ابناء العباس اسم العباسيين . وقد استطاع العباسيون الاستئثار بالسلطة دون العلويين وتأسيس دولتهم الشامخة القوية التي عاشت نحو خمسة قرون من الزمان وانتهت على يد المغول سنة ١٢٥٦ م .

وإبان الحكم العباسي لم يكف انصار الامويين عن النضال في سبيل السلطة والقضاء على الدولة العباسية . وكان هذا النضال يتخذ شكل الدعاية الفكرية السرية ، او شكل الثورات العلنية الدموية . ويبدو من رسائل الجاحظ أن انصار الأمويين نشطوا في القرن التاسع الذي عاش فيه الجاحظ فكان يطلق عليهم اسم النابتة او العثمانية او العمرية او البكرية . فبادر العباسيون للرد عليهم ونقض حججهم ، ولا سيما المأمون والمعتصم وتطوع الجاحظ للاضطلاع بمهمة الرد . فكتب عدة رسائل حول هذا الموضوع ، منها رسالة النابتة ، ومنها رسالة العباسية ، ومنها رسالة فضل هاشم على عبد شمس . وقد فعل ذلك تقرباً من العباسيين اصحاب السلطان .

وقد تكلمنا على رسالة النابتة في مقدمة رسائل الجاحظ الكلامية وقلنا ان النابتة ينتصرون لبني امية ويحنون الى دولتهم ، ويزينون أعمالهم ويدعون لهم . فرد عليهم الجاحظ مبينا سيئاتهم وتهافت حجج انصارهم النابتة .

اما رسالة العباسية فقد وضعها الجاحظ ليبين ان العباسيين احق بالخلافة من سواهم . وبما أنهم أسندوا هذا الحق الى الوراثة ، لذا يركز الجاحظ على هذا المبدأ ليوضح صحته . لقد اعتبر العباسيون الخلافة ارثاً تحدر اليهم عن النبي ، وهم احق بذلك الأرث من ابناء فاطمة بنت النبي لأن البنات لا يرثن الأباء ، بينما الاعمام واولاد الاعمام يرثون .

وقد أنكر العثمانية او البكرية مبدأ الارث في الخلافة وقالوا إنها شورى ، وان النبي لا يورث . واعتمدوا على موقف ابي بكر من فاطمة عندما منعها الأرث إثر موت والدها وقال لها عندما الحت بالطلب واحتجت وتظلمت إنه سمع رسول الله يقول « انا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه ، فهو صدقة » .

وهم يرون موقف أبي بكر من الأرث صحيحاً والدليل على صحته ان الصحابة لم يستنكروه . فتجيب العباسية انه اذا كان ترك النكير دليلاً على صدق دعوى ابي بكر وعمر، فان ترك النكير على المتظلمين والمحتجين والمطالبين دليل على صحة دعواهم او استحسانها . وقد طالبت فاطمة ابا بكر بميراث والدها فمنعها إياه، فاحتجت وألحت وشكت ووجدت ودعت على أبي بكر فلم يردعها احد من الصحابة ولم يصرفها عن الخطأ اذا كانت على خطأ .

وثمة دليل آخر على ان ترك النكير ليس حجة على صدق الدعوى ، موقف عمر من المتعة وحصر الخلافة في قريش . لقد قال عمر من على المنبر : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متعة النساء ومتعة الحج ، انا انهى عنهما ، واعاقب عليهما . فلم ينكر عليه أحد قوله ولا خطأه . وقال يوم السقيفة ان الخلافة في قريش لأن النبي قال : « الائمة في قريش » . ولكنه خالف هذا المبدأ عندما قال شاكياً من الستة الذين حصر فيهم الشورى بعده « لو كان سالم حياً ما تخالجني فيه شك » وسالم ليس قرشياً ، بل هو عبد لامرأة من الانصار . ومع ذلك لم ينكر عليه أحد موقفه او دعواه .

وثمة دليل على صدق دعوى ابي بكر بمنع الأرث عن فاطمة أورده البكرية خصوم العباسيين هو احجام الصحابة عن خلعه والثورة عليه . ولو كان على خطأ لفعلوا به كما فعلوا بعثمان عندما وثبوا عليه وقتلوه .

هذا الدليل باطل بنظر العباسيين لأن ابا بكر عندما منع الارث عن فاطمة لم يجحد التنزيل ولكنه ادعى حديثا نسبه الى النبي ليس محالاً في العقل ولم يثر به الناس لأنهم صدقوه في حديثه لحسن ظنهم به . وقد ثاروا على عثمان ولم يثوروا

على ابي بكر لأن العامة والسفلة لم تهب عثمان كما هابت ابا بكر وعمر ، ولم يستأثر ابو بكر وعمر بالفيء كما استأثر عثمان .

هذه حفنة من الآراء التي أدلى بها كل من العباسية والبكرية أو العثمانية حول أحقية الخلافة . ولم يصلنا من رسالة العباسية سوى بضع صفحات ، ولكنها كافية لاعطائنا فكرة عن الرسالة كلها . إنها تدور حول موضوع واحد هو حق العباسيين في الخلافة دون سواهم ، وان سياقها واحد هو الجدل وقرع الحجة بالحجة بين خصمين هما العباسيون من جهة وخصومهم العثمانية من جهة ثانية .

اما رسالة فضل هاشم على عبد شمس فمناظرة بين الهاشميين والامويين ، كل منهم يفتخر بالرجال الذين انجبهم ويعدد مآثرهم . فهاشم هو الجد المشترك للعلويين والعباسيين . وكان اسمه عمراً وهاشم لقب كريم لقب به لأنه كان يهشم الثريد لقومه في السنين العجاف .

وابنه عبد المطلب سيد الوادي واجل الناس واجودهم ، وصاحب الفيل وزمزم وساقي الحجيج ، وقد ظهرت على يديه كرامات ككرامات الانبياء . فقد دعا الله ان ينصره على الاحباش الذين غزوا مكة فارسل الله عليهم طيراً ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل واستجاب الله لدعائه .

وانجبت هاشم محمداً النبي المصطفى . والنبوة اعظم هبة واقدسها . ولا يضارعها شيء . كما انجبت عبد الله بن عباس وعليا ابن ابي طالب ، والمنصور والرشيد والمأمون والمعتصم وغيرهم من الخلفاء العظام .

واذا افتخر بنو أمية بانه خرج منهم ملوك كبار امثال معاوية ومروان بن الحكم وعبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك وعمر بن عبد العزيز . اجاب بنو هاشم بأن سني ملكهم اطول لأن دولة امية لم تعمر سوى اربع وتسعين سنة . وان اساس ملكهم امتن لأنهم بنوه على الميراث وحق العصبة والعمومة ، وبناه الامويون على النسب القرشي .

ويلخص الجاحظ أسباب الخلافة التي نادى بها طلابها في عصره : فالعلويون جعلوا الوصية والقرابة والسابقة سبباً في الخلافة ، والعباسيون جعلوا الوراثة سبباً في الخلافة ، والخوارج جعلوا السوابق والاعمال والجهاد سبباً في الخلافة .

وفي جميع هذه الاحوال ليس للامويين فيها نصيب اذ ليس لهم قدم مذكور ولا يوم مشهور .

اضف الى ذلك أن ملوك بني امية اتوا من الشرور والآثام والظلم الشيء الكثير . لقد حاربوا علياً وسموا الحسن وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الجمال حواسر وكشفوا عن عورة علي بن الحسين وضربو علي بن عبد الله بن عباس بالسياط الخ . وهدموا الكعبة وحولوها وغيروا اوقات الصلاة .

وبسبب ما ارتكب بنو امية من مخاز وفجور دالت دولتهم بسرعة وانتزع العباسيون الملك من أيديهم بالبطش والحيلة .

اما المفاخر التي يعتز بها بنو هاشم فهي كثيرة العدد فان عدد اولاد علي بن عبد الله بن العباس يناهز عدد جميع ابناء امية وكذلك عدد ابناء الحسين بن علي إبن ابي طالب .

ويفخر بنو هاشم ايضاً بالرأي السديد والعلم والفقه والتأويل والخطابة وقد نبغ منهم في ذلك كثيرون امثال عبد الله بن عباس وعلي بن ابي طالب .

ويفخرون بالفروسية والشجاعة وقد اطلعوا امثال حمزة بن عبد المطلب وعلي بن ابي طالب .

ويفخرون بالكرم والسماح وقد اشتهر منهم فيهما امثال عبد الله بن جعفر ابن ابي طالب ، وعبيد الله بن العباس بن عبد المطلب .

ولم يكتف الجاحظ بايراد مفاخر الهاشميين بل اورد ايضاً مفاخر الامويين المقابلة ؛ لقد افتخر هؤلاء بانهم انجبوا نوادر الرجال في العقل والدهاء امثال

معاوية بن ابي سفيان وزياد ابن ابيه . وعبد الملك بن مروان .

وفخر الامويون برجال أجواد كانوا مضرب المثل امثال سعيد ابن العاص وعبد الله بن عامر .

وفخر الامويون بالفتوح التي تمت في دولتهم والحروب التي خاضوها في ارمينية وافريقيا والسند والهند .

كما افتخروا بنبوغهم في الشعر واهتمامهم بالعلوم . فكان يزيد بن معاوية شاعراً ، والوليد بن يزيد شاعراً ، ومروان بن الحكم وعبد الرحمن بن الحكم شاعرين . اما خالد بن يزيد بن معاوية فكان حكيماً وهو اول من أجاز التراجمة والفلاسفة ليترجموا له الطب والكيمياء والآلات .

وفاخر الامويون بخطبائهم أمثال معاوية بن ابي سفيان وعبد الملك بن مروان وزياد ابن ابيه وسليمان بن عبد الملك والوليد بن يزيد بن عبد الملك بن معاوية ، وعمر بن عبد العزيز.

وافتخر الامويون بالملك ولا سيما بمعاوية الذي حكم اربعين سنة منها عشرون واليا وعشرون خليفة . وعبد الملك بن مروان الذي انجب اربعة خلفاء هم الوليد وسليمان ويزيد وهشام .

وفاخر الامويون بالحسن الذي عرف به عبد الله بن عمرو بن عثمان الذي لقب بالمطرف لجماله . والمؤمل بن العباس بن الوليد بن عبد الملك .

لم يقتصر الهاشميون على تعداد لمفاخرهم بل عمدوا الى تسفيه مفاخر خصومهم الامويين . فالدهاء الذي عرف به بنو أمية هو من اسماء فجار العقلاء . والذين عدوهم من الدهاة ابعد الناس عن التقى . ولم تكن حيل معاوية لتخفى على علي بن ابي طالب « ولكن الرجل الذي يحارب ولا يستعمل الا ما يحل له اقل مذاهب في وجوه الحيل والتدبير من الرجل الذي يستعمل ما يحل وما لا يحل » .

واذا ذكر الامويون في الجود سعيد بن العاص وعبد الله بن عامر فاين جودهما من جود عبد الله بن جعفر وعبيد الله بن العباس والحسن بن علي وجود خلفاء بني العباس كالمهدي والرشيد والمأمون .

وفي الخطابة لم ينبغ أحد من اولاد امية بن عبد شمس ولا يضارع أحد فيها علي بن ابي طالب وعبد الله بن العباس .

وفي الورع لا أحد يضاهي علي بن ابي طالب في زهده ودينه . وفي النسك ليس من شبيه لزين العابدين علي بن الحسين .

وفي الفقه والتفسير والتأويل ليس لأحد فيه أن ينافس علي بن ابي طالب وعبد الله بن عباس وجعفر الصادق .

وفي الشجاعة ليس من ند لعلي بن ابي طالب وحمزة ابن عبد المطلب ، والحسين بن علي وزيد بن علي بن الحسين بن ابي طالب والمعتصم وعبد الله بن علي عم المنصور .

وفي الحسن لم يكن أحد أجمل من العباس بن عبد المطلب من بسطة جسمه وتمام قوامه .

واذا فاخرت أمية بعاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فاخرت هاشم بفاطمة بنت رسول الله سيدة نساء العالمين وبامها خديجة .

ويبدو ان الأمويين ارادوا إظهار الاعتدال فدعوا الى التسوية وقالوا ليس من احد افضل من الآخر ، ونحن لا ننكر فضل هاشم في الاسلام ، ولا فرق بيننا في الجاهلية فنحن وهاشم ابناء اب واحد وام واحدة . . ان عبد مناف هو جدنا المشترك ، ولم يفرق الرسول بين هاشم وعبد شمس .

ولكن هاشم أبت التسوية وقالت ان أمية ليسوا اكفاءنا من كل وجه وان جمعنا جد واحد . وقد ميز الرسول بين هاشم عشيرته وسائر العشائر وقال الله في ذلك ﴿ وانذر عشيرتك الاقربين ﴾ .

٧ ـ مقدمة مناقب الترك وعامة جند الخلافة

وضع الجاحظ قسماً من هذا الكتاب في خلافة المعتصم ووضع القسم الثاني في خلافة المتوكل . والقسم الاول وجهه الى المعتصم فلم يصل اليه لاسباب لم يفصح عنها الجاحظ . اما القسم الثاني فوجهه الى وزير المتوكل الفتح بن خاقان التركي الاصل والذي عرف بادبه وشاعريته ، وذكرت له بعض الكتب مثل كتاب اخلاق الملوك ، وكتاب الروضة والزهر وكتاب الصيد والجارح . وقد قتل مع المتوكل سنة ٢٤٧ هـ . ويصفه الجاحظ في مقدمة الرسالة بحسن اطاعته الخليفة ، والدراية بالتدبير ، والحرص من الوقوع في الهفوات التي يعاب بها .

والغرض الذي رمى اليه الجاحظ من الكتاب هو(الألفة بين قلوب ابناء الشعوب التي تشكل الدولة العباسية . كانت تلك الدولة المترامية الاطراف تضم عدة شعوب مختلفة الاصل واللغة والاخلاق ولم يستطع الاسلام الذي اجتمعت عليه أن يصهرها صهراً كاملاً في بوتقته ، فظل كل شعب منها متعلقاً بتراثه وماضيه ولغته وطباعه ، ونشأت الخصومات بينهم على الصعيدين الفكري والعسكري .

واهم تلك الشعوب التي كونت الدولة العباسية العرب والفرس والاتراك والسودان اضف الى ذلك شعبين مولدين هما الموالي والأبناء . وكل من تلك

الشعوب يعتز بخصائصه ويتمسك بها ويدل فيها على الشعوب الأخرى . وقد تمثل ذلك في الجيش الذي كان يضم الخراساني والتركي والمولى والعربي والبنوي .

ويمكن ان نقسم الكتاب قسمين : قسماً يتناول مفاخر كل شعب من هذه الشعوب ، وقسماً يحدد السياسة التي ينبغي أن تتبع للتقريب بينهم وتوحيد كلمتهم .

وفي القسم الاول نجد الخراسانيين يفخرون بانهم اصحاب الدعوة العباسية لأنها انطلقت من خراسان وقضت على دولة الامويين . فهم شيعة العباسيين وجنودهم وحملة راياتهم السوداء . كما يفخرون بعظم اجسامهم وطول سواعدهم وكثرة نسلهم وعددهم . ويعتزون بشجاعتهم وبلائهم في الحروب وانتصاراتهم وقدرتهم على قلب الدول . ولا ينسون براعتهم في الصناعات والعلوم والحكمة والأدب والحساب والهندسة والموسيقى والفقه والرواية .

اما العرب فيفخرون بانهم اهل الدولة واقدم الشعوب اسلاماً . وهم اقدر الناس على نظم الشعر الموزون المقفى الذي لا يفنى ويخلد المآثر والاخبار ، واحفظهم للانساب ، واخطبهم على منبر بلسان امضى من السنان وارهف من السيف .

ويفتخرون ايضاً بانهم قواد الدعوة العباسية لأنهم قدموا النقباء « وهل اكثر النقباء الا من صميم العرب ومن صلبية هذا النسب » ولم يقض على عمال الامويين وخليفتهم الأخير مروان بن محمد الا عرب الدعوة . ولم يفتح الهند الا موسى بن كعب ، ولم يفتح افريقية الا محمد بن الاشعث وكلهم عرب أقحاح . وبذا تسقط دعوى الفرس بانهم أصحاب الدعوة .

فاذا استمعنا الى الموالي نراهم يمتدحون انفسهم بالنصيحة والاخلاص في الخدمة وعدم افشاء السر والطاعة . وبانهم اطلعوا العديد من النقباء امثال ابي منصور مولى خزاعة . ولا يعابون من جهة النسب لأن الولاء لحمة كلحمة

النسب وبذا جمعوا بين النسب العربي والاصل الاعجمي .

اما الأبناء فيقولون أن أصلهم خراسان وفرعهم بغداد . وخراسان هي منبع الدعوة وبغداد مستقر الخلافة . ولذا فهم اعرق من الموالي والعرب . وهم قوام السلطة القائمة في بغداد وقد اجتمع لهم الاقدام في الحروب ،الاحتجاج والعقل والصبر على الزمان . ويبدو من كلام الجاحظ ان الابناء كانوا يسيطرون على بغداد وكان الخليفة يعتمد عليهم في فرض سلطته ونسمعه يقول « ولنا بغداد باسرها ، تسكن ما سكنا ، وتتحرك ما تحركنا ، والدنيا كلها معلقة بها . . . ونحن بعد تربية الخلفاء وجيران الوزراء ، ولدنا في افنية ملوكنا ، ونحن اجنحة خلفائنا . . » . والابناء مولدون من آباء فرس وامهات عربيات .

وننتهي اخيراً الى الاتراك الذين ذكر خصالهم في القسم الأخير من الكتاب واطال الحديث عنهم . والصفة الرئيسة التي يفتخرون بها هي البسالة في الحروب والبلاء في المعارك وهم يتفوقون بها على الخوارج الاعراب وعلى جميع الأمم . واذا عرف الخارجي بصدق الشدة عند الهجوم ، والصبر على السير ، وادراك ما يطلب ، وقلة الامتعة فان التركي احمد شدة ، واسرع حركة ، واصعب مراماً . واذا كان الخوارج يقاتلون عن عقيدة دينية فان الاتراك لا يقاتلون على دين او تأويل او ملك او خراج او عصبية او وطن . بل يقاتلون على السلب .

ويعرف التركي بحب وطنه والحنين اليه . وهذا طبع في جميع الناس ولكنه في الترك اغلب .

وبعد عرض مفاخر الشعوب المختلفة يبدي الجاحظ رأيه الشخصي . إن سبب اختلاف الأمم في الخصال عائد الى طباع خصهم الله بها دون غيرهم . وهذا ما يفسر لنا حذق اهل الصين في الصناعة ، واليونانيين في الحكمة والعلم ، والعرب في الأدب ، والفرس بالملك ، والاتراك في الحروب . فاليونانيون لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا فلاحين ، فصرفوا هممهم الى التفكير والتأمل فتوصلوا الى الطب والحساب والهندسة والموسيقى وآلات الحرب والساعات الخ كما انتجوا

الحكمة والعلم .

اما سكان الصين فقد مهروا بالسبك والصياغة والأصباغ العجيبة .

وكذلك العرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا اطباء ولا حساباً ولا اصحاب فلاحة وزرع لخوفهم من صغار الجزية ، وانما اتجهوا نحو قرض الشعر وبلاغة القول ، كما اهتموا بقيافة الأثر وحفظ النسب والبصر بالخيل فبلغوا شأواً عظيماً . والترك مثل العرب سكان فياف وقفار لذا دعوا باعراب العجم فلم يهتموا بصناعة او تجارة او هندسة او بنيان او زراعة ، وصرفوا همهم الى ركوب الخيل ومقارعة الاعداء وطلب الغنائم فاشتهروا بالفروسية والحرب .

ان لكل امة حظاً من الكمال ومقداراً من النقص ، ولا تخلو أمة من النقص فتبلغ الكمال كله ، « وانما يتفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوىء » .

ثم ان السياسة تقضي بالامتناع عن التفاخر والتنابذ لأن الأسراف فيها يؤدي الى التناحر والتباغض بين جند الخلافة وبين ابناء مختلف الشعوب التي تتكون منها الخلافة .

ويرى الجاحظ أن الناس ـ وان تباينت اعراقهم وصورهم ـ متفقون في حقيقتهم . فالمولى الاعجمي يصبح عربياً بالولاء وليس هذا بعجيب لأنهم جعلوا الخال والداً « والحليف من الصميم » كما جعلوا « ابن الاخت من القوم » واسماعيل الاعجمي الوالدين عربياً .

ثم ان الجميع من خلق الله ، فله « ان يجعل من عباده من شاء عربياً ومن شاء عجمياً ومن شاء قرشياً ومن شاء زنجياً ، كما له ان يجعل من شاء ذكراً ومن شاء انثى ومن شاء خنثى .

وقد قسم الله الطبائع والخصال والصفات والقدرات بين الناس كما قسم طينة الأرض فجعل بعضها حجراً وبعضها ياقوتاً وبعضها ذهباً وبعضها نحاساً الخ . .

وينتهي الجاحظ الى التسوية والتوحيد بين الخراساني والبنوي والمولى والعربي قائلاً : « واذا كان الأمر على ما وصفنا فالبنوي خراساني ، واذا كان الخراساني مولى ، والمولى عربي ، فقد صار الخراساني والبنوي والمولى والعربي واحداً » .

وعلى هذا الاساس تصبح اسباب القربى والوفاق بين هذه الشعوب اكثر من اسباب الخلاف . « بل هم في معظم الأمر وفي كبر الشأن وعمود النسب متفقون . والأتراك خراسانية ، وموالي الخلفاء قصرة ، فقد صار التركي الى الجميع راجعاً ، وصار شرفه الى شرفهم زائداً » .

ويترتب على ذلك انتفاء الخلاف ، وغلبة التسامح ، وازالة الأضغان .

٨ ـ مقدمة فخر السودان على البيضان

هـذا الكتاب يشبـه كتاب منـاقب الترك وعـامة جنـد الخـلافـة في المـوضـوع والنوع . فهو يعدد مفاخر العرق الاسود كما عـدد كتاب منـاقب الترك وعـامة جنـد الخـلافة مفـاخر البيضـان من خراسـانيين وعـرب واتـراك وابنـاء ومـوالٍ . وهـو ينطوي مع كتـاب مناقب التـرك في الغايـة التي يرمي اليهـا الجاحظ وهي التـسوية بـين العرب وسـائر الشعـوب التي تشتمل عليهـا الدولـة العباسيـة والتقـريب بينهـا واستئصال الاحقاد من قلوب ابنائها ، لتستـطيع العيش بـوئام وسـلام . وهذه هي القاعدة التي تقوم عليها سياسة بني العباس والتي يؤيدها الجاحظ .

غير ان رسالة فخر السـودان على البيضـان كرسـالة التـرك تصور لنـا الحركـة الشعـوبية تصـويراً واضحـاً . ان هذه الشعـوب تحاول ان تثبت وجـودها وتمـايزهـا وفضائلها ومآثرها وتفوقها على العرب .

ويوجه الجاحظ الكلام في مقدمة الرسالة الى شخص لم يذكـر اسمه سـأله ان يكتب كتاباً في مفاخر السودان فيلبي الجاحظ طلبه ويؤلف هذه الـرسالـة التي يبدي فيها عطفاً ظاهراً على السـودان لأنه كان اسود اللون يمت اليهم بصلة القرابة .

وهـو يعـدد اولاً الـرجـال العـظام الـذين انجبهم السـودان ، منهم لقمـان الحكيم ، وسعيـد بن جبير المحـدث الذي عـاش في العصر الاموي وقتله الحجـاج

في السنة التي مات بها . ومنهم بلال الحبشي مؤذن الرسول ، ومنهم المقداد الذي عاش في عصر الرسول ، ووحشي الذي قتل مسيلمة الكذاب . ومنهم مكحول الفقيه المتوفي سنة ١١٢ هـ . ومنهم الحيقطان الشاعر والخطيب الذي عاش في العصر الاموي . ومنهم جليبيب الفارس الذي عاش في عصر الرسول ، ومنهم عكيم الحبشي الشاعر .

ويذكر اسماء السودان الذين اشتهروا بالفروسية امثال خفاف بن ندبة، وعباس بن مرداس ، وعنترة بن شداد ، وسليك بن السلكة ، وعمير بن الحباب والحجاف بن حكيم وعامر بن فُهيرة ، والفداف ومريح الاشرم والمغلول وافلح الخ .

ثم يذكر ثانياً خصال السودان واهمها السخاء الذي يغلب عليهم ولا تنافسهم فيها أمة أخرى .

ومن خصالهم الرقص الموقع الموزون ، فهم اطبع الناس على الايقاع والضرب بالطبل .

ومن خصالهم خفة لغتهم وذرابة السنتهم وخلوهم من الفأفاة والعي . وهم اخطب الشعوب ، يقف الخطيب طوال النهار يتكلم دون تعب .

ومن خصال السودان قوة الأبدان حتى ليستطيع الواحد منهم رفع الاثقال التي يعجز عنها جماعة الاعراب .

ومن خصالهم دماثة الخلق وطيب النفس وحسن الظن والنأي عن الأذى . واجادة الطبخ ، والامانة في الاعمال المصرفية .

وقد اعترض قوم على سخائهم فقالوا انه نتيجة ضعف عقولهم . فرد السودان قائلين لو كان الأمر كذلك لكان الصبيان والنساء اكرم من الرجال لانهم اضعف منهم عقولاً . والعكس هو الصحيح .

ويرى الزنج وهم عرق من السودان انهم كانوا اكفاء العرب في الجاهلية

ولذا اكثروا من التزوج منهم ، وفي الاسلام انكر العرب فضل السودان عليهم على الرغم من ضرب الامثال بملوك السودان وتقدمهم على ملوك العرب امثال ابرهة و ابي يكسوم .

ثم انتقل الجاحظ الى الحديث عن اللون الاسود وقيمته ومنشئه وجماله ، وأتى بآراء اجتماعية ونفسية طريفة . فهو يرى ان اللون الأسود اشد مهابة من اللون الابيض . والحيوانات والاشياء السوداء تتصف بالقوة والبهاء ، فالخيل الدهم ابهى واقوى ، والبقر السود احسن وجلودهـا اثمن وابقى وادسم لبناً . وكل حجر اسود يكون اصلب ، واشهى التمور واحلاها الاسود . واعلى العيدان واسلمها الأبنوس الاسود . واجمل الشعر الاسود ، وحدقة العين السوداء أحسن ما في العين ، والكحل الذي يكتحل به للتزين اسود اللون ، وسويداء القلب اعز ما فيه ، واطيب ما في المرأة شفتاهـا السوداوان . وقد قال الرسول : « بعثت الى الاحمر والاسود » ومعنى ذلك انه بعث الى السودان . والحجر الاسود اشرف ما في الكعبة . وام اسماعيل قبطية سوداء .

وعالج الجاحظ ناحية أخرى اجتماعية هي كثرة عدد السودان واتساع بلادهم في افريقيا وما وراء بلاد الحبشة . ويعزو الجاحظ ذلك الى قوة خصوبتهم وكثرة تناسلهم . « فالزنجية تلد نحواً من خمسين بطناً في نحو من خمسين عاماً ، في كل بطن اثنان فيكون ذلك اكثر من تسعين » .

ويلاحظ الجاحظ قلة الاقبال على الزواج من الزنجيات في المجتمع العباسي لأن الزنجية لا تكاد تنشط لغير الزنجي ولأن الأبيض لا ينشط للزنجية . ويعلل الجاحظ هذه الظاهرة بالعادة والتقليد . ولذا نرى اهل البصرة يحبون من النساء الهنديات ، واهل اليمن يحبون منهن الحبشيات ، واهل الشام يؤثرون الروميات . فكل قوم يشتهون جلبهم وسبيهم .

وثمة سبب آخر لكثرة السودان هو ترامي اصقاعهم . فاذا كان البيضان يسكنون بلاد فارس وخراسان والروم وفرنجة ، فالسودان يملأون بلاد الزنج

والحبشة وفزان وبربر والقبط والنوبة والسند والهند والصين . ثم ان العرب يعدون من السودان لأن لونهم اقرب اليهم من البيضان .

ويبحث الجاحظ اخيراً مسألة فلسفية خطيرة هي علة اختلاف الناس في ألوانهم . ويذهب الى ان الله لم يجعل السودان سوداً والبيضان بيضاً وانما البيئة الطبيعية التي يعيشون فيها هي التي تحيل الوانهم او تصبغ جلودهم بالوان مختلفة . ويقول على لسان السودان « ان الله تعالى لم يجعلنا سوداً تشويهاً بخلقنا ، ولكن البلد فعل ذلك بنا . والحجة في ذلك ان في العرب قبائل سوداً كبني سليم ابن منصور . وكل من نزل الحرة من غير بني سليم كلهم سود » . وقد يأتي بنو سليم برعاة من الروم البيض فلا يمضي ثلاثة أجيال حتى يصبحون سوداً ، ثم ان جميع الحيوانات التي تعيش في الحرة من نعام وهوام وذباب وثعالب وشاء وحمير وخيل وطير ، سود . وثمة دليل آخر على اثر البيئة في تشكيل الالوان هو اننا نرى جراد البقل وديدانه خضراً ، كما نرى قمل الرأس الاسود سوداء ، وقمل الرأس الاشيب بيضاء . وينتهي الجاحظ الى القول: « والسواد والبياض انما هما من قبل خلقة البلد وما طبع الله عليه الماء والتربة ، ومن قبل قرب الشمس وبعدها وشدة حرها ولينها ، وليس ذلك من قبل مسخ او عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير » .

٩ ـ مقدمة كتاب الحجاب

يستهل الجاحظ الكتاب بمقدمة تقليدية يدعو فيها لمن يوجه اليه الكلام ـ وهو شخص لا يسميه ـ بطول البقاء والسعادة والهداية . ويحدد موضوع الكتاب وهو جمع « ما جاء في الحجاب من خبر وشعر ومعاتبة وعذر وتصريح وتعريض . . » . والغاية التي يرمي اليها الارشاد والتنبيه الى مساوىء الحجاب .

الكتاب إذن عبارة عن مجموعة اخبار واشعار حول الحجاب ، ولا ينطوي على افكار أصيلة ذات شأن ادى اليها تفكير الجاحظ . ولكنه يطلعنا على نظرة العرب الى هذا الموضوع السياسي . فنحن نستشف من خلال الاخبار والاقوال والاشعار التي ساقها الجاحظ كره العرب للحواجز التي توضع بين الحاكم والشعب ـ ومنها الحجاب ـ ورغبتهم في تمتين الصلة بينهما ، وفي ذلك دلالة واضحة على الروح الديموقراطية التي يصدرون عنها . تلك الروح التي تتجلى في اعتبار الحاكم ذا سلطة مستمدة من الشعب بموجب البيعة التي هي ضرب من الاقتراع . وقد عبر هانىء بن قبيصة عن هذه الروح في قوله ليزيد بن معاوية الذي احتجب عنه اياماً ثم لقيه وهو راكب للصيد : « يا يزيد ، ان الخليفة ليس بالمحتجب المتخلي ، ولا المتطرف المتنحي ، ولا الذي ينزل على الغدران والفلوات ، ويخلو للذات والشهوات . وقد وليت امرنا فتاقم بين اظهرنا ، وسهل

اذننا ، واعمل بكتاب الله فينا ، فان كنت قد عجزت عها هنا فاردد بيعتنا نبايع من يعمل فينا ويقيمه لنا ثم عليك بخلواتك وصيدك وكلابك »

فالخليفة واحد من ابناء الشعب بايعه الناس ليدبر امورهم فاذا عجز عن ذلك او احجم او انصرف الى اللهو والملذات او ابتعد عنهم واحتجب دونهم ، وجب خلعه واقامة آخر مكانه .

وقد لخص النبي واجبات الحاكم بقوله « ثلاث من كن فيه من الولاة اضطلع بامانته وامره : اذا عدل في حكمه ، ولم يحتجب دون غيره ، واقام كتاب الله في القريب والبعيد » .

فعلى الحاكم أن يعدل ويقيم احكام القرآن ولا يستكبر على الناس .

وشدد عمر بن الخطاب على ضرورة بقاء الحاكم قريباً من الشعب ، بعيداً عن الأبهة والبذخ قائلاً لعماله : اياكم والاحتجاب وركوب البرذون واتخاذ الحاجب ولبس الكتان واكل الدرمك .

وقد راعى خلفاء الامويين والعباسيين هذا الأمر ولم يتشبهوا فيه بملوك الروم والفرس الذين احاطوا الملك بمظاهر الابهة والعظمة . فقال الخليفة العباسي موسى الهادي لحاجبه : «لا تحجب الناس عني فان ذلك يزيل التزكية . . . ويهلك المملكة » .

وتحدث الجاحظ على واجبات الحاجب ، فقال انه العين الذي ينظر فيها الحاكم ، فعليه بالنظر الى الناس وابلاغهم عن الحاكم وابلاغ الحاكم عنهم ، اي يكون صلة الوصل بين الحاكم والشعب .

ومن واجبات الحاجب احترام الناس ومعرفة اقدارهم وعدم احتقار احد لرثاثة ثوبه او دمامة وجهه .

وعليه ان يقابل الناس بوجه بشوش ولسان طلق ولا يميز بين الناس فيأذن لبعضهم ويمنع البعض الآخر ، لأن الممنوع ينكسر خاطره ويضمر الحقد .

ثم تكلم على شروط الحاجب وقد لخصها المنصور في خطاب وجهه الى المهدي: «لا ينبغي ان يكون الحاجب جهولاً ، ولا غبياً ، ولا عيياً، ولا ذهولاً ، ولا متشاغلاً ، ولا خاملاً ، ولا محتقراً ، ولا جهماً ولا عبوساً . . » .

والى هذا المعنى ذهب عبد الملك بن مروان عندما قال لأخيه عبد العزيز « انظر من تجعل حاجبك ، ولا تجعله الا عاقلاً فهماً مفهماً ، صدوقاً لا يورد عليك كذباً ، يحسن الاداء اليك والاداء عنك . ومره الا يقف ببابك أحد من الاحرار الا اخبرك حتى تكون انت الآذن له او المانع ، فانه ان لم يفعل كان هو الأمير وانت الحاجب . واذا خرجت الى اصحابك فسلم عليهم يأنسوا بك . واذا هممت بعقوبة فتأن بها فانك على استدراكها قبل فوتها اقدر منك على انتزاعها بعد فوتها » .

ويخصص الجاحظ القسم الأخير من كتابه لسرد اخبار واشعار كثيرة في العتاب والهجاء والمديح بسبب الحجاب . منها عدة قصائد للشاعر والكاتب العباسي ابي علي البصير ، الفضل بن جعفر النخعي الذي عاش في عهد المتوكل وادرك المعتز . ومنها ابيات للبحتري ، ودعبل وابي تمام وابي العتاهية وحماد عجرد وغيرهم من الشعراء المغمورين .

١٠ ـ مقدمة كتاب ذم اخلاق الكتّاب

لم يذكر الجاحظ اسم صاحب الرسالة التي الف كتابه الذي نحن بصدده اي « ذم اخلاق الكتاب » للرد عليها . ولكنه يذكر انه قرأ تلك الرسالة في مدح اخلاق الكتاب وفعالهم واخبارهم ، فلم يعجبه تقريظ الكتاب والاطناب بمدحهم لما ينطوي عليه من زلل في الاحتجاج وغلط في الاعتلال وبعد عن الحقيقة . فعزم على تبيان « رداءة مذاهب الكتاب وافعالهم ، ولؤم طبائعهم واخلاقهم » . وهذا هو غرض كتاب الجاحظ وموضوعه .

ولكن ثمة باعثاً آخر حمل الجاحظ على وضع هذا الكتاب هو بغضه إياهم ـ اي الكتاب ـ والذين ترجموا له يخبروننا أن المأمون جعله كاتبا في ديوانه وهو في سن الشباب ، فمكث في عمله ثلاثة أيام واستعفى لأنه لم يطق ذلك العمل .

ويمكن ان نضيف عاملاً آخر يفسر حملة الجاحظ على الكتاب هو تأثره بالمعتزلة . فقد ذكر لنا في الكتاب عدداً من رؤسائهم الذين يشاطرونه موقفه من الكتاب امثال ثمامة بن اشرس ، وابي بكر الاصم وبشر بن المعتمر ، وابي الهذيل العلاف .

ويقدم في مطلع الرسالة نماذج من الكتاب منهم عبد الله بن سعد بن ابي سرح كاتب رسول الله ، وكان اول مرتد في الاسلام و « خالف في كتابه املاءه »

فانزل الله آيات تنهي عن استكتابه . ومنهم معاوية بن ابي سفيان الذي استكتبه رسول الله ايضاً فكان « اول من غدر في الاسلام بامامه ، وحاول نقض عرى الايمان بآثامه » . ومنهم زياد ابن ابيه الذي كتب لعمر بن الخطاب فكان شر ناشيء في الاسلام لأنه نقض السنة . ومنهم مروان بن الحكم الذي كتب لعثمان إبن‌عفان فخانه في خاتمه واهاج الرعية عليه .

والدليل على ان الكتابة ليست فضيلة هو عدم معرفة رسول الله بها ، ولذا منع الله رسوله عنها « وجعل الحظ فيه دنيه » .

ويرى الجاحظ ان الكتاب في معظمهم من التابعين او الخدم : « ولم نر عظيما قط تولى كفاية نفسه ، او شارك كاتبه في عمله » .

ثم ينتقل ابو عثمان الى الحديث على أخلاق الكتاب فينعتهم بالصلف والتيه والاعتداد بالنفس حتى ليظن الواحد منهم انه عمر بن الخطاب في حسن السياسة والتدبير ، وابن عباس في العلم والتأويل ، وعلي بن ابي طالب في القضاء والاحكام ، وابو الهذيل العلاف في علم الكلام ، والاصمعي في اللغة والانساب

وهذا الغرور في التحصيل والعلم يدفع هؤلاء الكتاب الى انتقاد كل ذي علم ومعرفة ، واحتقاره ، حتى انهم يطعنون على القرآن ويدعون تناقضه ، ويكذبون الاخبار والاحاديث ، ويحتقرون شريحاً القاضي وابن جبير الفقيه العابد الخ . .

وثمة رذيلة اخرى في الكتاب هي جهلهم بالقرآن وتفسيره ، وعدم المامهم بالفقه في الدين ، وعدم اقبالهم على حفظ السنة والآثار .

ويذكر الجاحظ عيباً اخر في الكتاب هو قلة تعاطفهم فيما بينهم وزهدهم في المواصلة مما لا نعهده في جميع المهن وكأنهم في تباغضهم « اولاد علات وضرائر امهات » في عداوة بعضهم البعض وحنق بعضهم على بعض .

وتشتد حملة الجاحظ على الكتاب حتى يرميهم بالشؤم : فهذا عبد الحميد الكاتب الذي كتب لبني امية فانتقضت خراسان عليهم وزال ملكهم ، وكتب عبد الله بن المقفع لبني العباس فاغرى بهم عبد الله بن علي فقتل وهدم البيت على صاحبه ، وكتب زيد بن ايوب للمأمون وعمل في ديوان الجند اربعين سنة ثم « صار في آخر عمره قواداً ليحيى بن اكثم القاضي » .

- ١ -

المعاش والمعاد

[١ ـ تقريظ محمد بن ابي دؤاد]

حَفِظكَ الله وأمتعَ بك .

أما بعدُ فإنَّ جماعاتِ أهلِ الحكمة قالوا : واجبٌ على كلِّ حكيمٍ أن يُحسِن الارتيادَ لموضع البُغْية ، وأن يبيِّنَ أسبابَ الأمور ويُمهِّدَ لعواقبها . فإنَّما حُمِدت العلماءُ بحسنِ التثبُّت في أوائل الأمور ، واستشفافِهم بعُقولهم ما تجيء به العواقب ، فيعلمون عند استقبالها ما تؤول به الحالات في استدبارها . وبقدر تفاوتهم في ذلك تستبين فضائلهم . فأمَّا معرفة الأمورِ عند تكشُّفها وما يظهر من خفيَّاتها فذاكَ أمرٌ يعتدل فيه الفاضل والمفضول ، والعالمون والجاهلون .

وإنِّي عرَفتك ـ أكرَمك الله ـ في أيام الحداثة ، وحيث سُلطان اللَّهو المُخْلق للأعراض أغلبُ على نظراتك ، وسُكر الشباب والجِدَة المتحيِّفين للدِّين والمُروءة مستولٍ على لِذَاتك فاختبرت أنت وهم [ففقتَهم] ببَسْطة المقدِرة وحُمَيَّا الحداثة ، وطُوْلِ الجِدَة ، مع ما تقدَّمتَهم فيه من الوسامة في الصُّورة ، والجمال في الهيئة . وهذه كلُّها أسبابٌ [تكاد أن] توجب الانقيادَ للهوى ، ولُجج من المهالك لا يَسلمُ منها إلاَّ المنقطع القرين في صِحَّة الفطرة ، وكمال العَقْل . فاستعبدَتْهم الشَّهواتُ حتى اعطَوها أزِمَّة أديانهم ، وسلَّطوها على مُروءاتهم وأباحوها أعراضَهم ، فآلت بأكثرهم الحالُ إلى ذُلِّ العُدم وفقد عِزِّ الغنى في العاجل ،

والنّدامة الطويلة والحسرةِ في الآجل .

وخرجتَ نسيجَ وحدِك ، أوحديّاً في عصرك ، حكّمت وكيلَ الله عندَك ـ وهو عقلُك ـ على هواك ، وألقيتَ إليه أزمّةَ أمرك ، فسلَكَ بك طريقَ السّلامة ، وأسلمك إلى العاقبة المحمودة ، وبلغ بك من نيل اللذّات أكثرَ مما بلغوا ، ونال بك من الشّهوات أكثر مما نالوا ، وصرّفك من صنوف النّعم أكثر مما تصرّفوا ، وربطَ عليك من نِعَم الله التي خوّلك ما أطلقه من أيديهم إيثارُ اللّهو وتسليطُهم الهوى [على أنفسهم] ، فخاض بهم سُبُل تلك اللُّجج ، واستنقذَك من تلك المعاطب ، فأخرجكَ سليمَ الدِّين ، وافرَ المُروءة ، نقيَّ العرض ، كثير الثّراء ، بيِّنَ الجِدَة . وذلك سبيلُ مَن كان ميلُه إلى الله تعالى أكثرَ من ميلهِ إلى هواه .

فلم أزَلْ [أبقاك الله] في أحوالك تلك كلّها بفضلك عارفاً ، ولك بنعَم الله عندك غابطاً ، أرى ظواهر أمورك المحمودة فتدعوني إلى الانقطاع إليك ، وأسأل عن بواطن أحوالك فتزيدني رغبةً في الاتّصال بك ، ارتياداً مني لموضع الخِيَرة في الأخوّة ، والتماساً لإصابة الاصطفاء في المودّة ، وتخيُّراً لمستودع الرّجاء في النّائبة .

فلما مَحضَتْك الخبرةُ ، وكشفَك الابتلاءُ عن المحمدة ، وقضَتْ لك التّجاربُ بالتّقدمة ، وشهدت لك قلوبُ العامّةِ بالقَبول والمحبّة ، وقطع الله عُذْرَ كلِّ من كان يَطلُب الاتّصالَ بك ، طلبتُ الوسيلةَ إليك والاتّصالَ بحبلك ، ومَتَتُّ بحرْمة الأدب وذِمام كرمك . وكان من نِعمة الله عندي أنْ جعل أبا عبد الله ـ حفظه الله ـ وسيلتي إليك ، فوجدت المطلبَ سهلاً والمُرادَ محموداً ، وأفضيت إلى ما يجوز الأمنيّة ويفوت الأمل ، فوصلتَ إخايَ بمودّتك ، وخلطتَني بنفسك ، وأسمْتَني في مراعي ذَوي الخاصّة بك ، تفضّلاً لا مجازاة ، وتطوُّلاً لا مكافأة ، فأمنت الخطوبَ ، واعتلَيتُ على الزّمان ، واتخذتُك للأحداث عُدّةً ، ومن نوائب الدهر حِصناً منيعاً .

فلمّا حُزْتُ المؤانسة ، وتقلّبت من فضلك في صنُوف النّعمة ، وزاد بصري من مَواهبك في السُّرور والحبرة ، أردتُ خِبرة المشاهدة ، فبلوتُ أخلاقك ، وامتحنت شِيَمَك ، وعجمت مذاهبَك على حين غَفَلاتك ، وفي الأوقات التي يقلُّ فيها تحفُّظك ، أراعي حركاتِك ، وأراقب مخارج أمْرِك ونهْيك ، فأرى [من] استصغارِك لعظيم النِّعم التي تُنْعم بها ، واستكثارِك لقليل الشُّكر من شاكِرِيك ، ما أعرف به [و] بما قد بلوت من غيرك ، وما قد شهدت لي به التّجارِب ، أنّ ذلك منك طبعٌ غير تكلُّف .

هيهاتَ ! ما يكاد ذو التكلُّف أن يخفَى على أهل الغَبَاوة ، فكيف على مثلي من المتصفِّحين . فزادني المؤانسة فيك رغبةً ، وطول العِشرة لك محبَّة ، وامتحاني أفاعيلَك لك تفضيلاً ، وبطاعتك دينونةً .

وكان من تمام شكري لربِّي وليِّ كلِّ نعمة ، والمبتدىء بكلِّ إحسان ، الشكر لك والقيامُ بمكافأتك بما أمكنَ من قولٍ وفعل ، لأنَّ الله تبارك وتعالى نَظَم الشُّكر له بالشُّكر لِذِي النِّعمة مِن خَلْقه ، وأبَى أن يقبلَها إلاَّ معاً ، لأنَّ أحدهما دليلٌ على الآخَر ، وموصولٌ به . فمن ضَيَّع شكر ذي نعمةٍ من الخلق فأمْرَ الله ضيَّع ، وبشاهده استخفّ .

ولقد جاءَ بذلك الخبرُ عن الطّاهر الصادق صلى الله عليه وسلّم ، فقال صلى الله عليه وسلم « من لم يشكر للناس لم يشكر لله » .

ولعمري إنَّ ذلك لَموجودٌ في الفطرة ، قائم في العَقْل : أنَّ مَن كفر نِعَم الخَلْق كان لِنعمِ الله أكفر ، لأنَّ الخلق يُعطي بعضُهم بعضاً بالكُلْفة والمشقَّة ، وثِقَل العطية على القلوب ، والله يعطي بلا كُلْفة . ولهذه العلّة جمع بين الشُّكر له والشكر لذَوي النِّعَم من خلقه .

فلما وجبت عليَّ الحجَّة بشُكرك ،! وقُطع عُذري في مكافأتك ، اعترفتُ بالتقصير عن تقصِّي ذلك ، إلاّ أنِّي بسطتُ لساني بتقريظك ونشرِ محاسنك . موصولٌ ذلك منِّي عند السامعين بالاعتراف بالعجز عن إحصائها .

وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أُودع عُرفاً فليشكره ، فإن لم يمكنه فلينشرهُ ، فإذا نشره فقد شكَره ، وإن كتمه فقد كَفَره » .

ثم رأيت أنْ قد بقيَ عليَّ أمرٌ من الأمور يمكنني فيه برُّك ، وهو عندي عَتيد ، وأنت عنه غير مستغنٍ ، والمنفعة لك فيه عظيمة عاجلة وآجلة إن شاء الله .

ولم أزل أبقاكَ الله بالموضع الذي قد عرفتَ ، من جَمْع الكتُب ودراستِها والنَّظرَ فيها ، ومعلومٌ أنَّ طول دراستها إنما هو تصفُّح عقول العالمين ، والعلمُ بأخلاق النبيِّين ، وذوي الحكمة من الماضين والباقين من جميع الأمم ، وكتبِ أهل الملل .

فرأيتُ أن أجمع لك كتاباً من الأدب ، جامعاً لعلمٍ كثيرٍ من المَعاد والمعاش ، أصِفُ لك فيه عللَ الأشياء. وأُخبرك بأسبابها وما اتفَّقت اليه محاسنُ الأمم .

وعلمتُ أنَّ ذلك من أعظم ما أبَرُّك به ، وأرجَحِ ما أتقُربُ به إليك . وكان الذي حداني على ذلك ما رأيتُ الله قَسَم لك من الفَهْم والعقل ، وركَّب فيك من الطَّبع الكريم .

وقد أجمعت الحكماء أنَّ العقل المطبوع والكرمَ الغريزيَّ لا يبلغان غايةَ الكمال إلاَّ بمعاونة العقل المكتسَب . ومثلوا ذلك بالنَّار والحطب ، والمصباح والدُّهن . وذلك أنَّ العقل الغريزيَّ آلة والمكتسَب مادّة ، وإنَّما الأدب عَقلُ غيرِك تَزيده في عقلك .

ورأيتُ كثيراً من واضعي الآداب قبلي قد عَهِدوا إلى الغابرين بعدَهم في الآداب عُهوداً قاربوا فيها الحقَّ ، وأحسنوا فيها الدلالة ، إلاَّ أنِّي رأيت أكثرَ ما رَسموا من ذلك فروعاً لم يبيِّنوا عللَها ، وصفاتٍ حسنةً لم يكشفوا أسبابها ، وأموراً محمودة لم يدلُّوا على أصولها .

فإنْ كان ما فعلوا من ذلك [رواياتٍ روَوها عن أسلافهم ، و] وراثاتٍ وَرثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلةَ من استنبط . وإنْ كانوا تركوا الدَّلالةَ على عِلل الأمور التي بمعرفة عللها يُوصل إلى مباشرة اليقين فيها ، ويُنتَهى إلى غاية الاستبصار منها ، فلم يَعْدُوا في ذلك منزلة الظنّ بها . ولن تجدوا وصايا انبياء الله أبداً إلاّ مبيَّنةَ الأسباب ، مكشوفة العِلل ، مضروبةً معها الأمثال .

[٢ موضوع الكتاب]

فألفْت لك كتابي هذا إليك ، وأنا واصفٌ لك فيه الطباعَ التي رُكب عليها الخلق ، وفُطرت عليها البَرايا كلُّهم ، فهم فيها مستوون ، وإلى وجودها في أنفسهم مضطرُّون ، وفي المعرفة بما يَتولَّد عنها متَّفقون .

ثمَّ مبيِّنٌ لك كيف تفترق بهم الحالات ، وتفاوَتُ بهم المنازل ، وما العللُ التي يُوجب بعضُها بعضا ، وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره ، متى كانَ الأوّلُ كان اما بعدَه ، وما السَّبب الذي لا يكون الثَّاني فيه إلا بالأوّل ، وربَّما كان الأول ولم يكن الثاني . وفرق ما بين الطَّبع الأول وبين الاكتساب والعادةِ التي تصير طبعاً ثانياً . ولِمَ اختلَف ذلك ؟ وكيف دواعي قلوبِ الناس ، وما منها يمتنعون عنه ، وما منها لا يمتنعون منه . وحتى تُؤنَس بعد الوَحْشة ، وتَسكن بعد النِّفار ؟ وكيف يُتأتَّى لِيَنْقَضَ ما فيهم من الطباعِ المذمومة حتَّى تُصرف إلى الشِّيَم المحمودة ؟ وراسمٌ لك في ذلك أصولاً ، ومبيِّنٌ لك مع كلِّ أصل منها علَّته وسببه .

وقد علمت أنَّ في كثيرٍ من الحقّ مشبَّهات لا تُستبان إلاَّ بعد النظر ، وهناك يختِل الشَّيطانُ أهلَ الغفلة ، وذاك أنَّه لا يجد سبيلا إلى اختداعهم عن الأمور الظاهرة .

فلم أدَعْ من تلك المواضع الخفيَّة موضعاً إلاّ أقمتَ لك بازاء كلِّ شبهة منه

دليلاً ، ومع كلِّ خفيٍّ من الحقِّ حجّةٌ ظاهرة ، تَستنبط لها غوامضَ البرهان وتَستبين بها دقاق الصَّواب ، وتَستشِفُّ بها سرارَ القلوب ، فتأتي ما تأتي عن بيِّنة ، وتَدع ما تدعُ عن خِبرة ، ولا يكون بك وحشةٌ إلى معرفةِ كثيرٍ مما يغيب عنك ، إذا عرفت العلل والأسباب ، حتّى كأنك مشاهدٌ لضمير كل آمريء لمعرفتك بطبعه وما ركِّب عليه ، وعوارض الأمور الداخلة عليه ثمّ ، غيرَ راضٍ لك بالأصول حتّى أتقصى لك ما بلغه علمي من الفروع . ثم لا أرسم لك من ذلك [إلاّ] الأمرَ المعقول في كل طبيعة ، والموجودَ في فِطر البرايا كلِّها . فإنْ أحسنتَ [رعاية] ذلك وأقمته على حدوده ، ونزّلته منازلة ، كان عمرك ـ وإن قصرت أيامه ـ طويلا ، وفارقت ما لا بدَّ لك من فراقه محموداً ، إن شاء الله .

[٣ ـ آداب الدين والدنيا واحدة]

واعلم أنَّ الآدابَ إنّما هي آلاتٌ تَصلُح أن تُستعمَل في الدِّينِ وتُستعمَلَ في الدنيا ، وإنّما وُضعت الآداب على أصول الطباع . وإنّما أصول أمور التدبير في الدِّين والدُّنيا واحدة ، فما فسدت فيه المعاملةُ في الدِّين فَسَدتْ فيه المعاملةُ في الدنيا ، وكلُّ أمرٍ لم يصحّ في معاملات الدُّنيا لم يصح في الدِّين . وإنّما الفرق بين الدين والدُّنيا اختلافُ الدارين من الدُّنيا والآخرة فقط ، والحكم ها هنا الحكم هناك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبتت دولة ، ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عزَّ وجل : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ ، قال ابنُ عباس في تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يَعرف به كيف دُبِّرت أمور الدنيا ، فكذلك هو إذا انتقل إلى الدِّين ، فإنّما ينتقل بذلك العقل . فبقدر جهله بالدُّنيا يكون جهلُه بالآخرة أكثر ، لأن هذه شاهدةٌ وتلك غَيب ، فإذا جهل ما شاهَد فهو بما غاب عنه أجهل .

فأوّلُ ما أُوصيك به ونفسي تقوى الله ، فإنّها جِماعُ كلِّ خير ، وسببُ كلِّ نجاة ، ولِقاح كلِّ رشد . هي أحرزُ حرزٍ ، وأقوى مُعين ، وأمنع جُنّة . هي

الجامعةُ محبة قلوب العباد ، والمستقبلةُ بسك محبّة قلوبٍ من لا تُجري عليهم نعمُك . فاجعلها عدَّتك وسلاحَك ، واجعل أمر الله ونهيه نُصب عينيك .

واحذّرك ونفسي الله والاغترار به ، والإدهان في أمره ، والاستهانةَ بعزامه ، والأمْنَ لمكره ، فقد رأيتَ آثارَه في أهل وِلايته وعداوته ، كيف جعلهم للماضين عِبرةً ، وللغابرين مثلا .

واعلم أنَّ خَلْقه كلَّهم بَريّتُه ، ولا وُصْلَة بينه وبين أحدٍ منهم إلاّ بالطاعة ، فأولاهم به أكثرهم تزيُّداً في طاعته ، وما خالَف هذا فإنّه أمانيُّ وغُرور .

وقد مكَّن الله لك من أسباب المقدرة ، ومهَّدَ لك في تمكين الغنى والبَسْطة ما لم تَنْحَله بحيلة ، ولا بلغْتَه بقوّة ، لولا فضله وطَوْلُه . ولكنَّه مكَّنك ليبلو خُبْرك ، ويختبر شُكرك ، ويحصيَ سعيَك ، ويكتب أثَرَك ، ثم يوفّيك أجرَك ، ويأخُذَك بما اجترحَتْ يدُك أو يَعفوَ ، فأهلُ العفو هو .

ولله ابتلاءان في خَلْقه ـ والأبتلاء هو الاختبار ـ ابتلاء بنعمة ، وابتلاء بمصيبة . وبقَدر عظمها يجب التَّكليف من الله عليها ، فبقدر ما خوَّلك من النعمة يستأديك الشُّكر .

ولو تقصّى الله على خلقه لعذَّبهم ، ولذلك قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ ﴾ . ولكنّه قَبِل التّوبة ، وأقالَ العَثرة ، وجعل بالحسنة أضعافَها .

واعلمْ أنَّ الحكم في الآخرة هو الحكمُ في الدُّنيا : ميزانٌ قِسط ، وحكمٌ عدل . وقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ .

وهذا مثَل ضرَبَه الله ، لأنَّ الناس يعلمون أن لو وضع في إحدى كِفَّتي الميزان شيء ولم يكُ في الأخرى قليلٌ ولا كثير ، لم يكنْ للوزنِ معنىً يُعقل . وذلك أن أحداً من الخَلق لا يخلو من هفوةٍ زَلّة أو غفلة ، فأخبرَ أنَّ من كان حسناته

الراجحةَ على سيئاته، مع النَّدَم على السّيئات ، كان على سبيل النجاة ، وطريق الفوز بالإفلاح . ومن مالت سيئاته بحسناته كان العطبُ والعذاب أولَى به .

وكذلك حكمُه في الدنيا ، لأنَّه قد تولّى أولياء من خلقه وشهد لهم بالعدالة ، وقد عاتَبَهم في بعض الأمور لغلبة الصَّلاح [في أفعالهم وإن هفَوا ، وتبرّأ من آخرين وعاداهم لغلبة الجور] على أفاعيلهم ، وإن أحسَنُوا في بعض الأمور .

وكذلك جَرتْ معاملاتُ الْخَلق بينهم ، يُعدِّلون العادلَ بالغالب من فعله وربَّما أساء، ويفسِّقون الفاسق وربَّما أحسن . وإنما الأمورُ بعواقبها ، وإنَّما يُقضى على كلِّ امر بما شاكلَ أحوالَه .

فهذه الأمورُ قائمةٌ في العقول ، جرت عليها المعاملة ، واستقامت بها السياسة ، لا اختلافَ بين الأمّة فيها .

فلا تُغْبَنَنَّ حَظَّك من دينك ، وإن استطعتَ أن تبلغ من الطّاعة غاياتِها فلنَفْسك تُمهِّد ، وإلاَّ فاجهَدْ أن يَكون أغلبُ أفعالك عليك الطّاعةَ ، مع الندامة عند الاساءة ويكون ميلُك عند الإساءة، إلى الله أكثر . والله يوفِّقك .

[٤ ـ طبع الناس على حب المنفعة ودفع الضرر]

اعلمْ أنَّ الله جلَّ ثناؤه خَلَق خَلْقه ، ثمَّ طبعهم على حبِّ اجترار المنافع ، ودفع المضارّ ، وبُغض ما كان بخلاف ذلك . هذا فيهم طبعٌ مركّب ، وجِبِلّة مفطورة ، لا خلافَ بين الخَلق فيه ، موجودٌ في الإنس والحَيوان ، لم يدَّع غيره مدَّعٍ من الأوّلين والآخِرين . وبقدر زيادةِ ذلك ونُقصانه تزيد المحبّة والبغضاء، [فنقصانُه] كزيادته تميل الطَّبيعة معهما كميلِ كفَّتي الميزان ، قلَّ ذلك أو كثُر .

وهاتان جملتان داخلٌ فيهما جميع مَحَابّ العباد ومَكارههم . والنَّفس في طبعها حبُّ الرّاحة والدَّعة ، والازدياد والعلوّ ، والعِزّ والغَلبة، والاستطراف والتَّشوق

وجميع ما تستلذ الحواسُّ من المناظر الحسنة ، والروائح العَبِقة ، والطُّعوم الطَّيِّبة ، والأصوات المونقة ، والملامس اللَّذيذة . ومما كراهيتُه في طباعهم أضدادُ ما وصفتُ لك وخلافه .

فهذه الخلالُ التي تجمعها خَلتان غرائزُ في الفِطَر ، وكوامن في الطَّبع ، جِبلَّةٌ ثابتة ، وشيمة مخلوقة . على أنَّها في بعضٍ أكثرُ منها في بعضٍ ، ولا يعلم قدرَ القلَّة فيه والكثرة إلا الذي دبَّرهم .

فلمَّا كانت هذه طباعَهم ، أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم ، وجعل في ذلك مَلاذَّ لجميع حواسِّهم ، فتعلَّقت به قلوبُهم ، وتطلَّعت إليه أنفسهم . فلو تَركَهم وأصلَ الطبيعة ، مع ما مكَّن لهم من الأرزاق المشتهاة في طباعهم ، صاروا إلى طاعة الهوى ، وذهب التعاطف والتبارُّ . وإذا ذهبَا كان ذلك سبباً للفساد ، وانقطاعِ التَّناسل ، وفناء الدُّنيا وأهلها ، لأنَّ طبْع النفس لا يسلُس بعطيَّةٍ قليلٍ ولا كثيرٍ مما حَوتْه ، حتَّى تعوَّض أكثر مما تُعطِي ، إمَّا عاجلاً وإما آجلاً مما تستلذُّه حواسُّها .

[٥ ـ الرغبة والرهبة اساس السياسة]

فعلم الله أنَّهم لا يتعاطفون ولا يتواصلون ولا ينقادون إلاَّ بالتأديب ، وأنَّ التأديب ليس إلاَّ بالأمر والنَّهي ، [وأنَّ الأمر والنهي] غير ناجعَين فيهم إلاَّ بالترغيب والترهيب اللذَين في طباعهم . فدعاهم بالتَّرغيب إلى جَنَّته ، وجعلها عوضاً ممَّا تركوا في جنب طاعته ، وزجَرهم بالتَّرهيب بالنار عن معصيته ، وخوَّفهم بعقابها على ترك أمره . ولو تَرَكهم جلَّ ثناؤه والطِّباعَ الأوّل جَروْا على سُنَن الفِطرة ، وعادة الشِّيمة .

ثم أقامَ الرَّغبةَ والرَّهبةَ على حدود العَدل ، وموازين النَّصَفة ، وعدَّلهم تعديلاً متَّفقا ، فقال : ﴿ فمن يَعْمل مِثقال ذَرّةٍ خيراً يَرَهُ . ومَن يعمل مِثقال ذَرّةٍ شرّاً يره ﴾ .

ثم أخبر الله تبارك وتعالى أنه غير داخلٍ في تدبيره الخللُ ، ولا جائزٌ عنده المحاباة ، ليعملَ كلُّ عاملٍ على ثقةٍ ممّا وعَده وأوعَده ، فتعلّقت قلوبُ العباد بالرغبة والرّهبة ، فاطّردَ التدبير ، واستقامت السّياسة ، لموافقتهما ما في الفِطرة ، وأخذهما بمجامع المَصلحة .

ثمَّ جعلَ أكثر طاعته فيما تَستثقل النفوس ، وأكثرَ معصيته فيما تَلَذّ . ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حُفَّت الجنة بالمكاره ، والنّارُ بالشهوات » . [يخبر أنّ الطريق إلى الجنّة احتمال المكاره ، والطريق إلى النار اتباع الشهوات] .

فإذا كانوا لم يصلحوا لخالقهم ولم ينقادوا لأمره إلا بما وصفتُ لك من الرّغبة والرّهبة ، فأعجزُ الناسِ رأياً وأخطؤهم تدبيراً ، وأجهلُهم بموارد الأمور ومصادرها ، من أمّل أو ظنّ أورجا أنَّ أحداً من الخلْق ـ فوقه أو دونه أو من نظرائه ـ يصلح له ضميره ، أو يصحُّ له بخلاف ما دبرهم الله عليه ، فيما بينه وبينهم .

فالرُّغبة والرُّهبة أصلا كلِّ تدبير ، وعليهما مدار كلِّ سياسة ، عظُمتْ أو صغرت . فاجعلْهما مِثالَك الذي تحتذي عليه ، وركنَك الذي تستند إليه . واعلمْ أنّك إن أهملت ما وصفتُ لك عرّضتَ تدبيرك للاختلاط وإنْ آثرتَ الهُوينَا واتّكلت على الكُفاةِ في الأمر الذي لا يجوز فيه إلاّ نظرك ، وزَجّيت أمورك على رأيٍ مدخول ، وأصلٍ غير محكَم ، رجع ذلك عليك بما لو حُكِّم فيك عدوُّك كان ذلك غايةَ أمنيّته ، وشفاء غيظه .

[٦ ـ العدل أساس السياسة]

واعلم أنَّ اجراءك الأمورَ مجاريَها واستعمالَك الأشياء على وجوهها ، يجمع لك أُلفَة القلوب ، فيعاملك كلُّ من عامَلك بمودّةٍ ، أو أَخْذ أو إعطاء ، وهو على ثقةٍ من بَصَرك بمواضع الإنصاف ، وعلمك بموارد الأمور .

واعلم أنّ أثرتك على غير النصيحة والشّفقة ، والحُرمة والكفاية ، يوجب [لك] المباعدةَ وقلّة الثقة ممن آثرته أو آثرتَ عليه .

فاعرف لأهل البَلاء - ممّن جرت بينك وبينه مدّة أو حرمه ، ممن فوقك أو دونك أو نظرائك - أقدارَهم ومنازلهم . ثمّ لتكنْ امورك معهم على قدر البلاء والاستحقاق ، ولا تُؤثر في ذلك أحداً لهوى ، فإنّ الأثرة على الهوى توجب السُّخطة ، وتُوجب استصغار عظيم النّعمة ، ويُمحَق بها الإفضال ، وتَفسد عليهما الطائفتان : مَن آثرتَ ومن آثرت عليه .

أما من آثرت فإنّه يعلم أنك لم تُؤثره باستحقاقٍ بل لهوىً ، فهو مترقّبٌ أن ينتقل هواك إلى غيره ، فتَحُول أثَرتُك حيث مال هواك . فهو مدخولُ القَلْب في مودّتك ، غير آمِنٍ لتغيُّرك .

وأمّا من آثرتَ عليه بعد الاستحقاق منه فقد جعلتَ له السبيلَ إلى الطَّعن عليك ، وأعطيتَه الحُجّة على نفسك . فكلُّ من يعمل على غير ثقةٍ عاد ما أراد به النّفعَ ضرراً والإصلاح [فيه] فساداً .

وربّما آثرَ الرجلُ المؤمن إخوانه بالعطية السنيّة على بلاء أبلاه ، فيعظُمُ قدرُها عنده حتّى لعلّه تطيبُ نفسُه ببذل ماله ودمه دونَه . فإنْ أعطى من أبى كبلائه وكانت له مثل دالّته ، أكثرَ ممّا أعطاه ، انتقل كلُّ محمودٍ من ذلك مذموماً ، وكل مستحسَنٍ مستقبحاً . وكذلك الأمر في العقوبة ، يجريان مجرى واحداً .

فاجعل العدلَ والنَّصَفة في الثّواب والعقاب حاكماً بينك وبين إخوانك ، فمن قدّمت منهم فقدِّمْه على الاستحقاق ، وبصحة النّيّة في مودته ، وخلوص نصيحته لك ممّا قد بلوتَ من أخلاقه وشيمه ، وعلمتَ بتجربتك له ، أنّه يعلم أنّ صلاحَه موصولٌ بصلاحك ، وعطبَه كائن مع عطبك ، ففوِّض الأمرَ إليه ، وأشركْه في خواصّ امورك وخفيِّ أسرارك ، ثمّ أعرفْ قدرَه في مجلسك ومحاورتك ومعاملتك ، في كلّ حالاتك ومزاولاتك في خلواتك معه ، وبحضرة جُلسائك ، فإنّ ذلك زيادة في نيته ، وداعيةٌ لمَنْ دونه إلى التقرب إليك بمثل نصيحته .

فإن ابتُليتَ في بعض الأوقات بمن يَضرِب بحرمة ويمتُّ بدالّة ، يطلب المكافأةَ بأكثر ممّا يستوجب ، فدعاك الكرمُ والحيا إلى تفضيله على من [هو] أحقُّ منه ، إمّا تخوّفاً من لسانه ، أو مداراةً لغيره ، فلا تَدع الاعتذارَ إلى من فوقَه من أهل البَلاء والنّصيحة وإظهارَ ما أردتَ من ذلك لهم ، فإنَّ أهلَ خاصّتك والمؤتمنين على أسرارك ، هم شركاؤك في العيش ، فلا تَستهينَنَّ بشيء من أمورهم ، فإنَّ الرَّجل قد يترك الشيء من ذلك اتّكالاً على حسن رأي أخيه ، فلا يزال ذلك يجرح في القلب وينمو ، حتّى يولّد ضِغْناً ويَحُولَ عداوة .

فتحفّظْ من هذا الباب ، واحمِلْ إخوانك عليه بجهدك .

وستجد في من يتّصل بك من يغلبه إفراط الحِرص وحُمَيّا الشّره ، ولِينُ جانبك له ، على أن يَنقِم العافية ، ويطلُب اللُّحوق بمنازلِ مَن ليس هو مثلَه ، ولا له مثلُ دالّته ، فتلقاه لما تصنع به مستقِلاًّ ، ولمعروفك مُستصغِراً . وصلاح من كانت هذه حالَه بخلافِ ما فَسَد عليه أمرُه . فاعرفْ طرائقهم وشِيَمهم ، وداوِ كلَّ مَن لا بدَّ لك من معاشرته بالدواء الذي هو أنجعُ فيه ، إنْ ليناً فليناً ، وإنْ شدّةً فشدّة ، فقد قيل في المثل :

من لا يؤدّبهُ الجميلُ ففي عقوبته صلاحُه

وقد قال بعضُ الحكماء :

« ليس بحكيمٍ من لم يعاشرْ من لا يجد من معاشرته بُدّاً ، بالعدل والنّصفة ، حتّى يجعلَ الله له من أمره فرجا ومخرجا» .

[٧ - لائحة الأسباب والعواقب]

فاحفظْ هذه الأبوابَ التي يُوجب بعضها بعضاً ، وقد ضمِنَتْ لك أوائلُها كونَ أواخرها . فاعرفْها واقتبِسْها ، واعلم أنّه متى كان الأوّلُ منها وجبَ ما بعده لا بدَّ منه . فاحذر المقدّمات اللاتي يعقبها المكروه ، واحرِص على توطيد الأمور

التي على أثَرها السَّلامة ، وألقِحْ في البديِّ الأمورَ التي يِتاجُها العافية .

فمن الأمور التي يُوجب بعضُها بعضاً : المنفعةُ توجب المحبَّة ، والمَضرَّة توجب البغضاء ، والمُضادَّة توجب العداوة ، وخلافُ الهوى يُوجب الاستثقال ، ومتابعتُه توجب الالفة ، والصِّدقُ يوجب الثِّقة ، والكذب يُورث التُّهمة ، والأمانة توجب الطُّمأنينة ، والعدل يوجب اجتماع القُلوب ، والجور يوجب الفُرقة ، وحسن الخلق يُوجب المودَّة ، وسوء الخلق يوجب المباعدة ، والانبساط يوجب المؤانسة ، والانقباض يوجب الوحشة ، والتكبُّر يوجب المقت ، والتواضُع يوجب المِقَة ، والجود بالقصد يوجبُ الحمد ، والبخل يوجب المذَمَّة ، والتواني يوجب التَّضييع ، والجِدُّ يوجب رخاء الأعمال ، والهُوَينا تورث الحَسْرة ، والحزم يورث السُّرور ، والتَّغرير يُوجِب النَّدامة ، والحذر يوجِبُ العُذْر ، [وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة] والاستهانة توجب التَّباغِي ، والتَّباغي مقدِّمة الشَّرّ وسببُ البَوَار .

ولكلِّ شيء من هذا إفراط وتقصير ، وإنَّما تَصحُّ نتائجها إذا أُقيمت على حدودها ، وبقدر ما يدخل مِن الخلل فيها يدخُل فيما يتولَّد منها ، لا بدَّ منه ولا مَزْحَل عنه ، عليه عادةُ الخلق ، وبه جرَتْ طِباعهم ، وتمام المنفعة بها إصابةُ مواضعها :

فالإفراط في الجود يوجب التَّبذير ، والإفراط في التواضع يوجب المذلَّة ، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصَّة ، والإفراط في المؤانسة يدعو خلطاء السُّوء ، والإفراط في الانقباض يوحش ذا النَّصيحة . وآفة الأمانه ائتمان الخائنة ، وآفة الصِّدق تصديق الكَذَبة ، والإفراط في الحذر يدعو إلى ألاَّ يُوثَق بأحد ، وذاك ما لا سبيل إليه . [والإفراط في المضرَّة مَبعثةٌ على حربك] ، والإفراط في جرِّ المنفعة غناء لمن أفرطتَ في نَفعِه عَنك .

واحذرْ كل الحذر أن يخدعَك الشيطان عن الحزْم فيمثِّلَ لك التَّوانيَ في صورة التوكُّل ، ويسلبَك الحذر ، ويُورثَك الهُوَينا بإحالتك على الأقدار ، فإنَّ الله

إنّما أمر بالتوكّل عند انقطاع الحِيَل ، والتسليم للقضاء بعد الإعذار ، بذلك أنزلَ كتابَه ، ؛ وأمْضى سُنّته فقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ ، ﴿ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ﴾ . وقولُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » . وسُئل ما الحَزم ؟ فقال : الحَذَر .

فتحفَّظ من هذا الباب وأحكِمْ معرفته إن شاء الله تعالى .

واعلم أنَّ أكثر الأمور إنّما هو على العادة وما تَضْرَى عليه النُّفوس ، ولذلك قالت الحكماء : « العادةُ أمْلَكُ بالأدب » .

فرُضْ نفسَك على كلِّ أمرٍ محمود العاقبة ، وضرِّها بكلِّ ما لا يُذَمّ من الأخلاق يَصِرْ ذلك طِباعا ، وينسب إليك منه أكثرُ مما أنت عليه .

[٨ - الجود والبخل]

واعلم أنَّ الذي يُوجب لك اسمَ الجُود القيامُ بواجب الحقوق عند النّوائب ، مع بَعضِ التَّفَضُّل على الراغبين . وإذا أُوجِبَ لك اسمُ الجُود زالَ عنك اسمُ البخل .

واعلم أنَّ تثمير المال آلةٌ للمكارم ، وعونٌ على الدِّين ، ومُتَألَّفٌ للإخوان ، وأنَّ مَن قد فَقَد المال قلَّت الرغبة إليه ، والرَّهبة منه ، ومَن لم يكنْ بموضعِ رغبةٍ ولا رهبة استهانَ النّاسُ بقدره .

فاجهَد الجهْد كله ألاّ تزال القلوبُ معلَّقةً منك برغبة أو رهبةٍ ، في دينٍ أو دُنيا .

واعلم أنَّ السَّرَف لا بقاء معه لكثير ، ولا تثميرَ معه لِقليل ، ولا تصلح عليه دنيا ولا دين . وتأدَّبْ بما أدّبَ الله تعالى به نبيَّه فقال : ﴿ ولا تجْعَلْ يدَكَ مَغلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كلَّ البَسْطِ فَتَقْعُد مَلُوماً محسُوراً ﴾ .

وقالت الحكماء : « القَصْد أبقى للجَمَام » .

فداوِمْ حالكَ وبقاءَ النّعمة عليك ، بتقديرك أمورَكَ على قَدْر الزمان ، وبقدر الإمكان ، فقد قال الشاعر :

مَن سابَقَ الدَّهرَ كبا كَبوةً ... لم يَسْتَقِلْها من خُطَى الدَّهر
فاخطُ مع الدَّهر على ما خطا ... واجرِ مع الدَّهر كما يجري

[٩ ـ الصمت والمنطق]

واعلم أنّ الصمت في موضعه ربّما كان أنفعَ من الإبلاغ بالمنطق في موضعه ، وعند إصابة فرصته . وذاك صَمْتُك عند من يعلم أنّك لم تصمت عنه عِيًّا ولا رَهبة . فليزِدْكَ في الصَّمْت رغبةً ما تَرى من كثرة فضائح المتكلّمين في غير الفُرص ، وهَذْرِ مَن أطلق لسانَه بغير حاجة .

[١٠ ـ الشجاعة]

واعلمْ أنّ الجُبن جبنانِ ، والشَّجاعة شجاعتان ، وليست تكون الشجاعةُ إلّا في كلِّ أمر لا يُدرَى ما عاقبته ، يُخاطَر فيه بالأنفس والأموال . فإذا أردتَ الحزمَ في ذلك فلا تشجِّعنْ نفسَك على أمرٍ أبداً إلّا والذي ترجو من نفعه في العاقبة أعظمُ ممّا تبذل فيه في المستقبل ، ثم يكون الرجاءُ في ذلك أغلبَ عليك من الخوف .

وها هنا موضعٌ يُحتاج فيه إلى النظر : فإن كان ذلك أمراً واجباً في الدِّين ، أو خوفاً لعارٍ يُسَبُّ بهِ الأعقابُ فأنت معذورٌ بالمخاطرة فيه بنفسك ومالك . وإن كان أمراً تعظُم منفعتُه في الدنيا إلّا أنّك لا تناله إلّا بالخِطار بمهجة نفسك أو بتعريضِ كلِّ مالك للتّلف ، فالإقدام على مثل هذا ليسَ بشجاعة ، ولكنْ حماقةٌ بيِّنةٌ عند الحكماء .

وقد قالت علماء أوائل الناس :

* لا يرسل السّاقَ إلّا ممسكاً ساقا *

وقالوا : « لا تُخرج الأمرَ كلَّه مِن يدك وخذْ بأحد جانبَيْه » . ثم الشجاعة والجبن في ذلك بقدر الحالات والأوقات .

[١١ ـ معاملة العدو]

واعلمْ أنَّ أصلَ ما أنت مستظهر به على عدوِّك ثلاثُ خلال :

أشرفها : أن تأخذ عليه بالفَضْل وتبتدئه بالحُسنى ، فتكون عليه رحمةً ولنفسك ناظرا ؛ فإنَّ كثرة الأعداءِ تنغيصٌ للسُّرور ، وقد قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ادفَعْ بالتي هِيَ أحسَنُ فإذا الذي بَيْنَكَ وبينه عَداوةٌ كأنَّهُ وليٌّ حميم ﴾ .

فإن كان عدوُّك مما لا يصلُح على ذلك فحصِّن عنه أسرارك ، وعَمِّ عليه آثار تدبيرك ، ولا يطَّلعنَّ على شيءٍ من مكايدتك له بقولٍ ولا فعل ، فيأخذَ حِذرَه ، ويعرفَ مواضعَ عَوَارك ، فإنَّ تحصينَ الأسرار أخذٌ بأزِمَّة التدبير ، والإكثارَ من الوعيد للأعداء فشَل . ولكنْ داجِ عدوَّك ما داجاكَ ، وأحصِ معايبَه ما لاحاكَ .

وقال الشاعر :

كلٌّ يداجي على البغضاء صاحبه ... زَكِنْتُ منهم على مِثل الذي زَكِنُوا

واعلم أنَّ أعظَمَ أعوانك عليه الحُجج [ثم الفرصَة] ، ثم لا تُظهرن عليه حُجَّةً ، ولا تهتبِلْ منه غِرَّة ، ولا تطلبنَّ له عَثرة ، ولا تهتكنَّ له ستراً [إلاَّ] عند الفرصة في ذلك كلِّه ، وفي المواضع التي يجب لك فيها العُذْر ويعظم فيها ضررُه ، إن كان العفو عنه شرّاً له .

وإن كان ممن يُظهِر لك العداوةَ ويكشف لك قِناع المحاربة ، وكان ممن أعياكَ استصلاحه بالحلم والأناة ، فلتكن في أمره بين حالين : استبطانِ الحذَر منه ، والاستعداد له وإظهار الاستهانة [به] . ولستَ مستظهِراً عليه نفسك من الأدناس ، وبراءتك من المعايب .

فلتكن هذه سيرتَك في أعدائك .

واعلم أنّ إشاعةَ الأسرار فسادٌ في كلّ وجهٍ من الوجوه ، من العدوّ والصديق . وقد روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا على الحوائج بسَتْرها ؛ فإنّ كلّ ذي نعمة محسود » .

وإذا أفشيتَ سِرَّك فجاءتِ الأمورُ على غير ما تقدِّر كان ذلك منك فضلاً من قولك على فعلك . وقد قيل في الأمثال : « من أفشى سِرَّهُ كثُر المتآمرون عليه » . فلا تضَعْ سرَّك إلاّ عند من يضرُّه نشره كما يضرُّك ، وينفعه ستره بحسب ما ينفعك .

[١٢ ـ أجناس الناس]

واعلم أنّك ستصحب من الناس أجناساً متفرِّقةً حالاتُهم ، متفاوتةً منازلُهم ، وكلُّهم بك إليه حاجة ، وكلُّ طائفة تَسُدُّ عنك كثيراً من المنافع لا يقوم به من فوقها ، ولعلّهم مجتمعون على نصيحتك والشّفقة عليك . فمنهم من تُريد منه الرأي والمشورة ، [ومنهم مَن تريده للحفظ والأمانة] ، ومنهم من تريده للشّدّة والغلظة ، ومنهم من تريده للمِهنة . وكلٌّ يسُدُّ مسَدَّه على حياله . وقد قيل في الحكمة : « إنّ الخلال تنفع حيث لا يَنفع السّيف » .

ولا تُخْلِينَّ أحداً منهم ـ عظُم قدره أو صغُرت منزلتُه ـ مِن عنايتك وتعهُّدك بالجزاء على الحسنة ، والمعاتبة عند العثرة ؛ ليعلموا أنّهم منك بمرأىً ومسمع . ثُمّ لا تُجوِزَنَّ بأحدٍ منهم حَدَّه ، ولا تدخلْه فيما لا يصلُح له ، تستقمْ لك حالُه ، ويتّسِقْ لك أمره .

واعلم أنّه سيمرُّ بك في معاملاتِ الناس حالاتٌ تحتاج فيها إلى مداراةِ أصنافِ الناس وطبقاتهم ، يَبلُغ بك غايةَ الفضيلة فيها ، وكمالَ العقل والأدب منها ، أنْ تُسالِمَ أهلَها وتملكَ نفسَك عن هواها ، وتكفَّ من جماحها ، بالأمر

الذي لا يُحْرِجك في دينك ولا عِرضك ولا بدنك ، بل يُفيدك عزَّ الحلم ، وهيبة الوقار . وهي أمور مختلفة ، تجمعُها حالٌ واحدة .

منها : أن تأتيَ محفِلاً فيه جمعٌ من الناس ، فتجلس منه دون الموضع الذي تستحقُّه حتى يكون أهلُه [الذين] يرفعونك ، فتظهر جلالتُك وعِظَمُ قدرك .

ومنها : أن يُفيض القومُ في حديث ، عندك منه مثلُ ما عندهم أو أفضلُ ، فيتنافسون في إظهار ما عندهم ، فإنْ نافستَهم كنتَ واحداً منهم ، وإن أمسكتَ افتضَوْك ذلك ، فصرتَ كأنَّك ممتنٌّ عليهم بحديثك ، وأنصَتُوا لك ما لم يُنصِتُوا لغيرك .

ومنها : أن يتمارى جُلساؤك - والمِراءُ نِتاجُ اللَّجاجة وثمرةُ أصلُها الحميَّة - فإنْ ضبطتَ نَفسك كان تحاكُمُهم إليك ، ومعوَّلُهم عليك .

واعلمْ أنَّ طبع النُّفوس - إذ كان على حسبِ العلوّ والغَلَبة - أنَّ في تركيبها بُغضَ من استطالَ عليها . فاستدعِ محبّةَ العامَّة بالتَّواضع ، ومودَّةَ الأخلاَّء بالمؤانسة والاستشارة ، والثِّقةِ والطُّمأنينة .

واعلم أنَّ الذي تُعامِل به صديقَك هو ضدُّ ما تعامِل به عدوَّك . فالصَّديقُ وجهُ معاملته المسالمةُ ، والعدوُّ وجهُ معاملته المداراةُ والموارَبة ، هما ضِدّانِ يتنافيان ، يُفسد هذا ما أصلح هذا ، وكلَّما نقصت من أحدِ البابَين زاد في صاحبه ، إنْ قليلٌ فقليلٌ ، وإنْ كثيرٌ فكثيرٌ . فلا تَسلمُ بالموارِبة صَداقةٌ ، ولا تَظفرُ بالعدوِّ مع الاستسلام إليه . فضَع الثِّقةَ موضعَها ، وأقم الحذرَ مُقامَه ، وأسرعْ إلى التفهُّمِ بالثِّقة ، ولا تبادرْ إلى التَّصديق ، ولا سيَّما بالمحالِ من الأمور .

[١٣ - معرفة الأمور الغائبة]

واعلمْ أنَّ كلَّ علمٍ بغائبٍ ، كائناً ما كان ، إنَّما يُصاب من وجوهٍ ثلاثة لا

رابعَ لها ، ولا سبيلَ لك ولا لغيرك إلى غاية الإحاطات ؛ لاستئثار الله بها . ولن تهنأ بعيشٍ مع شدَّة التحرُّز ، ولن يتّبق لك أمرٌ مع التضييع . فاعرفْ أقدارَ ذلك .

فما غابَ عنك مما قد رآه غيرُك ممَّا يُدرَك بالعيان ، فسبيلُ العلم به الأخْبار المتواترة ، التي يحملُها الوليُّ والعدوُّ ، والصَّالح والطَّالح ، المستفيضةُ في الناس ، فتلك لا كُلفَة على سامعها من العلم بتصديقها . فهذا الوجهُ يستوي فيه العالم والجاهل .

وقد يجيء خبرٌ أخصُّ من هذا إلاّ أنّه لا يُعرف إلاّ بالسُّؤال عنه ، والمفاجأة لأهله ، كقوم نَقَلوا خَبَراً ، ومثلُك يحيط علمُه أنَّ مثلَهم في تفاوت أحوالهم ، وتباعُدهم من التَّعارف ، لا يُمكن في مثله التَّواطؤ وإنْ جَهِل ذلك أكثر الناس . وفي مثل هذا الخبر يمتنع الكذبُ ، ولا يتهيّأ الاتفاق فيه على الباطل .

وقد يجيءُ خبرٌ أخصُّ من هذا ، يحمله الرجلُ والرجلانِ ممن يجوز أن يَصدُقَ ويجوز أن يكذب ، فصِدْقُ هذا الخبرِ في قلبك إنَّما هو بحُسن الظَّنّ بالمخبر ، والثِّقة بعداله . ولن يقومَ هذا [الخبر] من قلبك ولا قلب غيرك مقام الخبرين الأوَّلين [أبداً] . ولو كان ذلك كذلك بطل التصنُّع بالدِّين واستوى الظاهر والباطن من العالَمين .

ولما أنْ كان موجوداً في العقول أنّه قد يفتّش بعضُ الأمناءِ عن خيانةٍ ، وبعضُ الصَّادقين عن كذبٍ ، وأنَّ مِثل الخبرين الأوَّلَين لم يتعقَّب الناس في مثلهما كذِباً قطُّ ، عُلِم أنَّ الخبرَ إذا جاءَ مِن مِثلِهما جاءَ مجيءَ اليقين ، وأنَّ ما عُلم من خبر الواحدِ فإنَّما هو بحُسْن الظنّ والائتمان .

فهذه الأخبار عن الأمور التي تدركها الأبصار .

فأمّا العلم بما غابَ مما لا يُدرِكه أحدٌ بعيان ، مثلُ سرائر القلوب وما أشبهها ، فإنَّما يُدرَك علمُها بآثار أفاعيلها وبالغالب من أمورها ، على غير إحاطةٍ كإحاطة الله بها .

وأوّلُ العِلم بكلّ غائب الظُّنونُ ، والظُّنونُ إنّما تقع في القلوب بالدّلائل ، فكلّما زاد الدليل قَوِيَ الظنُّ حتّى ينتهيَ إلى غاية تزول معها الشكوكُ عن القلوب ؛ وذلك لكثرة الدلائل ، [ولترادفها] .

فهذا غاية علم العبادة بالأمور الغائبة( ).

فمن عرف ما طُبع عليه الخَلْق وجَرت به عاداتُهم ، وعرفَ أسبابَ اتّصالهم واتّصاله بهم ، وتقصّى عِللَ ذلك ، كان خليقاً - إنْ لم يُحطْ بعلم ما في قلوبهم - أن يقعَ من الإحاطة قريباً .

واعلمْ أن المقادير ربّما جرت بخلاف ما تقدُّر الحكماء ، فنال [بها] الجاهلُ في نفسه ، المختلطُ في تدبيره ، ما لا ينال الحازمُ الأريب الحذِر . فلا يدعونّك ما ترى من ذلك إلى التّضييع والاتّكال على مثل تلك الحال ؛ فإنّ الحكماء قد أجمعت أنَّ مَن أخذَ بالحزم وقدّمَ الحذر ، فجاءت المقاديرُ بخلاف ما قدّر ، كان عندهم أحمدَ رأياً وأوجبَ عذراً ، ممّن عمل بالتفريطِ وإن اتّفقت له الأمور على ما أراد .

[١٤ - الصداقة]

ولعمري ما يكاد ذلك يجيء إلاّ في أقلّ الأمور ، [وما كثُر مجيءُ السّلاماتِ إلاّ لمن أتى الأمور] من وجوهها وإنما الأشياء بعوامُها . فلا تكونن لشيء ممّا في يدك أشدَّ ضِنّاً ، ولا عليه أشدَّ حَدَباً ، منك بالأخ الذي قد بلوتَه في السّرّاء والضّرّاء ، [فعرفت مذاهبه] وخَبَرتَ شِيَمه ، وصحّ لك غيْبُه ، وسلمتْ لك ناحيتُه ؛ فإنما هو شقيقُ روحك وباب الرُّوح إلى حياتك ، ومُستمَدُّ رأيك وتوأم عَقْلك . ولست منتفعاً بعيشٍ مع الوحدة . ولا بدَّ من المؤانسة ، وكثرةُ الاستبدال تهجم بصاحبه على المكروه . فإذا صفا لك أخٌ فكن به أشد ضنّاً منك بنفائس أموالك ، ثمّ لا يزهّدنّك فيه أنْ ترى منه خُلقاً أو خُلقين تكرههما ؛ فإنّ نفسَك التي هي أخصُّ النفوس بك لا تُعطيك المَقادةَ في كلِّ ما تريد ، فكيف

بنفْسِ غيرك !

وبحَسْبك أن يكون لك من أخيك أكثرُهُ ، وقد قالت الحكماء : « مَن لكَ بأخيك كلِّه » ، و « أيُّ الرِّجال المهذَّب » .

ثم لا يمنعْك ذلك من الاستكثار من الأصدقاء فإنهم جندٌ مُعَدُّون [لك] ينشُرون محاسنَك ، ويحاجُّون عنك . ولا يحملنَّك استطرافُ صديق ثانٍ على ملالةٍ للصَّديق الأول ؛ فإن ذلك سبيلُ أهل الجهالة ، مع ما فيها من الدناءة وسوء التدبير ، وزهد الأصدقاء جميعاً في إخائك . والله يوفقك .

وستجد في الناس من قد جرَّبَتْه الرِّجالُ قَبلكَ ، ومَحَضه اختبارهم لك . فمن كان معروفاً بالوفاء في أوقات الشِّدّة وحالات الضرورة ، فنافِسْ فيه واسبقْ إليه ؛ فإنَّ اعتقاده أنفسُ العُقَدِ . ومن بلاهُ غيرك فكشف عن كُفر النِّعمة والغَدْرِ لا يفي لأحد ، وإنما يميل مع الرُّجحان : يذلُّ عند الحاجة ويشمخ مع الاستغناء .

[١٥ - الخلال المذمومة]

فاحذر ذلك أشدَّ الحذر . واعلم أنَّ الحكماء لم تذم شيئاً ذمَّها أربَع خلال :

الكذبُ فإنَّه جِماعُ كلِّ شرٍّ . وقد قالوا : لم يكذب أحدٌ قطُّ إلاّ لصغرِ قَدر نفسِه عندَه .

والغَضَبُ فإنّه لؤمٌ وسوءُ مقدِرة ؛ وذاك أنَّ الغضبَ ثمرةُ لخلافِ ما تهوى النفس ، فإنْ جاءَ الإنسانَ خلافُ ما يهوى ممَّن فوقه أغضى وسمَّى ذلك حُزناً ، وإن جاءهُ ذلك ممَّن دونَه لؤمُ النَّفس وسوء الطِّباع على الاستطالة بالغَضَب ، والمقدرة والبسطة على البطش .

والجزعُ عند المصيبة التي لا ارتجاعَ لها ؛ فإنَّهم لم يجعلوا لصاحب الجزع في مثل هذا عُذراً ، لما يتعجَّل من غمِّ الجزع مع علمه بفوت المجزوع عليه .

وزعموا أن ذلك من إفراط الشَّرَه ، وأنّ أصل الشَّرَهِ والحسد واحدٌ وإن افترقَ فرعاهُما .

وذمُّوا الحسدَ كذمُّهم الجزعَ ، لما يتعجَّل صاحبُه من ثقل الاغتمام ، وكُلفة مقاساة الاهتمام ، من غير أن يجديَ عليه شيئاً . فالحسد اغتمام ، والغَدْر لؤم . وقال بعض الحكماء : « الحسد خلقٌ دنيء ، ومن دناءته أنّه يبدأ بالأقرب فالأقرب » . وزعموا أنّه لم يَغدِر غادرٌ قطُّ إلاّ لصغر هِمَّته عن الوفاء ، وخمول قَدره عن احتمال المكاره في جنب نَيل المكارم .

وبقدر ما ذمَّت الحكماء هذه الأخلاق الأربعة ، فكذلك حمدت أضدادها من الأخلاق ، فأكثرت في تفضيلها الأقاويل ، وضربت فيها الأمثال ، وزعمت أنّها أصلٌ لكل كرمٍ ، وجماعٌ لكل خير ، وأنّ بها تُنال جِسامُ الأمور في الدُّنيا والدين .

فاجعل هذه الأخلاقَ إماما لك ، ومَثَلاً بين عينيك ، ورُضْ عليها نفسَك ، وحكِّمها في أمرك ، تَفُز بالرّاحة في العاجل ، والكرامة في الآجل .

والصبر صبران : فأعلاهما أن تصبرَ على ما ترجو فيه الغُنم في العاقبة . والحِلمُ حلمان : فأشرفهُما حلمُك عمَّن هو دُونَك . والصِّدق صدقان : أعظمهما صدقك فيما يضرُّك . والوفاء وفاءان : أسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافُه . فإنَّ مَن عُرِف بالصِّدق صار الناس له أتباعا ، ومن نُسِب إلى الحلم أُلبِس ثوب الوقار والهيبة وأُبَّهة الجلالة ، ومن عرف بالوفاء استنامت بالثِّقة به الجماعات ومن استعزَّ بالصبر نال جسيمات الأمور .

ولعمري ما غَلِطت الحكماء حين سمَّتْها أركانَ الدِّين والدُّنيا .

فالصِّدق والوفاء توأمان ، والصَّبر والحلم توأمان ، فهنَّ تمامُ كلِّ دين ، وصلاحُ كلِّ دنيا . وأضدادهنَّ سببُ كلِّ فُرقة ، وأصلُ كلِّ فساد .

واحذَرْ خَصلةً رأيت الناس قد استهانُوا بها ، وضيَّعوا النظر فيها ، مع

اشتمالها على الفساد ، وقَدْحِها البغضاءَ في القلوب ، والعداوةَ بينَ الأوِدّاء : المفاخرةُ بالأنساب ؛ فإنّه لم يغلَط فيها عاقلٌ قطُّ ، ا مع اجتماع الإنس جميعاً على الصورة وإقرارهم جميعاً بتفرُّق الأمور المحمودة والمذمومة من الجمال والدَّمامة ، واللُّؤم والكرم ، والجُبْن والشَّجاعة ، في كلِّ حين ، وانتقالها من أمّةٍ إلى أمة ، ووجودِ كلِّ محمود ومذموم في أهل كلِّ جنسٍ من الآدميِّين . وهذا غير مدفوع عند الجميع .

فلا تجعلنَّ له من عقلك نصيباً ، ولا من لسانك حَظّاً ، تسلَمْ بذلك على النّاس أجمعين ، مع السَّلامة في الدين .

واعلم أنّك موسومٌ بسيما من قارنتَ ، ومنسوبٌ إليك أفاعيلُ مَن صاحبت . فتحرَّزْ من دُخلاء السُّوء ، ومجالسة أهل الرِّيَب ، وقد جَرتْ لك في ذلك الأمثالُ ، وسُطِّرتْ لك فيه الأقاويل ، فقالوا : « المرء حيث يجعلُ نفسَه » ، وقالوا : « يُظَنُّ بالمرء ما ظُنَّ بقرينه » ، وقالوا : « امرء بشكلِه ، والمرء بأليفه » .

ولن تقدر على التحرُّز من جماعة النّاسْ ، ولكن أقِلَّ المؤانسةَ إلاّ بأهل البراءة من كلِّ دنَس . واعلم أنَّ المرء بقدر ما يَسبِق إليه يُعرَف ، وبالمستفيض من أفعاله يُوصَف ، وإن كان بين ذلك كثيرٌ من أفعاله ألغاه النّاس وحكموا عليه بالغالب من أمره .

فاجهَدْ أن يكون أغلبَ الأشياءِ على أفاعيلك كلُّ ما تحمده العوامُّ ولا تذُمُّه الجماعات ، فإنَّ ذلك يعفِّي على كلِّ خلل إن كان .

فبادِرْ ألسنةَ الناس فاشغَلْها بمحاسنك ، فإنهم إلى كلِّ سوءٍ سِراع ، واستظهِرْ على مَن دونك بالتَّفضُّل ، [وعلى نظرائك] بالإنصاف ، وعلى مَن فوقك بالإجلال . تأخذْ بوثائق الأمور ، وأزِمَّة التدبير .

واعلم أنَّ كثرةَ العتاب سببٌ للقطيعة ، واطِّراحه كلَّه دليلٌ على قلّة الاكتراث لأمر الصَّديق . فكن فيه بين أمرين : عاتِبْهُ فيما تشتركان في نفعه وضرِّه

وذلك في الهُينات ، وتجافَ له عن بعض غَفَلاته تسلمْ لك ناحيتُه . وبحسَب ذلك فكن في زيارته ، فإنَّ الإلحاح في الزِّيارة يَذهَب بالبهاء ، وربَّما أورث الملالة ؛ وطولَ الهجرانِ يُعقب الجفوة ، ويُحلُّ عقدةَ الإخاء ، ويجعلُ صاحبه مدرجة للقطيعة وقد قال الشاعر :

إذا ما شئت أن تَسْلى حبيباً فأكثِرْ دونَه عددَ الليالي
فما يُسلي حبيبَك مثلُ نأيٍ ولا يُبلي جديدَك كابتذال
[وزر غِبّاً إذا أحببت خِلاً فتحظى بالودادِ مع اتصال]

واقتصِدْ في مزاحك ؛ فإنَّ الإفراط فيه يذهب بالبهاء ، ويجرِّىء عليك أهل الدَّناءة . وإنَّ التقصير فيه يَقبِض عنك المؤانسين . فإن مزحت فلا تمزَحْ بالذي يسوءُ مُعاشِريك .

وأنا أوصيك بخلقٍ قلَّ من رأيته يتخلَّق به ، وذاك أنَّ تحمله شديد ، ومرتقاه صعب ، وبسَبَب ذلك يورث الشَّرف وحميدَ الذِّكر : ألاَّ يُحدثَ لك انحطاطُ من حَطَّتِ الدُّنيا من إخوانك استهانةً به ، ولا لحقِّه إضاعة ، ولما كنتَ تعلم من قَدرهِ استصغاراً ؛ بل إن زرتَه قليلاً كان أشرفَ لك ، وأعطفَ للقلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاعُ مَن رفعت الدنيا منهم تذلُّلاً وإيثاراً له على نظرائه في الحفظ والإكرام ؛ بل لو انقبضتَ عنه كان مادحُك أكثرَ من ذامِّك ، وكان هو أولى بالتعطُّف عليك ، إلاَّ أن يكون مسلَّطاً تخافُ شَذاه ومَعرَّتَه ، وترجو عنده جَرَّ منفعةٍ لصديق ، أو دفعَ مضرَّةٍ عنه ، أو كبتاً لعدوّ وإنزالَ هوانٍ به ؛ فإنَّ السُّلطان وخُيلاءه وزَهوَه يُحتَمل فيه ما لا يجوز في غيره ، ويُعذَر فيه ما لا يُعذر في سواه .

[١٦ - امتداح الذات]

واعلمْ أنَّ نشرَ محاسنك لا يليق بك ، ولا يُقبل منك إلاَّ إذا كان القول لها على ألسُنِ أهلِ المروءات ، وذوي الصِّدق والوفاء ، ومن يَنجع قولُه في القلوب

ممّن يُستنام إلى قوله ، ويُصدَّق خبره ، وممن إنْ قال صدق ، أو مَدحَ اقتصد ، يُثني بقدر البلاء ، فإنَّ إشراف[٣] الثَّناء على قدر النِّعمة يولِّد في القلوب التكذيب ، ويدلُّ على طلب المَزَايد .

فأمّا ثناءُ المادحين لك في وجهك ، فإنّما تلك أسواقٌ أقاموها للأرباح ، وسَاهَلُوك في المبايعة ، ولم يكن في الثَّناء عليهم كُلفة ، لكساد أقاويلهم عند الناس . أولئك الصادُّون عن طرق المكارم ، والمثَبِّطون عن ابتناء المعالي .

فارتَدْ لِنِعَمك مَغرِساً تنمو فيه فروعُها ، وتزكو ثمرتُها ، لا تذهبْ نفقتُك ضَياعاً ، إمّا لعاجلٍ تقدِّمه ، أو لآجلٍ ثناءٍ تنتفع به .

ولن تَعدَمَ أنْ يفجأكَ في بعض أحوالك حقوقٌ تَبْهَظك ، وأحوالٌ تفدحك ، وأمورٌ كلُّها تتقسَّمُ عنايتَك ، وفي التثبُّت في مثلها تُعرف فضيلتُك ، فلا تستقبلها بالتضجُّع وتفتير الراي ، وابدأ منها بأعظمها منفعةً ، وأشدِّها خوفَ ضرر . وكِل ما أعجزَك إلى الكُفلة ، واعتذر من تقصيرٍ إنْ كان ؛ فإنَّ الاعتذار يكسر حُمَيّا اللائمة ، ويردع شَذاةَ الشِّرّة .

ثمَّ تلافَ بعد انكشاف ذلك عنك ما فاتك ، واجهد الجَهْد كلَّه أنْ تكون مخارج الحقوق اللازمة لك من عندك سهلةً ، موصولةً لأصحابها بِبِشرك وطلاقة وَجْهك ؛ فقد زعمت الحكماءُ أنَّ القليل مع طلاقة الوجه أوقع بقلوبِ ذوي المروءات من الكثير مع العُبوس والانقباض .

وقد قال بعض الحكماء : « غاية الأحرار أن يَلقَوْا ما يحبُّون ويُحرَموا ، أحبُّ إليهم من أن يلقوا ما يكرهون ويُعطَوْا » .

[وما أبعَدوا عن الحقّ] .

ولا يدعونَّك كفرُ كافرٍ لبعض نِعَمك ممن آثر هواه على دينه ومروءته ، أو غَدْرةُ غادرٍ تصنَّع لك وخَتَلَك عن مالِك ، أنْ تزهدَ في الإنعام ، وتسيء بثقاتك الظنون ، فإن هذا موضع يجد الشيطان في مثله الذَّريع إلى استفساد الصنائع ،

وتعطيل المكارم .

واعلم أنَّ استصغارك نِعَمك يكبِّرها عند ذوي العقول ، وسترك لها نشرٌ لها عندهم ، فانشُرْها بسَتْرها ، وكبِّرها باستصغارها .

واعلم أنَّ من الفِعل أفاعيلَ وإنْ عظمت منافعُها . ومنافع أضدادها فلإيثارها فضيلةٌ على كلِّ حال . فاجعَلْ صمتَك أكثرَ من كلامك ؛ فإنّه أدلُّ على حكمتك . واجعل عَفْوك أكثر من عقوبتك ، فإنّ ذلك أدلُّ على كرمك . ولا تُفْرطنَّ فيه كل الإفراط حتّى تطْرح الكلام في موضعه ، والتأديبَ في أوانه .

واعلم أنَّ لكلِّ امرىء سيِّداً من عمله ، قد ساهلته فيه نَفْسُه وسَلِسَ له فيه هواه ، فتحفَّظْ ذلك من نفسك ، وتقاضَها الزيادةَ فيه ، وروِّضْها على تثميره والمواظبةِ عليه .

واحذر الحذَر كلَّه الاغترار بأمور ثلاثة ؛ فإنَّ من عَطِب بها كثير ، وتلافِيَها صعبٌ شديد .

أحدُها : ألّا تولِّيَ جسائم تصرُّفك وتقلُّد مُهِمّ أمورك ووثائق تدبيرك إلّا امرأً صلاحُه موصولٌ بصلاحك ، وبقاء النِّعمة عليك هو بقاء النعمة عليه .

أو ان تأْنس او تغترَّ بمن تعلم أنَّ بصلاحك فسادَه ، وبارتفاعك انحطاطَه ، وبسلامتك عطبَه ؛ فإنَّ من كان هكذا فأنت مَلَكُ مَوته . فبِحَسْب ذلك فليكن عندك .

أو أن تجعل مالَك كلّه في عُقدةٍ واحدة ، أو حيِّز واحد ، [أو وجهٍ منفرد]، إن اجتاحَتْه جائحةٌ أو نابَتْهُ نائبةٌ بقيتَ حسيراً . وقد قال بعض الحكماء : « فرِّقوا المنيَّة »، و « اطلبوا الأرباحَ بكلِّ شِعب ».

واعلم أنّه ليس من الأخلاق التي ذمّتْها الحكماء خُلقٌ إلّا وقد ينفعُ في بعض الحالات ، ويردُّ بِه شَكلُه ، ويقام بإزاءِ مثله ، ويُدافَع به نظيره .

[١٧ ـ سياسة السلطان]

إنّك ستُمنى بصُحبة السُّلطان الحازم العادل ، وبصحبة السُّلطان الأخرق الجهول الغشُوم . فالحازم العادلُ يَسُوسه لك الأدبُ والنُّصح ، والأخرق تسومُه لك الحِيلة والرُّفق . العادل يَعضُدك منه ثلاث ، وتَصبر نفسُه لك على ثلاث :

فاللواتي يعضُدنك : تسليط العدل وإنفاذ الحكومة ـ وفي ذلك صلاح الرعيّة ـ وإثابة المحسنين الذين إثابتُهم تحصينُ البَيضةِ والسُّبل ، والعفو ما بُلِغ به الإستصلاحُ ، واكتُفِي به من البَسْط . واللّواتي تصبر نفسُه لك عليهن : الهوى إلى ما وافق الرأي ، وأمضى الرأي الاّ بعد التثبت حتّى تعاونَه عليه النُّصحاء .

ولكنّي أوصيك برياضة نفسِك حتّى تذلِّلها على الأمور المحمودة ؛ فإنّ كلّ أمرٍ ممدوحٍ هو ممّا تستثقل النُّفوس . [وممّا تسرُّ به وتنقلب إليه الأخلاق المذمومة]. فإنْ أهملتها وإيّاها غَلَبَتْ عليك ، لأنّها فيها طبيعةٌ [مركّبة]، وجِبِلّةٌ مفطورة .

فلتكن المساهلة في أخلاقك أغلبَ عليك من المعاسَرة، والحلمُ أولى بك من العَجَلة ، والصَّبرُ الحاكمَ عليك دون الجَزع ، والعفوُ أسبقَ إليك من المجازاة بالذُّنوب ، والمكافأةِ بالسُّوء .

[وكذلك سائر الأخلاق المحمودة والمذمومة ، فلتكن محموداتُها غالبةً على أفعالك ، محكَّمة في أمورك]. فإنّك إنْ ضبطت [ذلك ، وقوّمتَ عليه] نفسَك ، عشتَ رخيّ البال ، قليلَ الهموم ، كثير الصديق قليلَ العدوّ ، [سليمَ الدين ، نقيّ العِرض ، محمودَ الفِعال]، جميلَ الأحدوثة في حياتِك وبعد وفاتك ، وكنت بموضع الرجاة ان يَصِل اللّهُ لك السلامَة الآجلة بالنِّعمة العاجلة [إن شاء الله عزّ وجلّ].

أسأل الله المبتدىءَ بكلِّ نِعمة ، والمتولّيَ لكلِّ إحسان ، أن يصلّي على محمد خِيرته من خلقه ، وصفوته من بريّته ، وأن يتمّ عليك نعمَته ، ويشفع لك ما

خَـوَّلك من نِعمتـه بالنِّعمـة التي يُؤْمَن معها الـزَّوال ، في جوارِه ومـرافقةِ أنبيـائـه .
والسـلام عليك ورحمة الله .

* * *

تمت الرسالـة في الأخلاق المحمـودة والمذمـومة بعـون الله ومَنِّه . والله المـوفق للصـواب ، والحمد لله أولاً وآخـراً ، وصلواته عـلى سيدنـا محمد نبيـه وآله وصحبـه وسلامُه .

يتلو هذه الرسالة :

كتـاب كتمـان السر وحفظ اللســان من كـلام أبي عثمــان عمـرو بن بحـر الجاحظ أيضاً . والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته .

هامش رسالة المعاش والمعاد

(١) علل الحكيم تبيان اسباب الامور وعواقبها . بهذا المعنى يقترب الجاحظ من ارسطو الذي حدد الحكيم بانه الذي يعرف علل الاشياء .

- العقل هو الذي يكبح الهوى ويسير بالانسان في الطريق المستقيم . فالجاحظ كبير الثقة بالعقل كالمعتزلة .

- ظواهر الامور وبواطنها . هذا التمييز الذي بدأه الجاحظ بلغ ذروته عند كانط وهيوم .

- ابو عبد الله، هو على الارجح احمد بن ابي دؤاد والد القاضي محمد الذي يوجه اليه الجاحظ الكلام . وقد كانت صلة الجاحظ به وطيدة قبل ان يصاب بالفالج ويحل ابنه مكانه في القضاء .

- ان ذلك طبع غير تكلف : فالطبع هنا معناه عدم التكلف او التصنع . يعني ما هو تلقائي أو مباشر.

- يشير الجاحظ هنا الى شغفه بالكتب بجمعها وينظر فيها لأن تصفحها يطلعنا على عقول العالمين . وقد عبر عن هذا الميل عنده في مقدمة كتاب الحيوان حيث كتب أجمل وصف للكتاب .

- يميز الجاحظ هنا بين نوعين من العقل : العقل المطبوع والعقل المكتسب . على نحو ما ميز ارسطو والفلاسفة العرب امثال الكندي والفارابي وابن سينا بين العقل الهيولاني او بالقوة ، والعقل بالملكة او المستفاد او بالفعل . وقد اعترف الجاحظ بأن الحكماء هم الذين ذهبوا الى هذا التفريق بين انواع العقل ، مما يدل على تأثره

- استنبط تعني استخرج علل الاشياء ولم يقتصر على وصفها او عرضها . والجاحظ يذهب الى ان معرفة الاسباب تفضي الى اليقين . أما مجرد العرض والوصف فيقف بصاحبه عند الظن . ويقول ايضاً ان احكام الدين مبينة الاسباب مكشوفة العلل . وبذلك يكون قد وحد بين الفلسفة والدين . وهذا ما اعتقده فعلاً وصرح به في تعريفه لعلم الكلام .

(٢) الطبائع جمع طبيعة وهي ما « ركب عليه الخلق وفطرت عليه البرايا كلهم ، فهم فيها مستوون والى وجودها في انفسهم مضطرون ، وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون » . بهذا يلخص الجاحظ مذهبه الطبيعي . فهو يؤمن بوجود طبائع فطرية في الخلق سواء كانوا بشراً او حيوانات او جمادات . وهم مضطرون للخضوع الى هذه الطبائع وليسوا احراراً في مخالفتها . والقول في الطبائع يؤدي الى القول بالتولد أي صدور افاعيل عن الطبائع لا دخل لله فيها .

(٣) يحدد الآداب بانها آلات او وسائل تستعمل لتدبير امور الانسان في الدنيا والآخرة وفي الدين والدنيا . هذه الآداب وضعت على اساس الطبائع .

- الفرق بين الدين والدنيا هو اختلاف الدارين فقط والآداب واحدة والحكم واحد . وبهذا وحد الجاحظ بين الدين والسياسة وخلط بينهما خلطاً قوياً .

- التكليف مرتبط بالابتلاء او الاختبار وهو مبدأ قال به معظم المعتزلة ومنهم الجاحظ .

(٤) من طباع الناس الاساسية حب المنافع ودفع المضار ويؤكد الجاحظ على انها فطرة في الانسان والحيوان .

- النفس طبعت على ميول اهمها حب الراحة ، والعلو والغلبة والاستطراف ، واللذة الحسية المتنوعة .

(٥) السياسة تقوم على الترغيب والترهيب وهما غريزتان فطريتان في الانسان سبقت الاشارة اليهما (رقم ٤) . وقد لجأ إليهما الدين عندما ذكر الجنة والنار ، الجنة للترغيب والنار للترهيب .

- وارفق الترغيب والترهيب بمبدأ ثالث هو العدل .

- يقابل الترغيب والترهيب بمبدأ رابع هو الوعد والوعيد .

- السياسة تعني التدبير أي تدبير شؤون الناس . هذا ما يفهم من كلامه « فالرغبة والرهبة اصلا كل تدبير وعليهما مدار كل سياسة ، عظمت او صغرت » .

(٦) يحدد معنى العدل في الدنيا او في السياسة : وهو يعني الاثابة او الجزاء حسب الاستحقاق .

(٧) لكل شيء افراط وتقصير ، والفضيلة في ملازمة الحدود او في التوسط . وهذا مبدأ

من مبادىء المعتزلة عبر عنه بالمنزلة بين المنزلتين .
وفي هذا النص تطبيق صريح لمبدأ البيئة الذي آمن به الجاحظ . وفي السببية والتولد والتوسط يلتقي الجاحظ مع ارسطو .
- التوكل لا يعني التواني والاعتماد على قوة أخرى ولا يعني الاحالة على الاقدار . لقد امر الله بالتوكل عند انقطاع الحيل وبذل ما في الوسع . وبهذا يخالف الجاحظ الاشاعرة والمتصوفة .
(٨) يحدد الجاحظ معنى الجود بانه مساعدة المحتاجين عند النوائب ، والتفضل على الراغبين مع تجنب السرف . وينصح بتثمير المال لأن المال « آلة المكارم ومتألف للاخوان وعون على الدين » . وهو يردد ما سبق اليه ابن المقفع في الأدب الكبير والأدب الصغير وفي كليلة ودمنة .
(٩) المنطق استعمل هنا بمعنى النطق وهو ضد الصمت . ولم يستعمل بمعنى العلم الذي ابتدعه ارسطو . والجاحظ ينصح بالاعتدال في الكلام والصمت اخذاً بمذهبه الاعتزالي : التوسط .
(١٠) الشجاعة تعني المخاطرة في النفس والمال في كل أمر تجهل عاقبته . ولا تحمد الا اذا وجبت في الدين أو في سبيل درء العار . ولا تحمد اذا كانت في سبيل منفعة في الدنيا لانها تكون ضرباً من الحماقة .
(١١) في معاملة العدو يضع قواعد من الخير ويقارنها بقواعد او نصائح ابن المقفع . من مداراة ، وحفظ سر الخ .
(١٢) يجعل الناس من حيث الخدمات التي يؤدونها للحاكم ثلاثة اجناس : اصحاب الرأي والمشورة ، اهل الشدة والغلظة ، اصحاب المهن المختلفة . وينبغي على الحاكم العناية بهم جيماً وتعهدهم بالثواب والجزاء .
(١٣) العلم بما غاب نحصل عليه بطرق ثلاث : « الاخبار المتواترة التي يحملها الولي والعدو والصالح والطالح . اي جيع الناس تقريباً .
٢) الاخبار المتواطئة : التي يتفق عليها العدد الكبير من الناس وان جهلها معظمهم . وينبغي السؤال عن هذه الاخبار وتوجيهه الى عدة اقوام نقلوها . فاذا تواطأوا عليها على الرغم من تفاوت احوالهم اعتبرت صحيحة . وقد اعتمد الجاحظ هذه الطريقة في اثبات حجج النبوة (راجع رسالة حجج النبوة) .
٣) الخبر المفرد الذي يجيء به الرجل او الرجلان ، لا يصح تصديقه الا اذا كان المخبر عدلاً وثقة .
هذا مما يدرك بالعيان . الغائب الذي لا يدرك بالعيان مثل سرائر القلب وما

اشبه فيدرك بوسيلة اخرى غير الخبر هي آثار افاعيلها الغالبة .
درجات العلم ثلاثة هي الشك فالظن فالعلم . اول العلم بالامور الشك فاذا ظهرت بعض الادلة زال الشك وحل مكانه الظن ، فاذا قويت الأدلة زال الظن وحل العلم اليقيني . وقد ردد الجاحظ هذه المراتب في عدة اماكن من كتبه مثل الحيوان وبعض الرسائل .

(١٤) الصداقة ضرورية للانسان لأن الصديق أخ ثان ، « وشقيق الروح ونوأم العقل » وانيس العيش . وينبغي الحرص عليه والاكثار منه . وتجدر مقارنة اقوال الجاحظ حول الصداقة باقوال الامام علي بن ابي طالب ، وابن المقفع .

(١٥) يمقت الجاحظ المفاخرة بالأنساب التي اعتد بها العرب . وعلى هذا الاساس يمكن معرفةالغرض الذي رمى اليه الجاحظ في رسالة « فضل هاشم على عبد شمس » ومثيلاتها من رسائل التفاخر بالانساب .

(١٦) مقت المداحين ، وبالتالي الشعراء والكتاب الذين اكثروا من المديح . انه موقف خلقي وسياسي وفني يسجل للجاحظ « تلك اسواق اقاموها للارباح » .

(١٧) كيف نعامل السلطان العادل والسلطان الجاهل : نصائح قيمة يسديها للقاضي .

- ٢ -

رسالة الاوطان والبلدان

[١ ـ موضوع الكتاب : تفاضل البلدان وحب الاوطان]

فصل: زيّنكَ اللّهُ بالتّقوى، وكفاكَ المهمّ من أمر الآخرةِ والأولى، وأثلج صَـدرَكَ بـاليقـين ، وأعـزّكَ بـالقنـاعـة ، وختم لـك بـالسّعـادة ، وجَعلك من الشاكرين .

سألتَ ـ أبقاكَ الله ـ أن أكتب لك كتاباً في تفاضُلِ البُلدان، وكيف قناعةُ النّفسِ بالأوطان ، ومـا في لـزومهـا من الفَشَل والنّقص ، ومـا في الطّلب من علم التّجارب والعقل .

وذكـرتَ أنّ طُـول المُقـام من أسبـاب الفقـر ، كـما أنّ الحـركـة من أسبـاب اليُسْر ، وذكرتَ قول القائل : « الناس بأزمانِهم أشبَهُ منهم بآبائِهم ».

ونسيتَ ـ أبقاكَ الله ـ عملَ البُلدان ، وتصرُّف الأزمان ، وآثارهما في الصُّوَر والأخـلاق ، وفي الشمـائِـل والآداب ، وفي اللُّغـات والشّهـوات ، وفي الهمـم والهيْئات ، وفي المكاسِبِ والصّنـاعات ، عـلى ما دَبّـرَ اللّهُ تعالى من ذلـك بالحكمـة اللطيفة ، والتدابير العجيبة .

فسبحانَ من جَعلَ بعضَ الاختلافِ سبباً لـلائتلاف ، وجعـل الشكّ داعيةً إلى اليقين ، وسُبحـان مَن عـرّفنـا مـا في الحَيْـرَة من الـذّلّـة ، ومـا في الشّكّ من الوَحْشة ، وما في اليقين من العِزّ ، وما في الإخلاص من الأُنس .

وقلتَ : ابدأْ لي بالشّام ومصر ، وفضْلِ ما بينهما ، وتحصيلِ جمالهما ، وذكرتَ أنّ ذلك سيجرّ العراق والحجاز ، والنجود والأغوار ، وذكرَ القُرى والأمصار ، والبراريّ والبحار .

واعلمْ ـ أبقاكَ اللّهُ ـ أنّا متى قدّمنا ذكر المؤخّر وأخّرنا ذكر المقدّم ، فسَدَ النّظام وذهبت المراتب . ولستُ أرى أن أقدّم شيئاً من ذكر القرى على ذكر أمّ جميع القرى . وأولَى الأمور بنا ذكرُ خصال مكّة ، ثمّ خصال المدينة .

ولولا ما يجبُ من تقديم ما قدّم اللّهُ وتأخيرِ ما أخرَّ ، لكان الغالبُ على النفوس ذكرَ الأوطانِ وموقعِها من قلب الإنسان .

[٢ ـ حب الوطن طبع في الناس]

وقد قال الأوّل : « عَمَّر اللّهُ البُلدان بحبِّ الأوطان »، وقال ابن الزُّبير : « ليس الناسُ بشيءٍ من أقسامهم أقنع منهم بأوطانهم».

[و] لولا ما منّ الله به على كلِّ جيلٍ منهم من الترغيب في كل ما تحت أيديهم ، وتزيينِ كلِّ ما اشتملت عليه قدرتهم ، وكان ذلك مفوّضاً إلى العُقول ، وإلى اختيارات النُّفوس ـ ما سَكَن أهل الغِياض والآدغال في الغَمَق واللَّثق، ولَما سكَنُوا مع البَعُوض والهَمَج ، ولما سكَن سُكّان القِلاع في قلل الجبال ، ولما أقامَ أصحاب البَرارِي مع الذِّئاب والأفاعي وحيثُ من عَـزَّ بَزّ ، ولا أقام أهلُ الأطراف في المخاوف والتّغرير ، ولما رضِيَ أهلُ الغيران وبطونِ الأودية بتلك المساكن ، ولالتمس الجميع السُّكنى في الواسطة ، وفي بَيْضة العرب ، وفي دار الأمْن والمَنَعة . وكذلك كانت تكون أحوالهم في اختيار المكاسب والصناعات وفي اختيار الأسماء والشّهوات . ولاختاروا الخَطير على الحقير ، والكبيرَ على الصغير .

ألا تراهم قد اختاروا ما هو أقبحُ على ما هو أحسن من الأسماء والصِّناعات ،

ومن المنازلِ والدِّيارات ، من غير أن يكونوا خُدِعوا أو استُكْرِهوا .

ولـو اجتمعوا عـلى اختيارِ مـا هو أرفع ، وَرَفْض ما هـو أوضَـعُ من اسمٍ أو كُنيـة ، وفي تجارة وصنـاعـة ، ومن شهـوةٍ وهمّـة ، لـذهبت المعـامـلات ، وبَـطَل التميـيز ، ولوقـع التجاذُب والتغـالب، ثم التحارب ، ولصـاروا غَرضـاً للتُّفـاني ، وأكلة للبَوار .

فالحمد لله أكثَرَ الحمدِ وأطيَبَه على نعمه ، ما ظَهَرَ منها ومـا بطَنَ ، ومـا جُهِل منها وما عُلم !

ذكر الله تعالى الدِّيار فخبَّر عن موقعها من قلوب عباده، فقال: ﴿ولو أنّا كَتَبْنا عَلَيْهِمْ أنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أو اخْـرُجُـوا مِنْ دِيَـارِكُمْ مـا فَعَلُوهُ إلاَّ قليـلٌ منهم ﴾. فسوَّى بين مـوقـع قتـل أنفسِهم وبين الخـروج من ديارهم . وقـال : ﴿ وَمَا لَنَـا ألاَّ نُقاتِل في سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنا مِنْ دِيَارِنَـا وأبنائِنا ﴾. فسوَّى بين موقـع الخروج من ديارهم وبين موقع هَلاك أبنائهم .

فصل منه : ـ فقسم الله تعالى المصالحَ بين المُقَام والـظَّعْن ، وبين الغُربة وإلفِ الـوطَن ، وبين مـا هـو أربحُ وأرفـع ، حين جَعَـلَ مجـاريَ الأرزاق مـع الحركة والطَّلَب . وأكثرُ ذلك ما كان مَعَ طول الاغتراب ، والبُعْـدِ في المسافـة ، ليُفيدك الأمور ، فيمكن الاختبار ويحسن الاختيار .

والعقل المولـود متناهي الحـدود ، وعَقْل التجـارب لا يُوقَف منـه على حـدّ . ألا تـرى أنَّ الله لم يجعل إلف الـوطن عليهم مفترضـاً ، وقيداً مُصْمَتـاً ، ولم يجعـل كِفاياتِهم مقصورةً عليهم ، محتسبة لهم في أوطانهم ؟ ألا تراه يقـول : ﴿ فاقـرءُوا مَا تَيسَّرَ من القـرآن ، عَلِمَ أن سَيكون منكم مَـرْضَى وآخـرُون يَضْـرِبُـون في الأرض يبْتَغُون مِنْ فَضْلِ الله وآخـرون يُقاتِلُون في سَبيـلِ الله ﴾. فقسَّم الحاجـاتِ فجعل أكثـرَها في البُعـد . وقال عـزّ ذكره : ﴿ فـإذا قُضِيت الصَّلاة فـانتشِرُوا في الأرضِ وابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ الله ﴾ فأخرج الكـلاَم والإطلاق عـلى مُخْرج العمـوم ، فلم يخصَّ أرضاً دون أرض ، ولا قُرباً دون بُعد .

فصـل منه : ـ ونحن ، وإنْ أطنبنـا في ذكر جملة القـول في الوطن ، وما يعمـلُ في الطبـائع ، فـإنّا لم نـذكر خصـال بلدةٍ بعينها ، فنكـون قد خـالفنا إلى تقديم المؤخّر وتأخير المقدّم .

قالوا : ولم نجهل ولم ننْكر أنَّ نَفْس الإلف يَكـون من صَلاح الـطبيعة ، حتى إنَّ أصحـاب الكِلاب ليجعلون هـذا من مفاخـرها عـلى جميع ما يُعاشِر النّـاسَ في دُورهم من أصنـاف الـطير وذوات الأربع : وذلـك أنَّ صـاحب المنـزل إذا هَجر منزِلَه واختار غيرَه ، لم يتبعْه فرسٌ ولا بغـلٌ ولا حِمارٌ ، ولا ديـكٌ ولا دَجاجـة ، ولا حمامةٌ ولا حمام ، ولا هِرٌّ ولا هرّة ، ولا شاةٌ ، ولا عُصفـور ؛ فإنَّ العصـافير تـألفُ دُورَ النّاس ، ولا تكاد تقيم فيهـا إذا خرجُـوا منها . والخـطاطيف تقطعُ إليهم لتُقيم فيهـا إلى أوانِ حاجتِهـا إلى الرُّجـوع إلى أوطانها ، وليس شيءٌ من هـذه الأنـواع ممّا تبـوّأ في الـدُّور بـاجتـلابهم لها ، ولا ما تبـوّأ في دورهم ممّا ينـزِع إليهم أحنَّ من الكَلْب ، فإنّه يؤْثره على وطنه ، ويَحمِيه ممن يغشاه .

فذكروا الكلبَ بهذا الخُلُق الذي تفرّد به دونَ جميع الحيوان .

وقالوا في وجه آخر : أكرم الصّفايا أشدُّهـا وَلَهاً إلى أولادهـا ، وأكرَمُ الإبـل أحنُّها إلى أعطانها . وأكـرم الأفلاءِ أشـدُّها مـلازمةً لأمّـاتها ، وخيـر النّاسِ آلَفُهُمْ للنّاس .

[٣ ـ خصال قريش]

فصـل منه : وقلتم : خبِّـرونا عن الخصـال التي بانت بهـا قـريشٌ عن جميـع النـاس . وأنا أعلم أنّـك لم تُرد هـذا . وإنّما أردتَ الخصـالَ التي بانت بهـا قـريشٌ من سائر العرب ، كما ذكـرنا في الكتـاب الأوّل الخصالَ التي بـانت بها العرب عن العجم ؛ لأنّ قـريشاً والعـربَ قد يَستَـوُون في مناقبَ كثيـرة . قد يُلفى في العـرب الجوادُ المُبِرّ وكذلك الحليم والشُّجاع ، حتى يأتيَ عـلى خصـالٍ حميـدة ؛ ولكنا نـريد الخصائصَ التي في قُريشٍ دون العرب .

فمن ذلك أنّا لم نر قرشيّاً انتسب إلى قبيلة من قبائل العرب، وقد رأينا في قبائل

العرب الأشرافِ رجالاً - إلى السّاعة - ينتسبون في قريش ، كنحو الذي وجَدْنا في بني مُرّة بنِ عوف ، والذي وجدنا من ذلك في بني سُلَيم ، وفي خزاعة، وفي قبائل شريفة .

وممّا بانت قريش أنّها لم تلِدْ في الجاهلية ولداً قطّ [لغيرها] ولقد أخذ ذلك منهم سُكّانُ الطّائف ، لقُرب الجِوار وبَعض المصاهرة ، ولأنّهم كانوا حُمْساً ، وقُريش حَمّستهم .

وممّا بانت به قريش من سائِر العرب أنّ الله تعالى جاءَ بالإسلام وليس في أيدي جميعِ العرب سبيّةٌ من جميع نساءِ قريش ، ولا وَجَدوا في جميع أيدي العرب ولداً من امرأةٍ من قريش .

وممّا بانت به قريشٌ من سائِر العرب أنّها لم تكن تزوّج أحداً من أشراف العرب إلاّ على أن يتحمَّس ، وكانوا يُزَوَّجون من غير أن يُشتَرَطَ عليهم ، وهي عامر بن صعصعة ، وثقيف . وخُزاعة ، والحارث ابن كعب ، وكانوا ديانين ، فلذلك تركوا الغَزْو لما فيه من الغَصْب والغَشم ، واستحلال الأموال والفروج .

ومن العجب أنّهم مع تركهم الغَزْوَ كانوا أعزَّ وَأمثَلَ ؛ مثل أيّامِ الفِجَار وذات كَهْفٍ .

ألاَ ترى أنّهم عند بُنيان الكَعْبَةِ قال رؤساؤهم : لا تُخرِجوا في نفقاتكم على هذا البيت إلاّ من صَدُقَات نسائِكم ، ومواريث أبائِكم ا أرادوا مالاً لم يكسبوه ولا يشكّون أنه لم يدخله من الحرام شيء.

ومن العجب انَّ كسبهم لمّا قَلَّ مِن قِبَلِ تركهم الغَزْو . ومالُوا إلى الإيلاف والجهاد ، لم يَعْتَرِهِمْ من بُخل التجّار قليلٌ ولا كثير ، والبُخلُ خِلقةٌ في الطُّباع ، فأعطَوُا الشُّعراءَ كما يُعطِي الملوك ، وقَرَوُا الأضيافَ ، وَوَصَلُوا الأرحام قاموا بنوائِب زُوّارِ البيت ، فكان أحدُهم يَحِيسُ الحَيْسَةَ في الأنطاع فيأكل منها القائمُ والقاعد ، والراجلُ والرّاكب واطعمُوا بدل الحَيْس الفالوذَج . ألا ترى أُميَّةَ بن أبي

الصلت يقول ، ويذكُرُ عبدَ الله بن جدعان :

لـه داعٍ بمكّـةَ مشـمـعـلٌ وحـفصٌ فـوق دارتـهِ ينـادي
إلى رُدُحٍ مـن الشّـيـزى مِـلاءٍ لبـابَ البُـرِّ يُلبَـك بـالشّـهـادِ

فلُبَاب البُرّ هو هذا النّشا ، والشُّهاد يعني به العسل .

ألا ترى أنّ عمر بن الخطاب يقول : « أتُرَوْني لا أعرِفُ طيِّبَ الطعام ؟ لُباب البُرِّ بصِغارِ المِعْزَى »، يعني خُبْزَ الحُوّارَي بصغار الجداء .

ولقد مدحَتْهم الشُّعراءُ كما يُمدح الملوك ، ومَدحَتْهم الفرسانُ والأشراف وأخذوا جوائزهم ؛ منهم : دريد بن الصِّمَّة ، وأُميَّة بن أبي الصَّلت .

ومن خصالهم أنّهم لم يُشاركواْ العربَ والأعرابَ في شيءٍ من جَفائهم ، وغِلَظ شَهَواتهم ؛ وكانوا لا يأكلون الضِّباب ، ولا شيئاً من الحشرات ، ألا ترى أنّ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أتَوْا خِوانَهُ بضبٍّ فقال : « ليسَ من طَعام قَوْمي »، لأنّهم لم يكونوا يَحرِشُون الضِّباب ، ويَصيدون اليرابيع ، ويملُون القَنافذ ، أصحابُ الخَمْر والخَمير ، وخُبز التَّنانير .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ : « أنا أفصحُ العرب بيد أنّي من قريشٍ ، ونَشأتُ في بني سعد بن بكر ».

وذلك أنّ جميع قبائل العرب إنّما كانت القبيلةُ لا تكاد ترى وتسمعُ إلاّ من قبيلتها ورجالها ، فليس عندهم ، إلاّ عند قبيل واحد ، من البيان والأدب والرأي والأخرق ، والشمائلِ ، والحلم والنّجدة والمعرفة ، إلاّ في الفَرْط .

وكانت العرب قاطبَة ترد مكّة في أيّام الموسم ، وترد أسواق عكاظٍ وذا المجاز ؛ وتقيم هناك الأيّام الطّوال ، فتَعَرَّف قريشٌ، لاجتماع الأخلاق لهم [و] الشّمائل والألفاظ ، والعُقول والأحلام ، وهي وادعة وذلك قائمٌ لها ، راهنٌ عندها في كلّ عام ، تَتملّك عليهم فيقسمونهم ، فتكون غَطفان للمِيرة ، وبنو عامرٍ لكذا ، وتَميم لكذا ، تغلبها المناسك وتقوم بجميع شأنها .

[٤ ـ مكة]

فصل منه : وفتح مكة يسمّى فتحَ الفتوح ؛ وفيها بيتُ الله ، وأهله وحُجّاجه زوّار الله ؛ وهو البيت العتيق والبيتُ الحرام ؛ وفيه الحِجْر ، والحجر الأسْود .

وله زمزم، وهي هزمة جبريل ـ صلوات الله عليه ـ ومقام ابراهيم، وماء زمزم لِمَا شرب له ، العاكفُ فيه والبادِي سواءٌ .

وبسبب كرامته أرسل الله طير الأبابيل وحجارة السِّجِّيل. وأهلهُ حُمْس ولقاح لا يؤدُّون إتاوة ، ولهم السِّقاية ، ودار النَّدوة ، والرِّفادةُ ، والسِّدانة .

قال : وأقسم الله تعالى بها ، قال : ﴿ لاَ أُقْسِمُ بِهَـٰذَا ٱلْبَلَدِ . وَأَنْتَ حِلٌّ بهذا البَلَدَ ﴾. وقوله جل ذكره : ﴿ لاَ أُقْسِمِ ﴾. اي : أُقسم ، وإنّما قوله « لا » في هذا الموضع صلةٌ ، ليس على معنى « لا » الذي هو خلاف « نعم ».

وقالوا : ولو كان قوله : ﴿ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴾ يراد به تقادُمُ البنيان ، وما تعاورَه من كُرور الزّمان ، لم يكن فضلُه على سائر البُلدان ، لأنَّ الدنيا لم تَخْلُ من بيتٍ ودار ، وسُكّان وبُنيان . وقد مرّت الأيام على مصر، وحَرّان ، والحِيرَةِ ، والسُّوس الأقصى ، وأشباهِ ذلك ، فجعل البيت العتيق صفةً له ، ولو كان ذهب إلى ما يعنون ، كان من قَبلِ أنْ يَعْتُقَ ويَمُرَّ عليه الأزمنة ليس بعتيق . وهذا الاسم قد أُطلِقَ له إطلاقاً ، فاسمه البيت العتيق ، كما أنَّ اسمَه بيتُ الله .

ومن زعم أن الله تعالى حرمه يوم خلق السموات والأرض، فقولنا هذا مصداقٌ له .

ومن زعم أنّه إنّما صار حراماً مذْ حَرّمه إبراهيم، كان قد زعم أنّه قد كان ولا يقال له عتيقٌ ولا حرام .

قالوا : وممّا يصدّق تأويلَنا أنّه لم يُعرفْ إلاّ وهو لَقاح ، ولا أدّى أهلُه إتاوةً

قطُّ ، ولا وطِئته الملوكُ بالتّمليك : أنّ سابور ذا الأكتاف ، وبُخْت نَصّر وأبا يكسوم وغيرَهم ، قد أرادُوه فحال الله تعالى دونه ، فتلك عادةٌ فيه ، وسُنّةٌ جارية له .

ولولا أنْ تُبّعَ أتاه حاجّاً ، على جهة التعظيم والتديُّن بالطُّواف ، فحجّه وطافَ به ، وكَساه الوصائِل ، لأخْرَجه الله منه .

وحجَّهُ بعضُ مُلوكِ غَسان ولخم ، وهم نصارى ، تعظيماً له ، ولما جعلَ اللّهُ له في القلوب .

والعَتيق يكون من رقّ العبوديّة ، كالعبد يَعتقه مولاه . ويكون عتيقاً من النار ، كالتائب من الكبائر ، وكالرّجل يدعو إلى الإيمان فيُستجاب له ، ويتعلّم ناسٌ على يده ، فهُم أيضاً عُتَقاءُ .

ويكون الرُّجلُ عتيقاً مِن عِتْق الوجه .

وربّما كان عتيقاً كما يقال للفرس عتيقٌ وليس بهجين ولا مُقْرِف . وقد سُمّي أبو بكرِ بن أبي قُحافَةَ ـ رضوان الله عليه ـ عتيقاً ، من طريق عِتْق الوجه ، ومن طريق أنّهم طلبوا المثالبَ والعيوب التي كانت تكون في الأمّهات والآباءِ فلَمْ يَجدوها ، قالوا : ما هذا إلاّ عتيق .

[٥ ـ خصال هاشم]

فصل منه : ـ قد قلنا في الخصال التي بانت بها قريش دون العرب، ونحن ذاكرون ـ وبالله التوفيقُ ـ الخِصالَ التي بانت بها بَنُو هَاشم دونَ قريش .

فأوّلُ ذلك النبوّة ، التي هي جِماعُ خصالِ الخَيْر ، وأعلاها وأفضلُها ، وأجلُّها وأسناها .

ثمّ وجَدْنا فيهم ثلاثةَ رجالِ بَني أعمام في زمانٍ واحد ، كلُّهم يسمّى عليّاً ، وكلُّ واحدٍ من الثّلاثة سيّدٌ فقيه ، عالمٌ عابد ، يَصلُح للرِّياسة والإمامة ،

مثلَ عليّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطّلبِ بن هاشم ، وعليّ بن الحُسين بن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم ، وعليّ ابن عبد الله بن جعفرِ بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم .

ثُمّ وجَدْنا ثلاثةَ رجالٍ بني أعمامٍ ، في زمانٍ واحدٍ، كلُّهم يسمّى محمّداً، وكلُّهم سيِّدٌ وفقيهٌ عابد ، يَصلُح للرياسة والإمامة ، مثلَ محمّد بن عليّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطلب بن هاشم ، ومحمّدِ بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم ، ومثلَ محمّد بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب بن عبد المطّلب بن هاشم .

وهذا من أغربِ ما يتهيّأ في العالم ، ويتّفق في الأزمنة ، وهذه لا يشركهم فيها أحد ، ولا يستطيع أن يدّعيَ مثلَها أحد .

ولبني هاشمٍ واحدةٌ عزيزة، وثانيةٌ نادرة، يتقدّمون بها على جميع الناس. وذلك أنّا لا نعرف في جميع مملكةِ العرب ، وفي جميع مملكة العجم ، وفي جميع الأقاليم السّبعة ، مَلِكاً واحداً مُلكُهُ من نصاب واحدٍ ، وفي مغرس رسالة ، إلّا من بني هاشم ، فإنّ مَلِكهم العبّاسُ بن عبد المطلب ، عمُّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، والعمُّ وارثٌ ، والعمُّ أبٌ ، ولا نعلم أمّةً تدّعي مثلَ هذا لِمَلِكها .

وهذا شيءٌ سمعتُه من أبي عُبيدة ، ومنه استمليت هذا المعنى .

ولبني هاشم ـ مُذْ ملَكوا هذه الدُّفعة ـ دون أيّام عليّ بن أبي طالب والحسنِ ابن عليّ إلى يومنا هذا مائةٌ وستُّ عشْرة سنة ، كان أوّل بركتهم أن الله ـ تعالى ـ رفع الطّواعين والمُوتانَ الجارف ، فإنّهم كانوا يُحصَدون حصداً بعد حصد .

ثمّ الذي تهيّأ واتّفق ، وخُصَّ به آل أبي طالب من الغرائب والعجائب والفضائل ، ما لم نجده في أحد سواهم : وذلك أنّ أوّل هاشميٍّ هاشميِّ الأبَوين كان في الدّنيا وُلِدَ لأبي طالب ، لأنّ أباهم عبد مناف . وهو أبو طالب ابن شَيْبة ـ وهو عبد المطّلب ـ بن هاشم ـ وهو عمرو ـ وهو أبو شيبة . وشيبة هو عبد المطّلب . وهو أبو الحارث وسيّد الوادي غير مدافَع ، بن عمرو ، وهو هاشم

إبن المغيرة ، وهو عبد مناف .

ثم الذي تهيأ لبني أبي طالب الأربعة : أنّ أربعة إخوة كان بين كلّ واحد منهم وبين أخيه في الميلاد عَشْرُ سِنِينَ سواءً ، وهذا عَجَبٌ .

ومن الغرائب التي خُصُّوا بها ، أعني ولدَ أبي طالب ، أنّا لا نعلم الإذكار في بلدٍ من البُلدان ، وفي جيلٍ من الأجيال ، [إلاّ] أهلَ خراسان فمن دونهم ، فإنَّ الإذكار فيهم فاشٍ ؛ كما أنّك لا تجد مِن وراءِ بلادِ مصر إلاّ مئناثاً ، ثم لا ترى فيهنَّ مُفذّاً ، بل لا ترى إلاّ التؤام ومن البَنات .

فتهيّأ في آل أبي طالب من الإذكار ما لم نعرفه في قديم الدهر وحديثه ، ولا فيما قَرُب من البُلدانِ ولا فيما بَعُد .

وذلك أنَّ آل أبي طالب أُحْصُوا منذ أعوامٍ وحُصِّلوا ، فكانوا قريباً من ألفين وثلثمائة ، ثم لا يزيد عددُ نسائهم على رجالهم إلاّ دون العُشْر . وهذا عَجَب .

وإن كنتَ تريد أن تتعرّف فضلَ البناتِ على البنين ، وفضلَ إناثِ الحيوانات على ذكورها ، فابدأ فخُذْ أربعين ذراعاً عن يمينك ، وأربعين ذراعاً عن يسارك ، وأربعين خلفك ، وأربعين أمامك ، ثم عُدَّ الرِّجالَ والنِّساءَ حتّى تعرف ما قُلْنا ، فتعلمَ أنَّ الله تعالى لم يُحلِّل للرَّجلِ الواحدِ من النِّساءِ أربعاً ثم أربعاً ، متى وقع بهن موتٌ أو طلاق ، ثم كذلك للواحد ما بين الواحدةِ من الإماء إلى ما يشاءُ من العدد ، مجموعاتٍ ومفترقات ، لئلا يَبْقَين إلاّ ذواتِ أزواج .

ثم انظر في شأن ذوات البيض وذوات الأولاد فإنّك سترى في دارٍ خمسين دجاجةً وديكاً واحداً ، ومن الإبل الهَجْمةَ وفحلاً واحداً ، ومن الحمير العانَةَ وعيراً واحداً . فلمّا حصلوا كل مئناثٍ وكلَّ مذكار ، فوجدوا آل أبي طالبٍ قد بَرَعوا على الناس وفضَلوهم ، عرف الناس موضعَ الفضيلةِ له والخُصوصيّة .

وفي ولدِ أبي طالبٍ ـ أيضاً ـ أعجوبةٌ أخرى ، وذلك أنّه لم يُوجد قطُّ في

أطفالِهِم طفلٌ يَحْبُو ، بل يزحفُ زحفاً لئلاَّ ينكشفَ منه عن شيءٍ يَسوءُه . ليكونَ أوفرَ لبهائه ، وأدلَّ على ما خُصُّوا به .

ولهم من الأعاجيب خَصلةٌ أُخرى : وذلك أنَّ عُبيدَ الله بنَ زيادٍ قَتَلَ الحُسينَ في يومِ عاشوراءَ ، وقتَله الله يومَ عاشوراءَ في السَّنَةِ الأُخرى .

وقالوا : لا نعلم موضع رجلٍ من شُجعانِ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان له من عدَدِ القَتْلى ما كان لعليٍّ رضوان الله عليه ، ولا كان لأحدٍ مع ذلك من قَتْلِ الرُّؤساءِ والسَّادة ، والمتبوعين والقادَة ، ما كان لعليِّ بن أبي طالب . وقتلُ رئيسٍ واحدٍ ، وإن كان دون بَعضِ الفُرْسان في الشِّدَّة ، أشدُّ؛ فإنَّ قتلَ الرئيس أرَدُّ على المسلمين وأقوى لهم من قتل الفارسِ الذي هو أشدُّ من ذلك السيِّد .

وأيضاً ـ أنّه قد جمع بين قتل الرُّؤساءِ وبين قَتْل الشُّجعان .

وله أُعجوبةٌ أُخرى ؛ وذلك أنَّه مع كثرةِ ما قَتَل وما بارز ، وما مَشَى بالسيف إلى السَّيف ، لم يُجْرَحْ قطُّ ولا جَرحَ إنساناً إلاَّ قتَله ، ولا نعلم في الأرض متى ذُكِر السَّبقُ في الإسلامِ والتَّقدُّمُ فيه ، ومتى ذُكِر الفِقهُ في الدِّين ، ومتى ذُكر الزُّهد في الأموالِ التي تَشاجَرَ النَّاسُ عليها ، ومتى ذُكِر الإعطاءُ في الماعون ، كان مذكوراً في هذه الحالاتِ كلِّها ـ إلاَّ عليَّ بنَ أبي طالب كرَّم الله وجهه .

قالوا : وكان الحسن يقول : قد يكون الرجل عالماً وليس بعابد، وعابداً وليسَ بعالم ، وعابداً وليس بعاقل ، وعاقلاً وليس بعابد . وسُليمان ابن يسار عالمٌ عاقل عابد ، فانظُرْ أين تقع خصال سليمانَ من خصال عليِّ بن أبي طالب رضي الله عنه .

ولم يكن قصدُنا في أوّل هذا الكتاب إلى ذكر هاشم ، وقد كان قصدُنا الإخبارَ عن مكّةَ بما قد كتبناه في صدر هذا الكتاب ، ولكنَّ ذكر خصالِ مكّةَ جرَّ

ذكر خصالَ قريش ، وذكر خصال قريش جرَّ ذكر خصالِ بني هاشم .

فإن أحببتَ أن تعرفَ جُملة القولِ في خصال بني هاشم فانظر في كتابي هذا الذي فَرَّقْتُ فيهِ بين خصال بني عبد منافٍ وبين بني مخزوم ، وفَرَّقت ما بين عبد شمس ؛ فإنّه هُنَاكَ أوفرُ وأجمَعُ ، إن شاء الله تعالى .

[٦ - عودة الى خصال قريش]

فصل منه : قالوا : وقد تعجَّبَ الناسُ من ثَباتِ قريش ، وجزالة عَطاياهم ، واحتمالهم المُؤَنَ الغلاظ في دوام كَسْبِهم من التِّجارة ، وقد علموا أنَّ البُخْلَ والنَّصَرَ في الطُّفيف مقرونٌ في التجارة ؛ وذلك خُلُقٌ من أخلاقهم . وعلى ذلك شاهِدُ أهلِ الترفيح والتكسُّب والتَّدنيق .

فكان في ثبات جُودهم العالي على جُود الأجواد ، وهم قومٌ لا كَسْبَ لهم إلّا من التجارة ، عَجَبٌ من العَجَب .

ثُمَّ جاءَ ما هو أعجَبُ من هذا وأطمُّ ، وذلك أنّا قد علمنا أنَّ الرُّوم قبْلَ التديُّن بالنَّصرانيَّة ، كانت تنتصفُ من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سِجالاً ، فلمّا صارت لا تَدِينُ بالقَتْل والقتال ، والقَوَد والقِصاص . اعتراهُم مثلُ ما يعتري الجُبَناءَ حتّى صاروا يتكلّفون القتالَ تكلُّفاً . ولّما خامرتْ طِبائعَهم تلك الدِّيانة ، وسَرَتْ في لحومهم ودمائهم فصارت تلك الدِّيانة تَعترِض عليهم . خَرَجُوا من حدود الغالبيَّة إلى أن صاروا مغلوبين .

وإلى مثل ذلك صارت حالُ الغُزْغُز من التُّرك . بعد أن كانوا أنجادَهم وحُماتَهم ، وكانوا يتقدَّمون الخرلخيَّة ، وان كانوا في العدَدِ أضعافَهم ، فلما دانُوا بالزَّندقة - ودينُ الزَّندقة في الكَفِّ والسِّلْم أسوأُ من دِين النَّصارى - نَقَصَت تلك الشَّجاعة ، وذهبَتْ تلك الشهامة .

وقريشٌ من بين جميع العرب دانُوا بالتحمُّس . وتشدَّدوا في الدين ، فتركوا

الغَزْوَ ولم تبقَ مكسبةٌ سوى التِّجارة ، فضربوا في البلاد إلى قيصرَ بالرُّوم ، وإلى النجاشيِّ بالحبشة . وإلى المُقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تُجّاراً خُلَطاءَ . وبانوا بالدِّيانة والتحمُّس ، فحمَّسوا بني عامر ابن صعصعة . وحمَّسوا الحارثَ بنَ كعب ، فكانوا ـ وإن كانوا حُمْساً ـ لا يتركون الغَزْوَ والسَّبي ووطءَ النِّساء ، وأخذَ الأموال ، فكانت نَجْدتهم ـ وإن كان أنقصَ ـ فإنَّها على حالِ النَّجْدة ، ولهم في ذلك بقيَّة .

وتركَتْ قريشٌ الغَزْوَ بتَّةً . فكانوا ـ مع طُولِ تَرْك الغَزْو ـ إذا غَزَوْا كالأسود على براثنها ، مع الرأي الأصيل ، والبصيرةِ النَّافذة .

أفليسَ من العَجَب أنْ تبقى نَجدتُهم ، وتثبُتَ بسالتُهم ، ثم يَعْلون الأنجاد والأجواد ، ويَفْرَعُون الشُّجعان ؟! وهاتان الأعجوبتان بيِّنتان .

وقد عُلِمَ أنَّ سبب استفاضةِ النجدة في جميع أصناف الخوارج وتقدُّمهم في ذلك ، إنَّما هو بسبب الدِّيانة ! لأنَّا نجد عبيدَهم ومواليَهم ونساءَهم ، يقاتلون مثلَ قتالهم ، ونجد السِّجستانيَّ وهو عجميٌّ ، ونجد اليماميَّ والبَحْرانيَّ والخوزيَّ [وهم غير] عرب ، ونجد إباضيَّة عُمَان وهي بلادُ عربٍ ، وإباضيَّة تاهرت وهي بلاد عجم ، كلُّهم في القتال والنَّجدة ، وثبات العزيمة ، والشِّدَّة في البأس سواءً . فاستوت حالاتهم في النَّجدة مع اختلافِ أنسابهم وبُلدانِهم . أفما في هذا دليلٌ على أنَّ الذي سوَّى بينهمُ التَّديُّنُ بالقتال ، وضروبٌ كثيرة من هذا الفَنِّ ؟ !

وذلك كلُّه مُصوَّر في كتبي ، والحمدُ لله .

وقد تَجِدون عُمومَ السُّخف والجهلِ والكذب في المواعيد ، والغِشَّ في الصناعة ، في الحاكةِ ، فدلَّ استواءُ حالاتهم في ذلك على استواءِ عِلَلِهم . ليست هناك عِلَّةٌ إلَّا الصِّناعة ؛ لأنَّ الحاكة في كل بلدٍ شيءٌ واحد . وكذلك النَّخَّاس وصاحب الخُلْقان ، وبيَّاع السَّمك . وكذلك الملّاحون وأصحاب السَّماد ، أوَّلُهم كآخرهم ، وكهولُهم كشُبَّانهم ، ولكن قُلْ في استواءِ الحجّامين في حُبِّ النبيذ !

[٧ ـ المدينة]

فصل منه : ـ وأمرُ المدينة عَجَب وفي تربها وترابها وهوائها دليل وشاهدٌ وبرهانٌ على قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم : « إنها طَيْبة تَنْفي خَبَثَها وتنصع طِيبَها » لأنَّ من دخلها أو أقام فيها ، كائناً من كان من الناس ، فإنَّه يجد من تُربتها وحيطانها رائحةً طيبةً ، ليس لها اسمٌ في الأراييح ، وبذلك السبب طاب طِيبُها والمعجونات من الطِّيب فيها . وكذلك العُودُ وجميعُ البَخُور ، يَضَاعَفُ طِيبُها في تلك البلدة على كلِّ بلدٍ استعمل ذلك الطِّيب بعينه فيها .

وكذلك صَيَّاحها والبَلَعُ والأترُجُ والسَّفَرْجل ، أعني المجعول منها سُخُباً للصِّبيان والنِّساءِ .

فإن ذكروا طِيب سابور فإنَّما طيب سابور بطيب أرياح الرَّياحين ، وذلك من ريح رياحينها وبساتينها وأنوارها ، ولذلك يَقْوَى في زمان ، ويَضعُف في زمان .

ونحن قد ندخل دِجْلَة في نهر الأُبُلة بالأسحار ، فنجد من تلك الحدائق ، ونحن في وَسَط النهر ، مِثْل ما يجد أهل سابورَ من تلك الرَّائحة .

وطَيْبة التي يسمُّونها المدينة ، هذا الطِّيب خِلقةٌ فيها ، وجوهريَّة منها ، وموجودٌ في جميع أحوالها . وإنَّ الطِّيب والمعجونات لَتُحْمَلُ إليها فتزداد فيها طِيباً ، وهو ضدُّ قَصَبة الأهواز وأنطاكيَّة ، فإنَّ الغوالَي تستحيل الاستحالة الشَّديدة .

ولسنا نشكُّ أنَّ ناساً ينتابون المواضعَ التي يباع فيها النَّوَى المُنَقَّع ، فيستنشقون تلك الرائحة ، يُعجَبون بها ويلتمسونها ، بقدر فرارنا نحن من مواقع النَّوى عندنا بالعراق ، ولو كان من النَّوى المعجوم ومن نَوَى الأفواه .

ونحن لا نشكُّ أنَّ الرجل الذي يأكل بالعراق أربع جَرادقَ في مقعد واحد من المَيْساني والموصلِّي ، أنه لا يأكل من أقراص المدينة قُرصَين ؛ ولو كان ذلك

لغلظ فيه أو لفسادٍ كـان في حبِّه وطَحِينه لظَهَر ذلك في التُّخَم وسـوءِ الاستمراءِ ، ولتولَّد على طول الأيّام من ذلك أوجاعٌ وفساد كثير .

ولم يكن بها طاعونٌ قطُّ ولا جُذام .

وليس لبلدةٍ من البُلدان من الشُّهرة في الفقه ما لَهُم ولرِجالهم، وذكر عبد الملك إبن مروان رَوْح بن زِنباعٍ فمـدحه فقـال : جمَعَ أبـو زُرْعة فِقـه الحِجـاز ، ودَهـاءَ العراق ، وطاعة أهلِ الشام .

[٨ ـ مِصْرَ]

فصلٌ منه : قال أبو الخَطّاب : لم يذكـر الله جلَّ وعـز شيئاً من البُلدانِ بـاسمِهِ في القُرآن كما ذكـر مِصْر، حيث يقـول: ﴿وَقَالَ الـذي اشْتَرَاه مِنْ مِصـرَ لامرأتِـهِ أكْرِمِي مَثْوَاه﴾ . وقال :﴿ فَلَمّادَخلُوا على يُوسَف اوى إليـه أبَوَيْـهِ وقَال ادخُلوا مِصْرَ إن شاءَ الله آمِنِين ﴾ وقال : ﴿ وَأوحَيْنَا إلى موسى وأخِيه أنْ تَبَـوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بيُوتـاً واجْعَلُوا بيُوتَكُمْ قِبْلةً ﴾ وقال تعالى : ﴿ اهبِطُوا مِصْراً فإنَّ لكم مـا سألْتُمْ ﴾ وقـال في آية : ﴿ ألَيْـس لي مُلْكُ مصر وهذِهِ الأنهارُ تَجري مِنْ تَحتِي ﴾ .

وذكر مصرَ في القرآن بالكِناية عن خاصَّة اسمِها، فمن ذلك : ﴿وقَالَ نِسوةٌ في المـدينةِ امـرأةُ العَزِيـز تُرَاوِدُ فَتَـاهَا عَنْ نَفْسِـهِ ﴾ قـالـوا : هي مـدينة مَنْف ، وهـو موضعُ منزل فرعون .

وأخبـرني شيـخٌ من آل أبي طـالـبٍ من ولـد عليٍّ صحيحُ الخبـر : مَنْف دارُ فِرعون ، ودُرْتُ في مجالـسِهِ ومثاويه وغُرَفه وصِفافه ، فـإذا كلُّه حجرٌ واحـدٌ مَنقور ؛ فإن كانوا هَنْدَموه وأحكموا بِناءَه حتّى صار في الملاسة واحـداً لا يُستَبانُ فيـه مَجْمَعُ حَجَـرين ، ولا مُلْتَقى صخرتـين فهـذا عَجَبٌ . ولئن كـان جَبـلاً واحـداً ، وَدَكّـاً واحـداً ، فنَقَـرتْـه الـرِّجـال بـالمناقـيرِ حَتّى خـرقت فيـه تلك المخـاريق ، إنَّ هـذا لأعْجَب .

١٠

وفي القرآن : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرضَ حَتَّىٰ يأْذَنَ لي أبي أوْ يحكُمَ اللَّهُ لي وهو خيرُ الحاكِمين ﴾.

قال: والأرضُ ها هنا مِصر. وفي هذا الموضع كلامٌ حسنٌ. ولكنّا ندَعُهُ مخافة أن نَخرج إلى غير الباب الذي ألّفْنا له هذا الكتاب .

قالوا : وسمّى الله تعالى مَلِكَ مِصر « العَزيز »، وهو صاحبُ يوسف ، وسمّى صاحبَ موسى « فِرعون ».

قالوا : وكان أصلُ عُتوِّ فِرعونَ مُلكَه العظيمَ ، ومملكَته التي لا تُشبهها مملكة .

قالوا : ومنهم مريم بنت عمران وآسِية بنت مُزاحم .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سَيِّدة نساءِ العالَم خديجةُ بنتُ خويلد ، وفاطمة بنتُ محمَّد ، ومريمُ بنتُ عمران ، وآسية بنت مُزاحم ».

قال : ولَمّا همَّ فِرعونُ بقتْلِ موسى قالت آسية :﴿ لا تقتلوه عسى أن ينفَعَنا أو نتَّخذه ولداً ﴾ وقالت : وكيف تَقْتله ، واللّهِ ما يعرف الجمرةَ من التَّمرة .

ومنهم السَّحرة الذين كانوا قد أبرُّوا على أهل الأرض ، فلما أبصَروا بالأعلام ، وأيقنوا بالبُرهان ، استبصروا وتابوا توبة ما تابَها ماعزُ بنُ مالك ، ولا أحدٌ من العالَمين ، حتّى قالوا لفرعون : ﴿ اقضِ ما أنتَ قاضٍ ، إنّما تقضي هذه الحياةَ الدُّنْيا ، إنّا آمَنّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لنا خَطَايانا وما أكْرَهْتَنا عليه مِنَ السِّحْرِ ﴾.

وجاء في الحديث : « من أخربَ خَزائنَ اللّهِ فَعَلَيْهِ لَعْنةُ اللّه ». قالوا : خزائن الله هي مصر ، أمَا سمِعتم قولَ يوسف : ﴿ اجْعَلني عَلَى خَزَائِنِ الأَرْض ﴾؟.

وقال عبد الله بن عَمرو : « البركة عَشْرُ بركات : تسعٌ بمصر والواحدة في جميع الأرض ».

فصل منه : وقال أهل العِراق : سألْنَا بِطْرِيق خَرْشَنة عن خَراج الرُّوم ، فذكر مقداراً من المال ، وقال . هو كذا وكذا قِنطاراً . فنظر بعضُ الوزراءِ فإذا خراجُ مصر وَحْدَه يُضعِف على خراج بلاد الروم إذا جُمِعت أبوابُ المالِ من البلاد جميعاً .

فصل منه : ولا أعلم الفُرقة في المغْرب إلا أكثر من الفُرقة في المشرق ، إلاَّ أنَّ أهلَ المغرب إذا خرجوا لم يزيدوا على البدعة والضَّلالة ، والخارجيُّ في المشرق لا يرضَى بذلك حتَّى يجوزَه إلى الكفر ، مثل المقنَّع وشيبان والإصبَهبَذ وبابَك ، وهذا الضَّرب .

فصل منه : وقد علمنا لجماعة بني هاشم طابعاً في وجوههم يستبين به كرم العتق وكَرَمُ النِّجار ، وليس ذلك لغيرهم .

ولقد كادت الأهواز تُفسِدُ هذا المعنى على هاشميَّة الأهواز ، ولولا أنَّ الله غالبٌ على أمره لقد كادت طمست على ذلك العِتْق وتَحْته فتربتُها خلافُ تربةِ الرسول صلى الله عليه وسلم : وذلك أنَّ كلَّ من تخرَّق طُرق المدينة وجدَ رائحةً طيِّبةً ليست من الأرابيح المعروفة الأسماء .

[٩ ـ الكوفة والبصرة]

فصل منه : قال زياد : الكوفة جارية جميلة لا مالَ لها ، فهي تُخطَب لجمالها ، والبصرة عَجوزٌ شوهاءُ ذاتُ مال فهي تُخطب لمالها .

فصل منه : والفراتُ خيرٌ من مَاءِ النِّيل . وأمَّا دِجلة فإنَّ ماءَها يقطع شهوةَ الرِّجال . ويَذهَب بصهيل الخيل ، ولا يَذْهَب بصهيلها إلاَّ مع ذَهاب نشاطها ، ونقصان قواها ؛ وإن لم يتنسَّم النازلون عليها أصابهم قحولٌ في عظامهم ، ويُبسٌ في جلودهم .

وجميعُ العَرَب النَّازلين على شاطىء دِجلة من بغداد إلى بلد لا يرغَوْن الخيل

في الصَّيف على أواريِّها على شاطىء دِجلة ، ولا يَسقُونها من مائها ، لما يخاف عليها من الصُّدام ، وغير ذلك من الآفات .

وأصحاب الخيل من العِتاق والبراذين إنَّما يَسقُونها بُسرٌ من رأى ، ممّا احتفروها من كرابهم ، ولا يسقونها من ماءِ دجلة ؛ وذلك أنَّ ماءَ دجلة مختلطٌ . وليس هو ماءً واحداً ، ينصب فيها من الزَّابيَين والنَّهروانات وماءِ الفرات ، وغير ذلك من المياه .

واختلافُ الطَّعام إذا دخَلَ جوف الانسان من ألوان الطَّبيخ والإدام غير ضارّ ، وإن دخَلَ جوفَ الإنسانِ من شرابٍ مختلف كنحو الخمر والسُّكَر ونَبيذ التمر والدَّاذيّ كان ضارًّا . وكذلك الماءُ ، لأنَّه متى أراد أن يتجرَّع جُرَعاً من الماءِ الحارّ لصَدْرِهِ أو لغير ذلك ، فإنْ أعجَلَه أمرٌ فبرَّده بماءٍ باردٍ ثم حَساه ضرَّه ذلك ، وإنْ تركَه حتّى يفْتُر ببرد الهواءِ لم يضرُّه . وسبيلُ المشروب غير سبيل المأكول .

فإن كان هذا فضيلةَ مائِنا على ماءِ دجلة فما ظنُّك بفضله على ماءِ البصرة ، وهو ماءٌ مختلط من ماءِ البحر ومن الماءِ المستنْقِع في أصول القصب والبَرْدِيّ ؟ قال الله تعالى : ﴿ هَذَا عَذْبٌ فراتٌ وهذا مِلحٌ أجاجٌ ﴾ .

والفرات أعذبها عذوبةً، وإنما اشتُقَّ الفُرات لكلِّ ماءٍ عذب، من فُرات الكوفة .

فصل منه : كان يقال : الدُّنيا البصرة .

وقال الأحنف لأهل الكوفة : « نحن أغْذَى منكم برِّيّة ، وأكثر منكم بحريَّة ، وأبعد منكم سَرِيَّة ، وأكثر منكم ذُرِّيَّة » .

وقال الخليل بن أحمد في وصف القصر المذكور بالبصرة :

زُرْ واديَ القصر نعم القصرُ والوادي ... لا بدَّ من زورةٍ عَنْ غير ميعادِ
ترى بها السُّفنَ والظُّلمان واقفةً ... والضَّبُّ والنُّونَ والملّاحَ والحادي

ومن أتى هذا القصر وأتى قصر أنس رأى أرضاً كالكافور، وتربة ثريَّة، ورأى ضبًا يُحترش ، وغزَالاً يُقتنص ، وسمكاً يُصاد ، ما بين صاحب شِصٍّ وصاحب شَبَكة ، ويَسمع غناءَ ملاّحٍ على سُكّانِهِ ، وحداءَ جَمّالٍ على بَعيره .

قالوا : وفي أعلى جَبَّانَة البصرة موضعٌ يقال له الحَزيز يذكر الناس أنَّهُمْ لم يَرَوْا قطُّ هواءً أعدَلَ ، ولا نَسيماً أرَقَّ ، ولا ماء أطيَبَ منها في ذلك الموضع .

وقال جعفر بن سليمان : « العراق عَينُ الدُّنيا ، والبَصرة عَينُ العراق ، والمِربد عَينُ البَصْرة ، ودَاري عَينُ المِربد ».

وقال أبو الحسن وأبو عبيدة : « بُصِّرت البَصْرة سنة أربعَ عشرة ، وكُوِّفت الكوفة سنة سبعَ عشرة ».

فصل منه : زعم أهلُ الكوفة أنَّ البصرة أسرعُ الأرضِ خراباً ، وأخبثُها تُراباً ، وأبعدُها من السَّماءِ وأسرعُها غَرَقاً ، ومَفيض مائها البحر ، ثم يخرج ذلك إلى البحر الأعظم .

وكيف تَغرَق ، وهم لا يستطيعون أن يُوصِلوا ماءَ الفَيض إلى حِياضهم إلاَّ بعد أن يرتفع ذلك الماءُ في الهواءِ ثلاثين ذراعاً ، في كلِّ سقاية بعَيْنها ، لا لِحوضٍ بعينه .

وهذه أرضُ بغداد في كلِّ زيادةِ ماءٍ ينبُع الماءُ في أجواف قصورهم الشَّارعة بعد إحكام المسنَّيات التي لا يقوى عليها إلاّ الملوك ، ثم يَهدِمون الدّارَ التي على دِجلة فيكسُون بها تلك السُّكك ، ويتوقَّعون الغَرَق في كلِّ ساعة .

قال: وهم يَعيبون ماء البصرة، وماء البصرة رقيق قد ذهب عنه الطِّين والرَّمل المَشُوب بماءِ بغدادَ والكوفة ، لطول مُقامه بالبَطيحة ، وقد لانَ وصفا ورَقَّ .

وإنْ قلتم : إنَّ الماءَ الجاريَ أمرأُ من الساكن ، فكيف يكون ساكناً مع تلك الأمواج العِظام والرِّياح العواصف ، والماء المنقلب من العُلْو إلى السُّفل ؟ ومع هذا إنَّه إذا سار من مَخرجه إلى ناحية المَذار ونهر أبي الأسَد وسائر الأنهار ،

وإذا بَعُدَ من مدخله إلى البصرة من الشّقّ القصير، جَرَى منقضّاً إلى الصُّخور والحجارةِ، فراسخَ وفراسخ، حتّى ينتهيَ إلينا.

ويدلُّ على صلاح مائهم كثرة دُورهم، وطولُ أعمارهم، وحُسْنُ عقولهم، ورِفقُ أكُفِّهم، وحذقُهم لجميع الصناعات، وتقدُّمُهم في ذلك لجميع الناس.

ويُستدلُّ على كرم طينِهم ببياض كيزانهم وعذوبةِ الماء البائت في قلالهم، وفي لون آجُرّهم، كأنّما سُبِكَ من مُخّ بيض. وإذا رأيت بناءهم وبياضَ الجصِّ الأبيض بين الآجُرّ والأصفر لم تجد لذلك شبهاً أقربَ من الفِضّة بين تضاعيفِ الذهب.

فإذا كان زمانَ غَلَبةِ ماءِ البحر فإنّ مُستَقاهم من العَذْب الزُّلال الصافي، النَّمير في الأبدان، على أقلَّ من فرسخ، وربّما كان أقلَّ من مِيل.

ونهر الكوفة الذي يسمُّونه إنّما هو شُعبةٌ من أنهار الفرات، وربّما جَفَّ حتّى لا يكون لهم مستقىً إلّا على رأس فرسخ، وأكثرَ من ذلك، حتّى يحفِروا الآبارَ في بُطونِ نُهُرهم، وحتّى يضرُّ ذلك بخُضَرِهم وأشجارهم. فلينظُروا أيّما أضرُّ وأيّما أعْيَب.

وليس نهرٌ من الأنهار التي تَصبُّ في دجلة إلّا هو أعظم وأكبر وأعرض من موضع الجسر من نهر الكوفة، وإنّما جسره سبع سفائن، لا تمرُّ عليه دابّةٌ لأنها جُذوعٌ مقيَّدةٌ بِلا طين، وما يمشي عليه الماشي إلا بالجهد، فما ظنُّك بالحوافر والخِفاف والأظلاف؟!

وعامّةُ الكوفة خَرابٌ يَباب، ومن بات فيها علم أنّه في قريةٍ من القرى. ورُستاقٍ من الرَّساتيق، بما يَسمَعُ من صِياح بناتِ آوى، وضُباحِ الثّعالب، وأصوات السِّباع. وإنّما الفرات دمّا إلى ما اتّصل به إلى بلاد الرَّقّة، وفوق ذلك.

فأمّا نهرهم فالنِّيل أكبرُ منه، وأكثر ماء، وأدْوَمُ جريَة

وقد تعلمون كثرة عددِ أنهار البصرة ، وغلبةَ الماءِ ، وتطفُّح الأنهار .

وتبقى النَّخلة عشرين ومائةِ سنة وكأنَّها قِدح . وليس يُرَى من قُرْب القرية التي يقال لها « النّيل » إلى أقصى أنهار الكوفة نخلةٌ طالت شيئاً إلا وهي معوجَّة كالمِنجل . ثم لم نر غارسَ نخلٍ قطُّ في أطراف الأرض يرغب في فسيل كوفي ، لعلمه بِخُبْث مَغْرِسه ، وسُوءِ نُشُوِّه ، وفَساد تُربته ، ولُؤم طبعه .

وليس لليَالي شهرِ رمضان في مسجدهم غَضَارةٌ ولا بَهاءٌ ، وليس مَنَار مساجدهم على صُوَر مَنارِ البَصْرة ، ولكن على صُوَر مَنار الملْكانية واليعقوبيَّة .

ورأينا بها مسجداً خراباً تأويه الكلابُ والسِّباع ، وهو يضاف إلى عليّ بن أبي طالب ، رضوانُ الله عليه .

ولو كان بالبصرة بيتٌ دخَله عليُّ بن أبي طالب مارّاً لتمسَّحوا به وعَمَروه بأنفسهم وأموالهم .

وخبَّرني من بات أنّه لم ير كواكبها زاهرةً قطُّ ، وأنّه لم يَرَها إلاّ ودونها هَبْوة ، وكأنَّ في مائهم مِزاجَ دُهْن . وأسواقُهم تشهد على أهلها بالفَقْر . وهم أشدُّ بغضاً لأهل البصرة من أهل البَصْرة لهم ، وأهل البصرة هم أحسن جواراً ، وأقلُّ بذخاً ، وأقلُّ فخراً .

ثم العَجَب من أهل بغدادَ وميلِهم معهم . وعيبهم إيّانا في استعمال السَّماد في أرضنا ولنخلنا ، ونحن نراهم يُسمِّدون بُقُولَهم بالعَذِرة اليابسة صِرفاً ، فإذا طلَعَ وصار له ورقٌ ذَرَّوْا عليه من تلك العَذِرة اليابسة حتّى يسكنَ في خلال ذلك الورق .

ويريد أحدُهم أن يبنيَ داراً فيجيءُ إلى مَزْبلة ، فيضرب منها لَبِناً ، فإن كانت داره مطمئنّةً ذاتَ قعرٍ حشا من تلك المَزْبلة التي لو وَجَدَها أصحابُ السَّمادِ عندنا لبَاعُوها بالأموال النفيسة .

ثم يَسجُرون تَنانيرهم بالكُسَاحات التي فيها من كلّ شيء ، وبالأبعار

والأخثاءِ ، وكذلك مواقد الكِيران .

وتمتلىء ركايا دُورهم عَذِرةً فلا يصيبون لها مكاناً ، فيحفِرون لذلك في بيوتهم آباراً ، حتّى ربما حَفَر أحدُهم في مجلسه ، وفي أنبل موضع من داره. فليس ينبغي لمن كان كذلك أن يعيب البَصريِّين بالتّسميد .

فصل منه : وليس في الأرض بلدةٌ أرفقُ بأهلها من بلدةٍ لا يعزُّ بها النَّقْد ، وكلُّ مبيع بها يمكن .

فالشّامات وأشباهُها الدِّينار والدِّرهمُ بها عزيزان ، والأشياءُ بها رخيصة لبعد المَنْقَل ، وقلّة عدد من يَبْتاع . ففي ما يخرج من أرضهم أبداً فضلٌ عن حاجاتهم .

والأهواز، وبَغداد ، والعسكر ، يكثرُ فيها الدَّراهم ويعزُّ فيها المبيع لكثرة عددِ الناس وعدد الدراهم .

وبالبصرة الأثمانُ ممكِنة والمُثمَنات ممكنة ، وكذلك الصِّناعات ، وأُجورُ أصحاب الصناعات . وما ظنُّك ببلدةٍ يدخلها في البادي من أيّام الصِّرام إلى بعد ذلك بأشهرٍ ، ما بين ألفَيْ سفينةِ تمرٍ أوْ أكثر في كلِّ يومٍ ، لا يبيت فيها سفينةٌ واحدة ، فإنْ باتت فإنّما صاحبُها هو الذي بَيَّتَها . لأنّه لو كان حطَّ في كلِّ ألف رطلٍ قيراطاً لانْتُسِفَت انتسافاً .

ولو أنَّ رجلاً ابتنى داراً يُتمِّمها ويكمِّلها ببغداد ، أو بالكوفة ، أو بالأهواز ، وفي موضعٍ من هذه المواضع ، فبلغت نفقتُها مائة ألفِ درهم ، فإنَّ البصريَّ إذا بَنَى مثلَها بالبصرة لم يُنفق خمسينَ ألفاً ، لأنّ الدّارَ إنّما يتمّ بناؤها بالطِّين واللَّبِن ، وبالآجُرّ والجِصِّ ، والأجذاع والسّاج والخشب ، والحديد والصُّنّاع ، وكُل هذا يُمكن بالبَصْرة على الشَّطْر ممّا يُمكن في غيرها . وهذا معروف .

ولم نر بلدةً قطُّ تكون أسعارها ممكنة مع كثرة الجَماجمِ بها إلاّ البصرة :

طعامُهم أجْوَدُ الطُّعام ، وسِعرُهم أرخص الأسعار ، وتَمرهم أكثرُ التُّمور ، ورَيْع دِبْسِهِم أكثر ، وعلى طُول الزّمان أصْبَر ، يَبْقى تمرُهم الشّهريز عشرين سنة ، ثم بعد ذلك يُخلَط بغيره فيجيءُ له الدِّبس الكثير ، والعَذْبُ الحلو ، والخاثر القويّ .

ومن يطمع من جميع أهل النَّخل أن يبيع فَسيلة بسبعين ديناراً ، أو بَحْوَنة بمائة دينارٍ ، أو جَريباً بألف دينار غير أهل البصرة ؟

فصل منه : ولأهل البصرة المدُّ والجَزْر على حسابِ منازل القمر لا يغادران من ذلك شيئاً . يأتيهم الماءُ حتّى يقف على أبوابهم ؛ فإن شاءُوا أذِنُوا ، وإن شاءُوا حَجَبوه .

ومن العَجَب لقومٍ يعيبون البصرَة لقُرب البحر والبَطيحة ولو اجتهد أعلَمُ النّاس وأنطَقُ النّاسِ أن يجمَع في كتابٍ واحد منافع هذه البطيحة ، وهذه الآجَمة ، لما قَدَر عليها .

قال زياد : قَصبةٌ خير من نَخْلة .

وبحقٍّ أقول : لقد جَهَدت جَهْدي أن أجمَعَ منافعَ القصب ومَرافِقَه وأجناسَه ، وجميعَ تصرُّفه وما يجيء منه ، فما قَدَرت عليه حتّى قطعته وأنا معترفٌ بالعجز ، مستسلمٌ له .

فأمّا بحرُنا هذا فقد طمَّ على كلِّ بحر وأوفى عليه ، لأنّ كلَّ بحرٍ في الأرض لم يَجعلِ الله فيه من الخيرات شيئاً . إلاّ بحرَنا هذا . الموصولَ ببحر الهند إلى ما لا تذكر .

وأنت تسمع بملوحة ماءِ البحر ، وتستسقطه وتُزْرِي عليه . والبحر هو الذي يَخلقُ الله تعالى منه الدُّرَّ الذي يبعث الواحدة منه بخمسين ألفَ دينار ، ويَخلقُ في جوفه العَنْبر ، وقد تَعرِفون قَدْرَ العنبر . فشيءٌ يولِّد هذين الجوهرين كيف يُحقَّر ؟ .

ولو أنّا أخذْنا خصالَ هذه الآجَمَةِ وما عظَّمنا من شأنها . فقذَفْنا بها في زاوية من زوايا بحرِنا هذا لضَلَّتْ حتّى لا نجد لها حِسّاً ، وهُمَا لنا خالصانِ دونكم . وليس يصل إليكم منهما شيءٌ إلاّ بسببِنا وبعد أن فضل عنا .

وقال بعض خطبائنا : نحن أكرمُ بلاداً ، وأوسَع سواداً ، وأكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً ، وأكثر خَراجاً .

لأنَّ خراجَ العراق مائةُ ألفِ ألفِ واثنا عَشَر ألفَ ألف ، وخراج البصرة من ذلك ستُّون ألفَ ألف ، وخراج الكوفة خمسون ألفَ ألف .

[١٠ ـ الحيرة]

فصل منه : ورأيت الحيرة البيضاء وما جعلها الله بيضاء ، وما رأيت فيها داراً يُذكَر إلاّ دار عَوْن النّصرانيّ العِباديّ .

ورأيت التُّربة التي بينها وبين قَصَبة الكوفة ، ورأيت لون الأرض فإذا هو أكهب كثير الحَصَى ، خشِنُ المَسّ .

والحِيرة أرضٌ باردةٌ في الشّتاءِ ، وفي الصَّيف يَنزِعون سُتورَ بيوتِهم مخافة إحراق السَّمائم لها .

هامش كتاب الاوطان والبلدان

(١) لاحظ اهتمام الجاحظ بتأثير البيئة على خلق الناس واخلاقهم ولغاتهم وعواطفهم وصناعاتهم . وهذا الاهتمام يبرره في اماكن عديدة من كتبه ورسائله ، كما يبين لنا منحاه الطبيعي في فلسفته .

- ام القرى هي مكة المكرمة . وقد اوضح معناها في الجملة التالية .

(٢) قال الاول : من الافضل قراءتها الاوائل . وقد ابدله في رسالة مناقب الترك بالعبدي حيث ورد : العبدي يقول « عمر الله البلدان بحب الاوطان » . ويبدله في رسالة الحنين الى الاوطان بعمر بن الخطاب .

- الغمق واللثق : الندى الذي يؤدي الى فساد الريح والاوبئة .

- لاحظ كيف يفسر الجاحظ الحكمة من اختلاف الناس في ميولهم واعمالهم : لو اجمعوا كلهم على اختيار الشيء الواحد لوقع التغالب والتحارب بينهم . وقد اورد هذه الفكرة في اماكن أخرى من كتبه مثل حجج النبوة .

- العقل المولود وعقل التجارب اي العقل الغريزي الفطري الذي سماه الفلاسفة العقل الهيولاني او بالقوة ، والعقل بالفعل المكتسب بالتجارب .

- ان حب الاوطان لا يقتصر بنظر الجاحظ على الانسان بل يتعداه الى الحيوانات ، فهي تألف المكان الذي تقيم به اكثر من الانسان .

(٣) الديانيين : القضاة الذين يحاسبون أنفسهم ، ولهذا انصرفوا عن الغزو لما فيه من ظلم واغتصاب اموال وفروج . وقد فسرت خطأ في نسخة عبد السلام هارون اذ جعلت الديانيين نسبة الى الديانة .

- الفجار : موقعة جرت بين قريش وكنانة وهوازن قبيل البعثة . ذات الكهف :

معركة أخرى بين قريش وبعض القبائل قبل البعثة أيضاً .
ـ البخل طبع في بعض الناس لا يكتسب اكتساباً . وقد حاول اثبات هذه الفكرة في كتاب البخلاء ، عملا بمذهبه الطبيعي القائل ان الاخلاق طباع .
ـ يحيس الحيسة بالانطاع : يعجن التمر والسمن في الجلود .
ـ دريد بن الصمة (٦٣٠م) وامية بن ابي الصلت (٦٢٦ م) : شاعران جاهليان ادركا الاسلام ولم يسلما ، كان دريد فارساً وكان امية تقيا اكثر من ذكر الآخرة .
ـ عكاظ وذو المجاز سوقان كانا يقامان في الجاهلية فيقصدهما الناس من الانحاء للتجارة وانشاد الشعر .
ـ نعرُف قريش : تسود اي تكون سيدة على العرب .
(٤) الصواب ان نقرأ : وفتح مكة يسمى فتح الفتوح ، وفيها بيت الله .. الخ لا كما ورد في طبعة عبد السلام هارون : وهو بيت الله .
ـ هزمة جبريل : اي ضربة رجل جبريل التي ادت الى شق الارض وتفجر الماء ، ماء زمزم في مكة .
ـ الطير الابابيل : كما ورد في القرآن ، التي تأتي جماعات .
ـ اهله حمس ولقاح : أي اشداء لم يخضعوا للملوك .
ـ لاحظ التفسير الطريف الذي اعطاه الجاحظ لكلمة عتيق من الآية ﴿ وليطوفوا بالبيت العتيق ﴾ .
(٥) قوله : « وهذا الشيء سمعته من ابي عبيدة ومنه استمليت هذا المعنى » . دليل على ان الجاحظ أخذ عن ابي عبيدة الاخبار واللغة مباشرة . وابو عبيدة معمر بن المثنى التيمي بالولاء (١١٠ ـ ٢١٠ هـ) عالم باخبار العرب وأيامها ولغتها .
ـ لاحظ اعجاب الجاحظ بعلي بن ابي طالب وذكر مآثره في الشجاعة والفقه والزهد والكرم .
ـ وكان الحسن يقول : يعني على الارجح الحسن البصري .
ـ سليمان بن يسار من المدينة ، مولى ميمونة ، وكتب لام سلمة ، كان عابداً زاهداً ثقة في الحديث والفقه ، توفي سنة ١٠٧ هـ .
ـ اشارة الى كتابه « فضل هاشم على عبد شمس » .
(٦) الخوارج : فرقة من المسلمين خرجوا على علي بن أبي طالب بعد ان كانوا من شيعته فدعوا بهذا الاسم . وكفروه لأنه قبل بالتحكيم . وقاموا بثورات عديدة في عهد علي وفي عهد الدولة الاموية وبعدها . وانقسموا فرقاً عديدة . وقد تحدث عنهم الجاحظ في اماكن عديدة من كتبه ، وعرفوا بشدتهم في الحروب ولجوئهم الى العنف

على مدى تاريخهم .

ـ « وذلك كله مصور في كتبي ، والحمد لله » . يشير الجاحظ الى كلامه على فروسية الخوارج وسببها الذي هو العقيدة الدينية في كتبه ولا سيما في رسالة « مناقب الترك » .

(٧) المدينة تدعى ايضاً طيبة لطيب هوائها وروائحها .

(٨) ابو الخطاب : هو قتادة بن دعامة السدوسي البصري الاعمى (٦١ ـ ١١٧ هـ) كان نسابة وعالماً بالحديث والفقه .

ـ ماعز بن مالك : احد الصحابة ، زنى فاقر على نفسه لرسول الله وطلب حده فامر الرسول برجمه حتى مات .

ـ يشير الجاحظ الى انتشار البدع والفرق كما في المشرق ولكنهم في المغرب لا يلجأون الى العنف والثورة كما يفعلون في المشرق ويذكر امثلة على الذين يلجأون الى الثورات كالخوارج ، والمقنع الخراساني الذي ثار ايام المهدي واستمرت ثورته ١٤ عاماً حتى قتل سنة ١٦٣ هـ . وقد ذكره الجاحظ في كتاب البيان والتبين وغيره .

ـ وشيبان الخارجي اليشكري الذي خرج أيام مروان بن محمد في عمان حتى قتل سنة ١٢٩ هـ .

ـ والاصبهبذ الخراساني .

ـ بابك الخرمي ، ثار ايام المعتصم فحاربه وقبض عليه وصلبه سنة ٢٢٣ هـ .

(٩) الخليل بن احمد الفراهيدي عالم باللغة والموسيقى وهو الذي وضع علم العروض وعلم الموسيقى ، وعلم المعاجم . وهو يصف قصر اوس بن ثعلبة بن زفر بن ربيعة والي خراسان من قبل الامويين .

ـ الملكانية : فرقة نصرانية ظهرت اثر مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ هـ . وسموا بذلك لانهم تبعوا مذهب ملك الروم وقالوا بطبيعة المسيح البشرية او الناسوت .

ـ اليعقوبية : فرقة نصرانية ثانية نسبوا الى رئيسهم مار يعقوب راهب القسطنطينية الذي قال بطبيعة المسيح الالهية . (انظر الشهرستاني ، الملل والنحل ، الجزء الثاني ، ص ٢٧ ـ ٣٣) .

(١٠) الحيرة : الحيرة موطن عون النصراني العبادي . اشارة الى تنصر العديد من اهلها .

- ٣ -

العثمانية

[١ ـ مقدمة]

ثم إنا مُخْبِرُون عن مقالة العُثمانية ، وبالله نستهدي وإيّاه نستعين ، وعليه نتوكّل ، وما توفيقنا إلاّ به .

[٢ ـ اسلام أبي بكر أفضل من اسلام علي لأنه أتى عن تكليف وامتحان]

قالت العثمانية أنّ أفضلَ هذه الأمّة وأولاها بالإمامة أبو بكر بن أبي قُحافة ، وكان أوّلَ ما دلهم عند أنفُسهم على فضيلتهِ وخاصّة منزلته وشدّة استحقاقه ، إسلامُه على الوجه الذي لم يُسلم عليه أحدٌ من عالَمه وفي عصره . وذلك أنَّ الناس اختلفوا في أوّلِ النّاس إسلاماً ، فقال قوم : أبو بكر بن أبي قحافة ، وقال آخرون : زيدُ بن حارثة ، وقال نَفرٌ : خبَّاب بن الأرَتّ .

على أنّه إذا تفقدنا أخبارَهم ، وأحصينا أحاديثَهم وعدد رجالهم ، و[نظرنا في] صحّة أسانيدهم ، كان الخبر في تقديم أبي بكرٍ أعمّ ، ورجالُه أكثر ، وإسناده أصحّ ، وهم بذلك أشهر ، واللفظ به أظهر ، مع الأشعار الصحيحة والأخبار المستفيضة في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعد وفاته . وليس بين الأشعار وبين الأخبار فرقٌ إذا امتنع في مجيئها وأصلِ مخرجها التّباعُد والاتفاق والتّواطؤ ، ولكنّا ندع هذا المذهب [جانباً] ، ونَضرب عنه صفحاً ، اقتداراً على

الحجّة ، وثقةً بالفَلَج والقوّة ، ونقتصرُ على أدنى منازل أبي بكر ، وننزل على حكم الخصم مع سَرفه ومَيطه فنقول :

لمّا وجدنا مَن يزعم أن خبّاباً وزيداً أسلما قبله فأوسَطُ الأمور وأعدلُها وأقربها من محبّة الجميع ورضا المجادل أن نجعل إسلامهم كان معاً ؛ إذ ادّعوا أنّ الأخبار في ذلك متكافئة ، والآثار متدافعة ، [وليس في الأشعار دلالة ، ولا في الأمثال حُجة]، ولم يجدوا إحدى القضيّتين أولى في حجّة العقل من الأخرى .

[٣ ـ اسلام علي أتى عن تربية وتأديب لأنه أسلم وهو صغير]

فصل : وقالوا : فإنْ قال قائل : فما بالكم لم تذكروا عليّاً في هذه الطبقة وقد تعلمون كثرةَ مقدّميه والرِّوايةَ فيه ؟

قلنا : لأنّا قد علِمْنا بالوجه الصَّحيح ، والشهادة القائمة أنّه أسلم وهو حدَثٌ غرير ، وغلام صغير ، فلمْ نكذِّب الناقلين ، ولم نستطعْ أن ننزِّل أنّ إسلامه كان لاحقاً بإسلام البالغين ؛ لأنّ المقلِّل زعم أنّه أسلم وهو ابنُ خمس سنين ، والمكثِّر زعم أنّه أسلم وهو ابن تسع سنين ، والقياس أن يُؤخذ بأوسط الرِّوايتين ، وبالأمر بين الأمرين ، وإنّما نَعرِف [حقَّ] ذلك من باطله بأن تُحصيَ سِنيهِ التي ولي فيها ، وسِني عثمان ، وسِني عمر وسني أبي بكر ، وسني الهجرة ، ومُقام النبي صلى الله عليه بمكة بعد أن دعا إلى الله وإلى رسالته إلى أن هاجر إلى المدينة ، ثم تنظرَ في أقاويل الناس في عُمره ، وفي قول المقلِّل والمكثِّر ، فتأخذَ أوسطَها وهو أعدلُها ، وتطرحَ قول المقصِّر والغالي ، ثم تطرح ما حصل في يديك من أوسطِ ما رُوي من عُمرِه [و] سِنيه ، وسِني عثمان وسني عمر وسني أبي بكر ، والهجرةِ ومُقام النبي صلى الله عليه وسلم بمكّة إلى وقت إسلامه ، فإذا فعلتَ ذلك وجدتَ الأمر على ما قُلْنا وعلى ما فسَّرنا .

وهذه التأريخات والأعمار معروفةٌ لا يستطيعُ أحدٌ جهلَها والخلافَ عليها ؛ لأنّ الذين نقلوا التاريخ لم يعتمدوا تفضيلَ بعضٍ على بعض ، وليس يمكن ذلك

مع اختلاف عللهم وأسبابهم ، فإذا ثبت عندك بالذي أوضحنا وشرحنا أنّه كان يومئذ ابنَ سبْعِ سنينَ أقلّ بسنة أو أكثر بسنة ، علمت بذلك أنّه لو كان أيضاً ابنَ أكثرَ من ذلك بستين وثلاث وأربع لا يكون إسلامُه إسلامَ المكلّف العارِف بفضيلة ما دخلَ فيه ، ونقصان ما خرج منه .

والتاريخُ المجتمع عليه أنّ علياً قُتِلَ سنة أربعين في شهر رمضان .

وقالوا : فإنْ قالوا فلعلّه وهو ابن سبع سنين وثمان سنين قد بلغ من فِطنته وذكائه وصحّة لُبّه وصدق حسّه وانكشاف العواقِب له وإن لم يكن جَرّبَ الأمور ، ولا فاتَحَ الرِّجال ، ولا نازع الخصوم ، ما يعرفُ جميعَ ما يجب على البالغ معرفتُه والإقرار به .

[٤ ـ حكم الطباع هو الصحيح]

قلنا : إنّما نتكلّم على ظاهر الأحكام وما شاهدنا عليه طباعَ الأطفال . وجَدْنا حكم ابن سبع سنين ، وثمان سنين وتسع سنين ، حيث قرأناه وبلغَنا خبره ـ ما لم يُعلم مغيّب أمره ، وخاصّةَ طباعه ـ حُكمَ الأطفال ، وليس لنا أن نُزيلَ ظاهر حكمه والذي نعرف بن شكله بلعلّ وعسى ؛ لأنا كنا لا ندري لعلّه قد كان ذا فضيلةٍ في الفِطنة ، فلعله أن يكون ذا نقص فيها . أجاب منهم بهذا الجواب من يجوِّز أن يكون عليٌّ في المغيَّب قد أسلم إسلام البالغ المختار ، غير أنّ الحكم فيه عنده على مَجرى أمثاله وأشكاله الذين إذا أسلموا وهم في مثل سنّه كان إسلامهم على تربية الحاضن ، وتلقين القيِّم ، ورياضة السائس .

[٥ ـ لو عرف علي هذا التمييز لكان آية من آيات الله كعيسى وزكريا]

فصل : فأمّا علماء (العثمانية) ومتكلّموهم ، وأهل القدِم والرِّياسة منهم ، فإنّهم قالوا : إنّ عليّاً لو كان وهو ابنُ ستّ سنين وسبع سنين ، وثمانِ سنين وتسع

سنين ، يعرف فضل ما بين الأنبياء والكهنة ، وفَرْقَ ما بين الرسل والسحرة وفرق ما بين خبر المنجِّم والنبيّ ، وحتى يعرف الحجَّة من الحيلة ، وقهر الغلبة من قهر المعرفة، ويعرف كيد المُريب وبُعْدَ غور المتنبّي ، وكيف يَلبِس على العقلاء ، ويستميل عقول الدَّهماء ، ويعرف الممكن في الطَّبائع من الممتنع فيها ، وما يحدث بالاتِّفاق وما يحدث بالأسباب ، ويعرف أقدار القُوى في مبلغ الحيلة ومُنتهى البطش ، وما لا يحتمل إحداثَه إلّا الخالق ، وما يجوز على الله ممّا لا يجوز في توحيده وعدله ، وكيف التحفُّظ من الهوى ، وكيف الاحتراس من تقدُّم الخادع في الحيلة - كان كونُه بهذه الحال وعلى هذه الصِّفة مع فرط الصِّبا والحداثة ، وقِلَّة التجارب والممارسة ، خروجاً من نشوء العادة ، والمعروفِ ممّا عليه تركيبُ الأمة . ولو كان على هذه الصِّفة ومعه هذه الخاصيَّة ، كان حجَّةً على العامَّة ، وآية تدلُّ على المباينة . ولم يكن الله ليخُصَّه بمثل هذه الآية وبمثل هذه الأعجوبة إلّا وهو يريد أن يحتجَّ بها له ، ويخبر بها عنه ، ويجعلَها قاطعةً لعذر الشَّاهد ، وحُجَّةً على الغائب ، ولا يضيِّعها هَدَراً ، ولا يكتمها باطلاً .

[٦ - لو عرف علي التميز المبكر لاحتج هو بهذه الآية ولذكرها القرآن والأخبار]

ولو أراد الاحتجاجَ بها شهر أمرها وكشف قِناعها، وحمَلَ النُّفوسَ على معرفتها، وسَخَّر الألسنة لنقلها ، والأسماعَ لإدراكها ، لئلّا يكون لغواً ساقطاً ، ونَسْياً منسيّاً ، لأنَّ الله لا يبتدع أعجوبةً ولا يخترع آيةً ولا ينقضُ العادَة إلّا للتعريف والإعذار ، والمصلحة والاستبصار . ولولا ذلك لم يكن لفِعلها معنىً ، ولا لرسالته حجّةً . والله يتعالى أن يَترُكَ الأمورَ سُدَى ، والتَّدبير نَشَراً . ولا يصلُ أحد إلى معرفةِ صدق نبيٍّ وكذب متنبِّيءٍ حتّى تجتمع له هذه المعارفُ التي ذكرنا ، وهذه الأسبابُ التي فصَّلنا .

ولولا أنَّ الله سبحانه خبَّر عَن يحيى بن زكريا أنّه آتاه الحكم صبيّاً ، وأنّه أنطقَ عيسى في المهد رضيعاً ، ما كانا في الحُكم ولا في المغيَّب إلّا كسائر الرُّسل ،

فإذ لم ينطقْ لعليٍّ بذلك قرآن ، ولا جاء الخبرُ به مجيءَ الحجّة القاطعة ، والشّهادة الصادقة ، فالمعلومُ عندنا في الحكم وفي المغيّب جميعاً أنّ طباعه كطباع عمّيه حمزةَ والعباس وهما أمسُّ بمعدِن جِمَاع الخير منه ، وكطباع جعفرٍ وعَقيلٍ أخويه ، وكطباع أبويه ورجال عصره وسادةِ رهطه . ولو أنّ إنساناً ادّعى مثل ذلك لأخيه جعفرٍ أو لعمّه حمزةَ أو لعمّه العباس ـ وهو حليمُ قريش ـ ما كان عندنا في أمره إلاّ مِثْلُ ما عندنا فيه .

فصل: ولو لم تعرف الرّوافضُ ومَن ذهب مذهَبها في هذا باطلَ هذهِ الدعوى ، وفسادَ هذا المعنى إذا صَدَقَتْ أنفُسَها ولم تقلّد رجالَها ، وتحفّظت من الهوى وآثرت التّقوى ، [إلاّ بتركِ] عليّ ذِكْرَ ذلك لنفسه والاحتجاجَ به على خَصمِه وأهلِ دهره ، منذُ نازعَ الرجال ، وخاصَمَ الأكْفاء ، وجامَعَ أهلَ الشورى وَوَلِيَ وَوُلِّيَ عليه ، والنّاسُ بين معاندٍ يحتاج إلى التقريع ، ومُرْادٌ يحتاج إلى الإرشاد ، ووليّ يحتاج إلى المادّة ، وغُفْل يحتاج إلى أن يُكْثَر له من الحجّة ، ويُتابَعَ له بين الأمارات والدّلالات مع حاجة القرن الثاني إلى معرفة الحقّ ومعدن الأمر ، لأنّ الحجة إذا لم تصحّ لعليٍّ في نفسه ، ولم يَقْوَ على أهل دهره ، فهي عن ولده أعجز ، وعنهم أضعف .

ثمّ لم ينقل ناقلٌ واحدٌ أنّ عليّاً احتجّ بذلك في موقف ، ولا ذكَره في مجلس ، ولا قام به خطيباً ، ولا أدلى به واثقاً ، ولا همس به إلى موافق ، ولا احتجّ به على مخالف .

فصل : وقد ذكر فضائِلَه وفَخَر بقرابته وسابقته ، وكاثَرَ بمحاسنه ومَواقفه ، منذ جامع الشّورى وناضَلَهم ، إلى أن ابتُلِيَ بمُساورة معاوية له ، وطمعهِ فيه ، وجلوس أكثر أصحاب رسول الله عن عَونه ، والشّدِّ على عضده ، كما قال عامرٌ الشّعبي : لقد وقعت الفتنة وبالمدينة عشرون ألفاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما خفّ فيها منهم عشرون . ومَن زعَمَ أنّه شهد الجمَلَ ممّن

شهد بدراً أكثرُ من أربعةٍ فقد كذب . كان عليٌّ وعمّار في شِقّ ، وطلحةُ والزُّبير في شِقّ .

وكيف يجوز عليه تركُ الاحتجاج على المخالِف وتشجيعِ الموافِق وقد نَصبَ نفسَه للخاصّة والعامّة ، وللخاذل والعادي ، ومن لا يحلّ له في دينه تركُ الإعذار إليهم ، إذ كان يرى أنَّ قتالَهم كان واجباً ، وقد نصَبهُ الرَّسولُ مَفزعاً ومَعْلَماً ، ونصَّ عليه قائماً ، وجعلَه للناس إماماً ، وأوجب طاعته ، وجعله حجّةً في الناس يقوم مقامه .

فصل : وأعجبُ من ذلك أنّه لم يدَّعِ هذا له أحدٌ في دهره كما لم يدَّعِهِ لنفسه ، مع عظيمِ ما قالوا فيه في عَسكره وبعدَ وفاته ، حتّى يقول إنسانٌ واحد إنّ الدَّليل على إمامته أنّ النبي صلى الله عليه وسلم دعاه إلى الإسلام ، فكُلِّفَ التّصديق قبلَ بلوغه وإدراكه ، ليكون ذلك آيةً له في عصره ، وحجّةً له ولولده على مَن بعده . وقد كان عليٌّ أعلَمَ بالأمور من أن يدَعَ ذِكرَ أكبرِ حُججِهِ والذي بانَ به من شكله ، ويذكر أصغر حُجَجِه والذي يشاركه فيه غيرُه ، وقد كان في عسكره مَنْ لا يألُو في الإفراط ، ومَن يحسب أن الإفراط زيادةٌ في القدر .

والعجبُ له ، إن كان الأمر كما ذكرتم ، كيف لم يقف يوم الجمل ويوم صِفّينَ أو يوم النهروان في موقفٍ يكون من عدوّه بمرأى ومسمع فيقول : « تبّاً لكم وتعساً ، كيف تقاتلوني وتجحدون فضلي وقد خصِصتُ بآيةٍ حتّى كنتُ كيحيى بن زكريا وعيسى بن مريم » ولا يمتنع النّاسُ من أن يقولوا ويموجوا ؛ فإذا ماجوا تكلّموا على أقدارِ عِلَلهم ، وعِلَلُهم مختلفة ، ولا ينشب أمرُهم أن يعود إلى فُرقة ، فمِن ذاكرٍ قد كان ناسياً ، ومِن نازعٍ قد كان مُصِرّاً ، وكم مترنّحٍ قد كان غالطاً ، مع ما كان يَشِيع من الحُجّة في الآفاق ، ويستفيض في الأطراف ، ويحتمله الرُّكبان ويُتهادَى في المجالس .

فهذا كان أشدَّ على طلحةَ والزُّبير ، وعائشة ومعاوية ، وعبد الله بن وهب ، من مائةِ ألف سنانٍ طرير ، وسيفٍ مشهور .

فصل: ومعلوم عند ذوي التّجربة والعارفين بطبائع الأتباع، وعِلَل الأجناد، أنّ العساكر تنتقض مرائرُها وينتشر أمرها، وتنقلب على قادتها بأيسَرَ من هذه الحجّة، وأخفى من هذه الشّهادة.

فصل: وقد علمتم ما صنعت المصاحفُ في طبائع أصحاب عليّ، حين رفعها عمرُو بن العاص أشدَّ ما كان أصحاب عليّ استبصاراً في قتالهم، ثم لم ينتقض على عليّ من أصحابه إلاّ أهلُ الجِدّ والنّجدة، وأصحاب البرانس والبصيرة.

وكما علمتم من تحوُّل شَطر عسكر عبد الله بن وهب حين اعتزلوا مع فروةَ بن نوفل، لكلمةٍ سمعوها من عبد الله بن وهب كانت تدلُّ عندهم على ضعف الاستبصار والوهن في اليقين.

وهذا الباب أكثر من أن يحتاج مع ظهوره ومعرفةِ النّاس به إلى أن نحشوَ به كتابنا.

فصل: فأمّا إسلامه وهو حدثٌ غرير وغلام صغير، فهذا ما لا ندفعه، غير أنه إسلام تلقينٍ وتأديب وتربية. وبين إسلام التّكليف والامتحان وبين التّلقين والتربية فرقٌ عظيم، وحجّةٌ واضحة.

وقالت (العثمانية): إن قالت الشّيعة: إنّ الأمور ليس كما حكيتم، ولا كما هيّأتموه لأنفسكم، بل نزعم أنّه قد كانت هناك في أيّام صباه وحداثته فضيلةُ فطنةٍ، ومزيةُ ذكاء، ولم يبلغ الأمرُ قدرَ الأعجوبة والآية.

قلنا: إنّ الذي ذهبتم إليه أيضاً لا بدَّ فيه من أحد وجهين:

إمّا أن يكون قد كان لا يزال يُوجَد في الصّبيان مثلُه في الفطنة والذّكاء وإن كان ذلك عزيزاً قليلاً، أو كان وجودُ ذلك ممتنعاً، ومن العادة خارجاً. فإذا كان قد كان يُوجَد مثلُه على عِزّته وقلته فما كان إلاّ كبعض مَن نرى اليوم ممن يُتعجَّب من حسّه وفطنته، وحفظه وحكايته وسُرعة قَبوله على صغر سنّه وقلة تجربته.

وإن كانت حالُه هذه الحالَ ، وطبيعته على هذا المثال ، فإنا لم نجد صبياً قطُّ وإن أفرط كَيسه وحسُنت فطنته وأعجب [به] أهلَه يحتمل ولاية الله سبحانه وعداوتَه ، والتمييز بين الأمور التي ذكرنا . مع أنّه ما جاءنا ولا صحَّ عند أحدٍ منا بخبرٍ صادق ، ولا كتاب ناطق ، أنّه كان لعليٍّ خاصّةً دون قريشٍ عامّةً في صباه من إتقان الأمور وصِحَّة المعارف وجَودة المخارج ، ما لم يكنْ لأحدٍ من إخوته وأعمامه وآبائه .

وإن كان القدر الذي كان عليه عليٌّ من الذكاء والمعرفة القَدرَ الذي لم نجدْ له [فيه] مِثلاً ، ولا رأينا له شِكلاً ـ وهذا هو البديع الذي به يُحتجُّ على المنكرين ، ويُفلج على المعارضين ، ويُبينُ للمسترشدين ـ فهذا بابٌ قد فرَغنا منه مرّة .

فصل : ولو كان الأمر في عليٍّ على ما يقولون لكانت في ذلك حُجّةٌ للرسول في رسالته ، ولعليٍّ في إمامته . والآيةُ إذا كانت للرسول وخليفة الرسول كان أشهَرَ لها ؛ لأن وضوح أمرِ الرسول يزيد على ما للإمام ويزيده إشراقاً واستنارة وبياناً . ولا يجوز أن يكون الله قد عرَّف أهلَ عصرِهما ذلك ، وهمُ الشُّهداءُ على مَن بعدَهم من القرون ثم يسقِط حجته ؛ فلا تخلو تلك الحجةُ وتلك الشّهادةُ من ضربين : إمّا أن تكون ضاعت وضلت ، وإمّا أن تكون قد قامت وظهرت .

فإنْ كانت قد ضاعت فلعلَّ كثيراً من حُجَج الرسول صلى الله عليه وسلم قد ضاع معها ، وما جُعِلَ الباقي منها أولى بالتَّمام من السَّاقط ، والساقط من شكل الثَّابت . على أنَّ مع الساقط خاصّةً ليست مع الثابت ، لأنّه حجة على شيئين ، والثابت حجة على شيء . ولا يخلو أمرُ السَّاقط من ضربين : إمَّا أن يكون الله لم يُرِدْ تمامه ، أو يكون قد أراده .

وأيُّ ذين [كان] فَفَسادُه واضحٌ عند قارىء الكتاب .

وإن كانت الآية قد تمت إذْ كانت الشهادة قد قامت علينا بها كما كانت شهادةُ العِيان قائمةً عليهم [فيها] فليس في الأرض عثمانيٌّ إلاّ وهو يكابر عقلَه

ويجحد علمه .

ولعمري إنّا لنجد في الصّبيان من لو لقّنته وسدّدته أو كتبتَ له أغمض المعاني وألطفَها ، وأغوَصَ الحجج وأبعدَها ، وأكثرها لفظاً وألطفها ، وأطولها ، ثم أخذتَه بدرسه وحِفْظه لحفِظَه حِفظاً عجيباً ، ولهذه هذّاً ذَليقاً . فأمّا معرفتُه صحيحَه من سقيمه ، وحقَّه من باطله ، وفَصْلَ ما بين المقرِّب والدليل ، والاحتراسَ من حيثُ يؤتى المخدوعون ، والتحفُّظَ من مكر الخادعين ، وتأتّي المجرِّب ، ورِفْقِ السّاحر ، وخِلابة المتنبِّيء ، وزَجرِ الكاهن ، وإخبار المنجِّمين ، وفَرْقَ ما بين نَظْمْ القرآن وتأليفه ونَظمِ سائر الكلام وتأليفه ـ فليس يعرف فُروقَ النّظرَ واختلافَ البحث ، إلاّ مَن عرف القصيدَ من الرجز ، والمخمَّس من الأسجاع ، والمُزاوَج من المنثور ، والخطب من الرّسائل ، وحتّى يعرف العجز العارضَ الذي يجوز ارتفاعُه من العجز الذي هو صفةٌ في الذّات .

فإذا عرفَ صُنوفَ التّأليف عرف مباينة نظمِ القرآن لسائر الكلام ، ثم لم يكتفِ بذلك حتّى يعرف عجزَه وعجزَ أمثالِه عن مثله ، وأنَّ حكم البشر حكمٌ واحد في العجز الطّبيعي وإن تفاوتوا في العَجزْ العارض . وهذا ما لا يوجد عند صبيٍّ ابنِ سبع سنين وثماني سنين وتسع سنين أبداً ، عَرَف ذلك عارف أو جهله جاهل . ولا يجوز أن يعرف عارفٌ معنى الرسالة إلاّ بعد الفراغ من هذه الوجوه ، إلاّ أن يجعل جاعلٌ التّقليدَ والنّشوْ والإلفَ لما عليه الآباءُ وتعظيم الكبراء ، معرفةً ويقيناً . وليس بيقينٍ ما اضطرب ودخله الخِلاج عند ورود معاني لعلّ وعسى ، وما لا يُمْكِن في العقول إلاّ بحجة تُخرِج القلبَ إلى اليقين عن التجويز .

ولقد أعيانا أن نجد هذه المعرفَة إلاّ في الخاصّ من الرِّجال وأهلِ الكمال في الأدب ، فكيفَ بالطِّفل الصغير والحدَث الغرير ؟ ! مع أنّك لو أدرت معانيَ بعضِ ما وصفتُ لك على أذكى صبيٍّ في الأرض وأسرعِه قَبولاً وأحسنِه حكايةً وبياناً ، وقد سَوّيته [له] ودلَلته ، وقَرَّبته [منه] وكفَيته مَؤونة الرَّويَّة ووحشة

الفكرة ، لم يعرفْ قدرَه ولا فَصَلَ بين حقِّه وباطله ، ولا فرّق بينَ الدَّلالة وشبيهِ الدَّلالة ، فكيف له بأن يكون هو المتولِّي لتجربته وحلِّ عَقده ، وتخليص مُتشابهه ، واستثارته من معدنه ؟ !

وكلُّ كلامٍ خرج من التَّعارُفِ فهو رجيعٌ بَهرج ، ولغوٌ ساقط .

فصل : وقد نجد الصبيَّ الذَّكيَّ يعرف من العَروض وجهاً ، ومن النحو صدراً ، ومن الفرائض أبواباً ، ومن الغِناء أصواتاً ، فأمَّا العلمُ بأصول الأديان ومخارج المِلَل ، وتأويل الدِّين ، والتحفُّظ من البِدَع ، وقَبْلَ ذلك الكلامُ في حُجَجِ العقول ، والتَّعديلِ والتَّجوير ، والعلمُ بالأخبار وتقدير الأشكال فليس هذا موجوداً إلَّا عند العلماء . فأمَّا الحُشْوةُ والطَّغام فإنَّما هم أداةٌ للقادة ، وجوارحُ للسَّادة . وإنَّما يَعرِف شِدَّةَ الكلام في أصول الأديان من قد صَلِيَ به وعَجَمه ، وسَلَك في مَضَايقه ، وجَاثَى الأضداد ، ونازعَ الأكْفاء .

[٧ ـ أدلة الشيعة على قدم اسلام علي وفضله ورد العثمانية عليهم]

فإنْ قالت (الشِّيَع) : الدَّليل على أنَّ إسلام عليٍّ كان اختياراً ولم يكن تلقيناً ، أنَّ علياً أسلَمَ بدُعاء النبيِّ صلى الله عليه وسلم له ، وفي ذِكر الدُّعاء والإقرار به دليلٌ على أنَّ الإجابة اختيار ، لأنَّ المُسْلِمَ بالدُّعاء مجيبٌ للدُّعاء . ولا نَعلَمُ الدُّعاءَ يكونُ من حكيم لمدعُوٍّ لا يَختار ولا تحتمل فطرتُه تمييز الأمور وفَصْلَ ما بين ما دعا إليه وبين ما دعا إليه غيرُه . وليس بينَ قول القائل : دعَا النبي صلى الله عليه فلاناً إلى الإسلام وبين قوله : كلَّف النبي صلى الله عليه وسلم فلاناً الإسلامَ فرق . وقولُ المسلمين : دعا النبيُّ صلى اللّهُ عليه وسلم عليّاً كقولهم : دعا جميعَ العربِ فمِن مجيبٍ طائع كعليٍّ ، ومن ممتنع عاصٍ كفلان وفلان .

قالت (العثمانية) عند ذلك: قد عرَفْنا أنَّ بعضَهم قد نقَلَ أنَّ عليّاً كانَ أوَّلَ من أسلم ، وقد نقلوا بأجمعهم أنَّه كان أوَّلَ مَن أسلم . وبينَ قولِ القائل أسلم

فلانٌ أوّلَ النّاس وبين أن يقول أسلَمَ في أوائل الناس فرقٌ . فأمّا أنْ يكون واحدٌ من جميع الصِّنفين من البعض والجميع فسّر مع روايته ومَخرج خبره كيف كان إسلامُه ، أعَلى وجهِ الدُّعاء والتّكليف أم على وجه التّلقين والتّربية ، فلم نر أحداً منهم ميّز ذلك ولا فَرَقَه في مَخرج الخبر . ونحنُ لم ندَّع أنَّ إسلامَه كان إسلامَ تلقين مِنْ قِبَل تفسير النّاقلين وتمييز المحدِّثين ، ولكنّا نظرنا في التاريخ فعرَفْنا عُمرَه وابنَ كَمْ كان يومَ تُوفِّي ، وعرَفْنا موضعَ اختلافِهم واجتماعهم ، فأَخَذْنا أوسطَه إذ كان أعدَلَ ما فيه ، وأسقَطْنا قولَ من كَثَّر وقلّل ، ثم ألقينا منه سِنيه إلى عام إسلامِه فوجَدْنا ذلك يوجِبُ أنّه كان ابنَ سبع . ولو أخَذْنا أيضاً بقول المكثِّر فجعلناه ابنَ تسع ، وتركْنا قولَ مَن قَلَّل وقولَ المقتصد ، عِلمْنا بذلك أيضاً أن إسلامه كان إسلامَ تربيةٍ وتأديب وتلقين ، كما أخَذَ الله على المسلمين أن يَأخُذوا به أولادَهم .

وقالت (العُثمانيّة) للعلويّة : إنما لم ندَّعِ أنّه أسلَمَ وهو ابنُ سبع وجدنا ذلك قائماً في خبرهم مُفَسَّراً في شهادتهم ، ولكنّه عِلمٌ مستنبَط من أخبارهم ، ومُستخرَجٌ من آثارهم عِندَ المُقابلة والموازنة . ومثلُ ذلك لو أنَّ رجلاً قال لرجل : خُذْ عشرةً في عشرة ، كان ذلك في المعنى كقوله : « خُذ مائة » ، وإنْ لم يكن سمّاها له ولا ذكَرها بلسانه .

وقالوا : ولولا أنَّ مِنْ شأنِنا الأخْذَ بالقِسْط ، والحكْمَ بالعدل لأخذْنا الشِّيَع بقولهم في عُمره وبِقَول وليه ، فإنَّ أحدهما يزعمُ أنَّ عليّاً تُوفِّي وهو ابنُ سبع وخمسين . وقال الآخرون : بلْ تُوفِّي وهو ابنُ ثمان وخمسين . ولو كان كما تقول الرّافضةُ ووَلَدُه ما كان أسلَمَ إلاّ وهو ابنُ خمسٍ أو ابنُ ست ، وهم لا يَألُون ، ما نَقَصُوا من عمره وصَغَّروا من سِنّه لكي يجعلوا إسلامَه آيةً له وحجّةً على إمامته .

ولعمري لو كان الذين نَقلُوا أنّه كان أوّلَ مَن أسلَمَ نَقَلُوا مع خبرهم أنّه أسلمَ بالدُّعاء والتّكليف ، لقد كان ما ذهبتم إليه مذهباً ، وما اعتصمتم به

متعلّقاً ، ولكنْ ما في الأرض كلّها حامل خبر ولا صاحبُ أثرٍ كان في خبره أنّه أسلَمَ بدُعاءٍ ، ولا أنّه أسلَم بتلقين ، وإنّما هذا مستخرجٌ من الأخبار .

فإنْ قالت (الرّوافض) : بل الدّليل على أنّ إسلامه كان طاعةً ولم يكن تلقيناً قولُ جميع الأمّة إنّ عليّاً كان من أوّل من أسلم ، فنفسُ قولهم أسلَم هو كقولهم أطاع واختار ، وكذلك قولُهم إذا قالوا : كفَرَ فلان ، فهو كقولهم : عصَا واختار ، وإنْ لم يفسّروا . وليس بينَ قولهم أسلم فلانٌ وكفَرَ فلانٌ فرق ، لأنّ المخبرَ الصّادق إذا قال كفَرَ فلان فحكمُه عند السامع العَداوةُ والبراءة . ولو قال أسلَمَ فلانٌ كان حكمه المحبّةَ والولاية : فإذا كانوا كلّهم قد قالوا : أسلم عليٌّ ، وحُكم « أسلَمَ » يثبت الاختيارَ وإجابة الولاية ، قبلَ أن يُجمعوا على أنّه كان على التّلقين والتّربية ، فعليٌّ على هذا القياس مطيعٌ في إسلامه ، مختارٌ له على غيره . وكذلك لو قالوا : كفر فلان ، كان حكمُه حكمَ العاصي المختار حتّى يُجمعوا أنّ كفره كان عن إكراهٍ أو غلَط أو هَيْج مِرّة ، أو هَجْر النّائم ، أو تلقينَ المؤدِّب . فلمّا كان هذا قياساً مُوجباً صحيحاً ، لم يكن لأحد أن يجعلَ إسلامَ عليٌّ إسلامَ تلقينٍ إلاّ بمثل الحُجّة التي جعلَه بها مسلماً ، لأنّهم قد اطبَقوا بأجمعهم على إسلامه واختلفوا في السِّنَة . فيجب الاّ نُزيل حكم « أسلَمَ » إلاّ بإجماع منهم أنّه كان عن تلقين وتربية .

قلنا لهم : لعمري لو لم يكن ها هنا إجماعٌ يُخبِر أنّ إسلامَه كان إسلامَ تلقين ونُشوٌّ ، كان حكمُ قولهم أسلم عليٌّ على ما قلتم ، لا تُجحَدون حُكمَه ولا تُظلَمون مَعْناكم فيه ، ولكن الذين قالوا إنّه توفّيَ وهو ابنُ كذا وكذا فأخذْنا بأوسطها نقصوا من سِنيه فإذا هو قد أسلَمَ وهو ابنُ سبع سنين . ولو أخَذْنا بقول المكثِر وبخَسْنا القياسَ حَظّه كان أيضاً إسلامُه وهو ابن تسع سنينَ إسلامَ تلقينٍ . فبِهمْ عرَفنا تقدّمه في الإسلام ، وبهم عرفنا صِغَرَ سنّه وحداثته ، إذْ كان الصبيُّ إذا كان ابنَ خمسِ سنينَ إلى عشر سنين لا يُستتاب إنْ كفر ، ولا يُلام إن جَهِل ، ولا يعذَّب إن ضَيَّع . فإذا كانوا بأجمعهم قد قالوا إنّه أسلم وهو ابن

خمس أو ستٌ أو ثمان أو سبع ، فقد قالوا بأجمعهم إنّه أسلمَ إسلام تلقين وإن لم يقولوا بأفواههم ، كما قلتم إنّ قول القائل كفر فلانٌ وأسلم فلان ـ وإن لم يذكره ـ [حكمٌ] بالطّاعة والمعصية .

قلنا : فكذلك إذا قال رجلٌ أسلم فلانٌ وهو ابن سبع سنين أو ثمانٍ أو تسع ، فقد قال إنّ إسلامَه كان إسلام تلقين وإن لم يذكره ولم يتفوّهْ به كما قلتم ، حَذْوَ القُذّة بالقُذّة ، والنّعلِ بالنّعل . فإذا ثبت أن إسلامَ عليٍّ إسلامُ تلقين في ذلك الدّهر فإسلام زيدٍ وخبّاب أفضلُ من إسلامه . ولو أن عليّاً كان أيضاً بالغاً كان إسلامُ زيدٍ وخبّاب أفضلَ من إسلامه ، لأن إسلامَ المقتضِب الذي لم يُغذَ به ولم يُعَوَّدْه ولم يُمَرَّنْ عليه ، أفضلُ من إسلام النّاشيء الذي قد رُبيَ فيه ونشأ عليه وحُبّبَ إليه ؛ لأنّ خبّاباً وزيداً يعانيان من الفِكر ويتخلّصان إلى أمور ، وصاحب التّربية يبلغُ حين يبلغُ وقد أسقطَ إلفُه عنه مَؤونة الرويّةِ ، والخِطارَ بالجهالةِ ، وقد أورثه الإلْفُ السُّكونَ ، وكفاهُ اختلاجَ الشّكّ ، واضطرابَ النّفْس وجَوَلانَ القلْب .

فصل : ولو كان عليٌّ أيضاً بالغاً وكان مقتضِباً كزيد وخبّاب لم يكن إسلامُه ليبلغَ قدرَ إسلامِهما ، لأنَّ إسلام التّربية يكفي مؤونتَين : إحداهما الخِطار والتّغرير ، والأُخرى شِدّةُ فراق الإلف ومكابدة العادة ، ونِزاع الطّبيعة ، مع أنّ من كان بِحَضْرةِ الأعلام وفي منزلِ الوحي ، وفي رِحال الرُّسل فالأعلامُ له أشدُّ انكشافاً ، والخواطرُ على قلْبِه أقلُّ اعتلاجاً . وعلى قَدْر الكُلْفة في دَفْع الشُّبهة والإقرارِ بخلاف الإلف والعادة ، والمخاطرةِ باعتقاد الجهالة ، يعظُم الفضْل ، ويكْثُر الأجْر .

[٨ ـ أسلم علي وهو يعلم أنّ له ظهراً يحميه]

٧ ولو كان أيضاً عليٌّ أسلَمَ بالغاً مدرِكاً ، وكان مع إدراكه وبلُوغه كهلاً ، وكان مع كهولته مُقْتَضِباً كان إسلامُ زيدٍ وخبّاب أفضلَ من إسلامه ، لأنَّ من

أسلَمَ وهو يعلم أنَّ له ظهراً كأبي طالب ، ورِدءًا كبني هاشم ، ومَوضِعاً في بني عبد المطّلب ، ليس كالحليف ولا المولى ، والنـزيل والتّابع والعَسيف ، وكالرُّجل من عُرْطف قريش وقاطِني مكة . [أ] وَما علمت أن قريشاً خاصّة وأهل مكّة عامةً لم يقدروا على أذى النبي صلى الله عليه ما كان أبو طالبٍ حيّاً قائماً ؟ ! ولقد منع أبو طالبٍ أبا سَلمة بن عبد الأسد المخزوميّ لأنه كان ابن أُخته ، فما قَدَرَت بنو مخزوم مع خُيلائها وعُرام شبابها ، ومع عِزّها وشدّة عداوتها أن تُحُصَّ منه شعرة ولا تُسمعه كلمة حتى مشت إليه بأجمعها ، لِلّذي تَرى له في أنفسها ، فكان من قولهم له : هذا ابنُ أخيك قد فرَّق جماعتَنا وسفَّهَ أحلامنا وشتم آلهتنا وقد منعتَه منّا ، فما بال صاحبنا ؟ قال : من لم يمنع ابن أُخته لم يمنع ابن أخيه !

فإذا كانت قريشٌ وأهلُ مكة لا يقدرون على ابن أخيه وابن أخته معه فهم عن ابنه أعجز ، وعنه أقعد ، وله أعفى ، وهو لابنه أحضرُ نَصراً وأشدُّ غضباً ، وأحمى أنفاً ، وليس الممنوع كالمخذول ، ولا الضَّعيف كالقويّ ، ولا الآمِنُ كالخائف . فإذا كان إسلام زيد وخبّاب أفضلَ من إسلامه في ذلك الدَّهر كما عدَّدنا من الطبَّقات ، ورتّبنا من المنازل ، ونَزّلنا من الحالات ، فإسلام أبي بكر أفضل من إسلامهما ، فقد سقطت المنازعة ، وارتفعت الخصومة عند مَن فهم كتابنا ولم يمنع نَفْسَه الحظَّ بصُحبتنا ، لفرط التّباين وعظم الفرق .

[٩ ـ كان ابو بكر ذا ثراء وجاه فلم يخش عليهما بيتها لم يكن علي ذا مال فيخشى عليه]

فصل : والدَّليل على أن إسلام أبي بكر كان أفضل من إسلام زيد وخبّاب أنَّ زيداً كان رجلاً غير مذكور بعلم ، ولا مُزَنٌ بمال ، ولا مغشيٌّ المجلسِ ، ولا مَزُور الرَّحل ، وكذلك كان خبّاب . وكان أبو بكرٍ رضي الله عنه أعلمَ العرب بالعرب كلِّهم ، وأرواها لمثالبها ومثالبها ، وأعرفَها بخيرها وشرّها ، ولذلك قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم لحسّان مع بينُ حسّانٍ وعلمه وتحاكُم الشعراء إليه ،

حيث أمره النبيُّ عليه السلام أن يهجو أبا سفيان بن الحارث ، وحيث قال له : « أهجُهُمْ ومعك روح القدس » . وحيث قال له : هيِّج الغطاريف على بني عبد مناف - في قتل أبي أزَيْهر - والقَ أبا بكر فإنّه أعلمُ النّاس بهم .

فصل : ولذلك كان جُبَير بن مُطعِم أعلَمَ قريش بالعرب بعد أبي بكر ، لأنّه كان المتولِّيَ لتأديبه وتثقيفه ، وقد كان أبو بكر قد سمّى عائشةَ ، للذي رأى من حُسْنِ أثره عليه .

وكان أبو بكر ، مع علمه بالناس وحُسن معرفته ، ذا مالٍ كثير ووجه عريض ، وتجارةٍ واسعة ، وكان جبلاً عتيقاً ، ومَزوراً مغشيّاً ، ومحبّباً أديباً صاحب ضيافات ، ويُعين في الحَمالات ، ويجتمع إلى مجلسه كُبراءُ أهل مكة ، لما يجدون عنده من طريف الحديث وغريب الشعر ، حتّى كان مثلُ عُتبة وشَيبة يجلسان إليه ، ويُعجَبان بحديثه ، ثم يتّخذ لهم ما يتحدّثون عليه ويطول مجلسُهم به ، مِن شراب العَسَل والزبيب واللبن ، فكانت قريشٌ بعد إسلام أبي بكر وكثرةِ مستجيبيه بمكة تريد تنفير عتبة بنِ ربيعة من مجلسه وإيحاشه منه ، مخافةَ أن يستميلَه بحسن دعائه ، وتأتّيه ورفقه ، ورقّة دموعه وشدّة خشوعه فتقول له : أمَا إنّك ما تأتي ابنَ أبي قُحافة إلاّ لطيب عسَلِه وإلاّ لِلَذّته ، وإنّما نفّروه بهذا وشِبهه لأنه كان ذا عيالٍ مُملقاً ثقيل المؤونة ، خفيفَ ذات اليد ، مع سِنّه وسؤدده وحِلمه ورأيه .

ولا سواءٌ إسلامُ ذي اليسر والمال الدَّثْر ، المنفق حَريسرة كسبه وعَقيلة مِلْكه ، والمفرِّق عنه جمعُه والموحِش منه أنيسُه ، الخارج من عزِّ الغنى وكثرة الصَّديق ، إلى ذلِّ القِلّة وعَجْز الفاقة ، وإسلامِ مَن لا حَرَاك به ولا جَدَا عِندَه ، تابعٍ غيرِ متبوع ، ومستجدٍ غير مجْدٍ ؛ لأن مِن أشدِّ ما يُبتَلى به الكريمُ السبُّ بعد التحيّة ، والضّربَ بعد الهيبة ، والعُسرَ بعد اليسر .

ولا سواءٌ إسلام العالم الأديب الأريب ، ذي الرأي السديد ، وإسلامُ غيره .

ثم كـانَ داعيةً من دعـاة الرّســول مقبولَ القَـول ، متبوعَ الـرَّأي . ومَن كانَ في صفـة أبي بكرٍ فـالخوفُ عليـه أشـدّ ، والمكـروه إليـه أسـرع ، لأنـه لم يكن عـلى ظهرها عدوٌ للنبي صلى الله عليه وسلم إلاَّ وأبو بكرٍ يتلوه عندَه في العداوة .

ولا سـواءٌ إسلامُ من أسلم عـلى أن يَمُـون ويكلف ، وإسـلامُ من كـان يُمـانُ قبل إسلامه ويكلّف بعد إسلامه .

ولا سـواءٌ إسـلام الكهـل النّبيـه الـذي يَخشُـن عنـد قـريش مـطالبتُـه ، ولا يشتَحي من طلب الثـأر عنده ، وإسـلامُ الحدَث الـذي لا يَفِي بعـداوة الجلّة ، ولا تستجيز مجازاته العِلية .

[١٠ ـ ابو بكر تحمل التنكيل في سبيل الاسلام بينما علي وادع البال]

ثمَّ كـان الـذي يلقى أبـو بكـر في الله ورسـولـه ببـطْن مكّـة ، وعـليٌّ خـليّ الـروع ، آمِن السِّرب رخيُّ البـال ، كما لقِيَ يـومَ دعا طلحـةَ إلى الإسـلام فـأسلم ومضى به إلى النبي صلى الله عليـه وسلم وخذلَهـا تَيْم ، وأخذَهمـا نوفـل بن خويلد ابن أسد ـ فأمّـا ابن إسحاق فزعم أنّه كـان من شياطـين قُريش . وأمّـا الـواقـدي وغيـرُه فـزعمـوا أنّـه كـان يلقّب أسـد قـريش ، وهـو الـذي يقـال لـه ابن العَـدَوية ـ فقـرنهُما في حبلٍ ، وفتنهـا عن دينها وعـذّبها ، فلذلـك سمّي أبـو بكـر وطلحةُ « القَرينَين » .

وأبـو بكـر الـذي قـام دون النبي صـلى الله عليـه وسلم بمكّـة وقـد اعتـوَرَه المشـركون حـين قال : « أمَـا والله لقد جئتكم بـالذَّبْـح !! » قال أبـو بكر ويلكم ، أتَقتُلون رجلاً أن يقول ربيَّ الله ! فصَدَعوا فودي رأسِه .

ثم الذي لقِي في مسجده الـذي كان بناه على بابِه في بني جُمَـح ، وحيث ردَّ الجـوار وقال : لا أريـد جـاراً سـوى الله . وقـد كـان بـنى مسجـداً يصـلّي فيـه ويـدعـو النّـاس إلى الإســلام ، ولــه صـوتٌ رقيق ووجـه عتيق ، فكـان إذا قـرأ

وبكى ، وقعت عليه المارّةُ والنّساء والصبيان والعبيد ، فلمّا أوذِيَ في الله حتّى بلغ جُهدَه استأذَنَ النبيَّ صلى الله عليه في الهجرة ، فأذِن له ، فأقبَلَ يريد المدينة فتلقّاه الكِنانيُّ سيّد الأحابيش ، فعقد له جواراً وقال : والله لا أدَع مثلَك يخرج من بين أخشَبيْ مكّة . فرجع وقد عقَدَ له الكِنانيّ جِواراً ، كلّ ذلك رغبةً في قُرب النبي صلى الله عليه ، فلما رجَع إلى مكّة عاد إلى مسجده وصنيعه ، فمشت قريشٌ إلى جارِه وعظّموا الأمرَ عنده واجلَبوا عليه فقالوا : قد أفسد أحداثَنا ، وعبيدَنا وإماءنا ونساءنا ، في منازلنا !! فمشي إليه الكنانيُّ وقال : ليس على هذا أعطيتك الجِوار ، ادخُل بيتَك واصنَعْ فيه ما بدا لك ! قال له أبو بكر : أو أردُّ عليك جوارَك وأرضي بجوار الله ؟ فلما قَطَع الجِوار وترادّا العهد وتَباريا لقي أبو بكر رضي الله عنه من الأذى والذُّلّ والضّرب والاستخفاف ما بلَغَك ، وهو أمرٌ موجودٌ في جميع السِّيَر . وليس المفتون كالوادع ، قال الله سبحانه : ﴿ والفِتنةُ أشدُّ من القتل ﴾. وذلك أنّ المشركين كانوا قد صاروا إلى أن يَفْتِنوا النّاسَ عن دينهم بالتّعذيب ، والمسلمون نفرٌ يسير ، قد خذلتهم عشائرهم ، وأسلمتهم أهلوهم ، فألقَوْا خبّاباً على الرَّضْف حتّى ذهب ماء مَتْنِه . وكان أبو ذَرٍّ حليفاً مستضعفاً فكان يدخُل بالنهار في خلال أستار الكعبة ويخرج باللّيل مستخفياً ، وكانت بنو مخزومٍ تعذّب عمّاراً وأباه وأمّه برَمْضاء مكّة ، فيمرُّ بهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم فيقول : « صبراً آل ياسر ، فإنّ موعدَكم الجنّة ! » فذكر عمّار عند ذلك جِهادَ أبي بكر لبلال حين أعتقه من العذاب فيمن أعتق ، فقال :

جَزَى اللّهُ خيراً عن بلالٍ ودينِه · عتيقاً وأخزَى فاكِهاً وأبا جهلِ

وقال سعيد بن جُبير: قلت لعبد الله بن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه من العذاب ما يُعذَرون به في ترك دينهم ؟ قال : والله إنْ كانوا ليَضربون أحدَهم ويُعطّشونه حتّى لا يقدر أن يستوي جالساً من الجُهد ، حتّى إنْ كان أحدُهم ليُعطيهم الذي سألوه ، من الفتنة ، وحتّى يقال له : اللات والعُزّى إلهُك مِنْ دُون الله ؟ فيقول : نعم . وحتّى إنّ الجُعَل ليمرُّ

بهم فيقال له : هذا إلهك ؟ فيقول : نعم .

فلو كان عليٌّ بن أبي طالبٍ قد ساوَى أبا بكر في الإسلام لقد كان فَضَله أبو بكر بأنْ أعتق من المعَذّبين المفتونين بمكّة ، وحقّ [و] لم يكن غير ذلك لكان لَحاقه حسيراً ، ولو كان ذلك يوماً واحداً لكان عظيماً ، فكيف وكان بين ظهور النبي عليه السلام ودعائه إلى أن هاجر إلى المدينة ثلاث عشرة سنة ، في كلّ ذلك أبو بكر وخبّابٌ وأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يتجرّعون المُرارَ وعليٌّ وادعٌ رافه ، غير طالبٍ ولا مطلوب وليس أنّه لم يكن في طباعه النّجدة والشهامة ، وفي غريزته الدّفع والحماية ، ومن أكرم عنصرٍ وأطيب مَغْرِس ، ولكن لم تكنْ تَمُت له أداتُه ، ولم تستجمع له قُواه ولم تتكامل آدابه ، لأنّ العقل وإن اشتدَّ مَغرِزه وثَبتت أواخيُّه وجاد نَحته فإنّه لا يبلغ بنفسْه دَرْكَ الغاية ، دونَ كثرةِ السَّماع والتَّجربة ، ولأنّ رجال الطَّلَب وأصحاب الثأر وأهل السِّن والقَدْر يَغْمِطُون ذا الحداثة ، ويُزْرُون على [ذي] الصِّبَا والغَرارة إلى أن يلحق بالرِّجال ويصير من الأكفْاء . حتّى كان آخر ما لَقِي هو وأهله في أمر النار ، وقد طلبته قريشٌ وجعلت فيه مائة بعير كما جعلت في النبي صلى الله عليه وسلم ، فلقي أبو جهل أسماء بنت أبي بكر ـ وهي ذات النِّطاقين ـ مُنصَرَفها من الغار ، فسألها فكتمتْه فلطمها ، فقالت أسماء : لقد لطمني لطمةً أندَرَ منها قُرطاً كان في أذني .

[١١ ـ ابو بكر يدعو الناس الى الاسلام فيستجاب له ويعتق العبيد]

فصل : ثم الذي كان من دعائه إلى الإسلام وحسن احتجاجه حتّى أسلم على يديه طلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن وعثمان ، لأنّه ساعةَ ما أسلَمَ دعا إلى الله ورسوله ، وكان مألفاً ، لأدبِهِ وعِلمه ورُحْب عَطَنه .

وقالت أسماء: «ما عرفتُ أبي إلاّ وهو يدين بالدِّين، ولقد رجع إلينا يوم أسلَمَ فدعانا إلى الإسلام فما رِمْنا حتّى أسلمنا وأسلم أكثر جلسائه »، ولذلك قالوا : لَمَنْ أسلَمَ بدعاء أبي بكر أكثرُ ممّن أسلم بالسَّيف . ولم يذهبوا من قولهم إلى العدد

بل عنَوا الكثرةَ في القدر ، لأنَّ من أسلم على يده خمسةٌ من الشُّورى ، كلُّهم يَفِي بالخلافة ، وهم أكفاءُ عليٍّ ومنازِعوه الرِّياسة والإمامة ، فقد أسلم على يده أكثرُ ممن أسلم بالسَّيف ، لأنَّ هؤلاء أكثر من جميع الناس .

فصل: وممّن أسلم على يده بلال، وهو الذي يقول فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « بلالٌ سيِّدنا ومولى سيِّدنا » . ورووا أنَّه قال : « أبو بكر سيِّدنا وأعتَقَ سيِّدنا » وقال النبي صلى الله عليه وسلم : بلالٌ سابقُ الحَبَش ، وبلال « مولى أبي بكر » ثلاث مرات . أسلم على يده فأعتَقَه من رقِّ الكفر ، وأعتقَه من رقِّ العذاب حيثُ كان يُفتَن في الله ورسوله ، وأعتقه من رقِّ العبوديّة .

وكان من قصَّة بلالٍ أنَّه كان عبداً لبني جُمَح وكانت دارُ أبي بكر ومسجدُه في حيِّ جمح ، ولم يكن ببطن مكّةَ مسجدٌ سواه ، فلمّا سمع دُعاءَ أبي بكر أسلَمَ وحدَه فلمّا سمعَ أميّةُ بن خَلَف فكان يخرجه إذا حمِيت الظُّهيرة فيطرحُه على ظَهْره ببطحاء مكّة ، ثم يضع صخرةً على صدره ، ثم يحلف بإلهه لا ينزِعها عن صدره أو يكفُرَ بمحمَّد وإلهه ويؤمنَ باللاتِ والعزَّى ! وبلالٌ يأبى وهو يقول : أحَدٌ أحد ! وكان يمرُّ به ورقةُ بن نوفل فيقول : نَعَمْ يا بلال ، أحد أحد !! فمرَّ به أبو بكر وهو يريد دارَه في بني جُمَح ، فرأى أميّةَ وما يصنع ببلال ، فقال : ألا تتّقي الله ؟ إلى مَتى تعذِّب هذا المسكين ؟ ! قال : أنت أفسدتَه ! يعني أنت دعوتَه حتّى أسلم - فأنقِذْه ! قال أبو بكر : عندي غلامٌ أسود جَلْدٌ ، على دينك ، أُعطيكه وآخذُه . فأعتَقَه . فهو عتيقه ثَلاثَ مرّات .

ثم أعتق بعدَ ذلك من المعذَّبين في الله ستُّ رقاب ، منهم عامر بن فُهيرة ، شهد بدراً وهاجر مع رسول الله عليه السلام وأبي بكر ، لأنَّه كان في موضع الثِّقة ، حيثُ خرجا إلى الغار هاربَين من المشركين متوجِّهَين إلى المدينة . واستُشهدَ يوم بئر مَعُونة .

وأعتق زِنِّيرة ثلاثَ مرات ، فلمّا اشتراها وأعتَقَها ذهب بَصرُها ، وكانت

تُعذَّب في الله فيمن يُعذَّب بمكّة ، فقال المشركون : ما أذهَبَ بصَرَها إلاّ اللاّتُ والعُزّى ! قالت : كذبُوا ما يَضُرّانِ ولا ينفعان ! فرد الله عليها بصَرَها . فزعم الزُّهري أنّ مولَيَين لابن الغَيطلة أسلما حِينَ ردَّ الله عليها بصرها . وقالا : هذا بلاَ شكٍ من إله محمّدٍ وابن أبي قحافة !

ثم أعتق النَّهديّة وابنتَها وقد كانتا تعذّبان في الله ، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار ، ومَرَّ بهما أبو بكر وقد بعثت العَبْدريَّة معهما بطَحين وهي تقول : والله لا أعتقكما أبداً . قال أبو بكر : حِلاًّ يا أمَّ فلانٍ ؟ قالت : حِلاًّ ! أنتَ أفسدتَهما فأعتِقْهما . قال : فبكأيِّن هما يا أمّ فلان ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : فقد أخذتُهما ، وهما حُرَّتان ، أرجِعا إليها طحينَها . قالت : أوَ نُفرِغ منه يا أبا بكر ؟ قال : وذاك إن شئتما .

ومرَّ بجاريةٍ بني مؤمّل ـ حيٌّ من بني عديّ بن كعب ـ وعمرُ بن الخطّاب يعذّبها لتترك الإسلام ، وهو يضربها فإذا مَلَّ قال : أعتذر إليك إنّي لم أتركك إلاّ مَلالة ! فابتاعها فأعتقها .

وأعتَقَ أمَّ عُبَيس .

فقال له أبو قُحافة : أي بُنَيَّ ، أراك تعتِق رقاباً ضعافاً ، فلو أنّك إذ فعلتَ أعتقتَ رجالاً جُلْداً مَنَعُوك وقاموا دونَك ؟ ! قال : يا أبتِ إنّما أُعتِقُ المعذَّبين ! فأنزل الله : ﴿ أمّا مَنْ أعطى واتّقى . وصدَّق بالحُسْنى ﴾ إلى قوله : ﴿ وما لأحَدٍ عِنده مِنْ نِعمةٍ تُجزَى . إلا ابتغاءَ وَجْهِ رَبِّه الأعلى . ولَسَوْفَ يرضَى ﴾. لتفهَّمْ معنى قوله : ﴿ وما لأحدٍ عنده من نعمة تُجزى . إلاّ ابتغاء وجهِ ربّه الأعلى ﴾ وتفهَّمْ معنى قوله : ﴿ ولسوف يَرْضَى ﴾ .

[١٢ ـ أبو بكر أنفق ماله في سبيل الاسلام بينما لم يكن لعلي مالٌ فينفقه]

وقد سمعتَ قول الله سبحانه حيثُ خاطب جماعةَ المسلمين وذَكرَ الأموالَ وعظم قدرِها في عُيونهم ، وشدة إخراجها عليهم ، وأنّه لو كلّفهم ذلك لأخرجهم

ثقل التكليف إلى غاية البُخل بها والشُّحّ عليها ، والإيثار لحبسها فقال : ﴿فلا تهنوا وتدعوا إلى السَّلْم وأنتم الأعلَوْن واللهُ معكم ولَنْ يَتِرَكُم أعمالَكُم . إنّما الحياةُ الدُّنيا لعبٌ ولهو ، وإنْ تؤمنوا وتتّقوا يُؤْتِكُمْ أجوركم﴾ ثم قال : ﴿ولا يَسْألْكمْ أموالَكم . إنْ يَسألْكُموها فيُحفِكُم تَبْخَلُوا ويُخرِجْ أضغانَكم﴾ . فتفهَّمْ معنى هذا الكلام وأنَّ الله لم يُنزِله عَبَثاً . ثم قال : ﴿ها أنتم هؤلاءِ تُدْعَوْنَ لتُنْفِقوا في سَبيلِ اللهِ فمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ومَنْ يَبخلْ فإنّما يبخلُ عن نَفْسِه واللهُ الغَنِيُّ وأنتم الفُقَراء﴾ . ألا تراه خاطَبَ جميع المسلمين فقال : ﴿ولا يسألْكم أموالَكم إن يسألكموها فيُحفِكُم تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أضغانَكُم﴾ .

ثم قد علمتم ما قد صنع أبو بكرٍ بماله ، وكان المالُ أربعين ألفاً فأنفقَه على نوائب الإسلام وحقوقه ، ولم يكن مالُه ميراثاً لم يكدَّ فيه فهو غزير لا يشعر بعُسر اجتماعِه وامتناعِ رجوعه ، ولا كان هبةَ ملِكٍ فيكونَ أسمحَ لطبيعته وأخرقَ في إنفاقه ، بل كان ثمرةَ كدِّه وكَسْب جَوْلاته وتعرُّضه . ثم لم يكنْ خفيفَ الظَّهر قليلَ النَّسل قليلَ العيال ، فيكونَ قد جمع اليسارَين ؛ [لأن المثل الصحيح السائر : قلّة العيال أحد اليسارَين !] بل كان ذا بنينَ وبناتٍ وزوجة وخدم وأحشام ، يعُول مع ذلك أبوَيه وما ولدا ، ولم يكن فتىً حَدَثاً فتهزّه أريحيّةُ الشّباب وغرارة الحَداثة ، ولم يكن بحذاءِ إنفاقه طمعٌ يدعوه ، ولا رغبة تحدوه ، ولم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم قبل ذلك عنده يدٌ مشهورة فيخاف العار في ترك مواساته وإنفاقه عليه ، ولا كان من رهطه دُنْيا فيُسَبُّ بترك مكانفته ومعاونته وإرفاقه . فكان [إنفاقُه] على الوجه الذي لا نجد أبلغَ في غاية الفَضْل منه ، ولا أدلَّ على غاية الصِّدق والبصيرة منه .

وقد تعلمون ما كان يلقى أصحابُ النبيِّ عليه السلام ببطن مكّةَ من المشركين ، وقد تعلمون حُسنَ صنيعِ كثيرٍ منهم ، كصنيع حمزة حين ضَرَبَ أبا جهلٍ بقوسه ، فبلغ في هامته ، في نصرة النبي صلى الله عليه وسلم ، وأبو جهلٍ يومئذ أمنَعُ البطحاء ، وهو رأس الكفر .

ثم صَنيع عمرَ حيث يقول يوم أسلم : « والله لا يُعبَد اللّهُ سرّاً بعد اليوم ! » حتى قال بعد موته عبدُ الله بنُ مسعود : « ما صلَّينا ظاهرينَ حتى أسلم عمر » .

ثم كان الذي لقيَ في ذلك اليوم بعينه من المشركين ، ثم مضيُّه من فوره حتى يقرع على أبي جهل الباب ، فلمّا حَسَّ به أبو جهل خرجَ إليه وهو يقول : مرحباً بابن أختِنا ـ وكانت أمُّه حَنتَمة بنت هاشم ذي الرُّمحين ابنِ المُغيرة ـ قال : أتدري ما صرتُ بعدك يا أبا الحكم ! قال : خير ، فليكن . قال : إنه خير ، إني آمنت بالله وبرسوله وخلعت الأنداد ، وجعلت اللات والعزّى ، وصدّقت محمداً . قال : فلا قرَّب الله قرابتَك !!

ألا ترى إلى قوّة شهامته وجلَده ، وصدقِ نيّته في كشف القِناع ، والمبادأة لرأس الكفر وسيِّد البطحاء عِند نفسه ورهطه .

وقوله بعد ذلك لجميع المشركين : أمّا والله لو قد صرنا مائة لتركتموها لنا أو تركناها لكم ـ يعني مكة .

ثم صنيع [الزُّبير] في سلّه السّيفَ شاداً به مستقبلَ المشركين ، يريد خَبْط من لقيه منهم ، فتلقّاه النبيُّ صلى الله عليه مقبلاً فقال : مالك يا زُبَير ؟ ! قال : بأبي أنت وأمّي ، سمعت قائلاً يقول : قد أُخذ محمدٌ وأوذِيَ ! فكان أوّلَ من شَهَر سيفاً في الإسلام .

ثم صنيعُ سعدٍ وضَربُه عظيماً من عظمائهم على أمّ رأسه بلَحْي بعير ، فكان أوّلَ من أراق دماً في الإسلام . وهو الذي يقول لرُسلِ عليٍّ حين أتَوه يدعُونه إلى بَيعته : ثكِلَتني أمّي ، لئن كنت مع رسول الله صلى الله عليه سادس ستّةٍ ما لنا طعامٌ إلا وَرَق البَشَام ، ثمَّ جاءني أعرابُ الأوس تعلّمني دينَ الله ؟ !

وإنما ذكرت لك هذا لتعلَمَ أقدارَ القوم والذي لَقُوا من الجَهدِ والخوف ، والذلّ والتّطراد والضرب . ولم نسمَعْ لعليٍّ في جميع ذلك ذكراً .

ولم يكن ذلك المكروهُ سنةً ولا سنتين ، ولكن ثلاثَ عشرةَ سنة ، وهذا أمرٌ لا يُلحَق ولا يُدرك الفائت منه ، كما قال الله : ﴿ لا يَستوي منكم مَنْ أنفَقَ مِن قبلِ الفَتح وقاتَلَ أولئك أعظمُ درجةً مِنَ الَّذِينَ أنفَقُوا من بعْدُ وقَاتَلُوا وكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الحُسْنَى ﴾ .

فإذا كانَ مَن أنفَقَ وقاتل قبل الفتح أعظَمَ درجةً، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا هِجرةَ بعد الفتح » ، فما ظنُّك بمن قاتَلَ وأنفق قبل الهجرة . ومن لدن مبعث النبي صلى الله عليه إلى الهجرة أعظَمُ من القيام بأمر الإسلام بعد الهجرة ، [و] أفضَلُ من القيام بأمر الإسلام بعد الفتح .

[١٣ ـ قتال علي في سبيل الاسلام لا يضارع احتمال ابي بكر]

فإنْ قالوا : قد عرفنا أنَّ أبا بكرٍ قد أنفَقَ قبل الهجرة ولا نعرفُه قاتَلَ قبل الهجرة ، فقتالُ عليٍّ بعد الهجرة أفضل من إنفاق أبي بكر قبل الهجرة .

قلنا : إنَّ أبا بكر وإن لم يقاتل قبل الهجرة فقد قتِلَ مراراً وإن لم يمت قبلَ الهجرة ، ولأنَّه لو جُمِع جميعُ المكروه الذي لَقِيَ أبو بكر ثلاث عشرة سنة لكان أكثر من عشرين قتلة .

ولو كان في ذلك الزمانِ القتالُ ممكناً والوثوب مُطمِعاً لقاتَلَ أبو بكرٍ ونهض كما نهض في الرِّدة . وإنما قاتلَ عليٌّ في الزَّمان الذي [قد] أقرن [فيه] أهلُ الإسلام لأهل الشرك ، فطمعوا أن تكون الحربُ سجالاً ، وقد أعلمَهم اللّهُ أنَّ العاقبة للمتّقين ، وأبو بكر مفتون مفرد [ومطرود مشرَّد ، ومضروب معذَّب]، في الزَّمان الذي ليس بالإسلام وأهليه نهوضٌ ولا حَركة . ولذلك قال أبو بكرٍ بعد أن استفاض الإسلام وضَربَ بجرانه وظهرَ أمرُه : « طُوبىَ لمن ماتَ في نَأنأة الإسلام »، يقول : في أيّام ضعفِه وقلّته ، حيث كانت الطّاعةُ أعظَمَ ، لفرط الاحتمال ، والبلاء أغلظ ، لشدَّة الجهد ، لأنَّ الاحتمال كلَّما كان أشدَّ وأدومَ

كانت الطّاعةُ أفضلَ ، والعمــل فيـه أقــوى.

ولا سواءٌ مفتونٌ مشـرَّد لا حِيلَة عنده ، ومضـروب معذّب لا انتصـارَ به ولا دَفْـع عنـده ، ومُبَـاطِشٌ مُقْـرِن [يَشفي غيـظَه ويَـروي غليله ، ولـه مقـدم يكنفُـه ويشجّعه .

ولا سـواءٌ مقهـور لا يُغَـاث ، ولم يَنْـزِل القـرآنُ بَعْـدُ بـظَفَـرِه ، وقـد هتـك اليَـأسُ لِطُول مـا لقِيَ حجابَ قلبـه ، ونَقَضَ قوَى طمعـه حتّى بقي وليـس معـه إلاّ احتسابه ، ومقاتِلٌ في عسكرٍ معه عِزُّ الرَّجاء وقوَّة الطمع ، وطِيب نَفْس الأمِل .

فليس لعليٍّ موقفٌ من المواقف إلاّ ولأبي بكرٍ أفضـلُ منه إمَّـا في ذلك المـوقفِ وإمّا في غيره . ولأبي بكر مواقفُ لا يَشْرَكه فيها عليٌّ ولا غيره .

وإنّما مُحّص عليٌّ وامتُحِن من لـدنْ يوم ِ بـدر إلى آخر غـزَوات النبي صلى الله عليه وسلم وبينَ المحنـة في الدَّهـر الذي كـان أصحاب النبي صـلى الله عليه وسلم فيـه مُقْرِنـين لأهـل مكّـة ومشـركي العـرب ومعهم أهـل يثـرب أصحـاب النّخيـل والآطام ، والإرْب والإقدام ، والصّبر والمواساة ، والإيثار والمحاماة ، والعدد الدَّثْـر والفعـل الجَزْل ، وبين الدهـر الذي كـانوا فيـه بمكّة يُفتَـنون ويُشتمون ويُضـرَبون ويشـرّدون ، ويجـوّعـون ويعـطّشـون ، مقهـورين لا حَـرَاك بهم ، وأذِلاّءَ لا دفـع عنـدهم ، وفقـراء لا مـال لهم ، ومغيَّـظين لا يُمكنهم السَّفهـاء ، ومسْتَخفِـين لا يمكنهم اللُّقاء ـ فرقٌ بيِّن .

ولقـد كـانـوا في حـالٍ أخـرجت لـوطـاً ـ وهـو نبيٌّ ، والنبيُّ خـيرٌ من جميـع النـاس ـ إلى أن قالَ لقـومِه حينَ لقِي منهم ما لقي : « لـو أنَّ لي بكُمْ قُـوَّةً أوْ آوِي إلى رُكنٍ شَـديـد » . [وقـال النبي صـلى الله عليـه وآلـه : « عجبت من أخي لـوطٍ كيف قال : أو آوي إلى ركنٍ شديدٍ] وهو يأوي إلى الله سبحانه !

ثم لم يكن ذلك يوماً ولا يومَين ، ولا شهراً ولا شهرين ، ولا عاماً ولا عامين ، ولكن السِّنين بعد السنين .

وكان اغلظَ القوم ِ محنةً وأشدَّهم احتمـالاً بعد رسول الله صلى الله عليـه أبو بكـر الصِّدِّيق ، لأنَّـه أقام مـا أقام رسول الله صلى الله عليـه وسلم بمكّـة ، وذلـك ثـلاث عشرة سنـة . وإنَّما قلنـا ذلك من أجـل ِ أنَّ النـاسَ اختلفـوا في مقدار مبعث النبيِّ صـلى الله عليه وسلم إلى هجرته ، فقـال قائـل : خمس عشرة سنـة ، وقـال آخـرون : ثـلاث عشـرة سنة ، وقـال قـوم : عشر سنين ، فكـان أعـدلُ الأمـور وأقسطها طرحَ الطُّرفين ، والأخذَ بـأوسط الرِّوايـات ، كما صنعنـا في عُمْر علـيّ بن أبي طـالب ، حيث وجدْنـا ولدَه جعفرَ بن محمَّـدٍ [و] هـو دونَـه ، يخبـر أنَّ عليّـاً استُشهِد وهو ابنُ سبـع وخمسين . وقـالت (علماء الرّافضـة) : نحن أعلمُ بـه من ولـده إلّا الأئمّة منهم . ولم يقـل هذا القـولَ إمـامٌ منهم قَطُّ ، ولكن علـيٌّ استُشهِـد وهـو ابنُ ثمانٍ وخمـسين سنة ، ثم روى النّـاس بعدُ أنّـه استُشهِـد وهـو ابنُ ثمـانٍ وخمسين سنة ، ثم روى النَّاس بعدُ أنّه استُشهِد وهـو ابن ستِّين وابن ثـلاث وستِّين وابن أربع وستين ، أخذْنا بأوسطِ ما قـالوا فـطرحنا بينيه وبيني عُمر وعثمـان وأبي بكـر والهجرةِ ومُقـام النبيِّ صلى الله عليـه بمكّة ؛ فحصـل العـددُ الـذي أثبتنـاه في صدر ذكرنا القضيَّة .

[١٤ ـ صحبة أبي بكر في الغار ونوم علي في الفراش]

فإن قالوا : قد صنع عليٌّ بن أبي طالب رضي الله عنه بمكَّةَ أفضلَ من جميع ما ذكرتم ، ولقي أشدَّ ممـا لقي أفضلُهم ، وذلك أنَّ النبي صـلى الله عليه وسلم أبَـاته في مضجعـه وعلى فـراشه والمشـركون يَـرصُدونـه ، وقد سَقَط إليهم أنَّ النبي صـلى الله عليه وسلم يُريد المدينـة ، فقد تحـزَّموا واجتمعوا وقلَّبوا الـرأي فرأوا أن يبيّتـوه على فِـراشـه إن لم يـظهـرْ لهم . فقـال لعـليّ : « نَمْ عـلى فـراشي وتَغشَّ ببُـردي الحضرَميّ ، فإنَّهم إن رأوا حجمَـك فوقَ الفِـراش ودُونَ البُرْد لم يستَـريبوا ، وخفي لهم أمري ، ولم يتبعوا أثَري » . فنام عليٌّ على فراشه ينتـظر وقْع السُّـيوف ، ويتوقَّـع رضْـخ الحجارة ، بـاذلاً نفسَه مصـطبراً . وليس فـوقَ بذل النَّفس درجـةٌ يلتمسهـا

صابر ، ولا يبلغها طالب .

وإنْ كان أبو بكرٍ قد أحسَنَ في خروجه وهجرته وصحبته ، وهربه مع النبي صلى الله عليه وسلم، واستخفائه في الغار ، فإن ذلك لن يبلَغَ من الاحتمال والخِطار والخوف ، قَدْرَ ما كان فيه عليٌّ رضي الله عنه ، لأنَّ طمع النُّجاة في أحدهما أقوى ، والنَّفْس له أرجى .

قيل لهم : لو كان الأمرُ كما تقولون في هذين الخوفين لم يَقُمْ صَرْفُ ما بينهما بقدرِ عُشر ما لقي أبو بكرٍ من جميع ما وصَفْنا وما صنع أبو بكر في ثلاثَ عشرةَ سنة ، من كثرة الإنْفاق ، وإيثار الفقر على الغنى ، والوحدة على الأَنَسَة ، والهَوَانِ بعد الكرامة ، والخَوف بعد الأمن، والضَّرب والافتتان بعد الإكرام والتعظيم ، مع عِتْق المعذَّبين وكثرة المستجيبين ، ومع صرف وَزْنِ ما بين الطَّاعتَين ؛ لأنَّ طاعةَ الشَّابّ الغَرير أو الحدث الصغير ، الذي في عِزِّ صاحبِهِ عزُّه ، ليس كطاعة الحكيم المحتَنِك الأريب ، الذي لا يرجع تسويدُه لمن سوَّده [و] إلى رهطه .

وفرقٌ آخر: أنَّ أمر الغار وقصة أبي بكر وصحبته مع النبي صلى الله عليه وسلم وكونه معه فيه ، نطَقَ [به] القرآنُ وصَحَّ به الإجماع ، كالصلوات الخَمْس ، والزَّكاة المفروضة ، والغُسل من الجَنابة ، حتى إنَّ مَن أنكر ذلك عند الأُمَّة مجنونٌ أو كافر . وأمْر عليٍّ ونومِه على الفِراش أنَّما جاء مجيءَ الحديث ، وكما تجيء روايات السِّيَر وأشعارُها . وهذا لا يُوازِنُ ذا ولا يكايلُه .

وأوَّلُ مَراتِب العالم أن يعرف المعارضة والمقابلة ، والمنقوص والمتساوي .

ولو أنَّ رجلاً من أوساط الناس اظهَرَ شكّاً في قِصَّةِ عليٍّ ومَبيتِه ، وقال : قد سمعتُ ذلك ولَعَلَّه ، ولكنِّي مشفقٌ للذي أعرِف من أكاذيب الشِّيَع ، وتوليد حُمَّال السِّيَر ، لم يكنْ عليه بأسٌ من الإمام .

ولو قال رجلٌ لك ، وهو رجلٌ من أوسَط النَّاس : والله ما أدرِي واللّهِ ، لعلَّ اللّهَ إنَّما عنَى بقوله : « ثانيَ اثْنَيْنِ إذْ هما في الغار » عليَّ بن أبي طالب ، لوجَدَ

عند الإمام غاية النُكير .

وفرق آخر : أنّه لو كان مبيتُ عليٍّ عَلى فِراش النبيِّ صلى الله عليه وسلم جاء مجيءَ كونِ أبي بكرٍ في الغار مع النبيّ ، لم يكن في ذلك كبيرُ طاعة ، فضلاً عن أن يساويَ أبا بكرٍ أو يبرُز عليه ، لأن الذين نقلوا ـ كاذبينَ كانوا أو صادقين ـ أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم أباتَ علياً على فِراشِه ، هم الذين نَقَلوا أنَّ النبيَّ عليه السلام قال : « تَغَشَّ بِبُردي ، ونم في مضجعي ، فإنّه لن يَخلُص إليك شيءٌ تكرهه » ، وهكذا لفظُ هذا الحديث ، لا يشكُّ في ذلك أحد . ولم يُنقَل إلينا أنَّ النبي صلى الله عليه قال لأبي بكر : أنفِقْ واحتمل ، ولن تَعطَبَ ولن يصلَ إليك مكروه .

[١٥ ـ فروسية علي ليست أفضل من رباطة جأش ابي بكر وحزمه في مواجهة المعضلات]

فإنْ قالوا : إنَّ علياً وإنْ كان حدَثاً ـ كما تزعمون ـ أيّام مكّة فإنه قد لحق السّابق له ثمّ برَز عليه بصنيعهِ يومَ بدرٍ وأُحد والخندق ، ويوم خَيبر ، وفي حروب النبي صلى الله عليه وسلم ، إلى أن قبضَه اللّهُ سبحانه إلى جنْبِه ، فجمع أمرين : كثرة التعرض للمنايا ، وعِظَم الغَنَاء بقتل الأقران والفُرسان ، والقادة والسّادة ، لأنَّ مَن له مِنْ قتل الأنجاد والأمجاد ما ليس لغيره ، فله من التعرُّض والاحتمال والصبر والاحتساب ما ليس لغيره .

قلنا : إنَّ كثرةَ القَتْل وكثرةَ المَشْيِ بالسيْف لو كان أشدَّ المحن وأعظم الغَناء ، وأدلَّ على الرِّياسة ، كان ينبغي أن يكون لعليٍّ والزُّبير ، وأبي دُجَانة ، ومحمد بن مسلمة ، وابنَ عَفْراء ، والبَرَاء بن مالك من عِظَم الغَنَاء واحتمال المكروه بالقَدْر العظيم ما ليس للنبيِّ صلى الله عليه وسلم . لأنَّ النبيَّ لم يقتل بيده إلّا رجلاً واحداً ، وقد علمْنا أنّه ليس أحدٌ أشدَّ احتمالاً ولا أعظمَ غَناءً . ولا أظهر فضْلاً منه صلّى الله عليه .

وقد تجد الرّجلَ يقتل الأقران والفُرسان وهو لا يستطيع أن يرفع طرْفَه في ذلك العسكر إلى رجلٍ آخر ليس فيه مِنْ قتل الأقران قليلٌ ولا كثير ، لمعانٍ هي عندهم أكثر من مَشْيٍ ذلك المقاتِل بسيفه ، وقتله لقِرنه .

وإذا ثَبتَ أنَّ رئيس العسكر وأشباهه قد ثبتت لهم الرِّياسة واستحقُّوا التقديم بغير التقدُّم والمباشرة ، ثَبتَ أنَّ قتل الأقران ليس بدليلٍ على الفضيلة والرِّياسة . أوَما تعلم أنَّ مع الرئيس من الاكتراث والاهتمام وشَغْل البال ، والعناية والتفقُّد ، ما ليس لغيره ، لأنّه المخصوصُ بالمطالبة ، وعليه مَدار الأمر ، وبه يستنصر المُقاتِل وباسمه ينهزم العدوّ ، وبتبعيته ورايته ومعرفته يُفَلّ الحدُّ ، ولأنَّ اختيارَ الحكيم دليل على احتمال طبيعته واستقلال نفسه ، ولأن فَرّته أو عَودته أعظم في المأثم والعار من عَودة غيره وفرّة غيره . [و] لو لم يكن من بليته وشِدّة ما خُصّ به إلاّ أنَّ القوم لو ضيَّعوا جميعاً وحَفِظ ما أضيفت الهزيمةُ إلاّ إليه ، ولا كان المطلوبُ غيرَه ، ولا كان الذَّليلُ المهان غيره . ولهذا وأشباهه يكون الرَّئيسُ أعظَمَ عناءً ، وأشدُّ احتمالاً ، لأنَّك [لو] قذفتَ فَضْلَ صبرِ المقاتل الواحد في خِصاله لم تجد له أثراً ولم تُحِسَّ له حدساً .

واعلم أنَّ المشيَ إلى القِرْن بالسَّيف ليس هو على ما يتوهَّمه الغِمر من الشِّدّة والفضل وإن كان شديداً فاضلاً . ولو كان كما يظُنُّون ويتوهَّمون ما انقادت النفس ولا استصحبت للقتال ، لأنَّ النَّفس المستطيعة المختارة التي قتالُها طاعة وفرارها معصية قد عُدِّلت كالميزان في استقامة لسانه وكِفَّتيه ، فإذا لم يكن بحذاءِ سيفه إلى السَّيف ومكروهِ ما يأتي به ، ما يُعادله ويُوازِنه لم يمكن النَّفْسَ أن تختار الإقدام على الكفّ ، ولكنَّ معه في وقت مشيه إلى القِرْن أمور تَنفَحه مشجِّعة ، وإن لم يُبصرها الناس وقَضَوْا على ظاهر ما أبصروا من إقدام . والسبب المشجِّع ربّما كان الغضبَ ، وربّما كان الشَّرابَ ، وربّما كان الغَرارة والحَداثة ، وربّما كان الإحراج ، وربّما كان الغيرة ، وربّما كان الحمِيّة وحُبُّ الأُحدوثة ، وربّما كان طِباعاً كطباع القاسي والرَّحيم ، والسَّخيّ والبَخيل ، والجَزوع من وَقْع السوْط

والصَّبور ، وربَّما كان السَّبَبُ الدِّين ، ولكنْ لا يَبلُغ الرَّجلُ بقُوّة الدِّين في قلبه ما لم يشيِّعه بعضُ ما ذكرناه أن يمشي إلى السَّيف ؛ لأنَّ الدِّين مكتسَب مجتلَب ، وليس بأصليٍّ ولا طبيعيّ ، ولأنَّ ثوابَه مؤجَّل ، والخصال التي ذكرناها طبيعيّة أصليّة ، وثوابها معجَّل .

وقد يكون مع الإنسان أسباب محذِّرة مجبِّنة ، فيكون رُكونُه وجلوسُه طِباعاً لا يمتنع منه . وربّما كانت الأسباب من المشجِّعات والمجبِّنات سواءً ، فيكون جلوسُه عن الحرب وقتالُه فيها اختياراً . وربّما فضلت قُوَى مشجِّعاته حتّى يكونَ إقدامُه أشَراً ومرحاً ، واهتزازاً وطِباعاً ، ولا يكون ذلك طاعةً وإن كان في الحكم طاعة . وكذلك الجُبْن إذا أفرطَ على صاحبه حتّى يكون فِرارُه طباعاً لا يكون معصيةً وإن كان في الحُكم معصية .

ولم نردْ بهذا الكلام تنقُّصَ عليٍّ رحمه الله ولا إخراجَه من الغَنَاء واحتمال المكروه ، كما لم نرد تنقُّص الزُّبير وأبي دُجَانة وابن عَفْراء ومحمد بن مسلمة ، ولكن هكذا صفةُ المستطيع المكلَّف ، والمطيع والعاصي .

وإذا كان مع صاحب الإقدام من الأمور المشجِّعة أمورٌ فاضلة على أسباب جُبْنِه وجلوسه ، كان عندَ الله غيرَ مأجور وإن كان في الحكم الظَّاهر مأجوراً .

وإن كانت الأسباب المشجِّعة في وزن الأسباب المجَبِّنة كان مطيعاً ولم يكن حيثُ وضعَه القوم ، لأنهم توهَّموا مع مشيْه بالسَّيف إلى القِرن احتمالَ المكروهِ كلَّه ، ورَفعُوا من أوهامهم الأسبابَ التي لولاها لم يمكنْه المشْي إلى القِرن بالسَّيف .

ووجه آخر : أنَّ عليّاً لو كان كما يقول شيعته ، ما كان له بكثرة المشْي إلى القِرن بالسَّيف وبقتْلِه له كثيرُ طاعة ، ولا احتمال مشقّة ؛ لأنَّ الشِّيعة [تزعُم] أنَّ رسول الله صلى الله عليه قال لعليّ : « إنَّك ستُقاتِل من بعدي النَّاكثين والقاسطين والمارقين » . والناكثون : طلحة والزُّبير وأصحابها ، والقاسطون معاوية وأصحابه ، والمارقون : عبد الله بن وهب وأصحابه .

فإنْ كانوا قد [صدقوا وما] كذَبوا فما عَسَى أن يبلغ مِن احتمال مَن هو من البقاءِ والسُّلامة على ثقةٍ . فالزُّبير وطلحةُ وأبو دُجانة لأنهم يُقْدمون والمنايا شارعةٌ وهم يَرْجُون وَيخافون ، وعليٌّ عَلَى ثقةٍ من أمره ، ويقينٍ من بقائه وسلامته . إلَّا أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يقلْ هذا القولَ إلَّا قُبيلَ وفاته . ولا سبيلَ لهم إلى علم ذلك . فيقال لهم : فكذلك خصومكم يمكنهم أن يقولوا لكم : إنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال هذه الكلمة بُعَيْد إسلامه ، وإذا لم يكن في قولكم إنَّ النبي صلى الله عليه وسلم قالها له قبيلَ وفاته دليلٌ ، ولا في قول خصومكم إنَّ النبيَّ قالها بُعَيْد إسلامه دليل ، فأعدلُ الأمور وأنصفُها بينكم وبينَهم أن تجعلوا الخبر في النِّصف مِمَّا بين إسلامه إلى وفاة النبي صلى الله عليه . فإذا كان ذلك كذلك فقد صار الزُّبير وطلحة وأبو دُجانة ومحمد بن مسلمة وابن عفراء أفضلَ منه ، لأنَّ الفضلَ في احتمال المكروه .

وقد لزمكم أن تزعُموا أنَّ النبي صلى الله عليه قال هذا الكلام لعليٍّ قبلَ وقعة بدر ، وأنتم إنَّما تفخرون بوقعة بدرٍ وقتاله بعد ذلك ، فما عسى يبلُغ مِن قتال رجل قد وثق بالسَّلامة والبقاء إلى أن يقاتل النَّاكثين والقاسطين والمارقين بعدَ وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بدهر .

فإذا كان رئيسُ الجيش أعظم غَناءً وأشدَّ احتمالاً ، للذي وصفنا ، فأشبه القوم حالاً به أعظم غناءً وأشدُّهم احتمالاً ، على قياسٍ في الرَّئيس والكثير المشْيِ بالسَّيف ولا أحَدَ أشبَهُ بالرئيس مِمَّن اختاره الرئيس وزيراً وصاحباً ، ومُكانِفاً ومُعيناً . لأنَّ الرجل إذا كان في رأي العَين صاحبَ أمْرِ الرَّئيس والمتولِّيَ على الخاصَّة والقُرْبة منه في ظَعْنه ومُقامه ، وخَلَواته ، وهرَبه واستخفائه ، وكان هو المبتدىء بالكلام عنده ، والمَفْزَعَ في الحوائج بعده والثَّانيَ في الدُّعاء إلى الله ودينه ، ولا نعلمُ هذه الخصالَ اجتمعت في غير أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنه ، لأنَّه صاحِبُه في كتاب الله سبحانه ، قال الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **إلَّا تَنْصُروه فقد نَصره الله إذْ أخرَجه الذين كَفَرُوا ثانيَ اثنين إذْ هما في الغار إذ يَقُولُ لصاحِبه لا تحزَنْ** إنَّ الله معنا ﴾ : فسمَّاه الله صاحباً في كتابه ثم سمَّاه النبي صلى الله عليه صِدِّيقه

من بين خلق الله ، حتى غلب على اسمه واسم أبيه ولقبه ونسبه ، حتى كان النّاسُ أيّامَ رسولِ الله وبعدَ وفاته يقولون : قال عليٌّ وفعل عليّ ، وقال عثمانُ وفعل عثمان ، وقال عُمر وفعل عمر ، وقال طَلْحةُ وفعل طلحة ، وقال الزُّبير وفعل ، وجميع العَشرة الذين هم في الجنّة ، حتى إذا صاروا إليه قالوا : قال الصِّدِّيق وقال أبو بكرٍ الصِّدِّيق ، وفعل أبو بكرٍ الصِّدِّيق . ثم قول النبي صلى الله عليه وسلم فيه ، وهو القول الذي كان يُعيدُه في كلِّ دارٍ ومنزل : « ما أحدٌ أمَنّ علينا بصُحبته وماله من أبي بكر » وفي قوله : « ما أحد أمنّ علينا بصحبته وماله من أبي بكر » معانٍ كثيرةٌ ، فهمه الناس أمْ ذَهبوا عنه . فهذا هذا .

ثُمَّ كان النبي عليه السلام بمكّة ثلاثَ عشْرةَ سنة ، في كلّ يوم ذرَّ شارقُه يأتي منزلَ أبي بكر إمّا صباحاً وإمّا مَساءً ، حتى كان اليومُ الذي أذِنَ الله سبحانه له في الهجرة . وإنّه أتاه مهجّراً فقال له أبو بكر : بأبي أنتَ وأمّي ، كيف جئتَ اليومَ في هذا الوقت ؟ ! ونزل عن سريره وجلسَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وجلس أبو بكرٍ بين يديه ، قال النبيُّ : هل عندَك أحد ؟ قال : لا ، يا رسول الله ، إلاّ أسماء وعائشة . قال : « فإنَّ ربِّي قد أذِنَ لي في الهجرة » . فصانَ صُحبتَه من خلْق الله غيرَه . ثم لم يُعلِمْ بخُروجه غيرَ ابنتَيه أسماء وعائشة ، وغير ابنِه عبدِ الله ابن أبي بكر قتيلِ يوم الطّائف ، وكان هو الذي يتجسَّس لهما الأخبار ويأتي بها إليهما في الغار ، لأنّهما استخفيا في الغار ثلاثاً ولم يُطلِعا على أمرهما غير عامر بن فهيرة مولى أبي بكر ، بدريّ استُشهِد يوم بئر معونة ، فإنّه كان يؤنسهما ويحدّثهما ويخدُمهما في تلك السُّفرة كلّها. وكانت أسماءُ هي التي تأتيهم بأقواتهم في الغار ، فكان صاحبه في الغار ، وبمكّة في طريقه إلى المدينة ، وعلى ظَهره ركب النبيُّ صلى الله عليه وسلم ، والنُّفَاثيُّ أجيره ، وعامر بن فُهيرة خادمُ النبي صلى الله عليه ومؤنسه عتيقُه ثلاثَ مرات ومولاه ، والظُّهر ظَهرُهُ ، والمؤونة مؤونته ، وصحبة النبي صلى الله عليه وسلم مقصورة عليه ، محبوسة له ، مصونة عن سواه ، يُطلَبانِ معاً ، وتجعل فيهما قريشٌ شيئاً سَواءً .

وقالت الأنصار : لمّا سمِعْنا بمخرج النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقدُومه كنّا نخرُج

إلى ظاهر حَرَّتنا ننتظره ، حتّى إذا لم نجدْ ظِلّاً دخَلْنا ، وذلك في أيّامٍ حارّة ، حتّى إذا كان في اليوم الذي قدم فيه النبيُّ صلى الله عليه وسلم فعذلنا ذلك ثم دخلْنا منازلَنا ، فكان أوّلَ من أبصَرَه رجلٌ من يهود ، فصاح : يا بني قَيْلة !! فخرجْنا إلى النّبي صلى الله عليه وسلم وهو في ظلّ نخلة ، ومعه أبو بكرٍ ، في مثل سِنّه وهيئته ، وأكثَرُنا لم يكن رآه ، وركِبَهُ الناس وما نعرفه من أبي بكرٍ حتى زالَ الظلُّ عن النبيِّ عليه السلام ، فقام أبو بكرٍ فأظلّه بردائه ، فعرفناه عند ذلك . فهذا هذا .

ثم لمّا كان بعدَ ذلك في يوم بدر . وذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لمّا عزم على محاربة قُريشٍ قال له سعدٌ : يا نبيَّ الله ، لنَبْنِ لك عريشاً فتكونَ فيه ونقاتلَ بين يديك . فأذِن لهم فبنَوه له ، فعَدَل إليه بعد أن عبأهم وأقامهم على مَصافِّهم وعلى مراتبهم ، فدخَله وأدخل معه أبا بكرٍ وحدَه ، فلما استقرَّ في العريش قال له أبو بكر : بعضَ مُناشَدتِك يا رسولَ الله فإن الله منجزٌ لك ما وعَدَك . فخَفَق النبي صلى الله عليه خفقةً في العريش فانتبهَ وهو يقول : أبشِرْ يا أبا بكر ، أتاكَ نصرُ الله ، هذا جبريلُ آخذٌ بعِنان فرسِهِ يقودُه ، على ثناياهُ النَّقْع !

فكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم وأبو بكر من بين يديه خَلْقَ اللّهِ في العريش ، والناس موقوفون على مراتبهم ، فكانت هذه مرتبةَ أبي بكر . ورتّب لسَعد بن معاذ بَعْدُ أن كانَ قائماً على رأسه على باب العريش متوشّحاً السيفَ في نفرٍ من الأنصار يَحرسون العريشَ ومَن فيه مخافةَ كَرِّ العدُوّ والجولة .

فإذا كان النبي صلى الله عليه في ذلك اليوم في العريش ، وغيرُ ماشٍ إلى السّيف ومعه صاحبُه وصديقُه ، وسيّد الأنصار وأفضلُهم على باب العريش ، عُرِف أنّ عِظَم الغَناء وشدّة الاحتمال والسّبب الدّالَّ على الرّياسة غيرُ الذي خَصَّه القومُ وجعلوه دليلاً . فمَنْ أولى أن يكون أشبَهَهم برسول الله صلى الله عليه وسلم في عِظَم الغَناء واحتمال المكروه ، والحالِ الرّفيعة ، ممّن كان ثانيَ اثنين في التقدّم في الإسلام ، وثاني اثنين في الدُّعاء إلى الله ورسوله ، وثانيَ اثنين في كثرة

المستجيبين والأتباع ، وثانيَ اثنين في الغار ، وثاني اثنين في الهجرة ، وثاني اثنين في العريش ، وفي أشباهٍ لهذا كثيرة .

وأما ما ذكرتم من يوم بدر وقتل عليٍّ الأقرانَ وفضله على مَن سواه بذلك، فقد قلنا في ذلك بما قد سمعتم .

ونحن ذاكرون وجهاً آخَر ليزيد في الحُجة ويَكشف من الدلالة . نَزعم أنه لم يشهد بدراً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم [من له] مثلُ غَناء أبي بكر ونباهته وكرمِ موضعه ، لأنَّ مَن شهد بدراً مثل الزُّبير ، وطلحة ، وسعد ، وعبد الرحمن ، وعثمان ، وبلال ، ومِسطَح ابن أُثاثة ، وعامر بن فهيرة ، وكان في العَريش ، فلا أحدَ يَعدِلُه في النَّباهة ، ولا في الغَناء والرِّفعة ، والاحتمالِ لقدْر الخلافة ؛ لأن الذين عدَدْنا على ثلاثة أصناف : رجل أسلم على يده وبدُعائه وشَرْحه فهو سببٌ حضوره وحُسنِ بلائه ، ورجلٌ أسلم على يده وأعتقَه بعد ذلك من رقّ العذاب ورقّ العُبودية وشهد بدراً وقَبِل ذلك بمُؤونته وكُلْفته ، وأمّا ربيبٌ ونسيبٌ وابن خالةٍ كمِسطح بن أُثاثة ، فقد كان ربيبَه وابنَ خالته وعلى يده أسلم ، وبه استبصر ، ولم يَزَل في مؤونته قبلَ بدر وبعدَ ذلك وفي أيامه ، إلاّ ما كان مِن يمينه أيّام حلَفَ ألاّ يقْرَبه ولا يُنفقَ عليه ولا يطأ رحلَه ، لِلَّذي كان كَبُر على عائشة مع حسّان بن ثابت ، حتى أنزل الله سبحانه على رسوله براءة عائشة ، وأمر أبا بكرٍ بالانفاق على مِسطحٍ وعِياله ، وبالعفو عنه ، وأن يعيده إلى رَحْله وتحتَ جنَاحه ، فأنـزَلَ الله في محكم كتابه على نبيِّه يريد أبا بكر ـ وبينَ أن يُفردَ الله الآيَ ويخصُّه بمخاطبته وبينَ أن يريدَه في الجمهور فرقٌ عظيم ، كما أثنى على جملة المهاجرين والأنصار ـ فقال الله وهو يريد أبا بكر : ﴿ ولا يأتَلِ أولُو الفَضْل مِنكم والسَّعَةِ أن يُؤتُوا أولي القُربَى والمَساكِينَ والمهاجرينَ في سَبيل الله ولْيَعْفُوا ولْيَصْفَحُوا ألا تُحِبُّون أنْ يغفرَ اللهُ لكم ﴾. قال أبو بكر : بلى يا ربّ . فردَّه إلى رَحْله وعفا عنهُ كما أمره الله ، وأجرَى عليه وعلى عِياله مثلَ الذي كان يُجريه .

وإنّما ذكر اللّهُ في هذه الآية القُرْبَى لأنّه كان ابنَ خالتـه ، وجعلَ أهلَه وعيـالَه مساكينَ أبي بكر ، وهو أحد بني المطَّلب بن عبد مناف ، وشأنُه عظيم .

وكان أوَّلَ من حثَّ على قتال المشركينَ ببدرٍ وتكلَّم فيـه عنـد رسـول الله صلى الله عليه وسـلم أبو بكر .

فـاذا شهِـدَ بنَفْسه ورأيـه ومالـه ومستجيبيه وأتبـاعه الـذين هم أكْفاءُ ضـدِّه عنـدَكم ، مـع أنَّ بعضهم قـد اختـير عليـه وهـو عُثْمـان ، والبـاقـون لم يخـايـرهم ويُوازِ [نْهم] فيُعرف موضع أفضلهم ، وقد فخر عليـه سعدٌ فلم يعـارِضْه ، فـأينَ مبلغُ مـا ذكرتُم ممّـا ذكرنـا ، إذا كـان مثـلُ سعـدٍ من مستجيبيه ـ وهـو المستجـابُ الـدعوة ، وأوّل مَن أراق دمـاً في الإسلام ، وأوّلُ مَن رمَى بسـهمٍ يـومَ بدر ، ولـه يقـول النبي صلى الله عليـه وسلم : « ارمِ فِداكَ أبي وأمّي » ، فجمَـع له أبـويه ولم يجمْعهـما لأحدٍ قبله . وفيـه يقول النبي صـلى الله عليه : « هـذا خـالي أبـاهي فيهِ فليـأتِ كـلُّ امـرىءٍ بخـالِـه » . وهـو أزال كسـرى عن قصـره ومُلكِـه وعن مستقرّه ـ ومثلُ حَواريِّ رسـول الله صلى الله عليه وابنِ عَمّتـه ، مع فـروسيّته وشـدَّة بأسه والذي عظَّم اللّهُ من شـأنه ببـدرٍ حين نـزلت الملائكـة في زيِّه ، عليهـا عمائم صُفرٌ .

ثم الـذي كـان منـه ببـدرٍ حين أتَى الخبـرُ النبيَّ صـلى الله عليـه عن قـريش بمسيرِهم ، فاستشـار النبيُّ صلى الله عليـه ، فكان أوَّلَ من قـام أبو بكـر ، فتكلَّم وحثَّ على الجهاد والنُّصْرة ، ثمَّ قام عمرُ ، ثم قام المِقـداد فقال : يـا رسولَ الله ، امضِ لِمَا أراكَ الله ، فوالله لا نقـولُ لك كـما قالت بنـو إسرائيـل لموسى : ﴿ اذْهَبْ أنتَ وربُّكَ فقاتِـلا إنّا هـا هنا قـاعِدُون ﴾ ، ولكن اذهب أنتَ وربُّـك فقـاتـلا إنّـا معكم مُقـاتِلون . فـوالّـذي بعثَـكَ بـالحقّ أنْ لـو سـرتَ بنـا إلى بِـرْكِ ذات العِمـاد لجالَدْنا مَنْ دونَه حتّى نبلغَه .

فـإنْ قالـوا : إنَّ أبا بكـر لم يُشهَدْ [لـه] احتمالٌ كـاحتمال علـيٍّ ، لأنَّ عليّاً كـان يمشي إلى السّيف وأبو بكـر وادعٌ رافِهٌ في العـريش ، ودونـه الحـرسُ سعـد بن

مُعاذ وأصحابُه ، والرُّكاب له مُناخة .

قلنا : قد طعنتم على النبي صلى الله عليه ، لأنَّ الشأن لو كان كما تقولون لكان النبي صلى الله عليه وادعاً وكان عليّ محتملاً صابراً . وهذا كلامٌ قد فرغنا منه مرّة .

أوَ ما علمتَ أنَّ صاحب اللّواء وإن كان لا يُبارز ولا يَمشي بالسّيف أنّه يحتاج من المعرفة بالحرب وعَوْرتها ، وإقبال أمرها وإدباره ، ويحتاج مع اجتماع القَلب واليَقظة وقلّة الحَيرة ، والثّباتِ عند الجولة ، والعلم بموضع الشّدّة والانحيازِ إلى أكثرَ ممّا يحتاج إليه المبارز ، لأنَّ حفْظَ الجميع أشدُّ من حِفظ الواحد ، ولأنَّ كلَّ العدوّ يطالبه ويريد خَتْله ، وكلُّ ذلك بِعلْمه وعَيْنه ؛ لأنَّ خطأه وضَعفه أقربُ إلى هَلَكة الجميع مِن ضعفِ المبارِز وخطئه .

ولو كان الأمرُ كما تقولون ما كان أحدٌ أسقَطَ في الحرب ولا أصغرَ حَظّاً ولا أقلَّ أجراً ومكاناً من الإمام الأكبر والرّئيس الأعظم لبُعد ما بين بلادِ عدُوّه من بلاده ، ولكان عاملُه أفضلَ منه .

مع أنّكم تُزيدون في كثرة القتلى وتعظِّمون شأنهم لتُعظِّموا به من شأن عليّ ، كصنيعكم في أمر عليٍّ ومَرحَب ، حيث فخَّمتُموه بالأشعار ونفختموه بالبلاغات ، وسكتُّم عن قتيل الزُّبير في ذلك اليوم . ومرحبٌ وياسرٌ أخَوانِ شهدا الوقعة ، والنَّباهة لياسر . فقصدتم إلى الأخمل فرفعتموه وشهَّرتُموه إذ كان قتيلَ عليّ ، وقصدتم إلى الأرفع فأخملتموه وأخفيتموه ، إذ كان قتيل الزُّبير . أو ما علمتَ أنَّ الزُّبير وياسراً التقَيا فاضطربا بأسيافهما فلم يُغنيا شيئاً مراراً ، حتّى لجَئا في موضعٍ واعترضَتْ بينهما شجرة ، فجذَبَاها ضرباً وخبطاً، ثم جمع الزُّبير نفسَه ومكَّن سيفَه فضرب رأس ياسرٍ ضربةً قدَّ منها البيضةَ ومرَّ السَّيفُ حتّى عضَّ ثَنِيَّتيه ، فقيل له : يا أبا عبد الله ، ما أجودَ سيفك ! فغضب .

وقصدتُم إلى عمرو بن عبد وُدّ ، فتركتموه أشدَّ من عامر بن الطُّفيل ، وعُتيبة بن الحارث ، وبسطام بن قيس .

وقد سمعنا بأحاديث حروب الفِجار ، والذي كان بين المطيّبين والأحلاف ، وما كان بين قريش وثقيف ، وأمرِ خُزاعةَ وحِلْف الفُضول ، وجميع أمر قُريش من خيرٍ وشرّ ، فما سمعنا لعمرو بن عبد ودٍّ في شيءٍ من ذلك ذكراً .

وكذا قتيل عليٍّ الوليدُ بن عُتْبَة يوم بدر ، وما علمنا الوليدَ حضرَ حرباً قطُّ قبلها ولا بَعدها ، ولا ذُكِر فيها بطائل .

فلو ذهبتم إلى أنَّ عليّاً قد بارز وقتل ، وأبلى واحتمَل ، كان ذلك جميلاً ، وكان قصداً مقبولاً ، ولكنّكم اخرجتموه من حدِّ الشجاعة ، وظننتم أنَّ السَّرف أمثَلُ وأجلُّ .

وزعمتم أنَّ الذي مَنعَ العربَ وقريشاً أن تجعله الخليفةَ بعد النبيِّ صلى الله عليه وسلم أنّه كان قَتَلَ أبناءها وإخوتَها وأعمامها ، وما يُعلَمُ موضعُ رجلٍ واحد يومَ تُوفِّيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم تَسمع له الخاصّةُ والعامّةَ وتَرى له طاعةً ، قَتَلَ عليٌّ أباه أو ابنه أو أخاه ، غير أبي سفيان بن حَرب ، فقد كان عليٌّ قتل ابنه حنظلة وما كان أحدٌ من عِلْية قريشٍ والعرب أقربَ إلى أن يُخالِفه في الحقّ والباطل في ذلك الدّهر من أبي سفيان ، وقد كان أكرَه النّاسِ لأبي بكر حينَ قال لبني هاشمٍ وبني أميّة : « رضيتم معشرَ بني عبد مناف أن يليَ أمورَكم رجلٌ من بني تَيم » . فإذا كان الذي قَتَلَ عليٌّ ابنَه هو الذي أظهر كراهيةَ أبي بكرٍ من بين الناس فكيف حوَّلتم القَضيّة وقَلَبتم المعنى ؟ !

فإن ذكَروا أبا حذيفةَ بنَ عتبة لأنَّ علياً قَتل اخاه ، قيلَ : أيكونُ أبو حذيفة ممّن أتى عليّاً بهذه العلّة ، وأبو حذيفة شهد بدراً فقاتلَ أباه وأخاه وعمَّه ، واحتملت نَفْسُه وعزمُه وصحّةُ إسلامه هذا الصّنيعَ ثمّ يجزعُ من أقلَّ منه بعدَ الزيّادة في الاستبصار ، وبعد طُول الدّهر ومَوت الأحقاد ؟ ! وهذا ما لا يُشبِه ولا يجوز . وكيف يجوزُ ذلك عليه وهو من المهاجرين الأوّلين ، والسابقين الأوّلين ، وشهد بدراً والمشاهدَ كلَّها ، وقُبِض النبيُّ صلى الله عليه وهو عنه راضٍ ، واستُشهِدَ يومَ اليمامة ولواء المهاجرين في يده .

وكيف يُظَنُّ هذا بأبي حذيفة ولم يُروَ عنه في كراهية عليٍّ حرفٌ قطُّ ، ولا قبض لذلك وجهاً ولا أظهَرَ تعجُّباً ؟ !

وكيف يُظَنُّ هذا بالبَدريِّين والمهاجرين الأوَّلينَ ومَنْعُ عليٍّ القيامَ بأمر النَّاس على هذا الوجهِ وعلى هذا المعنى كُفرٌ بالله ورسوله . وكيف يَضْطغِنُ امرؤٌ على عليٍّ ويُسلمَ قلبُه لرسول الله صلى الله عليه؟! لأنَّه إن كان يعتدُّ صنيعَ عليٍّ ذَنْباً حتَّى يولِّد له حقداً والذي تفرد علي بذلك أعظم ذَنْباً وأجدرُ أن يولِّد حقداً . وهذا أفحش قُبحاً ، وأبينُ خطأً من أن يُحوجنا إلى كشفه وتبيينه .

وكيف يجوز هذا على أبي حذيفة ولا نعلم رجلاً في الأرض أبعدَ من حميّة الجاهليّة منه، ولا أسمحَ نفساً بما وافق كتابَ الله منه . ولقد بلغ من إخلاصه ورسوخ الإسلام في قلبه ، وحُبِّه عليه وبغْضته فيه أنْ طرحَ كلَّ ما سواه ، وأخرجَه ذلك إلى أنْ زوَّج أخته فاطمة بنتَ عُتبة بن عبد شمس ، من سالم مولى أبي حذيفة ، وقال له : واللّهِ إنّي لأزوِّجُكها وأعلم أنَّك خيرٌ منها !! فعاتبه على ذلك بعضُ مَن نكرْهُ ذِكره فقال : أفي سالمٍ تعاتبني وقد سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : مَن أراد أن ينظر إلى رجلٍ يحبُّ اللّهَ بكلِّ قلبه فلينظر إلى سالمٍ .

مع أنَّ لأبي بكر من حُسن الأثر في حروب النبي صلى الله عليه ومن احتمال المكروه وتجرُّع المُرار ما ليس لأحدٍ .

ومن ذلك أنَّ أبا بكر خرجَ إلى ابنه عبد الرحمن بن أبي بكر ليبارزَه يوم أُحد ، لأنَّ عبد الرحمن طلَع يومَ أُحد على فرس وهو مُكفَّر في السِّلاح لا يُرى منه إلَّا عيناه وهو يقول : [هل] من مبارز !! ثلاثاً ، كلُّ ذلك يقولُ : أنا عبد الرحمن بن عتيق . فنهض أبو بكر يَسعَى إليه بسَيفه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم حين رأى غضبَه وجِدَّته ، وعرف الذي عليه من الشِّدَّة في قتل ابنه : « شِمْ سيفَك وارجع إلى مكانك ومتِّعنا بنَفْسك » .

وإنَّما يمكن أبا بكرٍ بذلُ الجهد ، فإذا فعل ذلك فلا حالَ أفضلُ من حاله .

فاجتمع لـه في ذلك أمـران : أحدهما الثواب على شدّة الاحتمال ، والثاني صيانة النبي صلى الله عليه وإشفاقه عليه .

وقوله « ارجـع إلى مكانـك ومتّعنا بنفسـك »، فليس في الأرض معنىً شريف فاضلٌ من معاني الدّين والدُّنيا إلاّ وهو في هذه الكلمة .

وأبـو بكـر الـذي لّما رُمِيَ النبيُّ صـلى الله عليـه وسلم في يـوم أُحـد أقبـل يسعَى وإذا إنسانٌ قِبَلَ المشـرق يطير طيـراناً ، فلما رآه أبـو بكر قـال : اللّهمّ اجعلْه طلحة ! فلما توافَيا عند النبي صـلى الله عليه وسلم إذا هـو أبو عبيـدة بن الجراح ، فبـدره أبو عُبيـدة وقال : أسـألك بـالله يا أبـا بكرٍ إلاّ تـركتَني فولَّيتني نَـزْعَها ـ يعني حـدائد الـزَّرَد اللواتي نَشِبْن في وَجْهه [و] جبينـه من المِغْفر ـ فقـال النبيُّ صلى الله عليه وسلم : عليكُم صاحِبَكم ! يعني طلحة .

وثَرِم أبو عبيـدة يومئذٍ من نزع حلْقةٍ امتنعَتْ عليه .

ولصنيـع طلحـــة وأبي بكـر وموقِفهـما قالـوا : « يومُ أُحـد لبني تَيم ! »؛ لأنّ الـذين صَبَروا مـع النبيِّ صلى الله عليـه من المهاجـرين والأنصار سبعـةٌ : أبو بكـر وطلحـةُ من تَيم ، وعبد الـرحمن بن عوف من بني زُهـرة ، وعـليٌّ من بني هـاشم ، والزُّبير من بني أسد ، وأبو عبيدة من بني عامـر . وإنما قـالوا « يـومُ أُحد لبني تيم » لأنـه لم يكن من كل قبيلةٍ إلاّ رجـلٌ واحد من المهـاجرين ، وكـان فيـه رجـلان من بني تيم كما ذكرنا .

وكـان من الأنصار سـبعـة : الحُبَاب بن المُنـذر بن الجَموح ، وأبـو دُجَـانـة ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ، والحـارث بن الصِّمّة ، وسَهـل بن حُنيـف وأُسَيْد ابن حُضَيْر ، وسعد بن مُعاذ .

وأبو بكرٍ أوّلُ من تكلّم يوم بدرٍ وحثَّ الناس على الجهاد .

وأبو بكر الذي لما قـال النبيُّ صلى الله عليـه يوم الحـديبية : « كيف تَـرونَ يا معشر المسلمين في هؤلاء الذين قد [حشدوا] إلينا مَنْ أطاعَهم ليصُدُّونا عن المسجد

الحرام ، قام أوّلَ النّاس فقال : نرى ـ والله ورسولُه أعلم ـ أن نمضيَ لوجهنا ، فمَنْ صدَّنا عن البيت الحرام قتلناه .

وأبو بكر الذي لما أتى بُدَيْل بن ورقاء الخُزاعيّ يوم الحديبية في نفرٍ من أصحابه ، فأقبل على النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا محمد ، لقد اغتررتَ بقتال قومك وإنَّ قريشاً ستقاتلكم عن ذَرَاريهم وأموالهم ، قد استنفروا الأحابيش وخرجوا إلى بَلْدَح ، معهم العُوذُ المَطافيل ، والله ما أرى مَعك أحداً له وجه ، مع أنّي أراكم قوماً لا سِلاح لكم ، ولو قد عَضَّ هؤلاء الحديدُ لقد أسلموكم . قال أبو بكر : عضضْتَ ببَظْر اللاّت ، أنحن نُسلِمه ؟ ! قال له بُدَيْل : أمَا واللّهِ لولا يدٌ لك عندي لأجبتك ، والله إنّي وقومي لنحبُّ أنْ يَظْهَرَ محمَّد !

وأقبل عُروةُ بن مسعودٍ في نفر من قومه حتّى أناخ راحلتَه عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقال : إني تركتُ كعباً وعامراً على أعداد الحُدَيْبية معهم العُوذ المَطافيل ، وما أرى معك أحداً أعرِفُ وجهَه ونسبَه ، وإنَّهم لَخُلَقاءُ أن يخذلُوك ـ والقومُ سُكوت ـ فغضِب أبو بكر وقال : امصَصْ ببَظْر اللاّت ، أنحن نخذله ؟ ! قال عُروة : أمَا والله لولاَ يَدٌ لكَ عندي لأجبتُك ! وكان عروةُ قد استعان في حَمَالةٍ ، فكان الرّجلُ يُعينهُ بالفريضتين والثلاث ، فمشى إلى أبي بكرٍ فأعطاه عشر فرائض .

الا ترى كثرةَ أياديه ونُبله [ومنعه]، وحَدَّه وشهامته ورياسته ؟ ! فبهذا وأشباهه يعرف قدر الرجُل بمكّة وفي قومه ، وعند النبيِّ صلى الله عليه وسلم وجماعةِ أصحابه .

ولو لم يُعلَم من شدَّة قلبه وصواب رأيه وقوّة عزمه وقلّة وَحْشَتِه ويُمْن بركته إلاّ أنَّ كبار المهاجرين دخلُوا عليه ، منهم عمر وعثمانُ وأبو عبيدة ، وسعد بن أبي وقّاص ، وسعيد بن زيد بن عمرو بن نُفَيل في جمعٍ كثيفٍ من المهاجرين ، فقالوا بأجمعهم : يا خليفةَ رسول الله ، إنَّ العرب قد انتقضت عليك ، وإنك لن تصنع بتفريق هذا الجيش المنتشر شيئاً ، اجعلْهم عُدَّةً لأهل الرِّدَّة ترمي بهم

نُحورَهم ، وأخرى أنّا لا نأمن على المدينة أن يُغارَ عليها وفيها الذّراريُّ والنِّساء ، فلو استأنيت بغزْو الرُّوم حتّى يَضرِب الإسلامُ بجرانه ويعودَ أهلُ الرِّدَّة إلى ما خرجوا منه [أ] وْ يفْنيَهم السَّيف ، ثم تبعثَ أسامةَ حينئذٍ ، فتكونَ قد أنفذتَ الجيش كما أمَر النبيُّ صلى الله عليه وسلم وقد دفعتَ بهم أهلَ الرِّدَّة ، ولأنا نخاف الرومَ أن تَزحف إلينا يومَنا هذا .

فلما استوعَبَ أبو بكرٍ كلامَهم قال : هل منكم أحدٌ يريد أن يقول شيئاً ؟ قالوا : قد سمعتَ مقالتنا . قال : والذي نفسي بيده لو ظننتُ أنَّ السِّباعَ تأكُلني لأنفذْتُ هذا البعث ، ولا بدأت بأَوْلَى منه ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم ينزلُ عليه الوحيُ من السَّماء وهو يقول : انفِذُوا جيش أُسامة .

فلمّا رأى إبطاءَهم عن ذلك وتلكؤهم خرجَ وحده مغضَباً نحو أهلِ الرِّدَّة حتّى لحِقه المهاجرونَ والأنصارُ في المسلمين ، فقالوا : تُكفَى يا خليفة رسولِ الله ، ونَنفُذ لأمرِك ، والصَّوابُ ما رأيت .

فلو لم تعلم من شدّة قلْبه واجتماعِ رأيه وقلّة وحشته إلاّ هذا كان كافياً .

وأبو بكرٍ الذي ولاّه النبيُّ صلى الله عليه يومَ حُنينٍ مَيمنَتَه ، وولّى عُمرَ ميسرتَه . فلم يكن النبيُّ صلى الله عليه ليستكفِيَهما أهمَّ المواضع إليه وهما لا يكفيانه .

ولقد انكشَفَ النّاس وثبتا في مواضعهما ، وكان أقربَ القوم إلى النبي صلى الله عليه وسلم يومئذ ـ إذ كان لا بدَّ لصاحب الميمنة والميسرة من أن يكون أبعَدَ ممّن يكون في القلب ـ أبو سفيان بن الحارث ، والعبّاس بن عبد المطَّلب ، والفضل بن عباس ، وربيعة بن الحارث، وأيمَن بن عُبَيد أخو أسامَة بنِ زيدٍ لأمّه . وصَبَر مع النبي صلى الله عليه وسلم بعد هؤلاء مائةٌ وثلاثة وثلاثون من المهاجرين ، وسبعةٌ وستّون من الأنصار .

وممّا نعرف به شدّةَ شكيمته وصدقَ وصرامةَ رأيِه قولُه للمسلمين يومَ توفّي

النبي صلى الله عليه وسلم حيث قامَ خطيباً وبالمدينة منافقون لا يألونهم خبالاً يَعَضُّون عليهم الأناملَ من الغيظ ، وقد انتقض ما حولَ المدينة ، فكان ممّا قال في خُطبته :

مَن كان يعبدُ الله فإنَّ الله حيٌّ لا يموت ، فليعبده . ومَن كان يعبدُ محمداً أو يراهُ إلهاً فقد هَلَكَ إلهه . فاتّقوا الله أيُّها النّاس ، واعتصموا بدينكم ، وتوكّلوا على ربّكم ، فإنَّ دينَ الله قائم ، وكلمة الله قائمة ، والله ناصرٌ مَنْ نَصَره ، ومعزٌّ دينَه . وإنَّ كتابَ الله بين أظهُرِكم ، وهو النُّور والشُّفاء ، وبه هَدَى الله محمداً ، وفيه حَلاَل الله وحرامُه .

ثم قال : واللّهِ ما نُبالي مَن أجلَبَ علينا من خلْق الله . إنَّ سيوفَ الله المسلولةَ ما وضَعْناها عن عواتقنا ، ولنُجاهدَنَّ مَنْ خالَفَنا ، فقد جاهَدْنا مع رسول الله صلى الله عليه ؛ فلا يُبقِينَّ مُبْقٍ إلاّ على نَفْسه .

وإنّما قال : « من كان يعبدُ محمداً أو يراه إلهاً فقد هلك إلههُ » لأنّه كان سمِعَ من عثمانَ بن عفّان وعمرَ بن الخطاب في ذلك كلاماً قبيحاً حتى ماجَ النّاسُ في ذلك وقالوا : والله ما مات ، ولكنَّ الله رفَعه كما رفع عيسى بنَ مريم ، في كلامٍ سنذكره بعدَ هذا إنْ شاء الله .

ومما يدلُّ على خاصّةِ مكانِه وتقديم النّاسِ له ، ومعرفةِ الجميع لفضْله ، الذي كان من صنيع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن صنيع جميع المسلمين ، ومن صنيع كُفّار قريش به ، حيثُ فزِعَتْ إليه في أمر أُسارى بدرٍ دون غيره ، لأنّهم لما حُبِسوا ببدر واقترع المسلمون عليهم طمِعوا في الحياة ؛ فقالوا بأجْمعهم : لو بعثْنا إلى أبي بكر فإنّه أوصَلُ قريشٍ لأرحامنا ، ولا نعلم أحداً آثَرَ عند محمدٍ منه ! فبعثوا إلى أبي بكر فأتاهم فقالوا : يا أبا بكر ، إنَّ فينا الآباءَ والأبناء ، والإخوان والعمومة ، وبني العَمّ ، وأبعَدُنا قريب ، فكلّم صاحبَك يمُنَّ علينا أو يُفادينا . قال : نَعَم لا آلوكم إن شاء اللّهُ خيراً ! ثم انصرف إلى النبيِّ صلى الله عليه . فقالوا : ولو بعثْنا إلى عمر ، فإنّا لا نأمن أن يُفسِد علينا ، فلعلّه أنْ

يكُفُّ عنا شرَّه ! فأرسَلُوا إليه فجاءهم ، فقالوا مثلَ قولهم لأبي بكر ، فقال : لا آلوكم إن شاء الله شرّاً ! ثم انصرف إلى النبيِّ صلى الله عليه ، وإذا النّاسُ حولَ النبيّ ، وأبو بكر يفثؤه ويلينُه وهو يقول : يا رسولَ الله ، بأبي أنتَ وأمّي ، قومُك فيهم الآباء والأبناء ، والعمومة والإخوان وبنو العمّ ، وأبعَدُهم منك قريب ، فامنُن عليهم مَنَّ اللّهُ عليك ، أو فادِهم يستنقذْهم الله بكَ من النّار ، فما أخَذْتَ منهم فهو قوّةٌ للمسلمين ، ولعَلَّ الله أن يُقْبِل بقلوبهم !! ثمّ قام فتنحّى ناحيةً وسكتَ النبيُّ صلّى الله عليه وجاء عمرُ فجلسَ مجلسَ أبي بكر فقال: يا نبيَّ الله ، هم أعداءُ الله كَذَّبوك وقاتَلوك وأخرجوك ، اضرِبْ أعناقَهم فإنّهم رؤوس الكفر ، وأئمّة الضّلالة ، يعزُّ الله بذلك الإسلامَ ويذلّ الشّرك !! فسكت النبيُّ صلى الله عليه وسلم وعادَ أبو بكرٍ إلى مجلسه وإلى مثلِ ذلك الكلام ، ثمَّ تنحّى وقام عمرُ فجلس مجلسَه وأعاد مثلَ الكلامِ الأوّل ، ثمّ تنحّى عمر وجلس أبو بكر ، ثلاثَ مرّات . فسكتَ النبيُّ عليه السلام، ثمّ قام فدخَلَ قُبّته فمكث ساعةً وخرجَ والنّاسُ يخوضون ، يقولُ بعضُهم: القولُ ما قال أبو بكر . وبعضهم يقول : القول ما قال عمر . فخرجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال : ما تقولون في صاحبيكم ؟ دعُوهما فإنَّ لهما مثَلاً : مثَلُ أبي بكر في الملائكة مثَلُ ميكائيل ينزل بالرّضا والعَفْو ، ومثَلُه في الأنبياء مثلُ إبراهيمَ كان ألْيَنَ على قومه من العسل ، أوقَدَ له قومُه النّار فطرحوه فيها، فما زاد على أن قال : ﴿ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللّهِ أفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾. وقال : ﴿ فَمَنْ تَبِعَني فإنّه مِنّي وَمَنْ عَصَاني فإنّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. ومثَلُه كمَثَلِ عيسى إذ يقول : ﴿ إنْ تعذّبْهم فإنّهم عِبادُكَ وإنْ تَغْفِرْ لهم فإنّكَ أنتَ العزيزُ الحكيم ﴾. ومثَلُ عمرَ في الملائكة مثَلُ جبريلَ يَنزل بالسُّخط من الله والنِّقْمة . ومثَله في الأنبياء مثلُ نوحٍ كان أشدَّ على قومه من الحجارة إذْ يقول : ﴿ ربِّ لا تَذَرْ على الأرضِ مِنَ الكافِرِينَ دَيّاراً ﴾. فدَعَا عليهم دَعوةً أغرَقَ اللّهُ بها الأرضَ جميعاً . ومثَلُه مثَلُ موسى إذ يقول : ﴿ ربَّنَا اطمِسْ عَلَى أموالهم واشدُد على قُلوبِهمْ فلا يُؤْمِنوا حَتّى يَرَوُا العذابَ الأليم ﴾. فهذا يدلُّ على أنّه كان المَفْزَعَ والشّفيعَ ، والخاصّةَ والثّقةَ وموضعَ الفضيلة .

وقَبْلَ ذلك لَمَّا قصَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم عَلَى أهلِ مَكّة كيف أُسْرِيَ به ، قالت قريشٌ على التكذيب له صلى الله عليه : واللّهِ إنَّ العِيرَ لتُطْرد شهراً من مكة إلى الشام ثمَّ يكون إقبالُها شهراً ، وزعم محمد أنّه مضى إلى بيت المقدس ورجَعَ من ليلته !! فأتوا باجمعهم أبا بكرٍ ليحتجُّوا بذلك عليه وليعرِّفوه خطأه في اتّباعِه عند أنفسهم ، وظنُّوا أنَّ الجواب في ذلك يمتنعُ إذْ كان قد امتنَعَ عليهم . فأتوا أبا بكرٍ فقالوا : هلَك صاحبُك ! ـ ألاَ ترى أنّه المذكور بالصُّحبة ، وموضعُ الحاجة ، وأنّه المُبتدأ والمَفْزَع ـ زعَمَ أنّه أتى بيتَ المقدس في ليلةٍ وَغَدًا علينا !! قال أبو بكر : إنَّكم تكذبون عليه ، ولئن كان قاله لقد صدَق ، فما تَعجَبون من ذلك ؟ ! فواللّهِ إنّه ليُخبرنا أنَّ الخبر يأتيه من السّماء إلى الأرض في ساعةٍ من ليلٍ أو نهار فأصدِّقه . فهذا أبعد من مِصر . ثم نهضَ أبو بكرٍ إلى النبيِّ صلى الله عليه ليسألَه عن القضيّة ، فأقبلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يصِف له وهو يقول : صدقتَ صدقتَ ! أشهد أنّك رسول الله ! قال النبي صلى الله عليه وسلم : وأنت الصِّدِّيق ! وقد كان أبو بكرٍ الصِّدِّيق أتى الشامَ وعرفَ طرقَها وأمورها ، وقلَّبَها وعرفَ جميع ما فيها .

ثم الذي كان مِن تقديم النبي صلى الله عليه له والمسلمين في قضيّة الحُديبية . وذلك أنّهم كتبوا كتاباً .

هذا ما اصطلَحَ عليه محمّدُ بنُ عبد الله وسهيلُ بن عمرو . اصطلحا على وَضْعِ الحرب عَشْرَ حجج يأمَنُ فيها النّاسُ ويكفُّ بعضهم عن بعض . على أنه لا إسلالَ ولا إغلال ، وعلى أنَّ مَن أحبَّ أن يدخُلَ في عَقْد محمد وعهده فَعلَ ، ومن أحبَّ أن يدخل في عَقد قريش وعهدِها فعل ، وعلى أنّه من أتَى منهم محمداً بغير إذْنِ ردّه ، ومن أتى قريشاً من أصحاب محمد لم تردُّه ، وعلى أنَّ محمداً يرجعُ عامَهُ هذا بأصحابه ، ويدخُل عليهم قابلاً في أصحابه فيقيم ثلاثاً ، لا يُدخِل علينا السِّلاحَ إلاّ سلاحَ المسافر ، السُّيوف في القُرُب . شهد أبو بكر بن أبي قحافة ، وعمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عُبيدة بن الجرّاح ، ومحمد ابن مَسلَمة . وشهد حُوَيطب بن عبد العُزَّى ومِكْرَزُ بن حَفْص بن الأخْيف .

الا تَرى أنّه كانَ أولَ شاهدٍ من المسلمين في صَدْرِ الكِتاب ، والناس كلُّهم بَعده .

ونَحَر رسول الله صلى الله عليه وسلم الجَمَل عن سَبْعة . فأوَّل خلق الله سمِّي أبو بكر ، ثم عمر ، ثم فلان ثم فلان . فهذا هذا .

ثم لَمّا تحاجَزَ النّاسُ يوم أُحدٍ وأراد أبو سفيان الانصرافَ أقبلَ يسير على فرسٍ له أُنثى قد أشرفَ على أصحاب النبيِّ صلى الله عليه في عُرْض الجبل يُنادي بأعلى صوته : أينَ ابنُ أبي كبشة ؟ يعني النبيَّ صلى الله عليه وسلم . أينَ ابنُ أبي قُحافة ؟ أين ابنُ الخطّاب ؟ يوم بيوم بدر . ألا إنَّ الأيّام دُوَلٌ والحرب سِجال ، وحنظلةُ بحنظلَة !! قال عمر : ألا أجيبُه يا رسول الله ؟ قال : بلى . قال أبو سفيان : اعْلُ هُبَل ! قال عمر : الله أعلى وأجلّ . قال أبو سفيان : لنا عُزّى ولا عُزّى لكم ! قال عُمر : الله مولانا ولا مولى لكم .

فلو لم يكن أبو بكرٍ أفضلَ مَن شهد أحداً وأنبَهَ ، ، أو أغيَظَ لأبي سفيانَ والمشركين ، ما جعلَه أبو سفيانَ ـ وهو رئيس القوم ـ ثانياً ، والذي يتلو النبي صلى الله عليه في النِّداء والمخاطبة ، حين يقول : أين ابنُ أبي كبشة ؟ ثم يقول : أين ابن أبي قحافة . فهذا هذا .

وفي نزول أبي بكر قبر حمزةَ قبل كلِّ نازلٍ بأمر رسول الله صلى الله عليه ، دليلٌ على الفضيلة والنَّباهة ، والقَدْر والوزارة .

ولمّا دخل أبو سفيانَ المدينةَ أتى النبيَّ صلى الله عليه وقال : يا محمد ، إنّي كنتُ غائباً في صُلح الحديبية فاشدُد العَهدَ وزِدْنا في المُدّة ، قال . أو لذلك قدمتَ يا أبا سفيان ؟ قال : نعم . قال : فهل كان فيكم من حَدَث ؟ قال : مَعاذ الله . قال النبي صلى الله عليه وسلم : فنحن على مُدّتنا وصُلْحنا ، لا نبدِّلُ ولا نَغدِر . فلما خرجَ من عنده بدأ بأبي بكر فقال له : هل لكَ إلى أن تُجيرَ بين النّاس ؟ قال أبو بكر : جِواري في جِوار رسول الله . ثمّ خرجَ من عِنده فأتى عُمرَ فكلَّمه بمثل ذلك ، قال عمر : إنّي لو وجدتُ الذَّرَّ تُقاتِلكم لأعنْتُها عليكم !

قال أبو سفيان : جُزِيتَ مِن ذي رَحِمٍ شرّاً ! ثم أتى عثمان ، ثم أتى فاطمة ، ثم أتى عليّاً .

ألا تَرى كيف جعلوه المَقْصِد والمعتمد قبلَ الناسِ وبعدَ رسول الله صلى الله عليه . ولو لم يكن حالٌ عند أبي سفيان من النبيِّ صلى الله عليه فوق كلِّ حالٍ ما بدأ به قبل جميع مَن نزع إليه . فهذا هذا .

ثم الذي كان مِن تقريب النبيِّ عليه السلام ، وإكرامه له يومَ فتح مكّة ، وهي الدّارُ التي خرجا منها هاربَين معاً ثمّ رجعا إليها آمنَين معاً ، يتسايران ويتحدّثان ، حيثُ طلَع النبي صلى الله عليه وسلم على العبّاس وأبي سفيانْ ، والنبيُّ عليه السلام بين أبي بكرٍ وأُسَيْد بن حُضَيْر ، أبو بكر عن يمينه . وقبلَ ذلك في الطريق كان بين أبي بكر وعمر ، أبو بكر عن يمينه وعمر عن يساره . فلمّا صارت الخيلُ بذي طُوىً بين الخندَمة إلى الحَجُون ، مرَّ النبي صلى الله عليه وأبو بكر يُسايره وَحْدَهُ ، وإذا بناتُ أبي أحيحة قد نَشَرن شُعورهنَّ يَلْطمن وجوهَ الخيل بالخُمر ، فنظر النبي صلى الله عليه إلى أبي بكر وتبسّم وقال : كيف كان قول حسّان :

يُلَطِّمُهُنَّ بالخُمُرِ النِّساءُ

قال أبو بكر :

تَظَلُّ جِيادُنا مُتَمَطِّراتٍ

فهذه حالُه وخاصّتُه ومكانُه وارتفاعُ قدره. ألا تَراهما خرجا من مكّةَ هاربَين مستخفيين مصطحبَين ، ثمّ رجعا آمنَين ظافرين مُعلِنَين مصطحبين .

وصعِد أبو قُحافَة الجبلَ بصُغرى بناته وهو يومئذٍ مكفوف ، فبكت بنتُه فقال لها : لا تخافي فإنَّ أخاكِ عتيقاً أكبر النّاسِ عنده ! فلمّا دخلوا مكّةَ أقبل أبو بكر بأبيه وهو يومئذ شيخٌ مكفوف له غُديرتانِ ، كأنَّ رأسَه ثَغَامة حتّى هجَمَ به على النبي صلى الله عليه وقال : أتيتك بأبي يا رسولَ الله ليُسلِم . قال النبي صلى

الله عليه : هلاّ تركتَ الشّيخ في رحلِه حتّى آتيَه . فمسحَ النبيُّ صلى الله عليه يدَه على صدره ، ودعاه إلى الإسلام فأسلم .

وهذا كلُّه يدلُّ على تقديم النبي صلى الله عليه له .

كما نَقلَ الفُقهاء أنَّ النبي صلى الله عليه أُتِي بِعُسٍّ من لَبَنٍ وهو في أصحابه ، وابو بكر عن يساره ورجلٌ من الأعراب عن يمينه ، واصحابه قد أحبُّوا سُؤره ، فشرب النبيُّ وأهوى بالقَدح ـ نحو الأعرابيّ . قال عمر : ابو بكر يا رسول الله ! قال النبي صلى الله عليه : الأيمَنَ فالأيمَنَ .

ولم ينقلوا هذا الحديثَ ليُخبروا عن فضيلةِ ابي بكر ولا عن قُرْب مَقعده ولا عن تقديم عمرَ له ، ولا أنَّ عادة النبي صلى الله عليه وسلم كانت التَّقديمَ له ، ولا قال عمر ذلك على التَّذكير له ، وإنَّما أرادوا أن يخبروا عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم في الشُّرب ، وعن فضيلة اليمين على اليسار ، وعن التَّعريف لحرمة المجلس .

ولو كان هذا الخبر في عليٍّ وعثمانَ ما كان الأمر إلاّ كما أخبروا أنَّهُمْ لم يَقصِدوا في الحديث إلاّ تفضيلَ اليمين على اليَسار .

[١٦ ـ حكمة ابي بكر افضل من فقه علي]

فإنْ قالوا : فإنَّ عليّاً كان أفقَهَ من ابي بكرٍ وأعلَم بالحرام والحلالِ منه . والدَّليل على ذلك أنَّ كثرةَ ما نقلوا إلينا من اختياراته وأقاويله في الحادثات ، من الحلال والحرام ، وأبواب الفقه والفُتْيا والتَّأويل ، مع كثْرة الرِّواية المسنَدة ، وكان يُسأل ولا يَسأل ، ولم يرجع عن شيءٍ قطُّ وليسَ أحدٌ من أصحاب النبيي صلى الله عليه وسلم إلاّ وله رجعةٌ وأكثرُ من ذلك ، ولم يُسمَع لأبي بكرٍ بفُتْيا كثيرٍ ولا كثيرِ رواية ، ورأسُ الدِّين الفِقْهُ فيه والعلمُ به . فلمّا كان ابو بكرٍ وعليُّ بن أبي طالب على ما وصفنا وذكرنا ، علمنا أنَّ أفقهَهما أفضلُ فضلاً وأولى بالإمامة ، لأنَّ عملَ

الفقهِ أفضلُ من غيره ، لأنَّ أَوْلَى الناس بالمسلمين أعلمُهم بدينهم ، لأنَّ من علمَ الدِّين لم يجهلْ أمرَ الدُّنيا ، لأنَّ أمور الدُّنيا مياسَرة أو شبيه بعلم المياسرة ، وعلم الدِّين مستنبَط ، وتأويلُه غامض .

قالت (العثمانيةُ) عند ذلك : أمَّا العدل والقسط فأنْ ننظرَ يوم تُوفِّي النبي صلى عليه وسلم ، وأبو بكرٍ وعليٌّ حيَّانِ ظاهرٌ أمرُهما ، معروفٌ قدرُهما واحتمالهما للعلم والعَمَل . فلَعمري لئن كان لعليٍّ من طُول الصُّحبة وكثرةِ السَّماع ومفاوضة الرَّسول الأ [مر]، والمعرفة ، وكثرةِ الإرشادِ للأُمة وصحَّة الرأي وكَثرة الصَّواب ، وكان النَّاسُ إليه أشدَّ فزعاً ، [و] ظَهَرَ من روايته وحاجة الناس إلى فقهه في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأيَّام وفاته وأيام أبي بكر ، أكثرُ ممَّا ظهر من أبي بكر في ذلك الدهر ، إنَّهُ لأفقهُ منه في الدِّينِ وأعلم بأبواب الدُّنيا .

[و] لئن كان إنَّما كثُر ممَّا نقل الناسُ عنه لأنه عاش والحادثاتُ تحدُث ، وبقي حتَّى كان يُستفتَى و يُفتِي ويُسأل ويُجيب ، ويَروي عنه في الزمان الذي كان يُستفتَى فيه مثلُ أبي هريرة ، وأنسِ بن مالك ، وابنِ عُمَر ، وابن الزُّبير ، وعبد الله بن عَمرو ، فكان ذلك منه أيام أبي بكر وهي سنتان ، وأيَّامَ عُمر وهي عشر سنين ، وأيَّام عثمان وهي اثنتا عشرة سنة ، وأيَّام نفسه وهي خمس سنين ، فليس في ذلك حُجَّةٌ ولا دليل ؛ لأنك تُحصي ما يقول الرَّجلُ في الدَّهر الطويل مع كثرة الحادثات ، وما يقول الرجل في الدَّهر القصير مع قلَّة الحادثات ؛ وإنَّما ينبغي أن ننظر يومَ توفِّي النبيُّ صلى الله عليه مَنْ كان أفضَلَ المسلمين وأفقَهَ في الدِّين ، وأعرفَ بالأمور ، وأصوبَ رأياً وأشدَّ احتمالاً ، في ذلك الوقتِ الذي اختير فيه للخلافةِ . ونحن نعلم أنَّ عليّاً لو عاش إلى دهر الحسن وابن سيرينَ لكان قد ازداد فقهاً وعلماً وتجربةً على قَدْره يوم استُشهدَ رضي الله عنه .

ولا يجوز أن نقدِّر الرَّجل بقَدْر طول الزَّمان وكثرة الحادثات ، وبقَدْرِ قِصَر الزَّمان وقلَّة الحادثات . فلئِن صَحَّ عندنا وعندكم أنَّ أموراً حدثت ، وبلايا نزلت في زمن أبي بكر وأيَّام وفاةِ النبي صلى الله عليه ، مِن حلالٍ وحرام أو سياسةِ

جندٍ أو سدِّ ثغرٍ أو تدبير حرب ، أو استصلاح عوامٍّ ، أو ترتيب خواصٍّ ، فظهرَ فيه من رأي عليٍّ وصوابه وحُسن نظرهِ وإرشاده ما لم يظهر من أبي بكر ـ فقد أفلحَ من زَعَم أنَّ عليّاً كان أفقه منه فقهاً ، وأصوبَ رأياً ، وأشدَّ للأمور احتمالاً ! مع أنا قد نجد عنده مِن دقائق الفُتيا وغامِضِه وعويصه ما لم يُبْتَلَ به أحدٌ ولا يبتلى به أحد أبداً . ولعلَّ ذلك لا يُصاب عند الإمام إلاّ في جُملة الأمور وأصولها ، ثمَّ لو دَهِمَ النّاسَ عدوٌّ ، أو حَزبهم أمرٌ ، أو اعضَلَ بهم ملّم من فاتقٍ يحتطب المُلكَ بتأويلٍ قد زَخْرَفَه ، ومن انتشارِ جُنْد أو اضطراب عوامٍّ ، أو بدعةٍ شاملة ، لم يكن عندهُ من الغَناء والاحتمال والمعرفة بعلاج أدوائها والتأتّي لاستصلاحها قليل وكثير . وإنّما مدار الأمور على أصالة الرَّأي ، واتّساع الصَّدر ، وقوّة العزم .

[١٧ ـ حكمة أبي بكر يوم صلح الحديبية]

فإن كنا لم نجدْ لعليٍّ ممّا ذكرنا شيئاً يفضُل به أبا بكرٍ في ذلك الدهر فإنّا نستدلُّ على صواب رأيه واتّساع صدره ، وأنّه كان المَفْزَع والمُرشِدَ بعد رَسول الله في المعضلات وعند الشُّبُهات والحادثات ، والنّاسُ في ذلك الدَّهر بين مستمعٍ مرشِد وبين مستمِعٍ مسلم ، وبين مُطْرِقٍ واجم وبين خائضٍ قد رنَّحه الحادثات ، واستبهمَ عليه وجْهُ الصَّواب ، كالذي كان مِن المسلمين لمّا اصطلحوا على القضيَّة يوم الحديبية ، لأنّهم لمّا صارُوا إلى الكتاب وتراضَى النبيُّ صلى الله عليه وسلم وسُهيلُ بن عمروٍ على أن يُكتَب في الكتاب : « وعلى [أنَّ] من أتى قريشاً ممن كان على دين محمد بغير إذنٍ لم تردُّه إليه »، فبلغ من أمر الناس والذي دخل عليهم أن اضطربت قلوبُهم ، حتّى إنَّ النبيَّ صلى الله عليه قال لأصحابه بعد انصراف سُهيل بن عمرو : « قومُوا فانحروا وأحِلُّوا واحلِقُوا »، يقولها ثلاثاً ، كلَّ ذلك ينظُرُون في وجهه ويَسمعون قولَه ولا يُطيعون أمرَه ، حتّى غضبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فدخَلَ على أمّ سَلمة فأخبرها بذلك متعجِّباً ، وكانت معه في تلك السُّفْرة، قالت أمُّ سلمة : « انطلِقْ أنتَ يا رسول الله إلى الهدي فانحره ، فإنّهم

سيَقْتــدون بـك ». فكــان أوّلَ مَن وثَبَ عند الكِتــاب عُمرُ وهــو يقـول : يـا رسولَ الله ، ألسْنا بـالمسلمين ؟ قـال النبيُّ صلى الله عليـه : بـلى . قـال : فعـلامَ نُعطِي الدَّنيـةَ في ديننا ؟ قـال النبي عليـه السـلام : أنـا عبـدُ الله ورسـولُـه ، ولن أخالفَ أمره ». فأقبل أبو بكرٍ عـلى عمر فقـال : يا عُمـر ، الزَمْ غَـرْزَهُ فإنّي أشهـد أنّه رسـول الله ، وأن الحقُّ ما أُمِر [به]، ولن يضيِّعه الله!

ثمّ إنَّ عمـرَ بن الخطاب عـاد إلى أبي بكرٍ فسـألـه فقـال أبـو بكـر : سلم لله ولرسوله واتّهِمْ رأيَك .

وقال أبو عُبيدة : لا نُعطِي الـدَّنيةَ أبداً ! فقال أبـو بكر ، يـا عمِّ إنّها ليست بدَنيّة ، ولـو كانت دنيّـةً ما أعـطاها النبيُّ صـلى عليه وتـأباهـا أنت ، وما كـان الله ليرضى بذلك .

أوَ مـا علمتَ أنّـه لم يكن في الجميـع أشـدُّ في ذلـك من عـليّ بن أبي طـالب وعمرَ بنِ الخطّاب ؟ ! وذلـك أنَّ علياً هـو كانَ كـاتب كِتاب القضيّـة ، فلمّا كتب : « هذا ما قاضى عليه محمـدٌ رسول الله » قـال المشركـون : لو نعلم أنّـك رسولُـه ما حـارَبنـاك ، ولكن اكتب : « محمـد بن عبـد الله »، فقـال النبيُّ لعليّ : امْحُهـا يـا عـلي . فقال عـليّ : والله لا أمحوهـا أبداً ! قـال النبي صـلى الله عليـه وسلم : أرِني مكـانها . فأراهـا فمحاهـا وكتب « محمد بن عبـد الله ». قال أبـو بكر : بـأبي أنت وأمي يـا رسـول الله ، إنّ هـذا كلّه حـدَبٌ عـلى الإسـلام وغَضَبٌ لـه ، ولكنّهم لم يطّلعوا من الأمور ما تَطلّعه الرسل . فهذا موقفٌ لأبي بكرٍ مشهور .

وإنّما عَظُمت الفتنةُ على أصحاب النبي صلى الله عليه لأنّهم خرجوا لا يشُكّون في الفَتـح ، لرؤيـا النبي صـلى الله عليـه أنّـه حلَق رأسَـه ودخـل البيـت وأخـذ مفتـاح الكعبة وعرَّف مـع المعرِّفين ، ثم تجهّز في تلك الأيـام وهو يـريد مكّـة عندهم وقـد كان تَلا عليهم : ﴿ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسجِدَ الحَـرَامَ إنْ شَاءَ الله آمنِـينَ محلِّقين رءوسَكم ﴾ الآية . فلمّا رأوا الصُّلْحَ والشَّرط ، وعَايَنُوا الـرُّجوع اضـطربوا لـذلك ، مـع الذي كان في نفوسهم من قوله : « إن أتى قريشاً أحـدٌ ممن كان عـلى دين محمدٍ لم تـردُّه ،

ومَن أبى محمّداً ممن هو على دين قريش رَدّه ». فأخرجهم ما ذكرتُ لك إلى ما ذكرت قبل .

وأقبل عمر على أبي بكر فقال: يا أبا بكر، أليس قد أخبرنا النبيُّ صلى الله عليه عن الله وتلا علينا القرآن : ﴿ لتدخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إن شاء الله آمنين محلّقين رؤوسَكم ومُقَصِّرين ﴾؟ قال أبو بكر : نَعَم . قال عمر : فما بالُه رجَع بنا ولم نَدخُلْها ؟ قال له أبو بكر : وهل قال لك مَتَى ؟ إنّما قال : لتدخُلنَّ ، وأنتم داخِلُوها لا مَحَالَة . وإنما كان لك مقالاً لو ضَرَب لك أجلاً فرأيتَ خلافَه . واعلم أنَّ الحقَّ ما قال وصنع .

فلم يُبقِ في قلبِ مخلصٍ جهلاً بموضع الحجّة في ذلك ، ولا في قلبِ مستريبٍ دخلَه الشكُّ شيئاً إلا أصلحه . فبهذا وشبهه نعرف إخلاصَ الرَّجُل وقَدره ، وسعةَ صدره ، وكثرةَ علمه .

[١٨ ـ حكمة أبي بكر عند موت النبي]

ثم أخرى ، أنقذ اللّهُ به من الضلالة ، والناسُ بين ساكتٍ لا غَناء عنده ، أو خائضٍ مستريب يحتاج إلى التّعريف ، أو موقن يحتاج إلى المادّة وتلقين الحُجّة .

من ذلك أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لما تُوفِّي اقتحم الناسُ عليه في منزل عائشة ، فلما نظَروا إليه مسَجًّى دخلهم أمر عظيم أذهلهم وحيَّرَ عامَّتهم ، حتّى قالوا : لم يمت ، وكيف يموتُ وهو شهيدٌ علينا ونحنُ شُهداءُ على النّاس ؟ ! وكيف يموت وقد قال الله : ﴿ لِيُظْهِرهُ عَلَى الدِّين كُلِّه ﴾ ولم يُظْهِر بعد ؟ !

وكان عثمان بن عفّانَ وعمر بن الخطاب يردِّدان هذه الآيات، وتَوَعَّدَا أصحابَ النبي صلى الله عليه : مَنْ قال إنّه مات . وثاروا في حُجرة عائشة وعلى الباب : لم يمت !

وكان أوّلَ مَن رآه مسجّىً فأنكرَ موتَه عثمان ، وقال : إنّه والله ما مات ، ولكنَّ الله رفعه إليه كما رفعَ عيسى بن مريم ! والله لا نسمع أحداً يقول ماتَ إلاّ قطعنا لسانه !

واضطرب النّاس وماجُوا وقام عمر في الناس خطيباً فقال :

لا أسمعنَّ احداً يقول إنّ محمداً مات ! وإنّ محمداً لم يمت ، ولكنّ اللّهَ رَفعه . أرسل إليه كما أرسل إلى موسى عليه السلام فلبث عند قومه أربعين ليلة . وإني لأرجو أن يقطع الله أيديَ رجال وأرجلَهم يَزعُمون أنّ محمداً مات !

فبينما الناس هكذا إذْ أقبلَ أبو بكرٍ ، على فرسٍ له ، من السُّنْح فسمع مقالّة عمر وما يقوله الناس وما خاضوا فيه ، فبدأ بالنبي صلى الله عليه وسلم فدخلَ عليه وهو مسجّىً ، فكشَفَ عن وجهه فقبّله ، ثم أقبَلَ نحو المنبر وقال : أيُّها [ذا] الحالف على رِسلِك ! فلمّا رآه عمر قعد ، وقام أبو بكر خطيباً ثمّ قال : أيها الناس اجلسوا وأنصِتوا ، ثمّ حمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال :

أيُّها الناس ، إنَّ الله قد نَعى نبيّكم إلى نَفْسه وهو حيٌّ بين أظهركم ونعاكم إلى أنفُسكم ، فهو الموتُ حتّى لا يَبقَى احد . ألم تعلموا أنّ الله قال ﴿ إنّكَ مَيّتٌ وإنّهم مَيّتون ﴾ .

قال عمر : بأبي أنت وأمّي ! فسكت النّاسُ وأظهروا التّسليم ، وعرفوا الحق وبكَوا ، كأنّهم لم يكونوا سمعوا بهذه الآية قطُّ .

ثم تلا: ﴿وما مُحمّدٌ إلاّ رسولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أفإنْ مَاتَ أوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أعقابكم ﴾ ثم تلا : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموت ﴾ ثم تلا : ﴿ كُلُّ شيءٍ هَالِكٌ إلاّ وَجْهَه ﴾، ثم مرّ في خُطبته المشهورة المعروفة . فهذا هذا .

ثم أقبل على عُمر وعثمانَ فقال: قال الله: ﴿وكذلكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمّةً وَسَطاً لتكونُوا شُهداء عَلَى النّاسِ ويَكُونَ الرّسُولُ عَلَيْكُم شَهيداً ﴾، يقول : إنّكم

شُهداءُ على مَنْ تَلقَّوْن مِمَّن لم يَلْقَ النبيَّ صلى الله عليه ، كما كان النبيُّ صلى الله عليه عليكم شهيداً . وقال الله : ﴿ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كلِّه ﴾، وإنما أراد دينَه ، واللَّهُ مُتِمٌّ نورَه ومظهرٌ دينه . فإذا أظهر دينَه فقد أظهره .

فهذا عِلمُه وقدرهُ وفهمه وحاجةُ النَّاس إليه .

[١٩ ـ حكمة ابي بكر في الزكاة]

ثم الذي كان مِن مَشْيِ المهاجرين والأنصار إليه وكلامِهم له، ليَقبل الصَّلاةَ من العرب ويَترك الزَّكاة ، وقالوا : إنهم لو قد صَلَّوْا لقد زكَّوْا ، قال : واللَّهِ لو مَنعُوني عِقالاً مما اعطَوه النبيَّ صلى الله عليه لجاهدتُهم عليه ! فقال له المهاجرون والأنصار : أوَ ليس قد قال النبي عليه السلام : « أُمِرتُ أن أقاتل الناسَ حتى يقولوا لا إله إلاّ الله ، فإذا قالوها حقَنُوا بها دماءَهم وأموالَهم ». قال أبو بكر . إنَّ فيها « إلاّ بِحقِّها ». قالوا : صدقت . ألا تَرَى إلى أنه قد علّم الجميع ما لم يَعلموا ، أو صَيَّرهم إلى رأيه بقدر المخالفة له .

ونقلوا إلينا أن الأنصار قالت : يا خليفة رسول الله ، أليس قد قال النبي صلى الله عليه : « أُمِرتُ أن أقاتل الناسَ حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها حجبوا بها دماءَهم وأموالَهم إلاّ بحقِّها وحسابهم على الله » قال أبو بكر : فهذا من حقِّها ، والله لو كنتُ وحدي لجاهدتُهم حتى أُقتَل أو يُظهرَ اللَّهُ الحقَّ ويُزْهِق الباطل ، إنَّ الباطل كان زَهوقاً .

ثم مضى نحو أهلِ الرِّدَّة يُريدهم مُغْضَباً حتى لحقه المهاجرون والأنصار ، فمنعوه وكفُّوه وتقدَّموا أمامه .

وهذا خبرٌ نقله أصحاب الأخبار مُرجِئهم وشيعيُّهم إلاّ الرَّوافض ، فإنهم لا يطاقون ؛ لأنَّ من يجحد المستفيض الشائعَ بالأسانيد المختلفة في الدهر المتفاوت ، ويوجب على خصمه له تصديقَ الشاذِّ الذي لا يُعرف ولا يدّعيه إلاّ

أهلُ الغلُوّ من الروافض ، ممتنع الجانب ، عسير المطلب ، لا يُطاقُ ولا يُمارَى .

ثمّ رأينا عليّاً يَروِي عنه ، ويزكّيه ويفضّله ، ولم نسمعْه روى عن عليٍّ شيئاً ولا زكّاه ولا فضّله . على أنّ عليّاً قد كان عنده فاضلاً عالياً ، عالماً وجيهاً .

ثم الذي كان مِن قول عثمان بن عفّانَ له . وذلك أنّ عثمان حَزِنَ على النبي صلى الله عليه حُزناً لم يَحزَنْه أحدٌ ، فأقبل أبو بكرٍ يُعَزّيه للذي يرى به من عظيم ما فَدحَه وغَمَرَه ، فقال عثمان : ما آسى على شيءٍ ، إنّما آسَى على أنّي لم أسأل النبيَّ صلى الله عليه عما فيه نجاةُ هذه الأمّة ! قال أبو بكر : قد سألتُ النبي صلى الله عليه عن ذلك : فقال : « مَنْ قَبِلَ الكلمةَ التي عَرضْتُها على عَمّي فأباها ».

ألا ترى إلى حاجة الجميع إليه واستغنائه عنهم .

ولو لم يُعلَمْ من سعة علمه إلّا قولُه للمهاجرين والأنصار حين أشاروا عليه بأن يَقبل الصلاة وقالوا إنهم لو قد أقاموا الصّلاة لآتَوُا الزّكاة . قال أبو بكر : إنَّ تميماً إنْ أذِن لها من الإسلام في نقض عُروةٍ لم تَرضَ بمثله بكرُ بنُ وائل ، ولو أُعطيتْ كِنانةُ والفافها وأحابيشها أمراً لم ترض قيسٌ حتّى تزداد ، ولَئِن سمعتُ قولَكم لأنقضَنّ الإسلامَ عُروةً عُروة .

[٢٠ ـ حكمة ابي بكر في انفاذ جيش أسامة]

وفي مشيهم إليه في تأخير جيش أسامة يشيرون عليه ويقولون ما كتبنا في صدر الكتاب ، وفي قوله : « لو بقيتُ وحدي حتّى تأكلني الكلابُ ما أخّرتُ جيشاً أمَر رسولُ الله صلى الله عليه بإنفاذه والوحيُ ينزلُ عليه »، فلئن كان ما وصفْنا لا يدلُّ على جَودة الرأي وصِحّة العزم وكثرة العلم ، وعلى الشّهامة والصّرامة ، واليُمن والبركة ، فما في الأرض دليلٌ على فضيلة رجلٍ ونقصِه .

[٢١ ـ حكمة أبي بكر في مكان قبر النبي]

ومما يدلُّ على سَعة علمه وأنَّه كان المَفْزَعَ دون غيره أنَّ المهاجرين عامّة وبني هاشمٍ خاصةً اختلفوا في موضعِ دَفْنِ رسول الله صلى الله عليه ، فقال قائل : خير المدافن البَقيع ، لأنَّه كان كثيراً ما يستغفر لأهله . وقال آخرون : خير المواضع موضعُ مصَلّاه . وقال آخرون : عند المنبر . قال لهم أبو بكر : إنَّ عندي فيما تختلفون فيه علماً . قالوا : فقُلْ يا أبا بكر . قال : سمعت رسولَ الله صلى الله عليه يقول : « ما مات نبيٌّ قطُّ إلاّ دُفِنَ حيث يُقْبَض » . فخَطُّوا حولَ فِراشه ثم حوَّلوا رأسَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم بالفراش في ناحية البيت . فلم نجد النَّاسَ احتاجوا مع خبره إلى شاهد ، ولم يختلف عليه في ذلك رجلان ، ولا أظهرَ الشَّكَّ في خبره إنسان واحِدٌ قريب ولا بعيد . هذا والمنزل منزل ابنته ، وهو في موضع جَرِّ منفعةٍ وكما تكون المنفعة ، وهي المأثرة العظمى والشرف الأعلى .

فمن لم يُتَّهم في خبره على هذه الحال ومع هذه العِلَّة حتى قُبِلت شهادتُه وَحْدَه ، لجديرٌ ألاّ يتقدّمه أحدٌ في القدر والعلم ، والأمانة والصِّدق .

[٢٢ ـ شهادة علي في ابي بكر]

ومما يدلُّ على أنه كان ثابتاً عندهم قولُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وروايته عنه ، وذلك أنَّ عليّاً قال : كنتُ إذا سمعتُ من النبي عليه السلام حديثاً ينفعني الله بما شاء منه ، فإذا حدَّثني غيرُه استحلفْتُه ، فر ا حَلَفَ لي صدَّقته ، وإنَّ أبا بكر حدَّثني ـ وصدَق أبو بكر ـ أنَّ النبي صلى ا‌لله عليه قال : « ما من رجلٍ يُذنِب ذنباً فيتوضَّأ فيحسن الوضوءَ ثم يصلِّ ‌كعتين ويستغفر الله إلاّ غُفِر له » .

وهذا حديثٌ ما سمعت له براداً إلاّ أهلَ الغلوّ من الروافض . وقد قال

قومٌ منهم : إنّما كان هذا من عليٍّ التَّقيَّة للعوام ، لطاعة العَوامّ لأبي بكر وعمر . وما في هذا من التَّقية ؟ أن يصدِّق رجلاً على خبره وأن يكذِّبَ غيره أو يؤمِّن غيره . وإنَّ هذا من أخلاق الناس لموجودٌ : أن يزكّيَ بعضٌ بعضاً ويفضِّل . فنرى عليّاً يحمل عنه ويروي عنه ويزكّيه ويفضّله ، ولم نَرَه صنع بعليٍّ من ذلك شيئاً .

ولقد بلغ من تبطُّنه لأمر النبي صلى الله عليه أنَّ النبي صلى الله عليه لما حاصر أهلَ الطائف قال عمر لأبي مِحْجَن : إنّما أنت ثعلبٌ في جُحْرٍ يُوشِك أن يَخْرُج ! قال أبو مِحجن : هل هو إلاّ أنْ قطعتم حَبَلاتِ عِنَب ، وفي الماءِ والتراب ما يُعيده . قال عمر : لا تقدر أن تخرج إلى ماءٍ وتراب ، ولا تبرح باب جُحَرِك حتّى تموت جوعاً . قال أبو بكر : يا عمر لا تقلْ هذا فإنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يُؤْذَنْ له في فتح الطّائف . فسأل عمر النبي صلى الله عليه فقال : نَعَمْ لم يؤذن لي .

قالوا : ولم يكن علِمَ ذلك من أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم غير أبي بكر . ولو علمهُ أحدٌ غيره لكان عمر .

قالوا : في خطبة النبي صلى الله عليه في شَكاته التي توفّي فيها والمسلمون شهود ، وفي معرفته بالذي أراد النبي صلى الله عليه وسلم بكلامه دون جميع الناس ، دليلٌ على أنه المخصوص بحُسْن المعرفة ، وفضيلة الدِّراية .

وذلك أنَّ أوّلَ ما تكلّم به النبي صلى الله عليه على المنبر أن قال : « والذي نفسي بيده ، إني لقائمٌ على الحَوض الساعة » . ثم تشهَّد فلما قضى تشهُّدَه كان أوّلُ ما تكلّم به أن استغفَرَ للشُّهداء الذين قُتلوا بأُحُد ، ثم قال « إنَّ عبداً مِن عباد الله خُيِّر بين الدُّنيا والآخرة فاختار ما عند الله » . فبكَى أبو بكر . قالوا : فتعجبنا من بكائه . وقال : بأبي أنتَ وأمّي وبآبائنا وأمّهاتنا وأنفسنا وأموالنا . قالوا : فتعجَّب الناسُ من كلام أبي بكر وبكائه وقالوا : أخبر النبيُّ صلى الله عليه وسلم عن رجل !

قالوا : وكان أبو بكرٍ أعلمنا برسول الله .

ولو لم يكنْ من صَواب رأيه وصِحَّة فِراسته ، وتوفيق الله إياه إلّا توليتُهُ خالدَ بنَ الوليد حربَ مسيلِمة وطُلَيحةَ وأهلِ الرِّدَّة ، وقد عُوتِبَ فيه من كلٍّ جانب ـ وعمر تناوَلَه ـ وهو يقول : لا أشِيم سيفاً سلَّه الله على أعدائه .

ثمَّ اختيارُه عمرَ وفِراستُه فيه ، حيثُ جعَلَ له الأمرَ من بَعدِه ، وعُوتِبَ فيه ونُوزِعَ في أمره .

وكذلك قالَ عبد الله بنُ مسعودٍ ، الذي قال فيه النبيُّ صلى الله عليه « رَضيت لأمّتي ما رضِيَ لها ابنُ أمِّ عبد ، وكرِهتُ لها ما كره لها ابنُ أمِّ عبد » ، قال : أفرسُ النّاس ثلاثة : المرأةُ التي جاءت على استحياءٍ حين قالتْ لأبيها في موسى : ﴿يا أبتِ استأجِرْه إنَّ خيْرَ مَنِ استأجَرتَ القويُّ الأمين﴾ وامرأةُ العزيز ، وأبو بكر في عمر .

فهل رأيتَه ضَامَّ قوماً قطُّ وجامَعهم فكان لهم الرّأي دونَه ، وهل عوتب في شيءٍ قطُّ إلاّ والصواب ما عَمِلَ به دون رأي المعاتِب له . وهل أشير عليه برأيٍ قطُّ إلاّ وهو المصيب دون المشيرين عليه !؟

فأيُّ فقهٍ وأيُّ علمٍ أصحُّ وأيُّ مذهبٍ أحْمَدَ ممّا عدَّدنا وكثَّرنا .

ثم أنتم لا تستطيعون أن تُخبروا عن عليِّ بن أبي طالب بموقف واحد من هذه الآراء ، وكلمةٍ واحدةٍ من هذا الكلامِ ومن الصَّوابِ الذي حكينا عن أبي بكر في حياة النبي صلى الله عليه ، وعند وفاته ، وفي آيام خلافته ، حتى كأنَّ عليّاً ورجلاً من عُرْض المسلمين في ذلك الدَّهر سواءٌ .

وما يُخَيَّلُ إلينا إلا أنَّ الذي قطَعَه عن كثير من ذلك حداثةُ سنِّه ، وتقديمُه للمَشْيَخة على نفسه .

فإن قالوا : إنَّ عليّاً قد أشار على عُمَر بكذا ، وقال له يوم كذا وكذا : كذا .

قلنا : إنّا لم نكُنْ في عُمَر وعليّ ، ولو قد صرنا إلى الإخبار عنهما تقدّمْنا بالذي يُعَرّفكم فضيلةَ عمر ، كما حكَيْنا ووصفْنا وتقدّمْنا في الإخبار عن فضيلة أبي بكر .

ولقد بلَغ من صِحّة فكرِه وصِدق ظَنّه وقُوّة حِسّه أنّه كان يظُنُّ الأمرَ فيقع به أو قريباً منه . ولذلك قال عمر : إنّك لن تنتفع بعقل المرءِ حتّى تنتفع بظَنّه .

[٢٣ ـ صدق ظن ابي بكر]

فممّا يدلُّ على صِدق ظنِّ أبي بكر وحِسِّ نفْسه أنَّ عائشة لما دخَلَتْ عليه في شَكاته التي قبضَه الله إليه فيها ، أنشدَتْ عنده شعراً تذكر فيه ما رأَتْ في أبيها . قال أبو بكر : لا تقولي هذا يا بُنَيّة ، ولكن قولي : ﴿ وجاءَتْ سَكرةُ الموتِ بالحَقّ ذلك ما كنتَ منه تَحيد ﴾ ، أي بنيّةُ إنّي كنتُ نَحَلتُك جِدادَ عشرين وَسقاً من مالي بالعالية ، وإنّك لم تحوزيه ولم تَقْبضيه ، وإنّما هو مال الوارث ، وإنّما هما أخواك وأختاك . قالت عائشة : إنّما هي أسماء ! قال : إنّه أُلقِيَ في رَوعِي أنّ ذا بَطْنِ بنتِ خارجةَ [جارية] . فوضعت جاريةً فسمّيت أمَّ كلثوم .

وله مما كان يقع في خَلَده ويَصْدُق فيه ظنُّه وتصحُّ فيه فِراسته أمورٌ عجيبة .

[٢٤ ـ فقهاء الاسلام . عودة الى فقه علي]

ولو قالوا: إنّ عليّاً كان من فقهاء أصحاب النبي صلى الله عليه لقد كان ذلك عَدلاً وقَصْداً ، وحَسَناً جميلاً ، كما قال إبراهيمُ والشّعبي : الفِقهُ من أصحاب النبي صلى الله عليه في سِتّة : في عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعبد الله بن مسعود ، وأُبيّ بن كعب ، ومُعاذ بن جَبَل ، وزيد بن ثابت .

وقد زاد قومٌ أبا الدرداء ، وأبا موسى . وقد قال مسروقٌ : انتهى علمُ أصحابِ رسول الله إلى هؤلاء الستة : عمر ، وعلي ، وعبد الله ، وأُبيّ ، ومعاذ ،

وزيد .

وقال الشعبي : كانت القضاة أربعة : عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعريّ .

فلو أنهم كانوا يرضون بقول الفُقهاء ورأي التّابعين ، ولم يُسرِفوا وقَصدوا ، كان ذلك قصْداً . ولقد تعدّوا فيه الحقّ حتى قالوا : لم يقل قطُّ قولاً يُمكن أحسَنُ منه ، ولا قال قولاً قطُّ فرجَعَ عنه . وقد علِمنا أن له غَيْرَ رجْعة ، لا اثنتين ولا ثلاثاً ، وأقاويلَ لا يجوِّزها أصحاب الفُتْيا . وما كان إلاّ كبعض فقهائهم الذين يكثُر صوابهم ويقلُّ خطاؤهم . ولم تكن لِتجمع جميعَ هفواتِ إنسان وأخطاءه حتّى تقرأه مجموعاً إلاّ ظَنَنتَ به العجز . وليس ذلك كذلك ، لأنّك لو قذفتَ بجميع ذلك في محاسنه لخفِيَ عليك موضعُه ، ولصغُر خطرَه وقَدْره .

وإنّما حكينا هذا لأنّهم جمعوا لعمرَ وعثمانَ أموراً أرادوا بها عَيْبَهم ونَقْصهم ، ولعمري إنّ الخطأ لَخطأٌ حيث وقَع ، ولكن ربّما كان خطأ لا يخرج صاحبَه من الحكمة . والخطأ أمرٌ لكلِّ بني آدم فيه حظٌّ ونَصيب ، وهو أمرٌ لم يَسلَمْ منه نبيٌّ ولا صِدِّيق ولا شهيد ولا أحدٌ من العالمين .

ومما تقرِّرهم به مما رَوَاه حُمّال الآثار من رجُوعه وما لا يجوز من فُتياه ، قوله : أجمع رأيي ورأيُ عمر على عِتْق أُمّهات الأولاد ، ثم رأيتُ أن أُرْبِقهنّ .

ونقلوا جميعاً أن عُمَر وعليّاً اختلفوا في الجَدّ ، فقال عليٌّ بقول ، وقال عمرُ بقول ، ثم رجع عمرُ إلى قول علي ورجع عليٌّ إلى قول عمر .

ونقلوا جميعاً أنّ زيدَ بن ثابتٍ قال لعليٍّ وهو يحاجُّه في المكاتَب : أرأيتَ إنْ زَنَى أنتَ راجمه ، قال : لا . قال : أرأيت إنْ شهد أتقبل شهادتَه ؟ قال : لا . قال زيد : فهو إذاً عبدٌ ما بَقِيَ عليه دِرهم . فسَكَت عليٌّ .

وزعم أصحابُ داودَ بنِ أبي هِند ، عن داودَ عن الشّعبي ، أنّ عليّاً رجَع

عن قوله : « في الحَرَام ثلاثٌ » .

وكلم عليٌّ عثمانَ أن يَحجُر عَلَى عبد الله بن جعفر في شيء كان اشتراه ، وقد كان الزُّبير قال لعبد الله : خُذْه فأنا شريكُك . فقال له عثمان : كيف أحجُر على إنسانٍ شريكُه الزُّبير ! فسكَت عليٌّ .

وقال في المُكاتَب ، إذا أدّى من ثمنه شيئاً ، إنّه يُستَرَقُّ بحسابٍ ويُعتَق بحساب .

وقال في النَّصرانيّة تُسلِمُ وهي تحتَ النصرانيِّ قال : هو أحقُّ بها ما لم يُخرِجْها من دار الهجرة .

وقال في رجلٍ قال لامرأته : « اختاري » واختارتْه ، ثم قال : « اختاري » فاختارتْه ، ثم قال الثالثة : « اختاري » فاختارته ؟ قال : أفرِّق بينهما ، فإن أنا فعلت كذا وكذا .

وقال في أعورَ فقأ عين صحيح ، فأراد الصحيحُ أن يفقأ عينَ الأعور الذي فقأ ؟ قال : لا يفقؤها إلاّ أن يؤدي نِصفَ الديّة .

وقال في الجَدِّ : إنّه سادس ستّة ، وسابع سبعة . وكتب إلى عبد الله بذلك ، وقال : قطِّع الكتابَ واجعلْه سابعاً .

وقال في جاريةٍ وثبت عليها امرأة رجلٍ غائب فافتضّت عُذرتها بإصبعها ، ثم قذفتها لتُسقِطَها من عين بعلها ، وكانت خافت أن يتزوّجها ، فرُفِعَ ذلك إليه فقال لبعض بنيه : قل في هذه المسألة . قال : عليها صَدَاق مثلها . قال : لو كلفت الإبل الطّحن طحنَتْ ! فاشتدَّ تعجُّب أصحاب عبد الله من هذه المقالة .

وكان يرى حكَّ أصابعِ الصِّبيان إذا سرَقُوا .

وكان إذا قطَعَ الرّجلَ قَطَعَ القدمَ وتَركَ العَقِبَ ليمشيَ عليه المقطوع ، وليعتمدَ به . وكان يَقطع اليَدَ من أصول الأصابع ويدعُ الكَفّ .

وزعم عبدُ الله بنُ سَلَمة وغيرُه ، عن الأعمش ، عن الشَّعبي أو عن غيره ، أنه سُئل عن رجل قال لامرأته : أنتِ طالقٌ ألفَ تطليقة ، وله أربعُ نسوة ؟ قال : تَبِينُ بثلاثٍ وتُقَسَّم الباقيةُ على نسائه .

ويقال لهم : هل تَعلمون أنّ الله ذكَرَ آدمَ وهو أوّلُ النبيّين فقال : ﴿ فَنَسِيَ ولم نَجِدْ له عَزْماً ﴾ .

وذكَرَ موسى وقَتْلَه النَّفْس . وذكَر يُونس بنَ مَتّى فقال : ﴿ وذا النون إذ ذَهَبَ مُغاضِباً فظَنَّ أنْ لَنْ نَقدِرَ عليه ﴾ . فالدّليل على أنّ يُونس قد كان ضَيَّعَ وأساء قولُه : ﴿ سُبْحانَكَ إنّي كُنْتُ من الظّالمين ﴾ وقول الله : ﴿ فالتَقَمه الحُوتُ وهو مُليمٌ ﴾ .

وذكروا داودَ وسُليمانَ في قضيّةٍ واحدة ذَهَبَ عنها داودُ وأصابَها سليمانُ ، حيث يقول الله : ﴿ وفَهَّمْنَاها سُليمانَ ﴾ فلم يكن ذهاب داودَ بمُخْرِجِه من قول الله : ﴿ وآتَيْناهُ الحِكْمَةَ وفَصْلَ الخطاب ﴾ . وقد كان منه ما قد علمت ، حتّى أنزَلَ الله عليه المَلَكين يَكْنِيان عن قِصّته ، ويَريدان وعْظَه في قِصّةٍ : ﴿ وهَلْ أتاك نَبأُ الخَصْم إذ تسوَّرُوا المحراب ﴾ .

وقد عاتَبَ الله جل ثناؤه نبيَّه في غير موضع فقال : ﴿ عَبَسَ وتَوَلّى ﴾ وقال : ﴿ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إليهمْ شَيْئاً قليلاً ﴾ وقال : ﴿ لِيَغفِرَ لك اللّهُ ما تقدَّم مِنْ ذنبِك وما تأخَّر ﴾ .

وعاتبهُ في الأسرى وأخبره أنّه قد تقدم أمرُه في إطلاقهم حتّى قال : ﴿ لولا كتابٌ من اللّهِ سبَقَ لمسَّكُم فيما أخَذْتُم عذابٌ عظيم ﴾ .

وقال الله وهو يريد جَمْع المأمورين والمنهيِّين : ﴿ ولو يُؤاخِذُ الله النّاسَ بما كَسَبُوا ما تَرَكَ على ظَهْرها مِن دابّة ﴾ .

فإذا كان الله قد أخبَرَ بما ترى عن المعصومين فلِمَ يتتبّع قومٌ على عمر بن الخطاب ، وعثمان بن عفّان خطاياهم وهفواتهم ، وللعُمَرية ، والعثمانيّة أن

يعودوا عليهم بمثلِ ذلك وأكثرَ منه ؟ !

ومَنْ أجهــلُ مِن رجــلٍ زعَم أن عليّــاً لم يُخـطىء قطُّ ولم يَعصِ قطّ ، ولم يضيّـعْ شيئاً قطُّ ، وقـد سمِعَ اللّهَ يَحكِي امـورَ أنبيائـه ، ويـذكـر احـوالَ رُسُلِه ؟ ! ولسنا نحتاج في هذا الباب إلى أكثرَ مِن هذا .

[٢٥ ـ علي ليس افقه الناس]

وكيف يقـولـون : عـليٌّ فـوقَ النـاس كلُّهم في صَـواب الـرأي ، والفِقْـه في الـدين ، ولا يكون كـالرَّجُـل من عُظماء السَّلَف لضَـربٍ يخصُّـه فيهـا ، ونحن إذا سـألنـا الفُقهـاءَ وأصحـابَ الأثـار والعلماء ، عن أصحـاب القـرآن الـذين كـانـوا مخصوصين بحفظه على عهد رسول الله صلى الله عليه ، قالوا : زيـد بن ثابت وأبـو زيـد ، وفلان وفـلان . ولم يذكـروه في باب المخصـوصين بحفظ القـرآن أيّامَ حيـاة رسول الله صلى الله عليه .

فإن سألنـاهم عن أصحاب الحـروف والقراءات والـوجُوه ، الـذين بقراءتهم يقرأ الناس ، ويقـدر اختلافهم اختلف النـاس ، قالـوا : زيد بن ثـابت ، وأبيّ بن كعب ، وعبدُ الله بن مسعود . ولم يُـذكر مَعَهم ، لأنّـا شاهـدنا النّـاسَ يقولـون : هـذا في قراءة عبـد الله بن مسعـود ، وهكـذا هـو في مصحف عبـد الله . وهـذا في قـراءة أبيّ ، وهكـذا هـو في مصحف أُبَيّ . وهَـذا في قـراءة زيـد ، وهكـذا هـو في مصحف زيـد . ولم نَرَهم يقـولون : هـذا في قراءة عـلي ، وهكذا هـو في مصحف عليّ .

وإنْ سـألناهم عن أصحـاب التّأويـل والتفسير قـالوا : عبـد الله بن عباس ، والحسن ، وفلان وفلان ، ولم يذكروه في هذا الباب .

وإن سـألنـاهم عن أصحـاب الـرِّوايــة ، والمشهـورين بكثـرة الإسنـاد عن رسـول الله صلى الله عليـه قالـوا : ابن عمـر ، وعبـد الله بن عَمـرو ، وجـابـر بن

عبد الله ، وعائشة ، وأبو هُريرة . ولم يُذكر معهم في هذا الباب .

وإنْ كـان الدليـل على فقـه المتبوع بِفقـه أتباعـه فعبدُ الله بن مسعـود وعائشـة أفقـه منه ، لأنَّ أصحـاب عبد الله وعـائشة أفقـه من أصحابـه ، فكيـف صار أفقـهَ خلق الله كلّهم والقِصَّةُ على ما أنبأناكم ووصَفْنا لكم .

على أنه كان فقيهاً عالماً ، قد أخَذَ من كـلِّ بابٍ بنصيب ، ولا نقـول فيه ـ إذْ كنا عثمانيَّةً وعمَرَيَّةً ـ قولَكم في عمـر وعثمان . أو مـا تعلم أنَّ الخبر مستفيضٌ بـأنَّ النبي صـلى الله عليه وسلم قـال : « أقرؤكم أُبَيٌّ »؟! فـترى أبيّاً . كـان أقرأ منـه . وقـال : « أفـرضكم زيـد » فـترى زيـداً كـان أفـرضَ منه . وقـال : « وأعلمكم بـالحلال والحـرام مُعاذ » فـترى مُعاذاً كـان عنـد النبي صـلى الله عليـه أعلمَ منـه . وقال : « وأقْضاكم عليّ » فينبغي أن يكون علـيٌّ أقضى منهم . وأنتم لا تَرضـون أن يكـون زيدٌ أفـرض منه ، ولا أبيٌّ أقـرأ منه ، مـع أنَّ « أقضاكم عـلي » ليس هـو في حـديث البصْريِّـين ، فإن كـان كما رواه البصـريُّـون فهؤلاء النَّفَـر أعلم منـه . وإنْ كان كما رواه غيرهم فكلٌّ واحد أفقه من الآخَرين فيما ذكرته ، فهذا هذا .

[٢٦ ـ قصور علي في التدبير والسياسة]

فإن صرتَ إلى أن تسأل النَّاس عن الاختيـار، وجودة الرأي ، والقُوَّة في السُّلطان ، والضَّبط للعدد والعوامّ قالُوا : أبو بكر وعمر .

وإنْ سـألتَ عن الفُتوح قـالوا : أبـو بكر وعمـر وعثمـان ، لأنَّ أبـا بكـر ردَّ الإسـلامَ في نصابـه بردِّ أهـل الرِّدةِ ، وهـو الفتح الأكبـر ، وقَتـلَ مُسَيلمـة ، وأسر طُلَيحة ، وغزا العدوّ ومنَع الحَوزة .

ولأنَّ عمـرَ دوَّن الـدَّواوين ، وفَـرَض الأعـطيـة وجنَّد الأجنـاد ، ومصَّر الأمصـار ، وجبى الفَيء ، وبلَغَتْ خيلُه إفـريقيـة ، وأوطأ خيلَه خُـراسـان وأقصى كَرْمان ، وأزال مُلكَ بني ساسان .

ولأنَّ عثمانَ هو الـذي افتتح الثُّغـور كلَّها : افتتـح إرمينيّة ، افتتحهـا حبيب إبن مَسلَمة الفِهْري وافتتـح أذْرَبيجـان ، افتتحهـا المغيـرةُ بن شُعبـة ، وقـد ـ كـان الأشعث معه فيها . وافتتح إفريقية ، افتتحها لـه عبد الله بن سعـد بن أبي سَرح . وافتتح سجِسْتان ، افتتحها له عبد الله بن سَمُرة .

فهذا باب المخصوصين بالفتوح .

وإنْ سـألتَ عن الـدُّهـاة وأصحـاب الإِرْب والمكـايـد قـالـوا : عمـرو بن العـاص ، والمغيرة بن شُعبـة ، ومعاويـة بن أبي سفيان . ولم نـذكر فيهم زيـاداً لأنَّ زياداً لا صُحبة له . فهذا باب الدُّهاة .

ورَوَى النَّاسُ عن قَبيصة بن جابر الأسـديّ وكان عَـلاَّمة داهيـةً حَكَماً ، أنّـه قـال : « مـا رأيت رجـلاً قطُّ أخـوفَ لله من أبي بكـر ، ولا أقـوى في دين الله من عُمـر ، ولا أصدقَ حيـاءً من عثمان ، ولا أوصَـلَ لرحم ولا أعـطى من تِـلاد مـال مِن طلحـة ، ولا أكثر مَخارجَ في الأمور من معـاويـة ولا أحْضرَ جـوابـاً ، ولا أكـثر صواباً من عَمرو » . ولم نَره ذكره .

ثم الـذي كـان من أسماءَ بنتِ عُمَيس ، ومن قـولهـا ـ وعليٌّ بن أبي طـالب شاهدٌ ، لمَّا تفاخر عندهـا بنوهـا من جعفر وأبي بكـر وعليّ ، قـال لها عـليّ : اقضي بينهم ـ قـالت : ما رأيتُ شـابّاً أظهـرَ من جَعفـر ، ولا رأيتُ شيخـاً أفضَـلَ من أبي بكر ، وإنّ ثلاثة أنتَ أخسُّهم لَفضلاء .

فهذه تفضيلُها؛ ولم يُروَ عن عليّ في ذلك إنكار .

فـإن قلتم : إنَّ قولَهـا ليـس بحجة . قلنـا : قد صـدَقتم لو كـان ليـس بحجَّة إلاّ قولها فقط ، ولكنَّ الأمـورَ إذا جاءت من هـا هنا وهـا هنا كـان اجتماعُهـا دليلاً على أنّه لم يكن عندها مع فَضْله وصلاحه وسابقته وقرابته ذا رأي .

ولقد بَلَغَه ذلك عن قُريش حتّى قام خطيباً معتذراً فقال في خطبته : « حتّى قالت قريشٌ : ابن أبي طالب شُجـاعٌ ولكنْ لا علمَ له بـالحرب ، لله أبـوهم ! وهل منهم

أحدٌ أشدُّ مراساً لها ولا أطولُ تجربة منّي . لقد نهضت فيها وما بلغتُ العشرين ، فها أنا الآن قد ذرّفتُ عَلَى السّتّين ، ولكنّه لا رأيَ لمن لا يُطاع ».

وقال الأحنف بن قيس لمّا قدِم عُبيد الله بن عليّ بن أبي طالب - وهو قتيل المختار بن أبي عبيد في أيام فتنة ابن مُخرّبة العَبْدي : ما هذا الذي أنتم فيه ؟ قالوا : قدِم عبيد الله بن عليّ يدعو النّاس . قال : إن كان لا بُدّ فجنّبوها حَسَناً وأبا حسن ، فإنّا لم نجدْ عندهم علماً بالحرب ، ولا إنالة للمال .

وقيل لأبي بَرزَة الأسلمي : لِمَ آثرتَ صاحب الشام على صاحب العراق ؟ قال : وجدته أطْوَى لسِرّه ، وأملَكَ لِعنان جيشه ، وأنظر لما في نفْسه .

وفي قول العباس بن عبد المطّلب ، وهو حليمُ قريش - وإذا كان حليمَ قريش فهو حليم العرب ، والحلم اسمٌ جامع للعِلم والحزْم - وذلك أنه لما قُبِض عمر وصَلّى صُهيبٌ بالنّاس دعا العباسُ عليّاً فقال : هل أحدثتم شيئاً ؟ فقال : فاحفَظ عني ، فإني لم أقدِّمْك في شيء إلاّ رأيتك مُستأخراً . مِن ذلك أني قلتُ لك ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم ثقيل : ادْخُل عليه فسَلْه ، فإن يكن هذا الأمر فينا أعلمَه النّاسَ ، وإن يكن في غيرنا أوصىَ بنا . فتركتَ ذلك وقد مُنيتَ بدهاة قريش ، وقد حِيلَ دوني ، فلا يُعْرَضنَّ عليك شيء إلاّ قلت : لا لا ، ولا يا أبَتِي ، تقصر عَينَيك وتحكّ قفاك ، بعد فوْتِ الأمر .

ففيما ذكرْنا دليلٌ أنّه كان لا يساوي أبا بكر ولا يجاريه ، ولا يدانيه ولا يقاربه ، وأنّه في طبقة أمثاله طلحة والزّبير ، وعبد الرحمن وسعد .

[٢٧ - ابو بكر ازهد من علي]

فإنْ قالوا : فإنّ عليّاً كان أزهد فيما تناحَرَ النّاسُ عليه ، ولأنّ أزهَدَ الناس في الدُّنيا أرغبُهم في الآخِرة ، ولأنّ ارغبهم في الآخرة أعلمُهم بأحوال الآخرة .

قلنا : قد صدقتم في صفة الزُّهد ، ولكنّ أبا بكر كانَ أزهدَ منه .

وسندُلّكم على ذلك .

فمِن ذلك أنَّ أبا بكر كان ذا مال كثير، ووجهٍ عريض، وتجارةٍ واسعة، فأنفق ذلك في سبيل الخير وعلى أهله ، إيثاراً لله ولرسـوله ، وطلب مـا عنده ، حتّى لقِيَ [الله] ، وما كانت تركتُه يوم مات غير بعير نـاضح ، وعبـدٍ صَيقَل ، مـع الخلافـةِ وكثرةِ الفتوح والغنائم والخرْج والصَّدَقة .

وكـان عليُّ بنُ أبي طـالبٍ مُقِلّاً مُخْفِفـاً يُعـال ولا يعـول ، فـاستفـاد الـربـاع والمزارع ، والعيون والنُّخيـل ، ومات ذا مـالٍ وأوقاف ، ومـا يُحسَب مالُـه ووَقْفُـه بيَنْبُـع إلاّ مثلَ كـلِّ شيء ملكَه أبـو بكر مـذْ كان في الـدُّنيـا إلى أن فـارقهـا

[٢٨ ـ اهلي مزواج على خلاف ابي بكر]

وتزوج [علي] فأكثر ، وطلّق فأكثـر ، حتّى عابـهُ بذلـك معاويـةُ ، وجعله طـريقـاً إلى تنقُّصـه ، وسبيـلاً إلى الـطَّعن عليـه ، فقـال وهـو يكني عن ذكــره ويُـريـده ؛ ليكـونَ أسَدَّ لسهمـه ، وأوقعَ في قلبِ مَن سمعه : « إنِّي والله مـا أنـا بنُكَحَةٍ ولا طُلَقَة » .

والآثارُ أنَّ عليّاً رحمة الله عليه ، استُشهِدَ وعنده تِسـع عشْرَة سُـرِّيَّة مـطْهمة وأربَعُ نسوةٍ عقائل .

ولا سواءٌ مَن كان ذا مال فأنفقَه ، ومن كان مُقِلّاً فكَسَبه .

ولم يتزوَّجْ أبو بكـر في خلافتـه امرأة ولا اتَّخَـذ سُرِّيَّـة ، ولا تَفكه بشيءٍ ، ولا آثرَ لذّة إن كان له طلقاً مباحاً .

[٢٩ ـ تقاضي علي عمالته من الخزينة على عكس أبي بكر]

ثم الـذي كان من أبي بكـر في عمالتـه : أنَّه كلَّف بني تيم ومَن عِنـده أيادبـه ومِنَّـه أنْ يرُدوا مـا أخذ من بيت المـال فيه ، لكي يجعـل عُمالتـه لله . وعلى ذلـك

احتذى عمر . وقد كان عليٌ يأخُذ عُمالته ، ولم يُخبرنا أصحابُ الآثار أنّه ردُّها في بيتِ المال ، ولا كلّف ذلك بني هاشم في وصيّة . وهذا ما لا يختلف فيه رجلان من أصحاب الآثار ، وحُمّال الأخبار .

وقد كان أخذَ لَقُوحاً وَحَبشيّة لرضاع بعض ولده فردّ ذلك في بيت المال .

ولما بايعَ النّاس أبا بكر غدا على سُوقِهِ كما كان يفعل ، فقالوا : فلا بدّ أن نجعلَ لخليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً يُقيمه . قالوا : بُردَيْه إذا أخلقَهما وضَعَهما وأخذ مكانَهما ، وظَهرَه إذا سافر ، ونفقته على أهله كما كان يُنفق قبلَ خلافته . قال : رضيت. فجمع ذلك كلّه وحَفِظه ، ثمّ أمَرَ بني تَيم فردُّوه في بيت المال . فخرج من الدُّنيا خفيفَ الظّهر ، خميصَ البطن . فلمّا فعل ذلك قال عمر : رحم الله أبا بكر ، لقد شَقّ على مَنْ بعده !

فإن قالوا : أوليس قد كان عليٌّ يَنْضَح بيتَ المال في كلّ جُمعةٍ ويصلي فيه ركعتين ؟

قلنا: إنّا لم نكُنْ في ذكر الأمانة والخيانة ؛ لأنّ أبا بكرٍ وعلياً يرتفعان عن هذا الضّرب من المديح ، وعن هذا الضّرب من الثناء ، وإنّما كُنّا في ذكر الزُّهد في المباح ، وفي الإيثار والرَّفض للفُضول ، لأنّ بينَ الرّجُل يُعطى مالَه وعليه ، وبين مَنْ يُعطِي ما عليه ولا يعطى ما له فرقٌ .

[٣٠ ـ أنزلت الآي في أبي بكر تكريماً له]

ومما يدلُّ على فضله أنّ الله أنزلَ فيه من القرآن ما لم يُنْزِلْه في أحد من المهاجرين والأنصار . كلّ ذلك يخبر عن فَضْله ، ويدل فيه على مكانِهِ منه ، ويُثني عليه ويزكّيه ويعظّمه . وليس مَنْ أفردَ اللّهُ فيه الآيَ ، وأفردَه بالذِّكر كمن ذكره في جُملة المؤمنين ، وجُمهور الأنصار والمهاجرين .

ولا سبيل إلى المعرفة بأنّ الله عَنَى بآيةِ كذا وآية كذا فلاناً دون غيره إلاّ

بضربَين : إما أن يكون اسمُه وخاصّةُ نسبه ونعته مسطوراً في الآية ، كما ذكر فرعونَ وأبا لهب ، وفلاناً وفلاناً ، وكما ذكر آدمَ ونوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلى الله عليه وعليهم .

أو يكون المرادَ بالآية وإن لم يذكر اسمُه ، كما ذُكِر لقمان ، وزيدٌ . [وزيدٌ] مشهور النسب معروف القِصّة أنّه المراد بالآية ، وبشهرة القصّة والنّسبة حتّى لا يكون بين أهل ذلك الدّهر في ذلك تنازع ، ولا بين أصحاب التأويل والأخبار في دهرنا هذا ، فيكون كأنّه مُسمىً وإن لم يُسَمَّ .

وقد كانت تحدُث بين الناس أمورٌ فيَنزل القرآنُ عِقب ذلك، فيعلم المهاجرون والأنصار مَن المرادُ بهذا التنزيل . كالذي كان من شأن عائشة وما قُرِفت به ، حتى أنزل الله لذلك السبب آياً كثيراً ، وإن لم يكن الله سمّى عائشة ولا مَن قرَفها . وكالذي نزَل من القرآن في قصّة الغار وهجرة النبي صلى الله عليه وأبي بكر ، وهرَبهما من قُريش ، ونُصرة الله لهما .

[٣١ ـ آية الغار]

فكان ممّا أنزل الله في أبي بكر من تفضيله وتزكيته وإنْ لم يُسمِّه قولُه لجميع المؤمنين : ﴿ إلاّ تَنصُروهُ فقدْ نصَرَه اللّهُ إذْ أخرَجه الذين كَفروا ثانيَ اثنين إذْ هما في الغَار إذْ يقولُ لصاحبِهِ لا تحزنْ إنَّ اللّهَ مَعنا فأنزلَ اللّهُ سَكينَتَه عليه وأيّده بجنُود لم تَرَوْها وجعَلَ كلمةَ الذينَ كفَرُوا السُّفْلى وكلمةُ اللّهِ هيَ العُلْيا ، والله عزيزٌ حكيم ﴾ .

فلا يخلو قولُه : ﴿ إلاّ تَنصُروه ﴾ من أحد وجوه : إمّا أن يكون خاطَبَ به المشركين عامّةً ، أو خصَّ به الخاذلين العادين والباغين ، أو يكون خاطب به المؤمنين .

ولا يجوز أن يكون عَنى به المشركين ؛ لأنه لا يجوز في الحكمة وفي المعروف

من البيان أنْ يقول الرجل الحكيمُ المبين ، للعدوّ الكاشف بعداوته ، المظهر لِضغنهِ ، الباذل لرأيه وماله ، المعاند في فعله : إلّا تنصروني فقد نصرني فلان ! لأنَّ النصرَ لا يُلتَمس من العدو المكاشِف، وإنما يُلتَمس من الوليّ أو من الخاذل .

وكيف يقول هذا وإنّما غايته الانتصارُ منه بغيرة .

وفي قول الله عز وجلّ : ﴿ إذ أخرَجه الذين كفروا ﴾ دليلٌ أنَّ المخاطَبَ بالكلام غيرُ الذين كفروا به وجَحَدوه وأخرجوه . ولا يجوز أن يكون عنَى الخاذلين له من قُريش ومُشركي مكّةَ إلّا والخاذلون قد كانوا هناك معروفين ، بائنين من العادين المتوثّبين المُبادين بالعداوة ، المظهرين للمحاربة . ولا نعلمهم كانوا ببطْن مَكّة صِنفَين متمايزَين ، [و] فريقين متباينين ، حتّى يكون كلُّ حزبٍ مشهوراً بالذي هو عليه من الخِذْلان والعداوة . وليس بطنٌ من بطون قريش إلا وقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم منه أعظمَ المكروه وإنْ كانوا في ذلك على طبقات : من مجتهدٍ لا يُبقِي ، ولا يَفتر ولا يسأم ، ومن رجلٍ مائلٍ معهم بضَلعه مُتّبِدٍ معهم لضرّه وإن كان لا يبلغ غلوُّ الآخر وتصميمه وقلة إغفاله .

ولقد كانت خُزاعةُ وثَقيفٌ على بعد أنسابها وأرحامها أحسَنَ تقيّةً من قريش في إظهار العداوة ، والإرصاد بالمكروه ، والثَّبات على البغي ، كالذي بلَغَكَ عن الأخنس بن شَريق وعُروةَ بن مسعود ، وبُدَيلْ بن ورقاء ، مِن رُكونهم إلى الصُّلح وحبِّهم للسلامة ، مع قلّة التسرُّع والتوثُّب . على أنّهم قد أجلبوا وطعنوا ، وكفروا وكذَّبوا ، بعد الإفصاح لهم بالحجّة ، والإبانة لهم عن المحجَّة .

ولقد كان أبو لهب على قربه وقرابته ، شبيهاً بأبي جهلٍ في الغِلظة والقسوة والجفاء ، وكثرة التَّذرّي ، وقلّة السآمة .

ولم يكن أبو طالبٍ يوم نزلت هذه الآيةُ حيّاً مقيماً فيكونَ الله جلّ ذكرُه عنَاه فيمن أطاعه من رهطه بهذا الكلام . على أنّه لو كان حيّاً لقد كان معلوماً أنّه لم يكن هنالك أحدٌ أحسنَ ذبّاً ، ولا أشدُّ نصراً ، ولا أظهرَ مَعونةً ، ولا أشدُّ حمايةً منه .

ولم يكن اللّهُ لِيُعرِّف قوماً موضعَ الخلّة في النُّصرَة ، والتقصير في المدافعة ، إلاّ وأدنى منَازِلهم أن يكونوا مُقْرِنين لمن ناوَأهم ، مضطلعين بدفع من شاقّهم .

ولا نعلم يومَ كانت هذه القصّة ، ونزلت هذه الآية ، وبمكّة رجلٌ من بني هاشمٍ مطاعٌ متبوعٌ غير العبّاس بن عبد المطلب . ولا يجوز أن يقول الله للعباس ومَن كان في ذَرَاه ممّن يسمعُ له وينْفذ لأمره : ﴿ إلاّ تَنصُروه فقدْ نَصَرَه الله ﴾ ، وقد علم أنّ العباس وأشباهَه من مشْيَخة بني عبد مناف لا أعوانَ لهم يومئذ من بني عبد مناف ، لأن بني عبد مناف دِنيا على قربهم وقرابتهم ، كانوا أشدَّ الخلق على رسول الله ، كأبي سفيان بن حرب ، وعُقْبة بن أبي مُعَيط ، والحكم بن أبي العاص ، وأبي أحيحة ، وعُتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وفلان وفلان . ولم تكن أميّةُ انمازت في ذلك الدهر من هاشم ، وكان يقال للحيَّين : عبد مناف . [و] كان من أمر عُثمان الذي بَلغك .

فقد دلّ الكلامُ على أنّ الله إنّما عَنى بالآية المؤمنينَ دون الكافرين ؛ إذ كانت مخاطبةُ العادي والخاذل على ما وصفنا . وليس أنّه أراد تأنيب المؤمنين وتقريع المهاجرين ، ولكنّه أخبر عن تقصيرهم عن فضيلة أبي بكر إذ ظعنوا وأقام . وليس النُّقص في الفضل كالنُّقص في الفرض . فكأنّه تعالى وعزّ قال : لو كنتم صبَرتم مع نبيّكم ، ما أقام ، إلى وقت الإذن كصبر أبي بكر معه ، ولم تخرجوا هاربين جازعين ، ولدار نبيّكم مهاجرين ، كانَ أشدَّ لصبركم ، وأكملَ لرغبتكم ، وأتمّ لتقيّتكم . وليس أنّكم عَصَيتم في خروجكم ، ولكن بعض الصّبر والاحتمال أفضلُ من بعض ، وكذلك الطّاعة تطوُّعها وفرضُها . كما قد علمتم أنّ بلالاً وخبّاباً وعماراً حين فضَحهم المشركون عن دينهم جزع عمّارٌ وأعطاهم الرِّضا ، مع انطواءِ قلبه على الإخلاص ، وثَلَج صدرِهِ بالإيمان ، ولكنّ عزْمَه كان منقوصاً عن التمام ، من غير أن يكون ذلك عِصياناً ولا خِلافاً . ويدلك على ذلك قول الله : ﴿ إلاّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلبُه مُطمَئنٌ بالإيمَان ﴾ . ولذلك قال النبي صلى الله عليه لعمّار : « إنْ عادُوا فعُدْ » يريد به التّوسِعَة والرُّخصة والإطلاق ، وليس على الأمر والترغيب .

وكما بلَغَكَ عن الرَّجلين الواردَين على مُسَيْلمة ، حين قال لأحدهما : أتعلم أنّي رسولُ الله ؟ قال : نعَم . قال : أفتعلم أنّ محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فأمَرَ به فقُتِل . وقال للآخر : أتعلم أنّي رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فتعلَم أنّ محمداً رسولُ الله ؟ قال : [لا] فأمر بتخلية سبيله . فلما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه قال : أمّا الأوّل فمَضى على عَزْمه ويقينه فهنيئاً له ، وأمّا الثّاني فأخذ برُخصة الله فلا تَبِعةَ عليه .

فعلى هذا المثالِ كان تقصير القوم ، لا على وجه الخِلاف والمعصية .

وذلك أنّ أبا بكرٍ أقام بمكة ما أقام النبي صلى الله عليه وسلم ، وهاجَرَ الناسُ الأوّلَ فالأوّلَ ، فبعضٌ أتى المدينة ، وبعضٌ أتى الحبشة ، حينَ اشتدّ عليهم البلاء وطالَ الذُّلّ وقلّ الناصر ، وقَويتِ الضَّغائن ، فكان النَّفر بعد النَّفر ، والرَّجل بعد الرجل ، يستأذن النبيَّ صلى الله عليه وسلم في الهجرة فيأذَن له . وأقام أبو بكرٍ وحيداً لا أنيسَ له ، وذليلاً لا ناصر له ، وخائفاً لا أمانَ معه ، في كلِّ يومٍ يزدادون عليه قوّة ويزداد عنهم ضعفاً فإذا بلَغَ وبلغ المجهود ، ولم يبق في قُواهُ فَضلٌ يستعين به على الصَّبر ، استأذن النبيَّ صلى الله عليه وسلم في المضيّ إلى إخوانه واللّحاق بهم ، فيقول له : « لعلَّ أن يجعَل لك صاحباً » فيزداد بها أبو بكر قوّةً ، وتحدثُ له بها همّة . وهذه كلمةٌ ما قالها النبيُّ صلى الله عليه لمستأذنٍ قبلَه ، فيعلم أبو بكر عند ذلك أنّ النبي صلى الله عليه وسلم إنّما عناه ؛ فيُشجِّع من نفسه ، ويشُدُّ من مُنّتِه ، طمعُه في شرف الصُّحبة ، وإكرامه إيّاه بفضيلة المرافقة .

وقد استأذنَ النبيُّ صلى الله عليه الناسُ [قبله] بسِنِين ، فكان أوّلهم أبو سلمَةَ بن عبد الأسد ، وآخرهم عمر بن الخطاب ، لقُرب حالِ عمر في الفضل والصَّبر من حال أبي بكر . فكأنّه خاطَبَ المهاجرين ، على التعريف لهم بفضيلة صبر أبي بكر على صبرهم ، مَشْحَذةً لهم على إعطاء الجُهد ، وترغيباً لهم في غاية الصَّبر في مستقبل الأمور وحوادث الامتحان . فكأنّه قال : إذا لم تستتمُّوا

الصبر ، ولم تبلغوا غاية الجهد ، ولم تصبروا ما أقامَ ، فقد نصرتُه أنا إذ أخرجتُه ثانيَ اثنين .

والدليل على ما قُلنا قولُ عمر لقريشٍ حين بادأهم العداوة ، ونَصَب لهم الحرب ، واحسَّ من نفسه بالجَلَد وشدّة الشُّكيمة، وقوّة العزيمة : « أما والله أنْ لو قد صِرنا مائةً لتركتموها لنا إن تركناها لكم » يعني مكّة .

فلو كان جميعُ من هَاجر إلى الحبشة وإلى المدينة على مِثل هذا العزْم والاحتمال والدَّفع ، وهم جميعٌ ، لكانَ ذُلُّ من أقام ووَحشتُه أقلَّ ، ونفوسُهم أطْيَب .

والدَّليل على فضيلة مُقامِ أبي بكرٍ على ظَعْنهم أنَّهم حيثُ هاجروا ونَزَلوا بالنجاشيِّ والأنصار فنزلوا بأكرمِ مَنزولٍ به ، فكانوا في ذَرَاهُ آمنين ، رافهين وادعين ، إلاّ ما كان من قِصَّة جعفرٍ ، وسعاية عمرو ، وإحماش النَّجاشيِّ وتهييجه . فما كان ذاك إلاّ صَدْرَ نَهار حتّى جعلَ اللّهُ العاقبة للمتّقين . وأبو بكر والنبي من الوَحدة والقِلّة ، والجَفْوة والوَحْشة ، وخِفَّة ذات اليد ، والسَّبِّ والإهانة ، والخوف بالقدر الذي لا يأتي عليه قَولٌ وإن كثُر ، ولا يبلغه وهمٌ وإن اتَّسع .

وهكذا روينا عن الضَّحّاك وقتادة وأبي بكر الهُذليّ في تأويل هذه الآية : أنَّ الله عاتَبَ جميعَ المؤمنين بها غير أبي بكر . ولو لم يَكُنْ [رأويه] ولم يفسِّر ذلك صاحبُ تأويل ، لم يَجُزْ أن يكون تأويلُه غيرَ الذي قلنا ؛ للذي شَرحْنا وفَصَّلنا .

ولو كانت هذه المخاطبةُ وقعَتْ على الخاذلين والعادين ، أو على الخاذلين دون العادين والمؤمنين ، لقد كان لأبي بكر في الآية ما ليس لأحد ، فكيف بها إن كانت في المهاجرين ؛ لأنَّ في قوله « ثانيَ اثنين » معنىً عظيماً ، وفي قوله : ﴿ فأنْزَلَ الله سَكِينَتَه ﴾ معنىً عظيم .

فإن قالوا : كلُّ ما عظَّمتم فعظيم ، ولكنَّ بعضَه لا يجوز إلا للنبيِّ صلى

الله عليه دون أبي بكر ، وهو قوله : ﴿ فأنْزَلَ الله سَكينته عليه ﴾ .

قيل لهم : استكرهتم التأويل ، وصَرفتم الكلامَ عن سننِه ، وغيرُ تأويلكم أشبهُ بكلام العرب ، وأظهر في بيان الخُطباء ، ومراجعة الحكماء . وذلك أن النبيّ صلى الله عليه كان هو الرّابط الجأش ، والثّابت الجَنَان ، السّاكن النَّفس ، وهو المعزّي لأبي بكر ، والمسَهِّلُ عليه شدّة حُزنه ، والمطيِّب لِنفسه ، والمسكِّن لحركة قلْبه ، للذي رأى وعايَنَ من اكترائه ومن اضطرابه ، وقِلّة سكينته . وهذه الحالُ التي فيها قُلِّبَ النبي صلى الله عليه وخليفته ، وأبو بكر على ما وصَفْنا وفرقْنا ، هي الفاصلة بين النبيّ صلى الله عليه وبين خليفته ، إذْ كان الخليفة قد شارك النبيَّ صلى الله عليه في حضوره واحتماله ، وبان منه النبي صلى الله عليه بشدّة عزمه وسَعَة صَدْره ، وسُكون قلبه ، كالفصل الذي بين الخليفة ووليّ عهده .

وكذلك تعجّل عمرُ الهجرةَ قبل أبي بكر ، فكان بذلك أنقصَ فضلاً منه . وتأخّر بعد المهاجرين، فكان بذلك أتمَّ فضلاً منهم .

وفي قول الله : ﴿ إذ يَقُول لصاحِبِهِ لا تَحزَنْ إنَّ الله مَعَنا فأنزَلَ اللّهُ سكينَتَه عليه ﴾ دليلٌ على أنَّ السَّكينة نَزَلَتْ على صاحبه ، وأنَّ الهاء التي في « عليه » مضمرٌ فيها صاحبُه . ولا يشبه أن تكون السُّكينة نزلَتْ على مَنْ لم يَخْلُ من السَّكينة وقِلّة الاضطراب ، وعلى المسهِّل على صاحبه والمطيِّب لنفسه والمبشِّر له بالنَّصر ، حين يقول : ﴿ لا تَحْزَنْ إنَّ اللّهَ معنا ﴾. وهو كما أخبر أبو معاويةَ الضَّريرُ ، عن عبد العزيز بن سِيَاهْ ، عن حبيب بن أبي ثابت : في قول الله : ﴿ فأنزل اللّهُ سَكِينَتَه عَلَيه ﴾ قال : على أبي بكر ، فأمّا النبي صلى الله عليه فقد كانت السكينةُ عليه من قبل ذلك .

فإن قالوا : فكيف وقد قال الله على نَسَق الكلام : ﴿ وأيَّدَهُ بِجنودٍ لم تَروْها ﴾، والمؤيِّد بالجنود في هذا الموضع لا يجوز أن يكون إلاّ النبي صلى الله عليه ، لأنَّ الجنودَ الذين عَنَى اللّهُ ملائكتُه .

قيل لهم : وما تنكرون أن يكون الله أيّدَ رجلاً بالملائكة ، بشفاعة النبي

صلى الله عليه وبشارته وبحقِّ صُحبته ، كما أيّد اللّهُ جميعَ أهلِ بدرٍ بالملائكة ، وكما زعموا أنَّ الملائكةَ نزلت في زِيِّ الزُّبير ، وليس أنَّ الله حين أيّد أبا بكر بالملائكة أنّه أراه جبريلَ وميكائيل ، ولكن ليعلمه النبي صلى الله عليه أنَّ بحضرته ملائكةً قد أرسلَهم الله ليمنعوه من المشركين ، ليَسكُن بذلك رَوعه ، وتهدأَ نفسُه ، وليثقَ بحضور النَّصر وتعجيل الدَّفْع .

وقد علِمْنا أنَّ الله لم يجعل مع كلِّ مؤمنٍ مَلَكين يكتبان خيرَه وشرَّه استذكاراً ، ولكنَّ المؤمن إذا شَعَرَ بمكانهما كان أقطعَ له عن ركوب الأدناس ، وأدْعى له إلى الاستحياء ، وليعلمَ أنَّ الأمر جِدٌّ وليس بهزل .

فكذلك إحضار الملائكة لأبي بكرٍ ، ليكون بِشارةُ النبي صلى الله عليه لهْ بذلك تسكيناً لنفسه ، وتعجيلاً لبعض ما استحقَّ بالاحتمال والمواساة والصبر ، من الثَّواب المعجَّل دون المؤجَّل .

ولقد بلَغَ من ظهور قصة أبي بكر وصُحبته ومُرافقته وكَونه مع النبي صلى الله عليه في الغار ، أنَّ الرَّوافض مع شدة الإقدام ، والجُرأة على تكذيب النَّاقلين ، لم تقدر على دفعه وردّه ، حتّى قال منهم قائلون : إنَّما أخرجَه النبيُّ صلى الله عليه خوفاً من أن يَدلَّ عليه ويسعى بأمره إلى أعدائه ، لأنّه كان حَسَّ من النبي بالهجرة ، وعَرَف ميقاته الذي عزَم عليه .

وكيف يجوزُ أنْ يخاطبَ الله الناسَ فيقول : ﴿ إلاَّ تنصروه فقَدْ نَصره الله إذْ أخرجَه الذين كفروا ثانيَ اثنين ﴾ والذي به كان النبي صلى الله عليه بائناً قد آبَرَّ على الأعداء وأربَى على الكُفّار ، لأنَّ النِّفاق أعظمُ من التَّصريح .

وهذا ما لا يجوز في عَقل ، ولا يَسنَح في فكر ، ولا يجوز في التَّعارف ، ولا يليق بالبيَان .

وكيف واللّهُ يقول على اتّصال اللّفظ باللفظ والمعنى بالمعنى ، وتركيب الآية الأخرى على الأولى : ﴿ وجَعَلَ كلمةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وكلمةُ الله هي

العُلْيا ﴾ .

ولا كافرَ أعظمُ كفراً ، ولا أشدُّ عنوداً مِن ثانِيه وصاحِبه في الغـار ، ورفيقه في الطريق ، والمَعزِّي لشدة حُزْنه ، إنْ كان الشأنُ على ما قالوا وكما وصَفُوا .

وإنما المنافَقة أن يكون الرجل معتقداً لجحد الرسول وعداوته ولكن الرسولَ هو الغالب على داره القاطع لمن باداه بالعداوة ، وناواه في الفضيلة ، فإنما يستبقي نَفسَه بنفاقه ، وبتزميل حقده ، وإخفاء ضِغْنه . فأمَّا رجلٌ مقيم بمكّة قليلٌ مُفْرد ، وذليل مطَرَّد ، وخائف مشرَّد ، بين استخفاءٍ يَعْدِل الموت ، أو هرب يقطع الأحشاء ، والذي هرب معه مقهور مخذول ، والغالب على داره عدوُّه ، فكيف كان أبو بكر منافقاً والحال على ما وصفنا ؟ !

ولولا كثرةُ الفساد وما عمَّ النَّاسَ من الغَلط وفُحْش الخطإ ما كان لذكر هذا وشِبهه معنى .

والأثر المجتَمَع عليه من أصحاب السِّير والأشعار والأخبار ، أنَّ النبي صلى الله عليه قال لحسَّان : أمَا قلتَ في أبي بكر شيئاً ؟ فأنشأ يقول :

إذا تذكرتَ شَجْواً من أخي ثقةٍ ... فاذكر أخاك أبا بكرٍ بما فعلا
التَّاليَ الثانيَ المحمودَ مشهدُه ... وأوّلَ النَّاسِ منهم صدَّق الرُّسلا
وثانيَ اثنينِ في الغارِ المنيفِ وقد ... طافَ العُداةُ به إذْ صعَّد الجبلا
خيرَ البريَّة أتقاها وأطهرها ... إلاّ النبيَّ وأوفاها بما حملا

فجعله تالياً ، وثانياً ، وصاحباً .

وقال أبو محجَن :

وسمِّيتَ صدِّيقاً وكلُّ مهاجرٍ ... سِواكَ يسمَّى باسمه غير منكرِ
سبقتَ إلى الإسلام والله شاهدٌ ... وكنتَ جليساً بالعريش المشهَّرِ
وبالغار إذْ سمِّيت بالغارِ صاحباً ... وكنتَ رفيقاً للنبيِّ المطهَّرِ

فجعله سابقاً وصِدِّيقاً ، وجليساً وصاحباً .

وقال كعب بنُ مالك :

سبقتَ ، أخـا تَيـمٍ ، إلى دينِ أحمـد وكنتَ لدى الغِيران في الكهف صاحبا

فجعله سابقاً ، وجعله صاحباً .

وقال النَّجاشي :

غـداةَ أتى بـدراً وخيرُ جِلادُهم وكـان جليسـاً بـالعـريش مُؤازرا

فلو لم تكن لـه مـأثُـرةٌ إلاَّ مـا دلّت عليـه هـذه الآيـة ، وإلاَّ شرفَ هـذه الصُّحبة ، ومَوقع هذه الخاصة ، ونُبل هذه المرافَقة ، ومَشاهدِ الثِّقة ، لكان فوقَ الجميع في المكانة والفضيلة ، وفي مُرافقة النبي صلى الله عليه .

سمعَ أهلُ مكة الهاتفَ بالليل على قَرْن الجبل وهو رافعٌ عقيرته ، يقول :

جَـزَى الله ربُّ الناس خـيرَ جَـزائـه خـليـلَيْنِ صَفَـاءٍ طُـرًّدا كـلَّ ـطردِ
هُـمـا نَـزَلا في الصُّبْـح ثُمَّتَ هَـجَّـرا وأفـلحَ مَـنْ أمسَى رفـيـقَ محـمَّـد
لِيَهنِىء بني كـعبٍ مـكـانُ فـتـاتهـم ومَـقـعـدُهـا لـلمؤمنـيـن بمـرصـدِ

وقال الحارث بن هشام :

رفيقـان في المحْيَـا وفي المـوت ضُمِّنـا بـأكـرم مَـثْـوى منـزل ومـكـانِ

فهذا هذا .

[٣٢ ـ آية الصفح عن مسطح بسبب قرف عائشة]

ثم الذي كان من قِصَّة مِسْطَح بن أُثاثة وقَضيَّته ، وكان ربيبه وابن خالته ، وفي مَؤونته وتحتَ جناحه ، فلما قُرِفت عائشة بالذي قُرِفت به وبَلَغك ، آلى أبو بكر ألاَّ ينظرَ في وجهه ، ولا يُنفقَ عليه ولا يَكفُلَه ولا يَمُونَ عِيالَه ، فلمَّا أنزل اللهُ

عذرَ عائشة وبراءتَها ، ولم يَرضَ لها بالطَّهارة والعِفّة حتّى جعلَها غافلة ، فضلاً على أن يكون خطَرَ ذلك على بالها فتنفيَه ، إيثاراً للحلال على الحرام . وأنزل الله على رسوله صلّى الله عليه في آية يأمر أبا بكر بالصَّفح عن مِسْطَح ، والتّجاوزِ عن ذنْبه، وتغمُّدِ ما كان منه، وأن يُعيدَه في كنفه وعياله ، فقال : ﴿ ولا يأتلِ أولو الفَضل منكم والسَّعة ﴾ . فما ظنُّك بأمرئٍ يقول الله له وفيه هذا القول ، ويصفُه بهذه الصِّفة حتى يقول : ﴿ ولا يأتلِ أولو الفضل منْكم والسَّعة أن يُؤتوا أولي القُربى والمساكينَ والمهاجرين في سبيل الله وليَعْفُوا وليَصْفحوا ألاَ تحبُّون أن يَغفِر اللّهُ لكم والله غفورٌ رحيم ﴾، فتلاها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على أبي بكر . فلمّا انتهى إلى قوله : ﴿ ألاَ تحبُّون أن يغفر الله لكم ﴾ قال أبو بكر : بلى يا ربِّ ! فعفا عنه ، فوجبت له المغفرة ، وأعاده إلى نعمته ، وجعَل عيالَه في حَشاه وتحت ظلّه .

فمنْ أعظمُ قدراً منْ رجُل يفرد الله له الآيَ فيه معظِّماً لشأنه ، ذاكراً لفضله على لسان جبريل ومحمد عليهما السلام . فهذا هذا .

[٣٣ ـ آيات أخرى في أبي بكر]

وقد أجمع أهلُ التّأويل على أنّ الله عنَى بقوله : ﴿ والذي قَالَ لوالديهِ أُفٍّ لكما أتعدانِني أنْ أُخرجَ وقد خلت القُرونُ منْ قبلي وهما يَسْتَغيثان الله ويلكَ آمنْ إنَّ وَعْدَ الله حقٌّ فيقولُ ما هذا إلا أساطيرُ الأولين ﴾ أبا بكرٍ ، وعبدَ الرحمن بن أبي بكر ، وأُمَّه .

وكان أبو بكر وأهلُ بيته أهلَ بيتِ إسلام : كان هو مسلماً ، وامرأتهُ مسلمة ، وأبواه مسلمان ، وبناته مسلمات . وليس في العَشَرة الذين قال لهم النبي صلى الله عليه إنّهم في الجنة ، ولا في قُريش قاطبةً رجلٌ مؤمنٌ مؤمنُ الأبوين غيرَ أبي بكرٍ الصّديق ، ولا في قريشٍ خاصّة والمهاجرين عامة صاحبُ ابن صاحبِ ابن صاحبٍ غير عبد الله قتيل الطائف ابن أبي بكرٍ الصُّدِّيق ، ابن

أبي قُحافة المسلم يوم مكّة ، والقائل فيه رسول الله صلى الله عليه لأبي بكر : « فهلاّ تركت الشيخ في منزله فأتيناه ! » . وله صحبة .

واجتمع أهل التأويل على أن قوله : ﴿ أفمَنْ يمشي مُكِبّاً على وَجْهه أهْدَى أمْ مَنْ يَمْشي سَوِيّاً على صراطٍ مُستقيم ﴾ نزلت في أبي بكر وأبي جهلٍ . الا ترى أن أبا جهل رأسُ الكفر فلم يُقْرَنْ به ولم يُوضَع بإزائه من المسلمين إلاّ رأسٌ مثله .

وقال الله : ﴿ فأمّا مَنْ أعْطَى واتّقى وصَدَّق بالحُسْنَى ﴾ الآية ، يعني أبا بكرٍ في إنفاقه المالَ وعتْقِه الرِّقابَ والمعذّبين وقوله : ﴿ كذَّب وتولَّى ﴾ يعني أبا جهل . وليس في الأرض صاحبُ تأويلٍ خالفَ تأويلنا ولا ردّ قولنا انَّ هذه الآية نزلت في أبي بكر .

وأما قوله : ﴿ قُلْ للمخلَّفين مِن الأعراب سَتُدْعَوْن إلى قومٍ أُولي بأسٍ شديدٍ تُقاتِلونَهم أوْ يُسلِمون فإن تُطِيعوا يُؤْتِكم اللّهُ أجْراً حَسَناً وإنْ تتولّوا كما تولّيْتُم مِن قَبْلُ يعذِّبْكم عذاباً أليماً ﴾ . فزعمَ ابنُ عبّاسٍ أنَّ القومَ الذين ذكرهم بنو حنيفة ، وأبو بكر استنفر إليهم العربَ ، وضمُّهم إلى المهاجرين والأنصار ، حتّى أظفرَ الله يَده وأظهر حُكمَه .

وأمّا غير ابنِ عبّاسٍ فزعم أنّهم فارسُ والرُّوم .

فإنْ كان [ذلك] كذلك فإنَّ أبا بكرٍ هو المستنفر إلى قتال الرُّوم . وإن كان عمر هو المُقاتل لكسرى فإنّ ذلك راجعٌ إلى أبي بكرٍ بتأميره لعمر واختياره له .

وقد زعم جُوَيْبر عن الضَّحّاك في قوله : ﴿ يا أيُّها الذين آمَنوا اتّقُوا الله وكُونُوا مع الصّادقين ﴾ . قال : أبو بكرٍ وعمر .

وقد زعم وَكيعٌ عن الفضل بن دَلْهَم ، عن الحسن في قوله : ﴿ فسوف يأتي الله بقومٍ يحبُّهم ويُحبُّونه ﴾ ، قال : هم والله أبو بكر وأصحابه .

ومثل هذا كثير ، ولم يجيء المجيءَ الذي يحتجُّ به المنصف والمرشد ، ولكن

الحجة القاطعة في إجماع المفسّرين في الآيات التي ذكرناها قبل في قصّة الغار ، والنّصرة ، وفي قصّة مِسطَح ، والعفوِ عنه والإنفاق عليه ، وفي قصّة عبد الرحمن ابن أبي بكر وأبويه ودعائهما له إلى الإسلام وردّه عليهما ، وقصّة أبي بكر وأبي جهل .

[٣٤ - آية طاعة الرسول وأولي الأمر ليست في علي وحده]

وقالت (العثمانية): فان زعمت الرّافضةُ أنّ الله أنزلَ في عليٍّ آياً كثيراً، فكان ممّا أنزل فيه وفي ولده قولُه: ﴿أطِيعُوا اللّهَ وأطِيعُوا الرّسولَ وأُولي الأمرِ منكم﴾. فاولي الأمر عليٌّ وولده. فلَعمري لئن كان أصحاب الأخبار قد أطبَقُوا على أنّها نزلت في عليٍّ وولده إنّ طاعتهم لواجبة . وإن كان هذا شيئاً تقوّله متقوّل ، او جاء من وجه ضعيف ، فهو مع ضَعْفه شاذٌّ ، وليس في ذلك لكم حُجّة ، لأنّ الحديثَ قد يحتمله الرجلُ الواحد الثّقةُ عن مثله ، فيكون شاذّاً ، ما لم يكن مستفيضاً شائعاً قد نُقِل عن المستفيض الشائع . وقد يكون الحديث يحتمله الرجلان والثّلاثةُ وهم ضعفاء عند أهل الأثر فيكونُ الحديث ضعيفاً لضعف ناقليه ، ولا يسمُّونه شاذّاً ، إذا كان قد جاء من ثلاثة أوجه . وإنّما الحجة في المجيء الذي يمتنع فيه العَمدُ والاتّفاق . وهذا الجنس من الخبر هو الإجماع .

وليس يكون الخبر إجماعاً من قِبَل كثرة عدد الناقلين ، ولا من قِبَل عَدالَة المحدِّثين ، وإنّما هو العددُ الذي نعلم أنّهم لم يتلاقَوْا ولم يتراسَلُوا ولا تتّفق ألسنتهم على خبرٍ موضوع ، مع اختلاف عِللهم وأسبابهم ، ثمّ يكون معلوماً عند سامع ذلك الخبر من ذلك العدد ، أنهم قد نقلوه عن مثلهم في مثل أسبابهم وعِلَلهم .

فإذا كان معلوماً أن فرعه كأصله كان ذلك موجباً لليقين، ونافياً لعُروُ الشّك واستِرابة التقليد .

وهو كنحوِ ما نقلوا من قصّة الغار ، وقصّةِ مِسطح .

فأمّا ما قالوا وادّعوا أنّ الله عنى بقوله : ﴿ أطيعُوا الله وأطِيعُوا الرَّسولَ وأُولِي الأمر منكم ﴾ عليّاً وولده دونَ جميع المهاجرين ، فليس من شكل ما اشترطْنا ، ولا من فَنِّ ما بيّنّا ؛ لأنّ أصحاب التأويل زعموا أنّها نزلت في عُمّال النبي صلى عليه وسلم ووُلاته ، وفي المسلمين ، وفي أصحاب سَراياه وأجنادهم كالعلاء بن الحضرميّ ، وأبي موسى الأشعريّ ، وعتّاب بن أسيد ، وخالد بن الوليد ، ومُعاذ بن جَبَل ، يأمرُ النّاسَ بطاعة الأُمراء والتّسليم لوُلاة أمورهم .

[حدث] عيسى بن يونس بن أبي إسحاق السّبيعي قال : حدثنا عبد الملك بن أبي سليمان قال : سألت أبا جعفرٍ محمد بن علي عن تأويل قول الله : ﴿ أَطِيعُوا الله وأطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الأمرِ منكم ﴾ فقلت : من أُولو الأمر ؟ فقال : هم أصحاب محمد . قلت : إنّهم يزعمون أنّه علي . فقال : عليٌّ منهم .

وهذا مِن أثبت وأحسن ما يَروُون في تأويل هذه الآية ، ومِنْ أحْرَى ما جَمَع الفريقين على تقبُّله والرِّضا به ، إذ قائلهُ العالِم المقبول عند الفريقين ، والرئيس الذي لا أحَدَ فوقَه في عصره عند الرُّوافض .

وزعم محمد بن السّائب الكلبي ، عن أبي صالح ، عن ابن عبّاس ، أنّ الله أنزلَها في عبد الله بن حُذافةَ السّهمي .

فإذا كان تأويلُها مشهوراً بما ذكرنا من الاختلاف ، فليس فيها للمتشيِّع حُجّة .

[٣٥ ـ آية الدخول في السلم ليست في علي]

وزعموا أيضاً أنّ الله أنزلَ في عليٍّ : ﴿ يا أيُّها الذين آمَنوا ادْخلوا في السِّلْمِ كافّةً ﴾ يقول : في طاعة علي .

والكلام في هذا كالكلام فيما قبْله : لأنّ أصحاب الأخبار والتأويل لا يعرفون ذلك .

والخبر المشهور عن الكلبيّ عن أبي صالح عن ابن عبّاس وغيره أن الله أنزلها في ناس من مُسلمي أهل الكتاب ، كانوا بَعد إسلامهم يُقيمون السَّبْت ، ويَعافون الذَّبيحة ، لرسُوخ العادة ، وغَلَبَة الإلْف ، فأنزل الله فيهم : ﴿ يا أيُّها الذين آمَنُوا ادخُلوا في السِّلم كافّة ﴾ يقول : ادخلوا في جمع الشريعة ، ﴿ ولا تَتَّبعُوا خُطُواتِ الشَّيطان ﴾ وزينتَه لكم الحكم بإلفِكُم له ، ونُشُوكم كان فيه .

وزعموا أنَّ الله أنزل: ﴿إنّما وليُّكُمُ اللّهُ ورَسُولُه والَّذِين آمَنوا الذين يُقيمون الصَّلاةَ ويُؤْتُون الزَّكاة وهُمْ راكعون ﴾ .

قيل لهم : أمّا ظاهر الكلام فيدلُّ على ما قال أصحابُ التّأويل ، كابن عباس وغيره ، حين زعموا أنّها نزلت في عبد الله بن سَلاَم ، ورهطٍ من مشركي أهل الكتاب ، وذلك أنهم أتوا النبيَّ صلى الله عليه عند الظُّهر فقالوا : يا رسولَ الله ، إنَّ بيوتنا قاصيةٌ ولا نجد مسجداً دونَ هذا المسجد ، وإنَّ قومنا لمّا صدَّقنا اللّهَ ورسولَه عادَوْنا وتركوا مُخالَطتنا ، وأقسَموا ألاّ يُكلِّمونا .

فبينما هُمْ يشْكُون عداوةَ قومِهم لهم إذْ نزلت : ﴿ إنّما وليُّكم الله ورسولُه والَّذِين آمَنوا الذين يُقيمونَ الصَّلاةَ ويُؤْتون الزَّكاةَ وهُمْ راكعون ﴾ . فلمّا قرأها النبيُّ صلى الله عليه قالوا : رضينا بولاية الله ورسوله والمؤمنين . وأذَّن بلالٌ للصلاة ، فخرج النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى المسجد وهم معه ، والناس مِن بينِ راكعٍ وساجد ، وقائمٍ وقاعد ، فتلا النبي صلى الله عليه : ﴿ ومَنْ يتولَّ اللّهَ ورسولَه والذين آمَنُوا فإنَّ حِزْبَ الله هُم الغالبون ﴾ الآية . فإن تكنْ هذه الآية كما قال ابنُ عباسٍ فليس تأويلُ الرَّافضة بأقربِ التأويل .

[٣٦ ـ تأويل آية يقيمون الصلاة ويأتون الزكاة وهم راكعون]

وقد عرفْنا أنَّ تأويل ظاهرِ هذا الكلام يُشبه غير الذي قالوا ، وليس لنا أن نجعله كما قالوا إلاّ بخبرٍ عن النبي صلى الله عليه ، أو بإجماعٍ من أصحاب التأويل على تفسيره . وذلك أنَّ قوله : ﴿ إنّما وليُّكم الله ورسولُه والذين آمنوا

الـذين يُقيمون الصَّـلاة ويُؤتون الـزَّكاة وهُم راكعـون ﴾ يـدلُّ عـلى العـدد الكبـير وأنتم تـزعمون أنّـه عَنَى عليّاً وحـدَه ، وليس لأحدٍ أن يحمـل « الذين » لـواحـدٍ إلاّ بخبـرٍ يُجمَعُ عليه ، فإنْ لم يَقْـدر على ذلـك فليس لـه أنْ يحـوِّل معنى الكـلامِ عن ظـاهر لفـظه ، والذي عليـه التَّعامُـل والتَّعـارُف . ولفظ الجميـع معـروف من لفظ المفرد . لأنَّ الرافضة تزعمُ أنَّ سائلاً دخل المسجد فسـأل النَّاسَ وعـليٌّ راكع ، فلم يُعْطَ شيئاً ، فنزعَ عليٌّ خاتمَه فأعطاه ، فأنـزل الله فيه : ﴿ إنمـا وليُّكُمُ اللَّهُ ورسـولُـه والَّـذين آمَنُوا الـذين يُقيمُونَ الصَّـلاةَ ويُؤْتون الـزَّكاةَ وهُمْ راكعـون ﴾ . وأنتَ إذا سمعتَ بتأويلِ ابن عبـاسٍ وتأويلهم علمتَ أنَّ تـأويلَهم بعيدٌ من لفظ التنـزيل ، قُرْب تأويل ابن عباس منه .

ولو كان الأمر كما قـالوا مـا كان أحـدٌ أعلَم به من ابن عبّـاسٍ ولا أشعَرَ به منه .

وأنتم تزعمون أنّ عليّاً كان أزهد من أنْ يُحُولَ عليه الحولُ وعنده مالٌ راهنٌ يجبُ عليه فيه الزكاة .

ولـو كان ذلـك كذلـك مـا كـان بلغ من قـدر صنيـع رجـل في إعـطاء درهم ودرهمين من زكاته الواجبة ما إنْ يبلُغ به إلى هذا القـدر الذي ليـس فـوقه قَـدْر ، أو يكون كان عليٌّ مشهوراً بإعطاء الزَّكاة وهو يصلِّي .

ولو كان هذا هكذا لكـان مشهوراً مستفيضـاً . وكيف اتَّفق له ألاّ يـزكِّيَ إلاّ وهو يصلِّي ؟ !

وإنْ تـطوَّعَ بإعـطاء الخـاتَم عـلى جهـة الإيثـار والمـواسـاة فليس بمعـروفٍ في الكلام أنْ يكونَ الرجلُ إن تصـدّق بالـدّرهم والدرهمين مُتنفِّلاً ومتـطوِّعاً أنّـه معطٍ زكاة ، لأنَّ الزكاة عندنا ما وَجَب إخراجُه وكان تطهيراً لسائـر مالـه ، وسبباً للنَّـماء والبقـاء . إلاّ أن يُحمَل الكـلامُ الشّـاذّ ، وعـلى أبعـد المجـاز . وليس هكـذا كـلام الحكيمِ يريد أن يدُلّ الأمّةَ على إمامته ، ويوجِبَ عليهم طاعَته .

ولا بـد في هذه الآيـة من أحد ضـربين : إمّـا أن يكون لفـظُها يـدل على مـا

قالوا دونَ ما قال غيرهم ، وإمَّا أن تكون قد نزلت في قصَّةٍ مشهورة لعليٍّ كقصَّة الغار حين كانت لأبي بكر .

فإنْ لم تجدوا إلى واحد من هذين سبيلاً فلم يبق إلاَّ أن تزعموا أنَّ الرسول صلى الله عليه قال للناس : إنَّ هذه في عليٍّ فاعرفوا له حقَّه وفضيلته . ولو كان ذلك كذلك ما اختلف فيه أصحاب التأويل ، ولا قال فيه ابن عباس الذي قال .

قالت (العثمانية) : قد زعمت الرَّوافض أنَّ الله أنزَلَ هذه الآية في عليٍّ فاعرفوا له حقَّه وفضيلته .

ولو كان ذلك كذلك ما اختلف فيه أصحاب التأويل ، ولا قال فيه ابن عباس الذي قال .

[٣٧ - تأويل آية وكفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب]

قالت العثمانية : وقد زعمت الرَّوافض أن الله أنزَلَ فيه : ﴿ قُلْ كَفى بِاللَّهِ شَهيداً بَيْني وبَيْنَكم ومَن عِنْدَهُ عِلْمُ الكِتاب ﴾ .

ولا يجوز أن يقول : ﴿ ومن عنده علمُ الكتاب ﴾ وهو يعني عليّاً إلاّ وعليٌّ قد كان أشهر مَنْ هُناك بعلم الكتاب .

وكيف يكون ذلك وقد تُوُفِّيَ النبيُّ صلى الله عليه وهو لم يَجْمَع الكتابَ بعد ؟ ! وقد زعم الشَّعبيُّ أنه لم يجمعْه إلى أنْ مات .

وكيف يكون من المشتهرين بعلم الكتاب وأنت إذا سألتَ أصحابَ الأخبار والتَّأويل عن أسماء أصحاب التأويل ذكروا ابنَ عبّاس ومَنْ دونَ ابن عباس بطبقاتٍ كالحسن البَصْري ، ومُجاهد ، والضَّحَّاك ، وعِكرمة ، وفلان وفلان وفلان ، ولا يذكرونه في هذا الصِّنف ، كما لا يذكرون فيه أبا بكر وعُمرَ وعثمان ؛ لأنَّهم لم يكونوا بالمشْتهرين بالتَّأويل وحفْظ القرآن ومعرفة معانيه ؛ لأنَّ

غير ذلك كان أغلبَ عليهم منه ، وقد أخَذُوا منه بنصيب . ولم يكونوا كمنْ تَجرَّدَ لمعرفة التّأويل حتّى غَلَبَ عليه كما غلب على زيد بن ثابت الفرائض ، وكما غلب علمُ التّأويل على ابن عبّاس ، وكما غلب كثرة الأسانيد وعددُ الآثار على ابن عُمر وجابرٍ وعائشة ، وكما غلب على أُبيٍّ وعلى عبد الله القراءات .

ولو كان للناس أنْ يقولوا في هذه الآية على الظّنّ وما هو أشْبَهُ لكانَ أولَى الناس بها عبدَ الله بنَ عباس ، لأنه كان أعلمَ النّاس بالقرآن . ولو لم يكن عَرفْنا فضلَه فيه بالذي ظَهَرَ منه ، لعَرَفْنا فضلَه وإنْ بَطَنَ وغاب عن العيان لقول النبي صلى الله عليه فيه : « اللهم فَقِّهْهُ في الدِّين وعلِّمْه التّأويل » . فكيف وقد ظَهَرَ مِن علمه بمعانيه وغريبه ، وإعرابه وقَصَصه وعُحكَمه ومتشابهه ، وخاصِّه وعامِّه ، وناسخه ومنسوخه ، ومكِّيّه ومدنيّه ، ما لم نجدْ عند أحد شَطْره ولا قريباً منه .

وقالت (العثمانية) : إنّه لا يَعجِزُ أحدٌ أن يَعمِد إلى كل آية في القرآن فيدعيَ أنّها في أبي بكر وعُمر كما ادّعيتم ذلك في علي ، وإنما الشّفاء والبَيان في صحّة الشّهادة ، وظُهورِ الحجّة .

[٣٨ ـ تسمية أبي بكر بالصديق دليل على فضله]

وزعمت العثمانية أنّ من الدّليل على فضيلة أبي بكرٍ على عليٍّ أنّ النبي صلى الله عليه سمّاه « الصِّدِّيق » دونَه ، وليس بَعْدَ اسم النّبيّ اسمٌ أنْبَهُ من الصِّدِّيق ، حتّى كان لا يقال قال أبو بكر وفعل أبو بكر إلاّ والصِّدِّيق متّصل به ، وحتّى ربّما قالوا قال الصِّدِّيق وفعل الصِّدِّيق ، استغناءً عن اسمه وكنيته .

ولقد قال النبيُّ صلى الله عليه : « الزُّبير حَوارِيّ وابنُ عمّتي ، وطلحةُ حواريّ » وقال : « عثمان ذُو النّورين » فلم يَقُلِ المسلمون : قال عثمان ذو النورين ، وقال الزُّبير الحَوارِيّ ، وقال ذو النّورين ، استغناءً عن أسمائهما وكناهما .

فإنّ كان المسلمون أشاعوا اسم أبي بكر وتركوا أن يشيعوا اسم غيرِ أبي بكرٍ،

لفضلٍ رأوه في أبي بكر ، فهو الذي قلنا وادّعينا . وإن كان ذلك منهم لشيءٍ رأوه في وجه رسول الله صلى الله عليه وفي صنيعه بأبي بكر ، فلا شيء أدلُّ على الفضيلة والمباينة منه .

ولم يسمِّه النبي صلى الله عليه عليّاً باسم يَنْسُبُه به ، لأنَّ ذلك لو كان لظهر كما ظهر اسم مَن ذكرنا . ولا سمّاه أحدٌ من أصحاب رسول الله باسمٍ بَان به كما سمّى أصحابُ رسول الله أبا بكرٍ خليفة رسولِ الله .

ولأبي بكر اسمانِ يدُلّان على الفضيلة والمباينة : أحدهما لم يسمَّ به قطُّ إلاّ نبيٌّ أو مَن يتلوه ، والآخر لم يُسَمَّ به أحدٌ من الناس .

فأمّا الاسمُ الذي لم يسمَّ به إلاّ نبيٌّ فقوله « الصِّدّيق » بإجماع من المسلمين على هذا الاسم أنّه لأبي بكرٍ دون غيره . وأما الاسم الذي لم يُسمَّ به مؤمنٌ قطُّ ، ولا بَعْدَه ، فقولُ جميع الأمّة : يا خليفة رسول الله .

فإنْ كان الذي نُقِل إلينا أنّه [كان] يكتبُ في دَهْرِ النبيّ صلى الله عليه : « من خليفةِ رسول الله » ويُكتَب إليه « إلى خليفة رسول الله » وكما كان الحسن يحلف بالله أنَّ النبي صلى الله [عليه] هو تولّى استخلافَه ، فلا منزلةَ أعظمُ منها قدراً ، ولا أرفعُ منها شأناً .

وإن كان المسلمون أجمعوا له على ذلك لخاصّةٍ رأوها فيه ، فكفَى به شرفاً وقدراً ، ومزِيّةً وذِكراً .

وإن زعَم قومٌ أنَّ الأسماء التي ارتضاها الرسول صلى الله عليه وحَبَا بها أصحابَه لا تدلُّ على فضيلةٍ ولا على خاصّةِ كرامة ، وجَسَروا على أن يقولوا إنّه ليس في قول النبي صلى الله عليه لحمزة إنّه أسد الله ، وأسدُ رسوله ، فضيلة ؛ وليس في قوله « الزُّبير حواريّ » فضيلة ـ فليس عندنا في ذلك إلاّ مِثلُ ما لهم في صدور أهل القِبلة من الإسقاط والإهانة .

فإنْ قالوا : إنَّ اسم الصدّيق مولّد موضوعٌ مُحْدَث ، أحدثتْه العُثمانية

والحَشويّة .

قيل لهم ، فلعلّ قولَهم : إنّ حمزة أسدُ الله ، وأسد رسوله ، وإن جعفر الطيّارَ في الجنة ، وإنّ الزّبير حواريُّ رسولِ الله ، مولّدٌ موضوعٌ صنعته الشّيعة ، وأحدثَه أتباع الزّبير يوم الجمل ، لا فرقَ بين ذلك .

وكيف يكون اسمُ الصِّدِّيق مولَّداً محدثاً ، وأكثرُ مَن تكلّم به ليسوا بذوي نِحلةٍ فيتقدّروا له ، ولا بِذَوي معرفة فيعرِّفوا فضلَه ، ولا ذوِي قرابة فيطلبوا السَّبْق به ، مع الذي نجده في الأشعار الصحيحة القديمة . وليس بين الأشعار والأخبار فرق إذا جاءت مجيء الحُجج .

وإنّما ذكرنا الأشعار مع الأخبار ليعرفوا ظهور أمره ، ووجوهَ دلائله وقهرِ أسبابه ، وليكون آنس للقلوب ، وأسكنَ للنُّفوس ، وأقطَعَ لشَغَب الخَصم ، ولِجَحْد المنازع .

فممّا جاء من الأشعار في ذلك قول شُرَيح بن هانىء الحارثي ، وكان معمَّراً وكان شيعيّاً ، وهو يرتجز في بعض حُروبه :

أصبحت ذا بثٍّ أُقاسي الكِبَرا　　　قد عِشْتُ بين المشركين أعصُرا
ثُمّتَ أدركتُ الرّسول المُنذِرا　　　وبَعدَه صِدّيقَه وعُمَرا
ويوم مِهْرانَ ويوم تُستَرا　　　وباجُمَيْراواتِ والمشقّرا
والجمعَ من صِفّينهم والنَّهرا　　　هَيهاتَ ما أطْوَلَ هذا عُمُرا

ألا تَرى أنّ هذا شُرَيحَ بن هانىءٍ سَمّى أبا بكرٍ صدِّيقاً على ما لم يَزلْ يسمّى به .

وقال العجّاج بن رُؤبة ، وهو أعرابيٌّ ليس بذي نِحلةٍ ولا صاحب خصومة ، وقد أدرك الجاهلية .

عَهْدَ نَبيٍّ ما عفَا وما دَثَرْ　　　وعَهدَ عُثمانَ وعهداً من عمر
وعَهْدَ صِدّيقٍ رأى بِرّاً فَبَرّ　　　وعَهْدَ إخوانٍ هم كانوا الوَزَرْ

وقال الحارثُ بن هشام بن المُغيرة ، حين بلغه وهو بمكّة أنَّ الأنصار قد كانوا اجتمعوا وقالوا لقريش في سَقيفة بني ساعدة : مِنّا أمير ومنكم أمير :

قُبِضَ النبيُّ وبُويِعَ الصِّدِّيقُ

في قصيدةٍ له طويلة ، وهي التي يقول فيها :

وأراد أمْراً دونَه العَيُّوقُ

وإنما أردنا منها المعنى .

وقال أبو مِحجنٍ في ذلك :

سُمِّيت صِدِّيقاً وكلُّ مهاجرٍ سِواكَ يُسَمَّى باسمِه غيرَ منكَرِ

وقال طريف بن عديّ بن حاتم :

أبيدوا قُريشاً بالسُّيوف ليظهروا مَعاهِدَ دينِ اللهِ بعد محمدِ
وصِدِّيقه التّالي المعين ببالِه طَوي البَطنِ الضَّريبةِ مِذْوَدِ
وأوّلِ مَن صَلّى وصاحِب حنكة أصاخَ لقول الصّادق المتطرِّدِ
وبعد قتيل الهُرمُزانِ ، وبارَكَتْ يَدُ الله في ذاكَ الأديم المقدَّدِ
أقاموا طُغاةً حائرين عن الهدى وليس يَقُوم الدِّين إلا بمُهنَّدِ
فلما تولَّوْا طامَنَ الحقُّ جأشَه وثاب إليهم كلُّ غاوٍ مُطرَّدِ

أمّا قوله : « وثاب إليهم كلُّ غاوٍ مطرَّد » فإنَّ « الغاوي » مَرْوان بن الحكم ، « والمطرَّد » : أراد أباه الحكم بن أبي العاص طريد رسول الله صلى الله عليه .

وقال حسّانُ بن ثابتٍ في ذلك أيضاً ، وهو يهجو بعض الشعراء :

لو كنتَ من هاشمٍ أو من بني أسدٍ أو عبدِ شمس أوَ اصحابِ اللّوا الصِّيدِ
أو في الذُّؤابةِ من تيم وقعت بهم أو من بني جُمحَ الخُضْر الجلاعيدِ
أو من سَرارة أقوامٍ أولي حسب لم تُصْبح اليومَ نِكْساً مائلَ العُود

لولا الرسولُ وروح القدس يحفظُه | وأمرُ ربِّك حتمٌ غير مردودِ
وأنني أحفظ الصدّيق مجتهداً | وطلحةَ بن عُبيدِ الله ذا الجود
أتتكُم خيلُنا كالأُسْد كالحةً | تطوى السَّباسب بالشُّم المَناجيد
من كلِّ خَيْفانةٍ طالَ اللِّجامُ بها | وكلِّ مختلف الأقراب كالسِّيد

وقال طُليحة الأسديُّ في ذلك :

ندمتُ على ما كان من قتل ثابتٍ | وعُكّاشة الغَنْميّ بها أمّ مَعبد
وأعظمُ من هذين عندي مُصيبةً | رُجوعي عن الإسلام رأيَ المقيَّد
وتركي بلادي والخطوب كثيرةٌ | طريداً وقِدماً كنتُ غيرَ مطرَّدِ
فهل يقبلِ الصدّيق أنّي تائب | ومُعْطٍ بما أحدثْتُ من حدثٍ يدي

وقال البارقيُّ في ذلك أيضاً :

بَكَر النَّعِيُّ بخير كندةَ كلِّها | بابن الأشجّ وخاله الصدّيق !

هؤلاء الذين ذكرنا : شُرَيح بن هانىء ، والعجّاج بن رؤبة ، والحارث بن هشام بن المغيرة ، وطريف بن عَديّ بن حاتم ، وحَسّان بن ثابت ، وطُليحةُ الأسديُّ ، ومن أشبههم ، ليسوا بأصحابِ خصوماتٍ ولا نظرٍ في الفاضل والمفضول .

وإنّما قدّموه وسمّوْه صديقاً على ما لم يَزلْ يُسمّى به . وهذا أكثرُ من أن نأتي عليه في كتابنا ونستقصيَه .

والعجب من الرّوافض حين ترى ما قال رشيد الهَجَريّ والسيّد الحميريّ ، ومنصور النَّمَريّ حجّة في أشعارها إذا كان ذلك القولُ في عليّ بن أبي طالب . وإذا قال حسّانُ بن ثابت ، والعجاجُ ، والحارث بن هشام ، وأشباهُهم ممّن ذكرنا في القدَم والقَدر ، في أبي بكر وعثمانَ وعمر وتقديمهم ، لم يكن حجّة .

وفي قول عبد الله بن عبّاس لعائشة بعد الجمل في دار بني خَلف الخزاعيّ

حين أرسله عليٌّ بن أبي طالب إليها : «لِمَ تقولين إنّه ليس في الأرض موضعٌ أبغضَ إليَّ من موضع أنتم به ، ونحن جعلنا أباكِ صِدِّيقاً وجعلناكِ أمَّ المؤمنين»، حجّةٌ في أنّ تسميته بالصِّدِّيق قد كان مستعملاً في ذلك الدهر .

وإذا أحببت أن تعلم قدر هذا الاسم الذي سمّى به النبيُّ صلى الله عليه أبا بكر فانظرْ في كتاب الله . قال الله جلّ ثناؤه :﴿ واذكُرْ في الكتابِ إدْريسَ إنّه كان صِدِّيقاً نبيّاً . ورَفَعْناه مكاناً عليّاً ﴾ وقال : ﴿ واذكرْ في الكِتابِ إسماعيلَ إنّه كانَ صَادقَ الوَعْدِ وكان رسُولاً نبيّاً ﴾، فذكر صِدِّيقيَّته قبل أن يذكُر نبوَّته .

وقال في كتابه: ﴿ما المَسيح بنُ مَرْيَم إلاَّ رسولٌ قد خلتْ مِن قبله الرُّسُل وأُمُّه صِدّيقةٌ كانا يأكلانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نبيِّنُ لهم الآيات ثم انظر أنَّ يُؤْفكُون ﴾.

ولكن انظر كيف نُبيِّنُ للرّوافض الحججَ بالآيات والإجماع ثم انظر أنَّ يؤفكون ، أي يسخرون بهذه الفضيلة له على عليّ .

[٣٩ ـ تأمير أبي بكر الحج دون علي]

ثم الذي كان من تأمير النبي صلى الله عليه أبا بكرٍ عليه حين ولّاه الموسمَ وبعثَهُ أميراً على الحاجّ سنةَ تسع ، وبعث عليّاً يقرأ على الناس آيات من سورة براءة ، وكان أبو بكر الإمام وعليٌّ المأموم ، وكان أبو بكر الدّافع بالموسم ، ولم يكن لعليٍّ أن يندفع حتّى يدفع أبو بكر ، ولا يستطيع خَلقٌ من النّاس ان يزعمَ أنّ سنة تسع دَفعَ بالناس غيرُ أبي بكر ، ولا يستطيع أحدٌ أن يزعم أنّ سنة تسع لم يُبعث النبي صلى الله عليه بصَدْرِ سورة براءة مع عليّ بن أبي طالب ليقرأه على الناس إذا فرغ أبو بكر .

فإنْ قال قائل : ألا ترى أنّه كان لعليّ بن أبي طالب في ذلك الموقف من الفضل ما ليس له لخصلتين : إحداهما أنّ النبي صلى الله عليه بَعثَ معه بصَدْرِ براءة، وقال : « لا يبلِّغ عَنِّي إلاَّ رجلٌ منِّي ». والأخرى فرط الاحتمال وشِدّة الخُطار الذي احتمله عليٌّ حين يقوم بالبراءة وَقَطْع العهد وقد وافى الموسمَ من

لقتال العرب ومن الموتورين والناقمين والحنقين ، الصدقُ الذي لا يُحصى ، والقُوّة التي لا تُدفع ، فشمّر عن ساقيه وأبدى صفحته . ففي هاتين الخصْلتين دليلٌ على أنّ له في ذلك ما ليس لأبي بكر ، والمحنةُ عليه أشدّ .

قيل له : إن كانَ الشّأن في شِدّة الخِطار والتغرير والتعرُّض على ما قلتم ، فنصيبُ أبي بكر في ذلك أوفر ، والأمر عليه أخوف ، وهو إليه أسرع ؛ لأنّ أبا بكر كان هو الأميرَ والوالي والمتبوع ، وعليٌّ هو المؤتَم والرعية والسّامع والمطيع . وبين التّابع والمتبوع والآمر والمأمور فرق .

وأمّا قولكم : إنّ النبي صلى الله عليه قال حينَ بعث بصدر سورة براءة مع عليّ بن أبي طالب : « إنّه لا يبلّغ عنّي إلاّ رجلٌ منّي » فإنّما قال هذا وليس بحضرته أبو بكرٍ ليكون عليٌّ قد قُدّم عليه ، لأن النبيَّ صلى الله عليه قد كان وجّه أبا بكرٍ قبل ذلك ، ثمّ بعثَ عليّاً بعدَه فلحقه في الطّريق .

وقد زعم ناسٌ من (العثمانيّة) أنّ النبي صلى الله عليه لم يقل ذلك لعليٍّ تفضيلاً منه له على غيره في الدِّين ، ولكن النبيّ صلى الله عليه عامل العربَ على مثلِ ما كان بعضُهم يتعرّفه من بعض ، وكعادتهم في عقْد الحِلف وحَلِّ العَقْد ، فكان السيِّد منهم إذا عَقَد لقومٍ حِلْفاً أو عاهَدَ عهداً لم يَحُلَّ ذلك العَقْدَ غيرُه ، أو رجلٌ من رهطه دِنْيا كأخٍ أو ابنٍ ، أو عمٍّ ، أو ابن عمّ ، فلذلك قال النبي صلى الله عليه ذلك القَول .

[٤٠ ـ النبي يعهد إلى أبي بكر بأم الناس في الصلاة يوم شكاته]

ثم الذي كان من تفضيله عليه وعلى الناس جميعاً أيّامَ شَكاتِه ، حيث أمَره أن يؤمَّ النّاسَ ويقوم مقامَه في صلاته وعلى منبره ، حتّى أنّ عائشةَ وحفصةَ أرادتا صَرْفَ ذلك عَنْه لعللٍ سنذكرها في موضعها إن شاء الله ، فقال النبي صلى الله عليه : « إنّكنّ صواحبُ يُوسف ، أبَى اللّهُ ورسولهُ إلاّ أن يصَلّيَ أبو بكر » .

ولم يستطع أحدٌ من الناس أن يقولَ إنّه صلّى بالناس في تلك الأيّام غيْرُه ،

ولا استطاع أحدٌ أن يقول إنّ المأمورَ بالصلاة كان غيرَه ، حتّى قالوا بأجمعهم : اختارَهُ رسولُ الله لديننا فاخترناه لدُنيانا . وحتى قالوا : ولاّه رسول الله صلاتَنا ، وزكاتُنا تبعٌ لصلاتنا و ما معظَمُ أمر الدين .

ولا يستطيع أحدٌ أن يقول : إنّه لما تقدم أبو بكر بالناس ليصلّي بهم والنبي صلى الله عليه مُسَجىً قال له رجلٌ واحد : وما لك تصلّي بنا على غير عَهد ولا سَبب . ولا قال رجلٌ من خلفه مثلَ ذلك ، ولا قال رجلٌ من الأنصار : مِنّا مصلٍّ ومنكم مصلٍّ ، كما قالوا : مِنّا أميرٌ ومنكم أمير .

فإنْ كان النّاسُ مع كثرة الخير والشرّ فيهم تركوا مجاراته ومدافعته في قيامه في مَقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لتبريزه ، كان ، عليهم عند أنفسهم فكَفى بذلك دليلاً على الفضل ، وحجّة على الاستحقاق .

وإنْ كان رضاهم بذلك وتسليمُهم ، للذي ثبتَ عندهم من أمْر رسول الله صلى الله عليه وتقديمه إيّاه ، فليس لأحدٍ في ذلك متكلّم ، ولا لشاغبٍ فيه متعلّق ، ولا لواقف فيه عُذر ، والقوم جميعٌ ، ومُصلاّهم واحد ، وتقدُّمه ظاهر .

ولم تكن صلاة واحدة فيكون خِلْسة . والقومُ كانوا أشدَّ تقديماً لذلك المقام من أن يَدعُوا رجلاً لم يقهرهُم بسيفٍ ، ولم يَمتنِع عليهم بعشيرة ، ولم يُفِضْ فيهم الأموال ، وليس معه فضلٌ بائن ، ولا سببٌ من قرابة ، ولا أمرٌ من النبي صلى الله عليه .

فإن صاروا إلى الاعتلال بالأحاديث وذِكر الآثار قالوا : إنّما نحتاج إلى المقابلة بين أفعالِ عليٍّ وأفعال غيره ، لو كُنّا لا نجد له غير الأفعال فإذا كنا قد وجَدْنا له من غير الأفعال ما هو أدلُّ على الفضيلة من الأفعال ، لم يكن لنا أن نتخطّى الأفضلَ إلى الأنقص في دفع المتغلّب ، وإقامة المستحقّ عند ظُهوره وزوالِ التّقيّة فيه . لا أنهم قابلوا بين جميع المهاجرين في القُرْب والبعد ، ولا أنّهم صنَعوا العلم بفضْله بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكنّهم قومٌ قد كانوا من قبل ذلك بثلاثٍ وعشرين سنةً يَرى بعضُهم بعضاً ويَعرِف بعضُهم أمر

بعض ، يَغْزُون معاً ويُقيمون معاً ، ويسمعون من النبي صلى الله عليه القولَ بعد القول ، ويرَون أحوالَ الرِّجال عند النبي صلى الله عليه ، وفي المسلمين وفي أنفسهم ، فعلموا بذلك فضل أبي بكر ، فلما توفِّيَ النبيُّ لم يحتاجوا مع علمهم الأوَّل إلى أن يَضعوا علماً ثانياً .

ولو أنَّ رجلاً منَّا شاهَدَ النبي صلى الله عليه وأصحابَه سنةً واحدةً ما خَفِيَ عليه مَن المقدَّمُ عنده وعند المسلمين ، وَمن أشبَهُهم به هَدْياً وعملاً ، وطريقةً وعزماً . فما ظنُّك بالسَّلف الطيب ، والخِيار المُنتخَبين ، وأُسِّ الإسلام ومُرسَى قواعِده .

وذلك أنَّ أبا بكر لا يخلو حيث أسلَمَ أن يكون أسلم قبل الناس ، أو ثانياً ، أو ثالثاً . فإن كان إسلامُه قبل الناس فقد تبينَّ للثاني تقدُّمهُ ، وللثَّالث تقدُّمُها عليه . فإذا كانوا ثلاثة لم يخْفَ عليهم أيُّهم أفضل . ثم إنْ أسلمَ بعدهم نَفَرٌ لم يخفَ أيضاً قصَّةُ الثلاثة المتقدِّمين . وكلَّما أسلمَ قومٌ لم يَخْفَ عليهم حالُ الأفضل بالذي يرون عند من أسلمَ قبلهم . فكانوا كذلك ثلاثاً وعشرين سنة .

فقد أيقنَّا أنَّ القومَ لم يُؤتَوا في تقديم أبي بكر من الجهل بموضع الفَضْل ، أطاعُوا الله في إقامته أم عَصَوه . وكذلك لو كانوا قدَّموا غيرَه ما كانوا إلاّ متعمِّدين . وذلك أنَّ الأفعالَ إنما تدلُّ على ظاهر عدالة الرَّجل وفضيلته ، ولا تدلُّ على باطن طهارته وإخلاصه .

وقولُ الرَّسول صلى الله عليه في الرَّجل ومدحُه له وإخبارُه عن فَضْلِه ومنزلته ، والوحْيُ ينزل عليه صباحَ مَساءَ ، أدلُّ على طهارته وإخلاصه .

وإذا كان العبد كذلك كانت النّفوس إليه أسكن ، وكان من التَّبذُّل أبعد ، مع السلامة من النِّفاق ، والدَّخَل في الاعتقاد ؛ لأن الغلطَ في خبر الرَّسول صلى الله عليه ونَصِّه وتبيينه وإقراره للرَّجل بالفضيلة والاستحقاق ، أقلُّ من الغَلط فيما بين أقدار النَّاس ، من الموازنة بين أفعالهم وعقولهم ، وعلومهم وتجاربهم ، وصلاح النَّاس عليهم ، مع كثرة عدد الأفعال المتساوية والمتقاربة ، ومع كثرة عدد

المُتساوين والمتقاربين من الرِّجال .

[٤١ ـ حجج الشيعة في تفضيل علي من الأحاديث]

فمما يدلُّ على تفضيل النبي صلى الله عليه له قوله يومَ غَدير خُمّ، وهو قابضٌ على يده وقد أشخَصهُ قائماً لمن بحضرته : « من كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه . اللهمَّ عادِ مَن عاداه ، ووالِ من والاه » . وقوله : « أنت مني بمنزلة هارونَ من موسى ، إلاّ أنّه لا نبيَّ منْ بعدي » . وقوله : « اللهم آتني بأحبِّ الناس إليك يأكلُ معي مِن هذا الطَّير » ثلاثاً ، كلُّ ذلك يَحجُبه أنسٌ ، طمعاً أن يكونَ أنصارياً ، فأبى الله إلاّ أنْ يجعَله الآكلَ ، والآتي ، والأحبَّ .

ومن ذلك أنَّ النبيَّ صلى الله عليه حين آخَى بين أصحابه فقرَن بين الأشكال ، وفرد بين الأمثال ، جعله أخاً مِن بين جميع أمّته وعِلْية أصحابه .

قيل لهم : إنَّ الأخبارَ لا بدَّ فيها من التَّصادُق كما لا بدَّ في دَرْك العُقول من التَّعارف ، فإنَّ في عدم التعارف في حجج العُقول ، والتَّصادق في حُجج السمع ، عدَمَ الإنصاف ، وبُطلانَ الكلام .

وليس لكم أن تَرفعوا خبراً له ضربٌ من الإسناد وتوجبون تصديقَ مثله ؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من الخَصمين لا يُعجزه دفعُ المستفيض بلسانه ، فضلاً عن دفع الشّاذّ وإنْ كان ناقلُه عدلاً في ظاهره . فإذا كان ناقلُه ذلك كذلك فأولى الأمور بكم وبهم الصِّدق . وليس كلُّ مَن أراد الصّدق في مِثل هذا قدَرَ عليه إلاّ بالتقدُّم في كثرة السَّماع واتِّساع الرِّواية . وليس لأحدٍ ، وإنْ حَسُنَ عقلُه وصحَّ فِكره ، أن يقول فيما لا يضاف علمه إلا من طريق الخبر حتّى يكون صاحبَ خبر ، وطالب أثر . فإذا صحَّ عقلُه وكثُرَ سماعه ، خفَّت مؤونته على نفْسه وعلى خصمه .

[٤٢ ـ حجج العثمانية في تفضيل ابي بكر من الأحاديث]

أوَما علمتم أنّ خصومَكم وهم أكثر منكم عدداً، وأكثر فقيهاً ومحدثاً، يروون أنّ النبي صلى الله عليه قال : « لَيسَ أحدٌ أَمَنَّ علينا بصحبته وذاتِ يده من أبي بكر ، ولو كنتُ متّخذاً من هذه الأمة خليلاً لاتّخذت أبا بكر خليلاً ، لكن وُدّاً وإخاءَ إيمانٍ » فإن كان هذا الحديثُ كما نقلوا لم يَجُزْ أن يكون النبي صلى الله عليه أخا أحدٍ إلاّ أن يكون الأخ غير الخليل ، ولا نعلم الخليلَ إلاّ أخصَّ منزلة وأقربَ مودّة . مع أنّ قوله « ولكن » دليلٌ على أنّه قد كان أخاه .

يَرْوون أنّ النبي صلى الله عليه قال في شَكاته وقُبيلَ وفاته: «إنّه لم يكنْ نبيٌّ قبلي فيموت حتّى يتّخذ من أُمّته خليلاً ، وإنّ خليلي منكم ابن أبي قُحافة » .

ويَروون أنّ النبي صلى الله عليه قال : « اقتَدُوا باللذين من بعدي : أبي بكر وعمر » .

وقد تعلمونَ أنّ إسنادَه عبد الملك ، عن رِبْعي عن حذيفة ، والآخر سَلَمة ابن كُهَيل ، عن أبي الزّعراء ، عن عبد الله .

ويروون أنّ النبي صلى الله عليه ، نظر إلى أبي بكرٍ وعُمر مُقْبِلَين .فقال : « هذان سيّدَا كُهولِ أهل الجنّة من الأوّلين والآخرين ، إلاّ الأنبياء والمرسلين . يا عليُّ لا تُخبرهُما » .

فزَعموا جميعاً أن عليّاً قال : ولو كانا حيَّين ما حدَّثتكم .

ويروون جميعاً أنّ عليّاً قام في النّاس خطيباً فقال : « ألا إنّ خير هذه الأمّةِ بعدَ نبيّها أبو بكر ، والثاني عُمر ، ولو شئت أن أخبركم بالثّالث فعلت » . فكَنَى عن ذِكر عثمان .

ويروون أنّ النبي صلى الله عليه لمّا أسّس مسجدَ المدينة جاءَ بحجرٍ فوضَعَه ، ثم جاء أبو بكرٍ بحجرٍ فوضَعَه، ثم جاء عمر بحجرٍ فوضعه ، ثم جاء

عثمانُ بحجرٍ فوضعه ، فسئل النبيُّ صلى الله عليه عن ذلك فقال : « هم أمراء الخلافة مِن بعدي » .

وقالوا : لمَّا قدِم المدينةَ رسولُ الله صلى الله عليه خَطَّ لأهل قُباءٍ مسجدهم بعَنَزة ، فوضع النبي صلى الله عليه حَجَراً ، ثمَّ قال : يا أبا بكرٍ ضَع حجراً إلى جَنْب حَجَري ثم قال : يا عثمان خُذْ حجراً فضعه إلى جنب عُمر . ثمَّ التفتَ إلى سائر الناس فقال : وَضَع رجلٌ حَجَره حيثُ أحبَّ .

ويروون أنَّ النبي صلى الله عليه قال يومَ الحُديبية : « مَثَلُ أبي بكرٍ في الملائكة مَثَلُ مِيكائيلَ ينزلِ بالرَّحمة ، ومثلُه في الأنبياء مثلُ إبراهيم ، ومثل عمر في الملائكةَ مَثَل جبريل ينزل بالسُّخط ، وفي الأنبياء مثل موسى » . والحديث طويلٌ ولكنِّي اختصرته .

ويُروى أنَّ النبي صلى الله عليه وُضِع في كِفَّةِ الميزان والأمَّةُ في الكفَّة الأخرى ، فرجَحَ بهم ، ثم أُخرِجَ النبيُّ صلى الله عليه ووُضع أبو بكر مكانَه فرجَح بالأمَّة ، ثم أُخرِج أبو بكر ووضع عمرُ مكانَه فرجَح بالأمة ، ثم أُخرِج فَرفع الميزان .

وقالوا : إنَّ النبي صلى الله عليه قال : « أيُّها النَّاسُ ، إنَّ الله بعثني إليكم جميعاً فقلتم : كذبت ، وقال لي صاحبي : صدقت ، فهل أنتمْ تاركيْ وصاحبي ؟ » .

وممَّا يؤكد هذا قولُ النبي صلى الله عليه : « ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلاّ وقد كان له تَرَدُّدٌ وكبْوَة ، إلاَّ ما كانَ من أبي بكر فإنَّه لم يتلعثم » .

وقالوا : إنَّ النبي صلى الله عليه قال : « إنَّ أبا بكرٍ لم يَسُؤْني قطُّ ، فاعرِفُوا ذلك له » ، في كلامٍ طويل .

[٤٣ ـ موقف الجاحظ من التفضيل]

فإنْ كان ما رويتم في فضيلة عليٍّ حقّاً ، وما رَوَوا في فضيلة أبي بكرٍ حقّاً

فأبو بكرٍ خيرٌ من عليٍّ ، وعليٌّ خيرٌ من أبي بكر . وهذا هو التّناقض ، والحقُّ لا يتناقض . وفي هذا دليلٌ أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يتكلَّمْ بذلك ولا قالَه ، لأنَّ الخبر إذا خَرَج مخرج العامّ في تفضيل أبي بكر ، وكذلك في تفضيل عليّ ، فليس له وجهٌ إلاّ ما قلنا ، إلاّ أن يكونَ النبيُّ صلى الله عليه قد قال أحَدَ القولين وصحَّتْ به الشّهادة ، ولم يَقُل الآخرَ وإنّما ولَّدته الرّجال ، وصنعَتْه حَمَلَةُ السِّيَر . ولا سبيل لنا إلى معرفة ذلك إذا كان الإسناد متساوياً ، وعند الرجال مُتقارباً . وليس في هذه الأحاديث كلِّها حديثٌ يضطَّر خصمه إلى معرفة صحّته ، أو يكون النبي صلى الله عليه قد تكلم بكثيرٍ من هاتين الروايتين وكان معناه وقصده فيها معروفاً عند من كان بحضرته ، حتّى كان الجميع يعرفون خاصَّهُ من عامِّه . ولكنَّ النّاقلين احتملوها عن السَّلَف مجرَّدة بغير تأويل معانيها ، فأدُّوها على اللّفظ العامّ ، فصار السامع يتناقض عنده إذا قابَلَ بعضها ببعض ، لجهله بأصول مخارجها ، وكيف كان موقعُها .

والذي فسَّرتُ لَكَ مثلٌ تَعرف به سَمْتَ الحُجّة ، وقَصْدَ السّبيل .

وهو كما نَقَلوا أنَّ النبي صلى الله عليه قال : « ما أقلّتِ الغَبْراءُ ولا أظلَّت الخَضراءُ على ذِي لهجةٍ أصْدَقَ من أبي ذَرّ » . ولم يكن بالنبي صلى الله عليه إلى استثناءِ نَفْسه حاجةٌ ؛ لمعرفته باستغناء النّاس عن ذلك .

وقد عَرفْنا بوجهٍ آخَرَ أنَّ حديث أبي ذرٍّ كان مَخرجه مَخرج العامّ وأنّه خاصٌّ وإن لم تكن خُصوصيَّتُه موجودةً في لفظ الحديث ؛ لأنَّك إذا سألت الشِّيَع فقلت : أيُّ الرجلين كان أصدقَ عِند النبي صلى الله عليه أبو ذَرٍّ أو عليّ ؟ قالوا بأجمعهم : عليّ ، وإنّما تَرَك النبيُّ صلى الله عليه لعلمه بمعرفة المسلم بذلك من رأيه .

وكذلك لو سألت العثمانية فقلت : أيُّ الرّجلين كان أصدقَ عندَ النبي صلى الله عليه : أبو بكر أو أبو ذَرّ ؟ قالوا : أبو بكر ، كقول الشِّيَع في عليّ .

فقد أجمَعَ الصِّنْفان جميعاً أنَّ غير أبي ذَرٍّ أصدقُ من أبي ذر .

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه : « منّا خَير فارسٍ في العرب » قالوا : من هو ؟ قال : عكّاشة بن مِحْصن .

وليس بين الأمّة تنازعٌ أنّ زيدَ بن حارثة ، وجعفر بنَ أبي طالب الطيّار ، والزُّبير ، خيرٌ من عُكّاشة .

ومن ذلك قولُ النبي صلى الله عليه : « يأتيكم خيْرُ ذي يَمَن ، [عليه] مَسْحة مُلْك ». فأتاهم جرير بن عبد الله .

فلو كان هذا اللّفظ العامُ عامّاً في معناه ، ولم يكن النبيُّ صلى الله عليه اتّكل فيه على معرفة القوم ، فترك لذلك الاستثناء والتّفسيرَ ، لكان واجباً أن يكون جريرٌ خيراً من سعد بن مُعاذ ، ومن حَمِيّ الدَّبْر ، ومن غسيل الملائكة ، ومكلِّم الذّئب . وهذا ما لا يقوله مسلم .

ومن ذلك قولُ النبي صلى الله عليه لأبي سفيان بن الحارث : « أبو سفيانَ خير أهلي ». وقد علمْنا أنَّ حمزةَ والعبّاسَ وعليّاً وجعفراً خيرٌ من أبي سفيان .

ومن ذلك قول النبي صلى الله عليه : « خير أهلِ الله عمر بن الخطاب » وقد أجمعَ المسلمون أنَّ غيره خيرٌ منه ؛ لأنَّ النّاس إمّا عُمَرِيٌّ وإمّا عَلَويٌّ ، فالعلويُّ يقدّم عليّاً ، والعمريُّ يقدّم أبا بكر .

والجملة أنّه لم يقل أحدٌ قطُّ : إنَّ عمر خيرُ الناس . فهذا بابٌ قد فرغتُ [منه]، تعرف به أنَّ النبي صلى الله عليه قد يتكلّم بالكلام المعروف المعنى عند مَن حَضَره ، فإذا نَقَلوا الكلام وتركوا المعنى التبس على العابرين وجهُ المعنى فيه .

فمن ذلك ما يُعرف ، كالذي حكَيْنا من حديث أبي ذرّ ، وعُكّاشة ابن مُحصَن ، وجرير ؛ ومنه ما يُجْهَل كحديث عليّ ، وأبي بكر .

وقد نقلوا عن النبي صلى الله عليه في رجال كلاماً وتفضيلاً ما نقِلَ مثله في أبي بكر وعليّ ، اللّذين فيهما التّنازع .

من ذلك أنهم نقلوا عن النبي صلى الله عليه أنه قال : « كم مِن ذي طِمْرَين لا يُؤْبَهُ له لو أقسمَ عَلَى الله لأبَرَّه ، منهم البَراءُ بن مالك ». وهذا كلامٌ عظيمٌ إنْ كان حَقّاً ، وليس عندنا فيه إلاّ أن نردَّه إلى الله ورسوله .

وقد قال النبي صلى الله عليه وسلّم في رجال كلاماً لو كان قالَه في أبي بكر وعليّ لكان أصحابُهما سيجعلونه في أوّل ما يَحْتَجُّون به في الإمامة والتّفضيل مثل قول النبي صلى الله عليه : « رضيتُ لأمتي ما رضِيَ لها ابنُ أمِّ عَبْد ، وكرِهت لها ما كره ».

ومن ذلك قوله : « لكلِّ أمة أمينٌ وأمينُ هذه الأمة أبو عبيدة ».

وقوله في طلحةَ يوم أُحُد ، حين واتاه السَّهم فَوقَى النبيَّ صلى الله عليه فقال ، حين أصابه السَّهم : حَسِّ ! فقال النبيّ صلى الله عليه : « لو قالَ باسم الله لرفعَتْه الملائكة ».

ومن ذلك دخولُ عثمانَ عليه وهو مكشوف الفَخِذ ، فغطّاها ، فقيل له : يا رسول الله ، لِمْ تُغطِّها من أبي بكرٍ وعمَرَ وغطَّيتها عند دخول عثمان . فقال : « كيف لا أستَحِي ممَّن تستحي منه الملائكة ».

وقال : « اهتَزَّ العرشُ لموت سَعد بن مُعاذ ».

فهذا أيضاً بابٌ يُعرَف به أنَّ الرَّجل ليس يستحقُّ التَّقديم بالرِّواية والحديث ، إذْ كان هؤلاء دونَ أبي بكرٍ وعليٍّ في الفَضْل ، وقد جاء فيهم ما لم يجِئ فيهما .

ولقد رَوَوْا في رجل لم يُهاجر ، ولم يَصْحَب ، ولم يشهد المَشاهد ، ولم يُنفق ، ولم يتعرَّض ، ولم يَدْعُ إلى الله ورسوله ، إلاّ أنّهم زعموا أنّه كان يطلب الحنيفيّة قبل مَبعث النبي صلى الله عليه ، وهو زَيد بن عَمرو ابن نُفَيل . فزَعموا أنَّ النبي قال : « يُبعَث يومَ القيامة أمّةً وَحْدَه ».

وأيُّ شيءٍ أدلُّ على كلِّ فضيلةٍ من قول النبي صلى الله عليه لعمَّار : « لا

تُؤذُوا عماراً فإنَّما عمارٌ جِلدةٌ ما بينَ عينيَّ ».

ما أعطَت الرَّافضةُ الطَّاعة أبداً ، ولا رَضُوا من النَّاس بالإنصاف !

وقد علمْنا أنَّ حمزةَ وجعفراً وعليّاً ، كانوا أفضَلَ من سعدِ بن مُعاذ ، ولم يهتزّ لموتهم عرشُ الرَّحمن ، وقُتِلوا شُهداء ، ولم تُحْمِ لحُومَهم الدَّبْر ، ولا غسلتْها الملائكة .

فالله أعلم بمعاني هذه الأحاديث . ولعلَّ النبي صلى الله عليه قال في كلِّ رجلٍ قولاً عدلاً ، وكان ذلك قولاً معروفاً مفهوماً عند الحاضر ، ولكنه أدَّى اللفظ وترَكَ المعنى .

فإذا كانت الأحاديث في أسلافنا وأئمَّتنا على ما حكيتُ لك لا تمنع من معرفةِ وتدافعِ ما وصل إلينا منه ، كان واجباً أن يكون المَفْزع في أمرهم إلى الخبر الذي يجيء بمجيء الحجة ، وتَرك ما سِوَى ذلك مما لا يُبرِىء من سَقَم ولا يُبرِد من حَيرة . وإنَّما الخبرُ الصَّحيح الذي لا يعتمد بضعف الإسناد ، ولا يُترَكُ لضَعف الأصل ، ولا يُوقَف فيه لكَثْرة المعارض والمُناوِىء ؛ كنحو ما روَيْنا من مآثرهم في مقاماتهم ومشاهدهم ، وكصنيع عليٍّ ومؤازرته ببدر ، وككون أبي بكرٍ في العريش . وهذا ما لا يَتدافَعُ ولا يتناقض ؛ لأنَّ قتْلَ عليٍّ الأقرانَ ببدرٍ ليس بناقضٍ لكون أبي بكرٍ في العريش ، ولأنَّ موقف عليٍّ بأُحدٍ لا يدفع كونَ أبي بكرٍ في الغار ، ولأنَّ صنيع عليٍّ بخيبر لا يدفع إنفاق أبي بكرِ الأموالَ ، وعتْقَه الرِّقاب .

فهذا وما أشبَهه ممَّا لا تجد له رادّاً ودافعاً ، وليس هذا من شكل ما قالوا : أنَّ النبي صلى الله عليه قال : « اقتدُوا باللَّذين من بعدي بأبي بكر وعُمر » ونقْلهم أنَّ النبي صلى الله عليه قال لعليّ : « أنتَ منّي بمنزلة هارونَ من موسى »، وكما نقلوا أنَّ النبيَّ صلى الله عليه آخى بين نَفْسه وبين عليٍّ ، وأنَّ النبيَّ قال : « لو كنتُ مُتَّخذاً خليلاً لاتَّخذت أبا بكرٍ خليلاً» في أشباهٍ لهذا قد حُكِيَتْ لك في صدر الكتاب ، لتعرف مجْرى الكلام في السَّلَف .

فإنْ قالوا : فلعلَّ النبي قال : « اقتدوا باللذين من بعدي » وقد كان معلوماً في [ذلك] الوقت أنّ عليّاً كان مستثنىً في هذا القول .

قيل لهم : ولعلّه قال : « من كنت مولاه فعليٌّ مولاه » [و قد كان معلوماً في ذلك الوقت أنّ أبا بكر كان مستثنىً .

فإنْ قالوا : الفرق في ذلك أنّكم لا تُنكرون روايتَنا في عليٍّ ، ونحن ننكر روايتكم في أبي بكر .

قيل لهم : إنَّ العجزَ كلَّ العجز أن تعيذ على خصمك بشيءٍ لا يُعجزه . فإن أبَوا إلاّ جحدَ الأخبار وتكذيبَ الآثار والإيجابَ على النّاس ما لا يُوجبون لهم مثلَه فإنَّ الذين نَقَلوا أنَّ النبي صلى الله عليه قال : « مَنْ كنتُ مولاهُ فعليٌّ مولاه » لم ينقلوا معه في الحديث : « اللّهمَّ والِ مَن والاه ، وعادِ مَن عاداه » .

وإنّما سمعنا هذه الزيادة من الشّيع ، ولم نجدْ له أصلاً في الحديث المحمول .

[٤٤ ـ تأويل العثمانية لحديث : من كنت مولاه فعلي مولاه]

روى الأعمشُ ـ وكان رافضيّاً ـ عن سَعْد بن عُبيدة ، عن ابن بُرَيدة ، عن أبيه قال : بعثَ النبيُّ صلى الله عليه عليّاً في سَرِيّة واستعمله عليهم ، فلمّا جاء قال : كيف رأيتم صاحبَكم ؟ قال : فإما شكوتُه وإمّا شكاه غيري ، وكنت رجلاً مِكباباً ، فرفعتُ رأسي فإذا النبيُّ صلى الله عليه قد احمرّ وجهُه وهو يقول : « مَن كنتُ وليّه فعليٌّ وليُّه » .

فواحدةٌ أنَّ الذي رَوَى هذا الأعمش ، وهو ظنينٌ في عليٍّ مضعَّفٌ عند أهل الحجاز . وسَعدُ بن عُبيدةَ ليس هناك .

وثانيةٌ أنّه لم يقُلْ من كنت مولاه ، وقال : « من كنت وليّه » فإذا اختلفت الألفاظ دلَّ ذلك على الوَهَن . ولم يقل : « اللهم عادِ من عاداه ووالِ مَن

والاه ». ونحن نشهد أنَّ مَن كان النبي صلى الله عليه وليَّه فسعد بن مُعاذ وليُّه . وعلى أنَّهم قد رَوَوا في شكاية أقوام في تلك الغَزاة لعليٍّ كلاماً قبيحاً .

ووجهٌ آخر مما يدلُّ في هذا الحديث على الاختلاف والوهَن : أنَّهم نقلوا أنَّ هذا القولَ في عليٍّ كانَ أنَّ عليّاً جازى زيدَ بن حارثة في بعض الأمر ، ولاحاهُ فيه ، لأنَّه أغلظَ له ، فردَّ عليه زيدٌ مثلَ مقالته ، فقال له عليّ : تقول هذا القول لمولاك ؟ ! فقال زيد : إنَّما ولائي لرسول الله صلى الله عليه ، ولستَ لي بمولى. فأتى عليٌّ النبي صلى الله عليه ، فشكا إليه زيداً ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « مَن كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه ». وصدق النبي صلى الله عليه أنَّ عليّاً مولى زيد ، إذ كان النبي صلى الله عليه مولاه ، وكذلك العبّاس والفَضْل ، وعبد الله ، وقُثَم ، وتمَّام ، ومَعْبد .

وإذا كان هؤلاء مواليَ زيدٍ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه مولاه ، فلِعلم النبي صلى الله عليه مِن ذلك ما ليس لهم جميعاً فإنما أراد النبي صلى الله عليه أنْ يُعلم زيداً غلطَه في ذلك القول ، حين ظنَّ أنَّ ابنَ عم النبي صلى الله عليه ليس مولاه .

فإذا كان أمرُ عليٍّ وزيدٍ مشهوراً عند أصحاب الآثار ، فإنَّما عَنَى مولى النِّعمة ، وليس في هذا إخبارٌ عن فضل عليٍّ في الدِّين .

ولو كان النبي صلى الله عليه قال كما زعمت الرَّوافض : « اللهمَّ عادِ من عاداه ووالِ من والاه » ، كان هذا القول يدلُّ على أنَّ زيداً قد أتى جُرماً عظيماً ؛ فلم يكن ليتخطَّى دعاءُ النبيِّ صلى الله عليه على مَن عادى عليّاً إلى غيره إلَّا بعد وقوعه به ، لأنَّ زيداً هو المشتكي ، ومن أجل صنيعه خرجَ النبيُّ صلى الله عليه إلى مثل هذا القول الشَّديد ، وهذا الدُّعاء القاصم ، ومن قوله ومَذهبه غضِبَ عليه ، وعليه نَصَّ وإيَّاه عَنَى .

وإنَّما يقول هذا ويجوِّزه مَن لا علمَ له بقدْر زيدٍ عند النبي صلى الله عليه . اوَ ما علمتَ أنَّ زيداً أحدُ من روَى النَّاس عنه ونقلوا أنَّه كان أقدمَ النَّاس

إسلاماً . وقد دَلَلنا على فضيلة إسلامه على إسلام عليٍّ في صدر كتابنا ، في كلام العثمانية .

وقد بلغَ مِن قدره عند النبي صلى الله عليه وتفضيله إيّاه أنّه لم يكن في سَرِيةٍ قط إلاّ كان أميرَها ، ولا أقامَ ببلادٍ إلاّ وهو أميرُها .

ويدلُّك على ذلك أنْ النبي صلّى الله عليه أمَّرَهُ على جعفرٍ الطّيّار ، وعقد له يومَ مؤْتة ، ثم عقد لابنه أسامة على كبار المهاجرين والأنصار ، منهم عمر بن الخطّاب ، وسعيد بن زيد ، وأبو عُبيدة بنُ الجَرّاح ، وسعد ابن أبي وقّاص . حتّى قال رجالٌ من المهاجرين . وكان أشدُّهم في ذلك عَيّاش بن أبي ربيعة ـ : يولّي علينا هذا الغلام ! فغضب عُمَر وردَّ عليهم ، ثم أتى النبيَّ صلى الله عليه فقال : ألا أعجِّبك يا رسولَ الله من رجالٍ يقولون كذا وكذا ؟ ! فمشى النبيُّ صلى الله عليه إلى المنبر في شَكاته التي تُوفّي فيها فقال :

ما مقالةٌ بلغتْني عن بَعضكم في أسامة وتأميره ؟ ! ولئن طعنتم في إمارته لقد طعنتم في إمارة أبيه . وأيمُ اللّهِ إنْ كان لخليقاً للإمارة ، وإنَّ ابنَه لخليقٌ لها ، وإن كان لَمِنْ أحبِّ الناسِ إليَّ ، وابنه لَمِنْ أحبِّ الناس إليَّ .

فهو الحِبُّ وأبو الحِبّ ، وهكذا يقال بالمدينة : أسامةُ الحِبُّ .

ولذلك قال عُمر لابنه عبد الله حين زادَ في فريضة أسامةَ على فريضته ، فقال له عبد الله : لِمَ فضّلتَه عليَّ ونحنُ سِيّانِ ؟ فقال عمر : إنَّ أباه كان أحبَّ إلى النبي صلى الله عليه من أبيك ، وكان هو أحبَّ إلى النبي صلى الله عليه منك .

وقالت عائشةُ عند وفاة النبي صلى الله عليه : لو كان زيدٌ حيّاً لاستخلفه النبي صلى الله عليه عليكم .

هذا وأبوها الخليفةُ والمجعولُ إليه الإمامة .

ومما يدلُّك على فضيلةِ أبي بكرٍ ومكانته وخاصّته من النبي صلى الله عليه

وسلم وعظّم شأنه عنده ، أنَّ النبي صلى الله عليه [لمّا] آخى بين المهاجرين والأنصار آخى بينه وبين حمزة ، وإليه أوصى حمزةُ يوم أحد . وقد تعلمون أنَّ حمزة استُشهِدَ وهو أجل الناس في صدور المؤمنين ، وأعظمُ في أنفس المهاجرين . وإن امرأً يكون كُفْؤاً لحمزة في الإخاء ، وحمزةُ على ما وصَفْنا ، لَعظيمُ الشّأن ، رفيع المكان .

ولو لم يُعرَف من قدره إلاّ أنْ ذكره اللّهُ باسمه في كتابه ، كما ذكر لُقمْان ، ولم يفعلْ هذا لغيرِه من هذه الأمّة ، لقد كان ذلك دليلاً على المنْزلة والقُربة ، فكيف يجوز أن يكون في الحديث : « اللّهم عادِ مَن عاداه ووال من والاه » وحاله زيدٍ وصفتُه علَى ما ذكرنا وفَسّرنا ؟ ! مع أنَّ اللفظ في الحديث لو كان : اللّهم عادِ مَن عاداه ووال مَن والاه ، لم يكن فيه دلالة تضطرُّ إلى إمامته ، وحُجةٌ تقهر العقولَ وتحملها على معرفة خاصّته ، ولكنّه لفظٌ يدلُّ على الفضْل والقدر ، وليس بالتفضيل الذي لا بَعْدَه ، والتّقديم الذي لا فوقه .

وإنما الكلام الذي لا بَعده قول النبي صلى الله عليه : « ما أحدٌ أمَنّ علينا بصحبته من أبي بكر »، وقوله : « لو كنتُ متّخِذاً خليلاً لاتّخذت ابا بكر خليلاً »، وقوله : « أبو بكرٍ وعُمر سيّدا كُهولِ أهل الجنّة من الأوّلين والآخرين ، إلاّ النبيّين والمرسَلين ».

فإذا كان هذا الحديثُ مختلَفاً في أصله وفي صِحّة مخرجه ، ومُختلَفاً في تأويله وفرعه ، والحجّةُ في أصله متدافِعة ، والحجّة في فرعه متكافئة ، فكيف يكون جَحْد عليٍّ إمامته واستحقاقَه وفضيلته على نُظَرائه .

ولو كان هذا الحديثُ مجتمعاً على أصله وصحّة مخرجه ، ثمّ كان لفظُه محتمِلاً لضروب التأويل ، ما كان للرّوافض فيه حُجّة تَقطع الخَصْم ، وتُظهر المُبايَنة .

ولو كان هذا الحديث مجتمعاً على أصله وصحّة مخرجه وكان لا يحتمل من التأويل إلاّ معنىً واحداً ما اختلفت في تأويله العلماء ، ولا اضطربت فيه

الفقهاء ، ولكان ذلك ظاهراً لكلّ مَن صحّ لُبّه ، وحَسُن بيانُه ، ولا سيّما إذا كان الحديثُ ليس مُفْصِحاً عن نفسه ، ومعرِباً عن تأويله ، إلاّ عن قصد الرسول وإرادته لأنْ يكفيَهم مؤونة الرّواية والأسباب المشكّكة فينبغي على هذا القياس أن يكون علماءُ العثمانية وفُقهاء المُرْجئة تَعرف من ذلك ما تعرف الرّوافض ، ولكنّها تجحد ما تعرف ، وتنكِر ما تعلَم .

ولو كان هذا الحديثُ مجتمَعاً على أصله ولكنّه غامضُ التأويل ، وعويص المعنى ، لا يكاد يُدركهُ إلاّ الراسخُ في العلم ، البارعُ في حُسن الاستخراج ، كان العُذر في جهل إمامته وفضيلته على غيره واسعاً مبسوطاً لأكثر المسلمين ، وجُلّ الناقلين ، ولكبراء المتكلّمين .

وإنّما صارت الرّوافض إلى إكفار الأنصار والمهاجرين ، بِزَعْمِهم أنّ النبي صلى الله عليه نصّ على إمامته ، ودلّ على فضيلته ، فإنّه لا بدّ للناس في كلّ عصرٍ من إمام من ولده ، لأنّ ذلك الموضع إذا كان مَقْنَعاً ومَعْلَماً كان أخفّ على النّاس في المِحنة ، وأبعَدَ من الخطأ والزّلَل ، ولأنّ اختيارَ الله لهم لأنفسهم ، لأنّه لو كان ذلك لا يكون إلاّ بالنّظَر دونَ النّصّ لم يَصِلوا إلى إقامته ، لكثرة عدد الناس ، ولكثرة عدد الفضل ، ولما في ذلك من الإشكال عند الموازنة ، والشّغل عن العدوّ .

فإذا كان السّببُ في الإمامة هو الذي قالوا ، فلا بدَّ من حديثٍ لا يحتمل التّأويل ، ولا يَمنع من معرفة صحّة أصله وصِدق مَخرجه .

فإن قالوا : فإنّا سنأتيكم بمثل اللّفظ الذي أتيتمونا به حتّى لا يكون لفظٌ أدلّ على الغاية منه . من ذلك قولُ النبي صلى الله عليه عند طائرٍ أُتِيَ به فأراد أكله فأحبّ أن يَشْرَكَه في أكله أحبُّ الناس إلى الله فقال : « اللّهم آتِني بأحبّ عِبادك إليك يأكلُ معي هذا الطّائر » ثم قال لأنس : اخرُجْ فانظُر مَن ترى بالباب ؟ فخرج فوجدَ عليّاً فلم يَأذَنْ له ، ولم يُعلم النبي صلى الله عليه مكانه طمعاً أن يكون أنصاريّاً . ففعل النبي صلى الله عليه ذلك ثلاثاً ، كلّ ذلك

يحجُبه أنسٌ ، ثمّ ادخله ، فلمّا طلعَ قال : « اللهمّ وال ».

قيل لهم : أمّا واحدةٌ فإنَّ هذا الحديثَ ساقطٌ عند أهلِ الحديث ، ولو كان صحيحاً عندهم فلَم يجيء إلا مِن قِبَلِ أنَسٍ فقط ، وأنَسٌ وحدَه ليس بحجّة ، فلم يكن في ذلك مقالٌ ولا متكلَّم .

وثانيةٌ : إنَّ أَولى النّاس ألاَّ يَحتجَ بخبرِ أنسٍ لأنتم مَعْشَرَ الشيّع ، لأنَّ انساً عندكم كافرٌ كذّاب .

ولقد بلَغَ من سُوء قولكم فيه أنّكم زعمتم أنّه كَذَب على عليٍّ ، كذبَهُ وبَهتَه بأمرٍ ، فدعا اللّهَ عليه ثم بَصق في وَجْهه فبَرِصَ من قَرْنه إلى قَدَمه . وأنتم تكفّرونه بعَمَله للحجّاج ، وتزعمونَ أنّه ليس في الأرض أكفَرُ بالله ولا اجحَد لإمامة عليٍّ ولا أنقض لأمْرِهِ ، ولا أقتلُ لِشيعته من الحجّاج ولا مَن وَلاّه ، وأنَّ مَنْ وَليَ لهما في طريقهما وحكمهما .

وأخرى أنّه إذاً كان هذا الحديث كما تقولون وقد صَدَقتم على أنسٍ ، فقد زعم أنسٌ بزعمكم أنّه كذَبَ النبيَّ صلَّ الله عليه في موقفٍ واحد ثلاثَ مرات . وقد أمسكَ النبيُّ صلى الله عليه عن الطعام وهو يشتهيه ، فاحبَّ لشهوته له أن يَشْرَكه فيه أشبَهُ النّاسِ به فدعا ربَّه ؛ وأنّه إذْ دعا ربه ثلاثَ مِرَارٍ كلُّ ذلك يَسْتجيب له ، وكلُّ ذلك يراه أنسٌ ويَكذِبُ له ويصدُّه عن حاجته ، ويمنعُه سرعةَ الاستجابة ، وتعجيلَ قضاءِ الحاجة ، وتسويغَه أكْلَ المُشتَهى من طعامه . كلَّما دعا دَعوةً قال اخرجْ يا أنس فانظُرْ مَن بالباب ، ثقةً منه بربِّه ، واتّكالاً على الذي عِنده له ، ويرجع وقد كَتمَهُ وحجبَه عنه ، ومنعَه سرور تعجيل الدُّعاء ، وأكْلَ شهيِّ الغِذاء .

فإنْ كان أنسٌ كما تقولون فقد ركبَ أمراً عظيماً ، وذَهبَ مذهباً قبيحاً . وكيف يَصْدُق على النبي صلى الله عليه مَن خُلُقه بهذا ، وكَذَبه في وَجهه ثم لا تمنعه الأولى من الثانية ، والثانيةُ من الثالثة . هذا والوحْيُ ينزل بأسرعَ من الطَّرْف بلَعْنِ قومٍ ومَدْحِ آخرين .

وإنّ امرأً احتملت نَفْسُه وشاع في طبعه أن يواجهَ النبيَّ صلى الله عليه بالكَذِب ثلاثَ مرات في أحبِّ الناس وأوجبهم حقّاً عليه ، لحرِيٌّ ألاّ يصدق عليه في مُعْظم أمر الدين ، مع أنّ الحديثَ نفسَه هو أضعفُ حديث عند أصحاب الأثر مِن أن يحوجّنا إلى الإطناب فيه ، والإخْبار عنه .

ومتى ادَّعينا ضَعف حديثٍ وفَسادَه فاتَّهمتم رأْيَنا ، وخِفْتم مَيْلَنا أو غَلَطنا فاعتَرِضُوا حُمّال الحديث وأصحاب الأثر ، فإنّ عندهم الشفاء فيما تنازعنا فيه ، والعلمَ بما التَبَس علينا منه .

ولقد أنصَفَ كلَّ الإنصاف مَن دعاكم إلى المَقْنَع مع قُرب داره وقلّة جَوره وأصحاب الأثر مِن شأنهم رواية كلِّ ما صحَّ عندهم ، عليه كانَ أولَهُمْ . مع أنّ هذا الأمر ليس يُعْرَف من قِبَل الحديث ، وإنّما يُعرف من الوجه الذي به يُقضَى على جميع الدِّين .

وإنّما احتججنا عليكم في أنسٍ بالذي سمعتم ، لأنا وجَدْناكم تكفِّرونه حتّى إذا جرى سببٌ يؤكِّد ما تقولون جعلتم كُفرَه إيماناً ، وكذبه تصديقاً ، وعَداوتَه ولاية . ثُمّ لم ترضَوْا بأنْ ألحقتموه بالأولياء وأخرجتموه من حدود الأعداء ، حتّى أقمتم خبره وحدَه مَقَامَ خَبرِ من يكذِّب آياً به ، أو مقام خبرٍ يمتنع الكذب في مجيئه لاختلاف علَلِ أهْله .

فأمّا نحنُ فإنّا نرى أنّه رجلٌ عظيم الحُرْمة واجب الحق ، إذْ كان قد خدم النبي صلى الله عليه صغيراً واعتصم به كبيراً ، وكان من رهط صِدْق .

وأمّا ما حكيتم من ولايته للحجّاج فقد وَلِيَ للحجّاج وصَلَّى خلْفَه مَن كان يرى إكفارَه فضلاً عن من يرى تفسيقَه ، وفي البراءة منه وفي التَّقيّة سَعَة ، وفي الخوف عُذْر .

فأمّا الذي حكيتم من البياض الذي أصابه فإنّ المؤمنَ بعَرَض مَصائبَ ما كان في دار الدُّنيا . وما كان الذي أصابه في جَنْبِ الذي كان فيه أيُّوبُ النبي صلى الله

عليه ؟ ! وقد كان شُعيبٌ مكفوفاً !

ولو كان عليٌّ كما يقولون فأرادَ أنّه كـان إذا بصَق على إنســانٍ فأراد أنْ يبـرص بَرِص ، لَمّا كان بينه وبين عيسى بنِ مريم صلى الله عليه فرق .

والعجبُ إنْ كان كما تزعمون ، كيف لم يبصُق عـلى أبي موسى فَيُجْـذِمَه ، أو على جيشِ صفِّينَ فيهزمَه ؟ ! بلْ كان عليٌّ أظهر سلماً ، وأرجَـحَ حِلماً وأشدُّ ورعـاً ، وأكثرَ فِقهاً ، وأبينَ فضلاً ، من أن يَدَّعيَ هذا وشِبهَه .

[٤٥ـ تأويل العثمانية لحديث « أنت مني كهارون من موسى »]

وأمّـا قولكم إنَّ النبي صـلى الله عليه قـال : « أنتَ مِنّي كهـارون من مـوسى إلاّ أنّـه لا نبيَّ بعـدي »، وإنَّ النبي صـلى الله عليـه أراد بهـذا أن يُعلم النّـاسَ أنّ عليّاً وصيُّه وخليفتُه ، فإنا سنقول في ذلك ، وبالله وحده نستعين .

نقـول : إنَّ خلافـة الرَّجُـل لا تكون إلاّ في إحـدى منـزلتـين : إمّـا في حيـاة المستخلِف وإمـا بعد مـوته . ولم يقـل أحدٌ أنَّ النبي صــلى الله عليه استَخلف عليّـاً في غَزْوة من غزَواته ، في كثرة ما غزا ، وكثرة ما ولّى .

قـالوا بـأجمعهم : إنَّ النبيَّ صلى الله عليـه خَلَّفه في غـزوة تَبوك ، واستَخلف عـلى المدينـة محمَّد بن مسْلمـة . وقـال قـوم : المستخلَف ابن أمِّ مكتـوم . وهـم إن اختلفوا فلم يختلفوا أنّ عليّاً كان مقيماً بالمدينة والأميرُ غيره ، والإمام سِواه .

ولولا أنَّ خلفاءَ النبي صلى الله عليه في غَزَواته يُصَـاب عليهم بكلِّ مكـان ، وفي كـلِّ سيرة ، لقـد كتبتُـه لـك في كتـابِ الـذي رَدَدْتُ فيـه عـلى مَن صغّـر قـدرَ الإمامة وزعَمَ أنّها غير واجبة ، وأنّها تَصلُح في العـدد الكثير . وأمّا غير ذلـك من كتبي فلم أنتحِـلْ فيه قـولي ، وجعلتُ الكتاب هـو الذي عَبَّـر عن نفسـه ، وقمتُ مقـام جميع الخصـوم وجعلت نفسي عَدلاً بينهم . ولـو لم أكن عـلى ثقـةٍ من ظُهـور الحقِّ على الباطل لم أستحلَّ كتمـانه مـع زوال التّقيّة ، وصـلاح الدهـر ، وإنصاف القَيِّم .

ثم رجعنا إلى كلامِنا الأوّل فقلنا : لا بدَّ لخلافةِ الرَّجلِ من إحدى منزلتين : إمّا في الحياة أو بعد الموت : فأمّا في الحياة فلا يستطيع أحدٌ أن يقول : إنَّ النبي صلى الله عليه استَخلف عليّاً في حياته . وليس يضع ذلك من عليّ ، لأنَّ أبا بكرٍ وعُمَر اللَّذين هما عندنا أولى بالأمر منه لم يستخلفهما النبي صلى الله عليه قَطُّ في حياته . أو تكون الخلافة بعد الموت فلا يجوز أيضاً أن يكون النبي صلى الله عليه عنَى بقوله « أنتَ منّي بمنزلة هارون من موسى » الخلافةَ لعليٍّ بعده والذي قد عُلمَ أنَّ هارون قد ماتَ قبل موسى : لأنَّ هارون وموسى وأمّهما ماتُوا جميعاً في شهر واحد ، وكانَ موسى صلى الله عليه آخِرَهم موتاً . ولذلك قالت بنو إسرائيل لموسى : أنت قتلتَ هارون .

فإن قالوا : ومن يقول : إنَّ هارونَ مات قبل موسى ؟

قيل لهم : إنْ شئتم فاعترضوا أصحاب التفسير والسِّيرة ، والتمسوا عِلْمَ ذلك من قِبَلِ أصحاب ابنِ عبّاس ، وإن شئتم فأهل الكتاب يهودهم ونَصاراهم الذين ليس لهم في ذلك دَفْعُ مَضَرَّة ولا اجتلابُ منفعة ، ولو آثَرُوا أن يجحَدوا ما عَرَفُوا ، وأن يُطْبِقُوا على إنكار ما علموا ، وكان ذلك ممكناً في القُدرة ، سائغاً جائزاً ، لجحدوا أنَّ بني إسرائيل أخذَتْ موسى بقَتْلِ هارونَ تعنُّتاً وبغياً ، أو غلطاً أو جهلاً .

وهذا مشهورٌ عند أهل الكتاب وأهل التَّفسير .

وليس أحدٌ أحقَّ بأنْ يُصيب في الأمثال إذا ضَرَبَها ، ولا أولى بحُسْن التَّشبيه إذا شبَّه ، مِن خِيرة الله وصَفوته مِن رسله ، فكيف يجوزُ أن يقول النبي صلى الله عليه لعلي : « أنت منّي بمنزلة هارونَ من موسى » وهو يريد الخلافة ، وهارونُ لم يكن من موسى خليفةً من بعد موته ، ولم يكن عليٌّ خليفة النبي صلى الله عليه في حياته . ففي أيّ المنزلتين وعلى أيّة الحالَين يكون عليٌّ خليفةً إذْ لم يكن استخلَفه النبي أيّام حياته . بل كيف يجعلُه من نفسه بمنزلة هارونَ من موسى وهو يُريد الخلافة من بعده ، وهارونُ لم يكن خليفة موسى بعده .

ولا بدَّ للحديث مع سوءِ تأويلكم واضطراب حُجَّتكم من ضربين :

إمَّا [illegible] يكون باطلاً لم يتكلَّمْ بـه النبيُّ صلى الله عليـه . وإمَّا أن يكـون حَقّاً ومعناه غير ملتم ، وتفسيُره غير ما ادَّعيتم .

ولـو أنَّ النبي صلى الله عليـه أراد أن يجعلَ عليّاً خليفـةً من بعـده إذْ لم يكن جعَله خليفـةً أيّامَ حيـاته ، لَقـالَ : «أنت منّي بمنزلة يُوشـعَ بن نُـونٍ إلّا أنّـه لا نبيَّ بعدي »، لأن يوشع كان خليفةَ موسى في بني إسرائيل بعده ، وكان نبيّـاً قبل موت موسى وبعده .

فإنْ قالوا : إنَّ النبي صلى الله عليـه لم يَقصِد إلى الخـلافة ولم يُـرد الإمامـة ، ولكنَّه عنى الوِزارة .

قلنا : إنَّ وِزارة هارونَ من موسى لا بدَّ فيها من أحد أمرين :

إمَّا أنْ يكون موسى هو جعل له ذلـك وهو وزيـرُه على جهـة ما يتَّخـذ الإمام والملكُ وزيراً على معنى الاختيار والاستكفاء والثّقة .

أو يكـون وزيره عـلى جهة المؤازرَة والمكـاتَفة والتعـاون ، على أنَّ كـلَّ واحـدٍ منهما وزيرُ صاحبه ومعاونُه ومكـاتفه ، إذا غـابَ عن قومـه كان الآخـر خليفتَه ، لا على أنَّ موسى الجاعلَ ذلك له .

ولا منزلَة لهـارونَ من موسى إلا هـاتين المنزلتين في جهـة الخلافـة والوِزارة ، لأنَّ نبوّة هارونَ لا تكون من قِبَل موسى ، والنبوّة لا تكون إلا من قِبَل الله .

وليس يخلو قول موسى لهـارون : « اخلُفْني في قومي » عن ضـربين : إمَّـا أن يكون هو جَعله خليفَته على جهـة الاختيار والاستكفـاء والثقة بـه ، وإما أن يكـون خليفةً على أن يكون كلُّ واحدٍ منهما إذا غاب عن قومه كان الآخر خليفتَه .

فـإنْ كانت وِزارة هارون وخلافتُـه لمـوسى إنَّمـا كـانت منزلَتـين أنـزلـه فيهـما مـوسى ، وليسـت لهارون من مـوسى منزلـةٌ غيرهمـا ، فقال النبي صـلى الله عليـه :

« أنت منّي بمنزلة هارون من موسى » فكأنّما قال : لك خلافتي ووزارتي ، فكيف يقول : إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي . والنبوّةُ منزلةٌ من الله لهارون وليست منزلةً لهارون من موسى . فإذا كان ذلك كذلك فكيف يستثني الحكيم المرشد الشيءَ من [غير] شكله ؟ ! وهل يكون بعضٌ من غير كلّه ؟ !

وكيف يقول : قد جعلتك خليفتي ووزيراً ، إلاّ أني لم أجعلْك نبيّاً مثلي ، ومنزلةُ النبوّة ليست إليه كما كانت منزلةُ الخلافة والوزارة إليه . وإنّما قوله : « أنت مني بمنزلة هارون من موسى » يريد به : إن لك منّي مثلَ الذي كان لهارون من موسى ، وهو الخلافة والوزارة. فكيف يقول : « إلا أنّه لا نبيَّ بعدي » فيستثنْي ما لا يملكه ولا يجوز أن يملكه ، مما قد ملكه ويجوز أن يملكه مَن هو دونَه من خلفائه ومن خلفاء خلفائه .

أو يكون هارون كان وزيرَ صاحبه وخليفتَه عند الغَيبة وحضور الآخر ، ليس أنّه قد كان خليفةً ووزيراً . وإنْ كان ذلك كذلك فليست لهارونَ من موسى منزلةٌ من الوزارة والخلافة إلاّ ولموسى من هارون مثلُها . وإذا كان ذلك كذلك فقد صارت خلافتُهما ووزارتهما كنبوّتهما أو رسالتهما . وإذا كان ذلك كذلك فكيف يجوز أن يقول النبيّ صلى الله عليه لعليٍّ : أنت مِنّي بمنزلة هارونَ من موسى ، وليست لهارون من موسى منزلة إلاّ ولموسى مثلُها من هارون ؟ ! . . وكيف يجوز أن يقول النبي صلى الله عليه ذلك لعليٍّ ومنزلةُ هارون من موسى منزلةُ النبيّ من النبي ، والشكل من الشكل ، والمِثل من المثل ، وهي مَنْزلة من الله كما أن نبوّة موسى منزلة من الله ؟!

وكيف يقول : إلا أنّه لا نبيَّ بعدي ، وسبيل النبوّة سبيلُ منزلة هارون من موسى على ما حكيناه من التعاون والتآزر ؟ !

وإذا كان هذا الحديث لو صحّ في أصله وأوّل مخرجه ، وسلِمَ من الزّيادة والنُّقصان وجاءَ مجيءَ الحجّة ، لم يقدر القومُ على أن يجعلوه دليلاً موجباً وشاهداً صادقاً على خلافته وإمامته دونَ غيره ؛ فما ظنُّك به إن كان قد دخَله من الخلل

والضعف والاحتمال في الفساد ما يوجب تكذيبه وردّه .

وأقلُّ ما للعثمانيّة في هذا الحديث أنْ يُساوُوكم في تأويلكم ، وفي ذلك الخلاف بُطلانُ حجّتكم .

وقد زعمَ ناسٌ من العثمانيّة أنّ هذا الحديث باطلٌ من أجْل أنّه لا يحتمل من التأويل إلاّ ما حكيتُ لك ، وأنّ النبي صلى الله عليه لا يُعلن ولا يُظهر غير ما يُضمر ، ولا يتكلّم بالفاسد ، ولا يَستكْرِه المعانيَ ، ولا يتكلّم بالمتعقّد ، ولا يضرب مثلاً ولا يشبّه شيئاً بشيءٍ إلاّ وذلك الشيءُ وَفْق ما قال ، لا يزيد عليه ولا ينقص عنه .

ووجهٌ آخر : أنّ هذا الحديثَ لم يُروَ إلا عن عامر بن سعد . فواحدةٌ إنّ عامرَ بن سعد هذا لو كان بالفقه والحديث والفضل معروفاً وكان كأمثاله من بَنِي الصحابة كعبد الله بن عباس ، وابن عُمر ، وابن الزُّبير ، وأبي سلَمة بن عبد الرحمن وغيرهم ، ما كان ليكونَ وحدَه حجّةً في تأخير أبي بكر عن مَقامه ، فكيف وهو في غير سبيلهم وطريقهم .

ولو سمِعْنا هذا الخبرَ من سعدٍ وحدَه ما كان إلا حجّة على نفسه كالحجّة على عليٍّ في روايته أن النبي صلى الله عليه قال في أبي بكرٍ وعمر : « هذان سيّدا كهول أهل الجنة » .

وكيف يَروى هذا سعدٌ مع قوله في الإمامة : « ما أنا بقميصي هذا أحق مني بها » وهو يدعو عليّاً إلى الشورى والمخَايرة والمكاثرة بالمحاسن ، ويقول « أعيدُوها شُورَى كما كانت »، ويعيبُ عليّاً بالاستبداد ، ويقول : « كنتُ سابع سبعةٍ مع النبي صلى الله عليه ، ما لنا طعامٌ إلاّ ورق الشّجر ، ثمّ جاءني أعرا يعلّمني دينَ الله ، ما أنا بقميصي هذا بأحقّ منّي بها ».

وإنّما فخَر بأنّه كان سابعَ سبعةٍ على عليٍّ لأنّ عليّاً لم يكن فيهم عندَه وكان إمّا حَدَثاً صغيراً وإما على أمر غير ذلك .

وسعدٌ من العَشَرة ، ومن السِّتَّة ، ومن السَّبْعة ، والمستجابُ الدَّعوة . وقال له النبي صلى الله عليه : « ارمِ فِداكَ أبي وأمي » . ومن كان هذه الأمور مستحقّاً لم يجمع بين طلبِ مخايرةِ رجلٍ ومكاثرته بالمحاسن وهو مُقرٌّ أنَّ النبي صلى الله عليه جَعَلَ خصمه منه بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أن يكون تأويلُ الحديث عند سعدٍ وعند من شهد سعداً على غير معناكم .

وحديثُ عامرٍ على غير ما يَروُون ، وإنّما قال : « أنت منّي بمنزلة هارون من موسى ، إلاّ أنّه ليس معي نبيّ » ، هكذا رَوَوه عن عامر بن سعدٍ على غير معناكم .

وفي قول النبي صلى الله عليه : « هذا خالي أُباهي به فليأت كلُّ امرىء بخاله» تفضيلٌ له على كلِّ خالٍ في الأرض ، وقد كان عليٌّ خالَ جعدة بن هُبيرة ، ولم يستثن أحداً .

فإنْ قالوا : الدليل على ما قلنا أن النبي صلى الله عليه لمّا آخَى بين المهاجرين والأنصار آخَى بينه وبينه ، فلولا أنّه كان أشبهَ الناس به هَدْياً ، وعلماً وفضلاً ، لم يجعله عِدْلَ نفْسه دونَ غيره .

قيل لهم : أنتم ليس لكم علمٌ بالأثر ولا بالخبر . وكيف يعرف الآثار والأخبار من يكفِّر الأسلاف ، ويَبرأ من التّابعين ، ويَجحد كلَّ ما لم يوافقْ هواه ، ويدَّعي ما وافَقَ هواهُ وإنْ كان باطلاً ، بل لا يرضَى حتى يتقوَّل الزُّور ويولِّد الباطل .

وليس شيءٌ أيسرَ من أنْ يقول قائل : إنَّ النبي صلى الله عليه لما آخَى بين أصحابه آخَى بين نَفْسه وبين أبي بكر . ولكنَّ الحقَّ أحقُّ ما خُضِع له واحتُمِل ما فيه . وهذه الفقهاءُ وأصحاب الآثار عُرْضَةٌ لكم ، فإن لم يقولوا إنَّ النبي صلى الله عليه لما آخى بين المهاجرين والأنصار آخى بين عليٍّ وسهل بن حُنَيف فنحن أولى بجحد المعروف منكم . وقد قال الله : ﴿ فَاسألُوا أَهْلَ الذِّكر إنْ كنتم لا تَعْلَمون ﴾ .

وأنتم لستم أصحاب آثارٍ ، فاسألوا أصحاب الآثار إن كنتم لا تعلمون ، فإن ذلك أمرٌ مشهور لا خَفاءَ به ، ولا دافعَ له ، أعني المؤاخاةَ بين عليٍّ وسَهل ابن حُنَيف .

ولِثقةِ عليٍّ به استعملَه على المدينة حين خرجَ عنها . ومن أجل سَهل بن حُنَيف امتنع الزبير وطلحةُ أن يَركبا عثمانَ بنَ حُنَيف والي عليٍّ على البصرة بأكثَرَ مما كانا ركباه به . ولذلك السَّبب صلى أبو أُمامةَ بنُ سهلِ بن حُنَيف بالناس في مسجد الرسول صلى الله عليه وعثمانُ مُحاصَر ، لرأيِ عليٍّ كان في ذلك ، ولغلَبته على الدّار ، وأنّه كان يُطاع بأكثر من طاعة الزُّبير وطلحة وسعد .

وإنَّما آخى النبي صلى الله عليه بينه وبين سهل بن حُنَيف الأنصاريّ كما كان آخى بينَ عثمان بن عفّان وأوس بن ثابت . ولذلك قال حسّان يحامي دونَه ويَنصُرُهُ بالكلام والشّعر ، ويُظْهر الميل على عليٍّ حين قال :

يا ليت شِعري وليتَ الطّيرَ تُخبرني	ما كان شأنُ عليٍّ وابنِ عفّانا
لتَسمعنَّ وشيكاً في ديارِكمُ	اللّه أكبرُ يا ثاراتِ عُثمانا

ولذلك قال في كلامٍ له وهو يعتمد رأي عليٍّ واختياره : ثكلت أمُّ نزّالِ حَرْب لقي ابن أبي طالب كفاحاً ، وسعدت أمّ نزال رأيٍ لقي ابن أبي طالب سهواً . في كلام كثير ، وشعر كثير .

وكما آخى النبي صلى الله عليه بين أبي الدَّرداء ، وسَلْمان ، وبين عبد الرحمن ابن عَوف وسَعد بن الرّبيع ، وبين حُذَيفة وَعَمّار ، وبين حَمْزة وزَيْد ، وبين أبي بكر وعمر .

فإنْ قالوا : فلعلَّ النبي صلى الله عليه آخى بين عليٍّ وبين نَفْسه ، وبين عليٍّ وبين سهل بن حُنَيف ، وهذا ما لا يتدافع ، كما كان يؤاخي بين الرَّجُل المهاجِريّ وبين الأنصاري ، وقبلَ ذلك ما آخَى بين المهاجرين بعضِهم في بعض ، فكان الرَّجُل منهم تصير المؤاخاةُ بينه وبين اثنين : مُهاجريّ وأنصاريّ .

قلنا لهم : أمّا واحدةٌ فإنّا لم نجدْ لقولكم إنَّ النبي صلى الله عليه آخى عليّاً

إسناداً يثق به أصحابُ الحديث فضلاً عن أن يكون جاء مجيء الحديث . ولو كان النبي عليه السلام حيث آخى بين المهاجرين ولم يرض لعليٍّ إلاّ بنفسه لفضل عليٍّ على غيره وأنّه أشبَهُ الأمّةِ به وأقربُهم حالاً من حاله . ثم آثر أن يُؤاخِيَ بينه وبين رجلٍ من الأنصار كفعله بغيره من المهاجرين ـ كان ينبغي له أن يؤاخِيَ بينه وبين أفضل الأنصار ، إذْ كان الذي يمنَعُهُ من أن يُؤاخِيَ بينه وبين بعض المهاجرين طلَبَ أفضلِهم ، وكان ينبغي على هذا المذهب أن يؤاخي بينه وبين سَعد بن مُعاذ .

فإنْ قالوا : سهل بن حُنَيف أفضلُ من سَعدٍ ومن حَمِيِّ الدَّبْر ومن غسيل الملائكة ، ومن مكلِّم الذِّئب ومن غيره ، لم يكن هذا منكراً من مكابَرتهم وجهلهم .

فإنْ قالوا : إنّه جائز أن يؤاخي بين غير الأشكال في الفَضْل ، وجائزٌ ألاّ يؤاخيَ بين المتساويَين والمتقاربَين .

قيل لهم : فلعلَّ أيضاً النبيَّ صلى الله عليه لم يؤاخِ بين نفسه وبين عليٍّ ـ إنْ كان آخاه كما زعمتم ـ من قِبَل تقاربِ الحال والمشاكلة في الأفعال . ولعل النبيَّ صلَّى الله عليه لم يؤاخِ عليّاً رأساً إذا أجاز ألاّ يؤاخيَ بين الأشكال ، ولا يقارب بين الأمثال . وأدنى ما فيه أن يكون ذلك قد كان جائزاً .

[٤٦ ـ تأويل الشيعة لحديث امرة ابي بكر في الصلاة والرد عليه من العثمانية]

فإن تركوا هذا أجمَعَ وقالوا : كيف يجوز أن يكون أبو بكر هو الإمام وقد كان النبي صلى الله عليه جَعَلَه في جيش أسامة ، وما زال يقول في شَكاتِه : « أنفذوا جيشَ أسامة » يُعيد ذلك ويكرِّره ، إلى أنْ قبضَه الله إلى جَنّته .

قيل لهم : إن في أمر النبي صلى الله عليه له أن يقوم مقامَه في الصَّلاة

بالمسلمين . وعائشة وحفصة قد اعتونتا ليصرفا ذلك إلى عمر ، ويقولان : إنّ أبا بكر رجُل رقيق لا يستطيع أن يقوم مقامَك .

وهو قد ودَّع المسلمين في خطبته التي خطبها في شَكاته حينَ قال: « إن عبداً من عباد الله خيّره الله بين الدُّنيا والآخرة فاختار الآخرة » فبكى أبو بكر ، فعجبَ الناس منه وقالوا : قال رسول الله صلى الله عليه : إن عبداً من عباد الله !! قالوا : وكان أبو بكرٍ أعلمنا برسول الله صلى الله عليه . هكذا الخبر ثم جاء جبريلُ في شَكاته فقال : يا محمّد ، هذا مَلَك الموت يستأذنُ عليك ولم يستأذنْ على آدميٍّ قبلَك . قال : ائذَن له . فأذِنَ له جبريلُ حتّى وقف بين يَدَيِ النبي صلى الله عليه ثم قال : يا محمّد ، إنَّ الله أرسلَني إليك وأمرني أن أطيعَك فيما أمرتَني به ، فإن أمرتَني قَبْضَ نفسِك قبضْتُها ، وإن كرِهتَ ذلك تركتها قالوا : فسمِع النبيُّ صلى الله عليه يقول : « الرَّفيقَ الأعلى » . فعُلِمَ أنّه قد خُيِّرَ صلى الله عليه .

ثم كان عند كلّ صلاةٍ لا يجِد عندها إفاقةً يقول : « مروا أبا بكر يصلِّي بالناس » ويقول : : « أبَى الله إلاّ أبا بكر »، وفي قوله أبَى الله أن يصلِّي إلاّ أبو بكر ، دليلٌ أنَّ ذلك مِن قِبَلِ الوحي مع قوله لعَائشة وحفصة حين أرادتا صرفَ ذلك إلى عمر : « أنتن صَواحبات يوسف ، أبَى الله ورسولُه أن يصلِّي إلاّ أبو بكر » بالغِلَظ . فلو كان الخَطْبُ في ذلك صغيراً ما أغْلَظَ النبي صلى الله عليه لهما ، ولا اشتدَّ عليهما .

فإنْ قالوا : وما دعا عائشةَ إلى صرفِ هذا الأمرِ العظيم والمَقَام الشريف إلى عمر ؟ .

قيل : فإنّه ليس عندنا في ذلك إلاّ ما اعتَذَرَتْ هي به لنَفْسها ؛ فإنّها قالت : إنِّي والله ما أردتُ صرفَ ذلك على أنِّي لم اعرفْ شرفَه وخطره ، ولكنِّي خِفْت أن يتشاءم المسلمون به ، وإلاّ يحبُّوا رجلاً قامَ مقامَه أبداً .

فأمّا حديث الرَّبيع بين صبيح عن الحسن فإنّه زعَمَ أنّها قالت : خِفتُ

الاَّ يطيقَ حملَ الخلافة ، وظننتُ أنَّ الناس سيُريدون منه مثلَ ما تعوَّدوا من النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلمتُ أن أحداً لا يكون كالنبي . فإنْ كان النبي صلى الله عليه وسلم جعله في جيش أُسامَة فقد استثناه حينَ اشتكى ، من جميع الجيش ، إذا استخلفه في مقامَه ، وأمَره بالصَّلاة لأمَّته ، لأنَّ من صلَّى في مَقام النبيِّ صلى الله عليه وسلم وفي مسجده ومُصَلاَّه، في أعياده وسائرِ أيَّامه ، فقد صلَّى بجميع الأمة ، وتأمَّر على جميع البريَّة .

وإنما أدخلْنا فيها صلاة الجمعة والعيدين لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم حين قال : « أبى اللّهُ ورسولُه إلاَّ أنْ يصَلِّيَ أبو بكر » لم يستثن صلاة دون صلاة . فإذا كان الكلامُ عامّاً والنبيُّ صلى الله عليه وسلم على يقينٍ مِن فراق الدُّنيا ، والوحيُ ينزل عليه ، فقد دخلَ في ذلك صلاةُ العيد والجمعة ؛ لأنَّ النبيَّ يتكلَّم كلاماً عامّاً .

وقد علم الله ورسولُه أنَّ الكلام العامَّ يتَّخذُه النَّاسُ حجةً فيما يدلُّ عليه العامّ .

وقد علم اللّهُ أن أبا بكرٍ سيصلي بالنَّاسِ في أعيادهم وسائرِ صلاتهم وأنَّه سيُحتَجُّ في استحقاق أبي بكر بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « أبى الله ورسولُه أنْ يصلِّيَ إلاَّ أبو بكر »؛ فكان ذلك دليلاً على أنَّ الله قد أراد ذلك وأوجَبَه ، وعَناه وأحبَّه .

فهذا دليلٌ على أنَّ أبا بكرٍ لم يُخَالفْ أمرَ الله بتخلفه عن جيش أُسامة إنْ كان أبو بكرٍ ممَّن كان في ذلك الجيش قَبْلَ شكاةِ النبي صلى الله عليه وسلم وأمْرِه له بالصَّلاة .

وهناك دليل آخرُ يدلُّ على ما قلناه . وهو أنَّا لم نجِدْ أحداً من المسلمين ولا من الأنصار والمهاجرين ذكروا عنه في ذلك الدهرِ حرفاً واحداً مِن ذكر تخلُّف أبي بكرٍ ، لا عائباً زارياً ، ولا مستفهماً مُسترشداً ، ولا متعجِّباً ناقماً ، ولا مصوِّباً عاذراً ؛ ولم يذكُرْ أحدٌ حديثاً ـ ضعف إسنادُه أمْ قوِيَ ـ أنَّ أحداً احتجَّ لأبي بكرٍ

ولا عليه .

ولا يكون رجلٌ في مثل نباهة أبي بكر وقدْره ، وفي مِثل نباهةِ ما صار إليه ، لأنّه لا موضعَ أولى بشدَّة الحَسَد وكثرةِ الطّعن منه ، وقد كان منه التخلُّف الذي لا يَخْفَى موضعه ، مع توكيد النبي صلى الله عليه وسلم وشِدَّته على ذلك ، ثم لا يلجأ في تخلُّفه إلى حُجّة ولا أمْر من النبي صلى الله عليه وسلم ثم يُطبق جميعُ الخلق في ذلك على السُّكوت والرضا والاستحسان أكثرَ مما صارُوا إليه .

هذا وبنو عبدِ منافٍ شهودٌ ، وخالد بن سعيد قد ترَك بيْعَته ستّة أشهر ، وقال : أرضِيتُم معشرَ بني عبد مناف أن يلي عليكمْ رجلٌ من تيم ؟ ! وقال أبو سفيانَ بنُ حربٍ مثلَ ذلك . وقالت الأنصار : مِنّا أميرٌ ومنكم أمير . وقد سمع أبو قُحافة رجّةً وهو بمكة ، وهو مكفوف ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : مات النبي صلى الله عليه وسلم قال : فما صنع الناس ؟ قالوا : أقاموا ابنك . قال : فرضيتْ بنو عبد منافٍ بذلك ؟ قالوا : نعم : قال : وبنو المغيرة ؟ قالوا : نعم . قال : فلا مانعَ لما أعطى الله ، ولا معطيَ لما منع .

وفي إطباق الجميع على السكوت عن التخلُّف بعينه ، مع قول خالدٍ وأبي سفيان ، دليلٌ على أنهم لو وجدوا غميزةً أو خلافاً أو معصيةً لم يدَعُوا الاحتجاج به ، والخوضَ فيه . ولو كانت البقية قطعتهم عن ذلك لقطعَتْهم عن ذِكر الطّعن في إمامته ، كما قطعَتْهم عن ذكر الطّعن في تخلُّفه .

وفي رضا أُسامة وتسليمه وسكوته وقناعته حتى لا يُحكى عنه في ذلك كلمةٌ واحدة ، دليلٌ على ما قلنا .

فإنْ قالوا : إنّ أُسامة قد عرَف صنيعَه في تخلُّفه ولكنّه كان في تقيَّةٍ منه ، لأنّ أبا بكرٍ لو لم يكنْ هو المطاعَ في العَوامّ ، والمُقْنِع في الدَّهماء ، ما تَقدَّم بني عبد مناف وكان أُسامةُ لا يستطيع أن يُبدِيَ في دهرِ عمرَ من ذلك شيئاً ، لشدَّةِ عُمَر في تعظيم أبي بكر ؛ لأنّ الطّعنَ في أبي بكرٍ راجعٌ على عمر ، وأن رعيَّة عمرَ هم رعيّةُ أبي بكر وكذلك كان أُسامةُ في دهر عثمان ، لأنه نَسَقٌ واحد وسبيلٌ

واحدة .

قيل لهم : فما مَنَعه أنْ يتكلمَ في دهر عليٍّ ومع عليٍّ يومئذ مائة ألف سيف يُطيعه . وهل عندكم في أسامة أكثرُ من أن تَدَّعوا على ضميرِهِ غيرَ ما يدلُّ عليه ظاهرُ عملِهِ ؟ ! وإنَّ أَوْلى الناسِ ألَّا يحتجَّ بأسامة لأنتم ؛ لأنَّ أسامةَ هو الشاهد لطلحةَ على عليٍّ ، حين قال عليٌّ : بَايَعتَني ونكثْت بيعتي . قال طلحة : « بايعتُك واللُّجُّ على قَفَيَّ » . فقال أسامة : أمّا السَّيفُ على قفاه فلم أره ولكن بايَعَ وهو كاره . في أمورٍ كثيرةٍ تدلُّ على أنَّ أسامة كان عمريّاً ، ليس هذا موضعَ ذكرها . فهذا هذا .

وفي إطباقهم جميعاً يَدْعونَهُ خليفةَ رسولِ الله مِن تلقاءِ أنفُسهم ، لا مكْرهين ولا مقهورين ، لم يُرفع عليهم سوطٌ ولا شُهِر سيف ، ولا سَمِعوا وعيداً ، ولا رأَوْا لذلك أثراً ، ولا رأَوْا منه إمرةً لبعض العشائر ، فيخافون أنْ يتقوَّى بهم عليهم ، مع كثرة العَدد واختلافِ الأنساب وتفرُّق الأهواء ، و[في] الذي قبلَه ، دليلٌ على ما قُلنا ، وحُجَّة على الذي ادَّعينا .

ومما يُقرِّب من قولنا قولُ النبي صلى الله عليه : « أنفِذُوا جيشَ أسامة » . فقد يعلم المستدلُّ أنَّ النبي صلى الله عليه إنَّما قصَد بذلك الأمر في خاصَّته والمُطاعِين ، لأنَّ قولَه : « أنفِذُوا » دليلٌ أنّه قد كان هناك مَن ينفِّذ أمرَه ، وإليه قَصَد بالأمر مُذْعِنين غير ساخِطين .

ولو كان الأمرُ إنَّما كان لأسامة وأصحابه كان اللَّفظُ على غير هذا .

فإذا كان ذلك كذلك فمَنْ أولى بأن يكون من المخاطَبين المُطاعين مِن أبي بكر وخليله وصفيِّه ، على ما كتبتُ لك في كتابي هذا ، مع أنّا لم نبلُغْه ولم نَستقصِه ، إمَّا بالخوف منّا والكراهةِ لإطالة الكتاب ، وإمَّا بالتقصير منّا في معرفةِ جميع محاسنه .

ووجهٌ آخر : أنّك لو جَهِدتَ أن تجدَ لحديث مَنْ زَعَمَ أنَّ أبا بكرٍ كان في

جيش أسامة اصلاً لم تُجدْ ، وإنّما أتى عامّةُ ذلك من قِبَل كونِ عُمرَ في ذلك الجَيْش ، لأنّ عمرَ وأبا عبيدة كانا من أوّلِ مَن انتَدَبَ في ذلك الجيش.

ولمّا كان النّاسُ كثيراً ما يَروْن عمر يجري مع أبي بكر غلطوا في ذلك في مواضعَ كثيرة ، حتى جرّ ذلك على أبي بكر فِرارَ عمرَ يومَ أُحد ، فقال مَن لا علم له : وفرّ يومَ أحدٍ أبو بكر وعمر . وموقف أبي بكر والنّفرِ من المهاجرين في يوم أُحدٍ اشهَرُ من أن يَطْمسَ عليه جاحد .

ومن ذلك أنّ عمر كان في جيشِ ذات السُّلاسل ، فألحقوا به أبا بكر .

فإنْ أبَوْا إلاّ أن يكون قد كانَ في ذلك الجيش فالجوابُ على ما قلنا .

فإنْ قالوا : قد سمعنا مقالتكم ، ولكن ما الدَّليل على انّ النبي صلى الله عليه أمرَ أبا بكر بالصَّلاة بالناس ؟ .

قلنا لهم : إنه ليس لأنّه كان مأموراً بالصلاة فقط ، ولكنه صلّى بالنّاس سبعَ عشرةَ صلاةً إلى أنْ تُوفّي النبي صلى الله عليه وذلك أنّ النبي عليه السلام بدىء يومَ الأربعاء لليلتين بقيتا من صفر ، ويومَ الاثنين لاثنتيْ عشرةَ مضت من ربيع الأوّل . وهذا هو السبب عندهم .

وزعم أصحابُ السِّير والأخبار أنّ النبي صلى الله عليه كان يأمر بلالاً بالأذان ، فإذا وجَد إفاقةً خرج يصلّي بالنّاس ، وإن اشتدَّ ما به قال : « مُروا أبا بكرٍ يصلّي بالنّاس » ؛ فكان النبيُّ وأبو بكر يصليان على [التناوب]؟

فإن أنكروا أن يكون النبي صلى الله عليه أمَرَ أبا بكر أن يصلِّيَ و[ادّعوا] أن هذه الأخبار كلَّها باطل ، وأنّ العلّة في هذه الأيام كلّها لم تمنع النبي صلى الله عليه من الصّلاة حتّى مات .

قيل لهم : أرأيتم هذا الذي قُلتموه وادّعيتموه ، أشيء استخرجتموه أو سمعتموه ؟

فإنْ زعموا أنهم سَمِعوا قلنا لهم : فأتُوا بفقيهٍ واحد أو محدِّث يقولُ كما

تقولون ، ويحدث كما تزعمون ، وجميع ما يُدّعى باطل .

وإن كانَ إذا اعترضوا المحدِّثين والناقلين لم يجدوا أحداً إلاّ وهو يُخبر بما قُلنا فالحقُّ أحقُّ أن يتّبع . ولا يجوز أن يقولوا : إنّا استخرجْنا معرفةَ هذا المعنى ، لأنَّ الاستخراجَ لا يكون إلاّ من عِيانٍ أو خبر .

أوَ ليس قد كان النبيّ موضوعاً على سريره حين زاغت الشّمسُ يوم الاثنين إلى حين زاغت من يوم الثُّلاثاء ، يصلّي النّاسُ عليه وهو على شفير قبره وأبو بكر يصلّي بالناس ؟ !

فإنْ أتوا بحديثٍ واحدٍ أنّه صلّى بالناس في غير ذلك الوقت غيرُ أبي بكرٍ فالقول كما قالوا . وإنْ أتَوا بحديثٍ واحد أنّه صلّى بالنّاس غيرُ أبي بكر أوّلَ صلاة صلاّها المسلمون [حينَ] اختلفوا في تأمير الأمراء واستخلاف الخلفاء عليهم ، كما قالت الأنصار : منا أمير ومنكم أمير فالقول كما قالوا

وهل يستطيعون أن يزعُموا أنهم قالوا : منّا مصلّ ومنكم مصلّ .

والعجب كيف لم يقولوا : إنَّ عليّاً لم يزلْ هو المصلّي بالناس ، والمأمور بالصّلاة ، فغُصِب حقّه وظُلم مقامَه ؟ !

وكيف يجوز أن يجيء رجلٌ من أرضه وسمائه من غير نسب ولا سبب ، حتّى ينفذ من أشرف المقامات ، بحضرة القرابةِ والعشيرة ، من عمٍّ وابن عم ، وقريبٍ ونسيب ، وجِلّة المهاجرين والأنصار ، والعظماءِ وعِلْية قريش ، ودَهْماء العرب ، ثمّ لا يتكلّم في ذلك رجلٌ واحد ؟ ! فإنّما يقول هذا مَن لا يعرف قَدْرَ ذلك المقام في الصّدور ، وكيف طبائع قريش وأنفة العرب .

[٤٧ ـ الرد على احتجاج الشيعة بان الناس لم يجمعوا على امامة أبي بكر]

فإنْ قالوا: كيف يكون أبو بكر إماماً ولم يجتمع المسلمون على إمامته والرِّضا به ؟ ! وقد قالت الأنصار : منّا أمير ومنكم أمير ، وقال سَلمان : « كَرْداذْ

ونَكَرْداذ ». وقال خالد بن سعيد : أرضيتم معشر بني عبد مناف هذا . وقال أبو سفيانَ بنُ حربٍ مثل مقالته ، وخرجَ الزُّبير بسيفه شاهرًا ، فلمّا رآه عمر قال : دُونكم الكَلب . وجلس عليٌّ [في] منزله واعتلَّ بأنّه آلى ألاّ يبرَح حتّى يجمع القرآن .

قيل لهم : ليس الأمر على ما تقولون . ولو كان الأمر على ما تقولون ما كان خلافُ هؤلاء ناقضاً لأمره ، لأن الرجل إذا كان افضلَ النّاس وأكمله وانفعه للمسلمين وأردَّه عليهم ، فعليهم إقامتُه والتّسليم له ، والرِّضا به ؛ لأنَّ كلَّ ما عددتَ لك من فضله هم كانوا أعلمَ به ، إذْ كانوا يُسافرون معاً ويُقيمون معاً ، وكانوا أعنى بمعرفة الخَيْر ، وأسرعَ إلى العلم به منّا ومن أهل دهرنا .

ولو كان أبو بكرٍ تنتقضُ إمامتُه ، وكان عليه اعتزال ذلك المقام ، بخلاف رجلٍ أو رجُلين أو ثلاثة ، كان أولى النّاس بأن يكون له في الإمامة سببٌ ولا حقٌ ومتعلّق عليٌّ بن أبي طالب ؛ لأن سعد بن أبي وقاص كان أحد الشُّورى وأحد الأكْفاء ، وقد أباه وقال قولاً آبينَ من قول خالدٍ وأبي سُفيان وسلمان ، قال : « ما أنا بقميصي هذا أحقُّ منّي بها ، أعيدُوها شُورَى ، أمّا بالسَّيف فلا أريدُها » . وقال لرسل عليٍّ حين أرادُوه على بَيعته : ثكلتْ أمٌّ لم تلدني ، لئِنْ كنتُ سادسَ ستّةٍ ما لنا طَعامٌ إلاّ وَرَقُ البَشَام ، وقد جاءني أعرابُ الأوس تعلّمني دينَ الله ؟ ! في كلام كثير .

وخالفَه طلحةُ والزُّبير وهما شريكاه ، وأحدُهما فارس النبي صلى الله عليه ، والآخر وقايته ، فقال عليٌّ : بايعتماني ؟ قال : الزُّبير : ما بايعتك قطُّ ، إنْ كنتَ على يقين أنّك أولى بها فاجعَلْها شُورى ، يجمع وحقٌّ دعواك من باطله .

وقال طلحة : « بايعت واللُّجُّ على قَفَيَّ » حين رقى إليه العساكر وطعنت عليه عائشةُ واستحلّت محاربته . ثمّ اجتمع على حَربهِ أهلُ الشام قاطبة فيهم عبد الله بنُ عمر ، وكعب بن مرّة البَهْزي ، وكان من فُضَلاء أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو الذي قال حيث قال النبي صلى الله عليه : « ستكون

فتنة هذا فيها يومئذٍ على الحق »، وأومأ إلى رجل مقنّع ، فكشف عن رأسه فإذا هو عثمان ، فلمّا قُتِل عثمان وهو يكفّ عن القتال استنصر ، فكان يحدّث هذا الحديث .

ومنهم واثلة بن الأسقع اللّيثي ، وله صحبة ونُسْك ، والنُّعمان بن بشير ، ومَسْلَمَة بن مَخْلد ، وحبيب بن مسلمة ، وذو الكَلَاع ، ومُعاوية بن حُدَيج .

ومن التابعين أبو مسلم الخَوْلاني ، وشُرَحبيل بن السِّمْط ، وعمرو بن وافد الغامديّ الذي قال [فيه] مكحول : كأنّه قد مات ودَخَلَ النّار وحُوسب ثم رُدّ إلى الدُّنيا ، فمعه خَوْف المجرّب .

ثم خالف عليه خاصّةُ إخوانه ونُسّاك أصحابه ، وأهل البصائر من جُنده وحدت حتّى أكفروه وخلعوا إمامته وولايته .

وفيهم مع نسكهم وجِدِّهم نَفرٌ من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منهم فروةُ بن نَوفل الأشجعي ، وحُرقوص بن زُهير . وفيهم عبد الله بن وَهْبٍ الراسبي ، وزيد بن حِصْن الطائي .

ولقد دعا مُحمد بن مَسلمة إلى عَونه ، واعترضَ آخذاً بسيفه ، ثم كسره وقال : أضربُ المسلمينَ بسيفٍ ضربتُ به الكافرين ؟ !

فدعا زيدَ بن ثابتٍ إلى عونه فأبى وقال : أنت والله تعلم أنّ لو شَحَا أسدٌ فاهُ لألقمتُه كَفّي دُونَك ؛ فأمّا أن أضربَ بسيفي لأؤكّد لك مُلْكاً فلا .

ودعا عبدَ الله بنَ عمر فقال حين أراده على بيعته : إنّي لن أنزع يدي من جماعةٍ وأضعَها في فُرقة . وكذلك قال حين قيل له بعد ذلك : لو بايعتَ أخاك عبد الله بن الزُّبير . قال : إنّ أخي وضع يده في فُرقة ، وإنّي لن أنزع يدي من جماعةٍ وأضعَها في فُرقة .

وطعن عليه سَعد بن زيد بن عَمرو بن نُفَيل وعلى طلحة وقال : « فتنة عَمياءُ يَخبط أهلُها ». قال طلحةُ : ابن عمّك كان أعلمَ بي وبك حين جعلني في

الشُّورى وأخرجك منها . قال : إنَّ ابنَ عمِّي خانك وأمنني .

ودعا إلى بيعته وعَوْنه أسامةَ بنَ زيد فقال : إنّي إذاً لمفْتون ! وأسامةُ هو الذي كان طلحة استشهده على قوله : « قد بايعْتُ واللُّجُّ على قَفَيّ » فسئل أسامةُ عن ذلك ، فكلّمه طلحةُ بكلامٍ غليظ .

وقول صهيب أيضاً ، وسلمة بن سلامة بن وَقْش ، كل هؤلاء السبْعة [ما منهم] إلاّ من شهد بدراً .

وزعم ابن سيرين والشّعبيُّ أنّهما قالا : وقعت الفتنة بالمدينة وأصحابُ النبي صلى الله عليه أكثرُ من عشرة آلاف ، فقال : فما يَعدُّون مَنْ خَفَّ فيها عشرين رجلاً . فسَمّيا حرب عليٍّ وطلحة والزُّبير وصِفّين فِتنة .

وكما قال الشّعبيّ : من حدّثك أنّه شهد الجمل ممن شهد بدراً أكثرُ من أربعة نفر فكذّبْه . كان عليٌّ وعمّار في ناحية ، وطلحة والزُّبير في ناحية .

وقد تعلمون أنّه لم يكن في الأرضِ عثمانيٌّ إلاّ تعلمون أنّه مُنكرٌ لإمامته . وهم أكثر عدداً وأكثرهم فقيهاً وعدّثاً . ولقد كان الرّجلُ من أصحاب الآثار يُظنُّ به التشيُّع فيُترك ويضعّف ويُتّهم عند أهل العلم ، حتّى أنّه كان يطويه ويَستُره أكثرَ مما يَستُر السُّوءة يكون بجلده .

فلو كان الفاضلُ الكامل تنتَقِضُ إمامتُه وتفسُد عدالتُه من قِبَل خلاف أربعةٍ أو خمسة ، لما كان في الأرض أشدُّ انتقاصاً من إمامة علي .

[٤٨ ـ تأويل قول أبي بكر : منا أمير ومنكم أمير]

أما قولكم : إنَّ الأنصار قالت لقريش والمهاجرين : منّا أميرٌ ومنكم أمير ، فهذا إلى أن يكون حجّةً عليكم أقربَ ، لأنَّ النبي صلى الله عليه وعلى آله لو كانَ أقامَ عليّاً وجعله خليفةً ووصيّاً ونَصَّ على ذلك بِغديرِ خُمٍّ ، أو في بعض المغازي ، ما كان بَلَغ من حَرَبهم وعُنُودهم أنْ يقولوا هذا الكلامَ والإمامُ قائم

الحجة ، معروف المكان .

وكيف جاز أن يُلغُوا ذِكرَه حتّى لا يذكرونَه في شيء من مخاطباتهم ومنازعاتهم ، إلّا والقومُ لم يكن عندهم فيه عهدٌ ولا سبب . فهذه حجّة قاطعة .

وأخرى : الذي رأينا من قِلّة مبالاتهم مَنْ أقامَه المهاجرون كائناً من كان ؛ لأنّ قولهم : منّا أمير ومنكم أمير ، قولُ قومٍ كأنّهم قالوا : لا بدّ لنا معشرَ الأنصار من أميرٍ على حال ، وأنتم بَعْدُ أعلمُ بشأنكم فأمّروا عليكم مَنْ بدا لكم . وليس في هذا طعنٌ على خاصّة أبي بكر ، كما أنّه ليس فيه تأكيدٌ لإمامته دون غيره .

وهذا قولٌ كانَ من نفرٍ من الأنصار في سَقيفة بني ساعِدة ، قبل أن يقومَ فيهم أبو بكرٍ خطيباً وواعظاً ، ومبيِّناً ومحتجّاً . فلا يستطيع أحدٌ أن يقول : إنّ أحداً منهم ردَّ على أبي بكرٍ خاصّةً كلمةً واحدة . فليس في قولهم : منّا أمير ومنكم أمير ، خلافٌ على أبي بكر ؛ وإن كان خلافاً فإنّما هو على الجميع .

وإنْ كان هذا الكلامُ منهم حجة ما كان إلّا على من زعم أنّ الإمامة غير واجبة ، أمّا على مَن زعَمَ أنّها لأبي بكرٍ دونَ عليّ فإنّها غير لازمة .

ولعمري لو كان القوم حيث قالوا : منّا أميرٌ ومنكم أمير قالوا : ولا يكون أميرَكمْ إلا عليٌّ أو فلانٌ أو فلان ، أو قالوا : الرأي لكم أنْ تجعلوا أميرَكم عليّاً أو فلاناً أو فلاناً ، كان في ذلك ما يتعلق به متعلق ، ويشغَب به شاغب . وهذا ما لا يحتج به عالِم ، لأنّ الحجة فيها للرافضة ألزَم ، وعليها أوكد .

[٤٩ ـ تأويل قول سلمان : كرداذ ونكرداذ]

أمّا قولهم أن سلمان قال ما قال ، فإنّما سلمان رجلٌ من عُرْض المسلمين ، لا يَصلُح أن يكون خليفة ، ولا يجوز أن يكون في الشُّورَى ومع الأكفاء ، فتنقض به مَريرة أو تبرَمَ به ؛ لأسباب :

منها أنّه ليس من المهاجرين ، ولا ممن شهد بدراً ولا أُحداً ، ولا لَقِيَ في الله ما لَقِيَ نظراؤه عند النّاس كبلالٍ وصُهيب ، وَخبّاب وعمار ، ولا كان من الذين آوَوْا ونَصروا ، وذُكروا في القرآن وقُدِّموا.

وكان حديثَ الإسلام قَليلَ المشاهد ، وإنما أسلمَ حين انحسرت الشِّدّة وانكشف عنهم معظمُ الكُربة ، ولكنه كان من الصالحين ومن الفُضَلاء المخلصين ، وكانَ عند النبي صلى الله عليه وسلم وجيهاً ، وعند خلفائه مقرّباً . وقد قال النبي فيه قولاً حَسناً ، ولكنه ليس من الأكْفاء في الإمامة وموضعِ الشُورى والخلافة ، فيكونَ قولُه حجةً تَنتقِضُ به الإمامة ، وطعْنه عليه يَصرف الخلافة .

ثم آخَر : أنّا قد وجدناه وَلِي لعمر بن الخطاب على المدائن ، يُقيم له الصلاة ويجبي له الخَرَاج ، ويدعو له على المنبر ، ويؤكد له خلافته ، وينفذ أمره ، مطيعاً غيرَ مكْرَه ، ومُخلًى غير مقصور ، فولايته لعمرَ دليلٌ على تصويب أبي بكر ، ومطيع عُمرَ اذْعَنُ لأبي بكر ، ومعظِّم عُمر أشدُّ تعظيماً لأبي بكر .

ولقد كان يخرج آذن عمر والناسُ ببابه فيجعلهُ في الفَوج الأول . حتّى رُوي عن أبي سفيان بن حربٍ وسُهَيل بن عمرو في ذلك كلامٌ مشهور : من ذلك أنهم كانوا بباب عمر في جِلّةٍ من قُريش والعرب ، مثل عيينة بن حِصْنٍ وغَيْرِه ، إذْ خرج آذن عمرَ فقال : أين بلال ؟ أين سَلْمانُ ؟ أينَ صُهيب ؟ أين عَمّار ؟ ادخُلوا . فتغيَّرتْ وجوهُهم واستبان الجَزَعُ فيهم ، فأقبَلَ عليهم سهيلُ بن عَمروٍ واعظاً ، ومُعزّيا ومذكِّراً ، فقال : دُعُوا ودُعِينا ، فأسرعوا وأبطأنا ، ولئن حَسَدتموهم على باب عمر لَما أعدَّ الله لهمْ في الجنّة أعظم .

فما في الأرض عاقلٌ يظُنُّ أنه يأذن لسلْمان قبل أبي سُفيانَ بن حرب وسُهيل بن عمرو ، ويولّيه بلاد كسرى وآل كسرى ، وسلمانُ عنده ظنينٌ في بيعة أبي بكر وناقمٌ عليه .

وقد بارك عمر أبا بكر ، في خالد بن سعيد بن العاص ، حين عقد له على

أجناد الشام ، لكلمته التي كانت في بيعة أبي بكرٍ حتّى عزله .

فكيف يَحتمل لسلمانَ الطّعن والخلاف ثم لا يَرضَى له إلّا بالولاية على بلاد كسرى ، وسلمانُ لا يجري عند عُمَر مَجرى خالدٍ ولا قريباً ؟! ففي هذا دليل على أن سلْمَانَ لم يَقُل : « كَرْداذْ وَنَكَرْداذْ » . وإن كانتْ هذه الكلمةُ حقّاً كانت ترجمتُها بالعربية : صَنَعتُم ولم تصنعوا . يقول : قد أقمتم فاضلاً مُجْزِياً ولو كان غيرَه كان أفضَل منه .

وأخرى فلو كان سَلْمانُ كان عنده أنّ النبي صلى الله عليه كان قد استخلف عليّاً ونَصَبه إماماً وجعلَه وصيّاً لم يقل : صنعتم ولم تصنعوا ، إلّا أنّ قوله « صنعتم » تثبيتٌ لإمامته ، فكأنه قال : هو إمامٌ ، لو كان غيره كان خيراً لكم منه . وليس على هذا بُنِيَ القول .

ولو احتجّ بهذا القول الزّيديةُ كان أشبَهَ من أن يحتج به الطّاعن في إمامة أبي بكرٍ حين قال : ارتدَّ الناسُ كلُّهم عن الإسلام بإنكارهم إمامَة عليٍّ ، والتّسليم لمن أنكر ، ما خلا أربعة نفر : سَلْمان ، والمقداد ، وأبو ذرّ ، وبلال . ثم زعموا أنّ حذيفة وعمّاراً تابا بعد عمر .

[٥٠ ـ موقف بلال من بيعة أبي بكر]

ولئن كان بلالٌ كما قالوا من الطّعن والخلاف على أبي بكر وعمر ، لقد شاركَهما حيثُ وَلِيَ لهما دمشق ، لأنّ عمر كان وَلّى بلالاً دِمشق ، فكان أنْفَذَ لأمره من أبي عبيدة .

وكيف يكون بلالٌ طاعناً على أبي بكر وعمر حتّى قد شُهِرَ بذلك من بين الخَلْقِ وعمرُ يولّيه ، ويقرّبه ويُدْنيه ، ويقدّم إذْنه ، ويُلحق عطاءه بعطاء عثمانَ وعليٍّ وطلحةَ والزُّبير وسعد ، ويقول : « بلالٌ سيِّدنا ومولى سيِّدنا » ، ومرّةً يقول : « أبو بكر سيِّدُنا وأعتَقَ سيِّدَنا » .

ولا يجوِّزُ هذا القول من عمر مَنْ يجوّزُ طَعْنَ بلالٍ على أبي بكرٍ ، إلاّ جاهلٌ بِعُمر ، جاهلٌ بأمر السُّلطانِ ، وعِزِّ الخلافة .

[٥١ ـ موقف المقداد من خلافة أبي بكر]

فأمّا ذِكْرُهم المِقدَادَ فما علِمْنا ولا علمَ أصحابُ الآثارِ أنّه نطق في خلافة أبي بكر وفي نقْضها ، وفي خلافة عليٍّ وتوكيدها ، بحرفٍ قطّ ، ولا وقَفَ في ذلك موقفاً ، ولا قام في إنكاره [أ] وتثْبيته مَقاماً . وما ندري : بأيِّ سبب ادَّعَوْه ؟ إلاّ أنْ يكونوا ذهبوا إلى أنّ عليّاً رحمةُ الله عليه ربّما كانت له الحاجةُ إلى النبي عليه السلام ، فيُكْبِر النَّبي صلى الله عليه ويعظِّمُه عن مواجهته بها ، فيكلِّف ذلكَ المقدادَ .

من ذلك حديث هشام بن عُروة ، عن أبيه في الرَّجل إذا دنَا من المرأة فأمْذَى ولم يمسَّها ، فاستحيا عليٌّ أن يسألَ النبي صلى الله عليه عن هذا من أجْلِ ابنتِه ، فقدَّم المقداد فسألَه ، فقال النبي عليه السلام : « يغسل ذكَره وأنثيَيه ويتوضّأ » . وغيرُ ذلك .

والأغلب علينا أنّ المقدادَ لم يزل مُتنكِّراً لعليّ ، لأنَّ المقداد حين خطب ضُبَاعةَ بنتَ الزُّبير بن عبد المطّلب إلى النَّبي صلى الله عليه ، بعثَ النبيُّ إليهما عليّاً بذلك يخْبرها ، وأنّه قد رضِيَه لها ، فكرِه عليٌّ ذلك فرجَع إلى النبي صلى الله عليه ، وقال : رأيتُها كارهةً . فأرسل النبيُّ إليها رسولاً فقالت : أوَلمْ أخبرْ عليّاً أنّي قد رضيتُ لنفْسي بما رضِيَ به النبيُّ ؟ ! فقام النبي صلى الله عليه خطيباً فحمِدَ الله وأثنى عليه ثم قال : « يا عليُّ قُمْ فانظُرْ مَنْ عن يمينك وعن شِمالك ، واعلمْ أنّه ليس لك فضلٌ على أسودهم وأحمرهم إلاّ بالدِّين » . فهذا قد رُوِيَ ، والله أعلم .

ولم يُرْوَ عن المِقداد الطَّعنُ على أبي بكرٍ في خلافته ليؤكِّد بذلك لعليٍّ شيئاً .

وأقلُّ ما ينبغي للمتكلّم أن يَعْرِفَ فُروق الأمور ، فإنّه إذا عَرَف ذلك لم يتعلّق من الأسباب إلا بأمتنها . فأمّا تجريد الباطل وكثرةُ الدّعوى بلا سبب ، فهذا جَهد العاجز .

[٥٢ ـ موقف عمار بن ياسر من أبي بكر]

[ولرُبّما تعلّقوا بالسبّب الضعيف ، كالذي وَجدُوا لعمّار بن ياسرٍ من عداوة عثمانَ ، وصنيعِ عثمان به ، فلمّا كان عثمانُ عِندهم في طريقِ عُمر وأبي بكر وفي حَيِّزِهما جعلوا طعنَ عمّار عليه طعناً عليهما ، واحتجاجَ عمّارٍ لعليٍّ احتجاجاً عليهما .

ولو اجتهدتَ أن تصيبَ لعمّارٍ موقفاً واحداً أو كلمةً طاعنةً على أبي بكرٍ وعمر وعثمان ، فضلاً عليهما قبل إحداثه ، وقبلَ أنْ يجري بينهما ما جَرَى ، ما قدرتَ عليه .

وهل كان لعمر والٍ أنفذُ لطاعته مِن عمّار ؟! ولقد رَفَع عليه جريرٌ بن عبد الله ، فجَمَعَ بينهما طمعاً في ظهور حُجّته ، والضُّرح عن نفسه ، فلمّا لم يجدِ ذلك عندَه قال : ما عندنا خيرٌ لك يا أبا اليقظان .

ومن أجلِ ضعفِ عمّارٍ في الوِلاية وقوّةِ المغيرة حين شكاهما أهلُ الكوفة قال عمر : « أعضَلَ بي أهلُ الكوفة ، إن ولّيت عليهم تقيّاً ضَعّفوه ، وإنْ ولّيت عليهم قويّاً فَجّر.. » .

فإذا كان عَمّارٌ يخطُب على مِنبر الكوفة بتوكيد إمامة عمر ، ويأمر النّاسَ بطاعته ، ويقيم الحدود والأحكام بأمره ، ويفتح الفتوح بتأميره ، فيرى القَتلَ والسّبي وإحلالَ الفُروج ، غيرَ مكرَهٍ بوعيدٍ ولا مقصور بإيقاع ، فأيُّ دليل أدلُّ مما حكيناه .

ولو أنّ طاعناً طعنَ في طاعةِ سهل بن حنيف ، وعثمان بن حُنَيف ، وأبي

أيوب الأنصاري ، وأبي مسعودِ البدريّ ، لعليّ ، هل كـان عندكم في دفـع ذلك إلاّ مثلُ ما عندنا من الدَّفع عن طاعة سلْمانَ وبلالٍ وعَمّار وأقلّ منه .

[٥٣ ـ موقف ابي ذر من عمر]

فأمّا ابو ذرّ فزعم اصحابُ الآثار أنّه كان يعظّم عمر بن الخطاب تعظيماً ما عظّمه أحدٌ قطّ . فمن ذلك أنّ عمر صافحه يوماً فعصر يده وكان أيِّداً ، فصاحَ : يا قُفْل الفِتْنة ! ومَسَح مِن وجهه العرق بباطن راحته ، وعمر موعوك وهو يقول : بأبي رُحَضاؤك لو قد مِتُّ صرنا هكذا ـ وشَبَّك بين أصابعه ـ أوْجعتني ! فخلّاه وقال : ما هذا ؟ فقال سمعتُ النبي صلى الله عليه وهو يقول : « لن تزالوا بخيرٍ ما كان هذا بين أظهُرِكم » .

وقال عمرُ لشابٌ : غفَر الله لك ! فقام إليه أبو ذرٌ فقال : استغفر لي ! وهو حديثٌ فيه أمورٌ كثيرة .

ولو لم يجيء عن أبي ذرٌ من هذا قليل ولا كثير لَكان حكمهُ الرِّضا والتسليم ، إذْ لم نَرَ مِنه طعناً ، ولا رأينا له متوعّدا .

ولو اعترضتم مائةً من أصحاب النبي صلى الله عليه فقلتم : إنّهم كانوا طعّانين على أبي بكر مؤكّدين لخلافة عليّ ، ما كان عندنا في أمرهم حديثٌ قائم ، ولا خبر شاهد ، أكثر من أنّ حكم الممسك عن الطّعن والخلافِ هو الرِّضا والتّسليم .

[٥٤ ـ عودة الى اسلام سلمان]

ولقد ينبغي لنا ولكم أن نتفكّر في معنى كلمة سلْمَان ، فقد أكثرتم فيها ، حيث قال صنعتم ولم تَصْنعوا ؛ ومعنى هذا الكلام : إنّكم قد أقمتم مُجزِياً وتركتم مَن هو أجزأ منه ، فيجب أن نعرف الخَلل الذي لم يَسُدّه أبو بكر . . . التي لم

يبلغها ، والموضع الذي عجز عنه ، ما هو؟ وأيُّ ضَـرْبٍ هو؟ إلّا أن امتُحِنَ بما لم يُمْتَحَنْ به أحدٌ قبله ، ولا يمتحن به أحدٌ بعده ، مِن قيامه في مقام رسول الله صلى الله عليه ، في عَقِب الذي تَعوَّد المسلمون من طريقته، وتعرّفوا من سيرته في نَفْسه وفي أمّته ، ثلاثاً وعشرين سنة ـ وهي السِّيرة التي لا تحتاج إلى الإخبار عن فضلها ، والإطناب في تشريفها ـ فلم يُغادر ولم يَنحرِفْ ولم يتغيَّرْ ، ولم يؤثِر ولم يَضْعُف .

وقد علمنا أنَّ الذي عظَّم صغير ما كان من أمر عثمان ، وشنَّع عظيم ما كان منه من الضَّعف وغير ذلك ، الذي كان من إفراط جَلَدِ عمر ، وشدّة رأيه وشكيمته ، ويقَظَته وخشونته ، وثبات عَزْمِه ، وحَمْلِهِ نَفْسَه على مذهب صاحبَيهِ قبلَه . ولذلك قال عن بلال : « ما قَتَل عثمانَ غيرُ عُمر » . فالفضل الذي بين النبي صلى الله عليه وأبي بكر أكبر وأظهر من فضل ما بين عمر وعثمان . ولذلك قال عمر بن عبد العزيز : « ليس لله سِترٌ أكشفُ ولا أسبغُ من سِتْره على الصِّدِّيق حين لم يتكشَّفْ إذْ قام يعقب النبي صلى الله عليه » .

وقد تعلمون أن لو كان النبيُّ غائباً عن المدينة في غَزاةٍ ، أو حِجَّةٍ وارتدَّت العربُ وانتقضت العهود ، وظَهَرَ النِّفاق وماج الناس ، فوثَبَ رجلٌ من عُرْض أصحابه ، فلم يَـزَلْ باللِّين والشِّدّة ، والكفِّ والإقدام ، والبَطْش والحيلة ، حتّى ردَّه في نصابه ، وأعادَه كأحسنِ عادتِه بِبَذْل النَّفْس فما دونها ، لقد كان صَنع صَنيعاً عظيماً ، وفعل فِعلاً كبيراً . فكيفَ برجلٍ قامَ بأمر الإسلام وقد هُتِكت أستارُه ، وتَقطَّعت أطنابه ، ومَرِجتْ عهوده ، منفردٍ بالرأي غير مستعينٍ عليه ، ولا مستوحش إلى غيره، بل خالفه الجميعُ في صوابه وما أوجَبَهُ الرأي ، ودلَّ عليه النَّظَر مِن عزْمه ، وقد أبى إلّا صرامةً وبصيرةً وثقة ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم قد ماتَ غيرَ مَخوفٍ ولا متوقَّع قدومه ، فردَّ أهل الرِّدّة قاطبةً ما بين أهل الحيرة ، إلى شِحْر عُمان إلى أقاصي اليَمَن ، وقمع النِّفاق بالمدينة وما حولها ، وقتل مُسيلمةَ واستفتح اليمامة ، وأسر طُلَيحة ، ثمّ أوطأ خيلَه الشّام ، وجَنَّد الأجناد ، ومَنع الحوزة ، ووطَّأ الأمر ، وقتَل العدوَّ بكلِّ مكان . ثمّ لم يستأثِرْ

بدرهم ، ولم يَكنِزْ ديناراً ، ولم يخلِّف درهماً ، ولم يتفكّه بغنيمة ؛ وجعل عمالتَه مردودةً على بيت مال المسلمين . ولذلك قال عمر : « رحم الله أبا بكر لقد شَقّ على مَن بَعْدَه » .

فما الشيء الذي لو كان عليٌّ هو القيِّم به كان أجزأ منه ، وبلغ منه ما لم يبلغه . وكيف يكونُ عليٌّ أجزأ منه ولم تُغْلق الفتوحُ إلاّ في زمانه ، ولم تكن الفتنُ إلاّ على رأسه ، ولم تخرج الخوارجُ إلاّ عليه . وهذا بابُ الكلام فيه على عليّ ، ولكنّا إذا فعلْنا ذلك فقد دخَلْنا في الذي عِبْنا .

مع أنك لو طُفت في الآفاق تطلب لكَرداذ وتَكَرداذ إسناداً ولكنّا قد روَينا أنَّ سلْمان قال : « أصبتم الحقَّ وأخطأتم المعدِن » فنرى أنّه إن كان قال هذا القولَ فإنّما ذهب إلى أنّ الأمر لو كان في بيت النبي صلى الله عليه وعلى التّوارث الأقربَ فالأقرب ، كان أجدرَ ألاّ يطمع فيه ذُؤبان العَرَب ودُهاة العَجم ، على غابر الأيام ، وتطاول الدُّهور .

وسلْمان رجلٌ فارسيّ ، وهذا كان شاهدَ كسرى ؛ فتوهمٌ أنَّ حكمَ الكتاب والسُّنّة كحكم تدبير السِّرّ والقائمين بالمُلك ؛ فإنّما تكلم على عادته وتربيته .

ولَعمري لقد كان في قوم قد ساسوا النَّاسَ سياسةً ورتبوهم ترتيباً ، يقطع عن الطمَع في المُلك بآيِن : لم يجعلوا للصانع أنْ ينتقل عن صناعته إلى الكتابة ؛ ولم يجعلوا لِلكاتب أن ينتقل من كتابته إلى القيادة ؛ ولم يجعلوا لأبنائهم إلاّ مثلَ ما كان لآبائهم ؛ ليعوِّدوا الناس عادة يستوحشون معها إلى الخروج منها .

وإنّما حَسُنَ هذا في مُلكهم إذْ كان بالرَّأي والغلبَة ، ولم يكن لأهله أمثل من التدبير والحكم ، لم يكن شأنهم الأخذَ بالكتاب والسُّنّة ؛ وسبيلُ الإمامة غير سبيل المُلك .

فإنْ كان سلمانُ إلى هذا المعنى ذهبَ ، وإيّاه عَنى ، فإنّما قولُه حُجّة للعباسية لا للعلويّة .

وسنُخبر عن مقالة العباسية ووجوه احتجاجهم بعد فراغنا من مقالة العثمانية ، بغايةٍ ما يمكن من الاستقصاء ، وإنصاف البّعض من بعض ، لتكون أنتَ المختارَ لنَفْسك بعقلك ، والأقاويلُ ظاهرة مجلّية لذهنك ؛ فلئن أعجزكَ الاختيار الأرجحُ بعدَ الكفاية إنّك عن استنباطه وتخليصه أعجز .

وقد ذكر هشيم ، عن العوام بن حَوشب عن إبراهيم التيمي قال : قال سلمانُ حين بُويع : « أصبتم حين بايعتم وحيد الناس ، وأخطأتم حين عزلتموها عن أهل بيت نبيّكم ، ولو وضعتموها فيهمْ لأكلتُم رغداً » .

وهذا حكمٌ من سَلْمان أنّ أبا بكرٍ خير من عليٍّ ومن جميع الناس ، والنّاس على خير الناس أصلَحُ منهم على مَنْ دونهم .

وأخرى : أنّ سلمانَ حين قال : « كرَدَاذ » كما زعمتم ، لو لم يكن عندكم عظيمَ القدر نبيلَ الرّأي ، قدوةً عند الاختلاف ، لم تسمعوا قوله بهذا المكان ، حتّى صار مثلُ طَعنه وخِلافه ، ينقُض إمامة الأئمة ، وتتّخذونه على خُصمائكم حُجّة .

وإنْ كان سلمانُ على ما قد وصفتم ، وبالمكان الذي وصفتم ، من الحكمة والبيان ، فلِمَ دعاه إلى أن يكلّم العربَ والأعرابَ بالفارسية ، وهو عربيُّ اللّسان فصيح الكلام ، وهو يعلمُ أنّه لم يكن بحضرة المدينة فُرْسٌ ولا مَن يتكلّم بالفارسية ولا مَن يفهمُها . وهو إنّما أراد الاحتجاجَ عليهم والإعذارَ إليهم ، وأن يقضيَ حقّ إمامة عليٍّ ويقوم بشأنه .

وقد ينبغي لمن بَلَغ من صِدق نيّته وفَرط اجتماع لُبّه وشدّة عزيمته أن يتكلّم في دار التقية لا في دار العلانية ، حتّى خاطر بنفسه وبكلِّ شيءٍ يَهُوله ، ومن شأنه أن يُفهم الحجّة ، ويُوضح الموعظة ، ويُبينَ عن موضع المَظْلمة ، وإلا فسكوته أحسن من الفارسية .

وكيف فهمت معناه العربُ وهي لا تعرِف من الفارسية قليلاً ولا كثيراً ،

ولم يكن للنبيِّ صلى الله عليه تَرجمانٌ يعبِّر عنه للفُرْس فيكونَ ذلك الترجمان كان حاضراً لكلامه ، فيفسِّر للناس معناه .

وكيف نقلَتْ عنه الصَّحابة إلى التَّابعينَ وكلُّ مَن كان بحضْرةِ القومِ حين بايعوا أبا بكرٍ لا يفهمون الفارسية ، ويكون سلْمان حينَ تكلَّم بها استرابوا عِندها فسألوه عنها ففسَّرها . ولو كان ذلك كذلك لحكاه الذين نَقَلوا الحديث ، فكان ذلك أحبَّ إلى الرَّوافض ، لأنَّهم إنَّما نقلوه ليعرفوا من كان الطاعنَ على أبي بكر . والطَّعْنُ كلما كثرت فيه المراجعة والمناقضة ، وطالَ سببُه ، وعُرِفَ علمُه ، كان أدلَّ على الشهرة والاستفاضة ، وأنَّ الأمرَ كان حقّاً معروفاً .

فواحدةٌ أنّ الأمر لو كان كذلك لكانت الروافضُ أسرع الناس إلى حكايته ، لتستشهدَه على الدعوى ، ولتقوي به الحديث ، وتشدّ به الحجة .

وثانية : أنَّ الناقلين انفسهم كانوا سيحكُونه ، إذْ كانوا إنَّما حَكَوْا نفس الكلمة ليعرِّفوا أنَّه قد كان هناك خِلاف، ويدلُّونا على أن سلمانَ كان ممن خالف، ومِمّن له هذا القدرُ الرفيع الذي يُحْتَجُّ بخلافه .

وأخرى : أنَّ ذلك لو كان قاله سَلْمان ، وهو طعنٌ على أبي بكر ، كان مشهوراً عند عمر وعثمان ، وأبي عبيدة وسعد وعبد الرحمن ، وهؤلاء عندكم شِيع أبي بكر . فكيف اطَّبَقُوا على ترك التكلُّم على سلمان والدّارُ دارُهم والحكم حكمهم ، ومعهم الرَّغبة والرهبة ، مع أن الجرأة على سلمان أيسَر وأسلمُ مَغَبَّةً من الجرأة على أبي بكر . وقد أطبقَتْ على طاعته الأمة خلا أربعةَ نفَر : أحدهم سلمان . وليس سلمانُ معروفاً بالنَّجدة وشدّة الشكيمة ، ولا وراءه ظهرٌ يمنعه ، فكيف لم يزجُرْه عن ذلك زاجر ، ولم يدفَعه عن ذلك دافع . ولم يناظِره مناظر ، ولم يتعجّب منه متعجِّب ، ولم يرفع ذلك رجلٌ إلى أبي بكرٍ كما رفعوا إليه قول خالد بن سعيد .

فإن قلت : إنَّ أبا بكر كان مُدارياً يتسع صدرُه لأكثر من هذا كما اتسع صدره فلم يعاتِبْ خالداً ولا أراده على بيعته . كيف سلم على حدة حكم فأينَ

جدُّ عُمَر وحَدُّه ، وقلّةُ احتمالِه ، واعتقادُه لمثل هذا ؟ ! وكيف [سلم] طلحةُ مع شدة بأوه وصرامته .

ولا نعلم شيئاً مما ادَّعَوه أظهر بطلاً ، ولا أفسد معنىً من قوله « كَرداذ ونَكَرداذ » .

[٥٥ ـ موقف خالد من بيعة أبي بكر]

وأمّا ما ذكرتم من تَرك خالد بيعةَ أبي بكر ثلاثة أشهر فإن الذين نقلوا هذا هم الذين نقلوا أن خالداً يوم تُوفّي النبي صلى الله عليه كان عَلَى صَدَقَات اليمن ، فقدم بعد أن بايع الناسُ أباً بكر ، فلمّا دخل المدينة استقبله عثمان وعليٌّ فقال لهما : أرضيتم مَعشر بني عبد مناف أن يلي هذا الأمر عليكم غيرُكم ؟ فلم يذكر لنا أنَّهما ردّا عليه قولاً ، ولا أظهرا قَبوله . ثم جَلَس عن بيعته لا يسألُه ذاك أبو بكر ولا يدعو إليه ، فبينما هو كذلك إذْ مر أبو بكر بدار خالد مُظْهراً لبعض الأمر ، وخالدٌ في داره ، فسلَّم عليه أبو بكر فقال له خالد : أتُحبُّ أن أبايعك ؟ قال : أحبُّ أن تَدْخُلَ في صالحِ ما دخل فيه المسلمون . قال له : موعدُك العشية . فأتاه وهو على المنبر فبايعه .

ففي هذا وجوه من الكلام :

منه أنَّ خالداً لم يطعن في إمامة أبي بكر من جهة الجَزْء والكفاية والكمال والفضل، ولا مِن طريق ما تَفْسُد به الإمامة وتَنتقض به الخلافة وإنَّما ذِكر الحسبِ وطرائق الجاهلية . وهذا الأمر إن كان مقصوراً في قومٍ دون قوم ، فليس هو في بني عبد مناف عامّة . وإنْ كان ليس [مقصوراً] في قومٍ ، وليس لقول خالدٍ معنىً ، فإن كان مقصوراً في عبد منافٍ للشَّرَف أو للقرابة ، فالعبّاسُ أولى بذلك من عليٍّ وجميع عبد مناف .

ولو أراد عليّاً لم يقل : أرَضيتم بني عبد مناف ؟ ! لأنّ عثمانَ وعليّاً

منافياً ، بل كان يقول : أرضيتم مَعشَرَ العِترة ، أو معشَرَ بني هاشم ومعشر بني عبد المطَّلب . مع أنَّه لو قال ذلك لكان للعباس في ذلك القَول من السَّبَب ما ليس لعليّ ؛ لأنَّ هذا الأمر إن صلَح أن يَخرجَ من رهط النبي صلى الله عليه دنيا ، ومن أقرب الناس إليه ، إلى أقصى بني عبد مناف ، لصَلَحَ أن يخرجَ إلى أقصى بني كلاب . فإذا كان ذلك كذلك فتيمٌ وعبد منافٍ سواء.

وممَّا يدلُّك على أنَّ خالداً لم يقلْ شيئاً ، أنَّ هذا الأمرَ إنْ كان إنما يُستَحقُّ بالعِلم والعمل والجَزْء والغَنَاء فليس لِذكر عبدِ منافٍ معنىً .

وإنْ كان هذا الأمر لأفضل قريش كائناً مَن كان فلم يقلْ خالدٌ شيئاً ، وليس لِذكر عبدِ مناف معنى .

وإنْ يكنْ هذا الأمرُ في أقربِ النّاس إلى رسول الله صلى الله عليه وعلى آله فلم يصنعْ خالدٌ شيئاً .

وإنْ يكن هذا الأمر لرجلٍ بعيْنه قد نصَبَه النبي صلى الله عليه ودلَّ عليه فلم يصنع خالد شيئاً ، لأنَّه كان ينبغي له أنْ يسير بالمنصوص أو بالمدلول عليه .

أو يكون هذا الأمر لا يُصاب إلاّ من طريق الوِراثة . فإن كان ذلك كذلك فلم يصنع خالدٌ شيئاً ؛ لأنَّ صاحب الوِراثة أظهر أمراً وأشهر موضعاً من أن يحتاج إلى كلمةٍ ليست بأن تدلَّ عليه بأقرب منها من أن تدلَّ على خالد نفسه .

ووجه آخر : أنَّه قصد بكلامه إلى عثمانَ وعليٍّ جميعاً ، ليهزَّهما معاً ؛ لأن هذا اللفظ الأغلبُ على ظاهره حُبّ العصبية ، والمحاماة على الأحساب ، وترك التَّخايُر بالأفعال ، والتفاضل بالجَزْء والكمال .

ولعلّه أراد عثمانَ دون عليّ ، أو لعَله أراد نفسه والتذكيرَ بها والتنبيهَ عليها ؛ فإنّه كان أشرفَ من عثمانَ وأقدمَ إسلاماً منه ، وكان من مُهاجرَة الحبشة ، وكان ذا قدرٍ عظيم . وهو ابنُ أبي أُحَيحة ، وكان ابو احيحة إذا اعتمَّ بمكة لم يعتمّ لها أحد ؛ إكباراً لقَدْره ، وتفضيلاً لحاله .

وكان عثمانُ لا يحابي سعيد بن العاص .

وظاهر كلام خالدٍ وقع على عبد منافٍ جُملة ، وهو يرى أنّه في السرّ منهم .
فإنْ كنتم أردتم أن تُخبِروا عن خلافِ خالد على أبي بكر وجلوسه عنه ، فلقد كان ذلك حتّى راجَعَ من تلقاءِ نفسه ، وثاب إليه عازبُ رأيه ، فأنابَ إلى خطّته ، ودَخلَ في صالح ما دخل فيه غيره . وما كان تَخلُّفه عن بَيعته إلاّ ريثما ذهبت عنه حمّيته ، وإنجاب عن . . . وتيقّظ من نومه .

وما ذلك بأعجبَ من اجتماع الأنصار وقوله للمهاجرين الأوّلين : « مِنّا أميرٌ ومنكم أمير ! » والدار دارهم ، والمُهاجرون ضِيفانُهم ونزُولٌ فيهم ، وهم أوّلُ النّاسِ والعَددُ والصّلاحُ والرأي ، فكانوا مُجَلِّبين جادّين مجدّين ، فما هو إلاّ أن هجَم عليه الصّديقُ وقام فيهم مُرشداً ومحتجّاً [حتى] استبدلوا بالخلاف طاعة ، وبالضَّجّةِ إطراقاً ، وبالأنَفة خضوعاً ، وبالطَّيش حلماً ، وأنصَتوا معاً واستمعُوا معاً .

وكأنّ السائلَ إنّما أراد تعريفنا أنّه كان من خالدٍ خلافٌ . فقد كان ذلك ثم رجع إلى نَفسه وعرف موضع خطئه ، غير مرغوب ولا مرهوب .

وإن كان إنّما أراد أن يجعل هذا وشبهَه حُجةً في إمامة عليٍّ فليس لعليٍّ رحمة الله عليه في ذلك من الحجّة على إمامته قليلٌ ولا كثير ، إذْ لم يذكروه في شيءٍ من امورهم ، لا في يسير أمرهم ولا عَسيره . ولو ذكروه ما كان لذكرهم دليلٌ على أنّه اولى بالإمامة من أبي بكر ، مهما عددنا عليك من خصاله التي لا يَفي بها عليٌّ ولا غيره .

وإنّما كان يكونُ هذا الإدخال حجة لو قلنا : إن احداً لم يخالف أبا بكر .

ورضى الجميع وسكونهم وصوابهم لم يكن ليتهيا ابداً ، حتّى لا ينطق احد بحرف واحدٍ لا جاهل ولا عالم ، ولا عصيٍّ ولا حاسد .

وكيف يتّفق إطباقُهم على سكونٍ واحد والناسُ من بين حاسد وراضٍ ، وعصيٌ وتقيٌ ، وحليم وسخيف ، وغالطٍ ومصيب ، وعاقلٍ وأحمق ؟!

وإذا كان النبي صلى الله عليه مع رجاحته على جميع الخلق لم يَسلَمْ على أمّته [من] المستجيبين له ، فضلاً على جاحديه والمنكرين له ، كان أبو بكر أجدَرَ ألا يَسلَم من رعيته .

ولقد قامَ رجلٌ إلى النبي صلى الله عليه فقال : والله يا محمّد ما عَدلتَ في الرّعيّة ، ولا قَسَمْتَ بالسويّة . وقال الله : ﴿ ومنهُمْ من يَلمِزُك في الصَّدَقات ﴾ قال : ﴿ إنَّ الذينَ يُنادُونك مِنْ وَراءِ الحُجرات ﴾ .

وقال عبّاسُ بن مِرداس :

أتجعلُ نَهْبي ونهبَ العُبَيـ ... ـدِ بين عُيينةَ والأقرع

فما كانَ حِصنٌ ولا حابس ... يفُوقان مِرداسَ في المجمع

في شعر له طويل .

وقال أبو حذيفة بنُ عتبة يوم بدر : يقتل أبناءنا وأعمامنا وينهانا عن عشيرته ، والله لئن أدركتُه لألجمنّه بالسّيف !

وخالفوا عليه في يوم الحديبية في نَحْر الهَدْي ، وحيث قالوا : « لا نُعطى الدَّنيّة مرةً بعد مرّة » ، في أمور كثيرة .

فليس في طعن الطّاعن دلالةٌ إذا كان المطعون عليه كاملاً فاضلاً . وإجماع الناس كلّهم على الصواب أمرٌ لا ينال ، ولكن إذا كانت الأمّة قد أطبقَتْ على طاعة رجل على غير الرّغبة والرّهبة ، ثم لم يكن اغتراراً ولا إغفالاً ؛ فليس في شُذوذ رجل ولا رجلين دلالةٌ على انتقاض أمره ، وفساد شأنه .

وليس يحتجّ بهذا وشبهه إلاّ رجلٌ جاهل بطبائع الناس وعللهم . ولو كان

هذا وشبهُه ناقصاً لإمامة أبي بكر ، كانت إمامةُ علي أنقصَ وأفسد ؛ لأنَّ الدُّنيا انكفَتْ بأهلها عليه وماجتْ بساكِنيها . . . من ولايته ، وتداعت من أقطارها ، تريد محاربته ، حتى لقد نازعه فيها مَن ليس في مثل حاله ولا شَرفِ موضعه ؛ ولا في فضيلة دينه فناهضه الحربَ ، ونازله القتال . . . بيعته ، والتجَّ عليه الخلافُ من أهل طاعته ، وموضع الجدِّ في عسكره ، فردَّ بأسَه في أصحابه ، وصرف كيدَه إلى جنده ، وجلس خَليَّ الذَّرْع ، رضيَّ البال ، [في] عجب الفاتن وسرور المخادع ، وعزّ المُصيب ، وبأو الأريب . ثم بعث رسولاً قد اختاره بالحكم عليه وله ؛ وبعث خصمُه رسولاً قد اختاره بالحكم عليه وله ؛ فكان رسولُه المخدوعَ ورسولُ خصمه المخادع ؛ ثم رجعت الأمور إلى خصمه ، وانتُزعت منه ومن ولده مرةً بالبطش ، ومرّة بالحيلة .

ثم كان يَرى من خلاف أصحابه واضطراب جنده وتبديل أصحابه مثل ما يرى خَصمُه من طاعة خاصّته ، ونُصرة جنده ، وثبات عهد أصحابه ؛ فلم يكن ذلك عاراً عندنا ولا عندكم على عليّ ، ولا دليلاً على نَقْص رأيه ، وضعف حَزْمه ، وسَعَة علمه وكثرة فضله . وقد أصابه من الخلاف والتعذر وانتشار الأمر ، واضطراب الحبل ، وظَفَر الأعداء وشماتة الحُسّاد ، ما قد رأيتم ؛ ثم قد جئتم تَشَبَّثون بطَعْن سلمان ، وقول أبي سفيان ، وقُعود خالد ، كأنكم لم تعرفوا ما عند خصومكم : غَزارةً ونقصاً .

وأعجب من هذا أنكم مرةً تزعمون أنَّ الذي حَمَل بني أميّة على صرف الإمامة عن عليّ الضِّغنُ الذي في نفوسها ، والأحقاد التي في صدورها ، لقتْلِ عليّ أبناءَها وإخوتها وأعمامها . ومرّةً تَعتلُّون وتحتجُّون في نَقْض إمامة أبي بكرٍ بطعن عظيمَيْ بني أميّةَ في إمامته كعلي ، كخالد بن سعيد ، وأبي سفيان بن حرب ، وإذا شئتم كانا لكم ، وإذا شئتم كانا عليكم .

[٥٧ ـ تأويل قول أبي بكر : « كانت بيعتي فلتة »]

وأمّا ما ذكرتم من قول أبي بكرٍ : « ما كانت بيعتي إلاّ فَلتةً» ، وقول عمر :

« ما كانت بيعة أبي بكر إلّا فلتةً وقى اللّهُ شرّها » فإنّ الأمرَ على هذا واضحٌ ، والحجّة فيه قائمة .

وهو أنّ النبي صلى الله عليه وسلم لما تُوفّي كان الناسُ على طبقات : مِن رجلٍ مؤمنٍ عالم ، ناصح لله ورسوله .

ومن رجلٍ مطاع ليس له عِلمٌ بالإمامة ، وما السببُ الذي به تنعقد مِنْ السَّبب الذي به تنحلّ .

ومن رجلٍ مكانُه في قريش أشرفُ من مكانِ أبي بكر ، وليست غايتُه صلاحَ المسلمين إنّما غايتُه أنْ يكون الإمام من أقرب القبائل إليه ، ليزدادَ هو وقومُه بذلك شرفاً وفخراً .

ومن رجلٍ له قرابةٌ فهو يرى أنّها تغنيه عن العلم والعمل .

ومن رجلٍ شديد في بأسه ، ضعيف في دينه ، مُخِفٌّ في ذات يده بعيدِ الهمة حاملٍ في هدوء الناس وأمْنهم ، فهو لا يألو إضرامَ الفتنة ، وتهييج السَّفلة ، يرى أنّ في الهيج ظهورَ نجدته ، وخروجَه من الخمول إلى النَّباهة ، ومن الإقلال إلى الإكثار .

ومن رجلٍ دخل في الإسلام مع مَن دخل في دين الله ، دخل من الأفواج ، لا يعرف حقيقته ، ولا يستريح به إلى الثِّقة .

ومن رجلٍ أخافه السيفُ ، واتّقى الذُّلّ والقتلَ بإسلامه ونفاقه ، كمنافقي المدينة ومَن حولها من أهل القُرى والبادية ، يَعضُّون على المسلمين الأناملَ بالغيظ ، وهم البِطانةُ لا يألون خبالاً ، يترقّبون الدوائر ، ويَفْرجون إلى الأراجيف ، ويستريحون إلى الأماني .

ومن رجلٍ صاحب سَلْم ، يدينُ لمن غَلَب ، لا يَدفَع مُبطلاً ولا يُعين مُحقّاً ، يرى أنّ صلاحَ خاصّته هو صلاح العامّة .

ثم الذي كانَ من وثوب الأنصار ، وهم أهل العَدَد وأصحاب الدّار

والأموال ، على أمرٍ لو تابَعهم المهاجرون عليه حتّى يكـون من كل فرقةٍ أمير ، لفتحت بـذلك بـاباً من الفَسـاد لا يقوى أحـدٌ على سَـدِّه ، ولكان الـذي يقع بـين الأوس والخـزرج في الأمر أشـدَّ مما كـان يُخاف منهـا ومن قريش ؛ لأنَّ القـرابة كلَّما كانت أمَسَّ ، والجوار أقرب ، كانت العداوةُ على قَدْر ذلك .

ولـو أنَّ الأنصار حين أتاهم أبـو بكر فـأظهروا الشِّقـاق والخلاف . . . عن الحقّ وجَهِلوه ، مـا كـان لهم دون البَـوَار مـانـع ، ولكـان غـيرَ مـأمـون وثـوبُ مَنْ بـالمدينة ومَن حولهـا من المنافقـين وأشباهِهم ، من الحَشْـو والطَّغَـام ، ولكـان غـيرَ مـأمونٍ أن ينضمَّ إليهم مَن حـولَ المدينـة من المرتـدِّين ، ممَّن بدَّلَ إسـلامَـه سـاعـةَ بلغتْه وفاةُ النبي صلى الله عليه . ولـو صاروا إلى ذلـك لكانـوا أقوَى من المهـاجرين والأنصار ، إذْ كانوا جميعاً نَشَراً وقلوبُهم شتّى ، وبأسُهم بينَهم ، ولكـان غير مـأمونٍ عنـد ذلك أن يغـزوَهم مُسيلمةُ في أهـل اليمامـة قـاطبـة مـع مَنْ حـولهـا من أهـل البـاديـة . ثم كـان غـير مـأمـون أنْ يَستمـدَّ بجميـع أهـل الـرِّدَّة ممن نكث ونصب العداوة .

وجميعُ ما قلنـا إنّه كـان غيرَ مـأمون ، لم نَقُلْه إلاّ بـأسبابٍ قـد كـانت هنـاك قائمةٍ معروفة ، فما عسى نعته المهاجرون والأنصار على ما وصفنا ونزَّلْنا .

فقـد صـدَق أبو بكـرٍ وصـدق عمـرُ أنَّ تلك البيعـة كـانت فلتـةً وأعجـوبـةً وغريبةً ، إذا سلمتْ على كلِّ مـا وصَفْنا من أسبـاب الهلكة ، وهي سَريعٌ ، وليس دونَها سِتْرٌ ولا رِدٌ ، فكانت بيعتُه يُمناً وبركةً أنقـذ الله بها من الهلكـة ، وجمعَ بهـا من الشَّتـات ، وردَّ بهـا الإسـلامَ في نصـابـه ، بعـد تخلُّفـه واضـطرابـه . فـأمـاتت السَّخيمةَ ، وأودعت القلوبَ السَّلامةَ ، وجمعتها على الألفة .

وهذه مكرُمـةٌ وعطيّـة ، ولا يجوز أن يحبـوَ بها خـالقُ العِباد إلا نبيّاً أو خليفةَ نبي .

فأما قوله : « مـا كانت بيعتي إلاّ فَلتـةً وقى الله شرهـا »، فقولُ امرىءٍ عالم بالعواقب ، عالمٍ بأسباب الفِتَن ، شديـد الشفقة منهـا ، حامـدٍ لربـه على السـلامة

منها .

أوَ ما علمتَ أنَّ أبا بكر بينا هو يخطبُ على المهاجرين في مسجد النبي صلى الله عليه ، والنبيُّ مسجّى ، وهو يحتجُّ عليهم ويعرِّفهم سَرَفَهم ، واعتداءهم في قولهم : إنَّ النبي صلى الله عليه لم يمت . وقد خاف أن يصير بهم الإفراط في التعظيم ، والغُلوّ في الحبِّ ، أن يضارعوا مذهب النصارى وخافَ أن يكون آخر امرهم اشدَّ من أوله . وكان اشدُّ الأمور عليه في ذلك أنَّ مِثلَ عُمر ، وعبد الرحمن ، وعثمانَ ، هم الذين كانوا خرجوا إلى ما لا ينبغي من القول ، فبدرهم بالخُطبة محتجّاً عليهم ومعرِّفاً لهم مواضعَ غلطهم ، ونَحْسَ إفراطهم ، فحين تبينَّ لهم خطؤهم وسلَّموا لاحتجاجه عليهم ، أتاه آتٍ فقال : إنَّ الأنصار قد اجتمعت إلى سعد بن عُبادة في سقيفة بني ساعدة ، يقولون : منا أمير ومنكم أمير . فراعَهُ ذلك ، وصوَّر له الحزمُ كلَّ مَخُوف ، فعلم أن الداء الذي عنه نطقوا أشدُّ علاجاً من الدّاء الذي نطق عنه عمر وعثمان وعبد الرحمن ، والنَّفرُ من المهاجرين الذين قالوا : إن النبي صلى الله عليه وعلى آله لم يَمُتْ ؛ وعلم أنَّ إبراء كلِّ سقم أهونُ من إبراء سقم الحميّة والطَّمع في المُلْك ، ولا سيَّما إذا شابَهُما سوء تأويل ، وضافَرهما الحسّ بالقُوّة . وهذا لَهو الداء العُضال ، والداهية المُقام .

فلما انتهى إليه أمرُهم ، وعَرَف جميع مَا عليه طبائعُهم وعللهم ، وطبائعُ اتباعهم ، لم يكن شيءٌ أهمَّ إليه من البدار إليهم قبل أن يستفحل الشرّ ، ويَتَمكَّن العزم ، فمرَّ حثيثاً وتبعه عُمر ، ولحقه أبو عبيدة في نفر من قريش ، فيمرُّ بالناس حَلقاً عِزِينَ وهم يَبكُون ويتحدثون ، فيقبل عليهم فيقول : أنتم جُلوسٌ تفرُكون أعينَكم وفي الإسلام العسا البدار . وقيل البوار .

فلو لَمْ يتداركهم بحيطته ويقظته وصدق حسِّه ، وأبطأ عنْهم ريثما كانوا يتطارحون الرَّأي ، ويستثيرون دفِين الحسَد حتّى يتمكَّن ذلك الحسد ، وتتمثَّل لهم صورة الظَّفر ، فلو هَجَم عليهم أبو بكر في ضِعف من بالمدينة من قريش ، لم يكن في طاقتهم دَفْعُهم ، والدّارُ دارُهم ، والبلاد بلادهم والبادِيةُ باديتهم ،

ومن فيها تبعٌ لهم ، فكان من صنيع الله أن كان هو الذّائد والقائم ، والحارس ، والعاطف والمُداوي ، ولم يكلْهم الله إلى نظرهم واختيارهم ، فيكون ذلك فسادَهم وهلكتهم .

فإنْ قالوا : فما معنى قول أبي بكر للأنصار حين أتاهم : « إن هذا الأمر ليس بخُلْسة . قد علمتم معشرَ قريش [أنا] أكرمُ العربِ أحساباً ، وأبقنُها أنساباً ، وأنّا عِترة النبي صلى الله عليه وأصلُه ، والبيضةُ التي تفقأت عنه »؟ .

فلمْ يذكر أبو بكر قريشاً وأحسابَها وعترةَ النبي صلى الله عليه والبيضة التي تفقّأت عنه ، إلا وهو يرى أن له عليهم بهذا من الفضل ما ليس لهم ، ومن السبب إلى الخلافة ما ليس لهم . فقد ينبغي أن يكون لبني هاشمٍ على هذا القياس من الفَضْل والسبب ما ليس لبني تيْم .

قلنا لهم : إن أبا بكرٍ لم يقل هٰذا القولَ وهو يريد معنى مَذهَبكم فيه ، مع أنّكم قد قطعتم الكلام ، لأنه قال : « فإنّه لم يكن فينا فكان يوبخ به وأنا نحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، وإنّ الله لم يذكرنا وإيّاكم في شيءٍ من القرآن إلاّ بدأ بذكْرنا قبلَكم ، فمنّا الأمراء ومنكم الوزراء » .

فلم يقلْ أبو بكرٍ : « قد علمتم يا معشر قريش أنّا أكرم العرب أحساباً ، وأبقنها أنساباً ، وأنّا عِترةُ النبيّ وأصلُه »، وهو يريد أن يخبر أنّ الرِّياسة في الدِّين تُستَحقُّ لغير الدِّين ، والخلافةُ أعظمُ رياسات الدين ، فعلى حسب ذلك تحتاج إلى العمل الصالح .

ولكنَّ أبا بكرٍ خطبَ عَلَى قومٍ كانوا يَرَون للحَسَب قدراً ، وللقرابة سبباً ، فأتاهم مِن مأتاهم ، وأخذهم من أقرب مآخذِهم ، واحتجّ عليهم بالذي هو عندهم ، ليكون أقطَعَ للشَّغْب ، وأسرعَ للقَبول . وليس في كلِّ المواضع تفسيرُ الحجّة أمثَل من إظهار الجملة ، وتعريف النّاس الغاية ، وحملهم على أدقّ الحجج وأصوبها . ولربّما أخفى الإمام كثيراً ممّا يُريد بالناس عنهم ، للذي . . . . من بعضهم عن فضله ، وضيق صدورهم عن سَعَة فَضْله ، بل يعلم أنّه لو أطْلَعهم

طِلع إرادته ، والذي عَـزَمَ عليه من صـلاحهم ، كانـوا أسرع إلى طلب بُغضـه من عدوهم .

وقـد دلّ ابـو بكـرٍ عـلى مـذهبـه في الأحسـاب في أوّل خـطبـة خَـطبهـا عـلى المهاجرين والأنصار ، حين قال في كلامه :

« وعليكـم بتـقـوى الله ، فـإن أكيـس الـكَيس الـتقـوى ، وأحمـقَ الحمـق الفجـور ، وإني متبـع ولست بمبتـدع ، فـإن أحسنتُ فـأعينـوني ، وأن زِغْتُ فقـوِّموني . أيُّهـا النـاسُ إنَّـه لم يَدع الجهـادَ قومٌ قطُّ إلاَّ ضـربهم الله بذُلّ ، ولم تشـع الفـاحشةُ في قـومٍ قطُّ إلاَّ عمَّهم بالبـلاء . أيُّها النـاسُ اتّبعـوا كتـابَ الله ، واقبلوا النَّصيحة ، فإنَّ الله يقبلُ التوبة ، ويعفو عن السيئة . واحذرُوا الخـطايا التي لكُـلِّ بني آدم منها نصيب ، ولكنَّ خيرهم مَن اتَّقى الله . واتَّقـوا يومـاً لا ينفع فيـه حميمٌ ولا شَفيعٌ يُطاع » .

ألا تَـراه ذكرَ جميـعَ بني آدم ثم قال : ولكنَّ خيـرهـم أتقاهم كـما قـال الله : ﴿ إنَّ أكـرمكم عنـد الله أتقـاكم ﴾ ثم قـال : اتَّقـوا يـومـاً لا ينفـع فيـه حميمٌ ولا شفيع ؛ فقد أخبَرَ عن نَفْسه ومـذهبه في ذلـك المقامِ بغـاية مـا يتكلَّم به أصحـابُ التَّسوية . فكأنَّ أبا بكرٍ إنَّما قـال : فإنْ كـان هذا الأمـرُ مَعْشرَ الأنصار إنَّمـا يُستَحَقُّ بالحَسَب ، ويُستَوجب بالقَرابـة فقريشٌ أكـرمُ منكم حسباً ، وأقـرب منكم قرابـة ، وإنْ كان إنَّما يُستَحَقُّ بالفضل في الدِّين فالسابقون الأوَّلون من المهاجـرين المقدَّمـون عليكم في جميـع القرآن أولى بـه منكم . لأنَّ أبا بكـرٍ ذكر في صـدر كلامـه الحَسَب والقـرابة ، وفي عجـزه فضـل المهـاجـرين عـلى الأنصـار . فلما أبصَر القـومُ وجـهَ الحجـة ، وقرَّرهم بمـا لم يزل عليـه قبل ذلـك طباعُهم ، لحقـوا بالطَّاعة وأعـطَوا المقَادة .

وكيـف يكـون كبـار الأنصـار أفضـلَ من كبـار المهـاجـرين ، وقـد سبقَهم المهاجرون وأسلموا قبلهم بالسِّنينَ قبلَ السِّـنينَ ، والأنصارُ بَعْـدُ على دين آبـائهم ، وعبادة أصنامهم . ثُمَّ الـذي لقي المهاجـرون في الله ببطن مكَّـة والأنصارُ وادِعُـون

في بيوتهم ، رافهون في ديارهم ، ناعمٌ بالُهم ، خَليٌّ سَربهم ، لذيذٌ عيشهم . ثُمَّ هاجَروا إلى دارهم فكانوا معاً في العبادة والجهاد ، إلاّ ما فَضَلوا به من وَحْشَة الاغتراب ، وفراق الدّار والأحباب . فللمهاجرين مثلُ ما للأنصار ، وقد بانُوا بسابقتهم ، وإنّما قُدِّموا في القرآن لتقدُّمهم في الإسلام .

وكما أن المهاجرين الأولين ليسوا كغيرهم من المهاجرين، وكما أنَّ مَن أسلمَ بعد الفتح ليس كمن أسلم قبله ؛ فكذلك ليسَ مَن أسلمَ والناسُ كلُّهم كفّارٌ غيرَه ، كمن أسلَم وقد أسلم الناس قبله .

وأنت إذا تأمَّلْت قولَ الصِّدِّيق للأنصار : « إنَّ هذا الأمر ليس بِخُلسة » علمتَ أنَّه كان ثابتَ الجَنان ، رابطَ الجأش ، واثقاً بالحُجَّة ، عارفاً بمواضع الإمامة ، وإنَّما كانت غايته تقريرَهم بفضيلة المهاجرين ، لأنَّهم إذا صاروا إلى ذلك فلا حاجةَ به إلى ذكر نَفْسه وتعريفهم فَضْلَه ، لأن تبريزَه كان بيِّناً على المهاجرين ، وفضلَه كان ظاهراً على السّابقين .

والدَّليل على ذلك أنَّ خَوض الأنصار وكلامها لم يكن إلاّ فيما بين جُملة الأنصار وجلة المهاجرين ، قالوا : مِنّا أميرٌ ومنكم أمير . فما هو إلاّ أن قرَّرهم بفضيلة المهاجرين فلم يكن لهم بعد ذلك متكلِّم ، حتّى أطبقوا جميعاً على بَيعته هم والمهاجرون من بين جميع المهاجرين - فلا يستطيع أحدٌ أنْ يدّعي أنَّ إنساناً قال من الأنصار : فإن كان لا بدَّ أن يكون منكم الأمراءُ فليَكن فلان ، فإنَّه أفضلُ وأحقُّ بقرابةٍ أو بعمل - فسكتوا معاً سكتةً واحدة ، وسلموا معاً تسليماً واحداً .

ولو أنَّ الأنصار كانوا قد سلَّموا للمهاجرين في البَدْء فلم يفارقوا ولم يتمادَوْا ، وكانوا كالمهاجرين في إطباقهم على أنَّ الإمام منهم ما كان ليظهر للناس من شهامة أبي بكر وصرامته واجتماع نَفْسه وقوّة مُتنه ، وجَلَد رايه ، وقِلّة حَيرته وتضجُّعه مثلُ الذي ظهر لهم . وإنَّما يَعرِف العاقلُ فَضْلَ العاقل في مضايق الأمور ، وساعة الجَوْلَة ، والعَجلةِ والحيرة ، وظُهور الفِتنة ، ومَوَجان السِّفْلة ،

واضطراب العِلّية واختلاط الخاصّة بالعامة .

فهَلْ أعضَلَ به داءٌ فلم يسُدَّ ثغره ، أم هل نَجَم بلاءٌ فلم يتولَّ قَمعه ؟ !

[٥٨ ـ الرياسة عند العثمانية لا تنال بالقرابة بل بالدين]

وزعمت (العثمانية) أنَّ أحداً لا ينالُ الرِّياسةَ في الدِّين بغير الدِّين . ولو جازَ أن يُعطيَ الله رجلاً عطيّةً ويفضِّلَه على غيره لِنَسَبه ، وعملُهما سواءٌ في دار الدُّنيا ، جاز أن يفضِّله عليه في الآخرة .

وليس ذلك كالمعافَى والمُبْتلى ؛ لأن العافيةَ والبلاءَ ، والشُّكر والصَّبر ، والثَّواب على الطَّاعة بهما والعقابَ على المعصية فيهما ، إذا وازنْتَ بين عواجل أمورهما وأواجلها مِن كلِّ وُجوهها ، رأيتها سواءً لا فَضْل بينهما .

وكذلك شأنُ المملوك والمالك ، والفقير والغنيّ ، والمُبتلَى والمُعافى .

فإنْ كان القريبُ القرابةِ والبعيدُ القرابةِ سبيلُهما في النَّقص والفضْل ، والصَّبر والشكر ، والثَّواب والعقاب ، وجميع حالاتهما في العاجل والآجل ، كالمعافَى والمبتلَى ، والمالك والمملوك ، والفقير والغنيّ ، فليس بين القريب والبعيد فرق ، وليس لقرابته فضيلةٌ على غيره ، ولا ينفعُه شيءٌ إلاّ كما نفعت المعافَى والغنيَّ في ظاهر أمرهما ، وما يقع العِيان عليه منهما ، وهما في الغِنى والمصلحة ، والنظر والصُّنع ، سواء .

وليس على هذا بنى القوم أمرهم في القَرابة ؛ لأنّهم زَعموا أنَّ القرابة سببٌ للرِّياسة في الدِّين . ولو قالوا إنها سببٌ للقَدْر والنَّباهة في الدُّنيا كان ذلك وجهاً ، كما ترى من فَضْل حال المنيع الرَّهط ، الجميل الرُّواء ، والمعافَى في بدنه الكثير المال ، على الذَّليل الرهط الذَّميم في رُوائه ، المبتلى في بدنه ، القليل ذاتِ اليد ، وهما في مُغيَّب أمرهما ، وفيما لا يقع العِيان عليه من شأنهما ، سواءٌ في صنع الله وفضلِه وعائدته .

[وإنّما] كان لنا أن نزعمَ أنَّ القرابةَ تنفع في الدِّين والحسب فتكونُ سبباً

إلى الرِّياسة فيها ، أنْ لو كنَّا رأينا من عظم قدر القرابة ونبل من أجله نالَ الرِّياسة الكبرى بالحَسب . فإذا رأينا النبي صلى الله عليه لم يستحقَّ ذلك الموضعَ البائن العاليَ إلّا بالفَضل دون المُرَكَّب كان من مَتَّ بقرابته أجدَرَ ألّا ينالَ الرِّياسة إلّا بالفضْل دون المركَّب ؛ لأنَّ النبي صلى الله عليه لو كان نال ذلك بالهاشميَّة كان هو ورجلٌ من عُرْض بني هاشم سواء .

ولو كان نالَه بعبد المطَّلب لكان ولدُ عبدِ المطَّلب لصُلْبه أقربَ إليه .

وقد نعلم أن ذلك لو كان لشخصٍ بالهاشميَّة أو بالمطَّلبيَّة لكان لعليٍّ في ذلك ما ليس لأحدٍ ، لأنَّه ابنُ أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم ، وأمُّه فاطمةُ ابنةُ أسدٍ بن هاشم .

فلمّا وَجَدنا الأمر كما ذكرنا ، علمْنا أنَّ النبيَّ صلى الله عليه لم يصيِّره مستحقاً لأعظم الرِّياسات وأشرف المقامات إلّا بالعمل ، إذ كنّا قد وجدنا من يُساويه في الهاشميّة لا يستحقُّ مثلَ مالَه .

[٥٩ ـ احتجاج العثمانية للتسوية بين الناس]

وزعمت (العثمانية) أنَّ لها في التَّسوية بين القريب والبعيد حججاً كثيرة ، قد عرفتها وسمعتَها من أهلها .

ولكنَّ كتابي هذا لم يُوضع إلّا في الإمامة ، ولربمَّا ذكرت من المقالة والمِلَّة والنِّحلة التي تعرض في الإمامة صدراً ، طلباً للتمام ، وتعريفاً لوجوه الإمامة وما دخل فيها .

والكلامُ في التَّسوية كلامٌ يدخل في باب التَّعديل والتجوير ، وهو يشتدُّ الكلام فيه ويغمُض ، فإنْ أخبرنا عن فرعه ولمْ نُخبر عن أصله لم ينتفع القارئُ به ، وصار وبالاً عليه .

وقد زعم ناسٌ من (العثمانية) أنَّ الله بفضله ومَنّه كَفَى أكثرَ النّاسِ مؤونة

الرُّوية ، وتكلُّفِ غـامض الكلام في التَّسـوية ، فـأخبرهم في كتـابه بـأبْيَنِ الكـلامِ وأوضحه عن معاني التَّسـوية ، ومـا يجوز في عَـقْله وحكمتـه . فقال وهـو يريـد أن يُعْلم النَّاس أنهم لا ينتفعون بصـلاح آبائهم ، ولا يضـرُّهم فسادُ رهـطهم فقال : ﴿ وإبراهيمَ الذي وَفَّى . ألاّ تـزرُ وازرةٌ وِزرَ أُخرَى . وأنْ لَيسَ لـلإنسانِ إلاّ ما سعَى ﴾ .

فـإذا كـان كـونُ الإنسـان ابنَ نبيٍّ وابن خليفـةِ نبيٍّ ، أو ابنَ عمِّ نبيٍّ ليـسَ من سَعيه ، فقد أخبر أنَّه لا شيءَ لـه في ذلك حين قال : ﴿ وأنْ لَيس لـلإنسان إلاّ مـا سَعَى ﴾ فـالسَّعيُ معـروف ، والكـونُ من رهطٍ دُون رهطٍ ليس من سَعْي المرء في شيء ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه لقـرابته حـينَ جَمعهم : « يا عبـاسُ ابنَ عبد المطَّلب ، ويا صفيَّة بنتَ عبـد المطَّلب ، ويـا فلانُ ويـا فلان ، إنِّي لا أُغني عنكم من الله شيئاً » .

ولو أنَّ إنسـاناً من القـرابة إذا هـو عَصَى وعصى غيْره بمثـل معصيتـه غَفَـر الله [له] لقرابته ، ولم يغفر لـلآخر ؛ وكـان إذا أطاع وأطـاع غيْره بمثـل طاعتـه أعطاه الله أكثرَ ممَّا يُعطي الآخر ، لكانا إذا استوَيَا فلم يطيعا جميعاً ولم يَعصيا ، فكـانا إمَّا طِفلَين وإمَّا مجنونـين وإمَّا نـائمين ، وإمَّـا ساهيـين ، أعـطَى القـريبَ وفضَّله ، ولم يُعطِ الآخَرَ شيئاً ولم يسوِّ بينَه وبين مَن لم يُطِع ولم يَعْصِ ، كـما لم يُطِع القـريبُ ولم يَعْص ، لم يكن النبيُّ صـلى الله عليه ليقـول لعمِّـه وعَمَّتـه : إنِّي لا أُغني عنكم من الله شيئاً .

ولـذلك قـال النبي صلى الله عليـه : « المسلمون تتكـافـأ دمـاؤهم ، ويَسعَى بذمَّتهم أدْناهم » .

ولـذلك قـال النبي صلى الله عليـه : النَّـاس كلُّهم سـواءٌ كـأسنـان المُشْط . والمرءُ كثيرٌ بأخيه . ولا خَيرَ لك في صحبةِ مَن لا يرى لَكَ مِثلَ ما يرى لنَفْسه .

ولـذلك قـال حين بلغَـه أن عُيينـة قـال : أنـا ابنُ الأشيـاخ ، أنـا عُيينـة بن حِصن بن حُذيفة بن بدر بن عمرو ، قـال النبي صلى الله عليـه : « أشرف النـاس

يُوسفُ بنُ يعقوبَ بن إسحاقَ بن إبراهيم » .

ولذلك أخذ وبَرَة من جَنْب بعيرٍ يومَ حُنَين فقال : « والذي نَفْسي بيده ما أنا بهذا أحقّ من رجلٍ من المسلمين » .

وقد قال الله : ﴿ واتَّقوا يوماً لا تَجْزِي نفسٌ عن نفسٍ شيئاً ولا يُقبَل منها شفاعةٌ ولا يُؤخذ منها عدلٌ ولا هم ينصرون ﴾ ؛ فلم يستثن من جميع النُّفوس نفساً واحدة ، لا ابنَ نبيٍّ ولا ابنَ عمِّه .

وقال الله : ﴿ يومَ لا يُغني مَولىً عَنْ مولىً شيئاً ﴾ . والمولى كلمةٌ واقعةٌ على جميعٍ ، فمنه ابن عمِّ المرء ، ومنه خليفتُه ، ومنه مولاه مِن فَوقُ ، ومنه مولاه مِن تحتُ ، ومنه مولاه الذي مَلكه قبلَ عِتقه . فإذا قال الله : ﴿ يومَ لا يُغني مولىً عن مَولىً شيئاً ﴾ فقد دخل فيه ابنُ العمّ وغيرُه ، ولم يَستثنِ الأنبياءَ دونَ المسلمين .

وقال : ﴿ يومَ لا يَنْفعُ مالٌ ولا بَنُونَ . إلاّ مَن أتَى اللّهَ بقَلْبٍ سليم ﴾ قال : ﴿ يأيُّها النَّاسُ اتَّقُوا ربكُمْ واخشَوْا يَوماً لا يَجْزِي والدٌ عَن وَلَدِهِ ، ولا مَولودٌ هوَ جازٍ عَن والدِهِ شيئاً ﴾ ثم قال : ﴿ إنَّ وَعْدَ اللّهِ حَقٌّ فلا تَغُرَّنكُمُ الحيَاةُ الدُّنْيا ولا يَغُرَّنَّكُمْ باللّهِ الغَرُور ﴾ . فمن اغترَّ بعد هذا بالقرابة واتّكل على غير العمل الصالح فقد ردَّ تأديبَ الله وتعليمَه .

ثمَّ الذي رأينا من قصَّة ابنِ آدمَ حينَ قرَّبَ مع أخيه قُرباناً فتُقُبِّل من أخيه ولم يُتقبَّلْ منه ، فقتَله حسداً له وبغياً عليه . وكيفَ لم تنفعه قرابتُه من آدمَ حيثُ لعنَه الله وبرىء منهُ ، وجعلهُ من أصحابِ النَّار ، ثم قال : ﴿ وذلكَ جزاءُ الظَّالمين ﴾ .

لكي لا يتّكل أحدٌ ظالمٌ بعده على قرابته ، ولا يغترّ بأن يكون ابنَ نبيٍّ . ولذلك أرسل الكلامَ على مَخرج العُموم . ولم يُخرجه ذلك المخرج إلاّ وذلك إرادتُه .

فإنْ قالوا : إنّه لم يكن لصُلبه ، ولو كان لصُلبه لنَفَمه ذلك عنده .

قلنا : إنّه ليس لأحدٍ سمعَ الله يقول : ﴿ واتلُ عليهم نبأ ابنَيْ آدمَ ﴾ أن يجعلها من عُرْض بَني آدم بعد سبعين قرناً إلّا بحُجّةٍ . وإنْ لم تكن له في ذلك حُجّةٌ فليس له أن يُزيل معنى ابنٍ عن أصله ؛ لأنّ الأصل المستعمَل الموضوع أن يكون الابنُ للصُّلب ؛ فإنّما جاز أنْ يقالَ لابن الابن على التّشبيه بالابن ، [و] على الحَمْل عليه . وكذلك الابنُ الذي هو على التّبنّي والتّربية ، لأنّ رجلاً لو قال : أتاني فلانُ بن فلان ، لم يكن لأحدٍ أنْ يقول : إنّه لم يَعْنِ ابنَه وربيبَه ، إلّا بحجّة ؛ وإلا فالكلامُ موضوعٌ على أصله وعلى المستعمَل المعروف منه .

ثم صنيعُ الله بابنِ نوح ، وهو كما علمت من أعظم الأنبياء قدراً ومنزلةً ومكاناً ، حين عَصَى فيمن عصى ، كيف غَرّقه فيمن غَرّق ممّن لا قرابةَ له ولا ولادةَ .

فإنْ قالوا : إنّه لم يكن ابنَه ، لأنّ الله قال : ﴿ إنّه ليسَ مِن أهْلِكَ إنّه عملٌ غيرُ صالح ﴾، وذكر امرأةَ نوحٍ وامرأةَ لوط فقال : ﴿ كانتا تَحْتَ عَبدَينِ مِن عِبادنا صالِحَين فخانَتاهُما فلم يُغْنِيا عنهما من الله شيئاً ﴾.

قيل لهم : إنّه ليس لنا أن ندَعَ قول الله : ﴿ ونادَى نوحٌ ابنَه ﴾ إلى تأويلٍ مُختَلَف فيه . ولقولِهِ الخيانة مخارجُ غير تأويلكم . وقد تفْجر المرأة بعد أن صحّ منها لبعلها ولدٌ كبير . وفي قوله : ﴿ فَلَمْ يُغْنيا عَنْهما من الله شيئاً ﴾ دليلٌ أنْ محبّتَهما كان الصَّفح عن خيانتهما ، وأنّ محبّتهما لم تُغنِ عنهما شيئاً .

ولا يُشْبه قولكم [في] نساءِ الأنبياء الذي نَعرف من حُسْن اختيارِ الله لهم من طِيب المناكح ، وطَهارة المداخل . وهذا معنى طبائع الناس . لم يكن اللّهُ ليترك امرأة نبيٍّ تصير إلى تهجينه والتّصغير بقَدْره ؛ لأن امرأة منظّفَة مُصفّاة ، لا تحمل الأقذاء ، ولا تعلقُ بها الأدناس ، ولا يَطوق المُبطِلين عليها الاعتماد .

وفي قول الله لإبراهيم ، وهو شَجَرة الرِّسالة ، وخليل ربِّ العزّة حينَ يقول

له : ﴿ إنّي جاعِلُك للنّاس إماماً ﴾ قال إبراهيمُ إمّا مستفهماً وإمّا طالباً : ﴿ ومِنْ ذُرِّيّتي ﴾ قال : ﴿ لا ينالُ عَهدِي الظّالِمين ﴾. والخبرُ أنّ عَهدَ إمامته وخلافته لا ينالُ الظّالمَ وإنْ كان من خير خَلْق الله .

ففي هذا دليلٌ أنّ الرّياسة في الدِّين لا تُنال بغير الدِّين .

وقال الله : ﴿ ولقد أرسَلْنا نُوحاً وإبراهيم وجَعَلْنا في ذُرِّيتهما النُّبوّةَ والكتابَ فمنهُمْ مهتدٍ وكثيرٌ منهم فاسِقون ﴾ ألا تَرى أنّ الذُّرّيّةَ وإنْ كانت كلُّها ذرِّيّةً ومكانُها من القرابة سواء ، فمنها وليٌّ ومنها عدوٌّ .

[٦٠ - رد العثمانية على إدعاء الشيعة ان عمر لم يأخذ بالتسوية لا في الاعطيات ولا بين العرب والعجم]

فإنْ تَركوا هذا جانباً وقالوا : كيف تزعمون أنّ أبا بكر كان يرى التسويَة، وكان لا يرى أنّ الفروسيّة أصلٌ للإمامة ، والقرابة شعبة من الخلافة . ولم يكنْ في الأرض رجلٌ أبعد من هذا المذهب مِن خاصّته وخليفته وصنيعته ، والمحتذى على مثاله ، عمرَ بنِ الخَطّاب ، لأنّه فضّلَ القرشيّاتِ من نساء النبي صلى الله عليه على غيرهنّ ، وفضّلَ العربَ في العطاء على الموالي . وقال : ﴿ زَوِّجُوا الأكفاء ﴾. وكان أشدَّ منه في أمر المناكح .

قيل لهم : إنّه لم يكن على ظهر الأرض رجلٌ كان أبعَدَ ممّا قلتم مِن عمر ، ولا [ظَهَرَ] منه - خلافَ ما ادّعيتم - مثلُ الذي ظَهَرَ منه . والدّليل على غلطكم وخطإِ قولكم ، أنّ عمر لمّا فرض الأعطيةَ ودوّنَ الدّواوين وقام إليه أبو سفيانَ بنُ حرب ، وحكيمُ بنُ حزام، فقالا : يا أمير المؤمنين ، أديوانٌ كديوان بني الأصفر ؛ إنّك إنْ فعلْتَ ذلك اتّكل النّاسُ على الدّيوان وتركوا التّجاراتِ والمعاش ! فقال عمر : فقد كثُر الفيءُ والمسلمون .

ففرضَ للمهاجرين ومواليهم ، وللأنصار ومواليهم ، ممّن شهد بدراً في ستة آلاف ستة آلاف فكان عطاءُ عمر وعليٍّ وعبدِ الرحمن وطلحةَ والزّبير وأبي عبيدة بن

الجراح، وعطاء بلال وسالم مولى أبي حذيفة وجميع الموالي سواءً.

ثمَّ فَرَض على قَدْر الفَضْل والغناء والسَّابقة، على قَدر بُعد الدار وقُربها من المُهاجر، ففرض لأهل اليمن في السبعمائة إلى الألف، وهم أبعَدُ خَلق الله منه ومن مُضر أرحاماً ونسباً. وإنما أرغبهم وزادهم لبُعد دارهم من المهاجَر، وكانوا أهلَ قرىً ومزارعَ، فتركوا مُطنَّبهم رغبةً في الهجرة.

وفَرَض لمضر وبَليٍّ وكلب وطَيِّء في الثلثمائة إلى الأربعمائة. فتسويته بين مضر وطيء دليلٌ على ما قلنا.

وفرض لربيعة في خمسين ومائتين وقال: إنّما هاجروا من أطناب بيوتهم. وربيعةُ أمَسُّ به وبمضر من بَليّ وطَيء.

وفرض لأشراف الأعاجم: لِدهقان نهر الملك، وهو فيروز بن يَزْدَجِرد، ولابن النخيران، ولخالدِ وجميل ابني بَصْبَهري دهقان الفَلُّوجة، ولبسطام بن نَرسى دهقان بابل، وجُفينة العِبادي، ورميل في ألفين ألفين.

وفرض للموسحنسان، والهُرمزان، ولِسياه وخَشْ وأمقلاس في ألفين وخمسمائة، وهو أقصى شيء أخذه عربي قطُّ، فقيل له في ذلك، فقال: قومٌ أعاجمُ أشراف، أحببتُ أن أتألَّف بهم غيرهم.

وفرض لسوى هؤلاء النَّفرِ من العجم من الحاشية والعوام ممّن سُبيَ وأسِر وخَرَج في الصُّلح مع رئيسه وقائده، في أقلّ مما فَرَض للأعراب وحاشية العرب وعوامِّهم، فقيل له في ذلك فقال: إنّ الأعرابيَّ إلاّ يقاتِلْ عن دينه قاتَل عن رهطه وشقه وناحيته. وإن لم يكن ذا بصيرة في دينه قاتَلَ محاماةً عن حسبه واصحابه، وقد أمنت تحوله الى عدوه فاقل ما عنده اذا لم يبل ان يكثر السواد ويكشف الجيش وهو على حال افقه في الدين وافهم للتأويل والعجمي ليس بذي نصرة في الاسلام ولا يقاتل عن داره ولا يحامي عن حسبه ولا يدافع عن رهطه وغير مأمونٍ عليه التحولُ إلى أصحابه فيدلُّ على العَورة، وهو أجدرُ الاّ يَفهم تنزيلاً ولا تأويلاً.

وَحَمَلَ قوماً في البحر وآخرين في البر ، ففضّل على قَدْر المؤونة ، وأعطى على قَدر المشقة .

فهكذا كانت عطاياه ، وهكذا كان تدبيره فيما نقلت العلماء وروَت الفقهاء . ولا يشكُّ في ذلك صاحبُ خبرٍ ، ولا يدفعُه صاحبُ أثر .

فأمّا ما ذكروا مِن تهجينه أمر العَجَم ، وتعظيمه أمرَ العرب ، فإنّما كان ذلك لأنه لما نَدَبَ الناسَ إلى قتال كسرى والأساورةِ تثاقلت عن ذلك العربُ والأعراب وجميعُ المهاجرين والأنصار ، هيبةً لناحيةِ كسرى والفرس ، وخَفُّوا لغَزْو الرُّوم ونَشطوا له ، حتى انتَدَب أبو عبيدٍ الثَّقفيُّ أوّلَ من انتدب ، فلذلك عَقَد له على كبار المهاجرين الأوّلين ، والأنصار ، والبَدْريِّين ، فلم يكنْ له همٌّ إلاّ تصغير أمرِهم وتهجين شأنِهم والحطُّ من أقدارهم ليردُّ ذلك من نفوس العرب .

وهكذا ينبغي أن يكون تدبير المدبر .

أوَ ما علِمتَ أنَّ المغيرة بن شُعبةَ لمّا سمع قَيْسَ بن مكشوحٍ يقول حين عاينَ الفُرس : ما رأيتُ كاليوم حديداً ولا عديداً ! وهذا يومَ القادسيَّة ، وقد كان قيسٌ شهد قبل القادسية حروبَ الرُّوم ، وقيسٌ يومئذ على الخَيل ، والمغيرةُ على الرَّجّالة ، فأقبل عليه المغيرةُ منتهِراً له وهو يقول : إنما هذا زَبْد من زَبْد الشيطان !

وقد كان المغيرةُ قد عاينَ مثلَ الذي عاينَ قيس ، ولكنَّ التدبيرَ كان غيرَ الذي ذهب إليه قيس .

ومن الدَّليل على ما وصَفْنا من تدبير عمر ، تَركُه الاستخفافَ بأقدار العجم وإظهار احتقارهم والإزراءَ بهم ، بعد جَلُولاء .

فمن ذلك انه لما أُتِيَ بسيف كسرى وقبائه ومنطقته ألبسه سُراقةَ ابن مالك بن جُعْشُم ، ثم قال له : أدْبِرْ ، ثم قال له : أقبِلْ . أقبل عليه عُمر وعنده الناسُ فقال : أمَا والله لرُبَّ يومٍ لو كان هذا من كسرى وآلِ كسرى

لكان شرفاً لك ولقومك ، في أمور كثيرة من هذا الضرب لم يكن عُمر لينطق بحرف منها وحَربُهم مَخُوفة ، ونفوس العرب لهم هائبة .

وهكذا تدبيرُ الخلفاء ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون . ولو كانوا إذا لم يَفْهموا عن الأئمة لم يعترضوا عليهم ولم يخطئوهم ولم يجهِّلوهم كان أيسر .

ولا أعلم في الأرض جهلاً أجهَلَ بهذا وشبهه مِمَّن ينتحل اسم الكلام وينصب نفسه للخصومات . ثمَّ الروافض خاصة ، ليس يعرفون من أمر الإمام إلاَّ أنه يعلم ما يكونُ قبل أن يكون .

ومن الدليل على ما وصفنا به عُمر ، قولُه لسعد بن أبي وقاص حيثُ وجهه إلى القادسية وأوصاه ، قال : يا سعد سعد بن وُهَيب إنَّ الله عزَّ وجلَّ إذا أحب عبداً حبَّبه إلى النّاس ، فاعتبرْ منزلتك من الله بمنزلتك أن يقال خال رسول الله صلى الله عليه ، فإن الناس في ذات الله سواء

فأيُّ قول أجمعُ وأدلُّ ، وأيُّ فعل أشبه بالذي حَكَينا عنه من التّسوية ، من هذه الأقاويل والأفاعيل .

وكان سعدٌ خال النبي ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وقد أخذ بيده : « هذا خالي أباهي به فليأت كل امرىء بخاله » .

وفي قول عمر في المناكح : « ليس شيءٌ من خصال الجاهليَّة إلاَّ وقد تركتُه ، إلاّ إنّي لستُ أبالي إلى مَن نكَحت ، وإلى من أنكَحت » . فإن شئتَ أن تقول : وأيُّ أمرٍ هو أوجبُ على العاقل المسلم الحرّ من ألاّ يبالي إلى مَن نكح وأنكح ؟ .

قلت : وإن قلت إنَّ هذا الكلامَ من عمر يدلُّ على بقيّة عصبيَّة فيه . فما تبرَّأ إليك منه حينَ جعله من خصال الجاهليّة إلاَّ وهو آبٍ له وناءٍ عنه ، وزارٍ عليه . وفي قوله هذا دليلٌ على أنّه قد اكترث لبقيَّة عادة الجاهلية ، وأنَّه راغب عنها كما رغب عن أكبر منها .

وفي قوله لعبد الله بن عمرَ حين فرضَ له في ألفين وفرضَ لأسامة في ألفين وخمسمائة ، وابنه قُرشيٌّ وأسامةُ مولىً ، حين قال له عبد الله : أتفضِّل عليَّ أسامةَ في العطاء وأنا وهو سِيّانِ ؟ قال : إنَّ أسامة كان أحبَّ إلى رسول الله منك ، وكان أبوه أحبَّ إلى رسول الله من أبيك .

ألا ترى أنَّه يَدُور مع الدِّين حيثما دار ؟ !

وفي قول عبد الله بن عمر لأبيه : تفضِّل عليَّ أسامةَ في العطاء وأنا وهو سيّان ، دليلٌ على أنَّ القوم كانوا لا يعرِفون إلَّا الدِّينَ والسابقة ، والغَنَاء عن المسلمين .

وفي وصيَّته عند وفاته أن يصلِّي عليه صُهَيب ، وفي أمرِه إيَّاه بالصَّلاة بالناس في مَقامه إلى أن يختارَ المسلمون رجلاً ، دليلٌ على ما قُلْنا .

وصُهيبٌ مولىً لعبد الله بن جُدْعان .

والدليل على أنَّ صهيباً رجلٌ من العَجَم قولُ رسول الله صلى الله عليه : « بلالٌ سابق الحَبَشة ، وسَلْمان سابق فارس ، وصُهيب سابق الرُّوم » . وهذا حديثٌ لم يختلف فيه فقيهان .

وفي خُروج آذِنه وحاجِبه يوماً إلى النّاس ، وقريشٌ والعربُ جلوسٌ ببابه ينتظرون إذنه ، فيهم أبو سفيان بن حَرب ، وسُهَيل بن عمرو ، وحكيم بن حِزام ، والأقرع بن حابس ، وعُيَينة بن حِصْن ، فنادى بأعلى صوته : أين عمّار ؟ أين بلال ؟ أين صهيب ؟ أين سَلمان ؟ فينهضون مكرَّمين ومفضَّلين ، وعلى الناس مقدَّمين ، وتلك الجِلّةُ وتلك السّادَةُ جلوسٌ لا يَنطِقون ولا يُنكِرون ، فلمّا كثُر ذلك عليهم تمعَّرتْ وجوهُهم ، وامتُقِعَت ألوانُهم ، فأبصرهم سُهيلٌ فعَرَفَ ما قد أصابَهم ونزلَ بهم ، وكان حليماً خطيباً فقال :

لِمَ تتمعَّرُ وجوهُكم وتتغيَّر ألوانكم ، ولا ترجعون باللائمة على أنفسكم ؟ ! دُعينا ودُعُوا ، فأبطأنا وأسرعُوا ، ولئنْ حَسَدتُموهم على باب عُمرَ لَلَّذي أعدَّ

الله لهم في الجنّة أفضل !

ثم الدّليل الذي ليس فوقه دليلٌ ، قولُه وعندَه أصحابُ الشُّورَى وكبارُ المهاجرين وجِلّة الأنصار ، وعِلْيَةُ العرب ، وهو مُوفٍ على قَبْره ينتظر خُروج نَفْسه : « لو كان سالمٌ حَيّاً ما تَخالجني فيه الشَّكُّ » . وسالمٌ مولى امرأةٍ من الأنصار ، وكان حليفاً لأبي حُذَيفة بن عُتبة بمكة ، فلذلك كان يقال : مولى أبي حذَيفة ؛ لأنّ حليفَ الرّجل مولاه .

فإن كان هذا لا يدلُّ على التّباعُد من الحميَّة والأعرابيَّة والعصَبيّة ، ولا يدلُّ على التُّسويَة ، فما عندنا ولا عندَ أحدٍ شيءٌ يدل على شيء ! وإذا كان هذا مذهبَه وقولَه في الخِلافةِ فما ظنُّك به فيما دونَ الخلافة ؟ !

وهذا بابٌ إن استقصيناه كثُر وشَغَل الكتابَ . وفيما قُلْنا مَقْنَعٌ لمن كان الحقُّ له مَقْمَعاً ، والصُّواب له مَألفَا .

فهل يقدرُ أحدٌ أن يَحكي عن عليٍّ مثلَ الذي حكينا عن عُمرَ في التَّسوية ، أو شَطره ؟ ! .

إنّ أكبر ما رأينا في أيديكم عنه قولـه : « إنّني قرأتُ ما بين دفَّتي المصحفِ فلم أجدْ فيه لبني إسماعيلَ على بني إسحاقَ فضلاً » .

فهذا قولٌ إنْ قاله عليٌّ فليس فيه دليلٌ أنّه أراد به الطّعن على عُمر وإظهارَ خِلافِه ، لأنَّ علياً قد مَلَكَ أكثر الأرض خَمْسَ حِجج ، فلو كان رأيهُ في خلاف عمر على ما تصفون ، وكان عمرُ عنده لا يرى التُّسوية في العَطاء ، لقد كان غَيَّر دواوين عمرَ ، وبدّلَ أعطيته وفُروضه وحوّلها إلى الحقّ عنده ، أو نطقَ فيها بحرفٍ ، أوْ أظهر ذلك في هيئته إن لم ينْطق به خطيباً ومحتجّاً .

وكيف يكون ذلك ولا أحدَ أعلمُ بصواب ما دبّرَ عمرُ في ذلك من عليٍّ ؟ ! وكيف يكون عمرُ لا يَرَى التّسوية وقد صنَع صنيعاً لو قام مقامَه أشدُّ

الناس سَعْياً - ما لم يجُر عن الحقّ ويَعدِلْ عن السَّداد - ما كان عنده ولا في طاقته أكثر منه .

[٦١ - الرد على ادعاء الشيعة ان علياً عمل بالتسوية بينما اهملها عمر]

والعجب أنّكم تزعمون أنّ عليّاً كان يرى التسوية ، وأنّ عمر صاحبُ حميّة ، فأنتم تروون أنّ أكثر احتجاجه إنّما كان بذكر قرابته وامتن اسبابه ومُصاهرته ، مع أنّ القرابةَ هي التي أخرجْتكم إلى هذا الإفراط كلّه . فأنتم تحبُّون بني هاشم وتفضّلونهم للقَرابة ، وتوجبون لهم الإمامة للقرابة . ثمّ تزعمون أنّ عليّاً كان يرى أنّ ولدَ إسماعيل وإسحاق سواء ، وكان يرى أنّ العرب والعجم سواء .

وكيف غضبتم على عُمر لأنه فضّل قُريشاً على العرب ، والعربَ على العجم ، ولم تَغْضَبوا على أنفُسكم حينَ فضّلتم بني عبد المطّلب على بني هاشم ، وفضّلتم بني هاشم على بني عبد شمس ؟ !

فَفَضّلوا أيضاً بني عبد شمس على سائر قُصيّ ، وسائرَ قُصيّ على سائر كعب ، وسائر كعبٍ على سائر قريش ، وكذلك سائرَ قريش على سائر مضر ، وكذلك سائر مَضر على ربيعة ، وربيعةَ على ولد إسحاق ، وولدَ إسحاقَ على ولد قَحْطان .

وإنْ شئتم ففضّلوا ربيعةَ على اليمن ، واليمن على العجم . وإذا أنتم قد دخلتم في كلّ ما عِبْتم .

فأمّا أنْ تفضّلوا مَن شئتم على من شئتم - وإن كان من لم تفضّلوا في القياس كمن فَضّلتم - فليس ذلك لكم ؛ لأنّ القياس قد اعترض دون مَشيئتكم وقضى عليكم .

ولو أنّ قائلاً قال : أنا أزعم أن الناس كلّهم بَعد بني عبد المطّلب لصُلبه

سواءً ، كما قلتم إنّ الناس كلّهم بعد بني هاشم سواء ، ما كان الذي قال أمَسّ بالرّسول وأولى بالحكم . فإن قلتم : فمن أين كان له أن يَقف على جدّ عبد المطّلب وليس بينه وبين هاشم إلا أب ؟ فيقال لكم : وكيف كان لكم أن تقفوا على جدّ هاشمٍ وبين هاشم وعبد مناف أبٌ واحد ؟ وكيف كان لكم أنْ تقطعوا التّفضيل وحقّ القرابةِ من لدن هاشمٍ ، وهاشمٌ وعبدُ شمسٍ أخوانِ لأم وأب ؟ ! ولذلك قال الشاعر :

عبد شمسٍ كان يتلو هاشماً وهما بعدُ لأمٍّ وأبِ

فاجعلوهُ يتلو هاشماً في حقّ القرابة واستحقاق الإمامة. وإذْ جاز عندكم أنْ تتخطّى الإمامةُ العمَّ إلى ابن العمّ كان [ذلك] في الأخ للأم وللأب .

ثم زعمتم أنّ الدّليل على أنّ عمر صاحبُ عصبيّةٍ وحميّة ، ردُّه لسَلْمانَ حينَ خطبَ إليه ابنَته ، وسلمان كان أعقَلَ من أن يخطب إلى عمر ابنته وعثمان وعلي .

قلنا : جوابنا في هذا في خِطْبته إلى عليّ ، وإنْ كان عليٌّ أشرفَ موضعاً مع أنّ القائم عن سَلْمان أنّه كان يقول : قال لي النبيّ صلى الله عليه : « يا سَلمانُ لا تُبغض العربَ فتُبغضَني » . وكان يقول : أُمِرْنا أن نأتمّ بكم ولا نؤمّكم ، وأُمرنا أن نُزَوِّجكم ولا نتزوّج منكم .

فليس في الأرض متعرِّبٌ وصاحبُ عصبيّةٍ إلاّ وأكبرُ ما يحتجُّ به في المناكح حديثُ سَلمان .

وقد تمنعُ الأشرافُ عقائلَ نسائها لأسبابٍ غير التّحريم ، لا يكون ذلك عيباً عليهم في آدابهم ، ولا نقصاً في أديانهم .

وفي قول عليٍّ يوم الجمل حين رأى عبدَ الرّحمن بنَ عتابٍ صريعاً : « شَفَيتُ نَفْسي وجدَعتُ أنفي . قتلتُ الصّناديدَ من بني عبد منافٍ وأفلتني الأعيان من بني جُمَح ! » فقال له رجلٌ : لشدَّ ما جَزِعتَ عليه يا أمير المؤمنين !

قال : « إنّه قد قامت عني وعنه نِسوةٌ لم يَقُمْن عنك » دليلٌ أنّه قد كان يرى للأمّهات قدراً كثيراً ، وللمناكح خطراً عظيماً .

وفي كراهته أن يتزوّج المقدادُ ضُباعةَ بنت الزُّبير ، حتّى كان من النبيّ إليه الذي كان ، دليلٌ على شدّة تدبيره .

وإنّما ينبغي أن يقضيَ بين أصحاب محمدٍ مَن قد عرف أمورَهم في جميع مُتَقَلَّبهم ؛ لأنّه غيرُ مأمونٍ على المتكلّم إذا قلَّ سماعُه أن يخرجه الجهلُ [إلى] استصغارِ بعضهم أو تضليله والبراءة منه ، فيَهلِكَ هلاكَ الدُّنيا والآخرة .

وإنّ أغنَى النّاس أن يكونَ أصحابُ محمّدٍ خُصومَه لأنتم معشرَ أصحاب النّظر والمتكلمين .

والذين نَحَلُوا عمرَ العصبيّة رجلان : رافضيٌّ أحبَّ أن يَمْقُته إلى العَجَم والموالي ، ومتعرِّب عرفَ أنَّ عمر عند الناس قُدوة ، فنَحَله ذلك ليكونَ له حجَّة . فاعرفْ ذلك .

[٦٢ ـ رد العثمانية على ادعاء الشيعة ان الزبير سل سيفه انتصاراً لعلي]

وأمّا ما ذكروا من أنَّ الزُّبير خرجَ شاذّاً بسَيفه يوم السقيفة ، فإنْ كانوا صادقين فإنَّ هذا هو الطَّيْش والتسرُّع إلى الفتنة ، وتهييج النّاس على إظهار السلاح .

وإنّما أتى أبو بكرٍ الأنصارَ واعظاً ومحتجّاً ، وممسّكاً ومصلحاً بألين الكلام وأحسَنِ الهَدْي ، لم يَحمِل سوطاً ولا سَيفاً ، ولم يُظهِرْ مُعازّة ولا أرادَ المغالبة فما وجه خُروج الزُّبير بسَيفه شاذّاً نحوَه ؟ ! بل كان أشبهُ الأمور بالزُّبير وأولاها به ، والذي يجبُ علينا أن نظنّه به ، أن يقوم محتجّاً ومُصلِحاً ، فإذا أبانَ عن حُجَّته وأعذَرَ في موعظته فلم يرَ ذلك ناجعاً ولا مقبولاً ، ورأى شيئاً يجوزُ به حَمْلُ السَّيف والشَّدُّ به ، كان مِن وراءِ ذلك .

وكيف علمتم أنَّ الزُّبيرَ إنَّما سلَّ سيفَه ليؤكِّد لعليٍّ إمامَته أو ليوطِّىء له خلافته ؟ ! ولعله إنَّما أراد الأمرَ لنفسه دونَ غيره . ولعلَّه إنَّما غضب لصرف الأمر عن خاله وكبيره وشَيخه العبَّاس بن عبد المطلب . فكيف علمتم أنَّه إنَّما أراد صَرْفها عن أبي بكرٍ خاصَّة ؟ ! وكيف يشدُّ على من لم يَقُل بايعوني ، ولا أظهَرَ الحرص عليها ، وإنَّما كره أن يبقى الناس شراً ، وعلِمَ أنَّ على الأنصار أن يسمَعوا للمهاجرين ، وقد قال للناس : « بايعوا أيَّ هذين شئتم »، يعني أبا عبيدة وعمر . إلاّ أن يكون الزُّبير قال : ولِمَ كنتَ أنت المحتجَّ على الأنصار والمعرِّف لهم فضلَ المهاجرين عليهم دونَ عليٍّ .

ويقال لهم عند ذلك : أمَّا بادي الرأيِ والذي لا نَشكُّ فيه نحن ولا أحدٌ ممّن خالَفَنا ، فالذي كان من مُناصَبة الزُّبير لعليٍّ ومحاربته له دونَ الإمامة ، وزَعمِه أنَّه أفضَل منه وأولَى بها منه ، ولو جُعَلها شُورَى لفَرَغه وبرَّزَ عَليه .

ثم الذي لا يشُكُّ الناسُ فيه من طاعته لعمر ، وإنَّما عمر شعبةٌ من شعب أبي بكر . ولقد بلَغ من تعظيمه لعمرَ وطاعتِه له وإكباره لقدره ، أنَّه محا نَفْسه من الدِّيوان لما قُتل عمرُ تَسَلُّباً عليه ، ورفعاً لقَدْره أن يليَ منه من الإعطاء والمنع أحدٌ كما كان يليه منه عمر . كما مَحا نفسَه من الدِّيوان حَكيم بن حِزام لما تُوفِّي النبي صلى الله عليه . وكذلك محا نفسَه من الديوان عبدُ الله بن الزُّبير حين قُتل عثمان .

ولقد بلَغ من طاعتِه لعمر أنه بعثه مَدداً لعَمرو بن العاص ، فجعل عَمرْاً الأمير عليه ينفذُ لأمره ويصلِّي بصلاته .

والذي يدُلُّك على انبتاته في هوَى أبي بكر ، وانقطاعه إليه بمودَّته ، الخاصَّةُ التي كانت بين أبي بكر وبينه . وذلك أنَّ عبد الله بن مسعودٍ أوصَى إليه حينَ ماتَ . وعبدُ الله عُمَريٌّ محض ، وهو القائل في عُثمان حين برَز على الشُّورى : « ما ألَوْنا أنْ جعلْناها [في أعلا] نا ذا فُوق» فإذا كان هذا قوله في

عثمانَ وعليٌّ فما ظنُّك به في أبي بكرٍ وعُمَر ».

ثم أوصى إليه عثمان بن عفّان [و] هو أصل العمريّة والعُثْمانية ، والمباينةِ لعليٍّ وشيعته عندهم . وأوصى إليه عبد الرحمن بن عَوف ، وهو المختار لعثمان على عليّ ، وصاحبُ أبي بكر ، والدّافع بالموسم في خلافة أبي بكر من بين جميع المهاجرين .

هذا مع أسباب الزُّبير الواشجة بأبي بكر : فمن ذلك إسلامه على يديه ، واحتماله مؤونته في مصاهرته ، حيث رغب إليه في تزويج ابنته أسماء ذات النطاقين ، فولدت عبد الله ـ وعبد الله كنيته أبو خُبَيب ـ وعُروة وغيرهما . وكان عبد الله أولَ مولود ولد في الهجرة ، فسمّاه الزُّبير باسم جدّه أبي بكر ؛ لأنّ اسم أبي بكر عبد الله ولقبه عتيق ، وإنّما لقب بعتيقٍ لعتق وجهه ودقّة محاسنه . ثم كنّى الزُّبير بأبي بكر بكنية جدّه ، فكان عبد الله بنُ الزُّبير يكنى أبا بكر تيمُّناً منهم بكنيته .

وقالت عائشة رضي الله عنها : ألا تكنّيني يا رسول الله ؟ قال : « بلى ، اكتني بابنك » يعني عبدَ الله بن الزُّبير . فكانت عائشةُ تُكنى بأم عبد الله . ولذلك كانت تقول : قال ابني ، وفَعَل ابني ، وكادوا يوم الجمل أن يقتلوا ابني .

فيقال للرّافضة : أمّا العِيان والوُجود فهو الذي خبّرناكم به . وأمّا ما ادّعيتم من [أنّ] الزُّبيرَ سلَّ سيفاً ليؤكّد إمامة عليٍّ فقد ينبغي ان تأتُوا على ذلك ببرهان . فأمّا معاداة الزُّبير له ومحاربتُه إيّاه وفخرُه عليه ، فهذا ما لا يُدْفَع عنه . ولقد فَخَر عليه حين دعاه إلى الشُّورى وأبى ذلك عَليّ فقال : أسلمتُ بالغاً مدركاً وأسلمتَ ناشئاً طفلاً ، وكنتُ أوّل من سلَّ سيفاً في الإسلام ببطن مكّة وأنت مستخفٍ في الشِّعب يكفُلك الرِّجالُ ويمونُك الأقارب من هاشم ، وكنتُ فارساً وكنتَ راجلاً ، وكنتُ شجاعاً وكنتَ بطَلاً . ولئن كنت تزعُم [أنّك ابن عمّه] إنّي لابنُ عَمّته . وأنا عابر البَحرِ يومَ الحَبَشة ،

وفي هيئتي نزلت الملائكة ، وأنا حَوَاريُّ رسول الله صلى الله عليه وفارسُه .

خبّرني بهذا الكلام أبو زُفَر عن ضِراب ، أنَّ الزُّبيرَ كان احتجَّ به . وقد سَقَط عنّي بعضُه لطول العَهد بسماعه .

وقالت (العثمانيّةُ) : العجبُ أنَّ الروافضَ ربّما احتجت علينا بأنَّ الزّبير سَلَّ سيفَه ومضى قُدُماً في تأكيد بيعة عليٍّ وخَلْع سواه ، ونقص من أبي بكر .

فيقال لهم : فما منعكم أنْ تقولوا لمّا مات النبي صلى الله عليه وجَحَد السّلفُ إمامةَ عليّ : كفر الناس خلا خمسة نفر أوّلهم الزُّبير في نفسه وفَضيلته على غيره . وأكبر ما كانَ منه من سَلِّ السيف والشَّدّ به ، وهذا موقفٌ لم يَقِفْه بلالٌ ولا أبو ذر . وأنتم على ثِقةٍ أنَّ ذلك كانَ ، وأنَّ السَّيف لم يُحمل إلا لنُصرة عليٍّ دونَ العبّاسِ وجميع بني عبد مناف وما وَلَدَ قُصيٌّ .

وكيف لم يكن أدنى منازل التدبير أن يكون قد كان مؤمناً وليّاً إلى أنْ جَحَد إمامة عليٍّ بعد مقتل عثمان ، فيكون سبيلُه شبيهاً بسبيل حُذيفةَ وعمّار ؛ لأنّهما كانا عندكم كافرَين حتّى تابا في زمن عثمان ، فكان يكون الزُّبير مؤمناً إلى أن كَفَر عند مَقتل عثمان .

وإنّما صار حذيفةُ وعمّارٌ عند الرافضة وليَّين لأنّهما قالا بزَعمِهم : والله ما دخل عثمانُ حُفرتَه إلاّ كافراً ، وإنّه لجيفَةٌ على الصِّراط يومَ القيامة ، يتأذّى به أهلُ الجَمْع .

فإنْ كانوا إنّما صاروا إلى تَوَلّيهما بعد إكفارهما من أجل تصديق هذا الحديث فإنَّ الذين رَوَوه هم الذي رَووْا أنّهما قالا : والله ما دخل عثمان حفرته إلاّ كافراً ، وإنّه لجيفَةٌ على الصِّراط يتأذّى به أهلُ الجَمْع ، وإنه لا يلي هذا الأمر بعد عُمَر إلاّ كلُّ أصفَرَ أبتَر ! فإنْ كانا قد تابا بقولهما الأوّل لقد ارتدّا بقولهما الثّاني حين قالا : وإنّه لا يلي هذا الأمرَ من بعد عُمَر إلاّ كلُّ أصفَرَ أبتر .

ولو لم يكن ذلك كذلك بل كانا مرتدَّين فتابا فتولَّيتموهما عند توبتهما وعاديْتموهما قبل ذلك على طاعتهما لعمر ، فما بالُكم لم تقولوا مثلَ ذلك في الزبير أنه لم يزلْ مؤمناً حتّى جَحَد إمامةَ عليّ بَعْدُ ؟! مع أنَّ سلَّ الزُّبير سَيْفَه ، وعَدْوَه نحو أبي بكر وأصحابه، وقولَ عمر : « دونَكم الكَلْبَ » حتّى أخذ سيفه وخَسطَر ، إنّما هو حديثٌ وَجدْناه في بعض السِّيرة ، وليس من الأخبار المستفيضة ، وليس مما يحقّقه أصحاب الحديث .

[٦٣ - تأويل قول أبي بكر : « وليتكم ولست بخيركم »]

وإنْ قالوا : فما قول أبي بكر في خطبته التي خطب بها في أول خلافته : « وُلِّيتُكم ولستُ بخيركم »؟ وهل يخلو هذا القولُ من الصِّدق والكذب . فإنْ كان صِدقاً فهو خلافُ قولِكم في تفضيله على جميع أئمّتكم ، والرَّجلُ كان أعلمَ بنفسه وبأهل دهره . وإنْ كان كاذباً فأيُّ كذبٍ أقبحُ مِن كذبِ إمامٍ على منبرِ جماعة ؟ ! ومَن أحقُّ بالّا يليَهم ويحملَ إمامةَ دينهم ودُنياهم ممّن يكذِب على مِنبر الرَّسول من غير أن يُكرهَه أحدٌ أو يُريده عليه ، أو يكون في تَقِيّةٍ كخائف السَّوط والسَّيف ؟ ! بل ما يدعوه إلى الكذب ، والكذبُ مقبَّح في العقلِ مقبَّح في الدين ، ولم يكن هناك رهبة تسوقُه ، ولا رغبةٌ تقوده ؟ ! على أنَّ كذب الرَّعيةِ أسخفُ وأقبحُ ، وهو لا يخلو من أن يكون صادقاً فلا يسعُه أن يتقدّم مَن هو خيرٌ منه وقد مكّنه تقديمه ، أو يكون كاذباً فالقولُ فيه على ما قُلنا .

قلنا : إنَّ (العثمانية) تذكرُ لذلك وجوهاً ؟ .

فمنها : أنَّ الحسَنَ كان يقول : والله أعلمُ أنّه كان خيرَهم ، ولكنَّ المؤمنَ يَهضِم نَفْسَه . فزعم الحسنُ أنه إنّما تَهضَّمَ نفسَه ووَضَع منها لأنَّ الخَلَف المُشفق كثيراً ما يُزري على نفسه ويَعيب عليها ويستبطئها ، ويُظهر المقتَ لها والخوفَ عليها . فهذا كان مذهب الحَسَن .

وأمّا قتادةُ فزعمَ أنَّ قوله : « وليتُكم ولستُ بخيركم » إنّما أراد في الحسب ، ليعلمهم أنّه إذ يَلِيهِمْ بالحسَب فإنّما وليهم بالسّابقة ، لأنّهم قد كانوا اكثروا من قولهم : أرضيتم معشرَ بني عبد مناف أن تَلِيَ عليكم تيم ؟ ! وأراد في أوّل مَقامٍ قامَه أن يُعلِمهم [أنَّ] ذلك المقامَ لا يُنال بأن يكون صاحبُه خيرَ الناس حَسَباً ومركَباً ، إنّما يُنال بأن يكون خيرَ النّاسِ عِلماً وعملاً .

وأمّا غيرُهما فزَعَم أنَّ من عادة الخائفين الوجِلين المُشفقين أن يقول الرَّجُلِ منهم : كلُّ أحَدٍ خيرٌ مني ؟ ثم يبكي على تضييعه ، ويستعظم صغيرَ ذنوبه كأنّه ليس في الأرض مُذْنِبٌ سواه . وأكثر ما يقول ذلك عند ذكر بعض ذنوبه أو عندَ بعض ما يعارضه به الشّيطان والإنسان ، من تزكيته وتقريظه وإظهار تفضيله لنَفْسه وإحسانه ، والمُعْجَب بحاله . لأنّه ليس بعد أن يرى العبدُ أنَّ ذنبَه من قِبَل ربِّه مذهبٌ هو أعظمُ من استكبار الطاعة واستصغار المعصية . فعند ذلك يعارضه المؤمنُ بتقريع نَفْسه وتأنيبها ، وتوقيفها على ما فَرَط منها ، وتذكيرها مساويها ، واستعظام كل ما كان من تقصيرها وإساءتها ، واستصغار كلِّ ما كان من عظيم إحسانها وطاعتها ، فيقول : كلُّ أحدٍ خيرٌ منّي . وما أشبهَهَ من الكلام .

وهذا الضّربُ من اللّفظ ، إذا كان على هذا الوجه فليس في مجرَى الكذب وقولِ الزُّور . وإن كان القائل : « كلُّ أحدٍ خيرٌ منّي » خيراً من كل أحد .

فكان أبا بكرٍ لمّا خطَب النّاسَ وقامَ مقامَ رسول الله صلّى الله عليه ، وسلَّمَ عليه المهاجرون والأنصارُ وعِلية قريشٍ وسادةُ العرب قياماً على أقدامهم ، وصفوفاً على مراتبهم ، يقولون : السّلامُ عليك يا خليفةَ رسول الله وأُلقِيتْ إليه أزِمَّةُ الأمور ، وأعطوه المَقادَة ، وأسمحت نفوسُهم له بالطاعة وقد صرفوها عن القرابة وعن أهل الشّرَف ، رأى بسطة عَيْشِه من عِزِّ الخلافة وبأوِ الإمامة ، ما لا يعرف قَدرَه غيرُه ، ولا تأتي الصِّفةُ على كُنْهه . وللشّيطان هناك

مَداخل وغَـاتل ، ودَسٌ وتحـريك وطمـعٌ ، ليس يَقْوَى بشَـريٌّ عـلى دفـع تلك الفتنة ، وتسكين تلك الحرَكة ، والنُّهوض بتلك المحنة ، إلا بغـاية الـزَّرْيِ على النَّفس والهضْـم لهـا ، والبَخْس والتخوُّن منهـا ، وتنـاسي ذكْـر جميـع محـاسنهـا ، واجتلاب ذكر جميع مساويها . فبالحَرَى إذا صَنَع ذلـك أن يردَّ من غَرْبه وطـوائع نَفْسه ، وحركة هِمّته ، وانتشار عزمه ، وانتقاض بِرّته .

وهـذه حالٌ لا يُمتحَن بهـا إلا الخُلفاء ، ولا يُختَبـر بهـا إلاّ الأئمـة الهـدَى ؛ لأنَّ معهم من قـوَّة المُنن ومن فُضـول الأحـلام ، وشـدَّة الـورع وكثـرة العلم ، وثبـات النفس ، والمعرفـة بما أداه الـطائع ، وإمـاتة الشُّهـوات ، وقمع . . . مـا يقام به[موريه] مكـايد الشيـطان وتعظيـم الإنسـان ، وعِزُّ السُّلطان ، والنَّفسُ لا تَسـمح بإعطاء ما عليها حتّى تمنعَهَا مالَهَا .

وإنْ كـان قول أبي بكـر : « وُلّيتكم ولست بخيركم » إنّمـا أراد بـه مـداواة قلبه ، والزَّرْيَ عـلى نَفْسـه فليس بكـذبٍ وإن كـان خيـرهم ، إذْ كـان إنمـا أراد إصـلاحَ قلبه ، وعـلاج دائـه ، والبُعـدَ من تقـريـر القـوم بنَقْصِهم عن فَضْـله ، والفَخْـر عليهم(بتبريـزه). فإنّمـا أراد أن يكون سبيلُه سبيـلَ من يُظهـر التعلُّم إذا عَلِم، وسبيلُ من يتواضـع إذا عَظُم . فجمَـعَ بذلـك حسنَ الأدب ، والبُعد من التَّزكية ، والتَّحبُّب إلى المستمـع ، والتَّواضـع لربِّـه ، والمداواةَ لقلبـه ، والظَّفَـر بعدوِّه ، وإحرازَ دِينه .

وقد يكون إخلاصُ ظاهـرِ لفْظه عـلى شيء ومعناه غيـره ، فلا يكـونُ ذلك كـذبـاً ، لمعـرفـة القـائـل بفَهْم المستمـع عنـه . وهـذا بـابٌ كثيـراً مـا يستعمله العرب .

يقـول الرجُـل لامرأتـه : ألقيتُ حبْلَكِ على غـاربك ! وهـو يعني طلاقهـا وليس هناك حَبْلٌ أُلقِيَ على غارب .

ويقول : مالي في هذا الأمر ناقةٌ ولا جَمَـل ! وليس ذلك يُـريد . و : لست منها في عِيرٍ ولا نَفير ! وليس ذلك يُريد .

وقال عُمَرُ في الصَّداق ما بلغكم ، فلما احتجّت عليه المرأة بقول الله : ﴿ وآتيتم إحداهنَّ قِنطاراً فلا تأخذُوا منه شيئاً ﴾ قال : كل أحد أفقه من عمر .

وهذا القول ينبغي أن يكون على قياسكم هذا كذباً . ولا نعلمُ أحداً رواه عن عُمر إلا على التفضيل له . ووجهه قائمٌ معروف .

[٦٤ - تأويل قول ابي بكر « بايعوا أي هذين شئتم »]

فإن قالوا : ما معنى قول أبي بكر : « بايعوا أيَّ هذين شئتم »، يعني عُمر وأبا عبيدة .

قيل لهم : إنَّ أبا بكرٍ إنَّما قال هذا الكلام للأنصار ومن حَضَر بعد أنْ قرَّر الأنصار بفضل المهاجرين عليهم ، وأنَّ الأمراء منهم . فعلم عند ذلك أنه بائنٌ عند الأنصار من جميع المهاجرين كما بانَ عند المهاجرين ولكنه كان سائساً رفيقاً ، فكره أن يقول بايعوني ، ليكونوا هم الذين يطلبون منه ذلك ويُريدونَه عليه ، ويظْهرون حبَّ تقديمه ؛ لتكون النفوسُ بطاعته أسمح ، وفيها أرغَب ، ولمذهبه أحمد ، ولأنَّ ذلك عندهم أبعَدُ من الاستبداد عليهم ، والافتيات بالأمر دونهم ، والحِرص على التأمُّرِ عليهم . ولذلك مَشى في الناس بعدَ بيعتِه ثلاثاً يقول : هل من مستقِيلٍ فيقال ؟

وقد قال في خطبته بعد البيعة :

وقد كانت بَيعتي فَلتةً ، وخشِيت الفتنة . وايم الله ما حَرَصْتُ عليها يوماً ولا ليلة ، ولا سألتها الله في سرٍّ ولا علانية ، ومالي فيها راحة . وقد قُلِّدْتُ أمراً عظيماً مالي به طاقة ، ولوددتُ أنَّ أقوى الناسِ عليها مكاني .

ألا ترَى زُهدَه فيها ، وقلة حرصه عليها ، وكيف يُخبرُ أنه لو لم يَخْشَ الفتنة ما قِبلها ، ولوَدَّ أنَّ أقوى الناس عليها مكانَه ؟ !

وقوله « لوددت أنّ أقوى الناس عليها مكاني »، يقول : وددت أنه لو كان في الناس مَن هو أقوى عليها مني . ليس أنه يرى أنّ في الأرض يومئذ رجلاً هو أقوى عليها منه .

ومثلُ هذا في كلام العرب كثير .

وقال الراجز وذكر إبله فقال ، إذا كانت عليها مَغارِضُها :

يشربن حتّى تُنْقِض المغارضُ

يقول : يشربن حتى لو [كانت عليها مغارضها] سمعت لها نقيضاً والبعير لا يُورَد وعليه غَرْضُه وبطانُه .

ثم رجعنا إلى الحديث الأوّل .

فكأنّ أبا بكرٍ حين قال : « بايعوا أيَّ هذين شئتم » عَلِمَ أنّ عمر وأبا عبيدة لا يستجيزان تقدُّمه والتأمُّر عليه ، كما بلغنا من قول عُمر في أبي بكر ، يوم جمع المهاجرين والأنصار يستشيرهم في غزْو الروم حيث خالفوه وأبى أبو بكرٍ إلاّ إنفاذ ذلك الجيش والتعريف لهم بالحجة فيه ، حين يقول : « الحمد لله الذي يخصُّ بالخَير من يشاء من خلقه . والله ما استَبَقنا إلى شيءٍ من الخير إلاّ سَبَقنا إليه ، ذلك فضلُ الله يُؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ».

وقال أيضاً يوم السَّقيفة حين قال أبو بكر : بايعُوا أيَّ هذين شئتم : « والله لأنْ أقدَّمَ فتضربَ عنقي أحبُّ إليّ من أن أتقدَّم أبا بكر ». وقال : « والله لأن أُضجَع فأذبح كما يذبح الجمل أحبُّ إليّ من أن أتقدم أبا بكر ! ».

ولقد بلغ من تعظيمه له وتقديمه إيّاه ، أنه قال حين سُئِلَ عن الكلالة : « والله إني لأستحي من الله أن أرى خِلاف رأيِ أبي بكر » .

وأنت لم تجد أبا عبيدة تقدّمه في موقفٍ قطّ ، وقد وجدتَ أبا بكرٍ قد تقدّم أبا عبيدة في مواقف كثيرة ، في حياة رسول الله صلى الله عليه وبعد وفاته ، كما

حكينا لك قبل هذا . ولم نجدْ ذكر أبي بكرٍ وعمر في موضعٍ قطُّ إلاّ وأبو بكرٍ المقدّم عليه ؛ مع مقامات لأبي بكرٍ شريفةٍ ليس لعمَر فيها ذكر .

فبينَ أنْ يكون أبو بكرٍ يأمرهم بذلك أمراً أو يطلبَ إليهم طلباً ، وبين أن يجعله إليهم فيكونوا الطّالبين له والرّاغبين إليه ، وليكونَ ذلك من تِلقائهم وطِيب أنفسهم ، فرقٌ عظيم .

وأيّـةُ بَيعة أثبتُ من بيعةٍ عقدها عمر والنبيُّ يقول : « ضُرب بالحقِّ على لسانه » و« الشيطان يَفْرق من حِسّه» و«اللهمّ أعزَّ الإسلام بعمر »؟! وأيّة بيعة أثبتُ من بيعة عقدها أبو عبيدة والنبي يقول : « لكلّ أمةٍ أمينٌ وأمين هذه الأمّة أبو عبيدة بن الجراح » .

وأيّة بيعةٍ أثبَتُ من بيعةٍ عقَدها عبدُ الرحمن بن عوفٍ وقد سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأمين » . فإذا كان أمينٌ رسول الله صلى الله عليه في أمّته ، والفاروق الذي فَرَق الله به بين الحقّ والباطل ، حيثُ قال : « لا يُعبَد الله سرّاً بعد اليوم » قد عَقَدا بيعته وأكّدا أمره ، فما عسى أن يبلغ قول قائل ؟ ! ولو كان ذلك عن مواطأةٍ من أبي بكر لأبي عبيدة كما واطأ معَاويةُ عمرو بن العاص ، ما استعملَ عليه خالدَ بن الوليد أميراً أيّامَ حياته حتّى عزَله عمرُ بن الخطاب ، ولكان كما صنع معاويةُ بعمرو حين أطعَمه مصر .

وأيّةُ بَيعةٍ أثبتُ من بَيعةٍ عقدها عبدُ الله بن مسعود ، والنبي صلى الله عليه يقول : « رضيتُ لأمّتي ما رضِيَ لها ابنُ أمّ عبدٍ بيعةَ رجلٍ فقد رضيَها النبيُّ عليه السلام ، إذْ كانَ النبيُّ قد قال : « رضيت لأمّتي ما رضي لها ابن أمّ عبدٍ ، وكرهتُ لها ما كره ابنُ أمّ عبد » .

ولقد بلغ من تقديمه لأبي بكرٍ وعمر وعثمان أنّه قال عند اختيارِ النّاس لعثمان : « ما ألَوْنا أنْ جعلناها في أعلانا ذا فُوق » .

ولقد بلغ من تعظيمه لعُمر وتقديمه له ، أنّه قال : « لقد خشيتُ الله في

حبُّ عمر ». وقال : « ما صلّينا ظاهرين حتّى أسلم عمر ». وقال بعد موت عمر : « إنَّ عمرَ كان للإسلام حصناً حصيناً يدخُل النّاسُ فيه ولا يخرجون منه ، فلمّا مات انثلم ذلك الحصن فصار الناسُ يخرجون منه ولا يدخلون فيه ». وقال : « إذا ذُكر الصالحون فحيَّ هَلاّ بعمر » .

فإذا كان عمرُ وعثمانُ من أتباع أبي بكر وشيعته وأوليائه ، وهذا قولُه فيهما ، وتفضيله لهما ، فما ظنُّك به في أبي بكر ؟ !

ولو أنَّ رجلاً واحداً من نحو مَن ذكَرْنا عقد لعليٍّ إمامةً ، أو نطق فيه بكلمةٍ ، لأكلت الشّيعُ والرّوافض هذه الأمّة فضلاً عن أن تحتج برضاه واختياره . فهذا هذا .

ثم الذي نقلوا إلينا من تثبيت عليٍّ بيعةَ أبي بكر . وذلك أنّهم قالوا : لما بُويع أبو بكر وبايعَه عليٌّ وبنو هاشم ، قام أبو بكرٍ فطافَ في الناس ثلاثاً يقول : « أيُّها الناس ، قد أقَلْتكُم بَيعتي »! قالوا : يقول عليٌّ من بين الناس : « والله لا نُقيلك ولا نَستقيلك ، قدَّمَك رسول الله صلى الله عليه تصلّي بالناس فمن ذا يؤخّرك ؟ ! » .

ثمَّ الذي نقله النّاسُ عن عليٍّ حين قال على منبره : « ألا إنَّ خيرَ هذه الأمة أبو بكر ، والثاني عُمر ، ولو شئت أن أخبركم بالثّالث فعلت » .

ونقلوا جميعاً أنّ عليّاً قال : بينا أنا يوماً عند رسول الله صلى الله عليه إذْ أقبلَ أبو بكر وعُمر فقال النبي : « هذانِ سيّدا كهُولِ أهلِ الجَنّة من الأوّلين والآخرين ، ما خلا النبيِّين والمرسَلين ، لا تخبرهما بالذي قلتُ يا عليّ ». قالوا : قال عليٌّ : لولا أنّهما قد ماتا ما حدّثتكم .

قال الشّعبي : قال عليّ : إنّ أبا بكرٍ كان أوّاهاً مُنيباً ، وإنَّ عمر ناصَحَ الله فنَصَحه الله » .

ونقلوا أنّ علياً قال ـ ودخَلَ على عُمر وقد مات وهو مسجّىً ـ فقال :

رحمك الله يا عمر ! والله ما أحدٌ أحب إليّ أن ألقى الله بمثل صحيفته من هذا المسجّى صاحب السّرير !

وبلغه أنّ رجلاً تناولَ أبا بكرٍ وعمر ، فقال للرّجل : لو سمعتُ منك الذي بلغني لألقَيْت أكثرَكَ شَعراً .

وقال : لو أُتِيتُ برجلٍ يَشْتُمهما لجلَدتُه حَدَّ المفْتري .

ثم الـذي نقله جميع أصحاب الآثار أنّه قال : كنتُ إذا سمعت من النبي صلى الله عليه حديثاً نَفَعَني الله بما شاءَ منه ، فإذا حدّثني غيره عنه استحلفته ، فإذا حلَف لي صدّقتُه . وإنّ أبا بكر حدّثني ـ وصدقَ أبو بكر ـ حدّثني أنّ النبي صلى الله عليه قال : « ما مِن رجلٍ يُذنب ذنباً فيتوضّأ فيُحسِن الوضوء ثم يصلّي ركعتين ويَستغفر الله إلاّ غُفِر له » .

ألا ترى كيف أورثَه بالتّصديق وقِلّة الهُمة ، وأقامَه مقامَ التقليد ورَفْع الاسترابة .

فهذا مذهبُ عليٍّ فيهما وتعظيمُه لهما .

ثم الـذي كان من تزويجه أمّ كلثوم بنتَ فاطمة بنتِ رسول الله صلى الله عليه ، مِن عُمر بن الخطّاب ، طائعاً راغباً ، وعمر يقول : إنّي سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنّه ليس سببٌ ولا نسبٌ إلاّ مُنْقطع ، إلاّ نسبي » . قال عليّ : إنها والله ما بَلَغتْ يا أمير المؤمنين . قال : إني والله ما أريدُها لذاك ! فأرسلَها إليه فنظر إليها قبل أن يتزوّجها ؛ ثمّ زوّجها إياه ، فولدتْ منه زيدَ بن عُمر ، وهو قتيل سُودانِ مَرْوان ، فلما أتى النّعيُ أمّ كلثوم كَمِدتْ عليه حُزناً حتى ماتت ، وقالت : واحرَبَا ! قتِل أبوها عليّ بن أبي طالب ، وقُتِل زوجُها عمر بن الخطاب ، وقُتِل ولدها زيد بن عمر .

ثم تسمية عليّ أولاده بأسمائهم ، كما يتبرّكُ الرّجلُ بأسماء أئمته وقادَته ، حين سمّى بعُمر وعثمان وأبي بكر ، فأعقب عُمر ولم يُعقب أبو بكر وعُثمان .

ثم الذي كان من قَبوله ولايةَ عمرَ حين استخلفه على المدينة ، ومضى عمرُ مُعسكراً يريد جيش مِهْران بعد وقعة قُسّ الناطف فأتاه عليٌّ إلى مُعَسكَره فأشار عليه فيمن أشار بأنَّ الرَّأيَ أن يرجع إلى المدينة ولا يلقاهم بنفسه وحدَه ، بل يكون للمسلمين فِئة . فرجع عمر .

وإنما أراد عمر بذلك تحريك النَّاس ليجِدُّوا ويَعزموا .

فإن قالوا : هذا كلُّه باطل ، أو قالوا : إنَّ هذا الذي حكيتموه وإنْ كان حقّاً فإنما كان على التَّقية . فقد قلنا في ذلك أجمعَ بالذي يكتفي به .

[٦٦ ـ خلاصة آراء الشيعة والعثمانية]

والعجب أنهم يوجبون على النَّاس تصديقَهم أن سلمان قال : « كَرداذ ونَكَرداذ» وأنَّ الزُّبير خرج شاذّاً بسيفه ليؤكِّد إمامَة عليّ ، وأنَّ الأنصار إنَّما خالفت علَى المهاجرين نقضاً من استبداد أبي بكر ، وأنَّ أبا سفيان بن حَرب ، وخالد بن سعيد ، إنَّما قالا : « أرضِيتم معشر بني عبد مناف أن يلي عليكم تيم »، نصرةً لعليٍّ دون جميع بني عبد مناف ، فإنَّ الله ردَّ عليه الشَّمس ، وإنَّ النبي قال : « أنت مني بمنزلةِ هارون من موسى »، وجعل إليه طلاق نسائه ، وأنَّه قسم النار ، وصاحب العَرْض ، والقائمُ على الحَوض ، فيوجبون علينا أن نصدِّقهم في هذا ولا يُوجبون على أنفسهم لحُمَّال الآثار أنَّ عليّاً قال في الخَلِيَّة والبريئة ، والبائنة ، والبتّة ، وطلاق الحَرج ، وأمرُك بيدك ، والحرام ، أنها كثلاث تطليقات . ويوجبون علَى طُلَّاب الحديث أنَّ عليّاً كان لا يرى الطَّلاق إلا طلاقَ السُّنّة .

وهذا أمرٌ ما سمِعنا به قطُّ عن عليٍّ إلاَّ منهم .

وليس بأعجب من استشهاد خُصومهم العِيانَ والإجماع وما عليه الوجود ، واستشهادِهم القَصد والضَّميرَ والغيب ، وجعلهم له يوازن الظاهر والشَّائع .

وذلك أنَّ القائل إذا قال : أسلم أبو بكر كهلاً وأسلم عليٌّ طفلاً .

قالوا : كان عليٌّ وهو ابن سبع سنين أرجحَ عقلاً من أبي بكر وهو ابن إحدى وأربعين سنة . فتركوا العيان وعارضوا الشّاهد بالغائب .

وإنْ قال قائل : إنّ أبا بكر كان مع النبيّ في الغار وقد نطق به القرآنُ وثبته الإجماع . قالوا : فإنّ عليّاً باته النبيُّ على فراشه .

وإن قلت : إنّ النبي سمّى أبا بكر بالصديق تفضيلاً له ولم يجعل له اسماً يفضّله به . قالوا : بَلى ، قد كان النبيُّ سمّاه الصِّدِّيق الأكبر ، ولكنَّ الناس منعوه ذلك وظلموه ، حين لم يُسَيِّروه ويُشِيعوه .

وإن قلتَ : إنّ النبي اشتكى أيامًا وليالِيَ ، كلّ ذلك يأمر أبا بكر بالصَّلاة ، وهو حاضرٌ ولا يأمره ، قالوا : لأنّ عليّاً كان مشغولاً بتمريضه .

وإنْ قلت : إنّ الناس لما افتتنوا بعد موت النبي وعظموا شأنه حتى دعاهم الإفراطُ إلى أن قالوا : لم يمت ، ولكنّه يغيب مثل ما غاب موسى عن قومه . فكان أبو بكر هو المتكلِّم والمحتجَّ والمحامي حتى عرّفهم الحقّ وتنبّهوا من الوَسْنة . قالوا : لأنّ عليّاً قد كان اشتدّ حزنُه حتى قطعه عن الاحتجاج والتعريف .

فإن قلت : حينَ أظهروا الفُرقة والدّارُ دارُهم ، لو تركهم أبو بكر ولم يعرِّفْهم فضل المهاجرين عليهم ، لكان في ذلك أشدُّ الفتنة وأكبرُ الفساد ، فعاجَلَهم وتجرّدَ للاحتجاج عليهم ، حين كان كلُّ إنسانٍ همُّه همُّ نفسه ، وعليٌّ بمعزلٍ حتى كأنّه كان غائباً . قالوا : لأن عليّاً قد كان عرَف حسد قريش وبغيَها عليه ، وطاعتَها وحبَّها لأبي بكر ، فلم يكنْ لِيقدحَ في غير مَقْدَح ، أو ينفُخَ في غير فَحم .

فإن قلنا : إنّ إظهارَ عليّ الرّضا بالشُّورى دليلٌ على طاعة عمر . قالوا : إنّما ذلك للتقيّة .

فإن قيل : فلِمَ رضي بعبد الرّحمن مختاراً وعبدُ الرّحمن عنده من عدوّه ، وأدنى منازله أن يكون كان مخوفاً عِنده ، وأدنى من ذلك أن يكون الغلطُ غير

مأمونٍ عليه .

قلنا : وَهَلّا أظهر من الخلافِ شيئاً يُسيِّرُ إلينا ، وهلّا نطقَ بحرفٍ واحد بقَدْرِ ما يتّخذُه الناسُ بعدُ حُجَّة ، ولم يكن بلغَ أقصى خلافِهم فِرْيَى وعبداً أو إيقاعاً .

فإنْ قلت : إن عليّاً قال لأسماء بنتِ عُمَيس - وهي يومئذ امرأته - حين تفاخر ولدُها من أبي بكرٍ وجعفرٍ وعليٌّ عندهما : اقضِي بينَ وليدِك . فقالت : ما رأيتُ شاباً كان أظهرَ من جعفر ، ولا رأيت شيخاً كان أفضلَ من أبي بكر ، وإنّ ثلاثةً أنتَ أخسُّهم لفُضَلاء ! فلم يُنكِر ولم يحتجَّ ، ولم يفرق ولم يتعجَّب ، والكلام يُؤثِّر والقضيّةَ تَظْهر .

قالوا : إنَّ فضلَه أظهرُ في النّاس من أن يحتاج إلى الاحتجاج ، وإنّما قالت ذلك مازحةً ، كما تمزح المرأةُ مع زوجها وتُحَرِّشُ به .

فإن قلتَ : إنَّ علياً قد بايع أبا بكر وأعطاه صفقته طائعاً غير مكره والحكم السابقُ من الله ورسوله أنَّ المدَّعَى عليه إذا أقرَّ ولم يُنكر ، ولم ير الوالي أثرَ جنونٍ ولا إكراهاً ، أن إقراره جائزٌ عليه ، فكذلك عليٌّ إذا كان قد بايع وليس على رأسه سَيف ولا سوطٍ ، فحكمه حكم الراضي المسلِّم .

قالوا : قد كان هناك إكراهٌ ظاهر ، ولكنَّ الناسَ تكاتموه وأخفَوه فيما بينَنا وبينهم ، إذْ كان الجمهور الأكبر معهم .

فإن قلت : قد صَدَّقناكم في قولكم إنه قد كان في تقيَّةٍ من أبي بكر وعمر وعثمان ، أرأيتم أيّامَ سلطانِ نفسه ومعَه مائةُ ألفِ سيفٍ تطيعه وأهلُ الأرضِ كلُّهم رعيَّته ما خلا الشّام ، لِمَ كان يُظهر تزكيةَ أبي بكرٍ وعمرَ على منبره وفي مجلسه ؟ .

قالوا : للتقيّة من رعيته ، إذ كان أكثرُهم على هواهم وطاعتهم .

قلنا : قد عَرَفْنا أنَّ تركه لعنهم والبراءة منهم والإخبارَ عن استبدادهم

وظُلمهم، على التّقية ، فما حَمله على تزكيتهم والإخبار عن محاسنهم ، والرّواية الحسنة فيهم ، وقد كان له في السُّكوت سَعة ، وعن الكلام مندوحة ؟ ! ولقد تعدَّى في مديح أبي بكر وعمر حتى قال لابن طلحة : إنِّي لأرجو أن أكونَ أنا وأبوك ممن قال [فيهم] الله : ﴿ إخواناً على سُررٍ متقابلين ﴾.

وإن قلنا : إنَّ في تسميته بَنيه بأسمائهم دليلٌ على تعظيمه لهم .

قالوا : لأنه قد كان علم أنَّ شيعته سيحتاجون في آخر الزمان إلى الترحُّم على أبي بكرٍ وعمرَ وعثمان ، تقيّةً من شيعتهم ، فسمَّى بنيه بأسمائهم ، حتى يكون ذلك الترحُّم واقعاً عليهم ، ولأنْ يَنْصِبَ لهم مَن إذا قصدوا إليه بالترحُّم أصابوا الحقّ ولم يحتاجوا إلى الالغاط.

وإنْ قلنا: إنّه زوّجَ عمرَ غير مُكرَه، ولا شيء أدلُّ على الخاصَّة والصَّفاء من المشارَكة والمصاهرَة .

قالوا : قد كان هناك توعُّد وتخوُّف ، وقد قال بعضُهم : إنَّ هذا باطلٌ وإنَّ عليًا لم يزوِّجْ عمرَ قطُّ . ونبئت عن بعضهم أنّه قال : قد كان ذلك على التقيَّة ، ولكن الله صانَها فأخفاها ورفعها .

فقيل له : فخبِّرنا عن التي رأوها في منزل عُمر وعلى فراشه ، وولدت منه زيداً ، ما هي ؟ وأيُّ شيءٍ كانت ؟

قال : شيطانةٌ في صورة امرأة .

وإن قلت لهم : كيف زعمتم أنّه كان أشدَّ أهلِ الأرض قلباً ، وأنتم تزعمون أنّه كان يتّقي كلَّ شيء ، حتى ليُسْلِم حرمتَه إلى كافر من غير أن يُشهرَ عليه سَيف أو يُضرَب بسوط . وقد رأينَا مَن هو في دون حاله في النّجدة والشّجاعة ، والحميّة والبصيرة ، يمتنع حتى يُقتلَ في دونِ هذا . وقد تعلمون أنّه لم يُكْلَم ولم يُخدَش ، فضلاً على أن يُجرَح ويُقتَل ، في جميع المقامات التي زعمتم أنّه إنّما استجاز واستحل من التّقية .

وأعجبُ مِن جميع هذا أنّا رأيناكم تزعمون أنّ أبا بكرٍ وعثمان كانا من أجبنِ البريّة وأبعَدِه من حمِيّة ، وقد رأينا صنيعَ أبي بكر في الرِّدّة كيف نَهض بالقليل في محاربة الكثير ، وكيف أشاروا عليه بأن يستعينَ بجيش أسامة حتى إذا رَدّ الردة أعادَ الجيشَ إلى حاله . وكيف قال لهم حينَ قالوا له : إنّا قد أمِنّا غزْوَ الرُّوم إيّانا في يومنا هذا ، ولسنا نأمَن مع ارتداد جميع العرب أن نُغزَى في عُقْر دارنا ! قال : لو بقيتُ حتّى يأكلني الكلابُ وحدِي ما أخّرتُ جيشاً أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإنفاذه .

ثمّ رأينا عثمانَ ، وهو عندكم أضعفُ من أبي بكرٍ وأجبن ، قد كان محاصَراً مُعطّشاً مخذولاً قد قَهَره عدوُّه ، والسيوفُ تلمع على بابه ، وقد أفضَوْا إلى داره ، وتسلَّقوا عليه من خَوخته ، وهم يريدون نَفْسَه أو خلعَ الخلافةِ من عُنقه ، فصبَرَ حتّى قُتِل كريماً محتسِباً وهو يقول : « لا أنزع قميصاً قَمَّصَنيه الله ! »، وهو يرى الجِدَّ وليس معه أمانٌ من قِبَله .

وقد يزعمون أنّ عليّاً قد كان يعلم أنّه لا يُقتَل ولا يموت حتّى يقاتل النّاكثين والقاسطين والمارقين ، ومع ذا يزعمون أن الله قد كان أسرَّ إليه علم كلّ ما يحدُث في هذه الأمّة من الفتن والهَيْج . وهذا لا يُشْبِه اتّخاذَه أبا موسى حكَماً عليه وله ، مع غَباء أبي موسى وعَداوته كانت له ، ولا سيما إذا قرنْته بعمرو بن العاص ، وما ظنك برأي عمرٍو وقد كان فيه معونة .

[٦٧ ـ جدل الشيعة والعثمانية حول صحة اسلام ابي بكر]

ففي جميع ما قلنا دليلٌ على أنّ القوم لم يكونوا مالكين لأهوائهم ، فإن قالوا : ما الدّليل على إسلام أبي بكر فضلاً على تقديمه وتفضيله ومباينته ؟ ومن أينَ لكم أن تزعموا أنّه قد كان مُسلِماً وأنتم وخصومكم مجمعون على أنّه كان كافراً ، ثم ادَّعيتم أنه قد أسلمَ بعد كفره وأنكر ذلك خصومُكم ، فليس لكم أن ترجعوا عمّا اجتمعتم عليه إلّا بإجماع منكم يوازنه . وقد ينبغي أن

تطّرحوا موضعَ الفِرقة وتَقْضُوا بموضع الجماعة ، وقد جامَعتمونا أنَّ عليّاً لم يزل مؤمناً .

قيل لهم : إنّا لو كنّا عرفنا أنّه قد كان مرةً كافراً من قِبَلِ خبر أصحابنا وبجامعةِ خصومهم لهم ، وكان علمُ ذلك لا يُصاب إلاّ بمجامعتهم لأصحابنا ، لقد كان الذي قلتم واجباً وقياساً صحيحاً . ولكنّا عَرَفْنا أنّه قد كان كافراً بقدرٍ من الخَبَر قد يكذّب مثلَه ، وبه ثبت عندنا أنّه قد كان في الدُّنيا ، فضلاً على أن يكون كان له فِعلٌ يسمّى كفراً وإيماناً . وإنّما الحجة في المجيء الذي لا يكذّب مثله ، ثم لا نَلتفت بعد ذلك إلى موافق ولا إلى مخالف ، ولا إلى عَقل ولا إلى نظر . ثمّ نظرنا فإذا الوجهُ الذي منه علمنا أنّه قد كان في الدُّنيا ، منه علمنا أنّه قد كان مرّةً كافراً ، و[هو] الوجهُ الذي منه علمنا أنّه قد أسلم بعد كفره . ولو أنّا عرفنا كُفره بنا وبخصومنا ، لما عرفنا إيمانَه إلاّ بنا وبهم .

ووجهٌ آخرُ من الجواب : أنكم قد جامعتمونا على أنّه قد كان يَشهد الشّهادة ، ويأكل الذّبيحة ، ويُظهر الإسلام ، في حيثُ النِّفاقُ مستخفٍ وثوبُ الإسلام داجٍ ، والكفرُ ذليل والإسلام عزيز ؛ [ثمّ] ادّعيتم بعدَ أن أقررتم أنّه قد كان يُظهر الإسلامَ في دار الإسلام ، أنّه كان مُستتِراً بالكفر ، وأنّه كان من المؤلَّفة قلوبُهم .

فالواجب بالقياس أن يُحكَم له بالإسلام على ظاهر ما اجتمعنا عليه من جملته ، ولا ندعُ موضعَ الإجماع إلى قولكم وحدَكم : إنّه قد كان إسلامه على نفاق ، لأنّ الجماعةَ لا تنزِل إلى فِرْقة ، ولأن الحجّة لا تُترك إلاّ بحُجّة .

فإن قالوا : فإنّ أبا بكرٍ لم يشهد قطُّ الشّهادة ، ولا صلى [إلى] القبلة .

قلنا : ما تقولون في رجلٍ رأيناه كافراً في دار الكفر ، ثمّ رأيناه بعد ذلك في دار الإسلام وفي زيٍّ لأهله ، وحكم الإسلام غالٍ ، ومعلومٌ أنّ مِن عادة أهله قَتْلَ من كفر ، كيف يكون حكمُ ذلك الرجل ؟

فإن قالوا : ولكنا نقف في مَغيَّبه .

قلنا : اجعلُوا أبا بكرٍ ذلك الرجل .

فإن قالوا : فإن أبا بكرٍ لم يزلْ يُظهر الكفر في دار الإسلام ، كما كان يظهر الكفر في دار الكفر .

قلنا : لا بدَّ لكُفره من وجهين : إمَّا أن يكون كان يظهره على عهدٍ وذمَّة فلذلك لم تقتلوه . أو يكون كان على غير عهدٍ وذمَّة .

فإنْ ادَّعَوا أنَّ كفره كان على عهدٍ وذمَّة كما جعل الله ورسولُه للنَّصارى ولليهود ، خَرَجوا إلى ما لا نحتاج مع فُحْشه إلى الكلام فيه . وإنْ زعموا أنَّه كان على غير عهدٍ وذمَّة وحكم الإسلام ظاهرٌ ، فما أشْبَهَ هذا القول بالقول الأوَّل .

ويقال لهم : خبِّرونا عن أبي بكر ، هل يخلو من أن يكون لم يقلْ قطُّ في دار الإسلام : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أو يكونَ قد قال ذلك مرَّةً واحدة ؟ .

فإنْ زعموا أنَّه قد قالها مرَّةً واحدة ثم تركَها ، قيل لهم : فقد أقررتم وجامعتم خصُومكم على أنَّه قد شَهِد الشهادة ، فليس لكم أن تخرجوه إلى نفاقٍ أو إلى تركٍ ، إلَّا لمجامعة خصومكم لكم ، إذْ كانت الفرقةُ لا تنقض الجماعة .

فإن قالوا : فإنَّه لم يقل لا إله إلا الله محمد رسول الله مرَّةً قطُّ مَن دهره ، لا على نفاق ولا على غيره ، بل كان يظهر عبادة الأصنام ، ثم مع ذلك سلم على حكم الكتاب والسُّنَّة ، وعلى حكم الدَّار . فليس عندنا في ذلك إلا إسقاطُه وتحريمُ كلامه وإمضاء حكم مثلِه فيه .

بل قد ثبت إسلامُه بعد الوجوه التي ذكرتها بوجوه :

منها أنَّ الله أثنى على عباده الصالحين ، فخصَّ بتفضيله السَّابقين المهاجرين الأوَّلين ، وقد اجتمعت الأمةُ أنَّه من المهاجرين الأوَّلين مع فضيلة هجرته ، إذْ كانت هجرتُه وهجرةُ رسول الله صلى الله عليه معاً ، فهذا وجه .

ثم الذي رأينا مِن ذكـر الله وثنائه على أهـل بدرٍ . وقـد أجمَعَ المسلمـون أنّه كـان ممن شهِد بدراً ، مع مـا فَضَل بـه من الكَون في العـريش ، ولا موضـعَ أدلُّ على الخاصّـة من ذلك الموضع في ذلـك الموقف ، مـع ما شَهِـد بـه من مُستجيبيـه وعُتقائه ومواليه . ولقد بَلغَ من قدر من شهِـد بدراً أنَّ عـامة الفقهـاء تحدَّث أنَّ الله « اطَّلَع عـلى أهـل بـدرٍ فقـال اعمَلُوا مـا شئتم » فلذلـك كـانَ الحسنُ يقـول : إنَّ طلحة والزُّبير وعليّاً في الجنـة معاً وإن لم يكـونوا كـانوا في الـدنيا ، لأنَّهم عُتقَـاء الله من النّـار ، ولم يكن الله ليَعتِق عبداً ثم يعيـدَه في رِقِّـه . ولـذلـك كـان الحسن ، وحَـوشَبٌ ، وهاشمٌ الأوقص ، وبكـرٌ ابن أختِ عبد الـواحد ، يقـولون إذا ذكـروا يومَ الجمل : « هلكت الأتباع ونجت القادة » . فهذا هذا .

ثم الذي كان من ذِكـر الله وحُسْن ثنائـه على مَن بـايَعَ تحت الشَّجـرة . وأيُّ شيءٍ أعجبُ من اجتماع السَّلف مهاجريها وأنصاريهـا خـلا أربعة نفـر على تقـديم رجـل في مقـام رسـول الله صـلى الله عليـه وسلم ليقضي في ابشارهم وأشعـارهم وفـروجهم وأموالهم ، ويحمـل أمانـاتِهم ، ويَدْعـونه خليفـةَ رسول الله ، حتّى تتـرك الشريف المطاع ذا السابقة والقِـدَم وتولّيَ مكـانَه الخـامل القليـل المقصّر ، فلا يـرادُّ ولا يُـدَافَع ، ولا يُـرَاجَع ولا يستفهم ، وهـو المعروف عنـدهم بجحـد الرسـول وعبادة الأوثان ، وليس بذي عشيرةٍ منيعة .

ولا يستطيع أحـد أن يزعم أنّـه قد كـان واطَأ العشـائر ليصـرفوا إليـه عونهم على أن يؤثِرهم ويفضِّلهم . ولو كان ذلـك لظهـر عِلمُه ولم يَخْفَ أثرُه . ومثل هـذا لا يُستطاع كتمانه وسَتره وتزميله .

وكيف وقد سَوّى بين الرَّفيـع والوضيـع ، والذَّليـل [و] المنيع ؟! فلم يؤثِـر قريباً ولم يوَلِّ نسيباً .

ولـو استعـانَ بـطلحـةَ وولاه وفضَّله لقـد كـان لـذلـك مـوضعـاً ، وللولايـة والتَّقـديم أهلاً ، بـل صَنَع ضِـدَّ مـا يصنعُـه أصحـاب المَيـل والأثَـرَة ، والعصبيَّـة والمواطأة .

ولو كان قريبَ القرابة لجاز لقائل أن يقول : إنما قدّم لقرابته .

ولو كان عصبيَّةً لقالوا : إنما استحقَّ بوراثته .

ولو كان منيعَ الرهط لقالوا : إنما قدِّم لكثرة قبيلته .

ولو كان استعانَ بقومٍ على مواطأةٍ وشريطةٍ ، كصنيع معاوية بذي الكَلاَع وعمرو بن العاص ، لقالوا : إنما قُدِّم رهبةً ممّن واطأه ، ورغبةً فيمن أكَّدَ هواه .

[و] ولّى بني مخزومٍ أعناقَ العرب وقِتالَ أهل الرِّدّة ، وحرب مسيلمة ومحاربَةَ طُلَيحة ، دون رهطِه ولو ولّى ذلك طلحةَ لكان لذلك أهلاً ، ولكنَّ الطاعن قد كان يجد سبباً .

وكذلك عمرُ بن الخطاب لو كان أدخَلَ في الشورى سَعِيد بن زيدٍ كما كُلِّم في ذلك ، وأدخَل في الرُّقباء عبد الله بن عُمر كما كلِّم في ذلك ، لكان لذلك أهلاً ، ولكنَّ الطاعن قد كان يجد متعلَّقاً .

وولى خالدَ بن الوليد حربَ مسيلمةَ وطُليحة وبني تميم وأهل البادية ، وولي عِكرمَةَ رِدَّة عُمَان ، وولى المهاجرَ بنَ أبي أميَّةَ رِدَّة أهل نُجَير واليمن . وما زال عمر يعاتبُه في خالدٍ فيقول أبو بكر : « لا أَشِيمُ سيفاً سلَّه الله على الكُفّار » . فهذا هذا .

والعجب لهذه الأمة كيف اختلفت في رجلين أحدهما خير خَلْق الله ، والآخر شرُّ خلق الله . وكيف اختلفت في رجلين أحدهما لم يزَلْ مؤمناً والآخر لم يزل كافراً ، ثمَّ كان المقدَّم الخسيس الكافر ، على الرفيع المسلم ! [وهم] أصحابُ القرآن وخاصَّةُ الرّسول من الصَّحابة والبدريِّين والأنصار والمهاجرين ، وهم الذين قالَ فيهم التّابعون : خير هذه الأمّة أصحابُ محمد صلى الله عليه ! ابْتُلوا فَصَبروا ، وأُنعِمَ عليهم فشكَروا .

والعجب كيف رأوا تفضيل عليٍّ على أبي بكرٍ وعمر مديحاً له . وإنما كان

يكون عليٌّ عالياً رفيعاً متقدّماً زاهداً عالماً سائساً أنْ لو كان أفضلَ من فضلاء ، وأعلَمَ من علماء ، وأعقلَ من عقلاء ، وأزهد من زُهّادٍ ، وأسْوَسَ من ساسة . فأمّا أن يكون أفضلَ من أنقص النّاس ، وأزهَدَ من أرغب النّاس ، وخيْراً من شرّ الناس ، وأعلمَ من أجهل الناس ، فليس في هذا التّفضيل دَرَكٌ فيتكلّفه متكلّف ، ويقوم به قائم .

والعجب من رجلين بينهما هذا التّفاوتُ والتّبايُن ثم شهد المتكلّمين من سمعهما يتنازعان فيهما ، فيحسب الحاضر أن شرّهما خيرهما ، وهو الأريب الأديب الذاهب مع التعارف عن التناكر . وكيف التبس الأمرُ واشكل أن لم يكن الأمْرُ مشكلاً ملتبساً .

وكيف يجوز أن يكون أبو بكر لم يزل كافراً ، أو يكونُ كفر بجَحده إمامة علي وكفر معه المهاجرون والأنصار، وقد أجمع أصحابُ الأخبارِ وحمّال الآثار أنّ النبي صلى الله عليه قال : « إنَّ من أمّتي سبعين ألفاً يدخلون الجنّة بغير حساب »، فقام عُكّاشَة بن مِحْصَنٍ فقال : يا رسول الله ، دعِ الله يجعلني منهم . قال : انتَ منهم . فقُتل مع خالد بن الوليد يوم بُزاخَة في إمْرة أبي بكرٍ وطاعته والإقرار بخلافته ، قتَلَه طليحة بن خُويلدٍ الأسدي . فكيف يجوز أن تكون إمامةُ أبي بكر مَعصيةً فضلاً على أن تكون كفراً والمقتولُ في طاعته والمنقادُ لأمره من أهل الجنّة .

ثمّ تزعم الرّوافض أنّ من الدليل على أن عليّاً كان المُحِقَّ دونَ طَلحة والزُّبير ، أنَّ النبي صلى الله عليه [قال] وذُكِر زيدُ بن صُوحان : « زيد وما زيد ! يسبقه عضوٌ منه إلى الجنّة ». فقُتِل يومَ الجمل . فجعلوا الدَّليل على صواب عليٍّ في قتاله أنَّ زيداً قُتِل في طاعته .

قيل لهم : ففي قول النبي « يسبقه عضوٌ منه إلى الجنة » دليلٌ أنَّ ذلك العضوَ لم يَسبق إلى الجنّة إلاّ وقد قُطِع في طاعة الله . وقد اجمعوا أن يده قُطِعت يوم نَهاوَنْد ، في طاعةِ عمر .

وهذا بابٌ كبير إنْ تتبَّعَه متتبِّع ، ولكنَّا أردنا أن نَدُلَّ على جميع الأبواب في تفضيل الشَّيخين ، ونَفْي التنقص عنهما .

[٦٨ - العامة لا تصلح لاقامة الامام]

وان سأل سائل : هل على الناس ان يتخذوا اماماً وان يقيموا خليفة ؟

قيل لهم : إن قولكم « الناس » يحتمل الخاصّة والعامّة . فإن كنتم قصدتم إليهما ، ولم تَفْصِلوا بين حالَيهما ، فإنّا نزعم أن العامّة لا تعرف معنى الإمامة وتأويلَ الخلافة ، ولا تَفْصِل بين فضل وجودها ونقص عدمها ولأيّ شيء ارتدّت ولأيّ أمرٍ أمّلت ، وكيف مأتاها والسبيلُ إليها . بل هي مع كلّ ريح تهبّ ، وناشئة تنجُم ، ولعلّها بالمُبطلين اقرّ عيناً [منها] بالمحقّين .

وإنّما العامّة أداة للخاصّة ، تَبتذلها للمِهَن ، وتزَجِّي بها الأمور ، وتَصُول بها على العدوّ ، وتسدُّ بها الثُّغور . ومَقام العامّة من الخاصّة مقامُ جَوارح الإنسان من الإنسان ؛ فإن الإنسان إذا فكّر أبصر ، وإذا أبصرَ عزَم ، وإذا عزم تحرّك أو سكن وهدأ بالجوارح [دون القلب . وكما أن الجوارح] لا تعرف قَصْد النَّفس ولا تَرَوى في الأمور ، ولم يُخْرِجها ذاك من الطّاعة للعَزْم ، فكذلك العامّة لا تعرف قَصْد القادة ولا تدبير الخاصّة ، ولا تروى معها؛ وليس يخرجها ذلك من طاعة عَزمها ، وما أبرَمَتْ من تدبيرها .

والجوارح والعَوامُّ وإن كانت مسخَّرةً ومدبَّرة فقد تمتنع لعلل تدخلها ، وأمور تصرفها ، وأسباب تنقضها ، كاليد يَعرِض لها الفالج ، واللسان يعتريه الخَرَس ، فلا تَقدِر النفسُ على تسديدها وتقويمها ، ولو اشتدَّ عزمُها وحَسُن تأتِّيها ورِفقُها . وكذلك العامّةُ عند نفورها وتهييجها وغلبة الهوى والسُّخف عليها ، وإنْ حَسُن تدبيرُ الخاصّة وتعهُّد السّاسة . غير أنَّ معصية الجارحة أيسر ضرراً وأهون أمراً ، لأن العامة إذا انكفت بالخاصّة وتنكّرت للقادة ، وتشزّنت على الرّاضة كان البَوار الذي لا حيلة له ، والفناء الذي لا بقاء معه .

وصلاحُ الدُّنيا وتمام النِّعمة ، في تدبير الخاصّة وطاعة العامّة ، كما أن كمال المنفعة وتمام دَرْك الحاجة بصواب قَصد النّفس وطاعة الجارحة ، لأنَّ النّفس لو أدركت كلَّ بُغية ، وأوفت على كلِّ غاية ، وفتحت كلَّ مستغلِق ، واستثارت كلَّ دَفين ، ثم لم يُطِعها اللِّسانُ بحسن العبارة ، واليدُ بحسن الكتابة ، كان وجود ذلك المستنبط - وإن جلَّ قدرُه وعَظُم خطره - [وعدمُه] سواء .

فالخاصّة تحتاج إلى العامّة كحاجة العامّة إلى الخاصّة . وكذلك القلب والجارحة . وإنّما العامّة جُنّة للدّفع ، وسلاحٌ للقطع ، وكالترس للرّامي ، والفأس للنّجار . وليس مضيٌّ سيفٍ صارمٍ بكفِّ امرىء صارم بأمضى من شجاعٍ أطاع أميره وقلّد إمامه ! وما كلْبٌ أشلاه ربُّه وأحمشه كلّابُه ، بأفرط تنزُّقاً ولا أسرعَ تقدُّماً ، ولا أشدّ تهوُّراً ، من جنديٍّ أغراه طمَعُه ، وصاح به قائده .

وليس في الأعمال أقلّ من الاختيار ، ولا في الاختيار أقلّ من الصّواب ، فلُبابُ كلِّ عمل اختياره ، وصفوة كل اختيار صوابُه ،ومع كثرة الاختيار يكثر الصّواب . فأكثر النّاس اختياراً أكثرهم صَواباً ، وأكثرهم أسباباً موجبة أقلُّهم اختياراً ، وأقلُّهم اختياراً أقلُّهم صواباً .

فإنْ قالوا : فقد ينبغي للعوامّ ألا يكونوا مأمورين ولا منهيِّين ، ولا عاصين ولا مُطيعين .

قيل لهم : أمّا فيما يعرفون فقد يطيعون ويَعصُون .

فإنْ قالوا : فما الأمر الذي يعرفون من الأمر الذي يجهلون ؟

قيل : أمّا الذي يعرفون فالتنزيل المجرَّد بغير تأويله ، وجُملة الشريعة بغير تفسيرها ، وما جلَّ من الخبر واستفاض ، وكثُر تردادُه على الأسماع ، وكُرُورُه على الأفهام . وأمّا الذي يجهلون فتأويل المُنزَل ، وتفسير المجمل ، وغامض السُّنن التي حملتها الخواصّ عن الخواص من حملة الأثر ، وطُلّاب الخَبر ، ممّا يتكلّف معرفتَه ويتتبّع في مواضعه ، ولا يَهجُم على طالبه ولا يقهرَ سمعَ القاعد عنه .

والخبر ، خبران : خبرٌ للخاصة فيه فضلٌ على العامّة ، كالصّلوات الخمس ، وصوم رمضان ، وغُسل الجنَابة ، وفي المائتين خمسة . وخبرٌ تفضُل فيه الخاصة العامة ، وهو كما سنَّ الرّسول في الحلال والحرام ، وأبواب القضاء والطّلاق ، والمناسك ، والبُيوع ، والأشربة ، والكفّارات وأشباه ذلك .

وبابٌ آخر يجهله العوامُّ ويخبِط فيه الحَشْو ، ولا تشعر بعَجزها و[لا] موضع دَائها . ومتى جرى سببُه أو ظهر شيءٌ منه تسنَّمتْ أعلاه ، وركِبتْ حَزْمته ؛ كالكلام في القَدَر والتَّشبيه ، والوعد والوعيد ، لأنّها قد تحجم [عن] دعوى الفُتيا ، ولا تتهافت فيها ، [ولا] تتسكّع فيما لا يعرف منها ، ولا تستوحشُ من الكَلام في [التعديل والتجوير ، ولا تفرغ من الكلام في] الاختيار والطُّباع ، ومجيء الأخبار وكلّ ما جرى سبَبه من دقيق الكلام وجليله في الله وفي غيره .

ولو برز عالمٌ على جادّة منهجٍ وقارعةِ طريق ، فنازَعَ في النّحو واحتجَّ في العروض ، وخاضَ في الفُتيا ، وذِكر النُّجوم والحساب ، والطبّ والهندسة ، وأبواب الصّناعات ، لم يَعرِض له ولم يُفاتحه إلاّ أهل هذه الطبقات .

ولو نطَقَ بحرفٍ في القَدَر حتّى يذكر العِلْم والمشيئة ، والاستطاعة والتّكليف ، وهل خَلَق اللّهُ الكُفرَ وقدّره ؟ أو لم يخلُقْه ولم يقدّره لم يَبق حَمّالٌ أغثر ولا[بطال] غثٌّ ، ولا خاملٌ غُفْل ، ولا غبيٌّ كَهامٌ ، ولا جاهلٌ سفيه ، إلاّ وقفَ عليه ولاحَاهُ ، وصَوَّبه وخطّأه ؛ ثمّ لم يرضَ حتّى يتولى من أرضاه ، ويكفّر من يُخالِف هوَاه . فإنْ جاراه مُحِقٌّ ، أو أغلظَ له واعظٌ ، واتَّفق أن يكون بحضرته أشكالُه ، استغْوَى أمثاله فأشعلوها فِتنةً ، وأضرموها ناراً .

فليس لمن كانت هذه صفَته أن يتحيَّز مع الخاصّة . مع أنّه لو حَسُنَتْ نيّته لم تحتمل فطرتُه معرفةَ الفُصول وتمييز الأمور .

فإن قالوا : ولعلّهم لا يعرفون الله ورسولَه كما لا يعرفون عَدْله من جوره ، وتَشبيهه بخلقه من نَفْى ذلك عنه ، وكما لا يعرفون [القرآن و] تفسير جُمله ،

وتأويل منزّله .

قيل لهم : إنّ قلوب البالغين مسخّرةٌ لمعرفة ربّ العالمين ، ومحمولةٌ على تصديق المرسَلين ، بالتّنبيه على [مواضع] الأدلّة ، وقَصْر النّفوس على الرويّة ، ومنعها [عن] الجَوَلانَ والتصرُّف ، وكلّ ما رَبَث عن التفكير وشغَلَ عن التّحصيل ، من وسوسةٍ أو نِزاع شَهوة ؛ لأنّ الإنسانَ ما لم يكن معتوهاً أو طِفلاً فمحجوجٌ على ألسنة المرسلين عند جميع المسلمين ، ولا يكون محجوجاً حتّى يكون عالمًا بما أُمِر به ، عارفاً بما نُهي عنه ، لأنّ من لم يَعلمْ في أي الضّربين سُخْط اللّه وفي أيّ النوعين رضاه ، ثمّ ركِب السُّخط أو أتَى الرِّضا ، لم يكنْ ذلك منه إلّا على الاتّفاق . وإنما الاستحقاق مع القصد ، والله يتعالى أن يعاقبَ من لم يُرِد خِلافَه ولم يعرفْ رضاه ، أو يَحْمَدَ من لم يعتمدْ رضاه ولم يقصِد إليه .

ولم يكن اللّهُ ليعدِّل صنعَته ويسوِّيَ أداتَه ، ويفرق بينه وبين المنقوص في بنيته وتركيبه ، إلّا ليفرق بين حاله وحال الطِّفل والمعتوه . وليس للمعرفة وجهٌ إلّا لتبصيره وتخييره ، ولولا ذاك لم يكن للذي خُصّ به من الإنابة ، وتعديل الصَّنْعة ، وإحكام البِنْية معنى . والله يتعالى عن فعل ما لا معنى له .

وفي قول الله : ﴿ وما خَلَقْتُ الجنَّ والإنْس إلّا ليَعبدُون ﴾ دليلٌ على ما قلنا .

وليس لأحدٍ أن يُخرِجَ بعض الجنّ والإنْس من أنْ يكون خُلِق للعبادة إلّا بحجّة . ولا حجّة إلّا في عقلٍ ، أو كتاب ، أو خبر .

فإنْ قالوا : فإنْ كان الله إنّما أبانهم بالتعديل والتّسوية للعبادة والاختيار مع الأمة فحكمهم حكم المسلمين المتعبِّدين . وإنّما الإمام إمام المسلمين والمتعبِّدين .

قلنا : إنّما يلزم النّاس الأمر فيما عرفُوا سبيلَه ، وليس للعوامّ خاصةً معرفةُ بسبيل إقامة الأئمة فيلزمها أمرٌ ، أو يجري عليها نهي .

والعامّة وإنْ كانت تعرف جُمَل الدين بقدرِ ما معها من العقول فإنّه لم يبلغ

من قوّة عُقولها وكثرةِ خواطرها أن ترتفع إلى معرفة العلماء، ولم تبلغ من ضَعفِ عقولها أن تنحطَّ إلى طبقة المجانين والأطفال .

وأقدار طبائع العوامّ والخواصّ ليست مجهولةً فنحتاج إلى الإخبار عنها بأكثرَ من التنبيه عليها ، لأنكم تعلمون أنّ طبائع الرُّسل فوقَ طبائع الخلفاء ، وطبائع الخلفاء فوقَ طبائع الوزراء ، وكذلك النّاسُ على منازلهم من الفَضْل ، وطبقاتهم من التركيب في البُخل والسّخاء ، والبُلْدة والذّكاء ، والغَدر والوفاء ، والجُبن والنّجدة ، والجزَع [والصبر] والطّيش والحِلم ، والكِبر والتّيه ، والحِفْظ والنّسيان ، والعيِّ والبيان .

ولو كانت العامّة تعرف من الدِّين والدُّنيا ما تعرف الخاصّة كانت العامّةُ خاصّة ، وذهب التّفاضل في المعرفة ، والتّباين في البنية . ولو لم يُخالف بين طباعهم لسقَطَ الامتحان وبطَل الاختبار ، ولم يكن في الأرض اختيار . وإنّما خولِف بينهم في الغريزة ليصبر صابر ، ويشكر شاكر ، وليتّفقوا على الطّاعة . ولذلك كان الاختلافُ هو سبب الائتلاف .

ويقال لهم عند ذلك : إنّكم قد أكثرتم في أمر العوامّ ، وخلّطتم في الحكم عليهم ، فمرّةً تزعمون أنّا نكذب عليهم حين نَزعم أنهم غير محجوجين ، لأنهم بزعمكم لا يَفْصِلون بين الأمور ، ولا يُفرقون بين الكاذب المحتالِ وبين الصّادق المحِقّ . وجعلتم الدَّليلَ على ذلك أنّكم اعترضتموهم بزعمكم فسألتموهم عن الدَّليل والحجّة ، والفرق والعِلّة ، فلم تجدوهم يشعرون بما يلزم فيها ولا يعرفون بابها ، وكيف الكلامُ فيها . وإنّا معشرَ أصحابِ المعرفة قد تعمّدنا الكذب عليهم ، حين زعمْنا أنهم يعرفون ذلك ، ويفرّقون بين معانيه . ومرّةً تزعمون أنهم يعرفون ما يعرفه الخواصُّ والعلماء ، ويعلمون ما يعلمه المتكلمون والفقهاء ، من إقامة الأئمة وعقد الخلافة . فمرّةً تخرجونهم من جميع المعرفة ، ومرّةً تجعلونهم في غاية المعرفة وأعدلُ الأمورِ في ذلك وأقسطُها أن تزعموا أنهم يعرفون جُمل الشّرائع الظّاهرة الجليّة ، وجُمل السُّنن الواضحة المستفيضة ، ويجهلون تفسير

جُمَلِها وتأويلَ مُنزَّلها ، وكل منصوص لم يظهر كظهور الحجّ ، ولم يُشهرَ كشُهرة صوم رمضان ، وغُسل الجنابة ، وتحريم الخمر والخنزير والميتة والدم .

ولكنْ دَعُونا جانباً ، واضربوا عمَّا نقولُ صَفْحاً ، وقرِّبُوا جميع القولَين لنتعاون عليهما ، فأيُّهما كان أثبتَ على الامتحان ، وأنفَى للقَذَى ، وأحسن مَغْزىً ، وأجدَّ على الأيّام ، وأصَحَّ على التقليب ، دِنَّا به ، وحامَيْنا عليه ، وتقربنا به ، وآثرناه على ما سواه .

على أنَّا لا نستملي حَقَّ ذلك وصدقَه إلاَّ منكم ، ولا نحتجُّ عليكم إلاَّ بما تقرُّون به على أنفسكم .

خبرونا عن العوامّ : هل يخلو أمرُهم من أن يكونوا محجوجين أو غير محجوجين ؟ فإن كانوا غير محجوجين فقد دخلوا في أكثر ممّا عابوا . وإن كانوا محجوجين فهل تخلو الحجة التي بها قطع الرَّسولُ عُذرَهم من ضربين : إمَّا أن تكون المعرفة بصدق الرسول وفَصْل ما بينه وبين المتنبي كما نقول . وإمّا أن تكون الحجّة في الدّليل على المعرفة ، وليست بالمعرفة .

فإنْ زعموا أنَّ الحجة هي المعرفةُ فقد وافقوا وأصابوا . وإنْ زعموا أنها الدّليلُ على المعرفة فليخبرونا عن ذلك الدّليل ما هو ؟

فإن قالوا : هو كلام الذِّئب وحنين العُود ، وإظلال الغمامة ، وقصّة الميضأة ، وحدّ الشّجرة ، وكلام الذراع ، وعجز الشُّعراء عن تأليف القرآن ، والبشارات برسالته في الكتب .

قلنا : قد صدَقتم فيما ذكرتم من هذه الآيات والأعاجيب ، ولكن [لا] تخلو عقولُ العوام من أن تكون قد عرفَتْ هذا كلَّه وأقرَّتْ به ، أو لم تعرفه ولم تقرَّ به ، ولم تُودَع العلمَ بصحَّة مجيئه .

فإنْ زعموا أنها لم تعرف ذلك ولم تُقرِر به ، قيل لهم : فمن أين زعمتم أنَّ الحجة لهم قاطعة ، والفريضة لهم لازمة ، ولم يعرفوا الحق ولا الدّليلَ عليه .

وإذا كانت المعرفة لا تُستطاع إلاّ بالدّليل ، والدّليل معدوم ، والتّكليف لازم ، فقد كُلّفوا ما لا يستطاع ، ولم يَضِع الكلام بيننا وبين الجبرية .

وإنْ كان الله قد قرَّر عقولهم بالآيات ، وعرَّفهم صِدقَها وصحّة مجيئها ، فإنّما الفرق بيننا وبينهم أنّا نزعم أنّ العاقل إذا كان قد جرَّب بعضَ التجربة أنّه لا يمتنع من تصديق مَن أحيا الموتى ، وأبرأ الأكْمَه ، وفلَق البحر ، وأنطق السِّباع . وأنتم تزعمون أنّه يمتنع ، ويجوز أن يعتقد أنّه أكذبُ العالمين وأبطَلُ المُبطلين ، مع ما أراه من عظيم البُرهان وعجيب الآيات . ولعلَّ قومَ موسى كلّما زادهم موسى آيةً وأردفَها بعلامة ، ازدادوا جهلاً بصدقه ، واستبصاراً في تكذيبه .

وكيف يستطيع ذلك من صحَّت فِطرته ، وقد جرَّب من أمور الدُّنيا بعضَ التَّجربة ، وعرفَ ما يحدُث في العادة وغير العادة .

وإنْ كانت العامّة قد قُرِّرت بأعلام الأنبياء ، وعرفت الآيات كما زعمتم ، فقد كان ينبغي لنا إذا سألناهم عن صِدقها وصحّة مجيئها وإن لم نفصل بينها وبين حِيلة المبطل ، أن يخبرونا عنها وينزِّلوا لنا أمرها . فما بالُنا إذا سألناهم لم نَرَهُم يعرفونها ، ولا يحصِّلون مجيئها ، ولا يخبرونا عن صدقها .

فإن كان لكم أن تقضوا على العامّة بالجهل بين النبيّ والمتنبي ، لأنهم لم تروهم يحسنون الفرُوق ، ويَفصلون بين الأمور ، فقد ينبغي لنا أيضاً أن نقضيَ عليهم بالجهل ، وأنهم لم يَعرفوا الدّلالة ، ولم يصوِّروا بشيءٍ من الآيات والأعاجيب .

فإذا كان القومُ عندكم محجوجين قد قُرِّروا وعرِّفوا ، ونحن لا نجد عندهم على المساءلة من ذلك شيئاً ، وجاز لكم أن تزعموا ما زعمتم ، فلِمَ لا يجوز لنا أنْ نزعم أنهم [كانوا] عارفين وإنْ لم نجد ذلك عندهم على المساءلة .

ولولا أني قد ذكرت هذا البابَ مفسَّراً في « كتابِ المعرفة » لأخبرت من أيِّ وجهةٍ جاز أن يكون بعضُ المارقين لا يخبر عن كلِّ ما في نفسه ومن أين امتنع ذلك عليه .

[٦٩ ـ تكليف الخاصة باقامة الامام]

فإنْ قالوا : قد فهمنا قولَكم في العامّة فيما تقولون في الخاصّة ؟ فهل كلّفها الله ذلك أم لم يكلّفها كما لم يكلّف العامّة ؟ وفي ذلك سقوطُ التكليف عن الجميع .

قلنا : بل نقول : إن على الناس إقامة الإمام ، نريد الخاصّة ولا نقول أيضاً إنّ على الخاصّة إقامة الإمام إلاّ على الإمكان .

فإن قالوا : وما سبب عَجْز الخاصّة وإمكانها ؟ .

قلنا : من ذلك أن تكون العامّة عليها مع جُنْد الباغي المتغلّب .

فإن قالوا : فهل يلزمها فرض الإقامة إذا كانت العامّة كافّة عن العون عليها .

قلنا : قد يلزمها في ذلك ولا يلزمها في أخرى.

وإن قالوا : ففي أيّة الحالين يلزمها ؟

قلنا : إذا كان المستحقُّ للإمامة والمستوجب للخلافة معروفَ الموضع ، مكشوفَ الأمر ، وكانت التُّقية عنها زائلة .

فإن قالوا : وكيف لا تكون التُّقية عنها زائلةً ، وهي على حالٍ أكثر عدداً من جند المتغلب والباغي ، والعامّة كافّة ممسكةٌ لا لها ولا عليها .

قلنا : إنّه ليس في حال أكثر عدَداً . فإذا كانوا أكثرَ عدداً وكانت التُّقيةزائلة ، فعليهم إقامته .

فإن قالوا : فلم جعلتم لهم التُّقية ، وأسقطتم عنهم الفرض في الحال التي هم فيها أكثر عدداً؟

قلنا : لأسباب ، منها أنّ العدو إذا كان مُعِدّاً ، ذا سلاح وعتاد وكُراع ،

وكانوا على هيئةٍ وأمرُهم جميعٌ ، فقليلٌ مجتمعٌ أكثر من كثيرٍ نَشَر . مع أنَّ معهم أنفذَ السِّلاحَين ، وأوفر العتادين : الضِّرا والدُّربة ، وحُسن التَّدبير والمعرفة ، بطُول الممارسة وكثرة الحاجة .

ومنها أنَّ الخاصَّة وإن عَرَفت موضع المستحِقّ ، وظَهَر لها المستوجِب ، وكانوا أكثر جِماحاً ، فكلُّ واحدٍ منهم على ثقةٍ من تَخلّ صاحِبه به وخِذلانه له . ولا بدَّ ، ما دامت التَّقية ، من التَّواكل والتَّخاذل . وإن اتَّفق رأيُ الجميع في المغيَّب على النُّصرة . وليس يُنتفع باتِّفاق أهوائهم ما لم يتشاعروا .

فإنْ قالوا : إن كان الأمرُ كما تصفون وجَبَ ألَّا يقيموا إماماً أبداً ؛ لأنهم كما لا ينفكُّون من التَّقية ، كذلك لا ينفكُّون من التَّخاذل .

قلنا : ليس الأمر كما تقولون ، لأنَّ تقية بعض الخاصَّة لبعض قد تزول بأسباب كثيرة : منها أن تسوء سِيرةُ المتسلِّط الباغي فيهم ويفحشَ جَورُه ، ويكثر تعضيله واستئثاره وقَهره ، حتى يكون ذلك إحراجاً لهم وسبباً للكلام والشَّكاية والتَّلاقي ، لأنهم قد عُمُّوا بالإحراج معاً ليكون كلُّ واحدٍ من المحْرَجين يتَّكل على رأيِ صاحبه ، لعلمه بالذي لقِيَ من المكروه الذي هو فيه ، من ثَوَران النفس وتهييج الطَّبيعة . فلا يزال بهم ذلك حتَّى يتَّفقوا في الظَّاهر كاتِّفاقهم في الباطن ، إذْ كان الإحراجُ قد شمِلهم وعَمَّهم ، وبلغ أقصاهم بَعْد أدناهم . وعند التَّلاقي تزداد النفوس حَمِيةً وغَضَباً وبصيرة . فإذا تبائُوا وتكاشفوا وشاع ذلك من شأنهم ، وشُهِرَ من أمرهم ، علموا أنَّ ذلك قد ظهر لعدوِّهم ، والمتسلِّط عليهم . فإذا علموا ذلك علموا أنهم قد لَجِجُوا في الحرب ، ونَشِبُوا في المناصَبة . فإذا علموا ذلك لم يجدوا بدّاً من بَذْل المال ، وإعطاء الجَهد . وإنَّما هي أسبابٌ تَرَامَى ، وعللٌ تَداعَى ، وأمور تهيجُ أموراً ، وأسبابٌ توجب أفعالاً ، فعند ذلك تمكن الشِّدَّة ، ويجب الفَرْض . ومدار الأمر على الإمكان ، فمتى بطل بطل الفرض ، ومتى وُجِد وُجِد الفرض .

وربَّما كان سببُ تكاشفهم ما يعرفون من ضَعف جُنْد الباغي عليهم ،

والمستبدّ عليهم بأمرهم .

ولضعفهم أسبابٌ : فربمّا كان لاختلاف يقع بينهم ، وربما كان لعدوّ يدهَمَهم وينازعهم مُلكَهم ، وربمّا كان للخَلَل يدخل عليهم ، والرِّقّة تصيبهم ، من موت أعلامهم . أو قتلِ قُوّادهم ، وربمّا كان لضعف رأي مدبِّرهم وسياسة سائسهم ، أو موتِ قيِّمهم .

فبهذا وأشباهه تتكاشَف النّاس ، وتَظهَر على ألسنتهم ضمائرُهم ، وتبدو أسرارهم ، ونفوسهم من قبل ذلك حِنقةٌ عليهم ، متديِّنة بخلعهم والاستبدال بهم ، وإنمّا امسكَتْ عن الإنكار وأظهرت التّسليمَ ريثما تجد فرصةً وترى خَلّة ، ويستجمعُ الأمرُ ، وتزولُ التّقيّة . مع أنّا نعلم أنّ العامّة أسخفُ أحلاماً وأخفُّ حركة ، وأشدُّ طيشاً ، أن تؤثر الكفَّ والعُزلة والتّسليم والمجانبة ، عند حرب المحقّين والمتسلِّطين . ولو كانت تطيق ذلك ويجوز عليها ما كانت العامّة بعامّة ، ولكانت العامّة خاصّة . ولكنّا أجَبْنا على قدر مجرى المسألة .

وإنما البليّة العظمى والدّاهية الكبرى ، أن تمتاز العامّة حتى يصير بعضُها مع الخاصّة ، وبعضُها مع البُغاة والظَّلَمة .

والجملة أنّهم متى أقرْنوا لعدوِّهم وأمكنهم منعُهم ، والرجلُ المستحقُّ ظاهر لهم معروف عندهم ، فعليهم إقامتُه والدّفع عنه .

[٧٠ - معرفة الامام]

فإن قالوا : ومَن لهم بمعرفة الرّجل الذي لا بَعدَه ؟

قيل : إنّه ليس على الناس أن يصنعوا المعرفة ، وإنما عليهم إذا عَرَفُوه واستطاعوا إقامَتَه أن يُقيموه . ولا بدّ للنّاس أن يَقوم فيهم - إذْ فُرِض ذلك عليهم - رجلٌ يصلحُ لجباية خَراجهم ، وإقامة صلاتهم ، وسدِّ ثغورهم وتنفيذ أحكامهم .

فإن قالوا : فكيف تعرفون فضله ولم تقابلوا بينه وبين غيره ، وأهل الفضل كثير ، والفضل ممنون مستفيض ؟

قيل : كما بانَ عند المعتزلة عمرو بن عُبيد ، وكما بان الحسن بن حَيٍّ عند الزّيديّة من بينها وكما بان مرداس بن أُديّة عند جميع الخوارج من بينهم ، وكما علمتم من حالِ غَيلان بدمشق ، وحال عبد اللّهِ بن المبارك بخراسان . وليس أنَّ المعتزلَة اجتمعت من أقطار الأرض فقالت نَعَمْ جميعُها ، ولا وضعت فيه شُورَى ، ولا تساوَى منهم نفرٌ فاحتاجوا إلى القُرعة . وكذلك الزّيديّة في الحسن بن حَيّ ، والخوارج في مِرداس بن أُديّة . ولكنَّ الأمور تَردُ على القلوب ، وتهجُم على العقول على طول الأيام ، [إمّا بالخبر] الذي يَشفي من الشّكّ ويبرىء السُّقم . وإمّا بالعِيان الذي يُثلج الصُّدور ويَضطرُّ العقول .

وقد علمنا نحن على حداثة أسناننا وتقادُم النّاس قبلَنا ، أنَّ جالينوس قد كان بائناً في طبه ، وأنَّ الأرسطاطاليس كان البائنَ في المنطق .

وكذلك علمنا أنَّ قيس بن زهير كان داهيةَ قيسٍ في الجاهليّة ، وأنَّ الحارث بن ظالم كان فاتكها ، وأنَّ هَرِم بنَ سنانٍ كان جوادَها ، وأنَّ النابغة كان شاعرها ، وأن الحارث بن كلدة كان أطبَّها ، وأنَّ عامر بن الطفيل كان أفْرسَها . ولم نَضَعْ قطُّ في هذا شُورى ، ولا وَضَعَه من كان قبلنا ، ولا استجمعت قيسٌ فقابلتْ بين خصال هؤلاء وبين جميع قيس ، لتعرف الفضيلة بالموازنة والمقابلة ، ولا احتاجوا في ذلك إلى الإقراع والمساهمة .

وإذا كنّا مع تقادم الأخبار نعرف البائن في كل عصرٍ ، والمقدَّم في كل أمر ، فعلى شبيهِ ما وصفنا يعرف الناس فضيلة المستوجب . والخير لا يستطاع كتمانه ، والشرّ لا بدّ من ظهوره .

واعلمْ أنّه لا يمكن أن يكون رجلٌ أعلمَ النّاس بالدّين والدُّنيا ثم لا يُسمع به ، لأنّه لا يصير كذلك إلاّ بالاختلاف إلى العلماء ، وبطول مجاثاة الفقهاء ، وكثرة دَرْس كتب الله وكتب النّاس ، ومنازعة الخصم ومقاولة الأكْفاء . وهذا كلّه

مما يُظهر أمرَه ، ويَشهر مكانَه .

ثم الذي يدخل العالم من خُيَلاء العلم وعِزّ الحق ، وسرور الظَّفَر بما أعيا النّاسَ معرفتُه ، حتّى لا يستطيع أن يكتمه وإن اشتدّ عزمه ، وقلّ رياؤه ونَفْجُه ؛ لأنّ للعلم سَورة ، ولانفتاحه بعد استغلاقه فَرحة ، لا يضبطها بَشَريّ وإن اشتدّت حُنْكته ، وقويتْ مُنّته ، وفضلَتْ قوتُه .

وإنّك لتجد كثيراً من العقلاء يُخاطرون بأعناقهم ، لبعض العظمة يجدونها في أنفسهم على خصومهم وأكفائهم ، حتّى لا يمتنعون من إظهارها والفخر بها ، فما ظنُّك بالعالم إذا كان بائناً بنفسه ، وكان في دولته . وتعظيمُ النّاس مُوكّل بصاحبه كيف يستطيع كتمانه وإماتته ، مع ما أخذ الله على العالم من حُسن الإرشاد واحتمال المؤونة ، واستنقاذ النّاس من الجهالة . ومن القيام بحقّ العلم تعليمُ الجاهل . فهذا كلّه يغني عن لقاء الكلّ للكلّ .

ولو أشكل أمرُه ولم يَبِنْ من أمثاله ، وهو للناس أصلَحُ من غيره ، فقد أمكن البأس ؛ إذْ لو كان ظاهراً لهم إقامته لنبّهَ الله على مواضع فَضْله ، ولأذكر النّاسَ ما سقط عنهم من تدبيره ، ولبعثَ الهمم على حُبّه وطلب محاسْنه .

وكيف يجوز أن يكون أكملُ النّاسِ خفيَّ العِلم ومغيَّبَ العَمَل ، وهو لا يكون كذلك حتّى تكثُر تجربتُه ويكثر صوابُه ، ويشتدّ حِلمُهُ ويحسنَ تدبيره . ولا بد من كثرة حَجٍّ وغَزْو ، وصلاةٍ وصوم وصدقة ، وذكر وقراءة قرآن ، وأمرٍ بالمعروف ونهيٍ عن المنكر ، وحَدَب على الأولياء وغِلظةٍ على الأعداء . إن دام فقرُه دامت قناعته وقلّ إسفافه ، وإنْ دام غِناه دامَ بذلُه وقلّ طُغيانه . وليس من هذا شيءٌ إلاّ وهو يَشهرُ صاحبَه ويُظهر للناس مكانه ، ويدعُو الى محبّته وتعظيمه .

وإن زعموا أنّه يجوز أن يكون خيرَ النّاس أو أعلمَ الناس ، وإنْ لم يُعرَفْ بشيءٍ مما ذكرنا ، فقد صار خيرَ الناس من لم يعمل خيراً قطُّ .

فإن قالوا : فما تقولون إن وُجدوا عَشرةٌ سواءً ؟

قلنا : قد يكون أن تجدوا عشرةً متقاربين ، فإذا صاروا إلى الموازنَة بانَ الأفضلُ من الأنقص . وقليلاً ما يكون ذلك ، كما وجدنا السِّتّة الشُّورى الذين اختارهم عُمر والمهاجرون والأنصار معه ، فقد كانوا في طبقةٍ واحدة . ولكنَّ أهل الطَّبقة قد يتفاضلون بأمرٍ بيِّنٍ لا خَفاء به ، كما نظروا فاختاروا عثمان غير مكرهين ولا محمولين .

ولكنْ لا يجوز بوجهٍ من الوجوه أن يتَّفق عشرةٌ سواءً في الحقيقة ، وعند الموازنة الصَّحيحة لأنَّ في اتفاق ذلك بُطلانَ الإمامة . ولو جاز أن يتَّفق عشرة سواءً لجاز أن يكون الرُّقَباء والشهود عليهم سواء . ولو جاز أن تستوي حالاتُهم وأفعالُهم جاز أن يقولوا لِمَا ينبغي أن يقولوا فيه نَعَمْ : « لا » معاً ، ولما ينبغي لهم أن يقولوا فيه لا : « نعم » معاً .

وفي هذا فسادُ الاختيار والإقراع . فإذا فَسَد الاختيار والإقراعُ ولم يكن الرَّجلُ بائناً فلا سبيل إلى إقامته . ولم يكن الله ليفرض أمراً ولا يجعلَ إليه سبيلاً ، ولم يكن الله ليكلِّف النَّاسَ أمراً إلاَّ وذلك الأمر مصلحةٌ لهم . فكيف يَمنعهم مصلحتَهم ، بل كيف يُظهر لهم فَرض الإمامة وقد أمكنتهم الشدّة، والمعلوم عنده أنَّ العالم سيتهيَّأ فيه ويتفق ما لا يمكن معه أداءُ الفرض ، ولا بلوغُ المصلحة .

ولو جاز أن يتفق عشرةٌ سواءً في الحقيقة وعند الموازنة في جميع الخصال ، ما كان إحياء الموتى وإبراء الأكمهِ أعجَب منه ، ولا أخْرجَ من العادة ، وإنَّما جعلَ الله ذلك لرسله فقط .

ولو جاز أن يتَّفق في العالم شيء يكون جاعلاً من الرسالة جاز ذلك في أمور كثيرة . ولو جاز ذلك اختلَط الكاذبُ بالصَّادق ، والحُجَّة بالشُّبهة . وهذا ما لا يجوز على الله تبارك اسمه ، وتعالى جدُّه .

ولـو عَرَفـوا موضـع الإمام بعينـه ثمّ قال الشـاميُّ : لا يكون إلاّ منّـا ، وقال العـراقيّ : لا يكـون إلاّ مِنّـا ، وقـال الحِجـازيُّ : لا يكـون إلاّ منّـا ، وكـذلـك التُهاميّ والجَزَريّ . وكذلك إذا قال القرشيُّ : لا يكـون إلاّ منّا ، وقـال الحُسَيْني : لا يكون إلاّ منّا ؛ وقـال الحَسَني : لا يكون إلاّ منّـا ، وكذلـك الفلانيّ والفـلانيّ . وكـذلك أنْ لـو قـال الإبـاضيُّ : لا يكـون إلاّ منّـا ، وكـذلـك لـو قـال الصُّفْـرى والأزرقيّ والنَّجْدي والزَّيـدي ، والفلاني والفـلاني ـ لَمّا وصـل أهلُ الحقّ إلى إقـامته إلاّ بأن يكونوا في عدد الجميع وفي عَتادهم .

[٧١ ـ وجوه ثلاثة لاقامة الامام]

والإمام يقام من ثلاثة أوجه :

فوجه كالذي حكينا ووصفنا .

ووجـه آخر مثـل ما أقـام المسلمون عثمـان بن عفّان حـين اختار عمـر ستّـةً متقاربين فاختاروا منهم رجلاً ، فلولا أنَّ السـتّة كانوا بـائنين عنـد الجميع لم يُـطبقوا ذلك الإطباق ، لأنّه لم يقُل واحـدٌ : كان ينبغي أن يكـون منّا ، ولم يقـل واحدٌ من الـرُّقباء ولا من الفقهـاء والخاصّـة : فينـا واحـدٌ كـان ينبغي أن يكـونَ معهم ، ولا قـالوا : فيهم واحـدٌ كان ينبغي أن يكـون معنا . فهـذا دليل أن الـسّتـة كـما كـانـوا بائنين عند عمر كانوا بائنين عند الخاصّة .

ووجهٌ آخر ، وهو مثل إقامة النّـاس لأبي بكر ، ليس عـلى أنَّ النبيَّ صلى الله عليـه وسلم جَعَل شـورى كـما وضَعهـا عمـر ، ولا عـلى جهـة مـا حكَينـا من أمـر الخاصّة والعـامّة بـإقامـة الإمام والنّصّ عليـه ؛ لأنَّ ذلك أسلَمُ وأخفُّ في المؤونـة ، وأبعـد من الغَلَط والفتنـة . وقـد وجـدتـم مـا هـو أغمضُ معنىً وأدقُّ مسلكـاً ، وأغوص مُستخرجاً ، وأفحش مأثماً ، غير مفسَّر ولا مَنصـوص عليه ، كـالكلام في التّعديل والتَّجوير ، وفَصْل ما بين الطِّبـاع والاختيار ، والكـلام في التّشبيه ونَفيـه ، وفي مجيء الأخبار وحُجَج العقول .

ونحن لم نَـرَ احـداً قطُّ الحَـد ولا تَـزنـدَق مِنْ قِبَـل الغلط في كـلام الإمـامـة والاختـلاف فيها . ومَنْ وجـدناه قـد ارتدَّ زِنـديقاً أو دَهـرياً مِن قِبَـل هذه الابـواب أكثَر من أن نُحْصيَ لهم عدداً ، أو نقِفَ منهم على حدّ .

[٧٢ ـ رفض نظرية الشيعة في النص على الامام]

فـإذْ جـاز أن يَتـركنـا وأشـدُّ الأمـرين لنكـون نحن الـذين نستنبـطه ونتكلّف معرفته ، ليكون عاجلُ سروره وريْثه وآجل ثـوابه وعـظيم جزائـه ، كان الـذي هو اظهـرُ للعقـول ، وأسهـلُ عـلى الـطالب ، وألَـينُ كنفـاً للواطىء ، واقـرب مـاخـذاً للمسترشِد ، أولى بذلك .

ولا بدَّ لهم من أن يقولوا أحد أمرين : إمّا أن يقـولوا : إنّـا إذْ وجدْنـا نَصْبَ الإمام والنصَّ عليه أسلَمَ لنا من الخطأ ، فالواجبُ علينـا أنْ نزعم أنَّ الله قـد فعَلَ ذلك ، وإن لم نجد خبراً نَضطَرُّ إليـه ، ولا قرآنـاً ينُصُّ عليه ، والإمـامة مختلفـة في ذلـك ، فإنّمـا أوجبنا ذلـك من قِبَل حُسْن الظَّنّ بالله . وإنْ لم يكن في القـرآن آيـةٌ تدلُّ على أنَّ الله لم يَنصب إماماً ، ولا في الخبر .

وإمـا أن تقولـوا إنَّ ذلك قـد كان وقـع منه ، وإنّمـا عرفنـاه بالأخبـار والآثـار والكِتاب .

فإنْ كانوا إنّما حكموا على الله بفعـل ذلك لأنّـه أسلم لهم من الخطأ ، وأبعـد لهمْ من الغَلَط ، إلاّ أنّهم قـد وجدوا بـذلك خبـراً فاشيـاً ، وكتابـاً دالاًّ ، فـإنْ كـان ذلـك كذلـك فلمَ أوجَبُوا عـلى الله فِعلَ مـا هـو أيسرُ وأظهـر ، وقـد وجَـدوا الله لم يصنـع ذلك فيـما هو اغمض وأشكـل . كـالـذي وصفنـا قبـل هـذا من الكـلام في التّعديل والتّجوير ، والتّشبيه ، ومجيء الأخبار .

وقـد علموا مـع ذلك أنَّ اكـثرَ النـاس لم يُؤْتَـوْا في هَلَكتهم إلاّ من قِبَل سَـرَف شهواتهم ، وغلبة طبائعهم .

وكيف لم يحكموا على الله بغير ما وجدوا من رفع مؤونتها ، وقَمْع دواعيها ، حتى لا يُلجِئ الناسَ طبائعهم ، ولا تورّطهم شهَواتهم .

وإنما يحكم بهذا وأشباهه على الله من لا علم له بالله وتدبيره ؛ لأنَّ الله لو أسقط عن الناس كلَّ ما أثقل ظهورهم ، واستبشعته نفوسُهم ، وخالف أهواءَهم لسَقَطَ الامتحان ، وبطل الاختبار ، إذ لم يكن هناك حلاوة تُجتَنَب ومرارةٌ تُركب ، ولذيذ يؤخَّر ، وكريه يقدَّم .

وإنْ ذهب السائل إلى غير هذا الوجه ، وزعم أنَّه إنَّما قال إن الله قد نصَّ على إمامَة عليّ لأنَّ الخبر به جاء المجيءَ الذي لا يكذَّب مثله . ولولا أنَّ الخبر صحيح جاز عنده أن يكون الله يطوِّقهم النَّظر ، ويضع لهم الدَّلالة ، ولا ينصُّهم على شيء ولا يفسِّره لهم ، كفِعله فيما هو أدقُّ وأخفى ، وأعظم إثماً وأشدُّ خطراً .

قيل لهم : إنَّكم وإن سمعتم فلستم بأعلمَ بالأخبار من غيركم ، ولئن كنتم مجيبين بخبرٍ قد سمعناه معكم فلم يحجّنا كما حجّكم ، إنَّه لعجب . وإنْ كان الخبر قد حَجَّ جميعَ من خالفكم مع كثرتهم ، واطَّبقُوا على كتمانه وجحده واتَّفقوا عليه ، إن هذا لأعجب .

وكيف تُحجُّون بخبرٍ لا تستطيعون أن تقيموا حُجَّته على مَن خالفكم ، فإنْ كنتم إنَّما حجَّكم سلفُكم فحُجُّوا أهل عصرِكم ومَن معكم ، كما حَجَّكم من قبلكم من أسلافكم .

وقد نفضْنا القرآن من أوَّله إلى آخره فلم نجد فيه آية تنصُّ على إمامة ، ولا أنها إذْ لم تَنُصَّ كانت دالَّة عند النَّظر والتفكير ، ولا أنَّها إذ لم تُدلَّ بالنَّظر والتفكير وكان ظاهرٌ لفظها غير ذلك على ما قلتم كان أصحابُ التَّأويل والتَّفسير مطبقين على أنَّ الله أراد بها إمامة فلان .

فهذا بابٌ لا تقدرون مِنْ قِبَله على حُجَّة ، وليس لكم في باب الخبر

والإجماع متعلّقٌ ولا سبب ، مع قول الأنصار : مِنّا أمير ومنكم أمير . وقول المهاجرين : بل مِنّا الأمراء ومنكم الوزراء.

ثمَّ وجدنا أبا بكرٍ وهو متكلِّم قريشٍ وصاحبُ أمر المهاجرين ، والمنازِعُ عنهم يوم السَّقيفة ، يقول للناس بعد سُكون الأنصار وارتداعهم : بايعُوا أيَّ هذين شئتم ـ يعني عمر وأبا عبيدة ـ فلم نجدْه ادَّعاها لنفسه ، ولا أبَى أن تكون لغيره . ولم يقل إنسانٌ من الأنصار ولا من المهاجرين ، ولا من أفناء الناس : إنّ النبي صلى الله عليه وسلم قد كان جعلها لفلانٍ وحَضَّ عليها له . ولا أنّهم إذا لم يدَّعوا النّصّ قال قائل إنَّ النبي صلى الله عليه قد كان قال قولاً يومَ كذا وكذا يدلُّ على أنّها لفلان ، ولم ينطق بذلك أحدٌ بعد تلك الأيام كما لم ينطق أحدٌ فيها .

ثم وجدنا أبا بكرٍ حين أراد أن يجعلها إلى عمر من بعده كيف يمشي إليه رجال المهاجرين وعِلْيَةُ السّابقين ، ليصرفَهَا إلى من هو ألين جانباً وأخفضُ جَناحاً ، وأقلُّ هَيبة ، ويقولون : يا خليفة رسول الله ، إنَّ الحاجة للأرمل والأرملة ، والضَّعيف والضَّعيفة ، وعمر رجلٌ مهيب في صُدور الناس واللّهِ ما تريد صرفَهَا عنه الاَّ يكونَ سَبَقَ إلى كلِّ يوم خير ! قال أبو بكر : أبربي تهدِّدوني ، أمَّا إذا لقيته فقال لي: من استخلفتَ على عبادي ؟ قلت : استخلفتُ عليهم خَيْرَ أهلِكَ عندي .

فلم يجر بينهم ممَّا يقولون حرفٌ واحد .

ثم انَّ عمر بعد ذلك جعَلها شُورَى بين ستّة وجعلَ إليهم الخيار ، وسلَّم بذلك جميعُ المسلمين، فيهم الزُّهري والتّيميّ والهاشميّ والأمويّ والأسديّ ، على أنّها إنْ وقعت للأسديّ لم يكن منكراً عند الجميع ، وكذلك الزُّهري والأموي .

واعجبُ مِن هذا أجمعَ وأدلُّ على الاختلاف، وأبعد من النّصّ والإجماع، قولُ عمر في شَكاته وهو مُوفٍ على قبره وعنده المهاجرون الأوّلون : « لو أدركت سالماً مولى أبي حُذيفة ما تخالجني فيه الشَّكّ » حين ذكر دُعابة علي ، وبخل الزُّبير ،

وبأوْ طلحة ، وحُبّ عثمانَ لرهطه .

ثم الذي كان من مُنازعة سعدٍ بن أبي وقّاص لعليّ ، وتركِه بيعَته ودعائِه لـه إلى وضع الشُّورى ، والتخايُر بالأعمال والجزْء ، فلم تجدوا أحـداً من الناس يقـول من وراء سعدٍ أو في وجهه : ولِمَ تخايُرك وقد اختاره الرَّسولُ دونك .

وقد كان ينبغي لأصحاب عليّ ومن معه من المهاجرين والبدريّين وسائر الصَّحابة والتّابعين ، ألاّ يُمسكوا عن ذكر هذه الحُجّة وإن أمسك عنها النـاسُ وأضاعوها ، وعاندوا أو غلِطوا فيها . ولم نَعلم هذا وأشباهه إلاّ دليلاً قـاطعاً لمن لم يَمنع قلبه معرفةَ الحقّ ولسانَه الإقرار به ، في محاربة طلحة والزُّبير وعائشة وعليّ ، وما أراقوا من الدِّماء . ولم يقُلْ واحدٌ من النـاس : ولِمَ تقاتلون رجلاً أو تطلبـون مخايرتَه وقد نصبه النبي صلى الله عليه وفسَّر أمرَه ، وبيَّنَ شأنه . [وهذا] دليل على ما قُلنا ، وبرهان لما ادَّعينا .

ولقد قال رجلٌ لعُمرَ بن علـيّ : خبِّرني عن وصية رسول الله صلى الله عليه إلى أبيك . قال : والله إنّ هذا الكلام ما سمِعتُ به قطُّ إلاّ السـاعة .

وقد تعلمون أن الأمة كلَّها مع اختلاف أهوائها ونِحَلها ، لا تعرف عمّا تدَّعون من أمر النَّصّ والوصيّة قليلاً ولا كثيراً ، وإنما هذه دَعْوى مقصورةٌ فيكم ، لا يعرفها سواكم . وإنَّ أشدَّ الناسِ عليكم في الوصيّة والنَّصّ للزَّيديّة مع تشيُّعها وإفراطها وشدّة إقدامها على عثمان ، وسُوءِ قولها وشدّة عداوتها للزُّبير وطلحة .

فلو كان النبي صلى الله عليه وسلم نَصَبَه للنَّاس وبيّن أمرَه واحتجّ لـه ، لم يكن هناك اختلاف ولا ارتياب ، ولا تحيُّر ، ولا احتجّ بذلك المحجوجون على شاذٍّ إن شذّ ومُفارق . [وفي] هذا وأقلّ منه ما يردَع ذا اللُّبّ ، ويكفُّ ذا الحِجَا .

وزعمت الرَّافضةُ أن النبي صلى الله عليه أوصى إلى رجلٍ بعينه ، وأمر أمّته بالوصية في تركاتهم ، لأنَّ ذلك أجمعُ للشَّمل ، وأدعى إلى الأُلفة ، وأمنعُ

للفساد ، وأقطع للشَّغب ، وأذهَب للضغائن ، وأبعد من الغلَط . إلاّ أنّ الله قد كان يعلم أنّ النبي صلى الله عليه متى أوصى إلى ذلك المستحق تكفُر أمة محمد صلى الله عليه إلاّ ثلاثة أنفس ، وأن الوصيّ سيضعُف عن القيام بالحقّ [وسيترك مع العلم به] إظهاره بلسانه ، وأنّه لا يرضى بالكفّ عن شتمه الكافرين حتى يزكيهم على مِنبره . فسبحان الله ما أعجب هذا القول !

وإن تركوا الكتاب وأضربوا عن الإجماع واحتجّوا بالرواية ، فما أحدٌ أجحدَ لها ولا أردّ لمعرفتها منهم . مع أنّ روايةَ غيرهم أكثر ، وعلى السنة أصحاب الحديث أظهر .

ولو كانت روايتهُم وروايةُ خصومهم سواءً ما كان تأويلُهم بأقطع لتأويل خصومهم من تأويل خصومهم لتأويلهم . مع أنّ الحديث إنْ كان يحتمل ضروبَ التأويل فغلط في حقّ ذلك مِن باطلِه رجلٌ فليس بكافر ولا مكابر ، لأنّ ذلك الحديث لو كان صحيحاً لم يكن بأبينَ من القرآن ولا أوضح .

وقد يختلف الناسُ في تأويله ولا يكفرون ولا يكابرون ، فكيف يكفَّر من غلِط في تأويل حديثٍ لو كان ردُّه لم يكن عاصياً .

وإنْ كانت إمامةُ عليٍّ لا تثبُت عندهم إلاّ مِن قِبل الرِّواية فقد أفلج خَصم الرّافضة ، واستراحَ من كدِّ المنازعة .

وقد زعم ناسٌ من (العثمانية) أنّ الله قد اختار للنّاس إماماً ، ونصب لهم قيّماً ، على معنى الدِّلالة والإيضاح عنه بالعلامة ، لا على النّص والتّسمية ، لأنّ الله إذا قال : ﴿ وأَشْهِدُوا ذَوَيْ عَدْلٍ منكم ﴾ . ـ وقد عرفنا صفة العدالة ـ فمتى رأيناها في إنسان علمنا أنّه الذي كان عَنى الله بالآية وإنْ لم يسمّه فيها . وكذلك قول الرّسول : « ليؤمَّكم خِيارُكم » فقد عرّفنا الله الخِيار من الشّرار ، والفَضل من النّقص ، فمتى وجَدْنا الفضيلة في رجل فهو الذي عناه النبي صلى الله عليه وإن لم يذكره باسمه .

ولا يهمل الناسَ ويتركهم سُدى مَن وضع لهم الأدلّة ، ونبّههم على موضع البرهان ، وعرّفهم أبوابَ الصّلاة .

ولو قلنا إنّ النبي صلى الله عليه قد اختار للناس إماماً على معنى أنّه إذْ أمرَ أبا بكرٍ بأن يتقدّم المسلمين في مُصلاّه ومَقامه ومِنبره فقد استخلفه ، جاز ذلك في الكلام . وباب الجواب في هذه المسائل كثير . لأنّه لا يجوز أن يكونوا لم يعلموا ذلك وقد علموا ما هو أخفى وأدقّ وأيسر خطْباً وأقلّ نفعاً ، وهم القوم الذين لا يُؤتَون من نصيحة وحُسن معرفة . وكيف يُؤتَون منهما وبهم عرفنا النّصيحة والمعرفة .

فإن قالوا : فإنّما كان خيراً للنّاس أن يختاروا لأنفسهم أو يختار النبيُّ لهم .

قلنا : لو كان النبيُّ قد اختاره لهم لقد كان ذلك خيراً لهم مِن اختيارهم لأنفسهم . فإذْ لم يختره لهم فتركُ اختياره خيرٌ لهم ، لأنّه إذا كان أن لو كان اختاره لهم ، فقد دلّ تركهُ الاختيار أنّ تركَه الاختيار لهم خيرٌ لهم ، إذْ كان قد كان اختار التّركَ دون الاختيار ، وتَرْكُ الاختيار رُبّما كان اختياراً . وهو في هذه المواضع اختيار ، لأنّ النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ليختارَ لهم تَرْكَ النّصّ والتّسمية إلاّ وترك النّصّ والتسمية خير من النصّ والتسمية .

وإنما هذا مثل قائل لو قال لنا : أرأيتم التأويل الذي قد ضلّ من أجله عالَم ، والتّشبيه ، والوعد والوعيد ، والقدر ، والأسماء ، والأحكام التي قد كفر من أجلها بَشَر ، وبسببها تناحَر النّاس . وإنما كان خيراً لهم أن يعرفوه بأسْره ، وينصّوا على حقيقته ، ويُكفَوا المَؤونةَ فيه ، حتى كان لا يقعُ خِلاف ، ولا يوجد خطأ ، ولا يَشيع فساد ، ولا يتفانى الناس أو يُتركُوا ونظَرَهم ، ويُخَلّوْا واختيارهم .

قلنا : الخِيرَةُ فيما صنع الله ، فلو كان الله بيّنَ ذلك بالنصّ والتّفسير دون الدّلالة ووضْع العلامة ، كان ذلك خِيرَة ، لأنّا نعلمُ أن الله لا يصنع إلاّ ما هو

خير .

فلو لم يفعل ذلك ولم ينصّ عليه فتركُه الأمرَ على ما نحن عليه خيرٌ لنا وأفضل . فكيف أوجبتم على الله وحكمتم عليه .

* * *

[٧٣ - خاتمة]

هذا جُمَل جوابات العثمانية بجمل مسائل الرّافضة والزيديّة . ولولا أنّ فيما قدّمنا غِنى عمّا أخّرنا لقد فسّرنا كما أجملنا . وإنما مِلاك وضْع الكتاب إحكامُ أصله ، وألاّ يشذّ عنه شيء من أركانه . فأمّا استقصاؤه حتى لا يجري بين الخصمين منه إلاّ شيء قد وُضع بعينه ، فهذا ما لا يمكن الواضعَ ولا يحتملُ الكتابُ . ولو أمكن الواضعَ واحتمله الكتاب لكان طولُه قاطعاً لنشاط القارىء ، ومَجلبةً لنُعاس المستمع ، إلاّ لمن صحّت إرادته ، وأفرطَتْ شهوتُه وقوِيَ طبعُه ، وحسن احتسابه .

وقد أعيَتْنا هذه الصّفةُ في المعلّمين ، فكيف [في] المتعلمين .

وعلى أنّ للنِّحَل صوراً كصور النّاس ، فكما أنّ بعضَ الصُّور أشدُّ مشاكَلة لطبعكَ ، وآنقُ في عينك ، وأخفُّ على نفسك ، فكذلك النِّحَل في مقابلة الأهواء ، ومشاكلة الشُّهوات ، والخِفّة على النُّفوس .

فاحذر حوادث الشُّهوات ، واتصال المشاكلة ؛ فإنّه أخفى من الدقيق ، وأدقّ من الخفي :

هذا إذا كان المعنى مجرّداً والمذهبُ عارياً ، فكيف إذا موّهه صاحبُه ، وزخرفه واضعُه ، بأعذب الألفاظ وأشهاها ، وأحسن المخارج وأعفاها فشغى كلُّ واحدٍ منهما صاحبه ، وحبّبه إلى سامعه . فإن وافق ذلك منه تعظيمٌ لسَلَفه ، وهوى في قائله ، فقد أسمحت نفسُه بالتّقليد ، واستسلمت للاعتقاد .

فاحذر في هذه الصّفة ، ولا تستخفَّنَّ بهذه الوصيّة .

واعلم أنّ واضع الكتاب لا يكون بين الخصوم عدلاً ، ولأهل النّظر مألفاً حتى يبلغ من شدة الاستقصاء لخصمه مثلَ الذي يبلغُ لنفسه ، حتّى لـو لم يقرأ القـارىءُ من كتابه إلاّ مقالةَ خصمِه لخُيّل له أنه الذي اجتباه لنفسه ، واختاره لدينه .

ولـولا اتُكالي عـلى انقـطاع البـاطـل عن مَـدَى الحقّ وإن استقصيتُـه وبلغت غايته ، ما استجزت حكايته ، وقُمت مقام صاحبه .

ونحن مبتدئون في كتـاب المسائـل وبالله ذي المَنّ والـطَّول نستعين ، وعليـه نتوكل .

هذه جمل أقـوال العثمانيـة ، والحمد لله كثيـراً دائماً ، وصـلى الله على سيّـدنا محمـد نبيـه ، وآلـه الـطّاهـرين وصحبـه ، وسلمّ تسليماً .

هامش رسالة العثمانية

(١) المقدمة مجتزأة ومرتجلة لا تتجاوز سطراً ونيفاً ، وربما لم تكن من وضع الجاحظ .

(٢) يضع الجاحظ شرطين لصحة الخبر او الشعر هما امتناع التباعد او الاختلاف في الرواية ، وامتناع التواطؤ والاتفاق بين المخبرين . قارن هذا الرأي برأيه في صحة الاخبار الوارد في كتاب حجج النبوة حيث يستبعد تواطؤ كثرة الناس المختلفي الديار على الكذب .

- المجادل تعني المناظر او الخصم .

- القضية تعني المسألة او الرأي المدافع عنه ولا تعني الحكم المنطقي .

(٣) القياس ان يؤخذ باوسط الروايتين . يطبق الجاحظ اصل المعتزلة المنزلة بين المنزلتين اي التوسط وعدم التطرف .

- لاحظ الدقة في استعمال التاريخ .

(٤) « نتكلم على ظاهر الاحكام وما شاهدنا عليه طباع الاطفال » يصدر الجاحظ عن المبدأ الطبيعي في فلسفته . فهو يحكم الطبيعة في كل شيء .

(٥) في تمييز علي الحدث آية على مباينته الناس وخروجه على طبعة الاشياء .

(٦) الاعجوبة لا يبتدعها الله ويخرق بها العادة والطبيعة الا للتعريف والاعذار كما فعل عندما انطلق عيسى في المهد ، وعندما اتى زكريا الحكم وهو صبي . لاحظ تقييده الاعجوبة اوتضييق نطاقها وقارن ما قاله الغزالي بصدد الاعجوبة .

(٧) يستعمل الجاحظ الشيع بدل الشيعة للاشارة الى كثرة فرقهم ، كما يستعمل احياناً لفظة العلوية بمعنى الشيع .

(٨) اذا كان اسلام زيد وخباب افضل من اسلام علي لأن له ظهراً وهما تابعان لا ظهر لهما ، واذا كان اسلام ابي بكر افضل من اسلامهما ، فان اسلام ابي بكر أفضل من اسلام علي . هذا القياس الشرطي المتصل مغلوط .

(٩) لاحظ المقارنة الدقيقة بين ابي بكر وعلي .

(١٠) لاحظ استعانة الجاحظ بالمؤرخ محمد بن اسحق (١٥١ هـ) والمؤرخ محمد بن عمر الواقدي معاصر الجاحظ (٢٠٧ هـ) .

ـ قوله : « لأن العقل وان اشتد مغرزه وثبتت أواخيه وجاد نحته فانه لا يبلغ بنفسه درك الغاية دون كثرة السماع والتجربة » . دليل على اعتقاده بضرورة التجارب في المعرفة وعدم الاكتفاء بالعقل .

(١١) « اسلم على يد ابي بكر خمسة من الشورى » يعني بهم عثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن ابي وقاص . وهم الذين عينهم عمر بن الخطاب بالإضافة الى علي بن ابي طالب ليختاروا من بينهم الخليفة بعده .

(١٢) لاحظ التناقض بين ما يزعمه العثمانية من بذل ابي بكر في سبيل الاسلام وما يزعمه الأسكافي من أنه باع من النبي بعيرين وقبض منه ثمنهما .

(١٣) لاحظ خلاف المؤرخين حول المدة التي قضاها النبي في مكة من مبعثه الى هجرته : ١٥ سنة او ١٣ سنة ، او ١٠ سنين .

(١٤) المقارنة بين نوم علي في فراش النبي ، ومرافقة ابي بكر للنبي عندما هاجر من مكة الى المدينة ، من حيث التضحية في سبيل الاسلام .

(١٥) ليست الفروسية مقياساً للفضل في الدين . هذا ما تدعيه العثمانية وترفضه الشيعة رفضاً تاماً .

ـ حروب الفجار ، وحلف الفضول الوارد ذكرهما هنا تحدث الجاحظ عنهما وفسرهما في رسالة فضل هاشم على عبد شمس .

(١٦) الفقه هو العلم بالدين والتأويل والحرام والحلال والفتيا الخ . . واحق الناس بالامامة افقههم بالدين . وعلم الدين اصعب من العلم بامور الدنيا .

(١٧) صلح الحديبية اتفاق بين النبي وقريش على السماح للمسلمين بدخول مكة .

(١٨) لاحظ ما جرى لدى موت النبي . والموقف الذي اتخذه عمر وعثمان بعدم تصديق موت النبي . وموقف أبي بكر الحكيم الرصين .

(١٩) ابو بكر لم يقبل بالغاء الزكاة ، وفي ذلك دليل على بعد نظره وحسن تدبيره .

ـ يميز الجاحظ بين الشيعة وفرقة الرافضة منهم التي تجحد الاخبار المستفيضة ذات الاسانيد المختلفة ، وتقبل بالشاذ منها .

(٢٠) يلقي الجاحظ الضوء على تاريخ تجهيز جيش اسامة لغزو بلاد الروم ، انه حصل قبل موت النبي وانفذ بعد موته .

(٢١) لاحظ كثرة الخلافات بين المسلمين عند موت النبي ، حتى مكان القبر اختلفوا فيه فحسم الأمر ابو بكر بحديث يقول ان النبي يدفن حيث يقبض .

(٢٢) علي يجل ابا بكر ويقول فيه أقوالاً جيلة ولكن الشيعة تعلل ذلك بالتقيه ، وارضاء العامة الخ . . وهذا يدعوا الى العجب .

(٢٣) صدق الظن فضيلة عند ابي بكر ومثل ابنته عائشة دليل عليه .

(٢٤) لأن علياً امتاز بالفقه لذا تقلل العثمانية من شأن الفقه ، لأن الفقيه يخطىء ويصيب .

عرف بالفقه عدا عليا ، عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت وعبد الله بن مسعود وابي إبن كعب، ومعاذ بن جبل .

(٢٥) يحدد الجاحظ هنا موضوعات الفقه وهي : حفظ القرآن ، والقراءة ، والتأويل ، ورواية الحديث .

ـ العثمانية ترد مقرونة بالعمرية : « اذا كنا عثمانية وعمرية » .

(٢٦) تصور علي في السياسة ـ وهي تعني الاختيار وجودة الرأي والقوة في السلطان ، والضبط للعدو والعوام ـ عن ابي بكر وعمر .

(٢٧) ما هو مقياس الزهد ؟ الزهد برأي العثمانية هو انفاق المال بحيث لا يبقى منه شيء . وهذا ينطبق على ابي بكر وليس على علي الذي مات عن ثروة .

(٢٨) عيب علي بكثرة النساء اللائي تزوجهن وطلقهن .

(٢٩) وعيب بانه أخذ عمالته من بيت المال على عكس ابي بكر .

(٣٠) الدليل على فضل ابي بكر كثرة الآيات التي نزلت فيه .

(٣١) آية الغار ﴿ الا تنصروه فقد نصره الله إذْ أخرجه اللذين كفروا ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه وايده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم ﴾ (التوبة ، ٤) .

(٣٢) آية الصفح عن مسطح بشأن قرف عائشة : ﴿ ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة ان يؤتوا اولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله وليعفوا وليصفحوا الا تحبون ان يغفر الله لكم والله غفور رحيم ﴾ (النور ، ٢٢) .

(٣٣) آية الوالدين : ﴿ والذي قال لوالديه أف لكما اتعدانني ان أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن ان وعد الله حق فيقول ما هذا الا اساطير الاولين ﴾ (الاحقاف ، ١٧) .

والآية : ﴿ افمن يمشي مكباً على وجهه اهدى ام من يمشي سويا على صراط مستقيم ﴾ نزلت في ابي بكر وابي جهل .

والآية ﴿ فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى ﴾ .

(٣٤) الآيات التي تقول الشيعة انها نزلت في علي كثيرة منها الآية : ﴿ اطيعوا الله واطيعوا الرسول واولي الامر منكم ﴾ (النساء ، ٥٩) .
(٣٥) والآية : ﴿ يا ايها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ﴾ (البقرة ٢٠٨) .
(٣٦) والآية :
﴿ انّما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلوة ويؤتون الزكاة وهم راكعون ﴾ .
(٣٧) والآية ﴿ قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب ﴾ . (الرعد ، ٤٣) .
(٣٨) أسماء أبي بكر : الصديق ، وخليفة رسول الله . . .
- يقرن العثمانية بالحشوية .
- الروافض تحتج بشعر رشيد الهجري (قتله زياد ابن ابيه) ، والسيد الحميري ، ومنصور التمري . ولا تحتج بشعر حسان بن ثابت والعجاج والحارث بن هشام واشباههم .
(٣٩) الامام هو الأمير والرئيس « وكان ابو بكر الامام وعلي المأموم » .
(٤٠) الامام استعملت هنا بمعنى من يتقدم الناس في الصلاة « . . حيث امره ان يؤم الناس ويقوم مقامه في صلاته وعلى منبره » .
(٤١) الاحاديث التي يرويها الشيعة في تفضيل علي اهمها حديث غدير خم : « من كنت مولاه فعلي مولاه . اللهم عاد من عاداه ووال من والاه » وحديث هارون : « انت مني بمنزلة هارون من موسى ، الا انه لا نبي بعدي » .
وحديث الطير : « اللهم آتني باحب الناس اليك يأكل معي من هذا الطير » .
(٤٢) الاحاديث التي يستند اليها ،عثمانية في تفضيل ابي بكر اهمها - حديث الخليل :
« ليس أحد امن علينا بصحبته وذات يده من ابي بكر ، ولو كنت متخذاً من هذه الأمة خليلاً لاتخذت ابا بكر خليلاً ، لكن وداً وأخا ايمان » .
- وحديث الاقتداء : « اقتدوا باللذين من بعدي ، أبي بكر وعمر » .
- وحديث كهول الجنة : « هذان سيدا كهول أهل الجنة من الاولين والآخرين ، الا الانبياء والمرسلين ، يا علي لا تخبرهما» . يعني ابا بكر وعمر .
- وحديث الحجارة : « هم امراء الخلافة من بعدي » يعني بهم ابا بكر وعمر وعثمان وقد وضع كل منهم حجراً في اساس مسجد المدينة متابعين النبي في ذلك .
- وحديث جبريل : « مثل أبي بكر في الملائكة مثل ميكائيل ينزل بالرحمة ، ومثله في

الانبياء مثل ابراهيم ، ومثل عمر في الملائكة مثل جبريل ينزل بالسخط وفي الانبياء مثل موسى . . . » .

- وحديث الصدق « ايها الناس ان الله بعثني اليكم جميعاً فقلتم : كذبت ، وقال صاحبي : صدقت ، فهل انتم تاركي وصاحبي ؟ » .

- وحديث اللعثمة « ما دعوت احداً الى الاسلام الا وقد كان له تردد وكبوة ، الا ما كان من ابي بكر ، فانه لا يتلعثم » .

- وحديث الاساءة « ان ابا بكر لم يسؤني قط ، فاعرفوا ذلك له » .

(٤٣) موقف الجاحظ من هذه الاحاديث : انه يشك فيها لأنها متناقضة . وثمة احاديث يستشهد بها الجاحظ للدلالة على نحلها مثل « ابو سفيان خير اهلي » . ومثل « خير اهل الله عمر بن الخطاب » .

- انقسم الناس في عصره قسمين : عمري وعلوي . العمري يقدم ابا بكر والعلوي يقدم علياً .

- فالله اعلم بمعاني هذه الاحاديث ، فلعل النبي صلى الله عليه قال في كل رجل قولاً عدلاً ، وكان ذلك قولاً معروفاً مفهوماً عند الحاضر ، ولكنه أدى اللفظ وترك المعنى » .

ويقترح الجاحظ . حلاً لهذه المشكلة وهو عدم قبول الخبر الذي لا يجيء مجيء الحجة « وانما الخبر الصحيح الذي لا يعتمد بضعف الاسناد ولا يترك لضعف الاصل ، ولا يوقف فيه لكثرة المعارض والمناويء . . . » .

(٤٤) نقد الحديث : من كنت مولاه فعلي مولاه » . من حيث الاسناد والنص والمعنى .

- الروافض يقولون ان النبي نص على امامة علي: «ثم لا بد للناس في كل عصر من امام من ولده نص عليه من سلفه لأن الناس لا يقو ون على اختيار الامام الصالح « لكثرة عددهم ، ولكثرة عدد الفضل ولما في ذلك من الاشكال عند الموازنة والشغل عن العدو » .

(٤٥) نقد حديث « انت مني كهارون من موسى » . من الناحية التاريخية : موت هارون قبل موسى ، ومن الناحية المعنوية .

(٤٦) تأويل حديث امرة ابي بكر في الصلاة . « مروا ابا بكر يصلي بالناس » . وانظر ما قاله النبي وهو يلفظ انفاسه الاخيرة بشأن ملاك الموت .

- « ان رعية ابي بكر هم رعية عمر » .

- الاستخراج لا يكون الا من عيان او خبر » . قارن هذا بما جاء في مقدمة « حجج النبوة » .

(٤٧) الاجماع على البيعة ، هل تحقق لابي بكر ؟ وهذا الاجماع لم يتحقق لعلي ايضاً .

- اصحاب الشورى كسعد بن ابي وقاص وطلحة والزبير يطالبون علياً بالعمل بها بعد مقتل عثمان ومطالبة علي اياهم بمبايعته .

(٤٨) تأويل قول ابي بكر : منا امير ومنكم أمير . القول ضد الشيعة .

(٤٩) تأويل قول سلمان « كرداذ ونكرداذ » صنعتم وما صنعتم . هل كان العرب يعرفون الفارسية ؟

(٥٠) موقف بلال من ابي بكر وعمر ، لقد كان مقرباً منهما وقد تولى لهما دمشق .

(٥١) موقف المقداد من ابي بكر لا يستند الى اي قول نطق به ، ثم قصة المقداد وعلي بشأن ضباعة بنت الزبير التي خطبها المقداد وارادها علي لنفسه . وموقف النبي المؤيد للمقداد .

(٥٢) موقف عمار بن ياسر من ابي بكر ربما كان انسحاباً لموقفه من عثمان الذي اذاه . وقد خطب عمار على منبر الكوفة تأييداً لعمر .

(٥٣) موقف ابي ذر من عمر . العثمانية تقول ان ابا ذر كان يحب عمر والشيعة تقول انه كان يحب علياً ويكره عمر .

(٥٤) معنى كلام سلمان « انكم قد اقمتم عجزياً وتركتم من هو أجزأ منه » لا ينطبق في نظر العثمانية على ابي بكر لأنه لم يترك خللاً لم يسده . . » .

- « وسنخبر عن مقالة العباسية ووجوه احتجاجهم بعد فراغنا من مقالة العثمانية ، بغاية ما يمكن من الاستقصاء ، وانصاف البعض من بعض ، لتكون انت المختار لنفسك بعقلك . . » .

يستنتج من هذا القول ان الجاحظ وضع رسالة العباسية بعد رسالة العثمانية ، وانه انصافاً لهم يستقصي اقوالهم جميعاً ، وعلى القارىء الحكم . وبذلك يعلن حياده من جميع هذه الفرق والاحزاب .

(٥٥) موقف خالد بن الوليد من بيعة ابي بكر : بايع بعد تردد . لاحظ أثر ذلك على مستقبل خالد في قيادة الجيوش وعزله .

(٥٦) الاجماع على الخليفة مستحيل وقد علل الجاحظ ذلك بقوله : « وكيف يتفق اطباقهم على سكون واحد والناس من بين حاسد وراض ، وعصي وتقي ، وحليم وسخيف ، وغالط ومصيب ، وعاقل واحمق ؟ »

(٥٧) تأويل قول ابي بكر « كانت بيعتي فلتة » لأن اجماع الناس عليه شاذ بسبب اختلافاتهم وتباين آرائهم واهوائهم .

(٥٨) الرئاسة تستند الى الدين لا القرابة . وبهذا يردون نظرية العباسية المستندة الى

القرابة ونظرية الشيعة المستندة الى النص والقرابة .

(٥٩) دعوة العثمانية الى المساواة بين الناس يخالف الحديث الذي استندوا اليه « الائمة من قريش » . وهم يفهمون بها ان القرابة لا تغني المرء نفعاً تجاه الله . وان ليس للانسان الا ما سعى ويستشهدون بالآية ﴿ يا ايها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يجزي والد عن ولده ، ولا مولود هو جازٍ عن والده شيئاً ﴾ .

(٦٠) موقف عمر من العرب والعجم يستحق الوقوف عنده . فالشيعة يتهمونه انه فضل العرب على العجم . والعثمانية تجد لموقفه مبررات عدة .

وانظر قول الجاحظ « والعجمي ليس بذي بصيرة في الاسلام . . . وهو اجدر الا يفهم تنزيلاً ولا تأويلاً » .

(٦١) اتهام عمر من قبل الشيعة بانه صاحب حمية لقرابته وللعرب . يجابه من قبل العثمانية بقولهم أن مذهب الشيعة قائم على التعصب للقرابة .

- لاحظ دور الشعوبية في الصراع بين ابي بكر وعمر وعلي « والذين نحلوا عمر العصبية رجلان : رافضي أحب أن يمقته الى العجم والموالي ، ومتعرب عرف ان عمر عند الناس قدوة فنحله ذلك ليكون له حجة ، فاعرف ذلك » .

(٦٢) قصة الزبير الذي سل سيفه عند مبايعة ابي بكر وتأويلها .

(٦٣) تأويل قول ابي بكر « وليتكم ولست بخيركم » . بمعنى انه يهضم نفسه تواضعاً . هكذا فسره الحسن البصري .

(٦٤) تأويل قول ابي بكر « بايعوا اي هذين شئتم » ، يعني عمر وابا عبيدة ، بانه كان زاهداً في الخلافة . وهذا ما يفهم من الخطبة التي القاها بعد توليته .

(٦٥) أقوال علي في عمر كما يسوقها العثمانية .

(٦٦) خلاصة آراء الشيعة والعثمانية : موجز لما ورد في الكتاب .

(٦٧) جدل الشيعة والعثمانية حول اسلام ابي بكر : تكرار لما سبق .

(٦٨) ضرورة اقامة الامامة يشكل القسم الأخير من الكتاب . وفي هذا القسم يدلي الجاحظ برأيه الخاص في موضوع الامامة بعدما انتهى من عرض اقوال العثمانية والشيعة .

وهو يرى ان العامة لا تصلح لجهلها لاقامة الامام . وعلى العامة ان تطيع الخاصة وتأتمر باوامرها ، والعامة من الخاصة بمثابة الجوارح من النفس . ودور العامة هو الدفاع عن الخاصة كالسلاح بالنسبة للفارس والفأس بالنسبة للنجار .

- ان العامة يعرفون التنزيل المجرد بغير تأويله ، وجملة الشريعة بغير تفسيرها ، وما انجلى من الخبر واستفاض . ويجهلون التأويل والتفسير وغامض السنن التي تحملها

الخواص . كما يجهلون الكلام في القدر والتشبيه والوعد والوعيد والاستطاعة والتكليف .

ـ ان طبائع العامة دون طبائع الخاصة وفوق طبائع المجانين والاطفال . والناس مسخرون لطبائعهم ولهم منازل من الفضل حسب تلك الطبائع من بخل وسخاء ، وبلادة وذكاء ، وطيش وحلم الخ . . ان الجاحظ يرجع كل شيء الى الطبائع وفق فلسفته الطبيعية .

ـ وقد عالج هذه المسألة أي معرفة الاشياء في كتاب المعرفة مما يدل على انه وضعه قبل رسالة العثمانية .

(٦٩) ان الخاصة مكلفة باقامة الامام اذا امكنها ذلك ولم تحل الموانع دونها .

(٧٠) كيف يعرف الامام ؟ كما عرف عمرو بن عبيد والحسن بن صالح بن حي الهمذاني عند الزيدية (١٦٩ هـ) ومرداس بن ادية عند الخوارج . يعني ان الامام هو من يشتهر بعلمه وكماله وفضله .

(٧١) وجوه ثلاثة لاقامة الامام : الوجه الذي تبناه اعلاه ، والوجه الذي تمت به بيعة ابي بكر ، والوجه الذي تمت به بيعة عثمان من قبل اصحاب الشورى الستة .

(٧٢) يرفض الجاحظ نظرية الشيعة في الامامة القائمة على النص والقرابة .

(٧٣) في الخاتمة يشير الجاحظ الى انه لم يستوف جميع اقوال العثمانية والرافضة ـ واكتفى بالاصول والاركان ـ لكي لا يطول الكتاب فيمله القارىء . ويشبه النحل بصور الناس « فكما ان بعض الصور أشد مشاكلة لطبعك وآنف في عينك واخف على نفسك ، فكذلك النحل في مقابلة الاهواء ومشاكلة الشهوات والخفة على النفوس » .

هذا تشبيه جميل يشير الى رأي الجاحظ في موقف الناس من الفرق والاحزاب . ان موقف الناس تحدده طباعهم التي فطروا عليها ـ وفي ذلك عودة الى مبادىء فلسفته الطبيعية ، ولا تحدده عقولهم .

ومن ثم يحذر الجاحظ من الاهواء ، ويدعو الى اعمال العقل في تفحص الصحيح وكشف المزيف لأن المذاهب يغلب عليها التمويه والزخرفة فتخدع وتغوي .

ويعلن أنه استقصى لخصمه بدافع العدالة . وهذا الاستقصاء هو الذي دفع البعض الى الاعتقاد بان ما ورد في كتابه هو « الذي اجتباه لنفسه واختاره لدينه » . وهذا اعتقاد خاطىء .

- ٤ -

رسالة في الحكمين وتصويب أمير المؤمنين علىّ بن أبي طالب في فعله

[١ - موضوع الرسالة]

وفّقك الله للسلامة والغنيمة ، وأعزّك بالحقّ ، وختم لك بالسعادة ، وجعل لك من عليك واعظاً ورقيباً [و] من نفسك سامعاً ومُطيعاً ؛ وجعل لك مع حزمك نصيباً من التوكل ، ومع توكُّلك حظّاً من التحذُّر ، حتى تقبل إذنه في الحَذَر وتطيع أمره في التوكُّل ؛ قد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اعقِلها وتوكَّلْ »، فجمع بين الأمرين وسوّى بين الوصيَّتين ، وقال صلى الله عليه وسلم : « أبلِ الله من نفسك عُذراً ، فإذا أعجزك أمر فقُل : الله حسبي »، قال أبو عبيدة ابن الجرّاح لعمر بن الخطّاب حين خاف طواعين الشام فانكفأ راجعاً إلى المدينة : « أتفرّ من قَدَر الله ؟ » - قال : « نعم ، إلى قدر الله ! » وقال له سعيد بن جرير : « قُم ، أينفع الحذر من القدر ؟ » - فقال : « لسنا ممّا هناك في شيء ؛ إنَّ الله لا يأمر بما لا ينفع ولا ينهى عمّا لا يضرّ ».

وقد كنتُ حذَّرتُك ، يا ابن حسّان ، أموراً ، فكأني أغريتُك بها ، وآنستُك بأمور ، فكأني أوحشتُك منها ، وكنتُ لا أظنّ بك من النقصان إلّا ما كان عن بلوغ الكمال ، ولا من التقصير إلّا ما كان عن التفضل ، ولا من تضييع الرأي إلّا ما أمكن من استدراكه قبل الفوت ، ولا من نكوب ما لا يبلغ الكثير إلّا ما لا يسبق الندم ، ولا من النسيان إلّا ما لا يمنع من سرعة الانتباه ، ولا من السآمة إلّا ما لا يقرّب من المعجزة ، ولا من الحميّة إلا ما لا يخلط العصبيّة ،

ولا من التنافس إلاّ ما باعد عن التحاسُد ، وكنت عندي ، إن لم تكن مع العلية ، فلم تنحطَّ عن الأوساط إلى السفلة ، وإن رضيتَ بحال المنفصلين ، لم ترضَ إلاّ أن تكون مع المُنصفين ، وإن لم تكن غنيّاً لُمخالفيك عند مناظرتهم لك ، ورائداً لُموافقيك عند استعانتهم بك ، وآلةً لمَن استعمل منك ، ومفزعاً لمن سمع إليك ، وحِرزاً لاسرار خصمك ، وحائطاً من وراء مَن ذهب من الناس عنك ، لم تكن عندي بمخوف على ما انتهى إليَّ من خبرك ولا على ما حكاه من لا يُتّهم على مودّتك .

ـ عتبتُ عليك في مجادلة الرافضة ، فأعتبْتَني بممارة الغالية ، وأنكرتُ منكَ مقارنة الخوارج ، فأردفتَ ذلك بمسامحة النوابت ، حين زعمتَ في جواب مسألة النابتيّ أنَّ عليّاً كان أحقَّ بالإمامة من معاوية ، وزعمت في جواب الخارجي أن رضاه كان هفوةً منه ومكيدةً من عدوّه ، إلاّ أنّها الهفوة التي تبلغ الضّلال، والفهمة التي لا تفسد الحكم، والنقصان الذي لا يكملُ معه حل العقد، والتضييع الذي لا ينقض معه العهد .

ثمَّ قطعتَ الشهادة وأوجبتَ الحكومة أنَّ علياً قال عند موته وأقرَّ عند زلله :

إنّي عثرتُ عثرةً لا تَنْجبِرْ ... سوف أكيس بعدها وأستمِرْ
وأجمعُ الرأيَ الشتيتَ المنتشِر

ثمَّ قضيتَ بعد قطع الشهادة والحكم على غائب الفعل بأنه لم يعن بذلك القول إلاّ الرضى بالحَكَمين ، وجزمتَ على أنّه لا تأويلَ لذلك القول إلاّ ما ذهبتَ إليه ولا معنى له إلا ما قضيتَ به .

فأجمع الآن بالك في الاستماع للحقّ كما جمعتَ بالك في الاجترام على الباطل ، وفرّغ قلبك لِما أنا واصفه لك ومقرّبه من عقلك ؛ فإن أعجزك الفهم فليس يُعجزك التفهُّم ، وأوّل منازل الإنصاف حسنُ التثبُّت ، ونعمَ الرائد التفهُّم ونعمَ العون حبُّ الإنصاف ! وقال يزيد بن المهلّب : « هذا ابن

الأشعث غلب على النصر فغُلب على الصبر »؛ فاحذر أن يُقال : « هذا ابن حسّان غلب على العلم فغُلب على التعلّم ! »، وقد قال عامر بن عبد القيس : « الكلمة إذا خرجت من القلب وقعتْ في القلب ، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان » .

وقد عُلم أني شديد الحبّ إلى رَشادك ، حريصٌ على هدايتك ، وأنا بعد ذلك كله أسأل الله أن يديم لك العصمة وأن يوفقك للمعرفة ، وقد قال بعض العلماء : « لا تستجب إلا لمخلص أو مظلوم »؛ فأما نيّتي في تبصرتك بابَ الرشد من العيّ فقد تقدَّم القول مني فيها بما سمعت ؛ وأما الظلم فمَن أظلم لصديقه ممّن أفسد نفسه عليه ، ومن أجوَزُ على وليّه ممّن دان بدين عدوّه ؟ ومن التوفير على حظّ هذا الكتاب من الأفهام وعلى حظّك من التفهُّم أن لا يهذّه القارىء هذاً ولا ينثر كلامه نثراً ، فلا يكون نصيب السمع منه إلّا صدى الصوت ولا حظّ العقل منه إلّا استحسان التأليف ؛ فعليك بالتوقُّف وحده بالترسُّل والتثبُّت مع تفريغ البال ونفي الاشغال ومع الاحتراس من دبيب الهوى وفراغ المنشإ .

[٢ - لا وجه للمقارنة بين علي ومعاوية]

خبِّروني أيّ شيء نفيت لعلي بن أبي طالب من الفضل ، وأيّ شيء نفيت على معاوية من النقص حتّى وضعتَ الخيار بينهما وأقررتَ الشبهة في أمرهما من غير إكراه ولا إحلال عُذر ؟ فمَن أعجزُ رأياً ممّن زعم [أنّ . . .] أفضل من سمرة وأنّ سَحبان أخطب من باقِل ، وأن زياداً أدهى من هَبَنّقة ، وأنّ أبا ذَرّ أصدق من مُسيلمة ، وأنّ الجالينوس أطبّ من أبي دينار ! وهل ذلك إلّا في مجرى مَن قال : « أيّما أصدق : المسيح بن مريم أو المسيح الدجال ؟ »، وهل ذلك إلّا كقول القائل : « أيّما أحلى : العسل أم الخل؟ » وليس للخلّ حظ في الحلاوة .

قلنا : فكيف تزعم أنّ عليّاً أولى بالإمامة من معاوية وليس لمعاوية في

الإمامة حظّ ؟ ولقد عجبتُ فطال تعجُبي وشنُعتُ فاشتدّ تشنيعي على النجاشي حيث يقول بفخره على معاوية بعليّ :

نِعْمَ الفَتى أنتَ ، إلاّ أنّ بَيْنَكُما كما تَفاضَلَ قَرْنُ الشَّمْسِ والقَمَرُ

فمَن هذا الذي يقرّ بانه ليس بين عليّ ومعاوية في الفضيلة واستحقاق الإمامة إلاّ بقدر ما بين الشمس والقمر ؟ بل نجعل لمعاوية في ذلك حظّاً ونصيباً ، إلاّ أن نريد مزيد الفرق بين هاشم وعبد شمس ، وبين عبد المطلب وحرب ، وأبي طالب وأبي سفيان ؛ ونذهب إلى البيان والفصاحة ، والفصاحة ممّا قد يتفاضل فيه البرّ والفاجر ويتساوى فيه الجاهليّ والإسلاميّ ؛ وإن أردتُ معرفة ذلك فانظر في كتابي الذي فرقتُ فيه بين قبائل قريش وميزتُ فيه بني عبد مَناف وبيّنت فيه من فضل هاشم وأظهرتُ فيه جَمال عبد المطلب .

أوَ لستَ ، يا ابن حسّان ، قد أطمعتَه في التمثيل بينهما وأقررتَ بالحاجة إلى تمييز حاليهما ، وقد علمنا أنّ الله ـ تعالى قدره ـ قد قال : ﴿ قُلْ أيُّ شَيْءٍ أكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّهُ ﴾؛ وقال : ﴿ أذلِكَ خَيْرٌ أمْ جَنَّةُ الخُلْدِ الّتِي وُعِدَ المُتَّقُونَ ﴾؛ وليس ذلك في موضع الخيار وتمييز الحال من الحال ولا على الموازنة بين أتمّ الخيّرين ؛ [فلولا] اتقاء الله قلتُ مقالة تسير مع الركبان [أفردها] بعليّ ؛ وانّ الرّبيع ابن زياد قال :

عُمارة الوَهّاب خيرٌ من علَسْ وزرعة النسا (؟) شرٌّ من أنَسْ
وأنا خيرٌ منك يا قتب الفَرَس

وإنما هذا على معنى قول عليّ لأجناده ، وكخطبته على أصحابه عند استبطائه إيّاهم وتأنيبه لهم : « أبدلني الله بكم من هو خير لي منكم وأبدلكم بي من هو شرّ لكم منّي »؛ والكلمة تكون جواباً فتدلّ على معنى ، ثمّ تكون ابتداء فتدلّ على خلاف ذلك المعنى ، وتدور دلالتها مع ظاهر الحالات على قدر ما يسبق من المثالات حتى تكون الكلمة كفراً في حال وإيماناً في حال .

فكذلك المجاز والتصحيح ، والتقريب والتبعيد ، والارتجال والتحرير ، والكناية والإفصاح ، والتعقيد والإسجاح ، والخطل والإيجاز ، والإفهام والإلغاز ، والمعاريض والكنى والاستكراه والهذ ، وغير ذلك من أشكال الكلام وحدوده وصوره وأقسامه ودلائله ؛ وقد قال كثير :

فهلّا فِداك الموت من كل ريبةٍ ومَن هو أسوأ منك ذلّاً وأقبحُ

وقال حسّان بن ثابت في بعض ما يصرخ ويناضح عن النبي صلى الله عليه وسلّم :

أتهجُوهُ وَلَستَ لَهُ بِكُفْءٍ فشرُّكُما لخيرِكُما الفِداءُ ؟

وسمع أعرابيّ رجلاً يقول : « الشحيح أعذرُ من الظالم » . فقال : « أخزى الله أمرين خيرُهما الشحّ !

وعتبت عليك في معاونة إبراهيم بن الحسن على ترك القُنوت في مسجد ابن رَغْبان وعلّة البصريين وزاد في التعجُّب منك والإنكار عليك تخذيل خالد الأزلية ، [....] عنه خبّرني ، حدّثني [عن] غدرك إيّاه ؛ فأنت معتزليّ نظاميّ : فكانت محاباة خالد على نصيبه من مذهب البصريّين من القنوت - وليس القنوت من دينه - أوفرَ من محاباتك على نصيبك من مذهب المعتزلة في القنوت - وهو من دينك ؛ وقد علمنا أنّ الذي بناه من ماله وأوقف عليه الغلّات لنوابته بصريٌّ ابن بصريّ ثمّ معتزليّ ؛ على ذلك اشترى الأرض ووضع الأساس وشيّد البنيان وكتب عليه ﴿ إنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ وَالإحسَانِ ﴾ ، وهو الفُضَيل بن عبد الرحمن مولى بني سدوس ؛ ولم يزل المسجد يقنُت فيه الجَبْريّ كما يقنت فيه المعتزلي العدليّ ، ويقنت فيه النابتيّ كما يقنت فيه المعتزليّ ومَن صلّى فيه ، حتى عرضتَ فيه بما دلّ خالداً - بزعمه - على رقّة دينك وسخافة عقلك وحلمك وانفساخ عقدك وسوء المحافظة على نحلتك ، غير مكترث لما نال عِرضك وغير محتفل بما ثلم دينك وساء وليّك وسرّ عدوّك .

[٣ - فضائل معاوية]

ولم أقُل إنَّ معاوية ليس بمذكور بالعقل والحلم وبالدهاء والفهم وبالنكرى والجزم والسودد والعزم ، وبالبيان العجيب والغور البعيد ، وإنّه لم يكن كاتب وحْي الله وصاحب ديوان بيت مال الله ، وإنّ أبا بكر لم يولّه مقدّمة أخيه ، وإن عمر لم يجمع له أرباع الشامات وإنّه لم يعزله إلى أن توفي ولم يغضب عليه مذ رضي عنه ، ولم يكتب له بفضل خصال القضاء وترتيب منازل الحكم ، كما كتب إلى أبي موسى الاشعريّ وإلى قُضاته في الأمصار ورجال الفتيا في الأطراف ، وإنَّ عثمان لم يؤكّد له ما تقدم منهما ويُثبتْ له ما جرى له من قبلهما وزاد في تثبيت عدالته وتزكية بَجالته في سني الجماعة وسني الاختلاف ؛ وأدنى حالاته أن يكون مؤمناً غير فاسق ووليّاً غير عدو وعدلاً غير مزوّرٍ ، مع علمي بأنّهم لم يكونوا ليولوا الثغور والاحرام والإمارات العظام إلاّ القويَّ الأمين وصاحب الرأي الرصين .

[٤ - اسس استحقاق الامامة بنظر الجاحظ]

ولكنَّ الخلافة ، يا ابن حسّان ، لا تُستحقّ والامامة لا تُستوجب إلاّ بالتقدُّم في الفضل والتقدُّم في السوابق ، وإلاّ بان يكون الفضل إمّا ظاهراً للعيون ومشهوراً عند جميع المسلمين قد أجمعوا على تقديم رجل وتأمير أمير من تلقاء أنفسهم بغير سيف ولا خوف ولا إكراه ظاهر ولا سبب يوجب سوء الظنّ فضلاً على غير ذلك ؛ وإمّا بأن يختاروه عن تشاوُر وتناظر ويظهر فضله بعد طول التخابُر ؛ أو يكون له ذلك [في] مصره دون رهطه بميراث العمومة ويستحقُّها كما تُستحقّ المقامات الموروثة ؛ أو يكون ذلك من جهة وصيّة أو وراثة مشهورة ؛ أو يكون ذلك نتيجة خصال كريمة لاقت القرابة وحرمة العِترة ، فبلغ صاحبها باجتماع الخصلتين ما لا يبلغه صاحب الواحدة ويكون مقنعاً للإلف لأنّه أمسّ بالمعدن وأقرب من صاحب المقام وأحرى أن لا يخفى مكانُه على بعيد

الدار ، كما لا يأنف منه العظيم الكبير ، وإن كان نصيبه من الطاعة دون نصيب كثير ممن لا يجري مجراه في شرفه ولا يشاكله في موضعه ؛ وهذه الأركان تجتمع على جميع المقالات إلّا ما لا يعدّه المتكلمون قولاً وكان عندهم عارضاً بهرجاً .

[٥ ـ معاوية لا يستحق الإمامة]

ولم نجدهم ادعوا لمعاوية إلّا أنه كان رجلاً من عرض المسلمين وصالح الطلقاء وكاتب الوحْي ، فقد كتبه قبله من قد علمتم : ابن أبي سرح ثمّ كان من أمره ما كان ، وكتبه علي بن أبي طالب وكتبه حنظلة الكاتب الأُسيديّ وكتبه زيد بن ثابت ، فلم نجد أحداً جعل كتابتهم للوحْي سبباً الى ادّعاء شيء من مراتب الإمامة وطبقات استحقاق الخلافة .

وأمّا قولهم « خال المؤمنين »، فأنّه إنما يكون خالاً لو كان كون امّ حبيبة أمّاً للمؤمنين من طريق النسب لا من طريق تحريم النكاح والتعظيم لحقوق الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ولو كان قولهم قياساً مقبولاً وتأويلاً معقولاً لكان أبو بكر وعمر وأبو سفيان أجداداً للمسلمين ، ولكان جميع ولد أبي بكر وعمر أخوالاً للمسلمين ، ولكان سالم بن عبد الله ابن خال المسلمين ، وهذا حمل في الاحتجاج به سفه والقائل به إما ساقط العقل وإمّا ظاهر العبث .

وإن كان معاوية قد كان سكن إلى هذا القول وكان هذا القول قد قيل في تلك الأيام ، فما كان ذلك منه إلّا من خوف شديد وحاجة مفرطة ؛ ولو كان للمسلمات خالاً لَما جاز له أن ينكحهن ، وهذا رأي ساقط ومذهب فاضح .

[٦ ـ معاوية يدعي استحقاقه الامامة لأنه يطالب علياً بدم عثمان]

وليس ينبغي لمعاوية ان يُحمد على ما اتّفق له من أسباب القوّة وتهيّأ له من الملك إلّا قَتَلَة عثمان والذين صاحوا يومَ قالوا : « أخرجوا لنا قتلة عثمان ! ».

ـ فقالوا : « كلّنا قتلة عثمان ! »، لأنّ عثمان لو لم يُقتل لم يمكنه أن يوهم أغمار الأمّة وأغثار أهل الشام والقابلين والمفتونين من الأعراب وأشباه العرب أنّ عليّاً هو الذي قتله أو كان السبب [لقتـ] ـله عندهم من جهة الشبهة على أهل الغباء والغفلة أو على مَن يُعميه هواه أو يلي جدّه ، وصار مَن قتل إمام المسلمين يتبرّأ عندهم ممّن قتل رجلاً من عرض المسلمين ، وقاتِلُ المؤمن عندهم ضالّ والضالّ لا يكون شاهداً فكيف يكون عندهم حاكماً ؟ ومَن لا يجوز أن يكون عندهم حاكماً فكيف يجوز أن يكون عندهم إماماً ؟

[٧ ـ معاوية يستغل موقف سعد وابن عمر ويفيد من اختلاف جند علي واتفاق جنده]

فلمّا فرغ من تثبيت ذلك عندهم وهُمُهم أنّ مَن منع الضالّ من الإمامة أحقّ منه بالإمامة ، وأنّ أولى الناس بمقام الإمام مَن انتدب للطلب بدمه وبذل في ذلك نفسه لأخذ الحقّ منه لولده ووليّ دمه ، فلما فرغ من ذلك وفَهمهم وثبتت عندهم أنّ مَن دان بدين سعد وذهب مذهب ابن عمر ممّن لا يرى قتال « الفئة الباغية » ويقول : « كُن عبد الله المقتول » لا يرى طلبها ولا الدفع عنها إلاّ بالكفّ دون البسط وإلاّ بالجدال دون القتال ـ وعلى أنّ عليه إن ظنّ أنّ الجدال يؤدّي إلى شيء من القتال أن يكون أترك الناس للدعاء إليها والإحواج لها فضلاً على غير ذلك من الأمور [. . .] .

هذا مع ما عليه من طبائع الناس من حبّ المال والعلوّ في الحال وأنه متى لم يرغهم السوط وينهكهم السيف فالأمر مَريج والفساد شامل والحروب أكيدة والفتن شائعة والأمر مضاع والحقّ مقموع ، ومَن عزّ بزّ ومَن قلّ فلّ ومَن قلّ أُكِل ومَن ظهر قتل ؛ فالإمام ما لم يحم مكانه وثغر سلطانه فمغلوبٌ معزول ومطلوب مقتول ، والرئيس ما لم يذُدْ عن حوضه ويحام عن عشيرته فمسلوبٌ مغلول أو [مـ] ـشلو[ل] مأكول على الدنيا ولم يكن معنى قطّ على هذه الصفة

ولا صحّت يوماً قطّ إلاّ على خلاف هذه الحال .

وممّا تهيّأ له من الأسباب واتّفق له من العلل ما كان ظاهراً من رأي سَعْد وابن عمر في تحريم البسط والأمر بالكفّ والنهي عن حمل السلاح والإمكان من الحربة : فاجتمع له السبب الذي به يُوهم موضع دم عثمان ؛ فانّ سعداً ، وإن كان بقيّة الشورى ، فانّ الحق لا يغريه وإنّ الباطل لا يضل به ؛ وعلى هذينَ الاصلين دار [. . . . .] الطمع منه فيها واستجاز الطلب لها والحرص عليها .

ثمّ اتّفق أنّ جنده يمانية إلاّ القليل ، وجند عليّ نزاريّة إلاّ القليل ؛ واتّفق أن كان أهل العراق أصحاب الخواطر والنظر والتأويل والقياس ، ومع هذه الصفة يكون الاختلاف إذ كانوا عرباً وأعراباً وعهدهُم بالجاهليّة قريب وتعظيم الرؤساء فيهم غير قديم ؛ وأهل الشام هم في قلّة الخواطر والتنقير وفي قلّة الفطنة والتفتيش على خلاف ذلك ؛ وكانوا ملوكاً وأجناد ملوك أو قرابين ملوك ، لا يعرفون إلاّ طاعة الملوك والكبراء واتّباع الرؤساء ؛ وقد علمتَ أنه متى أطاع الجندُ الرئيس والرئيس يصيب الرأي ، فكلّهم رئيس وكلّهم مصيب ومع الإنصاف تجتمع القوّة ويقوى الضعيف ، ومع الاختلاف ينتثر الأمر وتنْكيت القوّة ؛ وقيل لرجل من عبس : « كيف نهضتم بالعمائر الكبار على الألوف ؟ » ـ قال : « كان لنا رئيس يصيب الرأي وكنّا له تبعاً فكنّا ألف رئيس » .

وجند عليّ بن أبي طالب من ربيعة ومُضَر ، وهم كانوا أصحاب التحارُب في الجاهلية والتجاذُب ، وفيهم كان التحالُف والتجاورُ ، وهم كانوا أصحاب الغزو والغارات والسبي وطلب الطوائل ، وأكثرهم أصحاب وبَر وعُمد وصحارٍ ، وأقلّهم أصحاب المَدَر والمحالّ ، وأكثرهم أصحاب الحَذر والنجعة والفقه والمواثبة [؟]؛ ومع الحاجة يكون الطلب والحركة ومع الغناء والخصب يكون الحلم والمروّة والتثاقُل عن الحركة ؛ حتى كان رؤساؤهم يخرجون في الحروب والمغازي متسايرين ، لكل رأس لواءة ولكل سيّدٍ معسكر ؛ وما زال أصحاب التجارب

والعقول وأهل النظر والتحصيل من كل ملّة وأمة وقرن وبلدة يرون انّ الشرك في الحرب كالشرك في المُلك وأنّها كالشرك في الزوجة ، وأنّ الخطأ في ذلك لا يُستقال والوهن لا يستدرك ، وأنّ هذه الخصال فاحشة الضرر سيئة الاثر ، لا يثبت معها إلف ولا يصلح عليها تدبير ؛ فاحتملوا ما في التشابُه من ضرر التساند لنكود الاخلاق ولشرف الحميّة ولما كانوا عليه من حميّة الجاهلية .

ألا ترى أنّ مروان بن محمّد لما استبدل قيس عيلان الجندِ بقيس عيلان الجند ، من أبناء قحطان ، كيف ظهر انتشار أمره واضطرب حبله واختلفت الكلمة وتقطّع النظام وانحلّت العقَد وأدبر الملك وركدت الريح ؟ هذا وقيس عثمانية عند أنفسها جماعيّة دِعاميّة فيها تذهب إليه سلطانيّة ، كذلك اصطهرت إليها الملوك ، يعني المصاهرة دون النزارية بالانفس ، ووليت العراق المِرار الكثيرة والثغور العظام والمهم من الأمور الجسام ؛ ولم يفعلوا ذلك بتميم ولا بربيعة لِما كان فيها من النزوح والخارجية ، ولذلك قلّت الفتوح في تميم وربيعة ؛ وكانت قيس في جلة أمورها ومعظم تدبيرها زارية على الشيعة ناقمة عليها ، نافرة من الخوارج ناهية عنها ؛ وقد عرفتَ ما كان من شأن زُفَر ابن الحارث ومُجاشِع ابن مسعود وحاتم بن النعمان والجحّاف بن حكيم ، وحال كلّ من سيّره عليّ من البصرة بعد وقعة الجمل الى الجزيرة ؛ ثمّ مع ذلك ما برحتْ أن نزعها ذلك العزم وجذبها ذلك الطمع ولم تدعها الرحم من نزار ، وعرف مروان فضل رأي أسلافه على رأيه وتدبيرهم على تدبيره .

ولعلّ قائلاً يقول : « فأين ربيعة السامعة المطيعة وكانت شطر نزار ومعظم الفرسان ؟ أوَ ما كانوا في طاعة عليّ مجتهدين وعلى معاوية مطيعين ، حتى هجروا فيه الإخوان والجيران وفارقوا من أجله الأوطان كصنيع عجل بالبصرة وانتقالهم بعد نصرته يوم الجَمَل إلى الكوفة حتى نزلت ديارهم وصارت في ربوعهم الازد ، يتقدّمها ابن نوح ؟ قال في ذلك الشاعر :

وَشَيَّبَ رَأسِي قَبْلَ حِينِ مَشِيبِهِ نُزُولُ العَبِيدِ فِي دِيَارِ بَنِي عِجْلِ

قلنا لهم عند ذلك : قد كانوا كما وصفتم ثم صاروا شراً من قيس وأكثر خلافاً من تميم ، على أنهم بتميم أشبه ؛ ولذلك قال الحجّاج : « الكوفة أشبه بالبصرة من بكر بن وائل بتميم »؛ بل صارت رجال يمانية أسوأ طاعة وأكثر خلافاً من رجال نزار ، كالذي كان بين الأشتر والأشعث وكالذي كان بين الأشعث وحُجْر ؛ وما تخفى عليك امور همدان وكندة في تلك الأيام ، وحال سعيد بن قيس، وما كان من قول عبد الله بن بُدَيْل ، هذا إن كان بعض ما ذكرنا يعرفها من قبل عليّ ومعاوية ابن ملجم ، ومن إمداده الرأي ومن تشجيعه على الاقدام وإفساد يمانيته عليه فضلاً على قيسيته ؛ فقال يزيد بن حجبة قبل أن يكون إليه من عليّ بن أبي طالب ما كان :

عَـادَتْ رَبِيعَـةُ قَيْسـاً بَعْـدَ طَـاعَتِهـا ... حَـقَّ الـيَـمَـانِيِّ لاَ يُبْـقِي وَلاَ يَـذَرُ

ثم صرف إلى معاوية مع أكثر قومه من تيم اللات بن ثعلبة وقال :

وَقَالُوا: عَـلِيٌّ لَيْسَ يـقْـتُـلُ مُسْـلِماً ... فَمَنْ ذَا الَّـذِي يُحْيِي الرُّفَـاتَ ويقتُل

ثمّ لحق بالشام خالد بن المعمّر في أكثر بني سَدوس،.ولقدره ولقدر ما جلب إلى معاوية من القوّة قال قائلهم :

مُعَـاوِيَ أَمِّـرْ خَـالِـدَ بْنَ مُـعَـمَّـر ... فَـإِنَّـكَ لَـوْلاَ خَـالِـدٌ لَمْ تُعَمَّـرِ

ثمّ لحق مَصْقَلة بن هُبَيْرة في عامّة بني شيبان في رجال كثير ورؤساء لا يُحصَون ، معروف سبب هربهم وشهور تنقّمهم ؛ وأمّا مصقلة بن هبيرة فانه طولب بما عليه من مال الله من ثمن مَن أعتق من بني ناجية ؛ وأمّا يزيد بن حجبة ففرّ من الجيش لما كان فرّ من خراج المسلمين إلى ما لا يعرف من هرب النجاشيّ عند شرب الخمر .

[٨ ـ معاوية يلجأ الى الترغيب بالمال والتولية على عكس علي]

والجملة أنَّ رجالات العرب ورؤساء الأعراب وكثيراً من أهل البأس والنجدة والرئاسة في المشيرة كان سوء معاويّة ومعاملته أحبُّ إليهم من سوء عليّ ابن أبي طالب ومعاملته ، لأنَّ القوم ، لمّا ثبت عندهم من إطعام خراج مصر عمرو بنَ العاص ما ثبت ، ومن ضمانه لذي الكَلاع سميفع بن ناكور ما ضمن ، والحبيب بن مسلمة ما قد علمتَ ، ورأوا ما صنع عليّ بيزيد بن حجبة وسمعوا ردّ جوابه على مَن سأله أن يزيد في عطاء الحسن والحسين وكيف قال ، ورأوا مع ذلك شدّته على الخائن وقمعه للظالم وأنَّ الرجال أنّما تحظى عنده على قدر الزهد والفقه وعلى قدر الوفاء والنجدة وعلى قدر العلم بالكتاب والسُنّة ، لم يكن لهم هَمٌّ إلاّ التخلُّص إلى معاوية وإلاّ أن يصيروا إلى من يرتع ويرتعون معه ويأخذ ويأخذون معه ويذهب مذهب التودّد والتحبّب والتألف ويدع مذهب الإمامة وإقامة جزاء الحسنة والسيّئة ؛ وقد قال خالد ابن المعمّر لعلباء بن الهيثم : « اتّقِ الله في عشيرتك وانظر لنفسك ورحمك ، ما يُؤمل عند رجل أردتُه على أن يزيد في عطاء الحسن والحسين دُرَيْهمات يسيرة ريثما يبلان بها من طريف عيشهما ، فأبى وغضب ؟ ».

[٩ ـ حيلة المصاحف تنطلي على الناس]

فكلّ ما ذكرنا ممّا اتُفق له من غير اكتساب وتهيأ له من غير احتيال ، فغيرُ مكره ـ حفظك الله ـ معاويةُ على ما اتفق له ولا ملومٌ عليّ ابن أبي طالب على ما امتُحن به فيهم ؛ فعلى هذه العقدة دار الكلام ؛ ثمّ اتفق له الخلاف الذي كان عن رفع المصاحف والانتشار الذي حدث عن ذلك التدبير والحيلة ؛ فانظر هل ألفى عليٌّ عندها عاقلاً أو صادف بها عزيزاً ؟ ولقد قال ثمّ أعاد القول ثمّ احتجّ وعرف وزجر وتوعّد وقال : « ويحكم ! إنّها خدعة ومكيدة ، وإنُها بعدُ دليل على الفشل وعلى انقطاع القوّة ؛ فانتهزوا هذه الفرصة فقد دلّكم بها على موضع

العـورة ، وليس بينكم وبين الـظفر إلا صبـر سـاعــة ٥؛ فكان أشـدّ القـوم عليـه خلافاً وأفحشهم عنوداً الذين صاروا بعدُ إلى إكفـاره وإلى البراءة منـه بعد إقـرارهم بانه كان المستبصر والمحدود والواعظ والمتوعّد ، وأنّهم كانـوا المخدوعـين والمغرورين والمخذولين ؛ فهذا هذا .

[١٠ ـ دهاء عمرو بن العاص وغباء ابي موسى الاشعري]

وكان ما امتُحن به عـليّ واشتدّت البلوى عـلى أصحابـه فيه وعـلى اصحاب النبيّ وعلى من معـه من أجنـاده ومن خـاصّـة أهله ، أن صـار الحَكَم المُوازي لعمرو بن العاص أبـا موسى الأشعـري ، فكان من خـدعه لـه ومن غدر عمـرو به مـا قد علمتم ؛ ولم تجـد الناس اقتصـروا من أمرهمـا على أنّـه خدعـه بفضـل أرب وكـادَه بُعد غـوْر واستنزلـه بفضل [. . . . . ؛ فلو لا يـزال يكون مثلةً بـين الرجال من رجال الرأي والدهاء والمادّة وجدتُ العـامّة والـطبقة التي تـلي العامّـة لا يشكّـون أنّ أبا مـوسى كان أغبى « العـالمين وأعيا الأوّلـين والآخرين ، وأنـه فـوق جهيزة في سقوط الرأي ، وأسوأ حـالاً من دغة في الـرّقاعـة ، وأكثر خـطلاً وأعجب خطأً وأغرب غلطاً من جحا وأعيا لساناً من باقل .

[١١ ـ دوافع ابي موسى الى موقفه في التحكيم]

وليس يقـول هذا ـ رحمـك الله ـ إلاّ من لا علمَ لـه ولا تحصيـلَ عنـده ؛ قـد عـرفنا حـال أبي موسى عنـد رسول الله صـلى الله عليه وسلم وعنـد أبي بكر ومنزلته من عمر بن الخطاب ومكانه من عثمـان بن عفّان في كثـرة فتوحـه وصحّة تـدبيره ، ألا وإنّها عن مقارعة شـديدة ومنـافقة [؟] طـويلة بالـرأي السديـد والكيد البعيـد والسيوف الحداد وبـالعدّة والعتـاد وسياسـة الأجناد وعين الفتنة والسـلامة العجيبـة وحفظ الرعيّة والقسمة بالسـويّة ، ومع الفقه في الـدين والعلم بالقياس والحجج في الفتيـا ؛ وكـان سـادس ستّة ممن حصلوا من فقهـاء الصحـابـة وأحـد القضـاة

واحد الثلاثة ، ولذلك قالوا : « ثلاثة أخذوا عن ثلاثة : ابن مسعود عن عمر ، وأبو موسى عن عليّ ، وزيد عن أُبَي »؛ ويدلُّ على ذلك قول الشاعر في مدح بلال ابن أبي بُردة بن أبي موسى وكان قاضياً ابن قاض ابن قاض ، قال له :

وأنتَ يا ابنَ قاضِيَيْن

وقال آخر في بلال :

قَضَيْتَ على عرقٍ بما لك صاعداً وأُوتيتَ مِزْمَاراً وَخُطْبَةَ فيْصَلِ

(ذهب من المزمار الى ما كان أُعطي أبو موسى في حنجرته من الصفا والشحا ؛ وذهب من ذكر الخطبة الى ما كان أعطي في لسانه من البيان) .

ـ وكان مع ذلك مشهوراً بالحلم ومذكوراً بالفقه ، من المعدودين في أصحاب الفتوح ومن المذكورين في الولاة والعمّال ومن المعروفين بالنزاهة وطيب الطعمة ومن المعروفين بصحة الرواية ؛ ثم خصلة ما أقلَ ما تجدها وأكثر ما تفقدها وهي قلّة التغيُّر مع طول الولاية والثبات على الأمر الأوّل مع كثرة الفتوح والفائدة ، ولو كان أبو موسى كما يقولون غبياً منقوص العقل ضعيفاً ، لكان اللوم على تأميره [على] البلدان والأمصار وعلى الجيوش العظام وتسليطه على الأحكام ، على مَن ولاّه دونه ؛ ولو كان ذلك كذلك لكان لعليّ في ذلك أوفرُ الأقسام .

كلاّ ، ولكننا نقول فيه كما قال أهل العلم من أسلافنا وأهلُ العدالة من مشايخنا : نقطع الشهادة على كلّ ما أجمعوا عليه ونقف عند كلّ ما اختلفوا فيه ، وقولي فيه ، إن لم يكن قول أبي إسحق بعينه فما أقربه من قوله ؛ قال أبو اسحق : كانت التي خلع بها علي بن أبي طالب دون عمرو وبعد التصادر على ذلك والتوكيد له نتيجةَ خمس خصال ، منها انصرافه عن عليّ ، والاخرى ميله الى رأي سعد بن ابي وقّاص وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت ومحمد بن مسلمة وصُهيب بن سِنان وأُسامة بن زيد من الكفّ وتحريم القتال ، ولذلك روى

بالكوفة ما روى حيث أقعد الناس عن علي بن أبي طالب ونصرته ومعاونته حتى جرى في ذلك بينه وبين الحسن وعمّار ما جرى حيث قال : « سمعتُ النبي صلى الله عليه وسلم يقول : « تكون فتنةٌ القاعدُ فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي [فيها] خير من الساعي ».

وخصلة اخرى وهي ميله من عدنان لقحطان ولذلك قال يومئذ : « لو كان هذا الأمر لا يُنال إلاّ بالقدم والشرف لكان رجل من أولاد أبرهة بن الصباح أولى بها منها »؛ وخصلة اخرى وهي نقصانه لا محالة عن مقدار عمرو في بُعد الفكر وشِدّة المكر ، ولكن ليس مَن خُدع مرّة او كان دون أدهى الناس فلا اسمَ له إلاّ الغبيّ العييّ الجاهل المنقوص ؛ وخصلة اخرىٰ وهي ما كان إسرار قلبه من تصييرها الى ابن عمر بكل حيلة وبكل قيد وقوّة ، ولذلك وافى ابن عمر دومة الجندل ، والخصلة من هذه الخصال ـ رحمك الله ـ تصرف بنصيبها من إدخال الخطإ على العقل ، فما ظنّك بها وقد اقبلت معاً ثمّ صادفت عقلاً مستهدفاً وعرضاً قريباً ؟ .

[١٢ ـ لماذا قبل علي بابي موسى حكماً]

وكان أبو اسحق يتعجب من قول من زعم أن علياً إنما اجبر على أبي موسى اجباراً ولم يوجه اختياراً لأنّ اليمانية أبت أن تكون إلاّ ميزان نزاريين ؛ قال أبو اسحق : قد علمنا أنّ من شأن طبائع الأزد وتميم وبكر ويربوع وتَغلِب وقيس وجلة عدنان وجلة قحطان أن تتغانى في أقلّ من هذا ، وقد عرفنا سبب حرب البسوس وسبب حرب لبني قَيْلة وسبب حرب داحس والغبراء ، وهي حرب الإخوة وأطول حرب كانت في الجاهلية وأشدّها ضغينةً وأبعدها غاية في طلب الطائلة ، وما كان بعد ذلك ممّا كان بين تغلب وقيس وابن أبي الهَيذام وقبائل اليمن بالشام وغير ذلك ، وكيف كان صِغَر الأمر في أوائلها وعِظَمُهُ في أواخرها ، وكيف طبائع العرب قاطبةً والاعراب خاصة ، وكيف نفوس الاجناد ، وكيف حركة الاتباع ، وكيف صبرت نزار كلُّها ، مع ما وصفنا ، على هذه الذلّة

واغضت على هذا القذى وتعرضت لهذا التغيّر وكيف استنجدت وأطرقت وطايعت وسامحت حتى لم يختلف سيفان ، والسيوف عتيدة ، ولا اجتمعت في ذلك جماعة والخيام متقابلة .

ثمّ لم يقلْ فيه شاعر قصيدةً واحدة ولا فخر به فاخر مرّةً واحدة ، فلا هؤلاء هجوْا ولا هؤلاء مدحوا ؛ وهل يُعرف هذا من أخلاقهم وهل يُظنّ هذا بهم ؟ بل متى أغضت نزار من اليمن على مثلها ؟ ولو كانت معاودة لذلك منها في جاهليّتها لمّا صبرت على ذاك بعد تحوّل المُلك فيها والنبوّة إليها ، وقد رأيناهم كيف كانوا يوم خَزازى ويوم الكلاب والاخير ويوم شويحط ويوم اجتمعت تميم على زُرارة ويوم اجتمعت على غزو اليمن في فكّ تميم من أيدي العباهلة والرشان الاضبط بن قُرَيع والنمر الحصاني ، وكم قتلوا من الملوك عنوة وكم غزوا ديارهم لا يلتمسون حياً دونهم كعروة حُذَيفة بن زيد وحِصْن بن حذيفة وفلان وفلان .

واحتسبت كيف لم تتجمّد باحتمال ملالها ولم تتقرّب بذلك إلى عليّ ابن أبي طالب ولم تجنح بالورع وتدّع بُغض الشرّ وكراهة الفتنة إن كان العجز قد قطعها والجبن قد خلع قلوبها . وكيف حمل على نفسه هذه الدنية وكيف [قبل] بالضغطة وكيف نزل على هذا الحكم وكيف أمكن من نفسه هذا التمكين وأغرى بها هذا الاغراء ، وفي دون ذلك مرزية الأعداء وضراوة لأهل العصبيّة ، وقد علم أنّ قطم العادة شديد وأنّ نزع صاحب الدربة عسير .

وقال أبو إسحق : احسبهم كانوا القاهرين والغالين والمتحكمين المتهكمين ما خالف إلى أبي موسى وأي جمع كان هنالك من الأشعريّين وأيّ عِزّ كان في ذلك العسكر لأهل بلده ؟ وإن كان غبياً عند أصحابه مضعوفاً قليلَ المعرفة مخدوعاً ، فماذا الذي اضطرّهم إليه ؟ فأين كان الاشعث بن قيس ؟ وأين كان سعد بن قيس ؟ وأين كان عبد الله بن بُدَيل ؟ وأين كان قيس بن سعد ؟ فان قلت إنّ القوم لم يرضوا إلاّ بمن له صحبة ، فما حدب لمعاوية هذا التحدب وعلى

الصحابة ، وهذا التعظيم لمن له هذه الحرمة ، وهذا التقديم لمن له هذه التقدمة ؟ ولا بأس ، فأين كان أبو أيّوب الأنصاريّ وأبو مسعود البدريّ ؟ وأين كان عديّ بن حاتم ؟ فإن أقرّت قحطان بانه لم يكن في جماعته رجُلٌ واحدٌ كانت له صحبة يفي موازاة عمرو بن العاص ، فقد أقرّوا بالخسيسة وسلّموا بالفضيلة .

ولعمري أن لو كان المسؤولون من نزار لَذكروا رجالاً قد جمعوا مع الصحبة العقلَ البارع والتجربة الكثيرة والرأي الاصيل والغور البعيد والحزم والعزم والعلم والنكرى والدهاء والرأي [. . . . . .]، ولو كانت الحال قد بلغتْ بعليّ إلى أن صار لا يمتنع من قهر تلك اليمانية ومن غلبة بعض ذلك الجند ، وذلك ظاهرٌ لمعاوية وبجواسيسه السعية ، ويُزال عنه فرض الجهاد ، فمن كان كذلك كان عن حلبة أهل الشام وأجناده المتناصرة بالأيدي المتفقة هو اعجز .

كلاّ ، ليس الأمر على ما قالوا وذكروا ، فما دعا إذاً معاوية إلى المحاكمة وكيف رضي بالنصفة ؟ كان عليّ بن أبي طالب أشدّ ورعاً وأثقب نظراً والطف في الأمور تدخُّلاً من أن يوجّه مع عمرو بن العاص حَكَماً وهو عنده عبد منقوص أو عدوّ مرصد ، بل لا كرّر أن يقلده مثل ذلك الامر وهو عنده ظنين عليه ، وكان الاقلّ من ذلك أن لا يدع الاحتجاج والتبيين والاعتذار الى غيره من رعيّته وأجناده ، فمن أين اتى - يرحمك الله - أمن كلال وجهد وعيّ لسان ، ام من قلّة معرفة وضعف خبرة ؟ أو من جبن قلب وشدّة هيبة ؟ أم من خور في العرق ؟ أم من فساد في أصل الطينة ؟ أم من خبث في المنشإ والعادة ؟ أم من قلّة ممارسة للحروب ومقارعة للابطال ومعاودة للقتال ، مع قتل الفرسان والقادة والرؤساء والسادة ، وهل رُبيّ إلا فيها وهل نبت لحمه إلا عليها وهل يعرف شيئاً سواها ؟ ألا يدور ما يعرف منها على استفاضة علمه واتّساع معرفته ؟

ولو لم يكن عليٌ امتُحن منها بشيء قطُّ ولا اختُبر بأمر قطُّ إلا بما امتُحن به يوم نادى منادي معاوية : « أخرجوا الينا قتلة عثمان ! »، لكان في ذلك أعظم

المحنة وأشدّ البلاء والفتنة ، ولقد ابتُلي عليّ بعقد لا سبيل إلى حلّه وبقفل لا حيلة في فتحه ، ولو كان باب الحيلة فيه مغلقاً ولم يكن [. . . . . .] مبهماً ، لكان أحقّ من [. . . . . . .] ذلك القفل و[. . . . . .] لذلك الغلق ؛ ألا ترى أنّه لو أخرج إليهم طلبتهم والذين أوقعوا عليهم ظنونهم ومَن هو عندهم قاتلهُ إما مُعيناً وإما متولّياً وإما بالهوى والمحبة والنحلة/والديانة ، لدفع إليهم محمد بن أبي بكر وكنانة بن بشر وعمرو بن الحمق وسودان بن حمران ومالك الاشتر وعبد الله بن عُديس وعمرو بن زُرارة وعُمير بن ضابيء وفلاناً وفلاناً ؟

ولو أخرجوهم إليهم لامتنعوا بعشائرهم ولمنعتهم الذين قالوا : « كلّنا نصيحة واحدة ، كلُّنا قتّال عثمان ! »؛ ولو كان كذلك لكان معاوية أوّل واثب بهم وكان ذلك من أكبر فريضة فيهم ، ولو أخرجوهم إليهم وسلّموهم في أيديهم ، لقتلوهم خبطاً بالسيوف ورضخاً بالجندل ، ولأعجلوهم عن حكم الإمام القائم وعن التثبّت والتعرُّف وعن تمييز ما بين الآمر والمحبّ والمُعين والمتولّي والمتهم والمعترف بالدم .

ولو قام عليّ في كلّ عددهم وعدّتهم بردّ عليهم ويكذّبهم ، لكان تواثب بعضهم إلى بعض بالجدال والقتال أقربَ من وثوب معاوية بهم على قرب ذلك منهم ، ولو جرى بينهم بعض ما هو دون السابقة والمتأخّرة لكان في تشاغلهم واضطراب حبلهم واختلاف كلمتهم وانتشار أمرهم ما يدعو أهل الشام إلى الوثوب بهم والشدّ عليهم ؛ ولو فعل ذلك والحال كذلك لما كان دون البوار سِترٌ ولا دون الظفر بهم مانع ولا حائل .

وقد علمتَ ـ حفظك الله ـ أنّ الناس في قتل عثمان على ثلاث طبقات : فطبقة تدعي ان قتل علي لعثمان كان من اكبر طاعاته لله ، وهذه الطبقة هم الشيعة والخوارج ؛ وانّ الطبقة الأخرى هي الذين يرون الوقوف فيه وفي عثمان ، وفيه وفي طلحة والزّبير، ويتولّونهم على أصولهم ويقفون عند أحداثهم ، والطبقة الثالثة وهم السواد الاعظم والجمهور الاكبر ، منهم أصحاب الحديث

والقضاة والنوابت ومَن زعم انّ جميع أهل الكلام [..........] وأنّ الكفّ عن ذلك هو السنّة والجماعة .

فلو أنّ عليّاً قال يوم ذلك : كذبوا ، لم يكن ذلك تدبيراً ، وقد ذكرنا ذلك وفسّرناه ، ولو قال : صدقوا ، لخلعه جميعُ مَن يرى الوقوف وجميع من يرى تبرئته ونفى تلك الدعوى عنه ؛ ولو كان على سبيل مَن قتله لمّا كان عليه في ذلك اليوم الإقرار بقتله ، إذ كان الاقرار فيه ليس بفرض واجب ، ولا كان مأخوذاً به ، وفيه إفساد قلوب العامّة وبعض الخاصّة ، وما كان إلاّ كرجلٍ قال إنّ السماء خضراء ، فقد صدق ، وليس عليه أن يقول في كل حين إنّ هذه سماء ولا إنّها خضراء ، ولكن عليه ، إن اثر أن يخبر ، أن لا ينكر انّها خضراء .

فكذلك كانت حال علي بن أبي طالب إن كان على سبيل مَن قتله وان لا يرى أنّ محلّه في تلك الحال المحلُّ الذي لا يكون أضيق منه ، إذ كان لا يمكنه في وجه التدبير أن يقول : صدقوا ، ولا أن يقول : كذبوا ، فهل ترى التدبير إلا ما صنع عليّ ؟ ولذلك زعم بعض من يفضّل عليه أبا بكر وعمر أن ذلك الفضل لهما الى أن امتُحن عليّ بما لم يبلغه امتحانُهما ، فصار أفضل منهما ؛ ولولا أنّ الله قد علم أنّ إرادته في نفسه كانت أتمّ وعلمه أوسع وعزمه أقوى ، لمَا اختبره بذلك ولا امتحنه إلا بمثل ما امتحن به الائمة قبله .

ولو كانت هذه الرسالة تحتمل [تخريج] القول في الحكمين والاحتجاج في جميع أبوابه لاستقصيتُ ذلك ، ولكني سأومىء إليك ـ إن شاء الله ـ بجملة يكتفي بها مَن كان في دون حالك بعد أن يستصحب الإنصاف ويتحفّظ من الهوى ويتحذّر [من] السابق الى القلوب وهي فارغة .

[١٣ ـ اسباب ترك علي القتال]

قد تبيّن للناس كلهم اختلافُ أصحاب عليّ بعد رفع المصاحف وإخلادُهم الى المُقام بعد أن رجعوا إلى أوطانهم ، وكيف ملّوا الحرب وسئموا طول مقارعة

الشرّ ، بعد أن ذاقوا الخفض ووجدوا مسّ المهاد وشمّوا ريح الأولاد ، وبعد ان علِقتوا من عدد الجرحى والصرعى والقتلى ، وبعد أن وجدوا خشونة المسّ ومنع الجانب ، وبعد أن قال كبراؤهم : « لا نعود حتى نشمّر الكراع ونحدّ السلاح ونجبي المال ».

وأنا واصف لك جملة القول في الحكمين ، إن كان كتابنا هذا يعجز عن التفسير ، فافهمه واعلمْ اني وجدتُ الذين خطؤوا عليّاً في ذلك لم تجاوز تخطئتُهم له ثلاثة أوجُه : احدها اختيار أبي موسى بعينه وفي العسكر مَن هو أدهى منه وأنصح ، وقد قلنا في ذلك جملةً كافية إن شاء الله ؛ والوجه الآخر إنكارُهم حكمَ الرجال في الأمر الذي قد بينه الكتاب وقطع عليه الشهادة وعرَّفهمْ فيه وجه الحقّ وهو قوله : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ، فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ ﴾، وإنّه مثل قوله : ﴿ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللَّهِ ﴾؛ فكما أنه ليس لعليّ ولا لغيره أن يحكِّم الرجال في قطع السارق وفي الامساك عنه وفي ضرب الاجل له ، لما ظهر في الآية من الدلالة ، فكذلك ليس له ولا لغيره أن يحكم في قتال الفئة الباغية ويترك ما ظهر في صورة الآية وفي ظاهر الكتاب .

والوجه الثالث أنهم قالوا : لم يكن يخلو عليّ في ترك قتالهم، وقد دعوناه إليه، من وجهَين : إمّا أن يكون كان عاجزاً معذوراً أو قويّاً غير معذور ، فالعذر في ترك القتال واقع ، بل قد فرض الله عليه أن لا يُعرِض قليلَ مَن معه لكثير مَن مع عدوّه من الاعداء ، وعليه أن يعرف ذلك الجاهل ويكفّ عمّن عرف الغُمر المتسرّع ، فان قبلوا كان قد بلغ ما أراد من الشفقة والحيطة ، وإن ردّوا ما قصده كان قد أعذر وأنذر ، فظهر في العوامّ عذره وثبتت على سائر الانام حجّتُه ، وإن كان قوياً وكان بمثل عدده وعدَّته يُزالُ الظلمُ ويُدحض الباطلُ ويُقمع العدوّ ، فعليه أن يقاتل : فإن ظفر كان مطيعاً منصوراً ، وإن ظُفر به كان مطيعاً معذوراً .

قـد قلنا في تنـازعهم واختلاف قلوبهم ونكـوبهم إلى أوطانهم وفي سـآمتهم مما قـد سمعتَ ، وقد علمنـا أنَّ مَن جمع بـين القلوب المختلفـة والقلوب المؤتلفـة وإن كان عدَّة المختلف فوق عدَّة المؤتلِف ، إنه مذمـوم التدبـير مسخوط التقـدير ؛ وإذا كانوا كذلك فالرأي ان يكتم النـاس داءهم وعيبهم ولا يفطن لـذلك عـدوّهم بكلّ مـا أمكن من الحيلة ويبلغه التـدبـير ، وأن يستـأني بهم ويُتلطف لهم ويُنتـظر أوبتهم وإفـاقتهم من سكرتهم وانتبـاههم من رقدتهم إلى غـاية وإلى نهايـة ، ولا يُعجل الى تفريقهم ما دام الطمع في تراجع قلوبهم ممكنـاً وكان الأمـل في تعايرهم وتراجـزهم مأمولاً .

فـان قال قـائل : لا نستـطيع أن ننكـر أنّه قـد كان هنـاك خـلافٌ يـومَ رفـع المصـاحف ، ولكنّا قـد علمنا أنَّ الـذين عصوهُ يـومئـذٍ في قـطع القتـال هم الـذين أطاعوه اليوم في معاودة القتال ، نادمين على مـا كان وسلف منهم ، مقـرِّين بالخـطإ عـلى أنفسهم ، مذعـنين لصواب رأيّه دونهم ، وهم كانـوا العُصـاة يـوم عصـوْه ، وصـار هـو العـاصي يـوم عصـاهم ، لأنـه دعـاهم للقتـال فـأمسكـوا عنـد رؤيـة المصاحف ، ثمَّ دعوه بعد أن تبيَّنوا المكيدة التي كانت بـانت له يـومئذ ، فـدخل في مثل ما دخلوا فيه ؛ إلاّ أنَّ القوم كانوا أعـذر منه لفضـل علمه ونقصهم عن كمـاله وأنَّ الشبهة عليهم يوم رفع المصاحف كـانت أغمض والنفوس أشغـل والرأي.أقـلّ من الشبهة عليه يوم جاوزوه نادمين سادمين ومقرّين متعايرين ومستغفرين نـازعين ؛ قلنا لهؤلاء القوم : إن كـان الشأن في اختـلاف ألسنتهم وقلوبهم وفي سوء طـاعتهم وفي تثـاقلهم عن قتال عـدوّهم وركونهم الى المقـام في أهلهـم.ليس عـلى مـا حكينـا ولا عـلى ما ثبـت بـه الخبر عـندنا ، وإنمـا كان ذلـك في قليل من كثـير وفي مقدار لا ينقص الجمهـور الاعظم ولا ينقض قـوى السواد الاكبـر ، فهل يخلو تـركه لقتـالهم من وجـوه أنا ذاكـرها لكم ؟ فـان كان عنـدكم وجه غـير ما ذكـرنا أو نحن ذاكـروه فاذكروه .

لا يخلو تـرك عليّ لقتالهـم ، إن لم يكن مـا قلنـا حقّـاً ، من أن يكون صار جباناً أو عاد منخوبَ القلب هيوباً بعـد أن كان أشـدُّ الناس أسْـراً وقلباً

وأتمهم بصيرة وعزماً ؛ وإمّا أن يكـون طمع في نـزوع معاويـة وتوبـة عمرو ، وإمّا أن يكون ذلك منه على طـريق النـدم عـلى « ما أراق من الـدماء ومن عـدد القتلى ، فتـاب من ذلك إذ استبـدل باليقـين الشكّ وبـالاستبصار الشبهـة ؛ وإمّا أن يكـون الخرف عجل عليه قبل وقت لِداته وقبل العادة المعرو[فة] في رهـطه ، فظهـر ذلك في تـدبيره وغلبـةُ الاختلاط في قـوله وعمله ؛ ومـا علمنـا أنّ احـداً من المُخـالفـين والمُوافقين ولا من أهـل الوقت ولا ممّـا يُنسب إلى الحشو ادّعى ذلـك عليه ولا قـرفه بـه ؛ وكيف يقول ذلـك قائـل ويطمـع في القبول عنه طامـع وهـو يعلم أن قـولـه مر[دود] مكذّب ورأيه مسخوط معتلّ !

فـاختاروا خصلةً من خصلتـين : إمّا أن تُـوجدوا وجهـاً لم يُـذكـر ، وإمّـا أن تثبتـوا عيثاً أنّ علياً قـد كـان اعتـراه بعض مـا ذكـرنـا من الجبن أو من الخـرف أو الطمع في نـزوع معاويـة أو الندم على ما سلف منـه ؛ فعلى أي الخصـال تعتمدون وأيّها تدّعون ؟ إن ادّعيتم الجبن على أشدّ الناس قلبـاً وأشراً وأكثـرهم للاقـران قتلاً وأيمنهم نقيبـةً وأشدّهم بصيـرة ، أكذبتم الامّـة وبهتتم حكم المعرفـة ؛ أمّا عـد[د] قتلاه وجرحاه وصرعاه ومَن فرّ منه وترك التعرض له ، فـلا أعلم ذكْرَهم إلاّ فضـلاً من القول ، وما ذلـك إلا كمن التمس الزيـادة في العامـة إذا مدّ البحـر بالقـطن ، وأمّـا تتابـع الظفـر ويمن النقيبة فقـد علمتم الذي تهيّـأ له من قتـل العظماء والسـادة والنجباء وأنّ ذلك أعظم العناء ، وأنـه لم يتوجّـه في جيش قطُّ إلا كان هـو المنصور وعـدوّه المخذول ، كشأنه وشـأن بني زبيد ، وكشـأنـه وشـأن أصحـاب الجمـل ، وكشـأنه وشـأن أصحاب النهـروان ، وهل قـاومه عـدوٌّ قطّ ، إلاّ ما كـان في بعض ساعات أيّام صفّين ؟ وهـل أُتي في ذلك من قِبـل نفسه ومن تـدبيره وتصـميمـه ومن تعبئتـه ؟ وهـل أُتي إلا من جنـده؟ وهـل مُنـع من الـظفـر بهم إلا بما صنعـوا بانفسهم ؟

وقد علمتم ان معاويـة قد كـان القى بيده وأيس من نفســه حين أحـدقت به الرماح وقصد له عبد الله بن بُديل في أهل البصـائر ومنعـه من الفرار بـزعمه الـذي ذكر في شعر ابن الإطنابة بقوله :

أَبَتْ لِي عِفَّتِي وَأَبَى حَيَائِي ... وَأَخْذِي الْحَمْدَ بِالثَّمَنِ الرَّبِيحِ
وَقَوْلِي ، كُلَّمَا جَشَأَتْ ، لِنَفْسِي ... مَكَانَكِ تُحْمَدِي أَوْ تَسْتَرِيحِي

وهل نفس عن كربه ورفه عن خناقه وردّ عليه حشاشة روحه وابقى عليه علالة نفسه إلا ما كان من اعتزا[مهم] برفع المصاحف ومن تركهم القتال وهو يذكرهم بالله ويعظهم بالقرآن ويزجرهم بوعده ؟ وسنذكر من كلامه الدالّ على شدّة اختلافهم عليه وإبطائهم عن عدوّه وركونهم إلى الراحة ، المعروفَ من خطبه والمشهور من كلامه والمذكور من مقامه الذي لا تستطيعون أن تقولوا إنه مما رواه أبو مخنف أو صنعه ابن داب أو ألّفه شوكر أو حبّره العتّابي وقبل ذلك رشيد الهَجَري ، وهو قوله حين انكشف أمر الصحابة وظهر المكتوم من سرّه وسرّ عيوب أجناده : « أيُّها الناس المجتمعة أبدانهم المتفرّقة أهواؤهم ، ما عزّت دعوةُ مَن دعاكم و[لا] استراح قلب مَن قاساكم ، كلامكم يوهي الصُّمّ الصِلاب وفعلكم يُطمع فيكم عدوّكم ، إذا أمرتُكم بالمسير قلتم كَيت وكَيت [. . . . .] أعاليل بأضاليل وأضاليل [بأبا]طيل ، وسألتموني التأخير ، دفاع ذي الدين المَطول ، استخفّكم الجهل حِيدِي حيادِ ، ولا يمنع الضيمَ الذليلُ ولا يُدرك الحقّ إلاّ بالجدّ ، أيّ دار بعد داركم تمنعون [و] مع أيّ إمام بعدي تقاتلون ؟ المغرور ـ والله ـ مَن غررتموه ومن فاز بكم فقد فاز [بالـ] سهم الأخيَب ! أصبحتُ ـ والله ـ لا أصدّق قولكم ولا أطمع في نصركم .فرّق اللهُ [بين]ـي وبينكم وأعقبكم من هو شرّ لكم مني وأعقبني مَن هو خير لي منكم ! ».

فلما نزل [قصد]وه يعتذرون إليه ، فقال : « أمَا [إنكم] ـ والله ـ ستلقون بعدي ثلاثاً : ذُلاًّ شاملاً وسيفاً قاتلاً وأثرةً [. . . . .] يتخذها الظالمون عليكم سُنّةً فيتفرّق جمعكم وتبكي عيونكم ويدخل الفقر [قـ] ـلوبكم فتمنون أنكم رأيتموني فتغتنموني فلا يبعد الله إلاّ مَن ظلم ! ».

وقال في مقام [آ]خر : « وددتُ ـ والله ـ أنّ لي بكم ألفَ فارس من بني فِراس

إبن غنم ! »، وقال في مقام آخر : « وددتُ ـ والله ـ أنّ لي بكل عشرة منكم فارساً من بني فراس بن غَنْم صرْف الدينار بالدرهم » [فـ] بلغ من تثبيتهم لهذا الخبر ان جعلوه حجة في صرف الدينار في ذلك الدهر ؛ [و] قال في مقام آخر : « يا أهل الكوفة المُنير من مَناسر أهل الشام أطلّ عليكم أغلقَ كلُّ امرئٍ منكم بابَه وانحجز في بيته انحجاز الضُبع في وِجارها ولَمن رُمِيَ بكم لقد رُمِيَ بأفوَق ناصِل »؛ ولابطائهم عن عدوّهم قال لهم : « ما قوتل قومٌ قطُّ في عقر دراهم إلا ذلّوا » في كلام كثير مشهور معروف .

قد قلنا في العذر في اختيار أبي موسى وفي العذر في تأخير القتال بعد أن كان هو الداعي [إ]ليه والحاثّ عليه ؛ ونحن قائلون في نفس التحكيم وبالله التوفيق ؛ وجواب آخر : زُعم أنّ عليّاً لو وجّه الحسن او الحسين ابتداء او عبد الله بن عباس او عمّار بن [يا] سِر أو مالكاً الاشتر او قنبراً مولاه او أنصح الناس جيباً أو أيمنهم رأياً أو أشدّهم نبراساً أو أبعدهم غوراً أو أقواهم عزماً ، لما استجاز أن يحكّمه بينه وبين معاوية ؛ [و] كيف وهو على يقين أن معاوية لا يصلح للخلافة في حال من الأحوال ، ليس لخوف التبديل به والاشفاق من ذلك الرأي عليهم ، ولكنْ لانّ الدنيّ والبعيد مانع من ذلك لانّ الحقّ عنده أنّ أهل بدر والحُديبيَة لو أطبقوا كلّهم على أنّ معاوية أولى بها منه أو على أنه يصلح لها في بعض الحالات ، لكانوا ضُلّالاً غير مهتدين ولكانوا [مُخـ] طئين غير مُصيبين ؛ وإذا كان إنكارهم لحقه لا يحلّ عقدة الخلافة وإقرارهم به لا يثبت عقدة الخلافة ، بل يكون ذاك منهم مؤكداً ومسنداً ومريما ومركبا ؛ أما أن يكون رضى رجلٍ أو سخطه تبرّماً ناقضاً خلافته ، فلا .

قد علمنا خلاف [طـ] لحة والزُّبَير وسَعْد ومحمد بن مسلمة وصُهيب ابن سنان وسَلمة بن سَلامة بن وقش وهم بدريُّون ، فلم يكن ذلك بناقضٍ لإمامته ولا ناقص من بصيرته ؛ [فـ] القياس أنه لو لم يكن منه سبب تُستحق به الإمامة إلا سبب هؤلاء له ، أن إقرارهم غير مُثبت كما أنّ إنكارهم غير ناقض ، ولو بان عند الامام انّ رجلاً اكملُ اهل محلّته كمالاً ثم أبَى إمامته من أهل ذلك المصلّ

عشرةً من وجوههم لأجبرهم الامام عليه ولما التفت إلى ما كان من بغيهم عليه وغلطهم فيه .

ولكنا نزعم أنّ عليّاً دافع بمعاريض الكلام وبالتورية وبما يُشبه التوهيم وأعمل المكيدة عند الحاجة إلى المكيدة حين رأى اختلاف القلوب وانتشار الامور ونقصان البصائر والركون الى الراحة وطمع أن تكون عِظته وتصرّفه وتعريفه وتخويفه ممّا ينفع فيهم ويسري في طبائعهم وينبههم من رقدتهم ويحرّك مواضع الأنفة من قلوبهم إلى انقضاء تلك المدّة وفي تلك المهلة والهدنة حين ارتبق فيهم حَبله ولم يبق غاية ، وبعد ان كتم الداء ودثر الدواء وأرفق العلاج ؛ فلمّا أعضل الداء واستفحل البلاء وظهر العيب واستتمّ الفساد وصار ستره عيّاً وكتمه عجزاً ، خطب بالموعظة على المنابر وقرع بالتأنيب في المحافل وأعذر عنه المُقبل والمُدبر ، وكان على يقين من انهزامهم إن مضى بهم مكرّهين غير متبصّرين ومختلفين غير متّفقين ، هذا أسوأ ما كان [. . . . . .] فه الجيوش عنه فتظهر له الخلة وتتشنّع به المثلة .

[١٤ ـ العمل عند المعتزلة كالقول]

واعلم أنّ لصاحب الفتنة والمكر والمخبر من معاريض القول من التورية في الكلام ومن إضمار المعاني في الالفاظ إلى ما يخرجه من الكذب وإن وهّم ذلك القول السامعَ الطالب والمستحلف الغاصب الموافقةَ والرضى بحكمه ما ليس لغيره ، وهذا هو المعنى في الفتنة التي أناخها الله تعالى بعباده ، وقد كان له أن يتعبّدهم بالإفصاح وإن قُتلوا عن آخرهم .

ونحن نزعم أنّ اليمين إذا كانت لازمةً لك فهي على ضمير مَن استحلفك ، وإذا كانت غير لازمة فهي على ضمير الحالف ؛ وكذلك البيعة وجميع الكلام ، والعمل عندنا في ذلك كالقول ، ولو أنّ غاصباً أخذ عليك يميناً للبيعة له ، كان لك أن تقول « نعم » ولست تريد التي هي خلاف « لا » ولكن تر[يد]

النَّعَم من الابل والبقر ؛ وإن كنتَ تعدّ انه يظنّ غير ما تعني ، تقول أيضاً عند استخلافه « نعم » وان وهِمت الكلمة معنى « نعم » التي هي خلاف « لا » وأنت تريد الطاعة ؛ ولو قال لي بعض مَن أخافه على نفسي : « قل : المسيح ابن الله »، لكان لي أن أقول [ذلك] وأنوي أنه كذلك عند النصارى ، وإن علمتُ أنه لا يتوهّم إلا ما دلّ عليه [اللفظ]؛ فان أمكن أن أنوي وارجّه الكلام واعمل الاضمار والاستثناء ولا عناء عليّ فيه ولا مشقة ولا تَعْتَعة يرتاب بها ، ثمّ لم اضمر خوفاً من فطنته فقد شرحتُ بالكفر صدراً ، فإذا جاز أن أقول إنّ مع الله إلاهاً آخر وإنّ محمداً - عليه السلام - كذّاب وإنّ مُسيلمة صدوق إذا خفتُ على نفسي ، بعد أن أضمر و[. . . . .] وإن كان ظاهر قولي التكذيب لمحمّد صلى الله عليه وسلم ، جاز أن أقول إنّ أبا موسى حكيم وله أن يحكم وأنا أنوي غير ما أظهر وأضمر غير ما أبدي إذا خفت على الناس الفتنة والهرْج والفساد وتبديل الحكم .

[١٥ - معاوية لم يخدع علياً بل كان هو المخدوع]

فلو لم يظنّ عليّ وطمع أنّ أصحابه سيعودون إلى بصائرهم وإلى ما يشبه أوّل حا[لهم] عند التخابر والتذاكر وعند قضاء الوطر من الزوجات والاوطان وبعض الملال من طول الاقامة وبعض الحياء من النعيم ومعه الانف من ظهور الاعداء وبعض التوقّع للبلاء إذا جرى عليهم حكم عدوّهم ولعلّهم أن يطالبوهم بطوائلهم ولم يأمنوا الوثبة بهم ، لَمَا جاز له ذلك ولما كان لصنيعه ذلك وجه ؛ فالمخدوع في هذا الموضع معاوية والخادع عليّ ، وعليّ صاحب المكيدة ومعاوية المستراب ، لأنه في ذلك ولو فُطن لانتشار الامر على عليّ ثمّ غزاه بالقلوب المجتمعة والأهواء المتّفقة ، لَما كان دون الظفر مانع ولَما كان بعد تلك الوقعة وقعة، فرأى عليّ أنّ التدبير في توهيمه وتوهيم أصحابه الرضى بالمساواة والاقرار بان في أمرهما من الشبهة ما يُحتاج فيه الى نظر الرجال ، وعلم أنه متى أعطاه ما كان لا يطمع فيه ولا يناله طرفه ولا أمنيّته ولم يزل يظن ، بل لا يشك ، أنه لا

يُعجب إليه [. . . . . . .] ولم يكن عرف من سرّ أصحابه مثل الذي عرفه عليّ فرأى أنه قد ربح وأنّ عليّاً قد خسر ؛ فما ينقضي تعجُّبي من رضى معاوية بتلك الهدنة والمدّة مع ما قد كان ظهر من اختلاف أصحاب عليّ ، وأرى الناس يتعجبون من رضى عليّ بها مع اختلاف أصحابه » .

[١٦ ـ معاوية ليس ادهى من علي ولكنه كان يستعمل جميع المكايد حلالها وحرامها بينما لم يستعمل علي الا ما وافق الكتاب والسنة]

اللهمّ إلا أن لا يكون عصى عليّ عندهم إلا في تحكيم الرجال دون تأخير القتال ؛ فان كان ذلك كذلك فما قولهم وإكثارهم : « عصينا أمس حين قطعنا القتال وعصى عليّ حين رجعنا ندعوه إلى القتال [ـ] رأى ؛ فقد ينبغي لنا الآن أن نقصد إلى الجواب في لفظ التحكيم : أيجوز أم لا يجوز ، فنَدَع ما سوى ذلك من الأمور ؛ وإذا لم يبقَ إلا ذلك فقد سقط ثلاثة أرباع الخلاف ، وليس على ذلك بنى القوم أمرَهم وجرت عليه عادتهم ؛ وربمّا رأيتُ بعض من يظنّ أنه من الخاصة ويزعم ان معاوية كان أبعد غوراً وأصحّ فكراً وأجود رويّة وأبعد غاية وأدقّ مسلكاً ، وليس الأمر كذلك ، وسأومىء إليك بجملة تعرفُ بها موضع غلطه والمكانَ الذي دخل عليه الخطأ من قبله ، فافهم ذلك .

كان عليٌّ لا يستعمل في حربه إلا ما صدّله ووافق فيه الكتاب والسنّة ، وكان معاوية يستعمل خلاف الكتاب والسنّة ويستعمل جميع المكايد وجميع الخدع حلالها وحرامها ، ويسير في الحرب سيرة ملك الهند إذا لاقى كسرى ، وخاقان إذا لاقى رُتْبيل وفنغور إذا لاقى المهراج ؛ وعليٌّ يقول : « لا تبدؤوهم بقتال حتى يبدؤوكم ، ولا تتبعوا مدبراً ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا باباً مغلقاً »؛ فهذه سيرته في ذي الكَلاع وأبي الأعور السُّلَمي وعمرو بن العاص وحبيب بن مسلمة وجميع الرؤساء ، كسيرته في الحاشية والحشو والاتباع والسفلة ؛ وأصحاب الحروب ان قدروا على البَيات بيّتوا ، وأن قدروا على رضخ الجميع بالجندل وهم

نيام لفعلوا ، وإن أمكن ذلك في طرفة عين لم يؤخروه ساعة ، وإن كان الحريق بالنار أعجل من الغرق لم يقتصروا على الغرق ولم يؤخروا الحريق إلى وقت الغرق ، وإن أمكن الهدم لم يتكلّفوا الحصار ولا يدعون أن ينصبوا العرّادات والمجانيق والنقب والتسرُّب والدبّابات والكمين ، ولا يدعون دسّ السموم والتضريب بينهم بالكذب وطرح الكذب في عساكرهم بالسعايات وتوهيم الأمور وإيحاش بعضهم من بعض وقتلهم بكل آلة وحيلة وكيف [ما] وقع القتل وكيف [ما] دارت به الحال .

فمن اقتصر - حفظك الله - من التدبير على ما في الكتاب والسنّة كان قد منع نفسه الطويل العريض من التدبير وأما الاشاهي من المكايد ؛ والكذب - حفظك الله - أكثر من الصدق ، والحرام أكثر عدداً من الحلال ؛ ولو سمّى إنسانٌ إنساناً باسم الانسان كان قد صدق وليس له اسم غيره ؛ ولو قال : هو شيطان ، أو كلب ، أو حمار ، أو شاة ، أو بعير ، لكان كاذباً في كلّ ذلك ؛ فكذلك الايمان والكفر ، وكذلك الطاعة والمعصية ، وكذلك الحقّ والباطل ، وكذلك السقم والصحة ، وكذلك الصواب والخطأ .

فعليٌّ كان بالوَرَع مُلجماً عن جميع القول إلاّ ما هو لله رضىً ، ولا يرى الرضى إلا فيما دلّ عليه الكتاب والسنّة ، وممنوع اليد من البطش إلا ما هو لله رضىً دون ما يعوّل عليه أصحاب الدهاء والنكرى والمكايد والآراء ؛ فلمّا أبصرت العوامّ - حفظك الله - بوادر معاوية في المكايد ومثابرة غوايته في الخدع وكثرة ما اتفق له وتهيأ على يده ، ولم يروْا مثل ذلك من عليّ ، ظنّوا بقصور رأيهم وقلّة عقولهم أنّ ذلك من رجحان عند معاوية ونقصانٍ عند عليّ ؛ فانظرْ بعد ذلك هل بقي له إلا رفع المصاحف وهي من خدعه ، ثمّ انظرْ هل خدع بها إلا مَن عصى عليّاً ومال عن رأيه وخالف إذنه .

فإن زعمت أنه نال ما أراد من الاختلاف فقد صدقتَ ، وليس في هذا اختلفنا ولا عن غرارة أصحاب علي وعجلتهم وتسرُّعهم وتنازُعهم دفعنا ، وإنما

كان القول في التمييز بينهما في الدهاء والنكرى وصحة العقل والرأي البرّ ، لا على أنا لا نصف الصالحين بالدهاء والنكرى ولا نقول : « ما كان أنكر أبا بكر ابن أبي قُحافة وما كان أنكر عمرّ بن الخطاب ! »، ولا يقول أحد عنده من الخير شيءٌ : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أدهى العرب والعجم وأنكر قريش وأمكر كِنانة » لأنّ هذه الكلمة إنما وُضعت في مديح أصحاب الأرب ومَن يتعمّق في الرأي في توكيد أمر الدنيا وزبرجَدِها وتشديد أركانها ؛ فأما أصحاب الآخرة الذين يرون الناس لا يصلحون على تدبير البشر وإنما يصلحون على تدبير الخالق للبشر ، فانّ هؤلا لا يُمدحون بالدهاء والنكرى ولم يُمنعوا هذا إلا ليُعطوا أفضلَ منه ؛ ألا ترى أنّ المُغيرةَ بن شعبة ، وكان أحد الدُّهاة ، [قال]: « أنتَ كنتَ توهم شيئاً فتلقيه عنك ، ما رأيتك مستجلياً أحداً إلا رجحته كائناً مَن كان ذلك الرجل ، كان ـ والله ـ أعقل من أن يُخدع وافضل من أن يَخدع »، ولم يذكره بالدهاء والنكرى ، هذا مع عجبه باضافة الناس ذلك اليه ؛ ولكن قد علم أنه إن أطلق على الائمة الألفاظ التي [لا] تصلح لأهل الطهارة كان ذلك غير مقبول منه ،فهذا هذا .

وكذلك كان حكم قول معاوية للجمع : « أخرجوا إلينا قتلة عثمان نحن لكم سلم »، فاجهد كلَّ جهدك واستعِن بمن شايعك إلى ان تتخلّص الى صواب رأي في ذلك الوقت أضله علِيّ حتى تعلم أنّ معاوية خادع وان عليّاً كان المخدوع ؛ فإن قلتَ : وقد بلغ ما أراد ونال ما أحبّ ، قلنا : وهل رأيت كتاباً وُضع لا على أنّ عليّاً كان قد امتُحن في أصحابه في دهره لما لم يُمتحن به إمام قبله من الاختلاف والمنازعة والتشاحّ على الرئاسة والتسرّع والعجلة ، وهل أُتي إلا من هذا المكان ؟ أوَ لسنا قد فرغنا من هذا مرّةً ؟ وقد علمنا أنّ ثلاثة نفر تواطؤوا وتتابعوا على قتل ثلاثة : فانفرد ابن مُلجَم بالتماس ذلك من عليّ ، وانفرد [عمرو بن بكر التميمي] بالتماس ذلك من عمرو بن العاص وانفرد [البرك بن عبد الله الصريميّ] بالتماس ذلك من معاوية ؛ فكان من الاتّفاق او من الامتحان أن كان عليّ المقتول من بينهم ، وفي قياس مذهبكم أن

تزعموا أنَّ سلامة معاوية وعمرو إنما كانت بحزم كان منها ، وان قتل عليّ إنما كان من تضييع كان منه ، إذ قد تبينّ لكم من الابتلاء والامتحان في نفسه خلاف الذي قد شاهدتموه في عدوّه وكلّ شيء سوى ذلك فانما هو تبع للنفس ، فهذا باب :

[١٧ ـ كفر معاوية في ادعاء أخوة زياد بن أبيه]

والباب الآخر الذي عتبتُ عليك فيه ، وهو زعمك ان معاوية قد ضلّ من وجوه وكفر من وجوه ، فأخطأتَ في إكفاره ولم تصب الحقّ في تفسير بعض الوجوه ؛ زعمتَ أنه كفر في حكمه بادّعاء زياد بن أبي سفيان وأن مَن جعل الولد للعاهر وجعل الحجر للفراش ومن ردّ الحكم المنصوص وبدّل هذا القول المفسّر فقد كفر ؛ وهذا منك سرف وبعد ، وهو شبيه بمذهب أصحاب التكلّف والتزيّد ومَن يريد [بـ] ـالعفن الذي في نفسه والذلّة التي يجدها في قلبه والريبة التي تشتمل عليها أضلاعه أن يُذلّ مَن حضره ويوهم من سمع كلامه ، انّه إنما يكفِر من أكفر من فرط في تعظيمه لحرمات الله ومن شدّة غضبه على مَن عصى الله ؛ وعهدي بك تشنع بذلك على العُمريّة والرافضة وعلى الخوارج والبكريّة .

ولو كان معاوية صنع ما تقول على ما فسّرتَ ورد المنصوص على ما ذكرتَ ، لكان جلّة السابقين وكبراء التابعين وفقهاء المحدّثين قد سبقوك إلى إكفاره وتشريكه ، بل كان أعداؤه وأهل الخلاف عليه قد أكفروه وسبقوا إلى ذلك فيه ، فان زعمتَ أنه قد كان عند غالية الشيّع وعند جميع الخوارج كافراً ، قلنا : لعمري ، لو كانوا لا يُكفرونه على خصال كثيرة ولا ترى انت وأصحابك أنه قد كفر من أجلها ، ثم اكفروه على هذه الخصلة ، لكان في ذلك متعلّق لهم ومصاب ومجال ومَشْبَع ؛ ولكن الفريقين جميعاً يكفرانه على جميع خصاله التي أنتَ لا ترى بعضها إثماً ، فضلاً عن أن تكون [عندك] فسقاً ، ولا تراها فسقاً ، فضلاً عن ان تكون عندك كفراً .

ثمّ اعلمْ أنّه لا بدَّ لك من الخبر على تأثيم مَن تـرك إكفاره ، بـل على إكفـار مَن ترك إكفاره ، إذ كان إنما كفـره بردّ المنصـوص وما لا يحتمـل التأويـل ؛ وأمّا أن تجـرأ أن تـدعّي عليهم من إكفـاره خـلافَ مـا ثبتت بـه الشهـادة عنهم وخـلاف المعـروف من قولهم ، فلو كـان كذلـك لكا [ن] الخبـر به مشهـوراً ولكان معـروفـاً مستفيضـاً ؛ بل ينبغي أن يكـون قد كـان ثبت عنده أن وطْيـاً قد كـان ، ورأى فيه الشبـه والمخايـل والاخلاق والشمـائل وشبّـه له القـافة ، وذهب في سبيـل الفراسـة وتـأويل قـ ـل عمر وسمـع كلام أبي مـريم وقوّاه رأي المُغيـرة فقال : « هـو ابن أبي سـفيان »، لم يذهـب الى تثبيت حكم ولكنّه حَبَل كان عنده من نـطفته فكـأنّه قـال : « هو من نطفة أبي سـفيان »، وكان أغلظ أحوالـه أن يكون كمن استـلاط اليوم منّـا رجـلاً أو أقـرّ بـولـد عنـد مـوتـه ليصـرف الميـراث عن آخـرين ، ولم يعتــرض على قول رسول الله صلى الله عليـه وسلم وحكمه وسنّتـه بردٍّ ولا جحـود ؛ والحاكم عنـدك وعند أصحـابك قـد يعطّل الحكم ويحكم بـالهوى ويجلد مَن يستحقّ القـطع ويقطع مَن يستحقّ الجلد ؛ ثم أنتم لا ترون إكفاره ولا تشريكه .

[١٨ ـ موقف الجاحظ الحيادي]

ولم أنصـب نفسي ـ حفـظك الله ـ لاحتجاج لـه إلاّ بمـا يلزمني من الاحتجـاج مَن لا يرى إكفاره من السلف ، وإيّـاهم أردتُ وعنهم دافعتُ ؛ وعلى أنّي عـلى كلّ حـال أكره الـزيادة والنقصـان ، والعدل أولى بنـا وهو مـذهب إخـوانـنا ومشـايخنـا وسلفنـا من المعتزلـة في فرق ما بين الاكفـار والتفسيق ، وفي فرق مـا بين التفسيق والتـأثيم ، ولسنـا ممّن يميـل في شـقّ عن شقّ ويتعصّب لبعض عـلى بـعض ومَن يبخس حقّ الـلون ، فكـأنّـك بـه قـد تبخس حقّ مَن فـوقـه حتى تصـير إلى أئمّته المهتدين وخلفائه الراشـدين ؛ لستُ عُمرياً دون أن أكون عَلَويّاً ولا علويّـاً دون أن أكـون عثمانيّـاً ، اللهمّ إلاّ بما أخصّ بـه العِترة بـسبب القـرابة ، وأمّـا في غير ذلـك فليس شـأني إلاّ محبّـة الجميـع والتـوفير عـلى الكـل ودفـع الـظلامـة عن الكبــير والضعيف عـلى قدر مـا شاهـدنا عليـه من الحالات ؛ وليس هـذا الكتاب من كتب

أصحـاب الأهـواء ولا من كتب المتكسّبـين ولا المتقرّبـين ولا من كتب المفلقـين بـالباطـل ومَن جـرى من النفـاق عـلى أخبث منشـإ وأسـوإ عـادة ؛ فعليـك [بسنة] أسلافك ودع عنك ما قد أخذ الناس فيه .

[١٩ ـ السفيانية لا تضلل معاوية لمبايعته ابنه يزيد]

وأمّا براءتك منه على قتل حُجْر وأصحابه وإطعام عمـرو خراجَ ، وعـلى ادّعاء الخلافة وعلى الحكم بالهوى ونَبْذ كثير من أحكـام الكتاب والسنَّـة ، والسير فـي الحـرب والسـلم سيرة ملوك الغلبة ، فهذا مـا لم أمْلِك عليـه ولم أنكره منـك ، وعـلى ذلك مضى سلفـك الصالـح ـ نصر الله وجـوههم ـ ؛ ولكنّي عتبتُ عليـك في قولك : « وضللتُه أيضاً لبيعته لابنه »، فان قلتَ : « وضللته أيضـاً بالمبـايعة ليـزيد لانه كان صاحب كذا وكذا ويقول كـذا »، لكان صـواباً ولكـان قولاً عـدلاً ولكان مصفىً مهذباً ، وأجوَد العبارات ما كانت الدلالة فيهما غير مـستنكرة ويكون اللفظ للمعنى طبقـاً فاضـلاً ولا ناقصاً ، وأمـا أن تقـول كلمـة مـرسلة الـوجـوه مـطلقـة [........ فلا]

ضلَّلتَه لانه بـايع ابنـه ، وما بـاس بيعة الابن إذا كـان لذلـك مستحقاً ؟ ما الابن الّا كالأخ وما الأخ إلّا كابن العم ؛ وما علمـك ؟ لعلّ عليّـاً قد بـايع الحسن ولعلّ الحسن قد بايع الحسين ؟ فأيُّ حجة تدفـع ذلك ومـا البرهـان على خـلاف ما جاء من ذلك ؟ وهـل يعترض عـلى هذا المـذهب مسلمٌ وهل يجهله عـاقل ؟ فـأيّاك أن تعـود إلى هذا اللفظ مفسّـراً أو مشروحـاً مثبتاً ؛ فـان من حقّ العلم عليك ومن شكر أياديه عندك ومن الصون لعراضـه والدفـع لقدره أن تخلِص الفـاظك من كـل هجنـة وأن تصفّيها من كـل كدر وان تتخيّرَ من الألفاظ أبهـاها وأقـربهـا دلالـة وأن تقصد من المعاني لاطهرها شرفاً وأرفعهـا قدراً وأكـرمها منصباً ، وقد يلزم مَن عبَّر عن العلم وتـوكّل بـه وأضـاف نفسـه إليه أن يعبِّـر عنـه بـأبـيَن العبـارات وأقـرب الاختصـار وأن يضعه في مـوضـعه وأن يجـري عليه كـما ينبغي على نفسـه وأن يجببـه

إلى السامع بالإنصاف ويُنهيه عنده بالترسُّل ويوتيه بالنصيحة ، وأن يجعل قائده إلى القلوب والعمل وسائقه إلى العقول الانقطاع إليه ، ولا يغالب خصمه ولا يناهب الكلام من ناقله ولا يعجله عن جوابه إذا فاتحه ولا يُظهر تضجره إن هو أبطأ عنه ولا يغتنم بخلطه إن هو سها ولا بشيء يلفظه ظنّاً وهو يجد له في الصواب محتملاً .

[٢٠ ـ كتاب القضية مدخول لفظاً وشهوداً ومضموناً]

وزعمتَ أنَّ كتاب القضيَّة في الحكمين يُثبت للخوارج حجَّتهم وأنَّ لفظه يمتنع فيه التوجيه والتورية ، وسألتني أن أكتب لك الكتاب لتجمع بين مخارج لفظه ودلائل وصفه وبين احتجاجي له في ضماني عليه ؛ والكتاب الذي يدور في صحف أصحاب الاخبار والاسناد هو هذا الكتاب الذي أنا مصوِّره لك ، ولكني بعد ذلك عائد إلى أسانيده بالتصفُّح في التثبُّت وعلى أصل مخرجه بالتفتيش والتنقير إن شاء الله :

بسم الله الرحمن الرحيم ، حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن الزُّهري وحباب بن موسى وعليّ ومجاهد عن محمَّد بن إسحق : بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما تقاضى عليه أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (قال معاوية : « لو سمَّيتُك بهذا لم أُحاربْك ولولا أنَّك أمنّ منّي ما قدَّمتُك » ، فأبى عليّ مليّاً من النهي . ثم تسمَّح وكتب : هذا ما تقاضى عليه عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان : قاضى [عليّ بن أبي طالب] على أهل العراق [ومَن كان معه] من شيعته من المؤمنين والمسلمين [وقاضى معاوية بن أبي سفيان على أهل الشام ومَن كان معه من شيعته من المؤمنين والمسلمين] أنّا ننزل عند حكم الله في كتابه فيما اختلفنا فيه من فاتحته إلى خاتمته ، نحيي ما أحيا ونميت ما أمات ، فما وجدنا في كتاب الله مسمّى أخذنا به ، وما لم نجده في كتاب الله مسمىً فالسنَّة العادلة الجامعة غير المفرقة فيما اختلفنا فيه ؛ والحكمان عبد الله بن قيس الاشعريّ وعمرو بن

العاص ؛ وأخذ علي ومعاوية عليهما عهد الله ليحكمان بما وجدا في كتاب الله وما لم يجدا في كتاب الله مسمّى فالسنّة العادلة الجامعة غير المفرقة ؛ وأخذ الحكمان من عليّ بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان الذي يرضيان من العهد والميثاق ليرضيان بما يقضيانه فيهما من خلع مَن خلعا وتأمير مَن أمّرا ؛ وأخذا من علي ومعاوية والجندين كليهما الذي يرغبانه من العهد والميثاق وأنّهما آمنان على أنفسهما وأموالهما ، والامّة لهما أنصار على ما يقضيان به عليهما وأعوانٌ على مَن بدَّل وغيَّر ، وأنّه قد وجبت القضيّة من المؤمن والآمر والاستفاضة ورفع السلاح اين ما شاؤوا وكانوا على أنفسهم وأهاليهم وأموالهم وأرضهم وشاهدهم وغائبهم ؛ وعلى عبد الله بن قيس وعمرو بن العاص عهدُ الله وميثاقه ليَقضيان بين الأمة ولا يذراهم في الفرقة والحرب حتى يقضيا ؛ وآخر أجل القضيّة بين الناس في انسلاخ شهر رمضان ؛ فإن أحبًا أن يعجّلا ذلك عجّلاً ، وإن أحبًا أن يؤخرّا ذلك عن مُلاءمتهما وتراض أخّرا ؛ وإن هلك أحدُ الحكمين فانّ أمير الشيعة والشيعة يختارون مكانه رجلاً لا يألون عن أهل المعدلة والاقتصاد ، وانّ ميعاد القضية أن يقضيا بمكان من أهل الكوفة وأهل الحجاز وأهل الشام سواء لا يحضرهما فيه إلاّ مَن أرادا ، فان أحبًا أن يكون بأذْرُح وبدومة الجندل كان ، وإن رضيا مكاناً غيره حيث أحبًا فليقضيا على علي ومعاوية أن يجتمعا على الحكمين ؛ شهد عبد الله بن عبّاس والاشعث بن قيس وسعيد بن قيس وورقاء بن [. . . . .] البكريّ الخارفيّ وعبد الله بن طُفيل البكاويّ و (يقال : عبد الله بن طليق البكاوي) وجرير بن يزيد الكنديّ وعبد الله بن حجل العجليّ وعُتبة بن زياد المذحجيّ (أو الانصاري) ومالك بن كعب النحلي (أو الهمداني ويقال : عتبة ابن زيد ويقال زياد بن كعب ».

ـ وأنا أقول ـ حفظك الله ـ أن كتاب القضية كتاب مدخول منه ما يشبه ألفاظهم ولحنهم وطبع الفصاحة وقريحة البلاغة ـ وللقوم كلام معروف وجوهر معلوم متى تكلّف المولّد لم يستطع تغليط الجهابذة فيه إذا طال شعره وامتدّت خطبته ، وكذلك رسالته واحتجاجه ، وقد يخفى ذلك في الشعر القصير والكلام

القليل ـ ؛ وفي هذه القضيّة كلام ركيك ضعيف خفيف سخيف ، وفيها ما يضارع العجمة ويناسب الضعة ؛ وممّا يُبهمه أيضاً اختلاف الخوارج والشيعة وما بين أهل الشام واهل العراق من الزوائد والنقصان فيه مع ضعف أسانيده وحال رُواته عند رُواة الآثار وحمّال الأخبار وعند ناقلي الحلال والحرام ، ولأنّ أبعد غاياتهم فيه الزُهريّ وأمتن ما يعتمدون عليه ابن اسحق وهذان لم يدركاه ولا شاهداه ؛ فكلّ مَن روى ذلك عنهما فليس بالمحمود ولا المثبت المقبول ؛ وليس العلم به وبصحّته كالخبر الذي ليست للخاصّة فيه فضيلة على العامّة وإنّما هو خبر يدرَك عند مَن يطلب مثله ؛ فإذا لم يجده في معدن الصحّة وفي جوهر الصدق ومُصاب السلامة والبراءة من التهمة فكان معرضاً لأصحاب الأهواء أو لمن له في النقصان منه والزيادة فيه وفي تحريفه وتبديله أقوى العلل ؛ لم يكن لك ان تقضي به على عليّ بن أبي طالب في سابقته وشدّة ورعه واتّساع معرفته وصحّة غريزته وثبات حجّته فكنت خليقاً أن تردّ حكم ذلك إلى الأصل الذي به عرفتَ فضيلته ونقصان غيره عن درجته .

وعلى أنّ عامّة الشهود المذكورين فيه مشكوك في نسبهم ، مختلف في أسمائهم ، ثم لا تجدهم إلاّ أقلّ القليل من وجوههم وذوي العدالة والأقدار منهم ، حتى كان واصفه حيث وصفه وصفه [وصفَ] مَن له الخيار عليه : إن شاء أثبته وإن شاء أنكره ؛ ونحن لا نشكّ أنّ عليّاً إنّما اعطى القوم لفظاً ليحكم واستحلّ ذلك التوهُّم لِما رجا في تلك المهلة والهدنة من رجوع بصائرهم إليهم ومن اجتماعهم بعد فرقتهم ؛ وفي هذا الكتاب أنّ أجل القضيّة سلخ شهر رمضان ، وهذا كلام ظاهره ينقض ظاهر التدبير الذي لا وجه للتحكيم غيره ولا عذر فيه سواه وليس نقضه له بما يعرف [بالاستنباط] وبعد التفكير فيُدَّعى فيه الغلط ، بل هو ظاهر فيها قائم بها .

وقد قسمنا أقسام التدبير الذي لا يجوز على غيره وعددنا أبواب ذلك وسألنا المخالفين لنا أن يزيدوا فيها وينقصوا منها ، فلم نجد ذلك بعد التفكير منا ومنهم وبعد أن مرّت عليه الدهور وبردت عليه الحقود ؛ فكيف يجوز لنا أن نظن أنّ

علياً وأصحابه تولّوا نقض تدبيرهم بأيديهم ولم يدفعوه ولم يحتالوا فيه وكيف سهلوا وكيف هان عليهم موقعه وهم لا يطمعون في سواه ولا حيلة لهم غيره ؟ وبعدُ فمدار الكلام إنّما هو على أنّ عليهما أن ينظرا في كتاب الله وفي سنّة نبيّه صلى الله عليه وسلم ، فإنْ دلّ الكتاب على أنّ علياً هو الإمام فعليّ هو الإمام وسبيل السنّة في ذلك سبيل الكتاب وكذلك حالها في الحكم لمعاوية .

فخبّرني ـ رحمك الله ـ وقف عندما أسألك عنه عن الكتاب ، كيف يجوز أن يدلّ على معاوية وكيف جواز ذلك وأين بابه وأين مفتاحه والطريق إليه ، في أيّ سورة ذلك الدليل وفي [أيّ] آية ذلك البرهان يُصاب ؟ وأين تلك السنّة ، وأين تُطلب ، ومن أيّ شكل هي ، وما لفظها ، وما أصل معناها ؟ وقد علمتَ أنّ القرآن الذي أشاروا إليه هو الذي في مصاحفنا وإنّ السنن التي قصدوا إليها هي التي في صحفنا ممّا فرض الله في كتابه وسنّة النبيّ صلى الله عليه وسلم في أمّته ؛ فانظرْ فيهما وتبيّنْهما وفتشْهما بالنظر الشافي والتقليب المستقصي : هل تجد فيهما اسم معاوية أو صفته او حليته او صفة عمله او حليّة عمله ؟ .

وقد علمنا ان الله الجليل قدره لم يقل في كتابه : « اقبلوا شهادة أبي بكر وعمر وعثمان » ولكنّ الله لمّا قال : ﴿ مِمَّن تَرضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ﴾ وجدناهم مرضيّين نصّاً فقبلنا شهادتهم ؛ وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ليؤمّكم خياركم »، فإذا كان الغرض الذي إليه ينزع الكلام ويشير القول إليه الخيرَ دون الشرّ والفضل دون النقص ، فكلّ مَن كان خيراً كان احقّ بتلك الإمامة ؛ فإن كان كتاب القضيّة إنّما دعا الحكمين إلى هذا الجنس من النظر ، فليس لمعاوية فيه درك ، ولا متعلق ولا طمع ، وإن كان على غير هذا الوجه فخبّرني ما هو وما شكله وأيّ صورة هو .

وقد قالوا في وصف السنّة فجعلوها العادلة والجامعة غير المفرقة ، والسنن كلّها عادلة وكلّها جامعة غير مفرقة ، فأيّتهنّ هي وما علامتها وما شبهتها ؟ ويدلك على فساد هذا الأمر أنّه لم يأتِنا قطّ أنّهما مذ نفذا إلى أن انقضى امرهما

تذاكرا شيئاً من ذلك في خلاء ولا ملاء ولا التمسا تأويلاً ولا خرّجا تفسيراً ؛ ولا سمعنا في ذلك إلاّ ما كان منهما عند المراوضة انّ الناس لا يكتبون بعد تفريقهم إلاّ على رجل لم يَخُض في الدماء وليس لأحد قبله بيعة ولا وَتر ؛ فهذا خلاف الشريطة والذي وقعت فيه القضية وإنّما جعل إليهما سطراً في كتاب الله والسنّة على أيّهم أدلّ فقط ، فتركا ذلك البتّة .

ثمّ ابتدءا باباً آخر لم يجر لهما ذكره ولا وقع عليه شرط ؛ فلو ان أبا موسى قال : « قد صرفتُها إلى ابن عُمر »، وقال عمرو : « قد صرفتُها الى ابني عبد الله ابن عمرو ما كان إلاّ كقول ابي موسى ، وهذا عند جميع من شهد القضية خلاف ما وقع عليه شرط القضية ، وهما ـ حفظك الله ـ لم يحكما على ان لهما ان يخرجاها إلى مَن أحبّا وإنّما جُعل إليهما في ظاهر الكتاب أن يجتمعا على أحد الرجلينْ اللذين حكّماهما ، فأمّا ان يقول له عمرو وهو يعرف رأيه في عمر وميله إلى ابن عمر : « ما لهذا الأمر خيرٌ من رجل لم يخُض في الفتنة ، له صحبة ولم يتلطّخ بالدماء وليست قبله تباعة ولا ضغينة ، فيكون مرضيّاً ابن مرضيّ » ثمّ توهّمه ذلك ليسكن إليه ويظهر أن الرأي في وضع شورى بين مَن كان هذا شكله وهذه صفته ، وهذا خروج من حدّ القضيّة ، وقد صارا حينئذ يختاران للأمّة ، فلا يثبت ذلك الحكم منهما إلاّ أن يكونا عن توكيل منهما لهما ، أو يكون لأنّ مكانهما من الإسلام أن يضعا الإمامة حيث احبّا ؛ وإذا كانا كذلك فهما أحق بالإمامة ممّن يريان إقامته وتفويعه ، فلا الأمّة وكّلتهما ولا مكانهما هذا المكان والحمد لله.

ووجه آخر تستدلّ به على صواب ما قلنا وتعرف به صحّة ما فسّرنا : كأن قائلاً قال : كان عليّ قد كان علم انّ عمراً وأبا موسى يوم القضيّة وفي تلك الحال لم يكونا عند أهل العراق وأهل الحجاز عدلَين مرضيّينْ ، وإذا لم يكونا مرضيّينْ لم يكونا شاهديْن ، وإذا كانا بعيدين من جواز الشهادة كانا من جواز الحكم أبعد ؛ فاظهر عليّ قولاً يتوهّم المتوهّم معه أنه قد رضي بحكم عمرو وقد علم انّ في قلوب اصحابه منه ومن سقوط عدالته ما فيها ، وعلم انّ عمراً وأبا موسى [إن]

اجتمعا على الحكم له فقد كفي القيل والقال ، وإن اجتمعا على معاوية ، وعمرو عندهم لا يجوز حكمه ، كان على دارس أمره ، لأنّ الحكم كان مجعولاً إليهما ولا باجتماعهما يقع ؛ ولا يقع أن يلزم عليّاً حكمُ عمرو لمعاوية ولا يلزم معاوية حكم ابي موسى لعليّ ، وإنّما الشرط ان يجتمعا ومَن اجتمعا عليه فله إنكار ذلك الحكم إذ كان واحدٌ مَن لا تتم الحكومة إلاّ به فاسدَ الحكم ؛ وإنّما استجاز علي ان يظهر كلاماً ما ، يحتمل الحكم الفاسد لمكان التقية ، وليس هذا التدبير كان معروفاً عنده ؛ وهذا ـ أبقاك الله ـ تدبيرٌ معجب ورأي مؤنق في هذا المكان وعند هذه البلية وعند الضيقة والتقية والخوف من الفتنة لا كتدبير معاوية في ذلك ، فانّا لا نجد له في ذلك مذهباً مرضياً ولا تدبيراً صحيحاً .

[٢١ ـ عزل علي معاوية لضلاله فتمرد عليه]

وقد علمت ـ أبقاك الله ـ انّ الذي أخرج معاوية إلى حرب علي ولزوم محاربة عليّ عزْلُ عليّ له حين بويع له وحين لم يستحلّ ان يدعه طرفة عين ، ولذلك حين قيل له : « لو شئتَ ان تدعه حتى إذا تمكن الأمر ومهد وضرب الحقّ بجرانه عزلتَه » ـ قال : « ما كنت متخذ المضلّين عضداً » ؛ فقد دلّ ذلك على ان رأيه كان فيها متقدّماً ؛ فعليّ عندما قال ذلك القول وصنع ذلك الصنيع الذي يَتوهّم عنها المتوهّم انّه قد رضي بعمرو حكَماً وكره أيضاً بما اعطاه الله من صحّة الغريزة وقوّة القريحة وعجيب التدبير ان يجيء برجل غير ابي موسى ويجيء معاوية بغير عمرو ، فكان إنكار حكم عمرو وإزالة جوره ، إذ كان عند اهل العراق والحجاز ظنيناً ، أهوَن وأيسر من أن يرضى برجلين مسلمين صالحين بريّين نقيّين مسلمين سليمين طاهرين نقيّين ؛ فإن هما غلطا او بدلا كان نفي حكمهما والسخطُ لِما أبرما من قضيتهما أعسرَ وأضيق ، بل قد اراد ان يجرّح شهادة ابي موسى ويسقط حكمه عند جميع الأمة لانه بالأمس قد كان روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الروايات في التثبيط عن عليّ وأنّ من سعى معه في تلك الجيوش والحروب مفتونٌ ، حتى جرى بينه وبين الحُسين وعمّار ما قد

رواه الناس وشاع في الآفاق ، وصار بعد ذلك حكماً لهذا الفاتن ليحدّ إليه وإلى خبره .

كذلك كان ظاهر حالهما ، فنفس حال أبي موسى كانت جارحة لشهادته مفسدة لحكمه ، فأراد عليّ أن يكون بالخيار وكان ينبغي لمعاوية في الحزم أن يفطن لهذه المكيدة وأن يرتاب بظاهر رضاه بأبي موسى ، والحال عنده معروفة وجواسيسه كثيرة ومن يُكاتبه أكثر عدداً .

[٢٢ ـ الشيعة والخوارج غافلون عن فهم علي]

والناس ـ حفظك الله وأرشدك ـ عن تدبير هذا الامام غافلون ، لا الشيعة يعرفونه فيضيفونه اليه ويحتجون به على الخصوم ويوسعون الناس عذراً عند تضايق الأمر عليهم فيه ، ولا الخوارج الذين هم عليه ينقمون والمكفرون له من هذه المارقة يعرفون ذلك التدبير ، وهم كانوا من خاصّة جنده من المحقّقين وأصحاب البرانس وأصحاب السيما دون غيرهم ، فيرتدعون عن إكفاره وشتمه وخلعه ؛ وقد كان ينبغي لمن خالف عليّاً مرّة ـ حفظك الله ـ وهو مستبصر في نفسه ثمّ تبيّن أنّ الحق معه ، أن يرتدع عن الاستبصار في أمر آخر فلا يدري لعلّ السبيل فيه كالسبيل فيما قبله .

[٢٣ ـ ضلال الخوارج في قضية التحكيم]

فلو قال لهم بعض نصحائهم : قد علمتم ما كان منّا يومَ رفع المصاحف من إضلال وجه الرأي ومن خديعة معاوية إيّانا ومن إصابة عليّ وجهَ الرأي وتنبيهه لنا ، فلعلّ الذي أعطى من نفسه في الحكمين من شكل ذلك التدبير ؛ بل قد رأيتم وسمعتم ما كان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومَ قضيّة الحُدَيبية حين ألغى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكتاب اسم النبوة

وقاضاهم على أنَّ مَن أتاه من عدوّه كان عليه ردُّه ، ومن صار إلى عدوه من اصحابه فليس عليهم ردّه ، فماجوا وضاقت نفوسهم وقالوا : « هذه دنيّة »، حتى قال أبو بكر : « لو كانت دنيّة ما أعطاها »، ثمَّ اقبل على عمرو وقال : الزم غَرْزَه واعلم أنّه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعطِ دنيّةً »، فلم يرَ المسلمون قطُّ قضيّةً أعظم عليهم بركةً منها ؛ فلو فكّر القوم فيما أعطى الله أنبياءه وخلفاءه من صواب التدبير والرأي والمعرفة بغوامض الأمور لما تهوّروا تهوُّر الأغمار ولا أقدموا على تخطئة الائمة إقدامَ مَن لا يحب التمكن ولا يعرف فضل عقل الإمام على رعيّته .

[٢٤ ـ موقف ابن عباس من عزل معاوية]

وأمّا ما رويتم عن ابن عبّاس أنه قال لعليّ حيث أبى إلاّ عزله وقال : « ما له عندي إلا السيف حتى يغلبه الحق » ـ فقال له ابن عبّاس : « وما لك عنده إلاّ السيف حتى يغلبك الباطل » ، فانَّ باطل معاوية يومَ عزَمَ على عزله [لا] يتخوّفه على الخلافة ولا ظنَّ أحد ولا دار في وهمه ولا خطر على باله ان الامور ستنفتح وان الحوادث ستنفتق بما تفتّحت وتفتّقت ، ولا ظنوا ان تلك الأعاجيب كانت كامنة في تلك الحالات ، ولا قدّر ذلك معاوية ولا ظنّه ولا طمع فيه ، ولكنها امور تناتجت وأعاجيب تلاقحت وامور كثيرة ـ حفظك الله ـ قد كانت محقّرة الاوائل مصغّرة الأسباب ثمَّ ترامت بها أمواج البلاء وزخرت بها بحور الفتن حتى عتت وخرجت من الجبلة وطغت وامتنعت على الأطباء ؛ وقد قال مُجاشع الرَّبَعي : « ليس بكبير ما أصلحه المال » وقد يصلح المال الداء وينجع فيه الدواء وربّما أعضل الداء فامتنع الشفاء .

[٢٥ ـ العامة تستنكر مقتل عثمان فتميل الى معاوية]

وقد خبّرتُك أنَّ دم عثمان كان من أمتن اسبابه وأجود

مصايده ، وكان ذلك الدم دماً أكثرته الجماعة واستفظعته الدهماء وكبر في نفوس العامة وفي نفوس اكثر الخاصة ؛ وقد رووا انَّ ابن عمر لَمّا هجم على طارق مولى عثمان يأكل الطعام على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ما ظننت ان العقوبة بقتل عثمان تبلغ ما أرى ! »، وقال عدي بن حاتم : « إنَّكم إن قتلتم عثمان لم تَحبِق فيه عنز »، فلما قتل ابنه وفقئت عينه ودخل بعد ذلك على معاوية وقد صار الأمر إليه وله ، قال له : « هل حَبقت العنز ؟ » - قال : « أي - والله - والتيس الاضخم ! »؛ وزعموا أنهم حين سمعوا قول كثير في ولد عثمان :

وابـن الـذي عُـوقِـبَـتْ في قَـتْـلِهِ الـعَـرَبُ

عجبوا مّما أُلهم ؛ وقد قالوا لعليّ بن أبي طالب ولاصحابه يوم الجَمَل :

رُدّوا عـلـيـنـا شـيـخَـنـا ثـم بَـجَـلْ ننعي ابن عفّـان بـأطـراف الأسَـل

فإذا كان جند طلحة والزُّبير وحالهما في دم عثمان والعون عليه وهو محصور حالهما وهم يقولون هذا القول ويطالبون عليّاً بدمه هذه المطالبة ، كيف تتعجب من معاوية وجنده وكيف لا يطالب معاوية عليّاً بدم عثمان بأهل الشام إذ كان طلحة والزُّبير يطالبان عليّاً بدمه ، وأصحاب طلحة والزبير يوم الجمل هم فتحوا هذا الباب لأصحاب معاوية يوم صفين ؟ وإنما ذكرتُ لك هذا لتعلم أنَّ معاوية يوم عزلَه عليّ لم يكن بالمخوف على ما تهيأ له وأنفق على يده ؛ فإن قلتَ : فانَّ أكثر الناس قد أكثروا في عليّ وقالوا : « قتل عثمان »، وقال حسّان بن ثابت :

يـا ليتَ شعـري وليتَ الـطيرَ تُخبرني مـا كـان شـأنُ عـليٍّ وابنِ عفـانـا
لـتـسـمـعـنَّ وشـيـكـاً في ديـاركـم الـلّهُ أكـبـرُ يـا ثـاراتِ عُـثـمـانـا

وقال الوليد بن عقبة ايضاً :

بَني هَـاشـمٍ رُدُّوا سِـلاحَ ابنِ أُختِكُمْ ولا تَـنْـهَـبُـوهُ لا تُحِـلّ مَـنـاهِـبُـه

[٢٦ ـ المعتزلة يتوسطون الفرق]

قلتُ لك إني قد سمعتُ من هذا روايات ورَويتُ فيه أشعارا وسمعتُ من الناس فيه خوضاً كثيراً ، وسأُقيمك على الواضحة وأقف لك على الجادَّة ، بل على العلم العظيم والمنهج الفسيح إن شاء الله ؛ وخير الاقاويل بل أعدلُها وأرضاها عند الله أقصدُها ، ولذلك اخترنا الاعتزال مذهباً وجعلناه نحلةً ومفخراً ؛ وسنقدِم قبل القول في هذه المسألة قولاً ، فافهمْه ، قالت الجهميّة : « لا نقول إنَّ الله معنى ولا نقول إنه شيء ، ومتى أضفنا إليه شيئاً فمتى نحن أضفناه إليه فذلك الشيء فعلٌ من أفعاله ، كذلك سمعه وبصره وعلمه وقدرته ». وقالت الرافضة: « هو جسم فضلاً عن ان نقول إنّه شيء »؛ وقالت المعتزلة : « هو شيء وليس كمثله شيء ، وليس بجسم وليس علمه بفعل ولا صنع ، وإنما قولنا : له علم ، كقولنا : هو عالم ، نريد أنه لا يخفى عليه خافية ».

وقالت المرجئة: « القاذف مؤمن »، وقالت الخوارج : « القاذف كافر »، وقال بعضهم : مشرك ؛ وقالت البكريّة : « بل هو أسوأ حالاً من المشرك ، والمُنافق أشدّ عذاباً من الكافر »؛ وقالت المعتزلة : « هو فاسق كما سمّاه نصّاً ولا نسمّيه كافراً فيلزمنا أن نلزمه أحكام الكفّار وليس ذلك حكمه ، ولا نقول : مؤمن ، فيلزمنا ولايتُه ومدحه وإيجاب الثواب له ، وقد أخبرنا الله تعالى أنّه مشؤوم من أهل النار ، فنزعم أنّه في النار مع الكافر وأنّه لا يجوز أن يكون في الجنّة مع المؤمن ».

وقالت الخوارج في قتال الفئة الباغية: « نسير فيها بالإكفار وبالسبي والغنائم وباتّباع المدبر والاجهاز على الجريح »؛ وقالت المرجئة : « لا قتال »؛ وقالت المعتزلة بالقول المرضيّ وهو إيجاب القتال على جهة الدفع لا على القصد إلى القتال ولا على السبي ولا على الاجهاز على الجرحى ولا على استحلال

الاموال ، فلم نُفرط إفراط الخوارج ولم نقصِّر تقصير المرجئة ، ودين الله بين المقصِّر والغالي ، وهذا الاشتقاق ، وهو التوسُّط والاقتصاد ، هو الاعتزال لغلوّ مَن غلا وتقصير من قصَّر ؛ والاصل الذي نبني عليه أمورنا فيمن ليس عندنا كعليّ وسابقته وأرومته وكامل خصاله بل في أدنى رجل من أوليائنا ، أنّا متى وجدنا له عملاً يحتمل الخطأ والصواب لم يكن لنا ان نجعل عمله خطأ ، حتى يُعيينا فيه وجه الصواب ، وليس لنا بعد ان قضينا بانه خطأ أن نقضيَ بأنه خطيئة حتى يُعيينا القدر بانه سليم من طريق المآثم ، فان قضينا بانه إثم فليس لنا أن نقضي بانه ضلال ونحن نجد لصرف الدفع عنه أنه ضلال الى الاثم محتملاً ، وإن قضينا بانه ضلال فليس لنا ان نقضي بانه كفر إلّا بعد ألّا نجد من ذلك بدّاً فيكون الحقّ أحقَّ ما قُضيَ به وصُبر عليه .

فمن كانت ـ حفظك الله ـ هذه سيرته وطريقته في أدنى أوليائه ، فكيف تظنّه في أرفع أوليائه ؟ فهذا ما لا يحلّ لي أن اظنّه بعليّ بن أبي طالب ؛ فان كان عندك برهان واضح ودليل بينٌ يكشف لنا عن الحال فيه حتى يتبيّن به انه كان سبباً من إراقة دمه ، فعلينا السمع واليقين والاقرار وعليك البيان والافهام بالدليل والحرص .

واعلمْ أنّ الرجل المخوف على الملك قد يكون محبوساً عند الملك القائم فيموت حتف أنفه : فلا يشكّ الناس أن الملك هو الذي أمر بقتله ، ويموت على فراشه وفي منزله : فلا يشكّون انه قد دسَّ إليه السموم وأدبَّ إليه العقارب ، ويموت وهو ناء عنه : فلا يشكون انه قد احتال له وتقدَّم في ذلك من أمره على يدي طبيب أو خادم أو طبّاخ أو صاحب شراب على بُعد داره وشطون مزاره ، ولو تمنّع مكانه واشتدَّ احتراسه ؛ ولو قتله هبوب الريح أو صعقته صاعقة لوجدتَ من يقول في ذلك قولاً مرغوباً عنه .

وقد قال بعض العلماء ممن تعلم : « لقد عَجز عن معرفة أمر عثمان مَن شهده ، فكيف بمن غاب عنه ؟ »؛ ولو كان معاوية القائمْ ، بزعمه ، بدمه هو

القائم بعده بالحجاز والعراق ، لوجدتَ مَن يقول إنه قد كان دسّ عليه وربض به وأفسد عليه وأنغل ، إن لم يجدوا شيئاً ظاهراً ؛ هكذا الناس فاعرفهم ، إلاّ مَن عصم الله ولا يعصم الا المخلصين .

[٢٧ ـ موقف علي والناس من مقتل عثمان]

وكان ـ حفظك الله ـ من أعظم ما أثنى به على عليّ في دم عثمان أنّ دهماء الامة كانوا يعظّمون شأن دمه ويُبرئون عليّاً منه ، وكان اكثر أجناد الخلافة والقوّاد ورؤساء العشائر من سوء الرأي في عثمان وحسن الرأي في قاتليه على خلاف ذلك ؛ ولم يكن للناس جند سواهم : فصار علي ، إن هو أظهر الدلالة الصحيحة على البراءة من قاتليه ، خاف أن يفسد عليه عامة أجناده ؛ فكان يُمسك من ذكره ما امكنه الامساك ، فإذا اضطرّه القول قال قولاً يحتمل رضى الفريقين ، ولو شهدته ـ أرشدك الله ـ عذرته ، ولو وُهِمتَ نفسك حالاته التي كان يُمتحن بها لصوّبته ، بل لعلمتَ انه لا رايَ ولا صواب إلاّ ما اختار ولا راي إلاّ ما كان يفعله ؛ واحذرْ ـ حفظك الله ـ تخطئة الائمة ، فانّه [لو] لم ينزل ذلك إلاّ لأنها كثيراً ما تظهر من تدبيرها شيئاً تورى به عن شيء آخر مخافةً في حال وطمعاً [في] ان تكون مصلحة شأنه في ذلك التدبير ، لوجب عليك ترك ذلك ، ولذلك رُوي عن عليّ : « ما قتلته ولا امرتُ بقتله وما ساءني وما سرّني »، ورُوي عنه انه قال : « الله قتله وانا معه »، في كلام كثير يحتمل التأويل .

[٢٨ ـ أنصار معاوية يحتجون له]

وزعمتَ أنّك سمعت رجالاً من السُّفيانيّة ممن يرى رأي المروانيّة وبعض من ينحل مذهب الغَيْلانيّة ومن اصحاب ثورْ بن يزيد والاوزاعي يذكرون حججاً في تثبيت الخلافة لمعاوية وأن نسبه إليها أقرب من نسب الزُّبير وطلحة ، وأنّهم

كانوا يتعجّبون ممن رأى الوقوف في حرب عليّ والزبير وطلحة ولم يقف في حرب عليّ ومعاوية ، وأن معاوية إمّا أن يكون على الحقّ وإمّا أن يكون أثبت على القياس وأبقى على المسائل من أمر طلحة والزُّبير ، وأنّ حجّته في قتال عليّ أصحّ من حجّة عبد الله بن وهب ، وأنّ عذره أوضح من عذر أصحاب النهر ، ولكنه لمّا كان أهل الحجاز وأهل العراق لبُغضتهم على أهل الشام ولطول محاربتهم لأجناد بني مروان وآل أبي سفيان أطلقوا] على عداوتهم البراءة منهم ، صار مَن عرف حقّهم استعمل التقيّة ومن لم يعرفه قال : « تقول تلك الجماعة »، إذ كان لا يرى الجماعة إلاّ تلك الجماعة .

[٢٩ ـ موقف طلحة والزبير من علي]

وذلك أنّ عليّاً سمّى أصحاب الجمل الناكثين لنكث طلحة والزُّبير لبيعته ، ولم يختلف الناس في بيعتهما له ، ولا أنكر ذلك الزبير يومَ واقفه عليّ بالبصرة وقد أقرّ بها طلحة ثمّ ادّعى الإكراه ؛ ففي واجب الحكم أن يقضي عليه بإقراره وأن يُسأل البيّنة على دعواه ؛ ولم يستشهد إلاّ أُسامة ، وليس في قول أسامة وحده حجة على أنّه لم يشهد عليّ ، وأُسامة ممّن ترك بيعة عليّ ، ولو لم يدع بيعة عليّ لما كان في شهادة الواحد حجّة ؛ على أنّه لم يشهد إلاّ بأنه بايع وهو كاره ، وهذا اللفظ يحتمل الوجوه ، وهو بخلاف ما أراد طلحة أشبه .

والحقّ كله مرّ والباطل كله حلو ؛ وقد خلق الله النار فحفّها بالشهوات وخلق الجنة فحفّها بالمكاره ؛ ومن صفة الطاعة أن يحتمل فيها صاحبها الكُلفة والمشقّة ومجانبة الهوى ، ومن صفة المعصية أن يدخل فيها من طريق الشهوة لها والذهاب معها ، وقد رجع الزُّبير عند الاذكار ، وتأخر طلحة الى خلاف موضع صاحب الاستبصار حتّى قتل في أخريات الناس ، ولذلك قال بعض الناس : « لله مصرع شيخ ما اضيعه »، وهو لا يستطيع ان يدّعي على معاوية عقد بيعة ولا على أصحابه نكثاً كما ادّعي على الزبير وأقرّ له بها طلحة .

[٣٠ ـ احتجاج السفيانية بان معاوية لم يكن قاسطاً]

« ولو كان معاوية سيء السيرة في أهل الشام سيء النظر للعوام غير مُصيب في سياسة الأجناد وفي ترتيب الأشراف وفي تقريب العلماء وفي رحمة المساكين ولم يكن عفيفاً عن المال شديداً على الفاسد نامعاً للظالم قوياً في الحق سهل الحجاب معظّماً للشريف منصفاً للضعيف بصيراً بالحزم عالماً بالحكم كثير الفتوح رحب العَطَن واسع الصدر ميمون النقيبة فاضل الحلم ، قد جمع المحبة والهيبة ، لَمَا لقوا معه بجباههم ظباة السيوف وبنحورهم أطراف الأسنّة ، ولَمَا خلّفوا العيالات وراءهم [و] ملك الروم قد زحف اليهم ، ولولا أنّ عدله عليهم وحسن سيرته فيهم قد كان دخل كلُّ قلب وخصّ كلّ شخص وتمكّن من كلِّ قلب ، لكانت الملالة لطول الولاية والذي يعتري النفوس من الضجر والضعة عند السآمة قد منع من ذلك وأعان عليه من لم يعنه ، ولكان أحسن حالاته أن ينجو منهم سالماً لا له ولا عليه .

وهل رأيتم قطُّ او سمعتم برجل ولي مثل ما وليَ من أمر الناس أربعين سنة ، عشرين سنةً منها كان فيها أميراً وعشرين سنة كان فيها خليفة ، وكانوا مع ذلك يومَ فارقهم أضنَّ به وأميَل إليه منهم في ابتداء ولايته وفي أوّل ما أذاقهم من حلاوة إمرته ، وقد رويتم أنّ عليّاً قال : « لا تتمنّوا موت معاوية ، فإنّه لو مات لرأيتم الرؤوس تندر عن كواهلها »؛ وقال معاوية : « لو أنّ شعرة طرَفها في يدي وطرفها الآخر في أيدي الناس لَما انقطعت أبداً » ـ قيل له : « وكيف ذلك ؟ » ـ قال : « كنت إذا مدّوا أرسلتُ وإذا أرسلوا مددتُ ».

فمن أين سمّاهم القاسطين ، والقاسط هو الجائر ؟ فأيُّ جور كان رأى منه ؟ ولو كان صاحب جور كان مَن أغضى له على ذلك الجور أجوَر ، فهذا إسم أصحاب يوم الجمل اشتُقّ لهم من النكث لنكث الرّجلين ؛ وهذا اسم أصحاب النهر اشتُقّ لهم اسم الحَروريّة من نزولهم بحَروراء ، واسم المارقين لأنّهم مرقوا عنده من الحقّ مرّتين : مَرّةً حين عرّفهم أن رفع المصاحف خدعة ، فعصوه

ومرقوا عن أمره ، ومرّة لمسألتهم إيّاه العودة وهو يرى فيهم الوهن وفساد القلوب وضعف الركن .

خبّروني عن معاوية أيّ جور ظهر منه منذ ولاّه عمر إلى أن قُتل عثمان ، وعلى مَن كان جار ، وأيُّ شيء ذلك الجور ، ومن يعرف ذلك ومَن يشهد به عليه ؟ فإن زعمتم أنّ امتناعه من اعتزاله [عن] العمل هو جور فلذلك سمّاه قاسطاً ثمّ عمّ به الجميع لطاعتهم له ، فقد قلنا في ذلك ما قد سمعتم ؛ وكيف ونحن لم نرَ أحداً من فقهائهم لم يأخذ منه عطاءه ولا أبى جائزته ولا أسقط اسمه من ديوانه ؛ ولا ترك ابتياع السبي من مغنم عمّال ثغوره ولا ترك وطء ما يبيع من مقاسمه ولا ترك الأكل والبيع والابتياع من ثمار قطائعه ، ولقد سمّوا العام الذي سلم إليه فيه الحسن الخلافة « عام الجماعة » ، ولقد دفع إليه عبد الرحمن ابن سَمُرة، وهو من كبار الصحابة ، مالاً كان عنده وعليٌّ حي ، وقال : « جبيته في الجماعة فلم أكن لأدفعه إلاّ في الجماعة »، وقيل لابن عمر : « ما منعك من أخيك ابن الزُّبير حين نصب نفسه للخلافة وخرج على يزيد بن معاوية ؟ »» ـ فقال : « إنّ أخي وضع يده في فُرقة وإنّي لن أنزع يدي من جماعة وأضعها في فرقة ».

[٣١ ـ احتجاج السفيانية بأن عمر وعثمان وليا معاوية وأن علياً لم ينل الخلافة بالتشاور والاجماع أو النص]

وقُلتَ : وكان ممّا احتجّوا به في استحقاق اسم الخلافة واستيجاب الإمامة أنّه قال : « هذا موضع وضعني به عمر بن الخطّاب ، ولم يعزلني مذ ولاّني وقد كان لا يكاد يدع أميراً إلاّ استبدل به وإلاّ غضب عليه لبعض ما يكون منه ، وربّما أمر بإشخاصه إليه ، ولم يعزلني ولم يغضب عليّ مذ رضي عنّي ولا عزلني مذ ولاّني ، ثمّ جمع لي الأرباع بعد أن كان ولاّني رُبعاً وقوّى أمري وبثّ وطلاني ، ثمّ أكد لي ذلك عثمان بن عفّان وشدّده وقوّى أمري ومكّنه ، فلم يكن في ميني

الاختلاف أكثرَ في ذلك منه في سِنِي الائتلاف ، ثمّ إنّك أمرتَني بالاعتزال من غير أن أكون أحدثتُ حدثاً أو آويتُ محدثاً ، وأنت لم تأخذها من جهة التشاور والتخاير كما أخذها عثمان ، ولا نصّ عليك عثمان كما نص أبو بكر على عُمَر ، ولا أجمعت عليك الأمّة من تِلقاء أنفسها كما أجمعت على أبي بكر ، فلم يكن لي أن أسلّم إليك عِلقاً في الفرقة كنتُ تسلّمتُه من أهله في الجماعة ؛ فإن حاربتَني على ما في يدي ، منعتُك ، وإن تركتَني ، سلمتُه إلى مثل من سلّمه إليّ ، ولي أن أمنعك بالسلاح إن شهرتَ عليّ السلاح ، وأن أمنعك بالحجّة إنْ طلبتَه مني بالحجّة .

[٣٢ - احتجاج السفيانية بان ولاية معاوية صارت له بوضع اليد]

وزعمتَ أنّهم قالوا : وقال معاوية : « احسبوا أن هذا العِلق الذي قد صار في يدي ، وصار لي فيه حقُّ صاحب اليد فيه ، كان لقطةً طلبها مني بعض مَن لم يثبت عندي أنّ اللقطة له ، لا من طريق البينات التي لا معارض لها ولا من طريق العلامات التي يستحقّ بها اللقطة مَن جاء بمثل العلامات التي يُستحقّ بها اللقطة : فأنا في منعك مُحِقّ ، وأنت في طلبها منّي مُبطل ، فإن قاتلتَني قاتلتُك دون حقّي ، وان كففتَ عنّي انتظرتُ بها صاحبها متى أرادها مني ؛ أو ليس لو طلبها مِنّي سَعْد ولم يتبيّنْ لي أنّه أحق بها منك فدفعتُها إليه كنتُ ظالماً لك ؟ فكذلك أنت في التماسك ما لو دفعتُه إليك كنتُ ظالماً له ؛ فاذا اجتمعتما على أمر ، فعندها لك أن تأمر وتنهى ؛ ولستُ في جهلي فضلك على سعد بأسوأ حالا من سعد حين جهل فضيلتك عليه ، وقد أشكل عليّ كما أشكل على مَن قبلي ؛ ولو كانت أقداركم عند عمر بن الخطاب متميزة وحالاتهم عند أنفسكم وعند الرقباء عليكم غير مشكلة ، لكان تكلّف التشاور عيّاً وعجزاً ، ولكان تكلّف عمر ذلك لكم جهلاً وضعفاً ، وكيف أمسكت في ذلك الدهر عن إنكار مخايرة سعدٍ وأنكرتَه في هذا الدهر ؟ فأرِنا الفضيلة التي حدثت لك والنقص الذي ظهر له ! » .

[٣٣ ـ احتجاج السفيانية بأن معاوية أولى الناس بمطالبة علي بدم عثمان]

وزعمتَ أنّهم قالوا : قال معاوية : « قُتل إمامي وخليفتي مظلوماً وقُتل ابن عمّي ووليُّ نعمتي مخذولاً ، ورأيتُ موضع قاتليه ومنتهكي حرماته في زمان مفتون ودهر اختلاف ، وأولياء دمه ضعفاء وهم لي أهل وأولياء : فإن أنا طلبتُهم وحبستُهم إلى أن يقوم إمام يحكم فيهم وكان ذلك منّي من طريق القيام بحقّ الحرمة والحسبة وما يجب من شكر النعمة ، كان ذلك حسناً : فهو يحسن من طريق الدين والحسبة ومن طريق الوفاء والمودّة ومن طريق الأرحام الماسّة ومن طريق ما يُوجبه شكر النعمة ، وكيف يحسنّ بي أو يُستحسن لي ترك محاولة ذلك وتكلُّفه وتعاطيه وامتحان الحال فيه مع ما معي من الآلة والقوّة والعدد والعتاد والعدّة ، وقَتَلَتُه معروفون ومكانهم مشهور ؟ فإن حال بيني وبين الاستيثاق منهم أحد كان ظالماً ، وهل أنا في أخذهم إلاّ كقوم مات إمامهم فشدّوا على مَن في محالّهم وعشائرهم من أهل الدّعارة والفساد ومن رجال الفتنة والفسّاق فحبسوهم إلى أن تجتمع جماعتهم وتتّفق كلمتُهم ؟ فإن منعني دون هؤلاء القَتَلَة مانعٌ بالسلاح ، طلبتُهم بالسلاح ، وإذا فعل ذلك عدلٌ زالت عدالته وتحوّل حكمه ؛ ولا تجوز الإمامة إلاّ للعدل ، بل لا تجوز لمن اشترك في دم أو أعان على قتل مسلم ؟ أو منع وليّ الدم من أخذ قاتل وليّه إلى أن يسلّمه إلى مَن له أن يحكم فيه حكمه ».

[٣٤ ـ احتج السفيانية بأن الخلافة شورى ومعاوية أحق بها من بقية الشورى الأربعة].

وزعمت أن أصحابه قالوا : « كيف جاز لسليمان بن صُرَدَ وللمسيّب بن نجبة ولعبد الله بن هلال أن يطلبوا بالسلاح قتلة الحسين بن عليّ ، ولا يكون لمعاوية أن يطلب بالسلاح قَتَلَةَ عثمان ؟ »، وقلتَ : وزعموا أنّ معاوية زعم أنّه أحقّ

بالخلافة من جميع بقيّة الشورى : فأمّا سعد فلم يستحقّها قطّ لانّه كان جليساً لا يرى أن يدفع ضيماً ولا يمنع حريماً ، وأن الدفع بالسلاح عمّن أراد السلطان بالسلاح بدعةٌ وفسق وضلال وفجور ، ولأنّه رَوى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد كان آخى عليّاً دون جميع الصحابة وقال له : « أنت منّي بمنزلة هارون من موسى »، فإن كان صادقاً فهلاّ روى هذه الرواية أيامَ كان عليٌّ حيّاً وهو يجانبه الرئاسة ويأبى تقديمه الى مقام الإمامة ويزعم أنّه أحقّ بها منه ويدعوه إلى الشورى ويقول : « ما أنا بقميصي هذا أحقُّ منّي بها » ؟ وهل يخلو من أن يكون في روايته كاذباً أو صادقاً ؟ فإن كان صادقاً فقد ضلّ بامتناعه عن بيعة مَن هذه عنده صفته وتركِ تقديم مَن هذه الرواية فيه ومَن مكانُه من الرسول هذا المكان ؛ وإن كان كاذباً فليس هذا النوع من الكذب من أخلاق الأئمّة ومن صفات الخلفاء ، وعلى أنَّ من أقرّ بأنّه قد ترك تقديم مَن هذه صفته ، فقد أقرّ على نفسه بالمعاندة وبترك الإقرار لأهل الحق بحقّهم ؛ ومتى ثبت ذلك عليه بطل خبره ورُدّت روايته ، ومن كان مكذَّباً في حديثه ، فغير إمام ولا حاكم ولا شاهد ، فافهم ذلك .

وأمّا طلحة والزبير ، فإن كانا قد اهتديا في بيعته ، فقد ضلاّ في النكث عليه ، وإن كانا قد ضلاّ في بيعته ، فما تابا من ضلالهما ولا خرجا من إدخال الشبهة على رعيّتهما ، وإدخال شبهةٍ تُورث الفتنة أعظمُ من قتل رجلٍ من المسلمين ؛ وفي رجوع الزبير ونكوص طلحة وفيما كان من مسيرهما وتجاذبهما الإمامة فيما بينهما وتقديم أبنائهما الصلاة على النوب واختلاف أمرهما ما يدلّ على اختلاط التدبير ؛ فإنّهما لم يكونا من أحلاس الخلافة ولا يتسمان لها ولا ينهضان بأعبائها ، وإنَّ الأمر لو أفضى إليهما ومات مَن ينازعهما ، لكان كلّ واحد منهما أشدُّ على صاحبه من العدوّ الذي مات عنه ، ولو فرغا من حرب عليٌّ لألقيا للناس حرباً أطوَل وفتنةً أشنع وقتلاً أذرع ، ولو قتل كل واحد منهما صاحبه أو مات عنه حتف أنفه لجَرى بين ابنَيهما ، إذ كان هذا يصلّي بالناس مرّة عن أبيه وهذا مرة عن أبيه ، من الشرّ والمناصبة ومن القتال والمغالبة ما ؛ هو أشنع وأفظع

وأدهى وأمرّ ؛ ولو كـان ذلك لأصابنا من أتباع أبناء الأبناء وسرعان الغوغاء ما يُنسي ما قبله ويشغل عن ذكر ما تقدّم امامه ، ومن كان كذلك حكم ارتحاله وحلّه وعقده ونقضه وإبرامه لم يستحقّ تلك المقادم ولم يستوجب تلك المراتب .

وقالوا : وأمّا عليّ بن أبي طالب فإنّه مع الشرك في دم عثمان والاشتمال على قتلته لم يزل لا يرى أن يعيد الأمر إلى الشورى وكان ذلك منه طعناً على عمر وزراية منه على أولئك الرقباء والأمناء وخلافاً على رأي الجماعة ، والطعن على هؤلاء ضلال والخلاف عليهم إثم كبير ، وإنّما كان الإنصاف والإقرار بالحقّ والخضوع اللازم أن تجتمع بقيّة الشورى وهم أربعة فيشتوروا في التخيير كمشورتهم فيه وهم ستّة ، ولأنّ ذلك الأمر إنّما كان مقصوراً على قوم قد أجمعوا على تفضيلهم وتوليتهم وأنّه حقّ لنفر فلا يزول حقّ الحيّ لموت الميت ، والجماعة الذين كانوا بالأمس راضين لم يتغيّروا ولم يتبدّلوا ، وإنّما كانوا ستّة فمات عبد الرحمن وقُتل عثمان : فلو تركهم عليّ يجتمعون ولم يبتزّ الأمر وصيّره إلى التخاير والتشاور وإلى طلب مَن هو أردّ عليهم وأنفع لهم ولو بشيء يسير وذلك هو القياس ، لما كان اختلاف كما لم يكن قبله اختلاف ، وعلى أنّ المسلمين لم يتشاوروا قطُّ في أمر الإمامة فيما دونها فافترقوا إلاّ عن غير اختلاف ، وكيف يختلفون وقد أطاعوا ربّهم وكيف لا يعصمهم وقد اعتصموا بحبله وآثروا حقّه ؟ قال الله : ﴿ وَأَمْرُهُم شُورى بَيْنَهُمْ ﴾، وقال : ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾، وقال : ﴿ فَابْعَثُوا حَكَماً مِنْ أَهْلِهِ وحَكَماً مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحاً يُوَفِّقْ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ ، ولا يجوز أن يضمن التوفيق لنفسين إذا أرادا الإصلاح ويخذل الجماعة ، ولا يجوز أن يوفّق مَن كان من عرض الأمّة ويدع الأئمّة .

وبعدُ فهل خالف ذلك الرأي من عُمر أحد ؟ ولقد اتّفقوا عليه بعد موته كما اتّفقوا عليه قبل موته ؛ ولقد خالف بعضهم أبا بكر في استخلاف عمر وما خالف أحدٌ عمر في وضع الأمر في الستّة ، ولم يقل أحدٌ من الستّة : « فينا واحد لم يكن ينبغي أن يكون معنا »، أو : « في الناس واحد كان ينبغي أن يكون

معنا »، لا ولا قال احد من الأمناء ولا من جميع الجمهور والدهماء : « فيهم واحد لم يكن ينبغي أن يكون فيهم وفينا واحد كان ينبغي أن يكون معهم »! فتمّت الكلمة وشاع الرضى واستفاض التسليم .

وقالوا : فعليٌّ لا يصلح لها من هذه الوجوه وطلحة والزبير لا يصلحان لها من حيث ذكرنا ، وسعْد هو الذي لا يجوز أن يجيء منه ملكٌ ولا إمام في كفر ولا إسلام ، لأنّ مَن لم يدفع عن بيضة الملك بالسيف فهو مقتول وأمره ضائع ، ولم يطلب ملكَك أحدٌ فرضي بأخذه دون أن يأخذ نفسك مع الملك ، وهذا قائم منذ كانت الدنيا ، ولو آمَنه أن يثب به أو يثب من أجله واثب ما دام حياً لكان استبقاؤه أحبّ إليه وألذ له وأبلغ عنده فيما يريد .

[٣٥ ـ احتج السفيانية بانه لا بد من الدين والسيف في الملك]

وقالوا : ولو ادّعى رجل عندنا النبوّة وذكر أنّه يستشهد إحياء الموتى والمشي على الماء ، ثمّ زعم أنّ الملك مستقيم دون منعه بالسيف والسوط ، لعلمنا أنّه لم يكن ليأتيَ بعلامة أبداً ولا يُقيم شاهداً على دعواه أبداً ، إلا ان يأتي قوم طبائعُهم على خلاف طبائعنا وحالاتهم على خلاف حالاتنا وعاداتهم على خلاف عاداتنا وأسبابهم على خلاف أسبابنا ؛ فأمّا والأمر على ما شاهدنا من طبائع الناس اليومَ وعلى ما سمعنا من طبائع العرب في جاهليّتها وإسلامها والعجم في سالف أيّامها ، فانّ ذلك لا يجوز ولا يقوله مَن يعرف الدنيا وما فيها ؛ ولذلك لم يكن للزنادقة مملكة قطُّ ولا تكون أبداً ، ولقد اضطرَّ الأمر نصارى الروم ونصارى الحبشة إلى الدفع بالسيف حين رغبت في الملك ومالت إلى الدنيا مع علم جميع العالم أنّ القتال ليس من دينها ولا من مذهبها .

ألا ترى أنّ الله لم يُخلِ الدنيا من أن يجعل فيها نبيّاً يحمل السلاح ويُقيم جزاء الحسنة والسيئة ويستعمل السيف والسوط ، أو يضمّ إليه مَلِكاً يذبّ عن النبوّة بعز الملك ويدعو النبيُّ إلى طاعته برأفة النبوّة ؛ فأمّا أن يُرفع أحدهما من

العالم فلا بدّ من اجتماع اللين والشدّة إمّا في شخص واحد وإمّا في شخصين ، وقد قال الله : ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾، وفي المثل المحمود : « قتل البعض إحياء الجميع »، وليس في الأرض ملك إلاّ وأطراف مملكته تنتهي إلى حدود ممالك الملوك ، فهو وإن تنصّر فإنّ الملوك لا يتنصّرون معه ، وإن تزندق لم يتزندقوا معه ، على أنّ الملوك لم تنصب الأديان رغبةً في الديانات ولكنها تعلم أنّها إن لم يكن لها دين لم تلزم بيعة ولم يثبت عقد أولى الملك من بعدها ، ولم يتديّن الناس بقتال من يخرج عليها ويريد إزالتها ؛ وإن لم يكن دين كانت الأموال منتهبة والزوجات مشتركة ولم يثبت نسب ولم يكن لأحد وارث ولم يكن تزويج ولا طلاق ولا مِلك ولا عتاق ولم يثبت توكيل ولا أجرة ولا شهادة ولا وصية ولا شرط ولا عهد ولا حدود ولا قصاص ولا قَوَد ولا حبس ولا إقرار ولا إنكار ولا دعوى ولا أيمان ولا بيع ولا شراء ولا ميراث ؛ وإنّما يحرص عليه لأنّ به وفيه ثبات ملكه وتوكيد سلطانه ، ثمّ لا يبالي ما قالوا في الله وما جوّزوا على الله وكيف وقعت الأمور بعد أن يستقيم له شيء يكون فيه وبه ثبات الملك .

فإن كنتَ تحبّ أن تعلم أنّ الذي أقول حقّ فتأمّل قول كسرى مع شدّة عقله في الله وفي إبليس وفي أعلام زرادشت وفي شرائعه من غشيان الأمهات والتوضؤ بالأبوال ، وفي دين قيصر وقوله في الله وفي المسيح وفي بولُص ، وفي دين ملوك العرب وفي عبادة الحجارة ، وفي ملوك الهند في البُدّ وفي تعظيم الزنا ، ودخول النيران ، وهؤلاء رؤساء الأمم ، فانظرْ كيف تجدهم في الأديان .

[٣٦ - اسباب صلاح معاوية للخلافة بنظر السفيانية]

وإذا كان هؤلاء وهم بقية الشورى لا يصلحون للإمامة فمَن دونهم أجدر ألاّ يصلح لها وكانوا منها أبعد ؛ وقلت إنّ معاوية أولى بها منهم إذ كان أبرأهم ساحةً من هذه العيوب وأسلمهم قناة من هذه اللوائم ، ولأنّه أيضاً أوّل

مَن انتدب ؛ ولو أنَّ جميع أهل بدر أمكنهم إنكار المنكر من مَلِك متغلّب إلّا أنّهم لم يتكلّفوا ذلك حتّى انتدب رجل من عرض المسلمين فبذل نفسه وأهله وماله ودياره وعشيرته وأصحابه وأمّل الناس فيه درك حاجتهم ورجوا الفرج على يديه ، كان ذلك المنتدب ـ وإن كانت سابقةُ غيره أفضل ـ أولى بذلك منهم ، ولعلّه أن يلحق بهم في الطاعة أو يجوزهم ، كما عقد عمر بن الخطّاب لأبي عبيد ابن مسعود على أربعين من أهل بدر وعلى الجماعة الكثيرة من المهاجرين والانصار السابقين وليست له في ذلك علّة إلّا أنّه كان أوّل من انتدب ، ولذلك كانوا رأوه وتحدّثوا به ، فساروا تحت لوائه وصلّوا خلفه وأطاعوا أمره وأكبروه بالخضوع له وأعظموه بالإطراق بين يديه والانتصاب له عند طلعته .

[٣٧ ـ رد الجاحظ على حجج السفيانية]

قد كتبتُ إليك ، يا ابن حسّان ورسمتُ لك ما ألقيتَ إليّ من جُمل دعواهم مفسَّراً ومن حججهم مبيَّناً ، ولم أقتصر على مقدار ذلك حتى لم أدع لذي هوى نزاعاً ولا لذي حيلة متعلّقاً ، لان أحسم من قلبك هذا الداء وأقطع أصل هذه المادّة ، ولولا أنّي ـ والحمد لله ـ علىّ ثقة من سهولة الجواب وقرب المأخذ وظهور المعنى وقمع الحقّ للباطل وأنّه لا يتلقّاك إلا مكشوف القناع ناصع البياض مشرق اللون ، لما رضيتُ أن أكون سبباً لتنبّه العدوّ ومادّةً لخواطر الأعداء ، ولعلّ بعضهم أن يعدوَ عليّ بالسلاح الذي ألقيتُ إليه يوم الحفل ويلتمس به نحري على شغلٍ منّي ؛ فقفِ الآن على فصل فصل وانظرْ في باب باب ، فإنّك ستفهمه ما لم تتشاغل تشاغُل المستفرغ وتستبين ما لم تصدّ عنه صدود المتمقّه إن شاء الله .

[٣٨ ـ معاوية لم يحتج بحجج السفيانية] .

باسم الله الرحمن الرحيم فأول ما أبدؤك به وأوّل ما أذكره لك من هذه

الخصال ، تعريفك أن معاوية لم يحتجّ بشيء من هذا قطُّ ولا احتج له به في عصره أحدٌ ، ولا جرى لهذا الشكل ذكرٌ قطُّ ولا خطر على بال ؛ فمنه ما تكلّفه أعداء عليٍّ من المتكلمين وأهل السباب من الناصبة الملاعين ، ومنه ما هو تخريج من أصحابنا لخصومهم على أنفسهم ليتقدّموا في الحجّة وفي العتاد والعدّة وفي الأخذ بالثقة كصنيعهم واعتلالهم بمذاهب المخالفين ودعوى جميع المبطلين ، ومنه ما حضرني عند ابتدائي الإخبار عنهم وما عزمتُ عليه من استقصاء كلّ شيء لهم لتعرف قوّة أوليائك وعجز أعدائك ، وتعلم أنّ مَن عرف من حُجَج الخصم أكثر مما يعرفه الخصم كان بحجج نفسه أعرف وعلى معاني حقّه أغوص وعلى غايته أقدر وأنفى ، ولكان أيأس للمخالف وآنس للموافق ، ولأن تعلم أنّ أولياءك لو لم يجدوا في أنفسهم فضلاً لَما أعاروا بعض قوّتهم أعداءهم ، ولأن لا يبقى على مَن قرأ كتابي شبهة بعد قراءته ، والله الموفّق للصواب ، وهو على كلّ شيء قدير .

[٣٩ ـ اصحاب السير والأخبار لم يذكروا حجج السفيانية]

ولو كانت هذه الحجج قد احتجّ بها معاوية واحتجّ له بها أحد في ذلك الدهر ، لكان ذلك مشهوراً عند حمّال الآثار والمعروفين بالصدق من أصحاب الأخبار والنَّقَلة مثل الزهريّ ومحمد بن إسحق إمامي أهل الحجاز في علم السِيَر ونقل الأخبار ، ومثل قَتادة صاحب الأخبار بالبصرة ومَن كانت الملوك تكتب إليه من الشامات في المشكلات ، ومثل سِماك بن حرب بالكوفة ، ومثل الشعبيّ وابن شُبْرُمة والقاسم بن مَعْن ، وجلة من أهل [ع ١٨] البصرة مثل ابن أبي عُيَيْنَة ، ومثل مَسْلَمة بن محارب ، بل مثل أبي عمرو بن العلاء ويونس بن حبيب ومحمد إبن حفص وعبيد الله بن محمد بن حفص وأبي عُبَيدة وأبي اليقظان ، ومثل مسمع وكردين وأبي عاصم النبيل ، ومثل خلّاد بن يزيد والقَحْذَميّ ومؤرّج وابن قَنْبَر .

وسندع ذكر الأصحّاء والثقات وأصحاب التبريز في تصحيح

الروايات ، ونذكرَ من دونهم ممّن قد يؤخذ عنه ويُطعن عليه كالكلبيّ وابن الكلبيّ وعَوانة والشرقيّ بن القُطاميّ وأبي الحسن المدائني والهيثم بن عديّ وأبي مِخْنَف لوط بن يحيى وابن جُعْدُبة ؛ وكان لا أقلّ من أن يرويه شَوْكر وابن دأب والعُتبيّ ، أو لَيرواه رواة الخوارج كعِمران بن حطّان. والمقعطِل والضحّاك بن قيس وحبيب بن خدرة وأبي عُبيدة كورين ومُلَيْل وأصغر بن عبد الرحمن ورها ومسمار .

[٤٠ - حجج السفيانية من عمل المتكلمين]

وأنت تعلم اضطراراً أنّ هذه المسالك ليست مسالك الرواة وإنّما هي مسالك المتكلمين إذا كانوا رواة ؛ وقد سمعتَ خُطب معاوية ورسائله وكتاب القضيّة : أفظنّ أنّ معاوية كان عنده من هذه الحجج ومن هذه الاعتلالات شيء وهو يدع أن يخطب به ويشيعه ويدعنو إليه ويعرضه على أصحابه ؟ بل كان لا يدع ان يجعله في كتاب ويقرأه على أجناده في كلّ خميس واثنين ؛ ولم أقل إنّ معاوية لم يكن فطناً أو بعيد الغور بيّناً ، ولكن لو جمعتَ إلى عقله ودهائه عقل عمرو بن العاص والمُغيرة بن شعبة وزياد والأحنَف والمهلّب وأضعافهم من الرجال ، لَما عرفوا من هذا الشكل شيئاً بطباعهم دون أن يستعملوا صناعة الكلام ، كما أنّهم لو أرادوا الحساب والهندسة وعلم اللحون والطبّ وجميع العلوم لكانوا لا يدركون من ذلك حظّاً دون كثرة التنقير والتفتيش وطول الدراسة للكتب ومنازعة الرجال ؛ وما أشكّ أنّهم أحقّ بذلك من كثير ممّن قد رأيته من المعدودين في أهل النظر ، فلا تنكرْ قولي إنّه لم يكن يعرف من هذا قليلاً ولا كثيراً .

فدَواؤك قبل كلّ شيء أن تُخرج من قلبك أنّه كان يحسن هذا وأنّ عمراً كان يهتدي له ؛ ثمّ أعلمْ أنّه مولّد خبيث ونموّه ضعيف ، وسنُوجدك ذلك فيه باباً باباً وفصلاً فصلاً ؛ وقد يكون الكلام ظاهر العيوب بادي المقاتل متهدفاً

للمطاعن ، ولا يفطن لـه الحازم من الرجال ويفطن له الخسيس العقل من أهل النظر ؛ وإن خرّجنا كـلّ شيء فـي هـذا البـاب كثر الكـلام ، وإذا كثر الكلام خرج الكتاب من حدّ الرسائل ، ولم نأمن من ملالة القارىء ونُعاس المستمع ، وفيما نُلقي إليك من الجُمل ما يُغني مثلك عن التفصيل ، ولـو كـان المقصود إليه سواك لما وجدتَ بدّاً من التفسير والتخريج وانتظام جميع الأمّهات واستقصاء جميع الأبواب .

[٤١ - حجة السفيانية بعدم تواتر الاجماع على علي لا يطعن في خلافته لان الاجماع تابع لفضله]

أمّا قولهم بقول معاوية : « هذا موضع صرتُ إليه بالإجماع فلا أخرج منه في الفرقة »، فإنّ أكثر الناس يغلطون في حكم الإجماع في هذا المكان ويُلحقونه بغير شكله ؛ نقول إن الناس إنما أجمعوا على تفضيل الفاضل لفضيلة وجدوها فيه ، وليس أنهم وجدوا الفضيلة فيه لأنّهم أجمعوا على تفضيله ، فالإجماع تبعٌ للفضيلة الموجودة ، وليست الفضيلة تبعاً للإجماع الذي كان منهم ؛ وإذا كان الفضل بارزاً ، فعليهم الإجماع عليه ؛ فإن اختلفوا فلا يبعد الله إلّا مَن خالف الحقّ حقّ الفاضل ؛ وإن لم يصل إليه مع ضعف الموافق وقوة المخالف ؛ فإن وافق صاحب الحق إجماعاً فعليه الشكر والحقّ حقّه ، وإن وافق اختلافاً فالحقّ حقّه وعليه الصبر .

وقد كان فضل عليّ ظاهراً ، فإن أجمعوا عليه فقد أصابوا حظوظهم ووافقوا محبّته إذ كان ذلك حقّاً ، وإن اختلفوا فقد أخطأ المخالف حظّه ، ولم يُضِم ذلك عليّاً لأنّ ثواب عليّ على الصبر على البلاء كثوابه على الشكر على الرخاء ؛ والحق ليس يجب له بالإجماع بل إنّما كان ذلك دليلاً على الاستحقاق وحكم مقام النبيّ صلى الله عليه وسلم وحكم مرتبة الإمام والتفضيل إلى أن نعلم أنّ أمراً قد اضطرّ إليه ؛ فما لم نعلم ، فالحكم بالتفضيل

لازم لظاهر الحال ، وليس لنا أن نُزيل حكم ظاهر الأمر بـ « لعلَّ » أو « عسى »، وليس يزول اليقين إلاّ باليقين ، ومتى هجمنا على رجل قد أجمع الناس على تأميره طائعين غير مكرَهين ، ثمّ رأيناهم يدينون بطاعته ويتقرّبون إلى الله بنصيحته ويرون أنّه إذا ولّى رجلاً صلاة الجمعة أن له أن يقصر وأن لهم أن يقصروا خلفه ، وإن هو عزله كان عليه وعليهم أن يأتوا بخلاف ذلك ، ومتى استعمل رجلاً على ثغر دانوا بابتياع ذلك السبي ووطئه واستخدامه وبيعه والانتفاع بذلك المقسم وبابتياع العقد والعقارات والمستغلاّت منه ، ومتى عزله حرّموا ذلك وسقطوا مَن لم يجتنبه ؛ ومتى استقضى رجلاً لزم الناس حكمه ونفذ فيهم أمره ووجبت سجلاّته ولزمت قضاياه ، ومتى قال : قد عزلتُك ، كان كالمفتي وكالمشير والمصلح ، ثمّ تراهم إذا كان قاضياً يقومون فوق رأسه ولا يجلسون إلاّ بأمره .

ولم نر عليّاً لمّا عزل سعداً وولّى أبا موسى وعزل عمّاراً وولّى المُغيرة ، قال المعزول : « لا أعتزل البتّة ! » أو قال : « لا أعتزل حتّى أعرف لِمَ عزلني ولمَ ولّى مَن أنا أعظم عناءً منه وأجوَد سياسةً منه وأشرف أرومةً منه »، أو قال : « أنا أسنّ منه وأكثر فقهاً وعلماً منه »، أو يدّعي أنّ أهل البلدة به أرضى وأنه لا يرضى أن يكون قد عانى خراب أرضها وفساد رجالها وضياع ثغرها ، فلمّا عمّر البلدة وحصّن الثغر وأصلح الفاسد وقد كلف وتعب وسهر ونصب ، بعثَ رجلاً يصير له مهنأها فيذهب ببردها وحلاوتها ، وأنا قد صُليت بحرّها ومرارتها ؛ بل نجد المعزول صابراً راضياً والمستعمل قابلاً نافذاً لأمره وقوله ؛ فحكم ظاهر هذه الحال وحكم المرتبة التقديمُ لأهلها والتفضيل لأربابها حتى تثبت الحجة ببعض ما يحطّه عن أهل المراتب ويقتصر به على دون الكمال ، فالإجماع تابع في هذا الموضع .

[٤٢ ـ حجة السفيانية بعدم عمل علي بالشورى لا يطعن في خلافته لأن شورى عمر لا تلزمه]

فأمّا من حيث ذهب القوم إليه فقد قلنا في ذلك ؛ فإن قال : « فهلاّ

جعلها شورى بينه وبين طلحة والزُّبير؟ » ـ قلنا : قد زعمتم أنّهما قد بايعا فإن كانا قد ضلّا بتلك البيعة فقد صارا لا يصلحان لإمامة ، وإن كان ذلك منهما هدىً فقد ضلّا بالصمت قبل الحديث ؛ فإن قالوا : قد قلنا ذلك في طلحة والزبير ولكنّا قد علمنا أن سعداً لم يبايع وإنّما ضلّ عندنا بعد أن تبيّن لنا رأيه في ترك البسط وفي روايته في تفضيل عليّ على نفسه بعد وفاة عليّ ولكن ما باله لم يدعُ إلى الشورى يومئذ ، وتركه للشورى عندهما ضعف [بيّنة] على عمر وتخطئة للجماعة ؟ ـ قلنا : إنّ عمر لم يشترط ذلك الأبد ، ولم يُوجبه إلاّ في الثلاثة الأ [يام] التي قال : « إن انقضت ولم يفرغوا ، فاقتلوهم »؛ وما علم عمر بما يكون من انحفاظ قوم وتبديلهم ، وبأي وجه آخر يدل مَن تقدّمهم ، وبما يحدث في أنصارهم من العمى الذي يمنع من الحكم ، أو عمّا يُعجل من [.......] الذي يحول دون الخلافة ، أو ليس الإمام الذي بعده قد كان له في رعيّته من التدبير مثل الذي كان لعمر في رعيّته ؟.

أوَلستُم تزعمون أنّ أبا بكر أقام عمر وأنّ عمر ترك سيرة أبي بكر وصار إلى الشورى ووضعها ؟ فإن قلتم :« إنّما غيّر التدبير حين لم يجد واحداً [قادراً]قد. لكم : وكذلك مَن بعده فغيّر تدبيرعمر كما غيّرعمر ذلك التدبير عن بعض ما شاهد أبو بكر من الحال المخالفة للحال الأخرى ، فليس لنا أن نُلزم عليّاً الشورى إلاّ بأن يُوجد أنّ عمر قد كان جعل ذلك شرطاً محدوداً وأنّ الأمة تلقّت ذلك بالتصويب ، فلم [يحدث] اختلاف وليس لعمر في سلطانه إلاّ مثل ما للإمام [من] المصلحة على قدر ما شاهد من الحال ؛ وإنّما تدبير الأمور على قدر اختلاف الأمور وقد وجدنا عليّاً نفسه عند الحاجة والضرورة وعند الخطبة على الرعيّة قد أظهر الرضى بأن يكون أبو موسى وعمرو يتشاوران فيه ، فكانا في موضع الشورى في ظاهر الحال وهما عنده على ما هما له عندنا ، وكذلك معاوية وقد امتنع قبل ذلك أن يحبس نفسه بمخايرة طلحة والزبير وسعد [فحبسها] بحبالة أخرى أبعد من الأولى من كلّ ما ذكرنا ؛ وإنّما كلّ ذلك بقدر ما يشاهد الإمام من الحال إذ كان ذلك إنّما يُعرف صوابه من باب الرأي فقط .

[٤٣ ـ علي اولى بالخلافة للقرابة والرواية والقدم والزهد].

ويقال لهم : فإنّا نردّ الأمر إليكم : أرأيتم لو أُمرتم ان تختاروا بين عليّ وسعد إماماً كيف كنتم تصنعون حتى تُوجدونا أنّ سعداً أو[لى] من عليٍّ ؟ قولوا كيف شئتم ؛ قد علمتم أن هذا الأمر ، إن كان بالحسب ، فإنّ سعداً ليس من شكل عليّ ، وعليّ هاشميّ الأبوين وكان أوّل هاشميّ الأبوين كان في الأرض ، وَلَدَه أبو طالب بن عبد المطّلب بن هاشم من فاطمة بنت أسد بن هاشم ، وهم أربعة : عليّ وجعفر وعَقيل وطالب ؛ ثمّ هو صهر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابن اخي حمزة والعبّاس ؛ ثم الذي يجمع أبا النبي صلى الله عليه وسلم وأبا طالب [الجد] الأدنى بالأمّ التي جمعتهما .

فإن كان هذا الأمر إنّما يستحقّ بالرواية فليس لسعد في ذلك حرف واحد ممّا يُوجب له الإمامة والتفضيل على جميع الأمّة وما أكثر [من] روى [فيه الرواية] ولكن تلك الرواية ليست من شكل الرواية في علي بن أبي طالب ، [فإن] ذكرنا أهل التقدمة في الإسلام والسبق إليه فأدنى حالاته أن يكون مذكوراً معهم ، وإن ذكر أهل الزهد والتقشّف والظلف والنزاهة وقلّة الركون إلى الدنيا والميل لى اللذّات فأدنى [حالاته] أن يكون مذكوراً معهم ، وليس بعد هذه الأمّهات شيء يستحقّ به الخلافة إلاّ ما حددنا وذكرنا ، وكلّهنّ مجموعات في عليّ بن أبي طالب ومتفرّقات في سواه ، فقد فوّضنا الأمر في سعد إليكم : فقولوا كيف شئتم : فإن سددتم قدّمتم عليّاً ، وإن تركتم السد [د] كفيتمونا [. . . . . .] فيكم وأعفيتمونا من ذكركم وشغل القلوب بكم .

[٤٤ ـ حق معاوية بالمطالبة بدم عثمان لا يمنحه الحق بالخلافة]

وأمّا طلبه بدم عثمان ، فليس ذلك مستنكراً إذ كانت غايته الاستيثاق منهم إلى أن يقوم حاكم الجماعة ؛ ونحن لا نخالفكم أنّ قاتل عثمان من

أهل النار مَن كان من العالمين، ولكنّ معاوية وأهل الشام لم [. . . . .]
عند علي بما هو بيّن [. . . .]
دون قيام الحجّة بالأمّ ولا بما هو [. . . .] ولا أن
يقتلوا [. . . . .] قتله ومن أمر ومن أشار ومن أظهر محبّة ذلك وعلم
أنّه لو درجهم إليهم إنّهم كانوا لا يقتصرون عليهم حتى يطمعهم ذلك في أكثر
منه، كان له حين عرف [. . . . .] أيّ معنى [. . . . .] وأيّ طريق
يسلك ان يمنعه من ذلك . . . . بأهل [. . . . . . .] فضلاً عن أهل الصلاة
ومن يشكّ ان عسكر عليّ قد كان يشتمل على قو[م . . . .] طوائل
وفي رقابهم حقوق ومتى يتهيّأ أن يجمع منه ألف مقاتل ليس فيهم إلا مؤمن بريء
الساحة [. . . . .] العدالة .

[٤٥ ـ علي لم يقتل عثمان ولم يعن عليه]

وأمّا ما ادُّعيَ عليه من قتل عثمان فقد قلنا في ذلك في صدر الكتاب بجملة كافية، وأمّا القنوت فإنّي سأقول فيه إن شاء الله وأحد [. . . . .] أكثر ممّا قد كنت قد أوردتُه على ابن ابراهيم بن الحسين بحضرتك وحضرة [. . . . .] شهادتك عليه بحب المغالبة وقلة التهيُّب والمرافقة ويغيظك على [. . . . .] يظهر في صدوده وشدّة عنوده ، ولو كان القنوت وتركه
. . . .

هامش رسالة الحكمين

(١) يوجه الجاحظ كلامه الى شخص يدعوه ابن حسان يبدو انه كان يميل الى العثمانية ويكره الشيعة ، وكان معتزليا فانفصل عنهم « فانت معتزلي نظامي » اي من فرقة النظام استاذ الجاحظ ، هكذا يخاطبه الجاحظ ، ولكنه لم يحافظ على نحلة الاعتزال فعاون ابراهيم بن الحسن على ترك الصلاة في مسجد ابن رغبان بالبصرة الذي بناه احد المعتزلة الفضيل بن عبد الرحمن مولى بني سدوس . وكان هذا المسجد يقنت فيه ابناء جميع الفرق من الجبرية والنابتة والمعتزلة . وهذا العمل يدل في نظر الجاحظ على سخافة عقل ابن حسان وسوء المحافظة على نحلته .

ونستطيع ان نستنتج من هذه الحادثة ان الفرق الغالبة على البصرة عندما كتب الجاحظ هذه الرسالة قبل الانتقال الى بغداد هي الجبرية والنابتة والمعتزلة . وان التعصب كان على اشده بينها بحيث انها اقتسمت المساجد في البصرة .

(٢) يبحث الجاحظ في شروط التمثيل بين شخصين او شيئين . وقد تحدث على هذه المسألة في رسائل أخرى (انظر رسالة التربيع والتدوير رقم ٢٣) . ولا وجه للمقارنة بين علي ومعاوية لأنه لا شبه بينهما . ويستعين الجاحظ ببعض الامثال فيحورها لتتلاءم مع الفكرة التي يريد التعبير عنها فيقول ان سحبان اخطب من باقل ، والاصل مثلان هما اخطب من سحبان واعيا من باقل ، ويقول ان زيادا ادهى من هبنقة ، والاصل مثلان هما : ادهى من زياد (يعني زياد ابن ابيه) واحمق من هبنقة (هبنقة رجل ضرب المثل بحمقه) . ويقول ان ابا ذر اصدق من مسيلمة والاصل مثلان هما : اصدق من ابي ذر واكذب من مسيلمة ، (اي مسيلمة الكذاب الذي ادعى النبوة بعيد موت النبي) . ويقول ان جالينوس اطب من ابي دينار ، والاصل مثلان هما : اطب من جالينوس (الطبيب اليوناني الشهير) واجهل من ابي دينار (رجل يضرب المثل بجهله في الطب) .

(٣) يجمل الجاحظ فضائل معاوية التي يقول بها ابن حسان والسفيانية . ويبدو ان النص حرف بحيث لا يظهر فيه رأي الجاحظ الحقيقي في معاوية . فحسب النص معاوية مؤمن عادل غير فاسق ؛ ولكن حسب نص النابتة ، معاوية فاسق وضال وكافر .

(٤) يذكر الجاحظ طرق اختيار الامام او امامته . وقد ذكر معظمها في كتاب العثمانية (راجع رسالة العثمانية ضمن هذا الكتاب) . ونبقى الاولى منها التي تقول « والامامة لا تستوجب الا بالتقدم في الفضل والتقدم في السوابق ، والا بأن يكون الفضل اما ظاهراً للعيون ومشهوراً عند جميع المسلمين قد اجمعوا على تقديم رجل وتأمير امير من تلقاء انفسهم بغير سيف ولا خوف ولا اكراه ظاهر ولا سبب يوجب سوء الظن فضلاً على غير ذلك » .

(٥) يعدد الجاحظ كتاب الوحي الذين سبقوا معاوية او عملوا معه وقد كان له رأي سيء بالكتاب عامة (راجع رسالة الكتاب ضمن كتابنا هذا « رسائل الجاحظ السياسية ») .

(٦) الجاحظ يريد أن يقول ان قتلة عثمان مهدوا الطريق له الى الخلافة اذ لولا قتل عثمان لما اوهم الناس باشتراك علي في قتله وتأليبهم عليه ، ولما قال انه اولى بها لأنه انتدب نفسه للأخذ بثأره .

(٧) موقف عضوي الشورى سعد بن ابي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب الناهي عن القتال استغله معاوية خير استغلال لصالحه . كما افاد من تماسك جنده وتضعضع جند علي ، وقد علل الجاحظ تضعضع جند علي لأنهم من النزارية اصحاب الاحقاد والعداوات القبلية الجاهلية ، كما انهم من اهل العراق « اصحاب الخواطر والنظر والتأويل والقياس ومع هذه الصفة يكون الاختلاف . . » .

(٨) يذكر الجاحظ سبباً آخر ادى الى غلبة معاوية وهي اللجوء الى الترغيب بالمال والمناصب يغري بها اصحاب النفوس الضعيفة والدنيئة . بينما عرف عن علي تشدده في بذل المال والضن به على غير مستحقيه .

(٩) حيلة المصاحف لم تنطل على علي ، ولكنها انطلت على جنده .

(١٠) دهاء عمرو بن العاص ادى الى ضعف موقف علي .

(١١) الجاحظ يحلل موقف ابي موسى الاشعري، وينتهي الى نتيجة جديدة وهي أنه لم يكن غبياً فيخدع ولكنه انقلب على علي وحاول صرف الخلافة الى عبد الله بن عمر .

(١٢) أنظر موقف الجاحظ من قبول علي بابي موسى حكماً ، انه يتابع استاذه النظام في تعليل ذلك القبول وهو انه لم يرض به حكماً لأنه قصير النظر عديم الفطنة ، جاهل بما يضمر ابو موسى من عداوة له ، ولا بسبب ضغط انصار ابي موسى اليمانية

عليه ، ولكن خوفاً من الخلاف في جيشه .

(١٣) اسباب ترك علي القتال هو ما لمسه من ميل جنده الى الراحة والملل من الحرب.

(١٤) يشرح الجاحظ مبدأ من مبادىء المعتزلة هو اقتران القول بالعمل . ويلمح الى التقية عند الشيعة .

(١٥) يرى الجاحظ ان علياً لم يخدع بحيلة معاوية وعمرو بن العاص .

(١٦) الفرق بين علي ومعاوية هو ان عليا كان يلزم في اعماله وتصرفاته الكتاب والسنة اي القرآن وسنة الرسول من قول وفعل وتقرير . اما معاوية فكان لا يتقيد بهما دائماً .

(١٧) الجاحظ يشير الى ما قاله في رسالة النابتة من ان معاوية كفر لمخالفته سنة الرسول في ادعاء الولد (يعني زياد ابن ابيه الذي ادعى ابو سفيان انه ابنه وهو ابن فراش) .

(١٨) الجاحظ يعلن انه معتزلي وليس علوياً او عثمانيا او بكرياً ، وهو لا يكره هؤلاء ولا اولئك ولا يميل الى اي فريق من الفريقين .

(١٩) السفيانية لا تحكم على معاوية بالضلال بسبب مبايعته ابنه يزيد . والجاحظ يخالفهم في ذلك .

(٢٠) « كتاب القضية » هو نص الاتفاق على التحكيم بين علي ومعاوية . اثبت الجاحظ النص وحلله فوجده مزوراً لفظا ومعنى او شكلاً ومضموناً . وقد أحسن الجاحظ التحليل والنقد .

(٢١) سبب تمرد معاوية على علي عزله عن ولاية الشام .

(٢٢) « الشيعة غافلون عن تدبير علي » رأي خطير اذا ثبت قلب مقاييس الشيعة راساً على عقب .

(٢٣) خطأ الخوارج في موقفهم من علي : لم يفهموا تدبيره مرتين : عندما دعاهم الى مواصلة القتال فابوا ، وعندما دعوه الى استئناف القتال فأبى .

(٢٤) الجاحظ يميط اللثام عن موقف ابن عباس من عزل معاوية : لقد نصح عليا بعدم عزله فرفض الخليفة .

(٢٥) سبب آخر ساعد معاوية في صراعه ضد الامام علي هو استنكار العامة لقتل عثمان ، والشك في موقف علي من مقتله .

(٢٦) الجاحظ يحدد معنى الاعتزال بانه التوسط والاقتصاد بين غلو الخوارج وامثالهم وتقصير المرجئة وامثالهم في صفات الله والقاذف وقتال الفئة الباغية . « المنزلة بين المنزلتين »

(٢٧) لماذا كان موقف علي من مقتل عثمان غامضاً؟ لأن الناس انقسموا فئتين بشأن عثمان : فئة ناقمة على عثمان مثنية على قاتليه وهم اكثر الجنود والقواد ورؤساء العشائر . وفئة تعظم شأن دمه وتبرىء عليا منه وهم عامة الأمة . فاختار علي فيما عساه يقول في مقتله : فاذا اظهر البراءة من قاتليه ثار به الجند . واذا اثنى على قاتليه نقمت عليه العامة . « فكان يمسك عن ذكره ما امكنه الامساك ، فاذا اضطره القول قال قولاً يحتمل رضى الفريقين » .

(٢٨) يذكر الجاحظ اسماء الفئات التي تؤيد معاوية وتثبت حقه في الخلافة وهي : السفيانية (نسبة الى ابي سفيان والد معاوية) والمروانية (نسبة الى مروان بن الحكم المؤسس الثاني للخلافة الأموية) . والغيلانية (نسبة الى غيلان الدمشقي المتكلم ٧٢٣ م) واليزيدية اصحاب ثور بن يزيد (احد رجال الحديث (٧٧٠ م)) والاوزاعي (احد فقهاء السنة في مطلع العصر العباسي ، ولد في بعلبك ومات ودفن في محلة الاوزاعي بالقرب من بيروت سنة ٧٧٤ م) .

(٢٩) طلحة والزبير عضوا الشورى ومن كبار الصحابة بايعا علياً ثم نكثا البيعة وقادا الحرب ضده في معركة الجمل قرب البصرة .

(٣٠) السفيانة تنكر ان يكون معاوية قاسطاً او جائراً . ولو كان كذلك لما اطاعه الناس وحاربوا معه وضحوا بنفوسهم واموالهم من اجله .

(٣١) السفيانية تطعن في خلافة علي لأنه لم ينلها بالتشاور ، ولم يجمع عليه الناس ، ولم يرد فيه نص . اما معاوية فقد ولاه عمر وزكاه عثمان وكانا راضيين عنه .

(٣٢) السفيانية تدعي ان ولاية معاوية صارت بوضع اليد كاللقطة ولو طلبها علي منه لم يثبت ان اللقطة له .

(٣٣) السفيانية تزعم ان حق علي بالخلافة سقط لأنه اشترك في دم عثمان او اعان على قتله او منع ولي الدم من معاقبة القاتل .

(٣٤) السفيانية تنفي صحة الحديث النبوي « انت مني بمنزلة هارون من موسى » لأنه لو كان صحيحاً لاحتج به علي . ثم انها تقول ان الخلافة شورى ، وعلي لم ينلها بالشورى .

(٣٥) استندت السفيانية في حق معاوية بالخلافة إلى انتصاره على خصمه وقوته .والامام يجب ان يكون هو الأقوى ويجب أن يجمع الدين والسيف لتستقيم الامامة . وكذلك النبوة فلا بد للنبي من ان يحمل السيف الى جانب الرسالة الدينية أو يؤيده ملك في دعواه ولكن هذا الزعم لا ينطبق على السيد المسيح وعلى موسى . ولا يؤيده الجاحظ الذي يرى في رسالة حجج النبوة أن يكون النبي اعتمد على

الارهاب لنشر دينه (انظر ايضا استحقاق الامامة) .

(٣٦) ملخص حجج السفيانية في وجوب امامة معاوية : براءته من عيوب اعضاء الشورى ، وانتدابه الى الثأر لدم عثمان .

(٣٧) الجاحظ يعترف بأن حجج السفيانية القاها اليه ابن حسان مفسرة مستوفاة لكي لا يعتب عليه أحد .

(٣٨) جميع حجج السفيانية لم يدل بها معاوية ولم يعرفها اهل عصره انها من تصنع المتكلمين المتأخرين من الناصبة .

(٣٩) يذكر الجاحظ معظم المؤرخين العرب : الزهري ومحمد بن اسحق ، امامي اهل الحجاز في علم السير والاخبار ، وقتادة البصري ، وسماك بن حرب الكوفي ، وشبرمة والقاسم بن معن وابن ابي عنيسة البصريين الخ . وهؤلاء ثقات . ومثل الكلبي وابن الكلبي وعوانه والشرفي بن القطامي وابن الحسن المدائني والهيثم بن عدي الخ . . من غير الثقات . ويدل كلام الجاحظ على انه اطلع على كتبهم مما يبرهن على سعة ثقافته .

(٤٠) الدليل على ان هذه الاحتجاجات التي قالت بها السفيانية في عصر معاوية من صنع المتكلمين المحدثين ان خطب معاوية ورسائله تخلو منها ، وكذلك كتاب القضية .

(٤١) الرد على حجة السفيانية بعدم الاجماع على خلافته يدفع الجاحظ الى ايضاح مفهوم الاجماع وعلاقته باستحقاق الامامة . ان الاجماع بنظره ليس سبب الامامة سواء توافر ام لم يتوافر ، ان سبب الامامة هو الفضل (راجع نظريته في الامامة في اواخر رسالة العثمانية ، وفي كتابنا : المناحي الفلسفية عند الجاحظ) .

(٤٢) الشورى ليست سبب الامامة بنظر الجاحظ ، وقد عمل بها عمر وليس من الضروري اتباعها . فأبو بكر لم يعمل بها بل اقام عمر قبل وفاته .

(٤٣) علي اولى بالخلافة بسبب القرابة والرواية والقدم والزهد . هذا الرأي قال به الشيعة ورفضه الجاحظ في « استحقاق الامامة » وكتب أخرى .

(٤٤) الجاحظ لا يستنكر طلب معاوية بدم عثمان ويرى ان قاتل عثمان من اهل النار . هذا الرأي اعلنه ايضاً في رسالة النابتة . (راجعها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية) .

(٤٥) علي لم يقتل عثمان ولا اشترك في قتله . هذا الرأي ابداه الجاحظ في مطلع الرسالة (رقم ٦) .

ـ ٥ ـ

كتاب فضل هاشم على عبد شمس

قال أبو عثمان :

[١ ـ خصال هاشم في الجاهلية]

إن أشرف خصال قريش في الجاهلية : أللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابة ، وهذه الخصال مقسومة في الجاهلية لبني هاشم وعبد الدار وعبد العزى دون بني عبد شمس . على أن معظم ذلك صار شرفه في الاسلام إلى بني هاشم . لأن النبي صلى الله عليه وسلم لما ملك مكة صار مفتاح الكعبة بيده ، فدفعه إلى عثمان بن طلحة . فالشرف راجع إلى من ملك المفتاح لا إلى من دفع إليه . وكذلك دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير اللواء فالذي دفع اللواء إليه وأخذه مصعب من يديه أحق بشرفه وأولى بمجده ، وشرفه راجع إلى رهطه من بني هاشم . قال : وكان محمد بن عيسى المخزومي أميراً على اليمن فهجاه أُبيُّ بنُ مُدْلج فقال :

قُـلْ لابْنِ عِيسَى الْمُسْتَغِيـ ـثِ مِنَ الشُّهولَةِ بِالْوُعُورَهْ

النَّاطِقِ الْعَوْرَاءَ في جُلِّ الأُمُورِ بِلاَ بَصِيرَهْ

وُلْدُ الْمُغِيرةِ تِسْعَةٌ كَانُوا صَنَادِيدَ العَشِيرة

وأَبُوكَ عَاشِرُهُمْ كَما نَبَتَتْ مَعَ النَّخْلِ الشُّعَيْرَهْ

إنَّ النُّبُوَّةَ والخِلاَفَةَ والسقاية والمشورة

في غيركم فاكفف اليك يداً مجذمة قصيرة

قال : فانبرى له [شاعر] من ولد كُرَيْز بن حبيب بن عبد شمس ، وكان مع محمد بن عيسى باليمن ، يهجو عنه ابنَ مُدلجٍ في كلمة له طويلة قال فيها :

لاَ لِـوَاءٌ يُـعَـدُّ بِـابْـنِ كُـرَيْـزٍ ... لاَ وَلاَ رِفْـدُ بَيْتِـهِ ذِي السَّنـاءِ
لا حِجَـابٌ وَلَيْسَ فيكم سِوىَ الْـ ... ـكِبْـرِ وَبُغْضِ النَّبِيِّ وَالشُّهَـدَاءِ
بَـيْنَ حَـاكٍ وَمُخْـلِجٍ وَطَـرِيْـدٍ ... وَقَتِـيـلٍ يَـلْعَنُـهُ أَهْـلُ السَّـماءِ
وَلَهُـمْ زَمْـزَمٌ وَجِـبْـرَائِـيـلُ ... وَمَجْـدُ السِّـقَـايَـةِ الْـغَـرَّاءِ

قـال أبو عثمـان : فالشهداء : علي وحمزة وجعفر . والحـاكي والمخلج هـو الحكم ابن أبي العاص ، كان يحكي مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم فـالتفت يوماً فـرآه فدعـا عليه ، فلم يـزل مخلج المشية عقـوبة من الله تعـالى . والطريـد : إثنان ، الحكم ابن أبي العاص ومُعاوية بن المغيرة بن أبي العاص . وهمـا جدا عبـد الملك بن مـروان من قِبَـلِ أمـه وأبيـه . وكـان النبي صـلى الله عليـه وسلم طـرد مُعاوية بن المغيرة هذا من المدينة وأجله ثـلاثاً فحيـره الله ولم يزل يتـردد في ضلالـه حتى بعث في أثره علياً وعمـاراً فقتلاه . فـأما القتـل فكثير : نحـو شيبة وعتبـة ابني ربيعـة والوليـد بن عتبـة وحنـظلة بن أبي سفيـان وعقبـة بن أبي مُعيط والعـاص بن سعيد بن أمية ومعاوية المغيرة وغيرهم .

[٢ - كرم هاشم]

قال أبو عثمان : وكان اسم هاشم عَمْراً ، وهـاشِم لقب . وكان أيضـاً يقال له القمر . وفي ذلك يقول مَطْرُودُ الخُزَاعيُّ :

إلى الْقَمَـرِ السَّـارِي الْمُنِير دَعَـوْتُـهُ ... وَمُطْعِمِهِم في الأَزْلِ مِنْ قَمَعِ الجُزْرِ

قال ذلك في شيء كان بينه وبين بعض قريش ، فدعاه مطرود إلى المحاكمـة إلى هاشم . وقال ابنُ الزِّبعري :

كـانـتْ قُـرَيْشٌ رَيْضَـةً فَـتَلَفَّـقَتْ ... فَـالمُحُّ خَـالِصُـهُ لِعَبْـدِ مَنَـافِ

الـرَّائِشُـونَ ولَيْسَ يـوجَـدُ رَائِشٌ وَالْقـائِلُونَ هَـلُمَّ لِـلأَضْيـافِ
عَمْـرُو العُلَى هَشَمَ الثَّريـدَ لِقَـوْمِـهِ وَرِجَـالُ مَكَّـةَ مُسْنِتـونَ عِجَـافُ

فعم كـما تـرى أهــل مكـة بالأزل والعجف وجعله الـذي هشم لهم الخبز ثـريداً ، فغلب هـذا اللقب على اسمـه حتى صـار لا يعـرف إلا بـه . وليس لعبـد شمس لقب كـريم ولا اشتق له من صـالح أعمالـه اسم شـريف ، ولم يكن لعبـد شمس ابن يأخذ بضبعه ويرفع من قدره ويزيد في ذكره .

[٣ ـ مزايا عبد المطلب]

ولهاشم عبد المطلب سيد الوادي غير مـدافع ، أجمـل الناس جمـالاً وأظهرهم جـوداً وأكملهم كمالاً ، وهـو صاحب الفيـل والطير الأبـابيل صاحب زمزم وسـاقي الحجيج . وولد عبد شمس أمية بن عبد شمس ، وأمية في نفسـه ليس هناك وإنما ذكـر بـأولاده ولا لقب لـه . ولعبـد المـطلب لقب شهير واسم شـريف : شيبـة الحمد . قال مطرود الخزاعي في مدحه :

يـا شَيْبَـةَ الحمـد الـذِي تثنِي لـهُ أيَّـامُـه مِنْ خَيْـرِ ذُخْـرِ الـذَّاخِـرِ
الـمَجْـدُ مـا حـجَّتْ قُـرَيْشُ بيْتَـه ودَعَـا هـديْـلٌ فـوْقَ غُصنٍ نـاضِـرِ
والله لا أَنْـسَـاكُـمْ وفِـعَـالَـكُـمْ حـتـى أغـيـب فـي سـفـاة الْـقَـابِـرِ

وقـال حذافـة بنُ غانم العَدويُّ وهو يمـدح أبا لهب ويـوصي ابنه خـارجة بن حُذَافة بالانتهاء إلى بني هاشم :

أَخَـارِجُ إِمَّـا أَهْـلِكَنَّ فـلا تَـزَلْ لهم شَـاكِـراً حتى تُغَيَّبَ في القَبْـرِ
بني شَيْبَـةِ الحمـدِ الكـريمِ فِعالُـهُ يُضيءُ ظَـلاَمَ اللَّيْلِ كـالْقَمَرِ البَـدْرِ
لِسَاقِي الحَجِيجِ ثم للشَّيْخِ هَاشِمٍ وَعَبـدِ مَنافٍ ذَلِكَ السيدِ الْغَمْـرِ
أَبُـو عُتْبَـةَ الْمُـلْقِي إِليَّ جِـوارَهُ أَغَـرُّ هِجَانُ اللَّوْنِ مِنْ نَفَـرٍ غُـرِّ
أبُـوهم قصيٌّ كـانَ يُـدْعَى مجمعاً بِـهِ جَمَعَ الله القَبـائِلَ مِـنْ فِهْـرِ

فأبو عُتْبَةَ هو أبو لهب بن عبدِ العزى بن عبد المطلب بن هاشم وابناه عُتبة وعتيبة : وقال العبدي حين احتفل في الجاهلية فلم يترك :

لا تَـرَى في النّـاسِ حَيّـاً مِثْلَنـا   مَـا خَـلا أَوْلاد عَـبْـدِ المُـطَّلِبْ

وإنما شرف عبد شمس بأبيه عبد مناف بن قصي ، وبني ابنه أمية بن عبد شمس . وهاشم شرف بنفسه وبأبيه عبد مناف وبابنه عبد المطلب . والأمر في هذا بَيِّنٌ وهو كما أوضحه الشاعر في قوله :

إنمـا عَـبْـدُ مَـنـافٍ جَـوْهَـرٌ   زَيَّـنَ الجَـوْهَـرَ عَـبـدُ المُـطَّلِبْ

قال أبو عثمان : ولسنا نقول إن عبد شمس لم يكن شريفاً في نفسه ، ولكن الشرف يتفاضل ، وقد أعطى الله عبد المطلب في زمانه وأجرى على يديه وأظهر من كرامته ما لا يعرف مثله إلا لنبي مرسل ، وإن في كلامه لأبرهة صاحب الفيل وتوعده إياه برب الكعبة وتحقيق قولة من الله تعالى ونصرة وعيله بحبس الفيل وقتل أصحابه بالطير الأبابيل وحجارة السجيل حتى تركوا كالعصف المأكول ، لأعجب البرهانات وأسنى الكرامات ، وإنما كان ذلك إرهاصاً لنبوة النبي صلى الله عليه وسلم ، وتأسيساً لما يريد الله به من الكرامة ، وليجعل ذلك البهاء متقدماً له ومردوداً عليه ، وليكون أشهر في الآفاق وأجل في صدور الفراعنة والجبابرة والأكاسرة ، وأجدر أن يقهر المعاند ويكشف غباوة الجاهل .

[٤ - نبوة محمد]

وبعد ، فمن يناهض أو يناضل رجالاً ولدوا محمداً صلى الله عليه وسلم ؟ ولو عزلنا ما أكرمه الله به من النبوة حتى نقتصر على أخلاقه ومذاهبه وشيمه لما وفى به بشريٌّ ولا عدله شيء ؟ ولو شئنا أن نذكر ما أعطى الله عبد المطلب من تفجر العيون وينابيع الماء من تحت كلكل بعيره وأخفافه بالأرض القسي وبما أعطي يوم المساهمة وعند المقارعة من الأمور العجيبة والخصال البائنة لقلنا ولكنا

أحببنا أن لا نحتج عليكم إلا بالموجود في القرآن الحكيم والمشهور في الشعر القديم الظاهر على ألسنة الخاصة والعامة ورواة الأخبار وحمال الآثار .

[٥ ـ ايلاف قريش]

قال : ومما هو مذكور في القرآن ـ عدا حديث الفيل ـ قوله تعالى : ﴿ لإيلافِ قُرَيْشٍ ﴾ ولقد أجمعت الرواة على أن أول من أخذ الايلاف لقريش هاشم بن عبد مناف . فلما مات قام أخوه المطلب مقامه ، فلما مات قام عبد شمس مقامه ، فلما مات قام نوفل مقامه ـ وكان أصغرهم ـ والايلاف هو أن هاشماً كان رجلاً كثير السفر والتجارة فكان يسافر في الشتاء إلى اليمن وفي الصيف إلى الشام ، وَشرك في تجارته رؤساء القبائل من العرب ومن ملوك اليمن نحو العباهلة باليمن واليكسوم من بلاد الحبشة ونحو ملوك الروم بالشام ، فجعل لهم معه ربحاً فيما يربح وساق لهم إبلاً مع إبله فكفاهم مؤنة الأسفار على أن يكفوه مؤنة الأعداء في طريقه ومنصرفه ، فكان في ذلك صلاح عام للفريقين ، وكان المقيم رابحاً والمسافر محفوظاً . فأخصبت قريش بذلك وحملت معه أموالها وأتاها الخير من البلاد السافلة والعالية وحسنت حالها وطاب عيشها . قال : وقد ذكر حديث الايلاف الحارث بن الحنش السلمي وهو خال هاشم والمطلب وعبد شمس فقال :ـ

إنَّ أخي هاشِماً لَيْسَ أخا واحِدِ الآخِذِ الإيلاَفَ والقائمِ لِلْقاعِدِ

قال أبو عثمان) وقيل إن تفسير قوله تعالى : ﴿ وآمَنَهُمْ مِن خَوفٍ ﴾ هو خوف من كان هؤلاء الاخوة يمرون به من القبائل والأعداء وهم مغتربون ومعهم الأموال وهذا هو ما فسرنا به الإيلاف آنفاً ، وقد فسره قوم بغير ذلك قالوا : إن هاشماً جعل على رؤساء القبائل ضرائب يؤدونها إليه ليحمي بها أهل مكة ، فان ذؤبان العرب وصعاليك الأحياء وأصحاب الغارات وطلاب الطوائل كانوا لا

يؤمنون على الحرم لا سيما وناس من العرب كانوا لا يرون للحرم حرمة ولا للشهر الحرام قدراً ، مثل طَيء وَخَثْعم وَقُضَاعَة وبعض بلحَرْثِ بن كَعْب ، وكيفما كان الايلاف فإن هاشماً كان القائم به دون غيره من إخوته .

[٦ ـ حلف الفضول]

قال أبو عثمان : ثم حِلْفُ الفضول وجلالته وعظمته ، وهو أشرف حلف كان في العرب كلها وأكرم عقد عقدته قريش في قديمها وحديثها قبل الاسلام . لم يكن لبني عبد شمس فيه نصيب ، قال النبي صلى الله عليه وسلم وهو يذكر حلف الفضول : لقد شهدت في دار عَبْدِ الله بن جُدْعان حِلفاً لو دعيتُ إلى مثله في الاسلام لأجبت . ويكفي في جلالته وشرفه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهده وهو غلام . وكان عُتْبَةُ بنُ رَبيعة يقول : لو أن رجلاً خرج مما عليه قومه لدخلت في حلف الفضول لما أرى من كماله وشرفه ولما أعلم من قدره وفضيلته . قال : ولفضل ذلك الحلف وفضيلة أهله سمي « حِلْفُ الفُضُول » وسميت تلك القبائل « الفضول » فكان هذا الحلف في بني هاشم وبني المطلب وبني أسد بن عبد العزى وبني زهرة وبني تيم بن مرة . تعاقدوا في دار ابن جُدعان في شهر حرام قياماً يتماسحون بأكفهم صعدا لَيكونُن مع المظلوم حتى يؤدوا إليه حقه ما بل بحر صوفة ، وفي التأسي في المعاش والتساهم بالمال . وكانت النباهة في هذا الحلف للزُبير بن عبد المطلب ولعبد الله بن جُدعان . أما ابن جُدعان فلأن الحلف عقده في داره ، وأما الزبير فلأنه هو الذي نهض فيه ودعا إليه وحث عليه ، وهو الذي سماه « حلف الفضول » وذلك لأنه لما سمع الزبيدي المظلوم ثمنَ سلعته قد أوفى على أبي قبيس قبل طلوع الشمس رافعاً عقيرته ، وقريش في أنديتها ، قائلاً :

يَا للرِّجَالِ لِمظْلوم بِضَاعَتَهُ ... بِبَطْنِ مَكَّةَ نَائِي الحَيِّ وَالنَّفرِ
إنَّ الحَرَامَ لِمَنْ تَمّتْ حَرَامَتُهُ ... وَلاَ حَرَامَ لِثَوْبَيْ لابِسِ الغَدَرِ

حي وحلف ليعقدن حلفاً بينه وبين بطون من قريش يمنعون القوى من ظلم الضعيف ، والقاطن من عنف الغريب . ثم قال :

حَلفتُ لنَعْقِدَنْ حِلفاً عَليْهِم ... وَإنْ كُنّا جَميعاً أهْلَ دَار
نُسَمّيهِ الفُضُولَ إذا عَقَدْنا ... يَعَزُّ بِهِ الغريبُ لَدَى الجِوَار
وَيعلمُ مَنْ يَطوفُ البَيْتَ أنّا ... أُباةُ الضَّيْم نهْجُرُ كلَّ عَار

فبنو هاشم هم الذين سموا ذلك الحلف « حلف الفضول » وهم كانوا سببه والقائمين به دون جميع القبائل العاقدة له والشاهدة لأمره ، فما ظنك بمن شهده ولم يقم بأمره ؟

قال أبو عثمان : وكان الزبير بْنُ عَبدِ المُطّلب شجاعاً أبياً وجميلاً بهياً ، وكان خطيباً شاعراً وسيداً جواداً ، وهو الذي يقول :

وَلَوْلا الحُمْسُ لَمْ يَلْبَسْ رِجالٌ ... ثِيابَ أعِزَّةٍ حَتّى يَموتُوا
ثِيابُهُم شِمالٌ أوْ عَبَاءةٌ ... بِهَا دَنَسٌ كما دَنِسَ الحَمِيتُ
وَلكِنّا خُلِقْنا إذْ خُلِقْنا ... لَنَا الحِبَراتُ وَالمِسْكُ الفَتِيتُ
وَكأسٌ لَوْ تُبِينُ لَهُمْ كَلاماً ... لَقالَتْ إنّما لَهُم سُبِيتُ
تُبِينُ لنَا القَذَى إنْ كانَ فيها ... رَصِينُ الحِلْمِ يَشْرَبُها هَبِيتُ
وَيَقْطَعُ نخوَةَ المُخْتالِ عَنّا ... رِقاقُ الحَدِّ ضَرْبَتُهُ صَمُوتُ
بِكَفِّ مُجَرَّبٍ لا عَيْبَ فِيْهِ ... إذا لقيَ الكَريهةَ يَسْتَمِيتُ

قال : والزُّبَيْرُ هو الذي يقول :

وَأسْحَم مِنْ رَاحِ العِرَاقِ مُمَلّاً ... مُحِيطٌ عليهِ الجَيْشُ جَلْدٌ مَرَائِرُهْ
صَبَحْتُ بِهِ طَلْقاً يُرَاحُ إلى النّدَى ... إذا مَا انْتَشَى لَمْ يَحْتَصِرْهُ مُعَاقِرُهْ
ضَعِيفٌ بِجَنْبِ الكَاسِ قَبْضُ بَنَانِهِ ... كَلِيلٌ عَلَى جِلْدِ النَّدِيمِ أظَافِرُهْ

قال : وبنو هاشم هم الذين ردوا على الزُّبيدي ثمن بضاعته ، وكانت عند

العاص بن وائل ، وأخذوا للبارقي ثمن سلعته من أبي بن خلف الجمحي ، وفي ذلك يقول البارقي :

وَيأْبَى لكمْ حِلْفُ الفُضُولِ ظُلامَتي ... بَنِي جُمَحٍ وَالْحَقُّ يُؤْخذُ بالْغَصْبِ

وهم الذين انتزعوا من نُبَيْه بْنِ الحَجَّاج قَتول الحسناء بنت التاجر الخثعمي ، وكان كابره عليها حين رأى جمالها . وفي ذلك يقول نُبَيْه بن الحجاج :

وَخشِيتُ الفُضُولَ حِينَ اتَوْنِي ... قَدْ أُرَانِي وَلا اخَافُ الفُضُولا
إنَّني وَالَّذِي يَحجُّ لَهُ ... شُمْطٌ إيَادٍ وَهَلَّلوا تهليلاَ
لَبَرَاءٌ مِنّي قُتَيْلَةُ يَا لَلنّاسِ ... هَلْ يَبْتَغُونَ إلاّ القَتُولا

وفيها أيضاً يقول :

لَوْلا الفُضولُ وَأنَّهُ ... لا أمْنَ مِنْ عَدَوَائِهَا
لَدَنَوْتُ مِنْ أبْيَاتِها ... وَلَطُفْتُ حَوْلَ خِبَائِهَا

في كلمته التي يقول فيها :

حَيِّ الْبَخِيلَةَ إذْ نَأَتْ ... مِنّا عَلَى عُدَوَائِهَا
لا بِالْفِرَاقِ تُنِيلُنا ... شَيْئاً وَلا بِلقَائِهَا
حَلَّتْ بِمَكَّةَ حَلَّةً ... في مَشْيِهَا وَوِطَائِهَا

في رجال كثير انتزعوا منهم الظلامات . ولم يكن يظلم بمكة إلا رجال أقوياء ولهم العدد والعارضة ، منهم من ذكرنا قصته .

[٧ - حرب الفجار]

قال أبو عثمان : ولهاشم أخرى لا يعد أحد مثلها ولا يأتي بما يتعلق بها . وذلك أن رؤساء قبائل قريش خرجوا إلى حرب بني عامر متساندين ، فكان حرب إبن أمية على بني عبد شمس ، وكان الزبير بن عبد المطلب على بني هاشم ،

وكان عبد الله بن جدعان على بني تيم ، وكان هشام بن المغيرة على بني مخزوم . وكان على كل قبيلة رئيس منها ، فهم متكافئون في التساند ولم يحقق واحد منهم الرآسة على الجميع . ثم آب هاشم بما لا تبلغه يد متناول ولا يطمع فيه طامع ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : شهدت الفجار وأنا غلام فكنت أنبل فيه على عمومتي . فنفى مقامه عليه الصلاة والسلام أن تكون قريش هي التي فجرت ، فسميت تلك الحرب « حرب الفجار » وثبت أن الفجور إنما كان ممن حاربهم . وصاروا بيمنه وبركته ولما يريد الله من إعزاز أمره وإعظام الغالبين العالين . ولم يكن الله ليشهده فجرةً ولا غدرةً ؟ فصار مشهده نصراً وموضعه فيهم حجة ودليلاً .

[٨ ـ مخازي امية مقابل فضائل هاشم]

قال أبو عثمان : وشرف هاشم متصل ، من حيث عددت كان الشرف معه كابراً عن كابر ، وليس بنو عبد شمس كذلك ، فإن الحَكَم بن أبي العاص كان عارياً في الاسلام ولم يكن له سناء في الجاهلية . وأما أمية فلم يكن في نفسه هناك ، وإنما رفعه أبوه ، وكان مضعوفاً وكان صاحب عهار ، يدل على ذلك قول نفيل بن عدي جد عمر بن الخطاب حين تنافر إليه حرب بنْ أمية وعبدالمطلب ابن هاشم ، فنفر عبد المطلب وتعجب من إقدام حرب عليه وقال له :

أبـوكَ مُـعَـاهِـرٌ وَأبـوهُ عَـفٌّ ... وَذادَ الـفِـيْـلَ عَـن بَـلَدٍ حَـرَامِ

وذلك أن امية كان تعرض لامرأة من بني زهرة فضربه رجل منهم بالسيف ، فاراد بنو امية ومن تبعهم إخراج بني زهرة من مكة فقام دونهم قيس إبن عدي السهمي ، وكانوا أخواله وكان منيع الجانب شديد العارضة حَمِيُّ الأنف أبيُّ النفس فقام دونهم وصاح : أصبح ليل . فذهبت مثلاً . ونادى : الآن الظاعن مقيم . وفي هذه القصة يقول وَهْبُ بْنُ عَبْدِ مَنافِ بنِ زهرة :

مَـهْـلاً أُمَيُّ فـإنَّ الْـبَـغْيَ مَـهلَكَـةٌ ... لا يُـكْـسِـبَـنْـكَ يَـوْمٌ شَـرُّهُ ذَكَـرُ

تبْـدُو كـوَاكِبُـه وَالشَّمْسُ طـالِعـةٌ   يُصَبُّ فِي الكَاسِ مِنْهُ الصَّابُ وَالمَقِرُ

قال أبو عثمان : وصنع أمية في الجاهرية شيئاً لم يصنعه أحد من العرب ، زوج أبا عمرو امرأته في حياته منه ، فأولدها أبا مُعيط بن أبي عمرو بن أمية . والمقيتون في الاسلام هم الذين نكحوا نساء آبائهم بعد موتهم . فأما أن يتزوجها في حياة الأب ويبنى عليها وهو يراه فإنه شيء لم يكن قط .

قال أبو عثمان : وقد أقر مُعَاويةُ على نفسه ورهطه لبني هاشم حين قيل له : أيها كان أسود في الجاهلية ، أنتم أم بنو هاشم ؟ فقال : كانوا أسود منا واحداً ، وكنا أكثر منهم سيدا . فأقرّ وأدّعى ، فهو في إقراره بالنقص مخصوم ، وفي ادعائه الفضل خصيم وقال جحشُ بن رئابٍ الأسدي حين نزل مكة بعد موت عبد المطلب : والله لأتزوجن ابنة أكرم أهل هذا الوادي ولأحالفن أعزهم . فتزوج أميمة بنت عبد المطلب وحالف أبا سفيان بن حرب . وقد يمكن أن يكون أعزهم ليس باكرمهم ، ولا يمكن ان يكون أكرمهم ليس بأعزهم . وقد أقر أبو جهل على نفسه ورهطه من بني مخزوم حين قال : تحاربنا نحن وهم حتى إذا صرنا كهاتين جاءنا نبي . فأقر بالتقصير ثم ادعى المساواة ، ألا تراه كيف أقر أنه لم يزل يطلب شأوهم ثم ادعى أنه لحقهم ؟ فهو مخصوم في إقراره ، خصيم في دعواه . وقد حكم لهاشم دَغفَلُ بنُ حَنْظَلَة النسابة حين سأله مُعاوية عن بني هاشم فقال : هم أطعم للطعام وأضرب للهام . وهاتان خصلتان يجمعان أكثر الشرف .

قال أبو عثمان : والعجب من منافرة حرب بن أمية عبد المطلب بن هاشم وقد لطم حرب جاراً لخلف بن أسعد جد طلحة الطلحات فجاء جاره فشكا ذلك إليه ، فمشى خلف إلى حرف وهو جالس عند الحجر فلطم وجهه عنوة من غير تحاكم ولا تراضٍ ، فما انتطح فيه عنزان . ثم قام أبو سفيان بن حرب مقام أبيه بعد موته فحالفه أبو الأزهر الدوسي ، وكان عظيم الشأن في الأزد ، وكانت بينه وبين بني الوليد بن المغيرة محاكمة في مصاهرة كانت بين الوليد وبينه ، فجاءه

هشام بن الوليد وأبو الأزيهر قاعد في مقعد أبي سفيان بذي المجاز فضرب عنقه ، فلم يدرك به أبو سفيان عقلاً ولا قوداً في بني المغيرة . وقال حسان بن ثابت يذكر ذلك :

غدَا أهْلُ حِضْنَيْ ذِي المَجَازِ بِسُحْرَةٍ وَجَارُ ابْنِ حَرْبٍ لا يَرُوحُ وَلا يَغْدُو
كَسَاكَ هِشَامُ بْنُ الوَلِيدِ ثِيَابَهُ فَأبْلِ وَأخْلِقْ مِثْلَهَا جُدُداً بَعْدُ

[٩ ـ ملوك هاشم اعظم من ملوك أمية]

قال أبو عثمان : فإن قالت أمية : لنا الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان بن الحكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي . أربعة خلفاء في نسق . قلنا لهم : ولبني هاشم : هرون الواثق بن محمد المعتصم بن هرون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد الكامل بن علي السجاد ـ كان يصلي كل يوم وليلة ألف ركعة ، فكان يقال له السجاد لعبادته وفضله ، وكان أجمل قرشي على وجه الأرض وأوسمه ، ولد ليلة قتل علي بن أبي طالب فسمي باسمه كُنِّيَ بكنيته فقال عبد الملك : لا والله لا أحتمل لك الاسم والكنية فغير أحدهما ؟ فغير الكنية فصيرها أبا محمد ـ ابن عبد الله وهو البحر وهو حبر قريش وهو المفقه في الدين المعلم التأويل ، ابن العباس ذي الرأي وحليم قريش ، ابن شيبة الحمد وهو عبد المطلب سيد الوادي ، ابن عمرو وهو هاشم هشم الثريد وهو القمر سمي بذلك لجماله ولأنهم كانوا يقتدون به ويهتدون برأيه ، ابن المغيرة وهو عبد مناف بن زيد وهو قصي وهو مُجمِّع . فهؤلاء ثلاثة عشر سيداً لم يخرم منهم واحد ولا قصر عن الغاية . وليس منهم واحد إلا وهو ملقب بلقب اشتق له من فعله الكريم ، ومن خُلقه الجميل ، وليس منهم إلا خليفة أو موضع للخلافة أو سيد في قديم الدهر متبع أو ناسك مقدم أو فقيه بارع أو حليم ظاهر الزكانة . وليس هذا لأحد سواهم . ومنهم خمسة خلفاء في نسق ، وهم أكثر مما عدته الأموية . ولم يكن مروان كالمنصور ،

لأن المنصور ملك البلاد ودوخ الأقطار وضبط الأطراف اثنتين وعشرين سنة ، وكانت خلافة مروان على خلاف ذلك كله ، وإنما بقي في الخلافة تسعة أشهر حتى قتلته امرأته عاتكة بنت يزيد بن معاوية حين قال لابنها خالد من بعلها الأول : يا ابن الرطبة . ولئن كان مروان مستوجباً لاسم الخلافة مع قلة الأيام وكثرة الاختلاف واضطراب البلدان فضلاً عن الأطراف ، فابن الزبير أولى بذلك منه ، فقد كان ملك الأرض إلا بعض الأردن . ولكن سلطان عبد الملك وأولاده لما اتصل بسلطان مروان ، اتصل عند القوم ما انقطع منه وأخفى موضع الوهن عند من لا علم له . وسِنُوّ المهدي كانت سني سلامة ، وما زال ملك عبد الملك في انتقاض وانتكاس، ولم يكن ملك يزيد كملك هرون ، ولا ملك الوليد كملك المعتصم .

[١٠ ـ هاشم احق بالخلافة]

قال أبو عثمان : وتفخر عليهم بنو هاشم بأن سِنِيّ ملكهم أكثر ومدته أطول ، فإنه قد بلغت مدة ملكهم إلى اليوم أربعاً وتسعين سنة . ويفخرون أيضاً عليهم بأنهم ملكوا بالميراث وبحق العُصبة والعُمومة ، وأن ملكهم في مَغرس نبوة ، وأن أسبابهم غير أسباب بني مروان ، بل ليس لبني مروان فيها سبب ولا بينهم وبينها نسب ، إلا أن يقولوا إنا من قريش . فيساووا في هذا الاسم قريش الظواهر . لأن رواية الراوي : الأئمة من قُريش . واقعة على كل قريش . وأسباب الخلافة معروفة وما يدعيه كل جيل معلوم ، وإلى كل ذلك قد ذهب الناس فمنهم من ادعاه لعلي لاجتماع القرابة والسابقة والوصية . فإن كان الأمر كذلك فليس لآل أبي سُفيان ولا لآل مَرْوان فيها دعوى ، وإن كانت إنما تنال بالوراثة وتستحق بالعمومة وتستوجب بحق العصبة ، فليس لهم أيضاً فيها دعوى ، وإن كانت لا تنال إلا بالسوابق والأعمال والجهاد ، فليس لهم في ذلك قدم مذكور ولا يوم مشهور ، بل كانوا إذ لم يكن لهم سابقة ولم يكن فيهم ما يستحقون به الخلافة ولم يكن فيهم ما يمنعهم منها أشد المنع لكان أهون ولكان

الأمر عليهم أيسر . قد عرفنا كيف كان أبو سفيان في عداوة النبي صلى الله عليه وسلم وفي محاربته له وإجلابه عليه وغزوه إياه ، وعرفنا إسلامه كيف أسلم وإخلاصه كيف أخلص ومعنى كلمته يوم الفتح حين رأى الجنود وكلامه يوم حنين وقوله يوم صعد بلال على الكعبة فأذن ، على أنه إنما أسلم على يد العباس ، والعباس هو الذي منع الناس من قتله وجاء به رديفاً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأله فيه أن يشرفه وأن يكرمه وينوه به . وتلك يد بيضاء ونعمة غراء ومقام مشهود ، ويوم حنين غير مجحود .

[١١ ـ جور أمية]

فكان جزاء بني هاشم من بنيه أن حاربوا علياً ، وسموا الحسن وقتلوا الحسين وحملوا النساء على الأقتاب حواسر وكشفوا عن عورة علي بن الحسين حين أشكل عليهم بلوغه كما يصنع بذراري المشركين إذا دخلت دورهم عنوة . وبعث معاوية بُسْرَ بن أرطاة إلى اليمن فقتل ابني عبيد الله بن العباس ، وهما غلامان لم يبلغا الحلم . وقتل عبيد الله بن زياد يوم الطف تسعة من صلب علي وسبعة من صلب عقيل ، ولذلك قال ناعيهم :

عينُ جُودِي بِعَبْرَةٍ وَعَوِيلِ　　وَانْدُبِي إنْ نَدَبْتِ آلَ الرَّسُولِ
تِسْعَةٌ كُلُّهُمْ لِصُلْبِ عَلِيٍّ　　قَدْ أُصِيبُوا وَسَبْعَةٌ لِعَقِيلِ

ثم إن بني أمية تزعم أن عقيلاً أعان معاوية على علي ، فإن كانوا كاذبين فما أولاهم بالكذب ، وإن كانوا صادقين فما جازوا عقيلاً بما صنع . وضرب عنق مسلم ابن عقيل صبراً وغدراً بعد الأمان ، وقتلوا معه هاني بن عروة لأنه آواه ونصره ، ولذلك قال الشاعر :

فإنْ كُنْتِ لا تَدْرِينَ ما المَوْتُ فانْظُرِي　　إلى هَانِيءٍ في السُّوقِ وَابْنِ عَقِيلِ
تَرَيْ بَطَلاً قَدْ هَشَّمَ السَّيْفُ وَجْهَهُ　　وَآخَرَ يَهْوِي مِنْ طِمَارٍ قَتِيلِ

وأكلت هندٌ كبد حمزة ، فمنهم آكلة الأكباد ، ومنهم كهف النفاق ، ومنهم من نقر بين ثنيتي الحسين بالقضيب ، ومنهم القاتل يوم الحَرَّةِ عونَ بنَ عبد الله ابن جعفر، ويوم الطفِّ أبا بكر بن عبد الله بن جعفر ، وقتل يوم الحرة أيضاً من بني هاشم : الفضل بن عباد بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ، والعباس بن عتبة بن أبي لهب بن عبد المطلب ، وعبد الرحمن بن العباس بن ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب .

قال أبو عثمان : وقالت هاشم لأمية : قد علم الناس ما صنعتم بنا من القتل والتشريد لا لذنب أتيناه إليكم ، ضربتم عليَّ بن عبد الله بن عباسٌ بالسياط مرتين على أن تزوج بنت عمه الجعفرية التي كانت عند عبد الملك وعلى أن نحلتموه قتل سليط ، وسممتم أبا هاشم عبد الله بن محمد بن علي بن أبي طالب ، ونبشتم زيداً وصلبتموه وألقيتم رأسه في عرصة الدار توطأ بالأقدام ، وينقر دماغه الدجاج حتى قال القائل :

إطْرُدُوا الدِّيْكَ عَنْ ذُؤابةِ زَيْدٍ ... طَالما كانَ لا تطأهُ الدَّجَاجُ

وقال شاعركم أيضاً :

صَلَبْنا لكم زَيْداً على جِذْعِ نَخْلةٍ ... وَلمْ نَرَ مَهْدِيّاً عَلى الجِذْعِ يُصْلَبُ
وَقِسْتمْ بعُثْمانٍ عَلِيّاً سَفَاهَةً ... وَعُثْمانُ خَيْرٌ مِنْ عَليٍّ وأطْيَبُ

فروى أن بعض الصالحين من أهل البيت قال : اللهم إن كان كاذباً فسلط عليه كلباً من كلابك . فخرج يوماً بسفر له فعرض له الأسد فافترسه . وقتلتم الامام جعفر الصادق ، وقتلتم يحيى بن زيد وسميتم قاتله ثائر مروان وناصر الدين . هذا الى ما صنع سليمان بن حبيب بن المهلب عن أمركم وقولكم بعبد الله أبي جعفر المنصور قبل الخلافة ، وما صنع مروان بابراهيم الإمام أدخل رأسه في جراب نورة حتى مات . فإن أنشدتم :

أفاضَ المَدامعَ قَتْلَى كُدَى ... وقَتْلى بِكَثْوَةَ لمْ تُرْمَسِ

وبـالـزّابـيّـينْ نـفـوسٌ ثُـوَتْ　　وَأُخْـرَى بـنـهـرْ أبي فُـطْرُس

أنشدنا نحن :

واذكُــرُوا مَصْـرَعَ الحُسَــيْنِ وَزيْـداً　　وَقـتـيـلاً بـجـانِـبِ المـهْـراس

وَالْـقـتـيْـلَ الذي بِـنجْـرانَ أمْـسَى　　ثـاويـاً بَـيْـنَ غُـرْبـةٍ وَتَـنـاسِ

وقد علمتم حال مروان أبيكم وضعفه وأنه كان رجلاً لا فقه له ولم يعرف بالزهد ولا بالصلاح ولا برواية الآثار ولا بصحبة ولا ببعد همة ، وإنما ولي رستاقًا من رساتيق دار أبجرد لابن عامر ثم ولي البحرين لمعاوية . وقد كان جميع أصحابه ومن تابعه يبايع لعبد الله بن الزبير حتى رده عبيد الله بن زياد . وقال يوم مرج راهط والرؤوس تندر عن كواهلها في طاعته :

وَمَـا ضَـرَّهُمْ عِنْـدَ حَيْنِ النفـوسِ أي غلامي قـرَيْشٍ غَلَبْ

وهذا قول من لا يستحق أن يلي ربعا من الأرباع ولا خمساً من الأخماس ، وهو أحد من قتلته النساء لكلمة كان حتفه فيها . وأما أبوه الحكم بن أبي العاص فهو طريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولعينه والمتخلج في مشيته الحاكي لرسول الله والمتسمع عليه ساعة خلوته ، ثم صار طريداً لأبي بكر وعمر ، امتنعا عن إعادته إلى المدينة ولم يقبلا فيه شفاعة عثمان ، فلما ولي أدخله فكان أعظم الناس شؤماً عليه ومن أكبر الحجج في قتله وخلعه من الخلافة .

فعبد الملك أبو هؤلاء الملوك الذين تفتخر الأموية بهم أعرق الناس في الكفر ، لأن أحد أبويه هذا والآخر من قبل أمه معاوية بن المغيرة بن أبي العاص كان النبي صلى الله عليه وسلم طرده من المدينة وأجله ثلاثاً فحيره الله حين خرج وبقي متردداً متلدداً حوضا لا يهتدي لسبيله حتى أرسل في أثره علياً وعماراً فقتلاه ، فأنتم أعرق الناس في الكفر ، ونحن أعرق الناس في الايمان ، ولا يكون أمير المؤمنين إلا أولاهم بالايمان وأقدمهم فيه .

قال أبو عثمان : وتفخر هاشم بأن أحداً لم يجد تسعين عاماً لا طواعين

فيها إلا منذ ملكوا . قالوا : لو لم يكن من بركة دعوتنا إلا أن تعذيب الأمراء لعمال الخراج بالتعليق والرهق والتجريد والتهير والمسال والنورة والجورتين والعذراء والجامعة والتشطيب قد ارتفع لكان ذلك خيراً كثيراً . وفي الطاعون يقول العماني الراجز يذكر دولتنا :

قد رفع الله رماحَ الجنّ ... وأذهبَ التّعذيب والتّجَنّي

والعرب تسمي الطواعين رماح الجن . وفي ذلك يقول الشاعر :

لعمْرك ما خَشِيتُ عَلى أُبيٍّ ... رماح بَني مُقيَّدةِ الحِمَار
ولكِنّي خَشِيتُ عَلى أُبيٍّ ... رِماحَ الجِنّ أوْ إيَّاكَ حَار

يقوله بعض بني أسد للحرث الغساني الملك .

قال أبو عثمان : وتفخر هاشم عليهم بأنهم لم يهدموا الكعبة ، ولم يحولوا القبلة ، ولم يجعلوا الرسول دون الخليفة ، ولم يختموا في أعناق الصحابة ، ولم يغيروا أوقات الصلاة ، ولم ينقشوا أكف المسلمين ، ولم يأكلوا الطعام ويشربوا على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ينهبوا الحرم ولم يطؤوا المسلمات في دار الإسلام بالسباء .

[١٢ ـ هاشم تنتزع الملك من أمية]

قال أبو عثمان : ويفخر بنو العباس على بني مروان ، وهاشم على عبد شمس بأن الملك كان في أيديهم فانتزعوه منهم وغلبوهم عليه بالبطش الشديد وبالحيلة اللطيفة ثم لم ينزعوه إلا من يد أشجعهم شجاعة وأشدهم تدبيراً وأبعدهم غوراً ومن نشأ في الحروب وربي في الثغور ومن لا يعرف إلا الفتوح وسياسة الجنود ، ثم أعطي الوفاء من أصحابه والصبر من قواده فلم يغدر منهم غادر ولا قصر منهم مقصر ، كما قد بلغك عن حنظلة بن نباتة وعامر بن ضُبارة ويزيد بن عمرو بن هبيرة ولا من سائر قواده حتى أحبابه وكتابه ، كعبد الحميد

الكاتب ، ثم لم يلقه ولا لقي تلك الحروب في عامة تلك الأيام إلا رجال ولد العباس بأنفسهم ، ولا قام بأثر الدولة إلا مشايخهم كعبد الله بن علي ، وصالح إبن علي ، وداود بن علي ، وعبد الصمد بن علي ، وقد لقيهم المنصور نفسه .

قال : وتفخر هاشم أيضاً عليهم بقول النبي صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدق : « نقلت من الأصلاب الزاكية الى الأرحام الطاهرة وما افترقت فرقتان إلا كنت في خيرهما » . وقوله : « بعثت من خيرة قريش » . ومعلوم أن بني عبد مناف افترقوا فكانت هاشم والمطلب يدا ، وعبد شمس ونوفل يداً .

[١٣ ـ مفاخر هاشم بعد الاسلام: الفخر بكثرة الولد]

قال : وإن كان الفخر بكثرة العدد ، فإنه من أعظم مفاخر العرب ، فولد علي بن عبد الله بن العباس اليوم مثل جميع بني عبد شمس . وكذلك ولد الحسين بن علي بن أبي طالب . هذا مع قرب ميلادهما . وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم : « شوهاء ولود خير من حسناء عقيم » . وقال : « أنا مكاثر بكم الأمم » . وقد روى الشعبي عن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وسلم قدم من سفر فأراد الرجال أن يطرقوا النساء ليلاً فقال : « أمهلوا حتى تمتشط الشّعِثَةُ وتستحد المُغيبة ، فإذا قدمتم فالكيس الكيس » . قالوا : ذهب إلى طلب الولد . وكانت العرب تفخر بكثرة الولد وتمدح الفحل القَبيس وتذم العاقر والعقيم . قال عامر بن الطفيل يعني نفسه :

لَبِئْسَ الْفَتَى إنْ كُنْت أعْوَرَ عَاقِراً جَبَاناً فَمَا عُذْرِي لَدَى كُلِّ مَحْضَرِ

وقال علقمة بن علاثة يفخر على عامر : آمنت وكفر ، ووفيت وغدر ، وولدت وعقر وقال الزّبرقان :

فَاسْأَلْ بَنِي سَعْدٍ وَغَيْرَهُمْ يَوْمَ الْفَخَارِ فعِنْدَهُمْ خُبري
أيّ امْرِئٍ أنَا حِيْنَ يَحْضُرُنِي رِفْدُ الْعَطَاءِ وَطَالِبُ النَّصْرِ

وَإِذَا هَـلَكْـتُ تَـرَكْـتُ وَسْـطَهُـمُ ... وُلْـدِي الْكِرَام وَنَـابِـهَ الـذُّكْـرِ

وقال طَرَفَةُ بْنُ الْعَبْدِ :

فَلَوْ شَـاءَ رَبِي كُنْتُ قَيْسَ بْنَ خَـالِـدٍ ... وَلَـوْ شَـاءَ رَبِّي كُنْتُ عَمْـرَو بن مَـرْثَـدِ
فَـأَصْبَحْتُ ذَا مَـالٍ كَثِـيرٍ وَعَـادَنِي ... بَـنُـون كِـرَام سَـادَةٌ لِـمُـسَـوَّدِ

ومدح النابغة الذبياني ناساً فقال :

لَمْ يُحْـرَمُـوا طِـيبَ الـنِّسَـاءِ وَأُمُّـهُمْ ... طَـفَحَـتْ عَلَيْـكَ بِـنَـاطِـقٍ مِـذْكَـارِ

وقال نهشل بن حري :

عَـلَّ بَـنـيَّ يَـشُـدُّ الـلَّهُ عَـظْمَـهُـمُ ... وَالنَّبْـعُ يَنْبُتُ قُضْبَـانـاً فَيَكْتَـهِـلُ

ومكث الفرزدق زماناً لا يولد له فعيرته امرأته فقال :

قَـالَـتْ أَرَاهُ وَاحِـداً لا أَخَـا لَـهُ ... يُـؤَمِّـلُهُ فِـي الـوَارِثِـيـنَ الأَبَـاعِـدُ
لَـعَلَّكِ يـومـاً أَنْ تَـرِيـنِي كَـأَنَّـمَـا ... بَنِيَّ حَـوَالَيَّ الـلُّيُـوثُ الْـحَـوَارِدُ
فَـإِنَّ تَميمـاً قَبْـلَ انْ يَـلِدَ الحَـصَـا ... أَقَامَ زَمَـانـاً وَهُـو فِي النَّـاس وَاحِـدُ

وقـال آخر - وقـد مات اخـوته وملأ حـوضـه ليـسقي فجـاء رجـل صـاحب عشيرة وعترة فأخذ بضبعه فنحاه ثم قال لراعيه : إسق إبلك - :

لَـوْ كَانَ حَـوْضُ حِمَـارٍ مَـا شَـرِبْتَ بِـهِ ... إلاَّ بِـإِذْنِ حِـمَـارٍ آخِـرَ الأَبَـدِ
لَكِنَّـهُ حَـوْضُ مَنْ أَوْدَى بِـإِخْـوَتِـهِ ... رَيْبُ المَنُـونِ فَـأَمْسَى بَيْضَـةَ الْبَـلَدِ
لَوْ كَانَ يُشْكَى إلَى الأَمْوَاتِ مَا لَقِي الأ ... حيَـاءُ بَـعْـدَهُـمُ مِنْ قِـلَّةِ الْـعَـدَدِ
ثمّ اشْتَكَيْتُ لأَشْكَـانِي وَأَنْجَـدَنِي ... قَبْـرٌ بِسِنْجَـارَ أَوْ قَبْـرٌ عَلَى قَـحَـدِ

وقال الأعشى وهو يذكر الكثرة :

وَلَسْتَ بِالأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصاً وَإِنَّما الْعِزَّةُ لِلْكاثِرِ

قال : وقد ولد رجال من العرب كل منهم يلد لصلبه أكثر من مائة ، فصاروا بذلك مفخراً ، منهم : عبد الله بن عمير الليثي ، وأنس بن مالك الأنصاري وخليفة بن بر السعدي . أتى على عامتهم الموت الجارف . ومات جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن العباس عن ثلاثة وأربعين ذكراً وخمس وثلاثين امرأة كلهم لصلبه ، فما ظنك بمن مات من ولده في حياته ؟ وليس طبقة من طبقات الأسنان الموت إليها أسرع وفيها أعم وأفشى من سن الطفولية . وأمر جعفر بن سليمان قد عاينه عالم من الناس وعامتهم أحياء . وليس خبر جعفر كخبر غيره من الناس . قال الهيثم بن عدي : أفضى الملك إلى ولد العباس وجميع ولد العباس يومئذ من الذكور ثلاثة وأربعون رجلاً ، ومات جعفر بن سليمان وحده عن مثل هذا العدد من الرجال . وممن قرب ميلاده وكثر نسله حتى صار كبعض القبائل والعمائر : أبو بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمهلب بن أبي صفرة ، ومسلم بن عمرو الباهلي ، وزياد بن عبيد أمير العراق ، ومالك بن مسمع . وولد جعفر بن سليمان اليوم أكثر عدداً من أهل هذه القبائل . وأربعة من قريش ترك كل واحد منهم عشرة بنين معروفين ، وهم : عبد المطلب بن هاشم ، والمطلب بن عبد مناف ، وأمية بن عبد شمس ، والمغيرة بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم . وليس على ظهر الأرض هاشمي إلا من ولد عبد المطلب . ولا يشك أحد أن عدد الهاشميين شبيه بعدد الجميع . فهذا ما في الكثرة والقلة .

[١٤ ـ الفخر بالحكمة]

قال : وإن كان الفخر بنبل الرأي وصواب القول ، فمن مثل عباس بن عبد المطلب وعبد الله بن العباس ؟ وإن كان في الحكم والسؤدد وأصالة الرأي والغَناء العظيم ، فمن مثل عبد المطلب ؟ وإن كان إلى الفقه والعلم بالتأويل

ومعرفة التنزيل ، وإلى القياس السديد وإلى الألسنة الحداد والخطب الطوال ، فمن مثل علي بن أبي طالب وعبد الله بن عباس ؟ قالوا : خطبنا عبد الله بن عباس خطبة بمكة أيام حصار عثمان لو شهدها الترك والديلم لأسلموا . وفي عبد الله بن العباس يقول حسان بن ثابت :

إذَا قَالَ لم يَتْرُكْ مَقَالاً لِقَائِلٍ ... بِمُلْتَقَطاتٍ لاَ تَرَى بَيْنَهَا فَصلا
شَفَى وكَفَى مَا فِي النُّفوسِ فَلَمْ يَدَعْ ... لِذِي إِرْبَةٍ فِي القَوْلِ جِدّاً وَلاَ هَزلا

وهو البحر ، وهو الحبر ، وكان عمر يقول له في حداثته عند إجالة الرأي : غص غواص . وكان يقدمه على جلة السلف .

[١٥ - فخر هاشم بالبسالة]

قال : وإن كان الفخر في البسالة والنجدة وقتل الأقران وجزر الفرسان ، فمن كحمزة بن عبد المطلب وعلي بن أبي طالب ؟ وكان الأحنف إذا ذكر حمزة قال: أَلْيَسُ . وكان لا يرضى أن يقول شجاع ، لأن العرب كانت تجعل ذلك أربع طبقات فتقول : شجاع . فإذا كان فوق ذلك قالت : بطل . فإذا كان فوق ذلك قال : بُهمة . فإذا كان فوق ذلك قالت : أليس . وقال العجاج : « أليس عن حوبائه سخي » . وهل أكثر ما يعد الناس من جرحاهما وصرعاهما إلا ساداتكم وأعلامكم ؟ قتل حمزة وعلي عتبة والوليد ، وقتلا شيبة أيضاً شركا عبيدة بن الحارث فيه ، وقتل علي حنظلة بن أبي سفيان . فأما آباء ملوككم من بني مروان فإنهم كما قال عبد الله بن الزبير لما أتاه خبر المصعب : إنا والله ما نموت إلا قتلاً ، قعصاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف . قال أبو عثمان : كأنه لم يعد قتل معاوية بن المغيرة بن أبي العاص قتلاً ، إذ كان إنما قتل في غير معركة ، وكذلك قتل عثمان بن عفان إذا كان إنما قتل محاصراً ، ولا قتل مروان بن الحكم لأنه قتل خنقاً ، خنقته النساء ؟ قال : وإنما فخر عبد الله بن الزبير بما في بني

أسد بن عبد العزى من القتل ، لأن من شأن العرب أن تفخر بذلك كيف كانوا قاتلين أو مقتولين . ألا ترى أنك لا تصيب كثرة القتل إلا في القوم المعروفين بالبأس والنجدة وبكثرة اللقاء والمحاربة ؟ كآل أبي طالب ، وآل الزبير ، وآل المهلب ؟ قال : وفي آل الزبير خاصة سبعة مقتولون في نسق ، ولم يوجد ذلك في غيرهم : قتل عمارة وحمزة ابنا عبد الله بن الزبير يوم قُدَيْد في المعركة ، قتلهما الأباضية ، وقتل عبد الله بن الزبير في محاربة الحجاج ، وقتل مصعب بن الزبير بدير الجاثليق في المعركة أكرم قتل ، وبازائه عبد الملك بن مروان ، وقتل الزبير بوادي السباع منصرفه من وقعة الجمل ، وقتل العوام بن خويلد في حرب الفجار ، وقتل خويلد بن أسد بن عبد العزى في حرب خزاعة . فهؤلاء سبعة في نسق . قال : وفي بني أسد بن عبد العزى قتل كثيرون غير هؤلاء : قتل المنذر بن الزبير بمكة ، قتله أهل الشام في حرب الحجاج وهو على بغل ورد كان نفر به فأصعد به في الجبل . وإياه يعني يزيد بن مفرغ الحميري وهو يهجو صاحبكم عبيد الله بن زياد ويعيره بفراره يوم البصرة :

لَابن الزُّبَيْرِ غَداةَ تَذْمُرُ مُنْذِراً أَولَى بِكُلِّ حَفِيظَةٍ وَزَمَاعِ

وقتل عمرو بن الزبير قتله أخوه عبد الله بن الزبير وكان في جوار أخيه عبيدة بن الزبير فلم يغن عنه ، فقال الشاعر يحرض عبيدة على قتل أخيه عبد الله بن الزبير ويعيره باخفاره جوار عمرو أخيهما :

أَعُبَيْدُ لَوْ كَانَ المجيرُ لِوَلْوَلَتْ بَعْدَ الهُدُوءِ بِرَنَّةٍ أَسْمَاءُ
أَعُبَيْدُ إِنَّكَ قَدْ أَجَرْتَ وَجَارُكم تَحْتَ الصفيحِ تَنُوبُهُ الأَصْدَاءُ
إِضْرِبْ بِسَيْفِكَ ضَرْبَةً مَذْكُورَةً فِيهَا أَدَاءُ أَمَانَةٍ وَوَفَاءُ

وقتل بجير بن العوام أخو الزبير بن العوام ، قتله سعد بن صفح الدوسي جد أبي هريرة من قبل أمه بناحية اليمامة ، وقتل معه أصرم وبعكك ابني العوام ابن خويلد . وقد قتل منهم في محاربة النبي صلى الله عليه وسلم قوم متهورون منهم : زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى ، وكان شريفاً ، قتل

يوم بدر . وأبوه الأسود كان المثل يضرب بعزته بمكة ، وفيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يذكر عاقر الناقة : كان عزيزاً منيعاً كأبي زمعة ويكنى زمعة إبن الأسود أبا حكيمة . وقتل الحرث بن الأسود بن المطلب يوم بدر أيضاً ، وقتل عبد الله بن زمعة بن الأسود ، ضرب عنقه مسرف بن عقبة صبراً ، قال له : بايع لأمير المؤمنين يزيد بن معاوية على أنك عبد قن له ؟ قال : بل أبايعه على أني أخوه وابن عمه . فضرب عنقه . وقتل اسماعيل بن هبار بن الأسود ليلاً وكان دعا حيلة فخرج مصرخاً لمن استصرخه فقتل فاتهم به مصعب بن عبد الله بن عبد الرحمن فأحلفه معاوية خمسين يميناً وخلى سبيله . فقال الشاعر :

وَلا أُجِيبُ بِلَيْلٍ دَاعِياً أَبَداً ... أَخْشَى الْغُرُورَ كَما غُرَّ ابْنُ هَبَّارِ
بَاتُوا يَجُرُّونَه فِي الْحَشِّ مُنْعَفِراً ... بِئْسَ الْهَدِيَّةُ لابْنِ الْعَمِّ وَالْجارِ

وقتل عبد الرحمن بن العوام بن خويلد في خلافة عمر بن الخطاب في بعض المغازي . وقتل ابنه عبد الله يوم الدار مع عثمان . فعبد الله بن عبد الرحمن بن العوام بن خويلد ، قتيل ابن قتيل ابن قتيل ابن قتيل ، أربعة في نسق . ومن قتلاهم : عيسى بن مصعب بن الزبير ، قتل بين يدي أبيه بمسكن في حرب عبد الملك ، وكان مصعب يكنى أبا عيسى ، وعيسى كلاهما : موالي قريش كهلها وصبيها . ومنهم مصعب بن عكاشة بن مصعب بن الزبير ، قتل يوم قديد في حرب الخوارج وقد ذكره الشاعر :

فَمَنْ فَانْدُبْنَ رِجَالاً قُتِلوا ... بِقُدَيْدٍ وَلِنُقْصَانِ الْعَدَدْ
ثم لا تعْدِلْنَ فِيهَا مُصْعَباً ... حِينَ يُبْكَى مِن قَتِيلٍ بِأَحَدْ
أنَّه قَدْ كَانَ فِيها بَاسِلاً ... صَارِماً يُقْدِمُ إِقْدَامَ الأَسَدْ

ومنهم خالد بن عثمان بن خالد بن الزبير ، خرج مع محمد بن عبد الله بن حسن بن حسن فقتله أبو جعفر وصلبه . ومنهم عتيق بن عامر بن عبد الله بن الزبير ، قتل بقديد أيضاً ، وسمى عتيقاً باسم جده أبي بكر الصديق .

[١٦ ـ فخر هاشم بالكرم]

قال : وإن كان الفخر والفضل في الجود والسماح ، فمن مثل عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ؟ ومن مثل عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب ؟ ـ وقد اعترضت الأموية هذا الموضع فقالت : إنما كان عبد الله بن جعفر يهب مما كان معاوية ويزيد يهبانه له ، فمن فضل جودنا جاد ، قالوا : ومعاوية أول رجل في الأرض وهب ألف ألف درهم ، وابنه يزيد أول من ضاعف ذلك . فإنه كان يجيز الحسن والحسين ابني علي في كل عام لكل واحد منهما بألف ألف درهم ، وكذلك كان يجيز عبد الله بن العباس وعبد الله بن جعفر ، فلما مات وقام يزيد وفد عليه عبد الله بن جعفر فقال له : إن أمير المؤمنين معاوية كان يصل رحمي في كل سنة بألف ألف درهم ؟ قال : فلك ألفا ألف درهم ! فقال : بأبي أنت وأمي ؟ أما إني ما قلتها لابن أنثى قبلك ! قال : فلك أربعة آلاف ألف درهم ـ وهذا الاعتراض ساقط ،لأن [هذا] إن صح لم يعد جوداً ولا جائزة ولا صلة رحم ، هؤلاء قوم كان يخافهم على ملكه ويعرف حقهم فيه وموقعهم من قلوب الأمة ، فكان يدبر في ذلك تدبيراً ويريغ أموراً ويصانع عن دولته وملكه . ونحن لم نعد قط ما أعطى خلفاء بني هاشم قوادهم وكتابهم وبني عمهم جوداً ، فقد وهب المأمون للحسن بن سهل غلة عشرة آلاف ألف فما عد ذلك منه مكرمة ، وكذلك كل ما يكون داخلاً في باب التجارة واستمالة القلوب وتدبير الدولة ، وإنما يكون الجود ما يدفعه الملوك إلى الوفود والخطباء والشعراء والأشراف والأدباء والسمار ونحوه ؟ ولولا ذلك لكان الخليفة إذا وفى الجند أعطياتهم احتسب ذلك في جوده ! فالعملات شيء والإعطاء على دفع المكروه شيء ، والتفضل والجود شيء .

ثم إن الذين أعطاهم معاوية ويزيد هو بعض حقهم ، والذي فضل عليهما أكثر مما خرج منهما . وإن أريد الموازنة بين ملوك بني العباس وملوك بني أمية في العطاء افتضح بنو أمية وناصروهم فضيحة ظاهرة . فإن نساء خلفاء بني العباس

اكثر معروفاً من رجال بني أمية ، ولو ذكرت معروف أم جعفر وحدها لأتى ذلك على جميع صنائع بني مروان . وذلك معروف . ولو ذكرت معروف الخيزران وسلسبيل لملأت الطوامير الكثيرة به ، وما تظن خالصة مولاتهم إلا فوق أجواد أجوادهم . وإن شئت أن تذكر مواليهم وكتابهم فاذكر عيسى بن ماهان ، وابنه علياً ، وخالد بن برمك ، وابنه يحيى ، وابنيه جعفراً والفضل ، وكاتبهم منصور بن زيدا ، ومحمد بن منصور فتى العسكر ، فإنك تجد لكل واحد من هؤلاء ما يحيط بجميع صنائع بني عبد شمس .

فأما ملوك الأموية فليس منهم إلا من كان يبخل على الطعام ـ وكان جعفر بن سليمان كثيراً ما يذكر ذلك ـ وكان معاوية يبغض الرجل النهم على مائدته . وكان المنصور إذا ذكرهم يقول : كان عبد الملك جباراً لا يبالي ما صنع ، وكان الوليد مجنوناً ، وكان سليمان همه بطنه وفرجه ، وكان عمر أعور بين عميان ، وكان هشام رجل القوم . وكان لا يذكر ابن عاتكة . ولقد كان هشام ـ مع ما استثناه به ـ يقال هو الأحول السراق ، ما زال يدخل أعطيات الجند شهراً في شهر وشهراً في شهر حتى أخذ لنفسه مقدار رزق سنة . وأنشده أبو النجم العجلي أرجوزته التي أولها « الحمد لله الوهوب المجزل » فما زال يصفق بيديه استحساناً لها حتى صار إلى ذكر الشمس فقال « والشمس في الأفق كعين الأحول » فأمر بوجء عنقه وإخراجه . وهذا ضعف شديد وجهل عظيم . وقال خاله ابراهيم بن هشام المخزومي : ما رأيت من هشام خطأ قط إلا مرتين : حدا به الحادي مرة فقال :

إنَّ عَلَيْكَ أيها البُخْتِيُّ   أكْرَمُ مَن تمشي بِهِ المَطِيُّ

فقال : صدقت ! وقال مرة : والله لأشكون سليمان يوم القيامة إلى أمير المؤمنين عبد الملك ! وهذا ضعف شديد وجهل مفرط .

قال أبو عثمان : وكان هشام يقول : والله إني لأستحي أن أعطي رجلاً أكثر من أربعة آلاف درهم . ثم أعطى عبد الله بن الحسن أربعة آلاف دينار

فاعتدها في جوده وتوسعه . وإنما اشترى بها ملكه وحصن بها عن نفسه وما في يديه . قال له أخوه مسلمة : أتطمع أن تليَ الخلافة وأنت بخيل جبان ؟ فقال : ولكني حليم عفيف . فاعترف بالجبن والبخل . وهل تقوم الخلافة مع واحد منها ؟ وإن قامت فلا تقوم إلا مع الخطر العظيم والتغرير الشديد ، ولو سلمت من الفساد لم تسلم من العيب . ولقد قدم المنصور عليهم عمر بن عبد العزيز بقوله : أعور بين عميان . وزعمتم أنه كان ناسكاً ورعاً تقياً ، فكيف وقد جلد خبيب بن عبد الله بن الزبير مائة جلدة وصب على رأسه جرة من ماء بارد في يوم شاتٍ حتى كز فمات ، فما أقر بدمه ولا خرج لوليه من حقه ولا أعطى عقلاً ولا قوداً ، ولا كان خبيب ممن أتت عليه حدودالله وأحكامه وقصاصه فيقال كان مطيعاً بإقامتها وأنه أزهق الحد نفسه ؟ واحسبوا الضرب كان أدباً وتعزيزاً فما عذره في الماء البارد في الشتاء على إثر جلد شديد ؟ ولقد بلغه أن سليمان بن عبد الملك يوصي فجاء حتى جلس على طريق من يجلس عنده أو يدخل إليه فقال لرجاء بن حيوة في بعض ما يدخل وما يخرج من شأنه : نشدتك الله أن تذكرني لهذا الأمر وتشير بي في هذا الشأن فوالله مالي عليه من طاقة ؟ فقال له رجاء : (قاتلك الله ما أحرصك عليها ! ولما جاء الوليد بن عبد الملك بنعي الحجاج قال له الوليد : مات الحجاج يا أبا حفص ؟ فقال : وهل كان الحجاج إلا رجلاً منا أهل البيت ؟ وقال في خلافته : لولا بيعة في أعناق الناس ليزيد بن عاتكة لجعلت هذا الأمر شورى بين صاحب الأعواص إسماعيل بن أمية بن عمرو بن سعيد الأشدق ، وبين أحمس قريش القاسم بن محمد بن أبي بكر ، وبين سالم بن عبد الله بن عمر . فما كان عليه من الضرر والحرج ، وكان عليه من الوكف والنقص لو قال : بين علي بن عبد الله بن عباس ، وعلي بن الحسين بن علي ؟ على أنه لم يرد التيمي ولا العدوى ، وإنما دبر الأمر للأموي . ولم يكن عنده أحد من هاشم يصلح للشورى ثم دبر الأمر ليبايع لأخيه أبي بكر بن عبد العزيز من بعده حتى عوجل بالسم :؟ وقدم عليه عبد الله بن حسن بن حسن فلما رأى كماله وبيانه وعرف نسبه ومركبه وموضعه وكيف ذلك من قلوب المسلمين وفي صدور المؤمنين

لم يدعه يبيت بالشام ليلة واحدة وقال له : إلحق بأهلك فإنك لم تغنمهم شيئاً هو أنفس منك ولا أرد عليهم من حياتك ، أخاف عليك طواعين الشام ، وستلحقك الحوائج على ما تشتهي وتحب . وإنما كره أن يروه ويسمعوا كلامه فلعله أن يبذر في قلوبهم بذراً ، ويغرس في صدورهم غرساً . وكان أعظم خلق الله قولاً بالجبر حتى يتجاوز الجهمية ويربي على كل ذي غاية صاحب شنعة ، وكان يصنع في ذلك الكتب مع جهله بالكلام وقلة اختلافه إلى أهل النظر . وقال له شوذب الخارجي : لم لا تلعن رهطك وتذكر أباك إن كانوا عندك ظلمة فجرة ؟ فقال عمر : متى عهدك بلعن فرعون ؟ قال : مالي به عهد . قال : أفيسعك أن تمسك عن لعن فرعون ولا يسعني أن أمسك عن لعن آبائي !؟؟ فرأى أنه قد خصمه وقطع حجته ، وكذلك يظن كل من قصر عن مقدار العالم وجاوز مقدار الجاهل ! وأي شبه لفرعون بآل مروان وآل أبي سفيان ؟ هؤلاء قوم لهم حزب وشيعة وناس كثير يدينون بتفضيلهم وقد اعتورتهم الشبه في أمرهم ، وفرعون على خلاف ذلك وضده ، لا شيعة له ولا حزب ولا نسل ولا موالي ولا صنائع ولا في أمره شبهة ؟ ثم إن عمر ظنين في أمر أهله فيحتاج إلى غسل ذلك عنه بالبراءة منهم . وشوذب ليس بظنين في أمر فرعون . وليس الإمساك عن لعن فرعون والبراءة منه مما يعرفه الخوارج . فكيف استويا عنده !؟. وشكا إليه رجل من رهطه ديناً فادحاً وعيالاً كثيراً فاعتل عليه ، فقال له : هلا اعتللت على عبد الله بن الحسن ؟ قال : ومتى شاورتك في أمري ؟ قال : أو مشيراً تراني ؟ قال : وهل أعطيته إلا بعض حقه ؟ قال : ولم قصرت عن كله ؟! فأمر باخراجه وما زال إلى أن مات محروماً منه . وكان عمال أهله على البلاد عماله وأصحابه . والذي حسن أمره وشبهه على الأغبياء حاله أنه قام بعقب قوم قد بدلوا عامة شرائع الدين وسنن النبي صلى الله عليه وسلم ، وكان الناس قبله من الظلم والجور والتهاون بالاسلام في أمر صغر في جنبه ما عاينوا منه وألفوه عليه . فجعلوه بما نقص من تلك الأمور العظيمة ، في عداد الأئمة الراشدين . وحسبك من ذلك أنهم كانوا يلعنون علياً على منابرهم فلما نهى عمر عن ذلك عد محسناً .

ويشهد لذلك قول كثير فيه :

وَلِيتَ فَلَمْ تَشْتُمْ عَلِيّاً وَلَمْ تُخِفْ بَرِيّاً وَلَمْ تَتْبَعْ مَقَالَةَ مُجْرِمِ

وهذا الشعر يدل على أن شتم علي قد كان لهم عادة حتى مدح من كف عنه . ولما ولي خالد بن عبد الله القسري مكة ـ وكان إذا خطب بها لعن علياً والحسن والحسين ـ قال عبيد الله بن كثير السهمي :

لَعَنَ اللهُ مَنْ يَسُبُّ عَلِيّاً وَحُسَيْناً مِنْ سُوقَةٍ وَإِمَامِ
أَيُسَبُّ المُطَهَّرُونَ جُدُوداً وَالكِرَامُ الآبَاءِ وَالأَعْمَامِ
يَأْمَنُ الطَّيْرُ وَالحَمَامُ وَلا يَأْ مَنُ آلُ الرَّسُولِ عِنْدَ المَقَامِ
طِبْتَ بَيْتاً وَطَابَ أَهْلُكَ أَهْلاً أَهْلَ بَيْتِ النَّبِيِّ وَالإِسْلامِ
رَحْمَةُ اللهِ وَالسَّلامُ عَلَيْهِمْ كُلَّمَا قَامَ قَائِمٌ بِسَلامِ

وقام عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان ـ وكان ممن يتألـه بزعمهم ـ إلى هشام بن عبد الملك وهو يخطب على المنبر بعرفة فقال : يا أمير المؤمنين ، هذا يوم كانت الخلفاء تستحب فيه لعن أبي تراب ؟ فقال هشام : ليس لهذا جئنا . ألا ترى أن ذلك يدل على أنه قد كان لعنه فيهم فاشياً ظاهراً ؟ وكان عبد الله بن الوليد هذا يلعن علياً ويقول : قتل جديَّ جميعاً الزبير وعثمان . وقال المغيرة وهو عامل معاوية يومئذ لصعصعة بن صوحان : قم فالعن علياً ؟ فقام فقال : إن أميركم هذا أمرني أن ألعن علياً فالعنوه لعنه الله ـ وهو يضمر المغيرة .

وأما عبد الملك فحسبك من جهله تبديل شرائع الدين والاسلام وهو يريد أن يلي أمور أصحابها بذلك الدين بعينه ! وحسبك من جهله أنه رأى من أبلغ التدبير في منع بني هاشم الخلافة أن يلعن علي بن أبي طالب على منابره ويرمى بالفجور في مجالسه ، وهذا قرة عين عدوه وعبر عين وليه ، وحسبك من جهله قيامه على منبر الخلافة قائلاً إني والله ما أنا بالخليفة المستضعف ، ولا بالخليفة المداهن ، ولا بالخليفة المأفون . وهؤلاء سلفه وأئمته ، وبشفعتهم قام ذلك

المقام ، وبتقدمهم وتأسيسهم نال تلك الرئاسة ، ولولا القادة المتقدمة والأجناد المجندة والصنائع القائمة لكان أبعد خلق الله من ذلك المقام وأقربهم إلى الهلكة إن رام ذلك الشرف . وعنى بالمستضعف عثمان ، وبالمداهن معاوية ، وبالمأفون يزيد بن معاوية . وهذا الكلام نقض لسلطانه ، وعداوة لأهله ، وإفساد لقلوب شيعته ، ولو لم يكن من عجز رأيه إلا انه لم يقدر على إظهار قوته إلا بأن يظهر عجز أئمته لكفاك ذلك منه . . . فهذا ما ذكرته هاشم لأنفسها .

[١٧ ـ مفاخر أمية بالدهاء والحروب والعلم والشعر]

قالت أمية : لنا من نوادر الرجال في العقل والدهاء والأرب والنكر ما ليس لأحد . ولنا من الأجواد وأصحاب الصنائع ما ليس لأحد . زعم الناس أن الدهاة أربعة : معاوية بن أبي سفيان ، وزياد ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة . فمنا رجلان ومن سائر الناس رجلان . ولنا في الأجواد : سعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، لم يوجد لهما نظير إلى الساعة . وأما نوادر الرجال في الرأي والتدبير : فأبو سفيان بن حرب ، ومعاوية بن أبي سفيان ، وعبد الملك ابن مروان ، ومسلمة بن عبد الملك . وعلى أنهم يعدون في الحلماء والرؤساء . فأهل الحجاز يضربون المثل في الحلم بمعاوية كما يضرب أهل العراق المثل فيه بالأحنف . فأما الفتوح والتدبير في الحرب فلمعاوية غير مدافع ، وكان خطيباً مصقعاً وَمِحرَباً مظفراً . وكان مسلمة شجاعاً مدبراً وسائساً مقدماً ، وكثير الفتوح كثير الأدب . وكان يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً . وكان الوليد بن يزيد خطيباً شاعراً . وكان مروان بن الحكم وعبد الرحمن بن الحكم شاعرين . وكان بشر بن مروان شاعراً ناسباً وأديباً عالماً . وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً وجيد الرأي أريباً كثير الأدب حكيماً ، وكان أول من أعطى التراجمة والفلاسفة وقرب أهل الحكمة ورؤساء أهل كل صناعة ، وترجم كتب النجوم والطب والكيمياء والحروب والآداب والآلات والصناعات . وقالوا : وإن ذكرت البأس والشجاعة فالعباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان بن محمد ، وأبوه محمد بن

مروان بن الحكم وهو صاحب مصعب . وهؤلاء قوم لهم آثار بالروم لا تجهل وآثار بإرمينية لا تنكر ، ولهم يوم العقر شهده مسلمة والعباس بن الوليد . قالوا : ولنا الفتوح العظام ، ولنا فارس وخراسان ، وإرمينية وسجستان ، وأفريقية وجميع فتوح عثمان . فأما فتوح بني مروان فأكثر وأعم وأشهر من أن تحتاج إلى عد أو إلى شاهد ، والذين بلغوا في ذلك الزمان أقصى ما يمكن صاحب خف وحافر أن يبلغه ، حتى لم يحتجز منهم إلا ببحر أو خليج بحر أو غياض أو عقاب أو حصون وصياصي ثلاثة رجال : قتيبة بن مسلم بخراسان ، وموسى بن نصير بأفريقية ، والقاسم بن محمد بن القاسم الثقفي بالسند والهند . وهؤلاء كلهم عمالنا وصنائعنا . ويقال : إن البصرة كانت صنائع ثلاثة رجال : عبد الله بن عامر ، وزياد ، والحجاج ، فرجلان من أنفسنا والثالث صنيعتنا . قالوا : ولنا في الأجواد وأهل الأقدار : عبد الله بن خالد بن أسيد بن أمية ، وأخوه خالد ، وفي خالد يقول الشاعر :

إلى خَالِدٍ حتّى أَنَخْنَا بِخَالِدٍ ... فَنِعْمَ الْفَتَى يُرْجَى وَنِعْمَ الْمُؤَمَّلُ

ولنا سعيد بن خالد بن عبد الله بن خالد بن أسيد ، وهو عَقيد النَّدى ، كان يسبت ستة أشهر ويُفيق ستة أشهر ، ويُرى كحيلا من غير اكتحال ، ودهيناً من غير تدهين ، وله يقول : موسى شَهَوات •

أَبَا خَالِدٍ أَعْنِي سَعِيْدَ بنَ خَالِدٍ ... أَخَا الْعُرْفِ لا أَعْنِي ابنَ بِنْتِ سَعِيدِ
وَلَكِنَّنِي أَعْنِي ابْنَ عَائِشَةَ الَّذِي ... أَبُو أَبَوَيْهِ خَالِدُ ابْنُ أَسِيدِ
عَقِيدُ النَّدَى مَا عَاشَ يَرْضَى بِهِ النَّدَى ... فَإِنْ مَاتَ لَمْ يَرْضَ النَّدَى بِعَقِيدِ

قالوا : وإنما تمكن فينا الشعر وجاد ليس من قبل أن الذين مدحونا ما كانوا غير من مدح الناس ، ولكن لما وجدوا فينا مما يتسع لأجله القول ويصدق فيه القائل . قد مدح عُبيد الله بن قيس الرُّقَيات من الناس آل الزبير عبدَ الله ومُصعباً وغيرهما . فكان يقول كما يقول غيره . فلما صار إلينا قال :

مَا نَقَمُوا مِن بَنِي أُمَيَّةَ إِلَّا ... أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا

وأَنَّهُمْ مَعْدِنُ المُلوكِ فما تَصْلُحُ إلاَّ عَلَيْهِمُ العَرَبُ

وقال نصيب :

منَ النَّفَرِ الشم الذينَ اذا انْتَجَوا أَقَرَّتْ لنجْواهم لُؤَيُّ بنُ غالِب

يُحَيَّوْنَ بَسّامِينَ طَوْراً وتارةً يحيون عبّاسين شوس الحواجب

وقال الأخْطَلُ :

شُمْسُ العَداوَةِ حتى يُسْتَقاد لهمْ وَأَعْظَمُ النّاسِ أحْلاماً إذَا قَدرُوا

قالوا : وفينا يقول شاعركم والمتشيع لكم الكميت بن زيد :

فالآن صِرْتُ إلى أُمَيَّةَ والأمورُ لها مصايِرُ

وفي مُعاوية يقول أبو الجَهْمِ العَدَوِيُّ :

تُقَلِّبُه لتَخْبُرَ حالتيه فتخْبُرَ مِنْهُما كرَماً ولِينا

نميلُ على جَوانِبِنا كأنّا إذَا مِلْنَا نميلُ على أبِينَا

وفيه يقول :

تُريغُ إليْهِ هَوَادِي الكلامِ إذَا ضلَّ خُطْبَتَهُ المُهْذِرُ

قالوا : وإذا نظرتم في امتداح الشعراء عبدَ العزيز بن مروان عرفتم صدق ما نقوله :

قالوا : وفي إرسال النبي صلى الله عليه وسلم إلى أهل مكة عثمان واستعماله عتاب بْن أسيد وهو ابن اثنين وعشرين سنة دليل على موضع المنعة ومن تهاب العرب وتعز قريش . وقال النبي صلى الله عليه وسلم قبل الفتح : « فتَيان أضَن بهما على النار عتابُ بن أسيد وجُبير بنُ مُطعم » فولى عتاباً وترك جُبير. وقال الشَّعبي : لو ولد لي مائة ابن لسميتهم كلهم « عبد الرحمن » للذي رأيت في قريش من أصحاب هذا الإسم . ثم عد : عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ، وعبد الرحمن بن الحرث بن هشام ، وعبد الرحمن بن الحكم بن أبي

العاص . فأما عبد الرحمن بن عتاب فإنه صاحب الخيل يوم الجمل ، وهو صاحب الكف والخاتم ، وهو الذي مر به علي وهو قتيل فقال : لهفي عليك يعسوب قريش ! هذا اللباب المحض من بني عبد مناف ! فقال له قائل : لشد ما أبنته اليوم يا أمير المؤمنين ! قال : إنه قام عني وعنه نسوة لم يقمن عنك .

[١٨ ـ فخر عبد شمس بالخطابة]

قالوا : ولنا من الخطباء معاوية بن أبي سفيان ، أخطب الناس قائماً وقاعداً وعلى منبر وفي خطبة نكاح ! وقال عمر بن الخطاب : ما يتصعدني شيء من الكلام كما تتصعدني خطبة النكاح . وقد يكون خطيباً من ليس عنده في حديثه ووصفه للشيء واحتجاجه في الأمر لسان بارع . وكان معاوية يجري مع ذلك كله .

قالوا : ومن خطبائنا يزيد بن معاوية ، كان أعرابي اللسان بدوي اللهجة . قال معاوية ـ وخطب عنده خطيب فأجاد ـ لأرمينه بالخطيب الأشدق . يريد يزيد ابن معاوية . ومن خطبائنا سعيد بن العاص ، لم يوجد كتحبيره تحبير ولا كارتجاله ارتجال . ومنا عمرو بن سعيد الأشدق ، لقب بذلك لأنه حيث دخل على معاوية وهو غلام بعد وفاة أبيه فسمع كلامه فقال : إن ابن سعيد هذا لأشدق . وقال له معاوية : إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : إن أبي أوصى إلي ولم يوص بي ! قال : فما أوصى إليك ؟ قال : أن لا يفقد إخوانه منه إلا وجهه .

قالوا : ومنا سعيد بن عمرو بن سعيد ، خطيب ابن خطيب ابن خطيب . تكلم الناس عند عبد الملك قياماً وتكلم قاعداً ، قال عبد الملك : فتكلم وأنا والله أحب عثرته وإسكاته ، فأحسن حتى استنطقته واستزدته . وكان عبد الملك خطيباً خطب الناس مرة فقال : ما أنصفتمونا معشر رعيتنا ، طلبتم منا أن نسير فيكم وفي أنفسنا سيرة أبي بكر وعمر في أنفسهما ورعيتهما ، ولم تسيروا فينا ولا في أنفسكم سيرة رعية أبي بكر وعمر فيهما وفي أنفسهما ، ولكل من النصفة نصيب . قالوا : فكانت خطبته نافعة .

قالوا :ولنا زياد وعبيد الله بن زياد ، وكانا غايتين في صحة المعاني وجودة اللفظ . ولهما كلام كثير محفوظ .

قالوا : ومن خطبائنا سُليمان بن عبد الملك ، والوليد بن يزيد بن عبد الملك . ومن خطبائنا ونساكنا يزيد بن الوليد الناقص . قال عيسى بن حاضر : قلت لعمرو بن عُبيْد : ما قولك في عمر بن عبد العزيز ؟ فكلح ثم صرف وجهه عني . قلت : فما قولك في يزيد الناقص ؟ فقال : أو الكامل ، قال بالعدل وعمل بالعدل وبذل نفسه وشرى وقتل ابن عمه في طاعة ربه ، وكان نكالاً لأهله ، ونقص من أعطياتهم ما زادته الجبابرة ، وأظهر البراءة من آبائه ، وجعل في عهده شرطاً ولم يجعله جزماً . لا والله لكأنه ينطق عن لسان أبي سعيد ـ يريد الحسن البصري ـ قال : وكان الحسن من أنطق الناس . قالوا : وقد قرىء في الكتب القديمة : يا مبذر الكنوز ويا ساجداً بالأسحار ، كانت ولايتك رحمة وعليهم حجة. قالوا : هو يزيد بن الوليد . ومن خطبائنا ثم من ولد سعيد بن العاص : عمرو بن خولة ، كان ناسباً فصيحاً خطيباً . وقال ابن عائشة الأكبر : ما شهد خطيباً قط إلا لجلج هيبة له ومعرفة بانتقاده . ومن خطبائنا عبد الله بن عامر ، وعبد الأعلى بن عبد الله بن عامر ، وكانا من أكرم الناس وأبين الناس . كان مَسلمة بن عبد الملك يقول : إني لأنحي كور عمامتي عن أذني لأسمع كلام عبد الأعلى . وكانوا يقولون : أشبه قريش نعمة وجهارة واقتداراً وبياناً بعمرو بن سعيد : عبد الأعلى بن عبد الله .

[١٩ ـ فخر عبد شمس بالورع والنسك]

قالوا : ومَن أكثر نساك الملوك منا ؟ . منا معاوية بن يزيد بن معاوية ، وهو الذي قيل له في مرضه الذي مات فيه : لو أقمت للناس وليّ عهد ؟ قال : ومن جعل لي هذا العهد في أعناق الناس ! والله لولا خوف الفتنة لما أقمت عليها طرفة عين ! والله لا أذهب بمرارتها وتذهبون بحلاوتها ! فقالت له أمه : لوددت أنك حَيضة . قال : أنا والله وددت ذلك .

قالوا : ومنا سُليمان بن عبد الملك الذي هدم الديماس ورد المُسَيَّرِيْنَ وأخرج المسجونين وترك القريب واختار عمر بن عبد العزيز ، وكان سليمان جواداً خطيباً جميلاً صاحب سلامة ودعة وحب للعافية وقرب من الناس حتى سمي المهدي وقيلت الأشعار في ذلك .

قالوا : ولنا عمر بن عبد العزيز شبيه عمر بن الخطاب ، قد ولده عمر وباسمه سمي ، وهو أشج قريش المذكور في الآثار المنقولة ، العدل في أشد الزمان ، وظلف نفسه بعد اعتياد النعم حتى صار مثلاً ومفخراً . وقيل للحسن : أما رويت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا يزداد الزمان إلا شدة والناس إلا شحاً ولا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق » ؟ قال : بلى . قيل : فما بال عمر بن عبد العزيز وعدله وسيرته ؟ فقال : لا بد للناس من متنفس . وكان مذكوراً مع الخطباء ومع النساك ومع الفقهاء .

قالوا : ولنا ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، كان ناسكاً زكياً طاهراً ، وكان من أتقى الناس وأحسنهم معونة لأبيه ، وكان كثيراً ما يعظ أباه وينهاه .

قالوا : ولنا من لا نظير له في جميع أموره ، وهو صاحب الأعواص اسماعيل ابن أمية بن عمرو بن سعيد بن العاص ، وهو الذي قال فيه عمر بن عبد العزيز : لو كان إليَّ من الأمر شيء لجعلتها شورى بين القاسم بن محمد وسالم بن عبد الله ، وصاحب الأعواص .

قالوا : ومن نساكنا أبو حراب من بني أمية الصغرى ، قتله داود بن علي . ومن نساكنا يزيد بن محمد بن مروان ، كان لا يهدب ثوباً ولا يصبغه ولا يتخلق بخلوق ولا اختار طعاماً على طعام ما أطعم أكله ، وكان يكره التكلف وينهى عنه . قالوا : ومن نساكنا أبو بكر بن عبد العزيز بن مروان ، أراد عمر أخوه أن يجعله ولي عهده لما رأى من فضله وزهده ، فسما جميعاً . ومن نساكنا عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان ، كان يصلي كل يوم ألف ركعة وكان كثير

الصدقة وكان إذا تصدق بصدقة قال : اللهم إن هذا لوجهك فخفف عني الموت . فانطلق حاجاً ثم تصبح بالنوم فذهبوا ينبهونه للرحيل فوجدوه ميتاً . فأقاموا عليه المأتم بالمدينة ، وجاء أشعب فدخل إلى المأتم وعلى رأسه كبة من طين فالتدم مع النساء ، وكان إليه محسناً . ومن نساكنا عبد الرحمن بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .

قالوا : فنحن نعد من الصلاح والفضل ما سمعتموه ، وما لم نذكره أكثر .

وأنتم تقولون : أمية هي الشجرة الملعونة في القرآن وزعمتم أن الشجرة الخبيثة لا تثمر الطيب كما أن الطيب لا يثمر الخبيث . فإن كان الأمر كما تقولون فعثمان بن عفان ثمرة خبيثة ، وينبغي أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم دفع ابنتيه الى خبيث ؟ وكذلك يزيد بن أبي سفيان صاحب مقدمة أبي بكر الصديق على جيوش الشام ؟ وينبغي لأبي العاص بن الربيع زوج زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون كذلك ؟ وينبغي لمحمد بن عبد الله المدبج أن يكون كذلك وإن ولدته فاطمة عليها السلام ، لأنه من بني أمية ! وكذلك عبد الله بن عثمان سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي مات بعد أن شَدَنَ ، نقر الديك عينه فمات ، لأنه من بني أمية . وكذلك ينبغي أن يكون عَتّابُ بن أسيد بن أبي العيص بن أمية ، وإن كان النبي صلى الله عليه وسلم ولاه مكة أم القرى وقبلة الاسلام مع قوله صلى الله عليه وسلم : فتيان أضن بهما على النار، عتاب بن أسيد وجبير بن مطعم . كذلك وينبغي أن يكون عمر بن عبد العزيز شبيه عمر بن الخطاب ، وكذلك معاوية بن يزيد بن معاوية ، وكذلك يزيد الناقص ؟ وينبغي أن لا يكون النبي صلى الله عليه وسلم عد عثمان في العشرة الذين بشرهم بالجنة ؟ وينبغي أن يكون خالد بن سعيد بن العاص شهيد يوم مرج الصفر والحبيس في سبيل الله ووالي النبي صلى الله عليه وسلم على اليمن ووالي أبي بكر على جميع أجناد الشام ورابع أربعة في الاسلام والمهاجر الى أرض الحبشة ، كذلك ! وكذلك أبان بن سعيد بن العاص المهاجر إلى المدينة والقديم الاسلام والحبس على الجهاد يجب أن يكون ملعوناً خبيثاً ! وكذلك أبو حذيفة بن

عتبة بن ربيعة وهو بدري من المهاجرين الأولين ، وكذلك أمامة بنت أبي العاص ابن الربيع وأمها زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ! وكذلك أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخرجها في المغازي ويضرب لها بسهم ويصافحها ؟ وكذلك فاطمة بنت أبي معيط من مهاجرة الحبشة .

[٢٠ ـ مفاخر امية بالملك]

قالوا : ومما نفخر به وليس لبني هاشم مثله أن منا رجلاً وليَ أربعين سنة منها عشرون سنة خليفة ، وهو معاوية بن أبي سفيان . ولنا أربعة أخوة خلفاء : الوليد وسليمان ويزيد وهشام بنو عبد الملك . وليس لكم إلا ثلاثة : محمد وعبد الله وأبو إسحق ، أولاد هرون .

قالوا : ومنا رجل ولده سبعة من الخلفاء ، وهو عبد الله بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، أبوه يزيد بن عاتكة خليفة ، وجده عبد الملك خليفة ، وأبو جده مروان بن الحكم خليفة ، وجده من قبل عاتكة ابنة يزيد بن معاوية أبوها يزيد بن معاوية وهو خليفة ، ومعاوية بن أبي سفيان وهو خليفة . فهؤلاء خمسة . وأم عبد الله هذا عاتكة بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وحفصة بنت عبدالله بن عمر بن الخطاب . فهذان خليفتان . فهذه سبعة من الخلفاء ولدوا هذا الرجل .

قالوا : ومنا امرأة أبوها خليفة ، وجدها خليفة ، وابنها خليفة ، وأخوها خليفة وبعلها خليفة ، فهؤلاء خمسة . وهي عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان . أبوها يزيد بن معاوية خليفة ، وجدها معاوية بن أبي سفيان خليفة ، وابنها يزيد بن عبد الملك بن مروان خليفة ، وأخوها معاوية بن يزيد خليفة ، وبعلها عبد الملك بن مروان خليفة .

قالوا : ومن ولد المديبج محمد بن عبد الله الأصغر امرأة ولدها النبي صلى

الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير ، وهي عائشة بنت محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان ، وأمها خديجة بنت عثمان بن عروة بن الزبير ، وأم عروة أسماء ذات النطاقين بنت أبي بكر الصديق ، وأم محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان وهو المدبج ، فاطمة بنت الحسين بن علي ، وأم الحسين بن علي فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأم فاطمة بنت الحسين بن علي أم اسحق بنت طلحة بن عبيد الله ، وأم عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان حفصة بنت عبد الله بن عمر بن الخطاب .

[٢١ ـ فخر أمية بالحسن]

قالوا : ولنا في الجمال والحسن ما ليس لكم . منا المدبج والديباج ، قيل ذلك لجماله ، ومنا المطرف ، ومنا الأرجوان ، فالمطرف وهو عبد الله بن عمرو بن عثمان ، سمي المطرف لجماله ، وفيه يقول الفرزدق :

نَمَا الفاروقُ أُمَّكَ وَابن أروَى أبوكَ فأنتَ مُنصدِعُ النهارِ

والمدبج هو الديباج ، كان أطول الناس قياماً في الصلاة ، وهلك في سجن المنصور .

قالوا : ومنا ابن الخلائف الأربعة ، دُعي بذلك وشهر به ، وهو المؤمل بن العباس بن الوليد بن عبد الملك . كان هو وأخوه الحارث ابني العباس بن الوليد من الفجاءة بنت قطري بن الفجاءة إمام الخوارج ، وكانت سبيت فوقعت إليه ، فلما قام عمر بن عبد العزيز أتت وجوه بني مازن وفيهم حاجب بن ذبيان المازني الشاعر فقال حاجب :

أتيناكَ زُوّاراً ووفداً إلى التي أضاءتْ فلا يَخفَى على الناس نُورُهَا
أبوها عَميدُ الحَيِّ جَمعاً وأُمُّها مِنَ الحَنظَلِيَّاتِ الكرامِ حُجورُها
فإنْ تَكُ صَارَتْ حِينَ صارتْ فإنَّها إلى نَسَبٍ زَاكٍ كِرَامٍ نُـغِيرُها

فبعث عمر بن عبد العزيز الى العباس بن الوليد : إما أن تردها إلى أهلها وإما أن تتزوجها . قال قائل ذات يوم للمؤمل : يا ابن الخلائف الأربعة ! قال : ويلك ، من الرابع ؟ قال : قطري . فأما الثلاثة فالوليد وعبد الملك ومروان ، وأما قطري فبويع بالخلافة . وفيه يقول الشاعر :

وَأَبُوا نَعَامَةَ سَيِّدُ الْكُفَّارِ

قالوا : ومن أين صار محمد بن علي بن عبد الله بن العباس أحق بالدعوة والخلافة من سائر إخوته ؟ ومن أين كان له أن يضعها في بنيه دون أخوته ، وكيف صار بنو الأخ أحق بها من الأعمام ! قالوا : إن يكن هذا الأمر إنما يستحق بالميراث فالأقرب إلى العباس أحق ،وإن كان بالسن والتجربة فالعموم بذلك أولى !

[٢٢ ـ مفاخر امية قبل الإسلام]

قالوا : فقد ذكرنا جلاً من حال رجالنا في الاسلام . وأما الجاهلية ، فلنا الأعياص ، والعنابس ، ولنا ذو العصابة أبو أحيحة سعيد بن العاص ، كان إذا أعتم لم يعتم بمكة أحد ، ولنا حرب بن أمية رئيس يوم الفجار ، ولنا أبو سفيان بن حرب رئيس أحد والخندق وسيد قريش كلها في زمانه . وقال أبو الجهم بن حذيفة العدوى لعمر ـ حين رأى العباس وأبا سفيان على فراشه دون الناس ـ: ما نراانا نستريح من بني عبد مناف على حال ؟ قال عمر : بئس أخو العشيرة أنت ؟ هذا عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا سيد قريش !

قالوا : ولنا عتبة بن ربيعة ، ساد مملقا ولا يكون السيد إلا مترفاً ، لولا ما رأوا عنده من البراعة والنبل والكمال ، وهو الذي تحاكمت بجيلة وكلب في منافرة جرير والفرافصة وتراهنوا بسوق عكاظ وضعوا الرُّهُنَ على يده دون جميع من شهد على ذلك المشهد . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ ونظر إلى قريش مقبلة يوم بدر ـ: إن يكن منهم عند أحد خير فعند صاحب الجمل

الأحمر ! وما ظنك بشيخ طلبوا له من جميع العسكر عند المبارزة بيضة فلم يقدروا على بيضة يدخل رأسه فيها ؟ وقد قال الشاعر :

وَإِنَّا أُنَاسٌ تَمْلأُ الْبِيضَ هَامُنَا

قالوا : وأمية الأكبر صنفان : الأعياص والعنابس . قال الشاعر :

مِن الأَعْيَاصِ أوْ مِنْ آلِ حَرْبٍ أَغَرَّ كَغُرَّةِ الْفَرَسِ الجَوادِ

سموا بذلك في حرب الفجار حين حفروا لأرجلهم الحفائر وثبتوا فيها وقالوا نموت جميعاً أو نظفر . وإنما سموا بالعنابس لأنها أسماء الأسود ، وإنما سموا الأعياص لأنها أسماء الأصول . فالعنابس : حرب وأبو حرب ، وسفيان وأبو سفيان ، وعمرو . والأعياص : العيص وأبو العيص ، والعاص وأبو العاص ، وأبو عمرو . ولم يعقب من العنابس إلا حرب ، وما عقب الأعياص إلا العيص . ولذلك كان معاوية يشكو القلة . قالوا : وليس لبني هاشم والمطلب مثل هذه القسمة ، ولا مثل هذا اللقب المشهور .

[٢٣ ـ رد هاشم على ادعاءات أمية الدهاء]

قالت هاشم :

أما ما ذكرتم من الدهاء والنكر ، فان ذلك من أسماء فجار العقلاء ، وليس من أسماء أهل الصواب في الرأي من العقلاء والأبرار . قد بلغ أبو بكر وعمر من التدبير وصواب الرأي والخبرة بالأمور العامة ، وليس من أوصافهما ولا من أسمائهما أن يقال كانا داهيين ولا كانا مكيرين ؟ وما عامل معاوية وعمرو بن العاص علياً قط بمعاملة إلا وكان علي أعلم بها منهما ، ولكن الرجل الذي يحارب ولا يستعمل إلا ما يحل له أقل مذاهب في وجوه الحيل والتدبير من الرجل الذي يستعمل ما يحل وما لا يحل ؟ وكذلك من حدث وأخبر ، ألا ترى أن الكذاب ليس لكذبه غاية ولا لما يولد ويصنع نهاية ؟ والصدوق إنما يحدث عن شيء

معروف ومعنى محدود ؟ ويدل على ما قلنا أنكم عددتم أربعة في الدهاء ليس واحد منهم عند المسلمين في طريق المتقين . ولو كان الدهاء مرتبة والمكر منزلة لكان تقدم هؤلاء الجميع السابقين الأولين عيباً شديداً في السابقين الأولين ، ولو أن إنساناً أراد أن يمدح أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ثم قال : الدهاة أربعة وعدهم ، لكان قد قال قولاً مرغوباً عنه ، لأن الدهاء والمكر ليس من صفات الصالحين ، وإن علموا من غامض الأمور ما يجهله جميع العقلاء ! ألا ترى أنه قد يحسن أن يقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكرم الناس ، وأحلم الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس . ولا يجوز أن يقال : كان أمكر الناس وأدهى الناس ؟ وإن علمنا أن علمه قد أحاط بكل مكر وخديعة ، وبكل أرب ومكيدة ؟؟

[٢٤ ـ رد هاشم على ادعاء أمية الجود]

وأما ما ذكرتم من جود سعيد بن العاص ، وعبد الله بن عامر ، فأين أنتم من جود عبد الله بن جعفر وعبيد الله بن العباس ، والحسن بن علي ؟ وأين أنتم من جود خلفاء بني العباس كمحمد المهدي ، وهرون ، ومحمد بن زبيدة ، وعبد الله المأمون ، بل لعل جود بعض صنائع هؤلاء كبني برمك أعظم من جود الرجلين اللذين ذكرتموهما ، بل من جميع ما جاء به خلفاء بني أمية .

[٢٥ ـ رد هاشم على ادعاء امية الحلم]

وأما ما ذكرتم من حلم معاوية فلو شئنا أن نجعل جميع ساداتنا حلماء لكانوا محتملين لذلك ، ولكن الوجه في هذا أن لا يشتق للرجل إسم إلا من أشرف أعماله وأكرم أخلاقه ، وإلا أن يبين بذلك عند أصحابه حتى يصير بذلك إسماً يسمى به ويصير معروفاً به كما عرف الأحنف بالحلم ، وكما عرف حاتم بالجود ، وكذلك هرم ، قالوا : هرم الجواد ؟ ولو قلتم كان أبو العاص بن أمية أحلم الناس لقلنا ولعله يكون قد كان حليماً ولكن ليس كل حلم يكون صاحبه

بـه مذكـوراً ومن أشكالـه بائنـا . وإنكم لتظلمـون خصومكم في تسميتكم معـاوية بـالحلم ، فكيف من دونه ؟ لأن العـرب تقول : أحلم الحلمـين أن لا يتعـرض ثم يحلم . ولم يكن في الأرض رجل أكثر تعرضاً من معـاوية ؟ والتعـرض هو السفه . فـإن ادعيتم أن الأخبار التي جاءت في تعرضه كلهـا باطـل ، إن لقائـل أن يقـول : وكل خبر رويتموه في حلمه باطل ! ولقـد شهر الأحنف بـالحلم ولكنه تكلم بكـلام كثـير يجـرح في الحلم وينلم في العـرض . ولا يستـطيـع أحـد أن يحكي عن العبـاس بن عبد المطلب ولا عن الحسن بن عـلي بن أبي طـالب لفظاً فـاحشـاً ولا كلمة ساقطة ولا حرفاً واحداً مما يحكى عن الأحنف ومعاويـة ! وكان المأمون أحلم النـاس ، وكان عبـد الله السفاح أحلم النـاس . وبعد ، فمن يسـتطيـع أن يصف هاشماً أو عبـد المطلب بـالحلم دون غيره من الأخـلاق والأفعال حتى يسميـه بذلـك ويخصـه به دون كـل شيء فيه من الفضـل ؟ وكيف وأخلاقهـما متسـاوية وكلهـا في الغاية ؟ ولو أن رجلاً كان أظهر الناس زهداً وأصدقهم للعدو لقـاء وأصدق النـاس لساناً وأجـود الناس كفـاً وأفصـحهم منطقـاً وكان بكـل ذلك مشهـوراً ، لمنع بعض ذلك من بعض ولما كان له إلا إسم السـيد المقدم والكـامل المعـظم ، ولم يكن الجود أغلب على إسمه ، ولا البيان ولا النجدة .

[٢٦ ـ رد هاشم على ادعاء امية الخطابة]

وأمـا ما ذكـرتم من الخطابـة والفصـاحـة والسؤدد والعلم بـالأدب والنسب ، فقد علم الناس أن بني هـاشـم في الجملة أرق ألسنة من بني أميـة . كان أبـو طالب والزبير شاعرين ، وكـان أبو سفيـان بن الحارث بن عبـد المطلب شـاعراً . ولم يكن في أولاد أميـة بن عبد شمس لصلبـه شـاعـر ، ولم يكن في أولاد أميـة إلا أن تعـدوا في الاسـلام العرجي من ولـد عثمان بن عفـان ، وعبـد الرحمن بن الحكم . فنعـد نحن الفضل بن العباس بن عتبـة بن أبي لهب ، وعبد الله بن معـاوية بن عبـد الله إبن جعفر . وإن عددتم الخـطابة والبيـان والفصاحـة لم تعدوا كعـلي بن أبي طـالب ولا كعبـد الله بـن العباس . ولنـا من الخطبـاء : زيد بن عـلي بن الحسـين ، وعبـد

الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ، وجعفر بن الحسين بن الحسن ، وداود بن علي بن عبد الله بن العباس وداود وسليمان ابنا جعفر بن سليمان . قالوا : كان جعفر بن الحسين ابن الحسن ينازع زيد بن علي بن الحسين في الوصية ، وكان الناس يجتمعون ليستمعوا محاورتهما ، وكان سليمان بن جعفر بن سليمان بن علي والي مكة ، فكان أهل مكة يقولون : لم يرد علينا أمير إلا وسليمان أبين منه قاعداً ، وأخطب منه قائماً . وكان داود إذا خطب استحقر فلم يرده شيء . قالوا : ولنا عبد الملك بن صالح بن علي ، كان خطيباً بليغاً ، وسأله الرشيد - وسليمان بن أبي جعفر وعيسى بن جعفر حاضران - فقال له كيف رأيت أرض كذا ؟ قال : ماء في ريح ومنابت شيح . قال : فأرض كذا ؟ قال : هضبات حمر وربوات عُفر . حتى أتى على جميع ما سأله عنه . فقال عيسى لسليمان : والله ما ينبغي لنا أن نرضى لأنفسنا بالدون من الكلام .

[٢٧ - رد هاشم على ادعاء أمية الورع]

قالوا : وأما ما ذكرتم من نساك الملوك ، فلنا علي بن أبي طالب ، وبزهده وبدينه يضرب المثل . وإن عددتم النساك من غير الملوك ، فأين أنتم عن علي بن الحسين زين العابدين الذي كان يقال له : علي الخير وعلي الأغر وعلي العابد ، وما أقسم على الله بشيء إلا وأبر قسمه ؟ وأين أنتم عن علي بن عبد الله بن العباس ؟ وأين أنتم عن موسى بن جعفر بن محمد ؟ وأين أنتم عن علي بن محمد الرضا ، لابس الصوف طول عمره مع سعة أمواله وكثرة ضياعه وغلاته ؟

وأما ما ذكرتم من الفتوح ، فلنا الفتوح المعتصمية التي سارت بها الركبان وضربت بها الأمثال ، ولنا فتوح الرشيد ، ولنا الآثار الشريفة في قتل بابك الخرمي بعد أن دامت فتنته في دار الإسلام نحو ثلاثين سنة .

[٢٨ - رد هاشم على ادعاء امية الفقه]

فأما الفقه والعلم والتفسير والتأويل ، فإن ذكرتموه لم يكن لكم فيه أحد

وكان لنا فيه مثل علي بن أبي طالب ، وعبد الله بن العباس ، وزيد ومحمد ابني علي بن الحسين بن علي ، وجعفر بن محمد الذي ملأ الدنيا علمه وفقهه ـ ويقال إن أبا حنيفة من تلامذته وكذلك سفيان الثوري ، وحسبك بهما في هذا الباب ، ولذلك نسب سفيان إلى أنه زيدي المذهب وكذلك أبو حنيفة ـ ومن مثل علي بن الحسين زين العابدين ، وقال الشافعي في الرسالة في إثبات خبر الواحد : وجدت علي بن الحسين ـ وهو أفقه أهل المدينة ـ يعول على أخبار الآحاد . ومن مثل محمد بن الحنفية وابنه أبي هاشم الذي قرر علوم التوحيد والعدل حتى قالت المعتزلة : غلبنا الناس كلهم بأبي هاشم الأول !

[٢٩ ـ رد هاشم على ادعاء أمية البسالة]

وإن ذكرتم النجدة والبسالة والشجاعة ، فمن مثل علي بن أبي طالب ؟ وقد وقع اتفاق أوليائه وأعدائه على أنه أشجع البشر . ومن مثل حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله ؟ ومن مثل الحسين بن علي ! قالوا يوم الطف : ما رأينا مكثوراً قد أفرد من إخوته وأهله وأنصاره أشجع منه ، كان كالليث المجرّب يحطم الفرسان حطماً ، وما ظنك برجل أبت نفسه الدنية وأن يعطي بيده فقاتل حتى قتل هو وبنوه وإخوته وبنو عمه بعد بذل الأمان لهم والتوثقة بالأيمان المغلظة ، وهو الذي سن للعرب الإباء واقتدى بعده أبناء الزبير وبنو المهلب وغيرهم . ومن لكم مثل محمد وإبراهيم ابني عبد الله ؟ ومن لكم مثل زيد بن علي ، وقد علمتم كلمته التي قالها حيث خرج من عند هشام : ـ ما أحب الحياة إلا من ذل . فلما بلغت هشاماً قال : خارج ورب الكعبة . فخرج بالسيف ونهى عن المنكر ودعا إلى إقامة شعائر الله حتى قتل صابراً محتسباً . وقد بلغتكم شجاعة [illegible] إسحق المعتصم ووقوفه في مشاهد الحروب بنفسه حتى فتح الفتوح الجليلة ، و[illegible]تكم شجاعة عبد الله بن علي وهو الذي أزال ملك بني مروان وشهد الحروب بنفسه . وكذلك صالح بن علي وهو الذي تبع مروان بن محمد إلى مصر حتى قتله .

[٣٠ ـ رد هاشم على ادعاء امية التواضع]

قالوا : وإن كان الفضل والفخر في تواضع الشريف وإنصاف السيد وسجاحة الخلق ولين الجانب للعشيرة والموالي ، فليس لأحد من ذلك ما لبني العباس . ولقد سألنا طارق بن المبارك ـ وهو مولى لبني أمية وصنيعة من صنائعهم ـ فقلنا : أي القبيلين أشد نخوة وأعظم كبرياء وجبرية ! أبنو مروان أم بنو العباس ؟ فقال : والله لبنو مروان في غير دولتهم أعظم كبرياء من بني العباس في دولتهم . وقد كان أدرك الدولتين . ولذلك قال شاعرهم :

إذا تـائِهٌ مِن عبـدِ شمْسٍ رَأيْتَـه ... يَتيـهُ فَسرْشُـحْـهُ لِكـلِّ عَـظِيـمِ
وَإنْ تـاه تَـيّـاه بِسـواهُـمْ فـإنَّمـا ... يَـتيـهُ لِـنـوْكٍ او يَـتـيـهُ لِـلُّوم

ومن كلامهم : من لم يكن من بني أمية تياهاً فهو دعي .

قالوا : وإن كان الكبر مفخراً يمدح به الرجال ويعد من خصال الشرف والفضل ، فمولانا عمارة بن حمزة أعظم كبراً من كل أموي كان ويكون في الدنيا ، وأخباره في كبره وتيهه مشهورة متعالية .

[٣١ ـ رد هاشم على ادعاء امية الحسن]

قالوا : وإن كان الشرف والفخر في الجمال والكمال وفي البسطة في الجسم وتمام القوام ، فمن كان كالعباس بن عبد المطلب ! قالوا : رأينا العباس يطوف بالبيت وكأنه فسطاط أبيض . ومن مثل علي بن عبد الله بن العباس وولده ، وكان كل واحد منهم إذا قام إلى جنب أبيه كان رأسه عند شحمة أذنه ، وكانوا من أطول الناس ، وإنك لتجد ميراث ذلك اليوم في أولادهم . ثم الذي رواه أصحاب الأخبار وحمال الآثار في عبد المطلب من التمام والقوام والجمال والبهاء . وما كان من لقب هاشم بالقمر لجماله ولأنهم يستضيئون برأيه . وكم رواه الناس

أن عبد المطلب ولد عشرة كان الرجل منهم يأكل في المجلس الجذعة ويشرب الفرَق وترد أنفُهم قبل شفاههم ، وأن عامر بن مالك لما رآهم يطوفون بالبيت كأنهم جمال جون قال : بهؤلاء تمنع مكة وتشرف مكة ، وقد سمعتم ما ذكره الناس من جمال السفاح وحسنه ، وكذلك المهدي ، وابنه هرون الرشيد ، وابنه محمد بن زبيدة الى الواثق ، وكان الحسن بن علي أصبح الناس وجهاً ، كان يشبه برسول الله صلى الله عليه وسلم . وكذلك عبد الله بن الحسن المحض .

وقالوا : ولنا ثلاثة في عصر كلهم يسمى علياً ، وكلهم كان يصلح للخلافة بالفقه والنسك والمركب والرأي والتجربة والحال الرفيعة بين الناس : علي بن الحسين بن علي ، وعلي بن عبد الله بن العباس ، وعلي بن عبد الله بن جعفر . كل هؤلاء كان تاماً كاملاً بارعاً جامعاً . وكانت لُبابة بنت عبد الله بن العباس عند علي بن عبد الله بن جعفر . قالت : ما رأيته ضاحكاً قط ولا قاطباً ولا قال شيئاً احتاج إلى أن يعتذر منه ولا ضرب عبداً قط ولا ملكه أكثر من سنة . قالوا : وبعد هؤلاء ثلاثة بنو عم ، وهم بنو هؤلاء الثلاثة . وكلهم يسمى محمداً ، كما أن كل واحد من أولئك يسمى علياً ، وكلهم يصلح للخلافة بكرم النسب وشرف الخصال : محمد بن علي بن الحسين بن علي ، ومحمد بن علي بن عبد الله بن العباس ومحمد بن علي بن عبد الله جعفر . قالوا : كان محمد إبن علي بن الحسين لا يسمع المبتلى الاستعاذة ، وكان ينهى الجارية والغلام أن يقولا للمسكين : يا سائل ، وهو سيد فقهاء الحجاز ، ومنه ومن ابنه جعفر تعلم الناس الفقه ، وهو الملقب بالباقر ، باقر العلم ، لقبه به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يخلق بعد ، وبشر به ووعد جابر بن عبد الله برؤيته وقال : ستراه طفلاً فإذا رأيته فأبلغه عني السلام ، فعاش جابر حتى رآه وقال له ما وصى به . وتوعد خالد بن عبد الله القسري هشام بن عبد الملك في رسالة له إليه وقال : والله إني لأعرف رجلاً حجازي الأصل شامي الدار عراقي الهوى ! يريد محمد بن علي بن عبد الله بن العباس .

[٣٢ - رد هاشم على مفاخرة امية بالنساء]

وأما ما ذكرتم من أمر عاتكة بنت يزيد بن معاوية ، فإنا نذكر فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي سيدة نساء العالمين ، وأمها خديجة سيدة نساء العالمين ، وبعلها علي بن أبي طالب سيد المسلمين كافة ، وابن عمها جعفر ذو الجناحين وذو الهجرتين ، وابناها حسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة ، وجدها أبو طالب بن عبد المطلب أشد الناس عارضة وشكيمة وأجودهم رأياً وأشهمهم نفساً وأمنعهم لما وراء ظهره ، منع النبي صلى الله عليه وسلم من جميع قريش ثم بني هاشم وبني المطلب ، ثم منع بني إخوته من بني أخواته من بني مخزوم الذين أسلموا ، وهو أحد الذين سادوا مع الإقلال . وهو مع هذا شاعر خطيب . ومن يطيق أن يفاخر بني أبي طالب وأمهم فاطمة بنت أسد بن هاشم وهي أول هاشمية ولدت لهاشمي ، وهي التي ربى رسول الله في حجرها وكان يدعوها : أمي ، ونزل في قبرها وكان يوجب حقها كما يوجب حق الأم ؟ من يستطيع أن يسامي رجالاً ولدهم هاشم مرتين من قبل أبيهم ومن قبل أمهم ؟ قالوا : ومن العجائب أنها ولدت أربعة كل منهم أسن من الآخر بعشر سنين : طالب وعقيل وجعفر وعلي . ومن الذي يعد من قريش أو من غيرهم ما يعده الطالبيون عشرة في نسق كل واحد منهم عالم زاهد ناسك شجاع جواد طاهر زاك ؟ فمنهم خلفاء ، ومنهم مرشحون ، ابن ابن ابن ابن هكذا إلى عشرة . وهم : الحسن بن علي بن محمد بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي . وهذا لم يتفق لبيت من بيوت العرب ولا من بيوت العجم .

قالوا : فإن فخرتم بأن منكم اثنتين من أمهات المؤمنين : أم حبيبة بنت أبي سفيان وزينب بنت جحش ، فزينب امرأة من بني أسد بن خزيمة ادعيتموها بالحلف لا بالولادة ؟ وفينا رجل ولدته أمان من أمهات المؤمنين : محمد بن عبد الله بن الحسن المحض.ولدته خديجة أم المؤمنين ، وأم سلمة أم المؤمنين ، وولدته مع ذلك فاطمة بنت الحسين بن علي ، وفاطمة سيدة نساء العالمين ابنة رسول

الله ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم . وكان يقال : خير النساء الفواطم والعواتك . وهن أمهاته .

قالوا : ونحن إذا ذكرنا إنساناً فقبل أن نعد من ولده نأتي به شريفاً في نفسه مذكوراً بما فيه دون ما في غيره . قلتم : لنا عاتكة بنت يزيد ، وعاتكة في نفسها كامرأة من عرض قريش ليس فيها في نفسها خاصة أمر تستوجب به المفاخرة . ونحن نقول : منا فاطمة ، وفاطمة سيدة نساء العالمين ، وكذلك أمها خديجة الكبرى . وإنما تذكران مع مريم بنت عمران وآسية بنت مزاحم اللتين ذكرهما النبي صلى الله عليه وسلم ، وذكر إحداهما في القرآن ، وهن المذكورات من جميع نساء العالم من العرب والعجم . وقلتم : لنا عبد الله بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، ولده سبعة من الخلفاء . وعبد الله هذا في نفسه ليس هناك . ونحن نقول : منا محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم ، كلهم سيد ، وأمه العالية بنت عبد الله بن العباس ، وأخوته : داود وصالح وسليمان وعبد الله رجال كلهم أغر محجل ، ثم ولد الرؤساء إبراهيم الإمام وأخويه أبا العباس وأبا جعفر ومن جاء بعدهما من خلفاء بني العباس . وقلتم : منا عبد الله بن يزيد . وقلنا : منا الحسين بن علي سيد شباب أهل الجنة وأولى الناس بكل مكرمة وأطهرهم طهارة ، مع النجدة والبصيرة والفقه والصبر والحلم والأنف ، وأخوه الحسن سيد شباب أهل الجنة وأرفع الناس درجة وأشبههم برسول الله خَلقاً وخُلقاً ، وأبوهما علي بن أبي طالب وهو الذي ترك وصفه أبلغ في وصفه ، وعمهما ذو الجناحين ، وأمهما فاطمة ، وجدتهما خديجة ، وأخوالهما : القاسم وعبد الله وابراهيم ، وخالاتهما زينب ورقية وأم كلثوم ، وجدتاهما : آمنة بنت وهب والدة رسول الله ، وفاطمة بنت أسد بن هاشم ، وجدهما رسول الله صلى الله عليه وسلم المخرس لكل مفاخر والغالب لكل منافر . قل ما شئت واذكر أي باب شئت من الفضل فإنك تجدهم قد حازوه .

[٣٣ ـ رد أمية على هاشم والدعوة الى التسوية]

قالت أمية :

نحن لا ننكر فخر بني هاشم وفضلهم في الإسلام ، ولكن لا فرق بيننا في الجاهلية إذ كان الناس في ذلك الدهر لا يقولون : هاشم وعبد شمس ، ولا هاشم وأمية ، بل كانوا لا يزيدون في الجميع على عبد مناف ، حتى كان أيام تميزهم في أمر علي وعثمان في الشورى ، ثم ما كان في أيام تحزبهم وحربهم مع علي ومعاوية . ومن تأمل الأخبار والآثار علم أنه ما كان يذكر فرق بين البيتين ، وإنما يقال : بنو عبد مناف . ألا ترى أن أبا قحافة سمع رجة شديدة وأصواتاً مرتفعة ـ وهو يومئذ شيخ كبير مكفوف ـ فقال : ماهذا ! قالوا : قبض رسول الله . قال : فما صنعت قريش ؟ قالوا : ولوا الأمر ابنك . قال : ورضيت بذلك عبد مناف ؟ قالوا : نعم . قال : فلا مانع لما أعطى الله ولا معطي لما منع . . ولم يقل أرضي بذلك بنو هاشم ، أرضي بذلك بنو عبد شمس ! وإنما جمعهم على عبد مناف . لأنه كذلك كان يقال . وهكذا قال أبو سفيان بن حرب لعلي وقد سخط إمارة أبي بكر : أرضيتم يا بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم ؟! ولم يقل أرضيتم يا بني هاشم ! وكذلك قال خالد بن سعيد بن العاص حين قدم من اليمن وقد استخلف أبو بكر : أرضيتم معشر بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم ؟!

قالوا : وكيف يفرقون بين هاشم وعبد شمس وهما أخوان لأب وأم ! ويدل أن أمرهما كان واحداً وأن اسمهما كان جامعاً قول النبي صلى الله عليه وسلم وصنيعه حين قال : مناخير فارس في العرب عكاشه بن محصن . وكان أسدياً ، وكان حليفاً لبني عبد شمس ـ وكل من شهد بدراً من بني كثير بن داود وكانوا حلفاء بني عبد شمس ـ فقال ضرار بن الأزور الأسدي : ذاك منا يا رسول الله ! فقال عليه الصلاة والسلام : بل هو منا بالحلف . فجعل حليف بني عبد شمس حليف بني هاشم . وهذا بين لا يحتاج صاحب هذه الصفة إلى أكثر منه . قالوا : ولهذا نكح هذا البيت في هذا البيت ، فكيف صرنا نتزوج بنات النبي وبنات بني

هاشم على وجه الدهر إلا ونحن أكفاء وأمرنا واحد ؟ وقد سمعتم إسحق بن عيسى يقول لمحمد بن الحارث أحد بني عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد : لولا حي أكرمهم الله بالرسالة لزعمت أنك أشرف الناس . أفلا ترى أنه لم يقدم علينا رهطه إلا بالرسالة ؟

[٣٤ـ جواب هاشم الأخير : لا تسوية بيننا]

قالت هاشم :

قلتم : لولا أنا كنا أكفاءكم لما أنكحتمونا نساءكم . فقد نجد القوم يستوون في حسب الأب ويتفرقون في حسب الأنفس . وربما استووا في حسب أبي القبيلة كاستواء قريش في النضر بن كنانة ، ويختلفون كاختلاف كعب بن لؤى وعمر بن لؤى ، وكاختلاف أبناء قصي عبد مناف وعبد الدار وعبد العزى . والقوم قد يساوي بعضهم بعضاً في وجوه ويفارقونهم في وجوه ويستجيزون بذلك القدر مناكحتهم وإن كانت معاني الشرف لم تتكامل فيهم كما تكاملت فيمن زوجهم . وقد يزوج السيد ابن أخيه وهو حارض بن حارض ، على وجه صلة الرحم فيكون ذلك جائزاً عندهم . ووجوه في هذا الباب كثيرة . فليس لكم أن تزعموا أنكم أكفاؤنا من كل وجه وإن كنا قد زوجناكم وساويناكم في بعض الآباء والأجداد

وبعد ، فأنتم في الجاهلية والإسلام قد أخرجتم بناتكم إلى سائر قريش وإلى سائر العرب : أفتزعمون أنهم أكفاؤكم عيناً بعين ؟

وأما قولكم إن الحيين كان يقال لهما عبد مناف . فقد كان يقال لهما أيضاً مع غيرهما من قريش وبنيها : بنو النضر . وقال الله تعالى : ﴿ وأَنْذِرْ عشيرتَكَ الأقربين ﴾ فلم يدع النبي صلى الله عليه وسلم أحداً من بني عبد شمس ، وكانت عشيرته الأقربون بني هاشم وبني عبد المطلب ، وعشيرته فوق ذلك عبد مناف ، وفوق ذلك قصي . ومن ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أُتي بعبد

الله بن عامر بن كريز بن حبيب بن شمس ، وأم عامر بن كريز أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم قال : هذا أشبه بنا منه بكم . ثم تفل في فيه فازدرده ، فقال : أرجو أن تكون مسقياً . فكان كما قال : ففي قوله : هو أشبه بنا منه بكم . خصلتان إحداهما أن عبد شمس وهاشماً لو كانا شيئاً واحداً كما أن بني عبد المطلب شيء واحد لما قال هو بنا أشبه به منكم . والأخرى إن في هذا القول تفضيلاً لبني هاشم على بني عبد شمس ، ألا ترون أنه خرج خطيباً جواداً نبيلاً وسيداً مُسقياً له مصانع وآثار كريمة ! لأنه قال : هو بنا أشبه به منكم ؟. وأتي عبد المطلب بعامر بن كريز ـ وهو ابن ابنته أم حكيم البيضاء ـ فتأمله وقال : وعظام هاشم ما ولدنا ولداً أحرض منه . فكان كما قال . ولم يقل : وعظام عبد مناف . لأن شرف جده عبد مناف له فيه شركاء ، وشرف هاشم أبيه خالص له .

وأما ما ذكرتم من قول أبي سفيان وخالد بن سعيد : أرضيتم معشر بني عبد مناف أن تلي عليكم تيم ؟ فهذه الكلمة كلمة تحريض وتهييج ، فكان الأبلغ فيما يريد من اجتماع قلوب الفريقين أن يدعوهم لأب وأن يجمعهم على واحد ، وإن كانا مفترقين . وهذا المذهب سديد وهذا التدبير صحيح . قال معاوية بن صعصعة للأشهب بن رميلة وهو نهشلي ، وللفرزدق بن غالب وهو مجاشعي ، ولمسكين بن أنيف وهو عبدلي : أرضيتم معشر بني دارم أن يسب آباءكم ويشتم أعراضكم كلب بني كليب ؟ وإنما نسبهم إلى دارم الأب الأكبر المشتمل على آباء قبائلهم ليستووا في الحمية ويتفقوا على الأنف . وهذا في مثل هذا الموضع تدبير صحيح .

قالوا : ويدل على ما قلنا ما قاله الشعراء في هذا الباب قبل مقتل عثمان وقبل صفين . قال حسان بن ثابت لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب :

وَأَنْتَ مَنُوطٌ نِيْطَ في آلِ هَاشِمٍ كما نِيْطَ خَلْفَ الرَّاكِبِ الْقَدَحُ الْفَرْدُ

ولم يقل : نيط في آل عبد مناف ! وقال آخر :

مـا أنت مِن هـاشِمٍ في بَيْـتِ مَكْـرُمَـةٍ ولا بَـنِي جمـح الخُضْرِ الجـلاعـيـدِ

ولم يقل : ما أنت من آل عبد مناف . وكيف يقولون هـذا وقد علم النـاس أن عبـد مناف ولـد أربعة : هـاشـماً والمـطلب وعبـد شمس ونـوفـلاً ؟ وأن هـاشـماً والمطلب كانا يداً واحدةً ، وأن عبد شمس ونوفلاً كانا يـداً واحدة. وكـان مما أبطأ ببني نـوفل عن الإسـلام إبـطاء إخـوتهم من بني عبـد شمس ، وكـان ممـا حث بني المـطلب عـلى الإسـلام فضـل محبتهم لبني هـاشم . لأن أمـر النبي صـلى الله عليـه وسلم كان بينا ، وإنما كانوا يمتنعون منـه من طريق الحسـد والبغضة . فمن لم يكن فيـه هـذه العلة لم يكن لـه دون الإسـلام مـانـع . ولـذلـك لم يصحـب النبي صـلى الله عليه وسلم من بني نوفل أحد ، فضـلاً عن أن يشهدوا معـه المشاهـد الكريمـة ، وإنمـا صحبـه حلفـاؤهم كيعـلى بن منبـه ، وعتبـة بن غـزوان وغيـرهمـا . وبنـو الحـارث بن المطلب كلهم بـدري : عبيـدة وطفيـل وحصـين . ومن بني المـطلب : مـسطح بن أثاثـة بدري ؟ وكيف يكـون الأمر كما قلتم وأبو طـالب يقول لمطعم بن عدي بن نوفل في أمر النبي لما تمالأت قريش عليه :

جَزَى الله عَنَّا عَبْـدَ شَمْسٍ وَنَوْفَـلاً جَـزاءَ مُسِيءٍ عَـاجِـلاً غَـير آجِـلِ
أَمُـطْعِمُ إمَّـا سَـامَني القَـوْمُ خِـطَّةً فَـإنِّي مَتَى أُوكَـلْ فَلَسْـتَ بِـآكِـلِ
أَمُـطْعِمُ لَمْ اخْـذِلْـكَ في يَـومِ شِـدَّةٍ وَلاَ مَشْهَـدٍ عِنْـدَ الأُمُـورِ الجَـلائِـلِ

ولقـد قسم النبي صـلى الله عليـه وسلم قسمـة فجعلهـا في بني هـاشم وبني المطلب فأتاه عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبـد مناف وجبـير بن مطعم بن عـدي بن نوفـل بن عبد منـاف فقالا لـه : يـا رسـول الله إن قرابتنا منك وقرابة بني المطلب واحـدة ، فكيف أعطيتهم دوننـا ؟ فقال النبي : إنـا لم نـزل وبني المطلب كهـاتين . وشبـك بـين أصـابعـه . فكيف تقـولـون كنـا شيئـاً واحداً ، وكان الاسـم الذي يجمعنا واحداً ؟؟

قالت هاشم :

إن كان الفخر بالأيد والقوة واهتصار الأقران ومباطشـة الرجـال ، فمن أين

لكم كمحمد بن الحنفية ! وقد سمعتم أخباره وأنه قبض على درع فاضلة فجذبها فقطع ذيلها ما استدار منه كله . وسمعتم حديث الأيد القوي الذي أرسله ملك الروم إلى معاوية يفخر به على العرب ، وأن محمداً قعد له ليقيمه فلم يستطع فكأنما يحرك جبلاً ، وأن الرومي قعد ليقيمه محمد فرفعه فوق رأسه ثم جلد به الأرض . هذا مع الشجاعة المشهورة والفقه في الدين والحلم والصبر والفصاحة والعلم بالملاحم والإخبار عن الغيوب حتى ادعي له أنه المهدي . وقد سمعتم أحاديث أبي اسحق المعتصم وأن أحمد بن أبي دؤاد عض ساعده بأسنانه أشد العض فلم يؤثر فيه ، وأنه قال : ما أظن الأسنة ولا السهام تؤثر في جسده ؟! وإن كان الفخر بالبشر وطلاقة الأوجه وسجاحة الأخلاق ، فمن مثل علي بن أبي طالب ؟ وقد بلغ من سجاحة خلقه وطلاقة وجهه أن عيب بالدعابة . ومن الذي يسوي بين عبد شمس وهاشم في ذلك ! كان الوليد جباراً ، وكان هشام شرس الأخلاق ، وكان مروان بن محمد لا يزال قاطباً عابساً ، وكذلك كان يزيد بن الوليد الناقص . وكان المهدي بن المنصور أسرى خلق الله وألطفهم خلقاً ، وكذلك محمد الأمين وأخوه المأمون . وكان السفاح يضرب به المثل في البِشْرِ وسجاحة الخلق .

قالوا : ولنا من أفراد الرجال من ليس لكم مثله . منا يحيى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، كان شجاعاً [جريئاً]، وهو الذي ولي الموصل لأخيه السفاح فاستعرض أهلها حتى ساخت الأقدام في الدم . ومنا يعقوب بن ابراهيم بن عيسى بن أبي جعفر المنصور ، كان شاعراً فصيحاً ، وهو المعروف بأبي الأسباط . ومنا محمد وجعفر ابنا سليمان بن علي ، كانا أعظم من ملوك بني أمية وأجل قدراً وأكثر أموالاً ومكاناً عند الناس . وأهدى محمد بن سليمان من البصرة إلى الخيزران مائة وصيفة في يد كل واحدة منهن جام من ذهب وزنه ألف مثقال مملوء مسكاً . وكان لجعفر بن سليمان ألفا عبد من السودان خاصة ، فكم يكون ليت شعري غيرهم من البيض ومن الإماء ! وما رؤي جعفر بن محمد راكباً قط إلا ظُن أنه الخليفة . ومن رجالنا محمد بن السفاح ، كان جواداً أيداً شديد

البطش . قالوا : ما رؤى أخوان أشد قوة من محمد وريطة أخته ولدى أبي العباس السفاح ، كان محمد يأخذ الحديد فيلويه فتأخذه هي فترده . ومن رجالنا محمد بن ابراهيم طباطبا صاحب أبي السرايا ، كان ناسكاً عابداً فقيهاً عظيم القدر عند أهل بيته وعند الزيدية . ومن رجالنا عيسى بن موسى بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، وهو الذي شيد ملك المنصور وحارب ابني عبد الله بن حسن وأقام عمود الخلافة بعد اضطرابه ، وكان فصيحاً أديباً شاعراً . ومن رجالنا عبد الوهاب بن ابراهيم الامام ، حج بالناس وولي الشام ، وكان فصيحاً خطيباً . ومن رجالنا عبد الله بن موسى الهادي ، كان أكرم الناس ، وجواداً ممدحاً أديباً شاعراً . واخوه علي بن موسى الهادي ، كان أكرم الناس وأجود الناس ، كان يلبس الثياب وقد حدد ظفره فيخرقها بظفره لئلا تعاد إليه . وعبد الله بن احمد بن عبد الله بن موسى الهادي ، كان أديباً ظريفاً .

قالوا : وقلتم : لنا عاتكة بنت يزيد يكتنفها خمسة من الخلفاء . ونحن نقول : لنا زبيدة بنت جعفر يكتنفها ثمانية من الخلفاء : جدها المنصور خليفة ، وعم أبيها السفاح خليفة ، وعمها المهدي خليفة ، وابن عمها الهادي خليفة ، وبعلها الرشيد خليفة ، وابنها الأمين خليفة ، وابنا بعلها المأمون والمعتصم خليفتان .

قالوا : وأما ما ذكرتم من الأعياص والعنابس ، فلسنا نصدقكم فيما زعمتموه أصلاً لهذه التسمية ، وانما سموا الأعياص لمكان العيص ، وأبي العيص ، والعاص وأبي العاص . وهذه أسماؤهم الأعلام ليست مشتقة من أفعال لهم كريمة ولا خسيسة . وأما العنابس . فانما سموا بذلك لأن حرب بن أمية كان اسمه عنبسة ، وأما حرب فلقبه . ولما كان حرب أمثلهم سموا جماعتهم باسمه فقيل « العنابس » كما يقال « المهالبة » و « المناذرة » ولهذا المعنى سمي أبو سفيان بن حرب : ابن عنبسة . وسمي سعيد بن العاص : ابن عنبسة .

* * *

وهذا آخر ما عثرت عليه من هذا الكتاب استخلصته بعد جهد وعناء .

هامش كتاب فضل هاشم على عبد شمس

(١) يخلو الكتاب من المقدمة التقليدية التي نعهدها في رسائل الجاحظ مما يدل على ان قسماً من الكتاب قد بتر .

ـ يعدد الجاحظ الوظائف التي كانت تضطلع بها بطون قريش في الجاهلية وهي اللواء والندوة والسقاية والرفادة وزمزم والحجابة . واللواء : تولي القيادة في الحرب ، والندوة : تولي الاجتماعات التي كانت تعقدها قريش في دار الندوة للتداول في الامور . والسقاية : تولي أمر سقي الحجاج الماء المحلى بالزبيب أثناء الموسم . والرفادة : تولي جمع المال من القرشيين لاطعام الحجاج . والحجابة والسدانة : تولي خدمة الكعبة .

(٢) المقارنة بين هاشم وأخيه عبد شمس وكلاهما ابنا عبد مناف . اشتهر هاشم بجماله حتى لقب بالقمر كما اشتهر بجوده واطعامه بني قومه الثريد في الأيام العجاف ومن ثم اشتق لقبه . اما عبد شمس فهو على العكس « ليس له لقب كريم ولا اشتق من صالح اعماله اسم شريف » .

(٣) عبد المطلب هو ابن هاشم وجد النبي محمد . وهو سيد وادي مكة واجل الناس واكرمهم . وهو صاحب كرامات لا تعرف الا للأنبياء منها الابتهال الى الله أن ينصره على جيش الحبشة الذي عزم على الإناخة على مكة فاستجاب الله لدعائه ورمى الاحباش بطير ابابيل ترميهم بحجارة من سجيل كما جاء في القرآن . وظهور الكرامات على يدي عبد المطلب مهدت السبيل لنبوة حفيده محمد . ومن كراماته تفجر العيون تحت اخفاف بعيره .

(٤) النبي محمد الهاشمي جمع ميزتين لا يضارعه فيهما أحد : الرسالة وكرم الاخلاق .

(٥) إيلاف قريش المذكور في القرآن بدأه هاشم ودر على قريش الاموال الطائلة . وقد فسر الجاحظ الايلاف على وجهين : الوجه الاول هو إتفاق هاشم مع ملوك اليمن

والشـام والحبشة عـلى الاشتراك في تسيير القوافـل التجاريـة بين مكـة واليمن والشام وضمان عدم الاعتداء عليها . . والوجه الثاني هو فـرض ضرائب عـلى قبائـل قريش ليحمي بها هاشم أهل مكة وقـوافلهم التجاريـة من غارات سـائر القبـائل مثـل طيء وقضاعة وخثعم .

(٦) يلقي الجـاحظ ضـوءاً عـلى حلف الفضـول الـذي قـام بـه بنـو هـاشم وسمي حلف الفضـول لفضله وفضيلته . وقـد تعاقـد أفخاذ هـاشـم : بنو المـطلب ، وبنـو اسـد ، وبنـو زهرة ، وبنـو تيم بن مرة في دار عبـد الله بن جدعـان على احقـاق الحق ونصرة المظلوم والضرب على ايدي الظالم ، سواء كان قريباً او غريبـاً . وكان الـزبير بن عبـد المطلب هو الذي دعا الى قيام ذلك الحلف .

(٧) حـرب الفجار جـرت بين قـريش وعامـر في زمن الزبـير بن عبد الـطلب عم النبي . وقد شـهد النـبي المعـركة اذ كـان ينبل فيهـا على عمـومته . وسميت بـذلك لان عـامر هي التي فجرت .

(٨) يقـابل هـذه المكارم الهـاشـمية مخـازي امية . فـامية كـان مضعـوفاً وصـاحب عهـار (تعـرض لامرأة من بني زهـرة فضربـه احدهم بـالسيف ، فلم يستطع قـومـه الثـأر لـه) . وابنه حـرب كان مقيتـاً (اي تزوج امـرأة ابيه أميـة في حيـاتـه) والمقيتـون هم الذين ينكحون نساء ابائهم بعد موتهم . وابـو سفيان بن حـرب ضربت عنق حليفـه ابي الازيهر الدوسي الازدي ولم يدرك به قوداً .

(٩) مقارنة بـين خلفاء بني هـاشـم العباسـيين امثال المنصـور والرشـيد والمعتصم والواثق ، وخلفـاء أمية امثـال مروان بن الحكم ومعـاويـة ويـزيـد وعبـد الملك الـخ . . . تبـين عظمة العبـاسـيين وقدرتهم وضـعف الامويين .

(١٠) الهـاشميـون أحق بـالخـلافـة من الامـويـين لأنـهم ملكـوا بـالمـيـراث وحق العصبـة والعمومة ، اما الامويـون فملكوا لانهم قـرشـيون ، وفي هذا يفضلهم العلويون الذين ادعوا الملك بسبب القرابة السابقـة والوصية ، ويفضلهم العبـاسـيـون الذين اعتمـدوا الـوراثة ، ويسبقهم سـائر القـرشية ، اذا كـان الملك لا ينال الا بـالسـوابق والأعمـال والجهاد .

والجاحظ يلخص هنا مختلف الـدعاوي بـالامامـة او الخلافـة التي كان ينـادي بها كـل من العلويين والعباسيين وغيرهم .

(١١) يعدد الجاحظ اعمال بني أمية وجـورهم على بني هـاشم ، ابتداء من محـاربة عـلي ، الى سم الحسن ، وقتـل الحسين ، وسم ابي هـاشم عبد الله بن محمـد بن علي بن ابي طـالب ، وضرب الكعبـة وتغيير مـوعد الصـلاة . وقـد وردت معـظم هـذه التهم في

رسالة النابتة التي نشرناها ضمن رسائل الجاحظ الكلامية . وقد كررها الجاحظ هنا للتركيز عليها والتذكير بها .

(١٢) انتزاع العباسيين الملك من بني امية بفضل شجاعتهم وحنكتهم . وقد تولى ولد العباس بانفسهم الحرب امثال عبد الله بن علي ، وصالح بن علي ، وداود بن علي ، وعبد الصمد بن علي ، والمنصور . وفي هذا اسقاط للدعوة التي تقول ان الفرس هم الذين اسقطوا دولة الامويين .

(١٣) خصال هاشم في الاسلام هو القسم الثاني من الكتاب . والقسم الاول خصصه كما رأينا للكلام على خصال هاشم في الجاهلية .

ـ وقد بدأه بالفخر بكثرة العدد . واورد ابياتاً في الشعر تبين تعظيم العرب لكثرة العدد وتعتبره شرفاً .

(١٤) الفخر بالحكمة اي نبل الرأي وصواب القول ، وقد ذكر من ابواب الحكمة الفقه والعلم والتأويل ومعرفة التنزيل والقياس والخطابة . واشتهر بها عبد الله بن عباس وعلي بن ابي طالب .

(١٥) الفخر بالبسالة أي الشجاعة والنجدة وقتل الاقران وجزر الفرسان وقد اشتهر فيهما حمزة عم النبي وعلي بن أبي طالب .

(١٦) الفخر بالكرم أي الفضل في الجود والسماح ، وقد عرف به عبد الله بن جعفر وعبيد الله بن العباس .

١٧ ـ مفاخر أمية في الدهاء والحروب والعلم والشعر :

يذكر الجاحظ من انجبتهم امية في هذه الميادين . فمن الدهاة معاوية بن ابي سفيان ، وزياد ابن ابيه ، ومن الشعراء والخطباء يزيد بن معاوية والوليد بن يزيد ومروان بن الحكم وابنه عبد الرحمن وبشر بن مروان . وفي العلم نبغ خالد بن يزيد الذي ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء . وفي الشجاعة نبغ العباس بن الوليد بن عبد الملك ، ومروان بن محمد وعبد الملك بن مروان .

(١٨) مفاخر بني أمية في النسك والورع : يقدم الجاحظ لائحة باسماء عدد من النساك الورعين امثال معاوية بن يزيد بن معاوية ، وسليمان بن عبد الملك ، وعمر بن عبد العزيز وابنه عبد الملك .

(٢٠) فخر امية بالجمال طريف ، ويذكر منهم المدبج والديباج والمطرف عبد الله بن عمرو بن عثمان .

(٢١) مفاخر امية قبل الأسلام : لا ينسى الجاحظ مفاخر الامويين قبل الاسلام رداً على مفاخر الهاشميين قبل الاسلام لتتم الموازنة . وامية تفتخر قبل الاسلام بجدودها

امثال حرب بن امية رئيس يوم الفجار ، وابي سفيان بن حرب رئيس احد والخندق وسيد قريش كلها في زمانه . وقد سموا بالعنابس لانها اسماء الاسود ، وسموا بالاعياص لانها اسماء الاصول .

(٢٢) رد هاشم على ادعاءات امية في الدهاء والحلم والخطابة والورع والفقه والبسالة والتواضع والجمال والنساء يتضمن تعداد رجالات هاشم الذين اشتهروا بهذه الصفات وتفوقهم على رجالات عبد شمس . ومعظمه تكرار لما سبق .

(٢٣) رد أمية على هاشم ودعوتها الى التسوية ووقف التنافس لانهما ابناء عمومة ولا فضل لاحدهما على الآخر .

(٢٤) رد هاشم الأخير : لا تسوية بيننا .

- ٦ -

رسالة العباسية

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

قال أبو عثمان :

وقد زعم أناس أن الدليل على صدق خبرهما (يعني أبا بكر وعمر) في منع الميراث وبراءة ساحتهما ، ترك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم النكير عليهما . ! قد يقال لهم : لئن كان ترك النكير دليلاً على صدقهما ، إن ترك النكير على المتظلمين والمحتجين عليهما والمطالبين لهما دليل على صدق دعواهم أو استحسان مقالتهم ، ولا سيما وقد طالت المناجاة وكثرت المراجعة والملاحاة ، وظهرت الشكية واشتدت الموجدة . وقد بلغ ذلك من فاطمة أنها أوصت أن لا يصلي عليها أبو بكر . ولقد كانت قالت له حين أتته مطالبة بحقها ومحتجة لرهطها : من يرثك يا أبا بكر إذا مت ؟ قال : أهلي وولدي . قالت : فما بالنا لا نرث النبي صلى الله عليه وسلم ؟! فلما منعها ميراثها وبخسها حقها واعتل عليها وجلح أمرها وعاينت التهضم وأيست في التورع ووجدت نشوة الضعف وقلة الناصر قالت : والله لأدعون الله عليك . قال : والله لأدعون الله لك . قالت : والله لا كلمتك أبداً . قال : والله لا أهجرك أبداً . فان يكن ترك النكير على أبي بكر دليلاً على صواب منعها ، إن في ترك النكير على فاطمة دليلاً على صواب طلبها ؟ وأدنى ما كان يجب عليهم في ذلك تعريفها ما جهلت وتذكيرها ما نسيت وصرفها عن الخطأ اورفع قدرها عن البذاء وأن تقول هُجراً وتجوّر عادلاً أو تقطع واصلاً ؟ فإذا لم تجدهم أنكروا على الخصمين جميعاً فقد تكافأت الأمور واستوت الأسباب . والرجوع إلى أصل حكم الله في المواريث أولى بنا وبكم ، وأوجب علينا وعليكم .

فإن قالوا : كيف تظن به ظلمها والتعدي عليها ، وكلما ازدادت عليه غلظة ازداد لها ليناً ورقة ، حيث تقول له : والله لا أكلمك أبداً فيقول والله لا أهجرك أبداً . ثم تقول والله لأدعون الله عليك فيقول والله لأدعون الله لك . ثم يتحمل منها هذا الكلام الغليظ والقول الشديد في دار الخلافة وبحضرة قريش والصحابة مع حاجة الخلافة إلى البهاء والتنزيه وما يجب لها من الرفعة والهيبة ، ثم لم يمنعه ذلك أن قال معتذراً متقرباً كلام المعظم لحقها ، المكبر لمقامها الصائن لوجهها ، المتحنن عليها . ما أحد أعز عليّ منك فقراً ولا أحب إلي منك غنى ! ولكن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه فهو صدقة » ؟ .

قيل لهم : ليس ذلك بدليل على البراءة من الظلم والسلامة من الجور ، وقد يبلغ من مكر الظالم ودهاء الماكر إذا كان أريباً وللخصومة معتاداً أن يظهر كلام المظلوم وذلة المنتصف وحدب الوامق ومقة المحق . وكيف جعلتم ترك النكير حجة قاطعة ودلالة واضحة وقد زعمتم أن عمر قال على منبره : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، متعة النساء ومتعة الحج ، أنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما ، فما وجدتم أحداً أنكر قوله ولا استشنع مخرج نهيه ولا خطأه في معناه ولا تعجب منه ولا استفهمه ؟ وكيف تقضون بترك النكير ، وقد شهد عمر يوم السقيفة وبعد ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الأئمة من قريش » . ثم قال في شكاته : لو كان سالم حياً ما تخالجني فيه شك . حين أظهر الشك في استحقاق كل واحد من الستة الذين جعلهم شورى ! وسالم عبد لامرأة من الأنصار وهي أعتقته وحازت ميراثه . ثم لم ينكر ذلك من قوله منكر ولا قابل إنسان بين قوله ولا تعجب منه ! وإنما يكون ترك النكير على من لا رغبة ولا رهبة عنده دليلاً على صدق قوله وصواب عمله ، فأما ترك النكير على من يملك الضعة والرفعة والأمر والنهي والقتل والاستحياء والحبس والاطلاق ، فليس بحجة تشفي ولا دلالة تضيء .

وقال آخرون : بل الدليل على صدق قولهما وصواب عملهما إمساك

الصحابة عن خلعهما والخروج عليهما ، وهم الذين وثبوا على عثمان في أيسر من جحد التنزيل ورد النصوص ، ولو كان كما تقولون وما تصفون ما كان سبيل الأمة فيهما إلا كسبيلها فيه ، وعثمان كان أعز نفراً ، وأشرف رهطاً ، وأكثر عدداً وثروة وأقوى عدة ؟

قلنا : إنهما لم يجحدا التنزيل ولم ينكرا النصوص ، ولكنهما بعد اقرارهما بحكم الميراث وما عليه الظاهر من الشريعة ، ادعيا رواية وتحدثا بحديث لم يكن محالاً كونه ولا ممتنعاً في حجج العقول مجيئه ، وشهد لهما عليه مَن علته مثل علتهما فيه ، ولعل بعضهم كان يرى تصديق الرجل إذ كان عدلاً في رهطه مأموناً في ظاهره ، ولم يكن قبل ذلك عرفه بفجرة ولا جرب عليه غدرة ، فيكون تصديقه له على جهة حسن الظن وتعديل الشاهد ، ولأنه لم يكن كثير منهم يعرف حقائق الحجج والذي يقطع بشهادته على الغيب ، وكان ذلك شبهة على أكثرهم . فلذلك قلّ النكير وتواكل الناس فاشتبه الأمر فصار لا يتخلص إلى معرفة حق ذلك من باطله إلا العالم المتقدم ، أو المؤيد المرشد . ولأنه لم يكن لعثمان في صدور العوام وقلوب السفلة والطغام ما كان لهما من المحبة والهيبة ، ولأنهما كانا أقل استئثاراً بالفيء وتفضلاً بمال الله منه . ومن شأن الناس إهمال السلطان ما وفر عليهم أموالهم ولم يستأثر بخراجهم ولم يعطل ثغورهم ، ولأن الذي صنع أبو بكر من منع العترة حقها والعمومة ميراثها قد كان موافقاً لجلة قريش وكبراء العرب ، ولأن عثمان أيضاً كان مضعوفاً في نفسه مستخفاً بقدره لا يمنع ضيماً ولا يقمع عدواً ، ولقد وثب ناس على عثمان بالشتم والقذع والتشنيع والنكير لأمور لو أتى أضعافها وبلغ أقصاها لما اجترأوا على اغتيابه فضلاً على مباداته والإغراء به ومواجهته ، كما أغلظ عُيينة بن حصن له فقال له : أما لو كان عمر لقمعك ومنعك ! فقال عيينة : إن عمر كان خيراً لي منك ، رهبني فاتقاني وأعطاني فأغناني .

والعجب أنا وجدنا جميع من خالفنا في الميراث على اختلافهم في التشبيه والقدر والوعيد يرد كل صنف منهم من أحاديث مخالفيه وخصومه ما هو أقرب

إسناداً وأصح رجالاً وأحسن اتصالاً ، حتى إذا صاروا إلى القول في ميراث النبي صلى الله عليه وسلم نسخوا الكتاب وخصصوا الخبر العام بما لا يداني بعض ما ردوه وأكذبوا قائليه ، وذلك أن كل إنسان منهم إنما يجري إلى هواه ويصدق ما وافق رضاه .

- ٧ -

مناقب الترك

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

[١ ـ مقدمة]

وَفقك الله لرشدك ، وأعان على شكرك، وأصلحك وأصلح على يديك، وجعلنا وإيّاك ممَّن يقول بالحقّ ويعملَ به ، ويُؤثره ويحتمل ما فيه [ممّا قد يصدّه عنه] ، ولا يكون حظّه منه الوصفَ له والمعرفةَ به،دون الحثّ عليه والانقطاع إليه ، وكشف القناع فيه ، [وإيصاله إلى أهله ، والصّبرِ على المحافظة في الأ يصلَ إلى غيرهم ، والتثبُّتِ في تحقيقه لديهم] ؛ فإنَّ الله تعالى لم يعلِّم الناس ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عاملين ، بل علّمهم ليعملوا ، وبيّنَ لهم ليتّقوا التورُّط في وسط الخوف ، والوقوع في المضارّ ، والتوسُّطَ في المهالك .

[فللذلك] طلب الناسُ التبيُّنَ ، وحبُّ السلامة من الهَلَكة ، والرّغبةِ في المنفعة ، احتملوا ثِقَلَ العلم ، وتعجّلوا مكروه المعاناة . ولقلّة العاملين وكثرةِ الواصفين [قال الأوّلون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين . وإنّما] كثُرت الصّفات وقلّتِ الموصوفات ، لأنَّ ثوابَ العملِ مؤجّل ، واحتمال ما فيه معجّل .

[٢ ـ أعداء السلطان]

وقد أعجبني ما رأيت من شغَفك بطاعة إمامك ، والمحاماةِ لتدبير

خليفتك ، وإشفاقك من كل خَلَل وخَلّة دخَل على مُلكه وإنْ دقّ ، ونالَ سُلطانَه وإن صغُر ، ومن كلِّ أمرٍ خالفه وإن خفِيَ مكانُه ، وَجانب وإنْ قَلَّ ضررُه ؛ ومن تخوُّفك أن يجد المُتأوِّلُ إليه طريقاً والعدوُّ عليه متعلّقاً ؛ فإنّ السلطانَ لا يَخْلو من مُتأوِّلٍ ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زارٍ ، ومن متعطِّل متصفِّح ، ومن مُعجَبٍ برأيه ذي خَطَلٍ في بيانه ، مولع بتهجين الصّواب ، وبالاعتراض على التّدبير ، حتّى كأنّه رائدٌ لجميع الأمّة ، ووكيلٌ لسكان جميع المملكة ؛ يَضَع نفسه في موضع الرُّقباء ، وفي موضع التصفّح على الخلفاء والوزراء ؛ لا يَعذِر وإن كان مجازُ العُذر واضحاً ، ولا يقف فيما يكون للشكّ محتملاً ، ولا يُصدِّق بأنَّ الشاهدَ يرى ما لا يرى الغائب ، وأنّه لا يعرف مَصادر الرّأي من لم يشهد مَوارِدَه ، ومُستدبَرَه من لم يعرف مُستقبلَه . ومن محرومٍ قد أضغَنَه الحرمان ، ومن لئيم قد أفسدَه الإحسان . ومن مستبطيءٍ قد أخذ أضعاف حقّه ، وهو لجهله بقَدره ، ولضيق ذَرْعه وقلّة شكره ، يظنُّ أنّ الذي بَقِيَ له أكثر ، وأنّ حقّه أوجَب . ومن مستزيدٍ لو ارتجع السلطان سالفَ أياديه البيض عنده ، ونِعَمه السّالفة عليه ، لكان لذلك أهلاً ، وله مستحقّاً قد غرّه الإملاء ، وأبطره دوام الكفاية ، وأفسده طولُ الفراغ . ومنْ صاحب فِتنةٍ خاملٍ في الجماعة ، رئيس في الفرقة ، نَفّاق في الهرج ، قد أقصاه السلطان ، وأقام صغوه ثِقاف الأدب ، وأذلّه الحكمُ بالحقّ ، فهو مغيظ لا يجد غير التشنيع ، ولا يشتفي بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلاّ إلى الأماني ، ولا يأنس إلاّ بكلّ مُرجفٍ كذّاب ، ومفتونٍ مُرتاب ؛ وخارصٍ لا خيرَ فيه ، وخالفٍ لا غَناءَ عنده ، يريد أن يسوّى بالكُفاة ، ويُرفع فوق الحُماة ؛ لأمرٍ [ما] سَلَفَ له ، ولإحسانٍ كانَ من غيره ، وليس ممّن يربُّ قديماً بحديث ، ولا يَحفِل بدُروس شرف ، ولا يَفصل بين ثواب المحتسِبين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين .

وكيف يعرف فرقَ ما بين حقِّ النِّعام وثوابِ الكفاية ، من لا يعرف طبقات الحق في مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازله .

ثم أعلمتني بذلك أنّك بنفسك بدأت في تعظيم امامك ، والحفظ لمناقب

أنصار خليفتك ، وإيّاها حُطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأوليائه . ونعم العون أنتَ إن شاء الله على ملازمة الطّاعة ، والمؤازرة على الخير ، والمكانفة لأهل الحق .

وقد استدللتُ بالذي أرى من شدّة عنايتك ، وفرط اكتراثك ، وتفقّدك لأخابير الأعداء وبحثك عن مناقب الأولياء ، على أنّ ما ظهر من نصحك أَمَمٌ ، في جَنْب ما بَطَن من إخلاصك .

فأمتعَ الله بك خليفتَه ، ومنحنا وإيّاك محبّته ، وأعاذنا وإيّاك من قَوْل الزُّور ، والتقرُّب بالباطل ، إنّه حميد مجيد ، فعّالٌ لما يريد .

[٣ - أقسام جند الخلافة الخمسة]

وذكرتَ أبقاك الله أنّك جالست أخلاطاً من جُند الخلافة ، وجماعةً من أبناء الدّعوة ، وشيوخاً من جِلّة الشّيعة ، وكُهولاً من أبناء رجال الدّولة ، والمنسوبين إلى الطاعة والمناصحة ، [والمحبّة] الدّينية ، دون محبة الرغبة والرهبة، وأنّ رجلاً من عُرْض تلك الجماعة ، ومن حاشية تلك الجِلّة ارتجلَ الكلام ارتجالَ مستبدٍّ ، وتفرد به تفرُّد مُعجَب ، وأنّه لم يستأمر زعماءهم ، ولم يراقب خطباءهم ، وأنه تعسّف المعانيَ وتهجّم على الألفاظ ، وزعم أنّ جُند الخلافة اليومَ على خمسة أقسام : خراساني ، وتركيّ ، ومَولىً ، وعربيّ ، وبَنَويّ . وأنّه أكثر من حَمْد الله وشكره على إحسانه ومِنّته ، وعلى جميع أياديه وسابغ نعمه ، وعلى شمول عافيته وجزيل مواهبه ، حين ألّف على الطاعة هذه القلوبَ المختلفة ، والأجناسَ المتباينة ، والأهواء المتفرّقة . وأنّك اعترضت على هذا المتكلم المستبدّ ، وعلى هذا القائل المتكلّف ، الذي قسّم هذه الأقسام ، وخالف [بين] هذه الأركان ، وفصّل بين أنسابهم ، وفرّق بين أجناسهم ، وباعَدَ بين أسبابهم .

[٤ ـ لا فرق بين الخراساني والتركي]

وأنّك أنكرتَ ذلك عليه أشدَّ الإنكار ، وقذعته أشدَّ القَذْع ، وزعمت أنهم لم يخرجوا من الاتّفاق أو من شيء يقرب من الاتّفاق . وأنّك أنكرت التّباعدَ في النّسب ، والتّباين في السّبب . وقلتَ : بل أزعم أنّ الخُراسانيّ والتركيّ أخوانِ ، وأن الحيِّز واحد ، وأن [حكم ذلك الشُرق ، والقضيَّة على] ذلك الصُّقع متّفق غير مختلف ، ومتقاربٌ غير متفاوت . وأنّ الأعراق في الأصل إن لا تكن [كانت] راسخةً فقد كانت متشابهة ، وحدود البلاد المشتملة عليهم إن لا تكن متساويةً فإنّها متناسبة ؛ وكلُّهم خراسانيٌّ في الجملة وإن تميّزوا ببعض الخصائص ، فافترقوا ببعض الوُجوه .

وزعمتَ أنّ اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي والعربيّ ، ولا كالاختلاف بين الرُّومي والصَّقْليّ ، والزِّنجيّ والحَبَشي ، فضلاً عما هو أبعدُ جوهراً وأشدُّ خلافاً . بل كاختلافٍ ما بين المكّي والمدني ، والبدويّ والحضري ، والسَّهلي والجبلي ، وكاختلاف ما بين الطائيّ الجبليّ والطائيّ السَّهلي ، وكما يقال : أنّ هذيلاً أكراد العرب ، وكاختلاف ما بين مَنْ نزل البُطون وبين من نزل الحُزُون ، وبين من نزل النُّجود وبين من نزل الأغوار .

[٥ ـ العرب أمة واحدة]

وزعمتَ أنّ هؤلاء وإن اختلفوا في بعض اللُّغة ، وفارق بعضُهم بعضاً في بعض الصُّوَر ، فقد تخالفت عُليا تميم ، وسُفلَى قيس ، وعَجُز هوازن وفُصحاء الحجاز ، في اللُّغة ، وهي في أكثرها على خلاف لغة حِمير ، وسُكان مَخاليف اليمن ، وكذلك في الصُّورة والشمائل والأخلاق . وكلُّهم مع ذلك عربيٌّ خالص ، غير مَشُوب ولا مُلْهَج ولا مذرَّع ولا مزلَّج . ولم يختلفوا الاختلافَ ما بين بني قحطان وبني عدنان ، من قِبَل ما طبع الله عليه تلك البريَّة من خصائص

الغرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كلّ جيزة من الشّكل والصُّورة ومن الأخلاق واللُّغة .

فإنْ قلتَ : فكيف كان أولادهما جميعاً عرباً مع اختلاف الأبوّة .

قلنا : إنَّ العربَ لما كانت واحدةً فاستووْا في التُّربة وفي اللغة ، والشّمائل والهمَّة ، وفي الأنَف والحميَّة ، وفي الأخلاق والسَّجيّة ، فسُبِكُوا سَبكاً واحداً ، وأُفرِغوا إفراغاً واحداً ، وكان القَالَب واحداً ، تشابهت الأجزاء وتناسبت الأخلاط ، وحين صار ذلك أشدَّ تشابهاً في باب الأعمّ والأخصّ وفي باب الوفاق والمباينة من بعض ذوي الأرحام ، جرى عليهم حكمُ الاتّفاق في الحسب ، وصارت هذه الأسباب ولادةً أخرى حتّى تناكحوا عليها ، وتصاهروا من أجلها، وامتنعت عدنان قاطبةً من مناكحة بني إسحاق وهو أخو إسماعيل ، وجادُوا بذلك في جميع الدهر لبني قحطان ـ وهو ابن عَابَر ـ ففي إجماع الفريقينْ على التناكح والمصاهرة ، ومنعهما من ذلك جميعَ الأمم : كِسرى فَمن دونه ، دليل على أنَّ النسبَ عندهم متّفق ، وأنَّ هذه المعانيَ قد قامت عندهم مَقام الولادة والأرحام الماسَّة .

[٦ ـ البنوي خراساني]

وزعمتَ أنه أراد الفُرقة والتّحزيب ، وأنّك أردت الأُلفة والتّقريب .

وزعمتَ أيضاً أنَّ البَنَويَّ خُراسانيّ ، وأنَّ نسبَ الأبناء نسبُ آبائهم ، وأنَّ حُسن صنيع الآباء ، وقديم فعال الأجداد ، هو حسب الأبناء . وأنَّ الموالي بالعرب أشبه ، وإليهم أقرب ، وبهم أمسُّ ؛ لأن السُّنّة جعلتهم منهم . فقلت : إنَّ الموالي أقرب إلى العرب في كثير من المعاني ؛ لأنّهم عربٌ في المدّعى ، وفي العاقلة ، وفي الوراثة . وهذا تأويل قوله « مولى القوم منهم » و « مولى القوم من أنفسهم » ، و « الولاءُ لُحمةٌ كلُحمة النّسب » . وعلى شبيه ذلك صار حليفُ

القوم منهم ، وحكمه حكمهم ، فصار الأخنس بن شُريق وهو رجلٌ من ثقيف ، وكذلك يَعلَى بن مُنْيَة وهو رجل من بَلعدويّة ، وكذلك خالد بن عُرفُطة وهو رجلٌ من عُذرة من قريش . وبذلك النَّسب حَرُمت الصَّدقةُ على موالي بني هاشم ؛ لأنَّ النبي صلى الله عليه وسلم أجراهم في باب التنزيه والتطهير مجرى مواليهم . وبذلك السَّبب قَدَّمَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بني عبد المطلب على بني عبد شمس ، وقرابتُهم سواءٌ ونسبهم واحد ، للعَقْد المتقدِّم ، وللأيدي المُتَّفقة .

وقال صلى الله عليه وسلم : « مِنّا خير فارسٍ في العرب : عُكاشة بن مِحْصَن » ، فقال ضِرار بن الأزْوَر الأسديّ : ذاك رجلٌ منّا يا رسول الله . قال : « بل هو منّا بالحلف » . فجعلَ حليفَ القوم منهم ، كما جعلَ ابنَ أُخت القوم منهم .

ثم زعمتَ أنَّ الأتراك قد شاركوا هؤلاءِ القومَ في هذا النَّسب ، وصاروا من العرب بهذا السَّبب ، مع الذي بانوا به من الخِلال ، وحُبُوا به من شرف الخصال .

على أنَّ وَلاء الأتراك لُباب قُريش ، ولُصَاص عبد مناف ، و[هم] في سرِّ بني هاشم ، [وهاشمٌ] موضعَ العذار من خد الفرس ، والعِقدِ من لَبَّة الكاعب ، والجوهر المكنون ، والذَّهب المصفَّى ، وموضع المُخّة من البيضة ، والعَين في الرأس ، والرُّوح من البدن ؛ وهم الأنف المقدَّم ، والسَّنام الأكبر ، والدُّرَّة الزهراء ، والرَّوضة الخضراء ، والذَّهب الأحمر . فقد شاركوا العربَ في أنسابهم ، والمواليَ في أسبابهم ، وفَضَلوهم بهذا الفضل الذي لا يبلُغه فضلٌ وإن بَرَع ، بل لا يَعشُره شرفٌ وإنْ عظُم ، ولا مجدٌ وإنْ قَدُم .

فزعمتَ أنَّ انسابَ الجميع متقاربةٌ غير متباعدة ، وعلى حسب ذلك التَّقارب تكون المؤازرة والمكانفة ، والطاعة والمناصحة ، والمحبة للخلفاء والأئمة .

[٧ ـ مفاخر الخراسانيين]

وذكرت أنَّهُ ذكر جُملاً من مفاخرة الأجناس ، وجمهرة من مناقب هذه الأصناف ، وأنه جمعَ ذلك وفصّله وفسّره ، وأنه ألغى ذكر الأتراك فلم يَعرض لهم ، وأضرب عنهم صفحاً ، يُخبر عنهم كما أخبر عن حُجَّة كلِّ جيل ، وعن بُرهان كلِّ صِنف ، وذكر أنَّ الخراسانيَّ يقول : نحن النُّقباء وأبناء النقباء ؛ ونحن النُّجباء وأبناء النُّجباء ، ومنَّا الدُّعاة ، قبل أنْ تَظهر نَقابَة ، أو تُعرف نَجابة ، وقبلَ المغالبة والمباراة ، وقبل كَشف القِناع وزوال التَّقيَّة وزوال ملك أعدائنا عن مستقَرِّه ، وثبات ملك أوليائنا في نِصابه . وبين ذلك ما قُتِلنا وشُرِّدنا ، ونُهِكْنا ضرباً وبُضِعنا بالسُّيوف الحِداد ، وعذِّبنا بألوان العذاب .

وبنا شفَى الله الصُّدورَ ، وأُدرِك الثأر . ومنَّا الاثنا عَشَر النُّقباء ، والسَّبعون النُّجباء . ونحن الخندقيَّة ، ونحن الكفَّيَّة وأبناء الكفية ، ومنا المستجيبة ومن يسرج الشيمية ومنّا نيم خزان وأصحاب الجوربين ومنا الزَّغنديَّة والأزاذمردية .

ونحن فتحنا البلادَ وقتلنا العباد ، وأبَذْنا العدوَّ بكلِّ وادٍ . ونحنُ أهلُ هذه الدولة ، وأصحاب هذه الدعوة ، ومَنبِت هذه الشجرة . ومن عندنا هبَّت هذه الرِّيح .

والأنصار أنصاران : الأوس والخزرجُ نصروا النبي صلى الله عليه وسلم في أوَّل الزمان ، وأهلُ خراسان نصروا ورثَته في آخر الزَّمان . غذانا بذلك آباؤنا وغذَوْنا به أبناءنا وصار لنا نسباً لا نُعرف إلَّا به ، ودِيناً لا نوالي إلَّا عليه .

ثم نحن على وتيرةٍ واحدة ، ومنهاج غير مشترك ؛ نُعرف بالشيمة ، ونَدين بالطَّاعة ، ونُقتَل فيها ونَموت عليها . سيمانا موصوفٌ ، ولباسنا معروف . ونحن أصحاب الرَّايات السُّود ، والروايات الصحيحة ، والأحاديث المأثورة ، والذين يهدِّمون مُدنَ الجبابرة ، ويَنزعون المُلك من أيدي الظَّلَمة ، وفينا تقدُّم الخبر ، وصحَّ الأثر . وجاء في الحديث صفة الذين يفتحون عَمُّوريَّة ويظهرون عليها ،

ويقتلون مُقاتليها ويَسْبون ذراريها ، حيث قالوا في نعتهم : « شُعورهم شعور النساء ، وثيابهم ثيابُ الرهبان » . فصَدَّق الفعلُ القول ، وحقَّق الخبرَ العيان .

ونحن الذين ذَكَرنا وذكر بلاءَنا امامُ الأئمة ، وأبو الخلائق العشرة : محمّد ابن علي ، حين أراد توجيهَ الدُّعاة إلى الآفاق ، وتفريقَ شيعته في البلاد ، أن قال :

أما البصرة وسوادُها فقد غلب عليها عثمانُ وصنائع عثمان ، فليس بها من شيعتنا إلاّ القليل . وأمّا الشام فشيعةُ بني مروان وآل أبي سُفيان . وأمّا الجزيرة فحَرُوريَّة شارية ، وخارجة مارقة ، ولكن عليكم بهذا الشَّرق ؛ فإنَّ هناك صدوراً سليمة وقلوباً باسلة ، لم تُفسِدها الأهواء ، ولم تخامِرها الأدواء ، ولم تعتَقِبْها البدع ، وهم مغيظون موتورون . وهناك العَدد [والعُدَّة] ، والعَتاد والنَّجدة .

ثم قال : [وأنا أتفاءل] إلى حيث يطلع منه النهار . فكنَّا خيْرَ جُنْدٍ لِخَير إمام ؛ فصدَّقنا ظنَّه ، وثبَّتْنا رأيه ، وصوَّبنا فِراسَته .

وقال مرَّة أخرى :

أمرُنا هذا شرقيٌّ لا غربيٌّ ، ومُقبِل لا مدبر ، يطلعُ كطلوع الشمس ، ويمتدُّ على الآفاق امتداد النهار ، حتّى يبلغ حيث تبلغه الأخفاف ، وتناله الحوافر .

قالوا : ونحن قَتلنا الصُّحْصُحيَّة ، والدَّالقيَّة ، والذُّكوانيَّة ، والرَّاشديَّة . ونحن أيضاً أصحاب الخنادق أيّامَ نصْر بن سيّار. وابن جُدَيْعٍ الكَرمانيّ ، وشيبان بن سَلَمة الخارجي . ونحن أصحاب نُباتة بن حنظلة ، وعامر بن ضبارة، وأصحابُ ابن هبيرة . فلَنا قديمُ هذا الأمر وحديثُه ، وأوّله وآخره ومنّا قاتلُ مروان .

ونحنُ قومٌ لنا أجسامٌ وأجرام ، وشُعورٌ وهام ، ومناكبُ عِظام ، وجِباهٌ عِراض ، وقَصَرٌ غِلاظ ، وسواعدُ طوال .

ونحنُ أولَدُ للذُّكورة ، وأنسل بعولة. وأقلُّ ضوىً وضُؤولة ، وأقلُّ إتماماً

وأنتق أرحاماً ، وأشدُّ عصباً وأتمّ عظاماً ، وأبدانُنا أحْمَل للسلاح ، وتجفافُنا أملأ للعيون .

ونحن أكثر مادّة ، وأكثر عَدداً وعُدّة .

ولو أنّ يأجوج ومأجوجَ كاثروا مَنْ وراء النّهر منّا لظهروا عليهم بالعَدد . فأمّا الأيْد وشِدّةُ الأسر ، فليس لأحدٍ بعدَ عادٍ وثمودَ والعمالقة والكَنْعانيِّين مثلُ أيدِنا وأسْرنا .

ولو أن خيولَ الأرض وفُرسان جميعِ الأطراف جُمعوا في حَلْبةٍ واحدة ، لكُنّا أكثرَ في العيون ، وأهْوَلَ في الصُّدور .

ومتى رأيتَ مَواكبَنا وفُرساننا ، وبُنودنا التي لا يحملها غيرُنا ، علِمتَ أننا لم نُخلق إلاّ لقَلْب الدُّول ، وطاعة الخُلفاء ، وتأييد السلطان .

ولو أنّ أهلَ التبت ورجالَ الزابج ، وفُرسان الهند ، وحَلْبة الرُّوم ، هجم عليهم هاشم بن أشتا خنج لما امتنعوا من طَرْح السِّلاح والهرب في البلاد .

ونحنُ أصحابُ اللِّحَى وأرباب النُّهى ، وأهلُ الحلم والحِجَا ، وأهلُ الثَّخانة في الرأي ، والبُعد من الطَّيش . ولسنا كجُنْد الشّام المتعرِّضين للحَرَم ، والمتهكين لكلِّ مَحْرَم .

ونحن ناسٌ لنا أمانةٌ وفينا عِفّة . ونحن نجمع بين النَّزاهة والقَناعة والصَّبرِ على الخدمة ، والتجمير عند بعد الشُّقّة . ولنا الطُّبول المَهُولة العِظام والبُنود ، ونحن أصحاب التجافيف والأجراس ، والبازيكند واللُّبود الطِّوال ، والأغماد المعقّفة والشَّوارب المُعقربة ، والقلانس الشاشيّة ، والخيول الشهرية ، والكافركوبات والطَّبَرْزينات [في الأكفّ] ، والخناجر في الأوساط . ولنا حُسْنُ الجلسة على ظهور الخيل . ولنا الأصواتُ التي تُسقِط منها الحَبالى .

وليس في الأرض صِناعةٌ غريبةٌ من أدبٍ وحكمة ، وحسابٍ وهندسة ،

وإيقاع وصَنعة ، وفِقهٍ ورواية ، نَظَرتْ فيها الخراسانية إلاّ فَرَعت فيهـا الرُّؤسـاء ، وبزَّت فيها العلماء .

ولنا صَنعة السِّلاح من لِبْد وركاب ودِرع . ولنا ممـا جعلناه ريـاضة وتمـريناً ، وإرهـاصاً للحـرب ، وتثقيفاً ودُربةً للمجاولـة والمُشاولـة ، [و] للكرِّ بعـد الكرِّ : مثل الدَّبُّوق ، والنزو على الخيل صغاراً ، ومثل الطَّبطاب والصَّوالجةِ الكبـار ، ثم رمي المجثْمة ، والبُرجاس والطائر الخطّاف .

فنحن أحقُّ بالأَثَرةِ ، وأولى بشرف المنزلة .

[٨٠ ـ مفاخر العرب]

ثم قلت : وزعم أنَّ القُـربـة تُسْتَحَقُّ بـالأسبـاب الثـابتـة ، وبـالأرحـام الشابكة ، وبالقِدمة ، والطاعة للآباء والعشيرة ، وبالشكر النافع ، والمديح الكـافي بـالشِّعر الموزون الذي يبقى بقاءالدهـر ، ويلوح ما لاحَ نجم ، ويُنْشَد مـا أُهِـلَّ بـالحج ، ومـا هَبّت الصَّبا ، ومـا كـان للزَّيت عـاصر ؛ وبـالكـلام المنثـور والقـول المأثور . أو بصفـة مخرج الـدولة والاحتجـاج للدعوة ، وتقييد المآثـر ، إذْ لم يكن [ذلـك من] عادة العجم ، ولا كـان يُحفظ ذلك معروفاً لسوى العـرب . ونحن نرتبطها بالشعر المقفَّى ، ونصلها بحفظ الأُمِّيِّين . [الذين لا يتكلون على الكتـب المـدوَّنة ، والخـطوط المطرَّسـة . ونحن أصحـاب التفـاخُـر والتنافـر ، والتنـازع في الشَّـرف ، والتحاكم إلى كـلِّ حكم مُقنِع وكـاهنٍ سجاع . ولنا التعايُـر بـالمثـالب ، والتفاخُر بالمناقب . ونحن أحفظ لأنسابنا ، وأرعى لحقوقنا وتقييـدها أيضاً بالمنثور المرسَل ، بعـد الموزون المعـدَّل ، بلـسـانٍ أمضى من السِّنـان ، وأرهفَ من السَّيف الحُسام ، حتى نذكِّرهم ما قد درس رسْمه ، وعفا أثره .

وبين القتال من جهـة الرغبـة والرهبـة فرق ، وليس المُعرق في الخفاظ كمن هذا فيه حادث . وهذا بابٌ يتقدَّم فيه التالد القديمُ الطارفَ الحديثَ .

وطُلّاب الطوائل رجلان : سجستاني وأعرابيّ . وهل أكثر النقباء إلاّ من صميم العرب ، ومن صَلية هذا النَّسب ، كأبي عبد الحميد قَحطَبة بن شبيب الطائي ، وأبي محمد سليمان بن كثير الخزاعي ، وأبي نصر مالك بن الهيثم الخزاعي ، وأبي داود خالد بن إبراهيم الذُّهلي ، وكأبي عمرو لاهز بن قريظ المَرَئيّ ، وأبي عتيبة موسى بن كعب المرئيّ ، وأبي سهل القاسم بن مجاشع المزني ، ومن كان يجري مجرى النُّقباء ولم يدخل فيها ، مثل مالك بن الطواف المُزَنيّ .

وبعد فمن هذا الذي باشر قتل مروان ، ومن هزمَ ابن هبيرة ، ومن قتل ابن ضُبارة ، ومن قتل نُباتة بن حنظلة ، إلاّ عَرَبُ الدّعوة ، والصَّميمُ من أهل الدولة ؟! ومن فتح السِّند إلا موسى بن كعب ، ومن فتح إفريقيَّة إلاّ محمد بن الأشعث ؟!

[٩ ـ مفاخر الموالي]

وقلت : وقال : وتقول الموالي : لنا النصيحة الخالصة ، والمحبة الراسخة ، ونحن موضع الثقة عند الشدّة . وعلل المولى من تحتُ موجبة لمحبّة المولى من فوق ، لأنّ شرف مولاه راجعٌ إليه ، وكرمه زائد في كرمه ، وخموله مُسقطٌ لقدره . وبودّه أنّ خصال الكرام كلّها اجتمعت فيه ؛ لأنّه كلّما كان مولاه أكبر وأشرف وأظهر ، كان هو بها أشرفَ وأنبل . ومولاك أسلم لك صدراً ، وأردُّ ضميراً ، وأقلّ حسداً .

وبعدُ فالولاءُ لحمة كلحمة النَّسب ، فقد صار لنا النسب الذي يصوِّبه العربيّ ، ولنا الأصل الذي يفتخر به العجمي .

قال : والصَّبر ضروب ، فأكرمها كلها الصَّبر على إفشاء السر . وللمولى في هذه المكرمة ما ليس لأحد .

ونحن أخصُّ مدخلاً ، وألطف في الخدمة مسلكاً . ولنا مع الطاعة والخدمة

والاخلاص وحُسن النيّة ، خدمة الأبناء للآباء ، والآباءِ للأجداد ، وهم بمواليهم آنس ، وبناحيتهم أوثق ، وبكفايتهم أسَرّ .

وقد كان المنصور ، ومحمد بن علي ، وعلي بن عبد الله ، يخصُّون مواليهم بالمواكلة والبسط والإيناس ، لا يُبهرجون الأسْوَدَ لسواده ، ولا الذميم لدمامته ، ولا الصناعة الدنيئة لدناءتها . ويوصون بحفظهم أكابرَ أولادهم ، ويجعلون لكثير من موتاهم الصلاةَ على جنائزهم ، وذلك بحضرة من العمومة وبني الأعمام والأخوة .

ويتذاكرون إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثةَ مولاه ، حينَ عقدَ له يومَ مؤتة على جِلّة بني هاشم ، وجَعَله أميرَ كلِّ بلدةٍ يطؤها .

ويتذاكرون حبّه لأسامة بن زيد ، وهو الحِبُّ ابنُ الحب . وعقد له على عظماء المهاجرين وأكابر الأنصار .

ويتذاكرون صنيعه بسائر مواليه ، كأبي أنسة ، وشُقران ، وفلان وفلان .

قالوا : ولنا من رؤوس النقباء أبو منصور مولى خزاعة ، وأبو الحكم عيسى بن أعْيَنَ مولى خزاعة ، وأبو النجم عمران بن إسماعيل مولى آل أبي مُعَيط . فلنا مناقب الخُراسانية ، ولنا مناقب الموالي في هذه الدعوة ، ونحن منهم واليهم ، ومن أنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلمٌ ولا ينكره مؤمن ، خدمْناهم كباراً وحملناهم على عواتقنا صغاراً . هذا مع حقِّ الرَّضاع والخؤولة ، والنشوء في الكُتّاب ، والتقلّب في تلك العِراص التي لم يبلغْها إلاّ كلُّ سعيدِ الجَدّ ، وجيهٍ في الملوك . فقد شاركْنا العربيُّ في فخرِه ، والخراسانيُّ في مجده ، والبَنَويُّ في فضله ، ثم تفرَّدْنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سَبقونا إليه .

قالوا : ونحن أشكل بالرعيّة ، وأقرب إلى طِباع الدَّهماء ، وهم بنا آنس وإلينا أسكن ، وإلى لقائنا أحنُّ ؛ ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف ، وبهم أشْبَه . فمَنْ أحقُّ بالأثرة ، وأولى بحُسن المنزلة ممّن هذه الخصال له ، وهذه الخلالُ فيه .

[١٠ ـ مفاخر البنوي]

وقلت وذكرت أن البَنَويَّ قال :

أنا أصلي خراسان ، وهي مَخرج الدَّولة ومَطلَع الدَّعوة ؛ ومنها نَجَم هذا القرن ، وصبأ هذا الناب ، وتفجَّر هذا اليَنبوع ، واستفاض هذا البحر ، حتى ضَرب الحقُّ بجرانه ، وطبَّق الأفاقَ بضيائه ، فأبرأ من السُّقم القديم ، وشفى من الداء العُضال ، وأغنى من العَيْلة ، وبصَّر من العمى

قال : وفرعي بغدادُ ، وهي مستقرُّ الخلافة ، والقرار بعد الحَوْلة ، وفيها بقيَّة رجال الدعوة ، وابناء الشِّيعة ، وهي خُراسانُ العراق ؛ وبيت الخلافة ، وموضع المادَّة .

قال : وأنا أعْرقُ في هذا الأمر من أبي ، وأكثر تردداً فيه من جدِّي ، وأحقُّ في هذا الفضل من المولى والعربيّ . ولنا بعدُ في انفسنا ما لا يُنكر من الصبر تحت ظِلال السُّيوف القصار والرِّماح الطوال . [ولنا معانقة الأبطال عند تحطُّم القنا وانقطاع الصفائح . ولنا المواجأة بالسكاكين ، وتلقي الخناجر بالعيون ، ونحن حماة المستلحَم ، وأبناء المَضايق . ونحن أهل الثبات عند الجولة ، والمعرفة عند الحَيْرة ، وأصحاب المشهَّرات ، وزينةُ العساكر وحُلَى الجيوش ، ومَن يمشي في الرُّمح ، ويختال بين الصَّفَّين . ونحن اصحاب الفتك والإقدام ، ولنا بعدُ التسلُّق ، ونقْب المدُن ، والتقحُّم على ظُبات السُّيوف وأطراف الرِّماح ، ورضخ الجندل ، وهشم العَمد ، والصبرُ على الجراح وعلى جرِّ السِّلاح إذا طار قلبُ الأعرابيّ ، وساء ظنُّ الخُراساني . ثم الصَّبرُ تحت العقوبة ، والاحتجاج عند المساءلة ، واجتماع العقل ، وصحَّة الطَّرف ، وثباتُ القدمين ، وقلَّة التكفّي بحبل العُقابين ، والبعد من الإقرار ، وقلَّة الخضوع للدهر والخضوع عند جفوة الزّوار وجفاء الأقارب والإخوان .

ولنا القتالُ عند أبواب الخنادق ، ورؤوس القناطر . ونحن الموتُ الأحمر

عند أبواب النُّقَب . ولنا المواجأة في الأزقّة ، والصّبر على قتال السُّجون . فَسَلْ عن ذلك الخُلَيدية ، والكتفية ، والبلاليّة ، والخريبية . ونحن أصحاب المكابدات وأرباب البَيات ، وقتل الناس جهاراً في الأسواق والطُّرقات .

ونحن نجمع بين السُّلّة والمزاحفة . ونحن أصحاب القنا الطِّوال ما كُنّا رَجّالة ، والمطارِدِ القصار ما كُنّا فُرسانا . فإن صرنا كُمُناً فالحتف القاضي ، والسمُّ الذُّعاف . وإن كنّا طلائع فكلُّنا بقوم مقام أمير الجيش . نقاتل بالليل كما نقاتل بالنهار، ونقاتل في الماء كما نقاتل على الأرض ، ونقاتل في القرية كما نقاتل في المحلة .

ونحن أفتك وأخشب ، ونحن أقطع للطريق وأذكر في الثُّغور ، مع حُسن القُدود وجَودة الخطر ومقادير اللُّحى ، وحُسن العِمَّة ، والنفس المُرّة . وأصحابُ الباطل والفتوّة ، ثم الخطّ والكتابة ، والفقه والرُّواية .

ولنا بغداد باسرها، تسكن ما سكنّا، وتتحرّك ما تحرّكنا. والدُّنيا كلها معلقة بها ، وصائرة الى معناها . فإذا كان هذا أمرها وقدرها فجميع الدُّنيا تبعٌ لها] . وكذلك أهلُها لأهلها ، وفُتّاكها لفتّاكها ، وخُلاّعها لخُلاّعها ، ورؤساؤها لرؤسائها ، وصلحاؤها لصلحائها .

ونحن بعدُ تربية الخلفاء ، وجيران الوُزراء ،وُلدنا في أفنية مُلوكنا ، ونحن أجنحةُ خلفائنا ؛ فأخذنا بآثارهم واحتذينا على مثالهم . فلسنا نَعرف سواهم ، ولا نُعرف بغيرهم ، ولا يطمع فينا أحدٌ قطُّ من خُطّاب مُلكهم ، وممن يترشّح للاعتراض عليهم . فمَنْ أحقُّ بالأثرة ، وأولى بالقُرب في المنزلة ممن هذه الخصالُ فيه ، وهذه الخلالُ له .

[١١ ـ الغاية من وضع الكتاب]

إنْ ذهبنا حفظك الله بِعقب هذه الاحتجاجات ، وعند مقطع هذه

الاستدلالات ، نستعمل هذه المعارضة بمناقب الأتراك ، والموازنة بين خصالهم وخصال كلِّ صنف من هذه الأصناف ، سلكنا في هذا الكتاب سبيل أصحاب الخصومات في كُتُبهم ،وطريق أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم .

وكتابُنا هذا إنّما تكلّفناه لنؤلّف بين قلوبهم التي كانت مختلفة ، ولنزيد الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولنُخبِر عن اتّفاق أسبابهم لتجتمع كلمتُهم ، ولتسلم صدورهم ، وليعرف من كان لا يعرف منهم موضعَ التفاوُت في النسب ، وكم مقدارُ الخلاف في الحسب ، فلا يُغيِّر بعضهم مغيِّر ، ولا يفسدَهُ عدوٌّ بأباطيلَ مموّهة وشُبها مزوَّرة ؛ فإنَّ المنافق العليم ، والعدوَّ ذا الكيد العظيم ، قد يصوِّر لهم الباطل في صورة الحقّ ، ويُلبِس الاضاعة ثياب الحَزْم . إلا أنّا على حال سنذكر جُملاً من أحاديثَ رويناها ووعيناها ، وأمورٍ رأيناها وشاهدناها ، وفضائل تلقّفْنَاها من أفواه الرجال وسمعناها .

وسنذكر جميع ما في هذه الأصناف من الآلات والأدوات ، ثم ننظر أيُّهم لها أشدُّ استعمالاً ، وبها أشدُّ استقلالاً ، ومَن أنْقَبُ كَيساً وأفتح عيناً وأذكى يقيناً، وابعد غوراً وأجمع امراً، واعمُّ خواطر واكثر غرائبَ، وأبدع طريقاً، وأدْوَمُ نفعاً في الحروب ؛ واضْرَى وادربُ دُربةً ، واغمضُ مكيدةً ، واشدُّ احتراساً والطفُ احتيالاً ؛ حتّى يكون الخيار في يد الناظر المتصفّح لمعانيه ، والمقلّب لوجُوهه ، والمفكّر في أبوابه ، والمقابِل بين أوّله وآخره ، فلا نكون نحن انتحلنا شيئاً دون شيء ، وتقلّدنا تفضيلَ بعضٍ على بعض ، بل [لعلّنا أن لا] نُخبّر عن خاصّة ما عِندنا بحرف واحدٍ .

فإذا دبّرنا كتابنا هذا التدبير ، وكان موضوعه على هذه الصّفة ، كان أبعد له من مذاهبِ الجدال والمِراء ، واستعمالِ الهوى .

وقد ظنَّ ناسٌ أنَّ أسماءَ أصناف الأجناس كما اختلفت في الصُّورة والخطِّ والهجاء ، أن حقائقها ومعانيها على حسب ذلك . وليس الأمرُ على حسب ما توهَّمه ؛ الا ترى أنَّ اسم الشَّاكريَّة وإن خالفَ في الصُّورة والهجاءِ اسم

الجُنْد ، فإنَّ المعنى فيهما ليس ببعيدٍ ؛ لأنَّهم يرجعون إلى معنىً واحد وعمل واحد . والذي يرجعون إليه طاعةُ الخلفاء ، وتأييد السلطان .

وإذا كان المولى منقولاً الى العرب في أكثر المعاني ، ومجعولاً منهم في عامَّة الأسباب ، لم يكن ذلك بأعجبَ ممَّنْ جَعَلَ الخالَ والداً ، والحليف من الصَّميم ، وابنَ الأخت من القوم .

وقد جُعِلَ إبن الملاعَنة المولودُ على فراشِ البعل منسوباً الى أمّه .

وقد جعلوا اسماعيلَ وهو ابن عجميَّين عربيّاً ؛ لأنَّ الله تعالى فَتق لهاته بالعربيَّة المُبينة على غير التلقين والترتيب ، ثمَّ فطره على الفصاحة العجيبة على غير النشْو والتَّقدير ، وسلخ طِباعه من طبائع العجم ، ونقلَ إلى بدنه تلك الأجزاء ، [وركّبه اختراعاً] على ذلك التركيب ، وسوَّاه تلك التسوية ، وصاغَه تلك الصِّياغة ، ثم حباهُ من طبائعهم ومنحه من أخلاقهم وشمائلهم ، وطبَعَه من كرمهم وأنفَتِهم وهممهم على أكرمها وأمكنها ، وأشرفها وأعلاها ، وجعَلَ ذلك برهاناً على رسالته ، ودليلاً على نبوَّته ؛ فكان أحقَّ بذلك النَّسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب .

وكما جُعِل ابراهيمُ أباً لمن لم يلده ، فالبَنَوِيُّ خُراسانيٌّ من جهة الولادة ، والمولى عربيٌّ من جُهة المدَّعى والعاقلة . وإنْ أحاط علمنا بأنَّ زَيداً لم يخلق من نَجْل عمرو إلاَّ عِهاراً لنفيناه عنه ، وإن وثِقْنا أنَّه لم يخلق من صُلبه .

وكما جعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم أزواجه أمَّهات المؤمنين وهنَّ لم يلدنَهم ولا أرضعنَهم ، وفي بعض القراءات : (وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ) ، على قوله : ﴿ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ ﴾ . وجعل المرأة من جهة الرَّضاع أمّاً ، وجعل [امرأة] البعل أمّ ولد البعل من غيرها ، [وجعلَ] الرابَّ والداً ، وجعل العمُّ أباً [في كتاب الله] . وهم عبيده لا يتقلَّبون إلاَّ فيما قلَّبهم فيه . وله أن يجعل من عباده من شاء عربيّاً ومن شاء عجميّاً ، ومن شاء قرشيّاً ، ومن شاء زِنجيّاً ؛ كما له أن يجعل من شاء ذكراً ومن شاء أنثى ؛

[ومن شاء خنثى] ، ومن شاء أفردَه من ذلك فجعله لا ذكراً ولا أنثى ولا خُنثى .

وكذلك خلق الملائكة وهم أكرمُ على الله من جميع الخليقة . وخلقَ آدمَ فلم يجعل له أباً ولا أمّاً ، وخلقه من طين ونسبه اليه ، وخلق حوّاء من ضِلع آدمَ وجعلها لهُ زوجاً وسَكناً . وخلق عيسى من غير ذكر ونسبه إلى أُمّه التي خلقه منها . وخلق الجانَّ من نار السَّموم ، وآدمَ من طينٍ ، وعيسى من غير نطفة . وخلق السَّماءَ من دُخان ، والأرض من الماء ، وخلق اسحاق من عاقر . وأنطق عيسى في المَهْد ، وأنطق يحيى بالحكمة وهو صغير ، وعلّمَ سليمانَ منطِق الطَّير ، وكلام النّمل ، وعلّم الحَفَظة من الملائكة جميعَ الألسنة حتّى كتبوا بكلِّ خطّ ، ونطقوا بكلِّ لسان . وأنطق ذئبَ أُهبانَ بن أوس .

والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنّة ، وكذلك أطفالهم والمجانينُ [منهم] ، يتكلّمون ساعة يدخلون الجنة بلسانِ أهل الجنّة ، على غير الترتيب والتنزيل ، والتعليم على طول الأيام والتأتين . فكيف يتعجّب الجاهلون من [نطق] اسماعيل بالعربية على غير تعليم الآباء ، وتأديب الحواضن ؟!

وهذه المسألة ربَّما سأل عنها بعضُ القحطانية ، ممن لا علم له ، بعضَ العدنانية ، وهي على القحطانيِّ أشدُّ . فأمّا جواب العدنانيِّ فليسَ النّظام سهلَ المخرج ، قريبُ المعنى ؛ لأنَّ بني قحطان لا يدَّعون لقحطانَ نُبوّة فيعطيه الله مثلَ هذه الأعجوبة .

وما الذي قَسَم الله ـ عزَّ اسمُه ـ بين الناس من ذلك ، إلَّا كما صنع في طينة الأرض ، فجعل بعضَها حجراً ، وبعض الحجر ياقوتاً ، وبعضَه ذهباً ، وبعضه نُحاساً ، وبعضه رَصاصاً ، وبعضه حديداً ، وبعضه تراباً ، وبعضه فَخَّاراً . وكذلك الزّاج ، والمَغْرة ، والزّرنيخ ، والمَرْتك ، والكبريت ، والقار والتُّوتيا ، والنوشادُر ، والمرقَشيثا ، والمِغناطيس .

ومن يُحصي عدداً أجزاء الأرض ، وأصناف الفلزّ ؟!

وإذا كـان الأمر عـلى ما وصَفْنا فالبَنـويُّ خراسـانيٌّ . وإذا كان الخـرسـانيُّ مولىً ، والمولَى عربيٌّ ـ فقد صار الخرسانيُّ والبَنَويُّ والمولى والعربيُّ واحداً .

وأدنى ذلك أن يكـون الذي معهم من خصـال الوِفـاق غـامـراً مـا معهم من خصـال الخـلاف ، بـل هم في معـظم الأمـر وفي كُبْـر الشّـأن وعمـود النَّسب متَّفقـون . والأتراكُ خراسانيةٌ وموالي الخُلفـاء قُصـرةٌ ، فقـد صـار التـركيُّ الى الجميع راجعاً ، وصار شرفُه إلى شرفهم زائداً .

وإذا عُـرف سـاثـرُ ذلـك ســامحت النُّفـوس ، وذهب التَّعقيـد ، ومـات الضِّغن ، وانقـطع سبب الاستثقال ؛ فلم يبقَ إلاَّ التحـاسدُ والتَّنـافسُ الـذي لا يزال يكون بين المتقاربَين في القرابة وفي المجاورة .

عـلى أنَّ التَّوازُرَ والتسـالُم في السرابـات وفي بني الأعمامِ والعشـائر ، أفشى وأعمُّ من البُعداء .

ولخَوْفِ التَّخـاذل وحبِّ التنـاصُر ، والحـاجـةِ إلى التَّعـاون ـ انضمَّ بعضُ القبـائـل في البـوادي الى بعضٍ ، ينـزلـون معـاً ويَـظْعَنـون معـاً . ومن فـارق أصحابه أقـلّ ، [و] من نَصر ابنَ عمِّه أثـر . ومن اغتبط بنعمته وعُنِيَ ببقـاءهـا والزيـادة فيهـا اكثر ممَّن بَغَـاها الغـوائل ، وطلبَ انقـطاعَها وزوالَهـا . ولا بدَّ في أضعاف ذلك من بعض التَّنافُس والتخاذُل ، إلاَّ أنَّ ذلك قليلٌ من كثير .

وليس يجـوز أن تصفُوَ الـدُّنيا وتَنْقَى من الفســاد والمكروه حتَّى يموت جميعُ الخـلائق ، وتستوي لأهلهـا ، وتتمهَّد لسكَّـانها على مـا يشتهـون ويهـوَوْن ؛ لأن ذلك من صفة دار الجزاء ، وليس كذلك صفةُ دارِ العمل .

[١٢ ـ موضوع الكتاب]

هذا كتاب كنتُ كتبتُه أيّام المعتصم بالله ، رضي الله عنه ، فلم يصل إليه ، لأسباب يطول شرحها ، فلذلك لم أعرض للإخبار عنها . وأحببْتُ ان يكون كتاباً قَصْداً ، ومذهباً عَدْلاً ، ولا يكون كتاب إسرافٍ في مديح قوم ، وإغراقٍ في هجاء آخرين ، وإن كان الكتابُ كذلك شابَهُ الكذب ، وخالطه التزيُّد ، وبُني أساسه على التكلُّف ، وخرج كلامُه مَخرجَ الاستكراه والتَّدليق .

وأنفعُ المدائح للمادح واجداها على الممدوح ، وأبقاها أثراً وأحسنُها ذكراً : أنْ يكون المديحُ صِدقاً ، وللظّاهر من حَالِ الممدوح موافقاً ، وبه لائقاً ، حتّى لا يكونَ من المعبِّر عنه والواصف [له] إلاّ الإشارةَ اليه ، والتنبيهُ عليه .

وأنا أقول : إن كان لا يمكن ذلك في مناقب الأتراك إلاّ بذكر مثالب سائر الأجناد ، فترْكُ ذكر الجميع أصوب ، والاضرابُ عن [هذا الكتاب أحزم ، وذكر الكثير من] هذه الأصناف بالجميل ، لا يقوم بالقليل من ذِكر بعضِهم بالقبيح ، لأنّ ذِكر الأكثر بالجميل نافلةٌ ، وبابٌ من التطوُّع ، وذِكرَ الأقلّ بالقبيح معصية ، وبابٌ من ترك الواجب . وقليلُ الفريضة أجدى علينا من كثير التطوُّع .

ولكلٍّ نصيبٌ من المساوىء ومقدارٌ من الذُّنوب ؛ وإنّما يتفاضل الناسُ بكثرة المحاسن وقلّة المساوي . فأمّا الاشتمال على جميع المحاسن ، والسّلامةُ من جميع المساوِيء دقيقها وجليلها ، وظاهِرها وخفيِّها ، فهذا لا يُعرف .

وقد قال النابغة :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمّه على شَعَثٍ ، أيُّ الرِّجالِ المهذَّبُ

وقال حُريش السّعدي :

أخ لي كـأيّـام الحـيـاةِ إخـاؤه تَـلوَّنُ ألـوانـاً عـليَّ خـطوبهـا
إذا عِبت منـه خَـلّةً فـتـركتُـه دعـتني إلـيـه خَـلّةٌ لا أعـيـبهـا

وقال بشّار :

إذا كنتَ في كـلِّ الأمـور معـاتبـاً خليلَكَ لم تَلقَ الـذي لا تُعـاتِبـهْ
فعِشْ واحـداً أو صِلْ أخـاكَ فإنّـه مُـقـارِفُ ذنـبٍ مَـرّةً ومُجـانِـبُـه
إذا أنتَ لم تشربْ مراراً على القذى ظَمِئتَ وأيُّ الناس تَصفو مشاربُه

وقال مطيع بن إياس اللَّيثيّ :

ولئـن كـنـتَ لا تـصـاحِـبُ الّا صاحباً لا تزِلُّ ، ما عاشَ ، نَعلُه
لم تجِـدْه ولـو جَـهَـدتَ وأنّى بـالـذي لا يكـون يُـوجَـد مثله

وقال محمد بن سعيد ، وهو رجل من الجُنْد :

سـأشكـر عَمـراً إن تـراخَتْ مَنيّتي أيـاديَ لم تُمـنَـن وإنْ هـي جَـلَّتِ
فتىً غير محجوبِ الغِنى عن صـديقه ولا مُظهِر الشّكوى إذا النعـل زَلَّتِ
رأى خَلّتي من حيثُ يَخفَى مكـانُها فكـانت قَـذى عينَيـهِ حتّى تَجلَّتِ

فـإذا كـان الخلطاء من جُمهـور النـاس ، وأصحـابُ المعـايش من دَهْماءِ الجماعة ، يرون ذلك واجباً وتدبيراً في التعامل ، على ما هم فيه من مشاركة الخطأ للصواب ، وامتزاج الضّعف بالقوّة ، فلسنا نشكُّ أنّ الامامَ الأكبرَ والرّئيس الأعظم ، مع الأعراق الكريمة والأخلاق الرفيعة ، والتّمام في الحلم والعلم ، والكمال في الحزم والعَزْم ، مع التمكين والقُدرة ، والفضيلة والرِّياسة [والسِّيادة] ، والخصائص التي معه من التّوفيق والعِصمة ، والتأييد وحسن المعونة ، أنّ الله جلّ اسمُه لم يكن ليجلّله باسم الخلافة ، ويحبوه بتاج الإمامة ، وبأعظم نعمةٍ وأسبغها ، وأفضل كرامةٍ وأسناها ، ثم وصَلَ طاعته بطاعته ، ومعصيته بمعصيته ، إلاّ ومعه من الحلم في موضع الحلم ، والعفو في موضع العفو ، والتّغافل في موضع التّغافل ، ما لا يبلُغه فضلُ ذي فضل ،

ولا حِلْمِ ذي حلم .

[١٣ ـ مناسبة تأليف الكتاب]

ونحن قائلون ، ولا حولَ ولا قوّة إلاّ بالله ، فيما انتهى الينا في أمر الأتراك :

زعم محمّدُ بن الجهم ، وثمامةُ بن اشرسَ ، والقاسمُ بن سيّار ، في جماعةٍ ممن يَغشى دارَ الخلافة ، وهي دار العامّة ، قالوا جميعاً :

بينا حُميد بن عبد الحميد جالساً ومعه بخشاد الصُّغديّ ، وأبو شجاعٍ [شبيب] بن بُخار اخداي البَلْخيّ ، ويحيى بن معاذ ، ورجال من المعدودين المتقدّمين في العلم بالحرب [من أصحاب التجارب والمراس ، وطول المعالجة والمعاناة] في صناعات الحرب ، إذ خرج رسولُ المأمون فقال لهم : نقول لكم متفرّقين ومجتمعين : ليكتب كلُّ رجلٍ منكم دعواه وحجته ، وليقُلْ أيُّما أحبُّ الى [كلٍّ] قائدٍ منكم إذا كان في عُدّته من صحبه وثقاته : أنْ يَلقى مائةَ تركيٍّ أو مائةَ خارجيٍّ ؟ فقال القوم جميعاً : [لأنْ] نلقى مائة تركيٍّ أحبُّ إلينا من أن نَلقى مائة خارجيٍّ ! وحُميدٌ ساكت .

فلما فرغ القومُ [جميعاً] من حُججهم ، قال الرّسولُ : قد قال القوم فقُل واكتبْ قولك ، وليكن حجّة لك أو عليك . قال : بل ألقى مائة خارجيٌّ أحبُّ إليّ ؛ لأنّي وجدت الخصالَ التي يَفضُل بها الخارجيُّ جمعَ المقاتلة غير تامّة في الخارجيّ ، ووجدتُها تامّةً في التُّركي . فَفضْل التركيِّ على الخارجيّ بقَدْر فضل الخارجيِّ على سائر المقاتلة ، ثمّ بانَ التركيُّ عن الخارجيِّ بأمورٍ ليس فيها للخارجيِّ دعوى ولا متعلَّق . على أن هذه الأمورَ التي بان بها التركيُّ عن الخارجيّ ، أعظمُ خطراً وأكثر نفعاً ، ممّا شاركه الخارجيُّ في بعضها .

[١٤ ـ خصال الخوارج]

ثم قال حُميد : والخصال التي يَصُولُ بها الخارجيُّ على سائر الناس صِدق

الشّدّة عند أوّلِ وهلة ، وهي الدّفعة التي يَبلُغون بها ما أرادوا ، وينالون الذي أمّلوا .

والثانية : الصّبر على الخَبب وعلى طول السُّرى ، حتّى يُصبِح القومُ [الذين مَرقوا بهم] غارّين فيهجموا عليهم وهم بَسُوء ، ولهمّ على وضم ، يتعجّلونهم عن الرّويّة ، وعن ردّ النفس عن النّزوة والجولة ؛ لا يظنّون أنّ أحداً يقطع في ذلك المقدار من الزّمان ذلك المقدار من البلاد .

والثالثة : أنّ الخارجيّ موصوفٌ عند الناس بأنّه إن طَلَبَ أدرَك ، وإن طُلِبَ فات .

والرابعة : خِفّة الأزواد وقلّة الأمتعة ، وأنّها تَجنُب الخيلَ وتركبُ البغال ، وإن احتاجت أمسَتْ بأرضٍ وأصبحَتْ بأخرى ، وأنّهم قوم حين خَرجُوا لم يخلّفوا الأموالَ الكثيرة ، والجِنانَ الملتفّة ، والدّور المشيَّدة ، ولا ضِياعاً ولا مُستَغَلّات ، ولا جواريَ مطهَّمات ، و[أنهم] لا سَلَب لهم ولا مالَ معهم فيرغبَ الجُندُ في لقائهم ، وإنّما هم كالطّير لا تدّخر ولا تهتمّ لغَدٍ ، ولها في كلّ أرضٍ من المياه والأقوات ما تتبلّغ به ، وإن لم تجد ذلك في بعض البلاد فأجنحتُها تُقرِّب لها البعيد ، وتسهِّل لها الحزون . وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القِرَى والمَطعَم ، وإنْ تمنّع عليهم ففي بنات شَحّاج وبنات صَهّال ، وخفّةِ الأثقال على طُول الخَبَب ، ما يسهِّل أقواتها ، ويكثّر من أرزاقها .

والخامسة : أن الملوك إنْ أرسلوا إليهم اعدادهم ليكونوا في خفّة أوزارهم وأثقالهم ، وليقوَواعلى التنقّل كقوّتهم ، لم يقوَوْا عليهم ؛ لأن مائةً من الجند لا يقومون لمائة من الخوارج ؛ وإن كثّفوا الجيشَ بالجيش ، وضاعفوا العدد [بالعدد] ثقلوا عن طلبهم ، وعن الفَوْت إن طلبهم عدوُّهم . ومتى شاء الخارجيُّ أن يقرب منهم ليتطرّفهم أو ليصيب الغِرَّةَ منهم ، أو ليستلّبهم ، فَعَل ذلك ثقةً بأنّه يغنم عند الفرصة ورؤية العَورة ، ويمكنه الهربُ عند

الخوف . وإنْ شاءَ كبَسَهم ليقطع نظامَهم ، أو ليقتطِع القطعةَ منهم .

قال حُميد : فهذه هي مَفاخرُهم وخصالهم ، التي لها كره القوّاد لقاءَهم .

قال قاسم بن سيّار : وخَصلة أُخرى ، وهي التي رعبت القلوبَ وخَلَعتْها ، ونقضت العزائم وفسخَتْها ، وهو ما تسمع الأجنادُ ومقاتِلة العوامّ ، مِن ضرب المثل بالخوارج ، كقول الشاعر :

إذا ما البخيلُ والمحاذِر للقِرى رأى الضَّيفَ مثل الأزرقيّ المجفَّف

وكقول الآخر :

وقَلْبٍ وَدُّ حسالَ عن عهدهِ والسَّيفُ ينبو بيدِ الشّاري

وكقول الآخر :

لقاء الأُسدِ أهون من لِقاهُ إذا التحكيم يسهر بالأصيلِ

فهذه زيادة قاسم بن سيّار .

[١٥ ـ خصال الاتراك]

فأمّا حُميد فإنّه قال :

الشِّدَّةُ الأولى التركيُّ فيها أحد [أثراً ، وأجمع] أمراً ، وأحكم شأناً ؛ لأنَّ التركيَّ من أجْلِ أن تَصدُقَ شِدَّتُه ويتمكّن عزمُه ، ولا يكون مشترك العزم ولا منقسم الخواطر ، قد عوَّد برذونَه ألاّ ينثني وإنْ ثناه ، أن يملا فروجَه للأمر يديره مرّةً أو مرّتين ، وإلاّ فإنّه لا يدع سَنَنه ، ولا يقطع ركضه . وإنّما أراد التركيُّ أن يوئس نفسَه من البَدَوات ، ومن أن يعتريه التكذيبُ بعد الاعتزام ، لهَول [اللقا] ، وحبِّ الحياة ؛ لأنّه إذا علم أنه قد صبَّر برذونَه إلى هذه الغاية حتّى لا ينثنيَ ولا يُجيبه إلى التصرُّف معه إلاّ بأنْ يصنع شيئاً بين الصَّفّين فيه عطبه ، لم يُقدِم على الشِّدّة إلاّ بعد إحكام الأمر ، والبصيرة

بالعورة . وإنّما يريد أن يُشبِّه نفسه بالمُحرَج الذي إذا رأى أشدَّ القتال لم يَدعْ جُهداً ولم يدّخر حيلة ، ولينفي عن قلبه خواطرَ الفِرار ، ودواعي الرُّجوع .

وقال : الخارجيُّ عند الشِّدّة إنّما يعتمد على الطِّعان ، والأتراك تطعن طعنَ الخوارج . وإن شدَّ منهم ألفُ فارس فرموا رشْقاً واحداً صرعوا ألف فارس ، فما بقاءُ جيشٍ على هذا النَّوع من الشِّدَّة !

والخوارج والأعراب ليست لهم رِمايةٌ مذكورة على ظهور الخيل ، والتركيُّ يرمي الوحشَ والطَّير ، والبُرجاس ، والناسَ ، والمجَثَّمة ، والمُثُل الموضوعة ، ويرمي وقد ملأ فُروجَ دابّته مُدبِراً ومُقْبِلاً ، ويَمنةً ويَسرة ، وصُعُداً وسُفْلاً ، ويرمي بعشرة أسهم قبل أن يُفوِّق الخارجيُّ سهماً واحداً ، ويركض دابّته منحدراً من جَبَل ، أو مستفِلاً إلى بطن واد بأكثر مما يمكن الخارجيُّ على بَسيط الأرض .

وللتركيُّ أربعة أعين : عينان في وَجْهه ، وعينان في قفاه . وللخارجيُّ عينٌ في مُستدبَر الحرب ، وللخراسانيّ عينٌ في مُستقبل الحرب . فعيب الخراسانيّة أنّ لها جَولة عند أوّل الالتقاء ، وإن ركبوا [كُسْاهم] كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يثُوبون ، وذلك [بعد] الخِطار بالعسكر ، وإطماع العدوّ في الشِّدّة .

والخوارج إذا ولّوا فقد ولّوا وليس لهم بعد الفَرِّ كرّ ، إلاّ ما لا يُعَدّ . والتركيُّ ليست له جولةُ الخراسانيّ ، وإذا أدبَرَ فهو السّمُّ الناقع ، والحَتْف القاضي ؛ لأنه يصيب بسهمه وهو مدبرٌ كما يصيب به وهو مُقْبل ، ولا يُؤمَن وَهَقه ، ولا انتسافُ الفَرَس ، واختطافُ الفارس بتلك الرَّكضة .

ولم يُفلت من الوَهَق في جميع الدَّهر إلاّ المهلّب بن أبي صُفرة ، والحَريش هلال ، وعبّاد بن الحُصَين . وربّما رمي بالوهَق وله فيه تدبير آخر وإن لم يَجْنُب المرميُّ معه ، يوهم الجاهلَ أنّ ذلك إنما كان لخُرق التُّركي ، أو لحِذْق المرميّ .

قال : وهم علّموا الفرسان حمل قوسَين وثلاثة قِسِيّ ، ومن الأوتار على حسب ذلك .

قال : والتركيُّ في حال شدّته ، معه كل شيء يحتاج اليه لنفسه وسلاحه ودابّته وأداة دابّته . فأمّا الصّبر على الخَبَب وعلى مواصلة السّفر ، وعلى طُول السُّرى وقَطع البلاغ ، فعجيبٌ جداً .

فواحداً : أنّ فرسَ الخارجيّ لا يصبر صَبر بِرذَون التُّركي .

والخارجيّ لا يُحسن أن يعالج فرسَه إلاّ معالجة الفُرسان لخيولهم • والتُّركي أحذق من البيطار ، وأجود تقويماً لبِرْذونه على ما يريده من الرّاضة [وهو استنتجه] ، وهو ربّاه فِلوّا ، وتتبّعه إنْ سماه ، وإنْ ركَضَ ركض خلفه . وقد عوّده ذلك حتّى عرفه ، كما يعرف الفرس أقدِمْ ، والنّاقةحَلْ ، والجمل جاهِ ، والبغل عَدَسْ ، والحمار ساسا ، وكما يعرف المجنون لقبه والصبيُّ اسمه .

ولو حصّلت عُمر التركيّ وحَسبت أيامه لوجدتَ جلوسَه على ظهر دابّته اكثر من جلوسه على ظهر الأرض . والتركيُّ يركب فَحلاً أو رَمَكة ، ويخرج غازياً أو مسافراً ، أو متباعداً في طلب صيدٍ ، أو سبب من الأسباب ، فتتبعه الرَّمَكة وأفلاؤها ، إن أعياه اصطيادُ الناس اصطاد الوحش ، وإن أخفقَ منها أو احتاج الى طعام فصَدَ دابّةً من دوابه ، وإن عَطِش حَلب رَمَكة من رِماكه ، وإن أراح واحدةً تحته ركب أخرى من غير أن ينزل الى الأرض . وليس في الأرض أحدٌ إلاّ وبدنه ينتقض على إقتيات اللّحم وحدَه غيرُه ؛ وكذلك دابّته تكتفي بالعَنقَر والعُشب والشّجر ، لا يظلُّها من شمس ولا يكنُّها من برد .

قال : وأما الصّبر على الخَبَب فإنّ الثّغريِّين ، والفُرانقيِّين ، والخُصيان والخوارجَ ، لو اجتمعت قواهم في شخصٍ واحد لما وفَوْا بتركيٍّ واحد . والتركيُّ لا يبقى معه على طول الغاية إلاّ الصُّميمُ من دوابّه . [و] الذي يقتُله التركيُّ بإتعابه له ، وبنفيه عند غزاته ، هو الذي لا يَصبِر معه فرس

الخارجيّ ، ولا يبْقى معه كلُّ برذونٍ بُخاريّ . ولو ساير خارجيّاً لاستفرغ وُسْعَه قبل أن يبلغ الخارجيُّ عفوَه .

والتُركي هو الراعي ، وهو السائس وهو الرائض ، وهو النُخّاس ، وهو البَيطار ، وهو الفارس . والتركيُّ الواحدُ أمّةٌ على حِدة .

قال : وإذا سار التركيُّ في غير عَساكر التُرك ، فسار القومُ عَشْرَة أميالٍ سار عشرين ميلاً ؛ لأنه ينقطع عن العسكر يمنةً ويُسرع في ذُرى الجبال ، ويستبطن قُعور الأودية في طلب الصَّيد ؛ وهو في ذلك يرمي [كُلّ] ما دبّ ودَرَج ، وطارَ ووقع .

قال : والتركيُّ لم يَسِر في العساكر سيرَ النّاسِ قطُّ ، ولا سارَ مستقيماً قطُّ .

قالوا : وإذا طالت الدُّلجة واشتدَّ السير ، وبَعُد المنزل ، وانتصف النُّهار ، واشتدَّ التَّعب ، وشغل الناسَ الكَلالُ ، وصَمَت المتسايرون فلم ينطقوا ، وقطعهم ما هم فيه عن التَّشاغُل بالحديث ، وتَفَسّخ كلُّ شيءٍ من شدّة الحر ، وجمد كلُّ شيء من شدَّة البرد ، وتمنّى كلُّ جليدِ القوى على طُول السُّرى أنْ تُطوَى له الأرض ، وكلّما رأى خيالاً أو أبصر عَلماً سُرَّ به واستبشر ، وظنَّ أنه قد بلغ المنزل ؛ فإذا بلغه الفارس نزلَ وهو متفحّجٌ كأنّه صبيٌّ مَحقون ، يئنُّ أنينَ المريض ، ويستريح الى التثاؤب ، ويتداوى مما به بالتمطّي والتضجُّع . وترى التركيَّ في تلك الحال وقد سار ضعفَ ما ساروا وقد أتعب مَنكِبَيه كثرةُ النَّزْع ، يرى قُربَ المنزل عَيْراً أو ظبياً ، أو عَرَض له ثعلبٌ أو أرنب ، فيركضُ ركضَ مبتدىءٍ مستأنِف ، كأنَّ الذي سار ذلك السَّيرَ وتعب ذلك التَّعبَ غيرُه .

وإنْ بلغ الناسُ وادياً فازدحموا على مَسلكه أو [على] قنطرته ، بطن برذونَه فأقحمه ثم طَلَع من الجانب الآخرَ كأنّه كوكب . وإن انتهَوْا إلى عقبةٍ صعبةٍ تَرَك السَّنَنَ وذهب في الجبل صُعُداً ، ثم تدلّى من موضعٍ يعجز عنه

الوجِل ؛ وأنت تحسبه مخاطراً بنفسه ، للذي ترَى من مُطْلعه . ولو كان في كلّ ذلك مخاطراً لما دامت له السلامة مع تتابع ذلك منه .

قال : ويفخر الخارجيُّ بأنه إذا طَلب أدرَك ، وإذا طُلِب لم يُدرك . والتركيُّ ليس يُحوَج إلى أنْ يفوت ؛ لأنه لا يُطلب ولا يُرام . ومَن يروم [ما لا يُطمع فيه] ؟!

فهذا . على أنّا قد علمنا أنّ العلّة التي عمّت الخوارجَ بالنَّجدة استواءُ حالاتهم في الدِّيانة ، واعتقادُهم أنّ القتال دين ؛ لأنّنا حين وجدنا السِّجستانيَّ والخُراسانيَّ والجَزَريَّ واليماميَّ والمغربيَّ والعُمانيَّ ، والأزرقيَّ منهم والنَّجديَّ والإباضيَّ والصُّفْريَّ ، والمولى والعربيّ ، والعجميَّ والأعرابيّ ، والعَبيد والنِّساء ، والحائك والفَلّاح ، كلُّهم يقاتل مع اختلاف الأنساب وتباين البلدان ـ علمْنا أنّ الدِّيانة هي التي سوّت بينهم ، ووفّقت بينهم في ذلك . كما أنّ كلّ حجّام في الأرض من أيّ جنس كان ، ومن أي بلدٍ كان ، فهو يحبُّ النَّبيذ ، وكما أنّ أصحاب الخُلقان والسَّماكين والنَّخاسين والحاكة في كلّ بلد من كلّ جنس ، شِرَارُ خلق الله في المبايعة والمعاملة . فعلمنا بذلك أنّ ذلك خِلقةٌ في هذه الصناعات ، وبِنْيةٌ في هذه التِّجارات ، حين صاروا من بين جميع الناس كذلك .

قال : ورأينا التركيَّ في بلاده ليس يقاتل على دينٍ ولا على تأويل ، ولا على مُلك ولا على خراج ، ولا على عصبيّةٍ ولا على غَيرةٍ دونَ الحُرمة والمَحْرَم ، ولا على حَمِيّة ولا على عداوة ، ولا على وطنٍ ومنع دارٍ ولا مال ؛ وإنّما يقاتل على السَّلب والخِيارُ في يده . وليس يخاف الوعيدَ إن هرب ، ولا يرجو الوَعْدَ إنْ أبلى عذراً . وكذلك هم في بلادهم وغاراتهم وحروبهم . وهو الطالب غير المطلوب ، ومن كان كذلك فإنّما يأخذ العفو من قُوّته ، ولا يحتاج إلى [مجهوده] . ثم هو مع ذلك لا يقوم له شيءٌ ولا يَطمع فيه أحد ، فما ظنُّك بمن هذه صفتُه أنْ لو اضطرّه إحراجٌ أو غَيْرةٌ أو غَضَبٌ أو تديُّن ، أو

عَرَضَ له بعضُ ما يصحبُ المقاتِلَ المحامِيَ من العلل والأسباب .

قال : وقناة الخارجيّ طويلة صَمَّاء ، وقناة التُّركيّ مِطرَدٌ أجوف . والقُنِيُّ المجوَّفة القِصار أشدُّ طعنةً وأخفُّ في المحمل . والعجم تحمل القُنِيَّ الطُّوالَ للرُّجّالة ، وهي قُنِيّ الأبناء ، على أبواب الخنادق والمضايق . والأبناء في هذا الباب لا يجرُون مع الأتراك والخراسانيّة ؛ لأنَّ الغالبَ على الأبناء المطاعنةُ على أبواب الخنادق وفي المضايق ، وهؤلاء أصحابُ الخَيل والفرسانُ وعلى الخيل والفُرسانِ تدور الجُيوش ، لهم الكَرُّ والفرُّ . والفارس هو الذي يَطوي الجيش طيَّ السجلّ ، ويفرِّقهم تفريق الشعر . وليس يكون الكمينُ إلّا منهم ولا الطَّليعة ولا السَّاقة . وهم أصحابُ الأيَّام المذكورة والحروب الكبار والفُتوح العظام ، ولا تكون المقانب والكتائب إلّا منهم . ومنهم من يحمل البُنود والرَّايات ، والطُّبول والتجافيف والاجراس . وهم أصحاب الصَّهيل والقَتام ، وزَجْرِ الخيل ، وقعقعةِ الريح في الثِّياب والسِّلاح ووقع الحوافر ، والإدراك إذا طَلَبوا ، والغَوْث إذا طُلِبوا . ولم يجعل النبيُّ صلى الله عليه وسلم للفارس سهمين وللراجل من المقاتلة سهماً واحداً إلّا لتضاعيف الردّ في القتل والفُتوح ، والنُّهبة والمغانم .

ثم قال : ولعمري إنَّ للأبناء من القتال في السِّكك والسُّجون والمضايق ما ليس لغيرهم . ولكن الرجَّالة أبداً أتباعٌ ومأمورون ومنقادون ، وقائد الرَّجّالة لا يكون [إلّا] فارساً ، وقائد الفُرسان من الممتنع أن يكون راجلاً . ومَن تعوَّدَ الطِّعانَ والضَّرب والرميَ راكباً إن اضطُرَّ الى الطَّعن والضَّرب والرمي راجلاً كان على ذاك أدفع عن نفسه ، وأردَّ عن أصحابه ، من الراجل إذا احتاج أن يستعملَ سلاحَه فارساً . وعلى أنّه ما أكثرَ ما ينزلون ويقاتلون . وقد قال الشاعر :

لم يُطِيقوا أن ينزلوا ونَزَلْنا وأخو الحرب من أطاق النُّزولا

وقال الضَّبيّ :

* وعَلامَ أركبُه إذا لم أنزِلِ *

وقال آخر :

* فمعانقٌ ومنازِلُ *

وقال حُمَيد : وليس في الأرض قومٌ إلاّ والتّساندُ في الحروب ، والاشتراك في الرِّياسة ضارٌ لهم ، إلاّ الأتراك . على أنّ الأتراك لا يتساندون ولا يتشاركون ؛ وذلك أنّ الذي يُكره من المساندة والمشاركة اختلافُ الرأي ، والتنافُس في السرّ ، والتحاسد بين الأشكال ، والتواكل فيما بين المشتركين .

والأتراكُ إذا صافُوا جيشاً إن كان في القوم موضع عورةٍ فكلهم قد ابصرها وعَرَفها ؛ وإن لم تكن هناكِ عورةٌ ولم يكن فيهم مطمع ، وكان الرأيُ الانصرافَ ، فكلُهم قد رأى ذلك الرأي وعرفَ الصواب فيه . وخواطرهم واحدة ، ودواعيهم مستوية بإقبالهم معاً . وليس هم أصحاب تأويلات ولا أصحاب تفاخرٍ وتناشد ، وإنّما شأنهم إحكام أمرهم ؛ فالاختلاف يقلُّ بينهم .

وكانت الفُرس تعيب العرب إذا خرجوا إلى الحرب متساندين ، وكانت تقول : الاشتراك في الحرب وفي الزَّوجة وفي الإمْرة سواء .

وقال حُميد : فما ظنُّك بقومٍ إذا تسانَدُوا لم يضرّهم التَّساند ، فكيف يكونون إذا تحاسدوا .

فلما انتهى الخبر إلى المأمون قال : ليست بالتُّرك حاجةٌ الى حكم حاكم بعد حُمَيد ؛ فإنَّ حُميداً قد مارسَ الفريقين ، وحُميد خُراسانيٌّ وحُميد عربيٌّ ، فليس للتُّهمة عليه طريق .

قالوا : وأتى الخبرُ ذا اليمينين طاهرَ بن الحسين فقال : ما أحسنَ ما قال حُميد . أما إنه لم يقصرْ ولم يفرِّط .

فهذا قول الخليفة المأمون ، وحُكم حُميد ، وتصويبُ طاهرٍ .

وخبّرني رجلٌ من أهل خراسان أو من بني سَدوس قال : سمعت أبا البطّ يقول : ويلكم ، كيف أصنع بفارسٍ يملأ فروج دابّته منحدراً من جَبَل ، أو مُصْعِداً في مقطعٍ عقير ، ويمكنه على ظهر الفرس ما لا يمكن الرّقّاص الأُبليّ على ظهر الأرض .

قال : وقال سعيد بن عُقْبة بن سَلْمٍ الهُنائيّ ، وكان ذا رأيٍ في الحرب وابنَ ذي رأيٍ فيها : فَرقُ ما بيننا وبين الترك أن التُّرك لم تغزُ قوماً قطّ ، ولا صافَّت جيشاً ولا هجمتْ على عدوّ كانوا عرباً أو عجماً ، فأخرَجوا إليهم أعدادَهم ولَقُوهم بمثلهم . وليس غايتهم إلاّ أن ينقادوا ليكفُّوا عنهم بأسَهم ومَعرَّتهم ، ويصرفوا عنهم كيدهم . فإن هم امتنعوا من الصُّلح واعتزموا إلى الحرب فليس شأنهم والذي يدور عليه أمرهم إلاّ مَنع أنفسهم وتحصينَ عسكرهم ، والاحتراسَ منهم . فأمّا أن ترقى هِمَمُهم وتسموَ أنفسُهم إلى الاحتيال عليهم ، والتماس غِرّتهم ، فإنّ هذا شيءٌ لا يخطُر على بالٍ من يحاربهم .

ثم قال : وقد عرفتم حيلَهم في دخول المُدن من جهة حِيطانها المُصْمَتة العريضة ، وحيلتَهم في عبور نهر بَلْخ .

وسعيدٌ هذا هو الذي قال : إذا حاربتم وكنتم ثلاثةً فاجعلوا واحداً مدداً ، وآخرَ كميناً . وله كلامٌ في الحرب غير هذا كثير .

قال سعيد : وأخبرني أبي قال : شهدت أبا الخطّاب يزيد بن قتادة بن دعامة الفقيه ، وذكر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في التُّرك حيث قال : « عدوٌّ شديدٌ طلبُه ، قليلٌ سلبُه » ، فقال رجلٌ من العاليَة : نهى عمرُ أبا زُبيدٍ الطائيَّ عن وصف الأسد ، لأن ذلك مما يزيد في رُعب الجبان ، وفي هَول الجَنان ، ويُقلُّ من رَغَب الشُّجاع ، وقد وُصِف التُّرك بأشدَّ من وصف أبي زُبيدٍ الأسد .

وقال سعيد في حديثه يومئذ ، وقد قطعتْ شِرذِمةٌ منهم بلادَ أبي خزيمة - يُريدُ حَمزة بن أدرك الخارجيَّ - وما والى خرُاسان [في] بعض الأمر ، وحمزة في

مُعظم الناس ، فقال لأصحابه : افرِجوا لهم ما تركوكم ، ولا تتعرّضوا لهم ؛ فإنّه قد قيل : « تاركوهم ما تاركوكم » .

فهذا قول سعيد بن عقبة ورأيه وحديثه ؛ وهو عربيٌّ خراساني

وذكر يزيد بن مَزْيد الوقعة التي قتل فيها يوليا التركيُّ الوليدَ بن طريفٍ الخارجيّ ، فقال في بعض ما يصف من شأن التُرك : ليس لبدن التُركي على ظهر الدابّة ثِقل ، ولا لمشيه على الأرض وَقْع ، وإنّه ليَرى وهو مدبرٌ ما لا يرى الفارسُ منّا وهو مُقبل . وهو يرى الفارسَ منا صَيداً ويعدُّ نفسه فَهْداً ، ويُعدُّه ظبياً ويعدُّ نفسه كلباً . والله لو رُمِيَ به في قعر بئر مكتوفاً لما أعجزته الحيلة ؟ ولولا أنَّ أعمار عامّتهم تقصُر دون الجَبَل - يعني جَبَل حُلوان - ثم همُّوا بنا ، لألقَوا لنا شُغْلاً طويلاً .

وأنشد رجلٌ من أصحابه :

هَبِ الدنيا تُسَاقُ إليك عفواً ألَيس مصيرُ ذاكَ إلى زَوَالِ

قال : أمّا التُركي فَلأن يَنالَ الكَفَاف غَصباً أحبُّ إليه من ان ينالَ المُلْك عفواً . ولم يَتهنَّ تُركيٌّ بطعامٍ إلاّ أن يكون صيداً أو مغنماً ، ولا يُعَزُّ على ظهر دابّته طالباً كان أو مطلوباً .

وقال ثُمامة بن أشرس ، وكان مثلَ محمّد بن الجهم في كثرة ذِكره للتُرك . قال ثمامة : التركيُّ لا يخاف إلاّ مَخُوفاً ولا يطمع في غير مطمع ، ولا يكفُّه عن الطّلب إلاّ اليأسُ صِرفاً ، ولا يدع القليلَ حتى يصيب أكثرَ منه ، وان قدر أن يجمعَها لم يفرِّط في واحدٍ منها . والباب الذي لا يُحسنه لا يُحسن منه شيئاً ، والباب الذي يُحسنه قد أحكمه بأسره وأمرُه وخفيُّه عنده كظاهره ، ولا يتشاغل بشيءٍ ليس فيه شيء ، ولا على نفسه من شيء . فلولا أن يُجِمَّ نفسَه بالنّوم لما نام ، على إنَّ نومَه مشوبٌ باليَقظة ، ويقظته سليمة من الوَسْنة . ولو كان في شِقِّهم أنبياء ، وفي أرضهم حُكَماء ، وكانت هذه الخواطرُ قد مرّت على قلوبهم ، وقَرَعت أسماعَهم ، لأنسوك أدب البصريِّيْنَ ، وحِكمة اليونانيِّين ، وصَنعةَ أهلِ

الصِّين .

وقال ثمامة : عَرَض لنا في طريق خُراسانَ تركيٌّ ومعنا قائد يصولُ بنفسه ورجاله ، وبيننا وبين التركيِّ وادٍ ، فسأله أن يبارزه فارسٌ من القوم ، فأخرج له رجلاً لم أر قطُّ أكملَ منه ، ولا أحسنَ تماماً وقواماً منه ، فاحتال حتّى عبر إليهم الفارس ، فتجاوَلا ساعةً ، ولا نظنُّ إلاّ أنَّ صاحبنا يَفِي بأضعافه ، وهو في ذلك يتباعد عنّا . فبينا هما في ذلك إذْ ولّى عنه التُّركي كالهارب منه ، وفَعَل ذلك في موضعٍ ظنّنا أنَّ صاحبنا قد ظهر عليه ، وأتبعه الفارسُ لا نشكُّ إلاّ أنّه سيأتينا برأسه ، أو يأتينا به مجنوباً إلى فرسه ، [فلم نشعر] إلاّ وصاحبُنا قد أفلتَ عن فرسه وغاب عنه ، فنزل التركيُّ إليه فأخذ سَلَبه وقتلهُ ، ثم عارض فرسَهُ فجنبه إليه معه .

قال ثمامة : ثم رأيتُ بعد ذلك التركيَّ قد جِيء به أسيراً إلى دار الفضل ابن سهل ، فقلت له : كيفَ صنعتَ يومئذ ، وكيف طاولتَه ثمَّ علاك ثم وليت عنه هارباً ثم قتلته ؟ قال : أمَا إنّي لو شئت أن أقتله حين عَبَر ؛ وقد كانَ مقتلُه بارزاً لي ، ولكنّي احتلتُ عليه حتّى نحّيته عن أصحابه لأجوِّزه ، فلا يُحالَ بيني وبين فرسِه وسَلَبه .

قال ثمامة : وإذا هو يُدير الفارسَ من سائر الناس ويُريغُه كيف شاءَ وأحب .

قال ثمامة : وقد غَبَرتُ في أيديهم أسيراً فما رأيتُ كإكرامهم وتُحفهم وألطافهم .

فهذا ثمامةُ بن أشرسَ ، وهو عربيٌّ لا يُتّهم في الإخبار عنهم .

وأنا أُخبرك أنّي قد رأيتُ منهم شيئاً عجيباً وأمراً غريباً : رأيت في بعض غَزوات المأمون سِماطَيْ خيلٍ على جَنْبَتي الطَّريق بقُرب المنزل ، مائة فارسٍ من الأتراك في الجانب الأيمن ، ومائةً من سائر الناس في الجانب الأيسر ، وإذا هم قد اصطفوا ينتظرون مجيءَ المأمونِ ، وقد انتصَفَ النّهارُ واشتدَّ الحر . فورد عليهم

وجمعُ الأتراك جلوسٌ على ظُهور خيولهم إلاّ ثلاثة أو أربعة ، وجميع تلك الأخلاطِ من الجند قد رَمَوْا بنفوسهم الى الأرض إلاّ ثلاثةً أو أربعة . فقلت لصاحبٍ لي : انظر أيَّ شيء اتّفق لنا . أشهد أنّ المعتصم كان أعرفَ بهم حين جمعهم واصطنعهم .

وأردتُ مرةً القاطُولَ ـ وهي المباركة ـ وأنا خارجٌ من بغداد ، وأرى فوارسَ من أهل خراسان والأبناءِ وغيرهم من أصناف الجند ، قد عارَ لهم فرس ، وهم على خيلٍ عتاق يريغونه فلا يقدرون على أخذه ، ومرّ تركيٌّ ولم يكنْ من ذوي هيئاتهم وذوي القدرِ منهم ، وهو على بِرذونٍ له خسيس ، وهم على الخيول المطهَّمة ، فاعترض الفرسَ اعتراضاً ، وقتله قتلاً وَحِيّاً ؛ وأتاه مَن زَجَره بشيء ، فوقف أولئك الجندُ وصارُوا نَظّارة ، فقال بعضهم ممن كان يُزري على ذلك التركيّ : هذا وأبيك التكلُّف والتعرُّض : أنّ فرساً قد أعجزهم وهم أشَدّ البلاد ، وجاء هذا مع قِصَرِ قامته وضَعْف دابّته ، فطمِعَ أن يأخذه . فما انقضَى كلامُه حتّى أقبل به ثمّ سلّمه إليهم ومضى لطَلِبته ، لم ينتظر ثَناءَهم ولا دُعاءهم ، ولا أراهم أنّه قد صنع شيئاً ، أو أتى إليهم معروفاً .

والأتراك قومٌ لا يعرفون المَلَق ولا الخِلابَة ، ولا النِّفاق ولا السِّعاية ، ولا التصنُّع ولا النَّميمة ولا الرِّياء ، ولا البَذَخ على الأولياء ، ولا البغْيَ على الخلطاء ، ولا يعرفون البِدَع ، ولم تُفسِدهم الأهواء ، ولا يستحلّون الأموال على التأوُّل ، وإنما كان عَيبهم ، والذي يُوحِش منهم ، الحنين إلى الأوطان ، وحبُّ التقلُّب في البُلدان ، والصَّبابة بالغارات ، والشَّغف بالنَّهب ، وشدّة الإلف للعادة ، مع ما كانوا يتذاكرون من سُرور الظفر وتَتابُعه ، وحَلاوة المَغْنم وكثرته ، وملاعبهم في تلك الصَّحاري ، وتردُّدهم في تلك المُروج ، وألاّ يذهب بطول الفَراغ فضلُ نَجْدتهم باطلاً ، ويصير حَدُّهم على طول الأيام كليلاً .

ومَن حَذق شيئاً لم يصبر عنه ، ومن كره أمراً فرّ منه .

ـ وإنّما خُصُّوا بالحنين من بين جميع العجم لأنّ في تركيبهم وأخلاطِ طبائعهم

من تركيب بلدهم وتربيتهم ، ومشاكلة مياههم ومناسبة إخوانهم ، ما ليس مع أحدٍ سواهم ، ألا ترى أنك ترى البصريَّ فلا تدري أبصريٌّ هو أم كوفيٌّ ، وترى المكّيَّ فلا تدري أمكّيٌّ هو أم مدنيٌّ . وترى الجَبَليَّ فلا تدري أجبليٌّ هو أم خراسانيٌّ ، وترى الجزَريَّ فلا تدري أجزريٌّ هو أم شاميٌّ . وأنت لا تَغلَط في التركيّ ، ولا تحتاج فيه إلى قيافةٍ ولا إلى فِراسة ، ولا إلى مُساءلة . ونساؤهم كرجالهم ، ودوابُّهم تركيّةٌ مثلهم .

وهكذا طَبَع الله تلك البلدة ، وقسم لِتلك التُّربة . وجميعُ دُور الدنيا ونشوُّها إلى منتهى قُواها ومدّة أجلها ، جارية على عللها ، وعلى مقدار أسبابها ، على قدر ما خصّها الله تعالى به وأبانها ، وجعَلَ فيها . فإذا صاروا إلى دار الجزاء ، فهي كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْشَأْنَاهُنَّ إِنْشَاءً ﴾ .

وكذلك ترى أبناء العرب والأعرابِ الذين نزلوا خُراسانَ ، لا تَفصِل بين من نزل أبوه بفرغانة وبين أهل فَرغانة ، ولا ترى بينهم فرقاً في السِّبال الصُّهب والجُلود القَشِرة ، والأقفاء العظيمة ، والأكسية الفَرغانية . وكذلك جميع تلك الأرباع ، لا تفصل بين أبناء النازلة وبين أبناء النَّابتة .

ومحبّةُ الوطن شيءٌ شاملٌ لجميع الناس ، وغالبٌ على جميع الجيرة . ولكن ذاك في التُّرك أغلَب ، وفيها أرسَخ ؛ لما معها من خاصّة المشاكلة والمناسبة ، واستواء الشَّبه ، وتكافي التركيب . ألا ترى أنّ العبديَّ يقول : « عُمِّر الله البُلدان بحبِّ الأوطان » ، وأنّ ابنَ الزُّبير قال : « ليس الناس بشيءٍ من أقسامهم أقنَعَ منهم بأوطانهم » ، وأنّ عُمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « لولا تفرُّق أهواء العباد لما عَمَر الله البلاد » ، وأنّ جُمعة الإياديّة قالت : « لولا ما أوصى الله به العباد من قفر البلاد ، لما وَسِعهم وادٍ ولا كفاهم زاد » .

وذكر قتيبة بن مسلم التُّرك فقال : « هم والله أحنُّ من الإبل المعقَّلة إلى أوطانها » ؛ لأنّ البعير يحنُّ إلى وطنه وعَطَنِه ، وهو بعُمانَ ، من ظهر البَصرة ، فهو يخبط كلَّ شيء ويَستبطن كلَّ وادٍ ، حتّى يأتيَ مَكانَه ؛ على أنّه طريقٌ لم يسلكه إلا

مرة واحدة ، فلا يزال بالشّمّ والاسترواح وحسن الاستدلال ، وبالطبيعة المخصوص بها حتّى يأتي مَبْركه ، على بُعد ما بين عُمانَ والبَصرة .

فلذلك ضربَ به قتيبة المَثل .

والشّحُ على الوطن [والحنين إليه] ، والصَّبابة به ، مذكورة في القرآن ، مخطوطة في [الصُّحف بين] جميع الناس . غير أنّ التركيّ للعلل التي ذكرناها أشدُّ حنيناً وأكثر نُزوعاً .

وباب آخر ، ممّا كان يدعوهم الى الرجوع قبل العزم الثابت ، والعادة المنقوضة : وذلك أنّ التُرك قومٌ يشتدُّ عليهم الحَصْر [والجُثوم] ، وطول اللُّبث والمُكْث ، وقلّة التصرُّف والتحرُّك ، وأصلُ بنيتهم إنّما وُضِع على الحركة ، وليس للسكون فيها نصيب ، وفي قُوى أنفسهم فضلٌ على قُوى أبدانهم ، وهم أصحاب توقُّد وحرارةٍ واشتعال وفطنة ، كثيرة خواطرهم ، سريع لحظهم ، وكانوا يَرون الكِفايةَ مَعجَزة ، وطُول المُقام بلادة ، والراحةَ غُفْلة ، والقناعة من قِصر الهِمّة ، وأنّ تَركَ الغَزْو يُورث الذُلّة .

وقد قالت العرب في مثل ذلك : قال عبد الله بن وَهْب الراسبيّ : « حب الهُوَينا يُكسِب النَّصَب » . والعرب تقول : « من غلا دماغه في الصَّيف غَلَتْ قِدْره في الشّتاء » . وقال أكثم بن صَيفيّ : « ما احبُّ أنّي مكفيٌّ كلَّ أمر الدنيا » . قيل : ولِمَ ؟ قال : « أخاف العجز » .

فهذه كانت عِلَل التُّرك في حبِّ الرُّجوع والحنين إلى الوطن .

ومن أعظم ما كان يَدْعُوهم إلى الشُّرودِ ويبعثهم على الرجوع ، ويُكرِّه عندهم المُقام ، ما كانوا فيه من جَهل قُوّادهم بأقدارهم ، وقلّة معرفتهم بأخطارهم ، وإغفالهم موضع الرّد عليهم والانتفاع بهم ، حتّى جعلوهم أسوةَ أجنادهم ، ولم يقنعوا أن يكونوا في الحاشية والحُشْوة ، وفي غِمار العامّة ومن عُرْض العساكر ، وأنفوا من ذلك لأنفسهم ، وذكروا ما يجب لهم ، ورأوا أنْ

الضَّيْمَ لا يليق بهم ، وأنَّ الخمول لا يجوز عليهم ، وأنهم في المُقام على من لا يعرف حقَّهم ألْوَم ممّن منعهم حقَّهم ، فلمّا صادفوا مَلكاً حكيماً ، وبأقدار النّاس عليماً ، لا يميل إلى [سوء] عادةٍ ولا يَجنَح إلى هوى ، ولا يتعصَّب لبلدٍ على بلد ، يدور مع التدبير حيثما دار ، ويقيم مع الحقّ حيثما أقام ، أقاموا إقامةَ من قد فهم الحظّ ، وَدانَ بالحقّ ونَبَذ العادة ، وآثر الحقيقة ، ورحّل نفسه لقطيعة وطنه ، وآثر الإمامة على مُلك الجَبْريّة ، واختار الصّواب على الإِلْف .

[١٦ ـ مقارنة الأمم]

ثم اعلمْ بعد هذا كلّه أنَّ كلَّ أمةٍ وقرنٍ ، وكلَّ جيلٍ وبَني أبٍ وجدتَهم قد برعوا في الصّناعات ، وفَضَلوا النّاسَ في البيان ، أو فاقوهم في الآداب ، وفي تأسيس الملك ، وفي البصر بالحروب ، فإنّك لا تجدهم في الغاية وفي أقصى النهاية ، إلاّ أن يكون الله قد سخّرهم لذلك المعنى بالأسباب ، [وقصرهم] عليه بالعلل التي تقابل تلك الأمور ، وتصلح لتلك المعاني ، لأنَّ مَنْ كان متقسَّم الهوى ، مشترك الرّأي ، ومتشعّب النفس ، غير موفّر على ذلك الشّيء ولا مهيّأ له ، لم يَحذِق من تلك الأشياء [شيئاً] بأسْرِه ، ولم يبلغ فيه غايتَه ، كأهل الصين في الصناعات ، واليونانيّين في الحِكَم والآداب ، والعَرَبِ فيما نحن فيه ذاكروه في موضعه ، وآلِ ساسان في المُلْك ، والأتراك في الحروب . ألا ترى أنَّ اليونانيين الذين نظروا في العِلَل لم يكونوا تُجّاراً ولا صُنّاعاً بأكُفّهم ، ولا أصحابَ زرعٍ ولا فِلاحة وبناءٍ وغَرْس ، ولا أصحابَ جمعٍ ومنعٍ ، وحِرص وكَدّ ، وكانتِ الملوكُ تفرّغهم ، وتُجرى عليهم كفايتَهم ، فنظروا حين نَظَروا بأنفسٍ مجتمعة ، وقوّة وافرة ، وأذهان فارغة ، حتّى استخرجوا الآلاتِ والأدوات ، والملاهيَ التي تكون جَماماً للنّفس ، وراحةً بعد الكدّ ، وسروراً يداوي قَرح الهُموم ، فصنعُوا من المرافق ، وصاغوا من المنافع كالقَرِصطونات ، والقَبّانات ، والأسطُرلابات ، وآلة الساعات ، والكالكونيا والكشيزان والبِركار وكأصناف المزامير والمعازف ، وكالطبِّ والحسابِ والهندسة واللُّحون ، وآلات الحرب كالمجانيق ، والعَرّادات ،

والرّتيلات ، والدُّبّابات ، وآلة النّفّاط ، وغير ذلك مّا يطول ذكرُه .

وكانوا أصحابَ حكمة ولم يكونوا فَعَلة ؛ يصوّرون الآلة ، ويخرطون الأداة ، ويصوغون المُثُل ولا يُحسنون العملَ بها ، ويشيرون إليها ولا يمسُّونها ، ويرغّبون في العلم ويرغبون عن العمل .

فأمّا سُكّان الصين فهم أصحاب السَّبْك والصياغة ، والإفراغ والإذابة والأصباغ العجيبة ، وأصحاب الخَرْط والنّحت والتصاوير ، والنّسج والخطّ ، ورفق الكفّ في كلّ شيءٍ يتولّونه ويُعانونه ، وإن اختلف جوهرهُ ، وتباينت صنعته ، وتفاوَت ثمنُه .

واليونانيون يعرفون العَلل ، لأنّ أولئك حكماءُ وهؤلاء فَعَلة . وكذلك العرب ، لم يكونوا تُجّاراً ولا صُنّاعاً ، ولا أطِبّاءَ ولا حُسّاباً ، ولا أصحابَ فلاحة فيكونون مَهنة ، ولا أصحاب زرع ، لخوفهم من صَغَار الجزية . ولم يكونوا أصحاب جمعٍ وكسب ، ولا أصحابَ احتكار لما في أيديهم وطلب ما عند غيرهم ، ولا طلبوا المعاشَ من ألسنة الموازين ورؤوس المكاييل ، [ولا عرفوا الدّوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر المدقع الذي يشغل عن المعرفة] ، ولم يستغنوا الغنَى الذي يورث البُلدة ، والثروة التي تحدث الغِرّة ، ولم يحتملوا ذُلّاً قطُّ فيُميتَ قلوبَهم ويصغُر عندهم أنفسهم . وكانوا سكّانَ فيافٍ وتربيةَ العَرَاء ، لا يعرفون الغَمَقَ ولا اللثَق ، ولا البُخار ولا الغِلَظ ولا العَفَن ، ولا التّخم . أذهان حِداد ، ونفوسٌ منكرة ، فحين حَمَلوا حَدَّهم ووجّهوا قواهم لقولِ الشّعر وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ، بعد قيافة الأثر وحفظ النّسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ، وتعرُّف الأنواء ، والبَصر بالخيل والسّلاح وآلة الحرب ، والحفظ لكلّ مسموع والاعتبار بكلّ محسوس ، وإحكام شأن المثالب والمناقب ، بلَغوا في ذلك الغايةَ ، وحازوا كلّ أمنيّة . وببعض هذه العلل صارت نفوسُهم أكبر ، وهممهم أرفعَ من جميع الأمم وأفخر ، ولأيامهم أحفظَ وأذكر .

وكذلك التُرك أصحاب عَمد وسُكّان فيافٍ وأرباب مواشٍ ، وهم أعراب العَجَم كما أنَّ هذيلاً أكراد العَرب . فحين لم تشغلهم الصّناعات والتّجارات ، والطِّبُّ والفِلاحة والهندسة ؛ ولا غرسٌ ولا بُنيانٌ ، ولا شقُّ أنهار ، ولا جباية غلّات ، ولم يكن همُّهم غير الغزو والغارة والصَّيد وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ، وطلب الغنائم وتدويخ البُلدان ، وكانت هممهم إلى ذلك مصروفةً وكانت لهذه المعاني والأسباب مسخّرةً ومقصورةً عليها ، وموصولةً بها ، أحكموا ذلك الأمر بأسره ، وأتَوا على آخره ، و] صار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ، [ولذّتهم] وفخرهم ، وحديثهم وسمرَهم .

فلمّا كانوا كذلك صاروا في الحرب كاليونانيين في الحكمة ، وأهل الصِّين في الصناعات ، والأعرابِ فيما عددنا ونزّلنا ، وكآل ساسانَ في المُلك والرياسة .

ومما يُستدلُّ به على أنهم قد استقصوا هذا البابَ واستغرقوه، وبلغوا أقصى غايته وتعرُّفوه ، أنَّ السّيف إلى أن يتقلّده متقلّد ، أو يضرب به ضارب ، قد مرّ على أيدٍ كثيرة ، وعلى طبقاتٍ من الصُّنّاع ، كلُّ واحدٍ منهم لا يعمل عملَ صاحبه ، ولا يُحسنه ولا يدّعيه ولا يتكلّفه ، لأنّ الذي يذيب حديد السّيف ويطبعه، ويصفّيه ويهذّبه ، غير الذي يمدُّه ويعطّله ؛ والذي يمدّه ويعطّله غير الذي يطبعه ويسوّي متنَه ، ويقيم خَشيبَته ؛ والذي يطبعه ويسوّي متنه غير الذي يَسقيه ويُرهِفُه ، والذي يُرهفه غير الذي ي يُركّب قَبيعَته ويستوثق من سِيلانه ، والذي يعمل مسامير السِّيلان و[شاربَي] القبيعة ونصلِ السيف غير الذي ينحت خشَب غمده ، والذي ينحت خَشَب غمده غير الذي يدبغُ جِلْده ، والذي يدبغ جلده غير الذي يحلّيه ، والذي يُحَلّيه ويركّب نعلَه غير االذي يخرز حمائله . وكذلك السَّرج ،وحَالات السّهم والجَعْبة والرُّمح وجميع السلاح ، مما هو جارحٌ أو جُنّة .

والتركيُّ يعمل هذا كلّه لنفسه من ابتدائه الى غايته ، فلا يستعين برفيق ، ولا يَفزَع فيه إلى صديق ، ولا يختلف إلى صانع ، ولا يَشغَل قلبه بمطاله وتسْويفه ، وأكاذيب مواعيده ، وبِغُرم كِرائه .

وحين بلغ أوسُ بن حجر صفةَ القانص ، وبلغ لـه الغايـةَ في جمعه لأبـواب الكفاية بنفسه ، قال :

قَصِيٌّ مَبيتِ اللَّيـلِ للصَّيـد مُـطعَـم   لأسـهُـمِـه غـارٍ وبـارٍ وراصـفُ

وليس أنـه ليس في الأرض تـركيٌّ إلاّ وهـو كـما وصفنـا ، كـما أنّـه ليس كـل يونانيٍّ حكيماً ولا كل صيني غايةً في الحـذق ، ولا كلُّ أعـرابيٍّ شاعـراً قائِفـاً ، ولكنَّ هذه الأمور في هؤلاء أعمُّ وأتمُّ ، وهي فيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا في السبب الـذي تكاملت بـه النَّجدة والفـروسيَّة في التُّـرك دون جميع الأمم ، وفي العلل التي من أجلهـا انـتظمـوا جميعَ معـاني الحـرب ، وهي معـانٍ تشتمل على مذاهبَ غريبة ، وخصالٍ عجيبة .

فمنها : ما يُفضي لأهله بالكرم وبِبُعْد الهمَّة وطلب الغاية . ومنهـا : ما يـدلُّ عـلى الأدب السَّديـد والرأي الأصيـل ، والفِطنـة الثاقبة والبصيرة النـافـذة . [ألا تـرى أنّه ليـس بـدٌّ لصاحـب الحـرب من الحلم والعلم ، والحـزْم والعـزم ، والصبـر والكتمان ، ومن الثقافة] ، وقلّة الغفلة وكثرة التجربة . ولا بـدَّ من البصر بالخيـل والسلاح ، [والخبرة] بالرِّجال وبالبـلاد ، والعلم بالمكـان والزَّمـان والمكايـد ، وبما فيه صلاحُ هذه الأمور كلّها .

والمُلك يحتاج إلى أواخٍ شِدادٍ وأسبـاب متَان ، ومن أتمِّهـا سبباً وأعمِّقهـا نفعاً ما ثبَّته في نِصابه ، وأقرَّه ومكَّنه في قـراره ، وزاد في تمكُّنـه وبهائـه ، وقطع أسبـاب المطمعة فيه ، ومنع أيدي البُغاةِ من الأشارة اليه فضلاً عن البَسْط عليه .

قال: ثم إنَّ التُّرك عطفَتْ على العَرب بالمحاجَّة والمقايَسة، وقالوا: قلتم إن تكن القـرابةُ عمـا يسـتَحقُّ بالكفـاية فنحن أقـدَمُ في الطَّاعـة والوُدّ والمنـاصَحة ، وإن تكن تُستحقُّ بالقرابة فنحن أقربُ قرابةً .

قالوا : والعرب بعد هذا صِنفانِ : عدنان وقَحطان . فأمَّا القحطانيُّ فنسبتنـا إلى الخلفـاء أقـربُ من نسبتهم ، ونحن أمسُّ بهم رَحمـاً ؛ لأن الخليفـة من ولـد

اسماعيل بن ابراهيم ، دون قحطانَ وعابَر . وولدُ إبراهيم عليه السلام إسماعيلُ ، وأمُّه هاجَر ، وهي قبطيّة . وإسحاق وأمُّه سارَةُ وهي سُريانيَّة . والسّتّة الباقون أُمُّهم قَطُورا بنت مفطون عربيّة ، من العرب العاربة .

وفي قول القحطانية : إنَّ أمَّنا أشرفُ في الحسب إذْ كانت عربية . وأربعةٌ من السّتّة هم الذين وقَعوا بخراسانَ ، فأولدوا تُركَ خراسان . فهذا قولنا للقحطانيّ .

وأما قولُنا للعدنانيّ ، فإبراهيم أبونا ، وإسماعيلُ عمُّنا ، وقرابتنا من إسماعيل كقرابتهم .

قال الهيثم بن عديّ : قيل لمبارَك التُّركي ، وعنده حمّادٌ التركي : إنّكم من مَذحِج . قال : ومَذحِج هذا من هو ذاك ؟ وما نعرف إلاّ إبراهيمَ خليلَ الله وأميرَ المؤمنين .

قال الهيثم : وقد كان سقَط إلى بلاد الترك رجلٌ من مَذحِجٍ فأنسلَ نسلاً كثيراً ، ولذلك قال شاعر الشُّعوبية للعرب في قصيدةٍ طويلة :

زعمتم بأنَّ التركَ أبناءُ مذحجٍ ... وبينكم قُربَى وبين البرابرِ
وذلكم نسلُ ابن ضَبَّةَ باسلٍ ... وصُوفانَ أنسالُ كثيرِ الجرائرِ

وقال آخر :

متى كانت الأتراكُ أبناءَ مَذحِجٍ ... ألا إنَّ في الدنيا عجيباً لمن عَجِبْ

وقد سمعتم ما جاءَ في سدّ بني قَطورا وشأنِ خيولهم بنخْل السَّواد ، وإنّما كان الحديثُ على وجه التَّهويل والتخويف بهم لجميع الناس ، فصاروا للإسلام مادّةً [و] جنداً كثيفاً ، وللخلفاء وقايةً وموئلاً وجُنّةً حصينة ، وشعاراً دون الدِّثار .

وفي المأثور من الخبر : « تاركُوا التُّركَ ما تارَكوكم » . وهذه وصيّة لجميع العرب ؛ فإنَّ الرأي متاركتنا ومسالمتنا . وما ظنُّكم بقومٍ لم يَعرِض لهم ذو

القرنين . وبقوله « اتركوهم ما تركوكم » سَمُّوا التُّرك . هذا بعد أن غَلَب على جميع الأرض غلبةً وقسراً ، وعَنوةً وقهراً .

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « هذا عدوٌّ شديدٌ كَلَبُه ، قليل سَلَبه » . فنهى كما ترى عن التعرُّض لهم ، بأحسنِ كناية .

والعربُ إذا ضربت المثلَ في العداوة الشديدة قالوا : ما هم إلاّ التُّركُ والدَّيلم .

قال عَمَلس بن عقيل بن عُلفة :

نبذْلت منه بعد ما شاب مَفرِقي عداوةَ تُركيٍّ وبغضَ أبي حِسْلِ

وأبو حِسْلٍ هو الضَّبّ . والعرب تقول : « هو أعقُّ من ضَبّ » : لأنّه يأكل أولاده .

ولم يُرعِب قلوبَ أجناد العرب مثلُ التُّرك . وقال خلفُ الأحمر :

كأنّي حين أرهبُهم بَنِيَّي دفعتُهُم إلى صُهبِ السِّبالِ

قال : وإياهم عنَى أوسُ بن حجر :

نكَّبتُها ماءَهم لما رأيتُهم شُهبَ السِّبالِ بأيديهم بيازيرُ

وحدثني ابراهيمُ بن السِّندي مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدَّولة ، شديد الحبِّ لأبناءِ الدَّعوة ، وكان يحوطُ مواليَه ويحفظ أيّامَهم ، ويدعو الناسَ إلى طاعتهم ، ويَدرسهم متقابهم ، وكان فخمَ المعاني فخمَ الألفاظ ، لو قلت لسانُه كان أردُّ على هذا المُلك من عَشَرةِ آلاف سيفٍ شَهيرٍ ، وسِنانٍ طَريرٍ ، لكان ذلك قولاً ومذهباً .

قال : حدَّثني عبد الملك بن صالح ، عن أبيه صالح بن علي ، أنَّ خاقان ملكَ الترك واقفَ مرة الجُنَيد بنَ عبد الرحمن أميرَ خراسان ، وقد كان الجنيد هالَه أمره ، وأفزعه شأنُه ، وتعاظمه جُوعه وجَمعه ، وبَعِل به ، وفطن به خاقانُ وعرفَ ما قد وقَع فيه ، فأرسل اليه :

« إنّي لم أقفْ هـذا الموقفَ وأُمْسِكْ هذا الإمســاكَ وأنا أريـدُ مكروهـاً ، فـلا تُرَعْ . ولو كنتُ أريد غلبةً أو مكـروهاً لقـد كنت انتسَفْتُ عسكرَكَ انتسافاً أَعْجلك فيه عن الروِيّة وقد أبصـرتُ موضــعَ العورة . ولـولا أن تعرفَ هـذه المكيدة فتعُـود بها على غيري من الأتراك ، لعـرَّفْتُك مـوضعَ الانتشـار والخلل والخطأ في عسكـرك وتعبيتِـك . وقد بلغَني أنّـك رجـلٌ عـاقـل ، وأنَّ لـك شـرفـاً في بيتـك وفضـلاً في نفسك ، وعلماً بدينـك ، وقد أحببت أن أسـأل عن شيءٍ من أحكامكم لأعـرفَ به مذهبكم ، فاخـرُجْ إليَّ في خاصَّتِك لأخرجَ إليـك وحدي ، وأسـائلك عما أحتـاج إليه بنفسي . ولا تحتفلْ ولا تحترسْ ؛ فَلَيس مثلي مَنْ غـدَر ، وليس مثلي يُـؤْمِن من نفسه ، ومن مَكره وكيده ، ثم ينكُثُ بوعده . ونحن قومٌ لا نخـدع بالعمـل ، ولا نستحسِـن الخديعـة إلاّ في الحرب ، ولو استقام أمر الحـرب بغير خـديعة لما جوَّزْنـا ذلك لأنفسـنا » .

فـأبى الجُنيد أن يَخـرج اليه إلاّ وحـدَه ، ففَصلا من الصُّـوف . وقـال : سَـلْ عمّا أحببتَ ، فإنْ كـان عندي جـوابٌ أرضاه أجبتُـك ، وإلاّ أشرتُ عليـك بمن هو أبصر بذلك منّي .

قال : ما حكمكم في الزّاني ؟

قال الجُنيد : الزّاني عندنـا رجلان : رجـلٌ دفعنا إليـه امرأةً تُغْنيـه عن حُرَم النّاس ، وتكفُّه عن حُرَم الجيران ؛ ورجـلٌ لم نُعطِه ذلـك ، ولم نَحُلْ بينـه وبين أن يفعل ذلك لنفسـه . فأمّـا الذي لا زوجـةَ له فـإنّا نجلده مـائة جَلدة ونُحْضِر ذلـك الجماعةَ من النـاس لنشهِّره ونحذِّره به ، ونغـرِّبه في البُلدان لنزيد في شهـرته وفي التّحـذير منه ، ولينزجـر بذلـك كلُّ من كـان يهُمُّ بمثـل عمله . فـأمـا الـذي قـد [أغنيناه] فإنا نرجُمُه بالجَندل حتّى نقتلَه .

قـال : حَسَن جميـلٌ ، وتـدبـير كبـير ، فـما قـولكم في الـذي يَقـذِف عفيفـاً بالزّنى ؟

قال : يجلد ثمانين جلدةً ، ولا نَقبَل لهُ شهادةً ، ولا نُصدِّق له حديثاً .

قال : حَسنٌ جميل ، وتدبير كبير ، فما حُكمكم في السارق ؟

قال : السّارق عندنا رجلان : رجل يحتال لما قد أحرزه الناس من أموالهم حتّى يأخذها بنقب حيطانهم وبالتسلّق من أعالي دُورهم ؛ فهذا نقطع يده التي سَرقَ بها ، ونقَب بها ، واعتمد عليها . ورجل آخر يُخيف السبيل ، ويقطع الطّريق ، ويكايد على الأموال ، ويشهر السّلاح فإنْ منعه صاحب المتاع قتله ، فهذا نقتُله ونَصلبه على المناهج والطُرق .

قال : حَسَن جميلٌ ، وتدبير كبير . قال : فما حُكمكم في الغاصب والمستلِب ؟

قال : كلُّ ما فيه الشُبهة ويجوز فيه الغَلَط والوُجوهُ ، كالغَصْب والاستلاب ، والجنايةِ ، والسَّرقة لمّا يؤكل أو يُشرب فإنا لا نقطع فيما فيه شُبهة ونتمحّل لذلك وجهاً غيرَ السَّرقة .

قال : حَسنٌ جميلٌ وتدبير كبير . قال : فما حُكمكم في القاتل وقاطع الأُذْن والأنف ؟

قال : النَّفس بالنَّفس ، والعين بالعين ، والأنفُ بالأنف . وإنْ قتل رجلاً عَشرةٌ قتلناهم . ونقتل القويَّ البدن بالضَّعيف البدن ، وكذلك اليدُ والرِّجل .

قال : حَسن جميلٌ وتدبير كبير . قال : فما تقولون في الكذّاب والنَّمام والضَّراط .

قال : عندنا فيهم الإقصاءُ لهم وإبعادُهم وإهانتهم ، ولا نقبل شهادتَهم ، ولا نصدّق أحكامهم .

قال : وليس إلّا هذا ؟

قال : هذا جوابُنا على ديننا .

قال له : أمّا النمام عندي ، هو الذي يُضرِّب بين الناس ، فإنّي أحبِسُه في مكان لا يَرى فيه أحداً . وأمّا الضَّراط فإنّي أكوي استه ، وأعاقب ذلكَ المكان

فيه . وأمّا الكذّاب فإنّي أقطع الجارحةَ التي بها يكذب ، كما قطعتم اليد التي بها يسرق ، وأمّا الذي يُضحِك الناس ويعوّدهم السُّخفَ فإنّي أُخرجه من سلطاني ، وأُصلح بإخراجه عقول رعيتي .

قال : فقال الجُنَيد بن عبد الرحمن : أنتم قومٌ تردُّون أحكامَكم إلى جواز العقول ، وإلى ما يَحسُن في ظاهر الرأي ؛ ونحن قومٌ نتبع الأنبياء ، ونرى أن لم نَصلُح على تدبير العباد . وذلك أنّ الله تعالى أعلَمُ بغَيب المَصالح وسِرِّ الأمر وحقائقه ، ومَحصوله وعواقبه ، والناسُ لا يعلمون ولا يَرون الحزمَ إلاّ على ظاهر الأمور . وكم من مُضِيع يَسلم ،وحازمٍ يعطب .

قال : ما قلت كلاماً أشرف من هذا ، ولقد ألقيت لي فكراً طويلاً .

قال إبراهيم : قال عبدُ الملك : قال صالح : قال الجُنيد : فلم أرَ أوفى ولا أنصَفَ ولا أفهمَ ولا أذكى منه . ولقد واقفْتُه ثلاثَ ساعاتٍ من النهار وما تحرَّك منه شيءٌ إلاّ لسانُه ، وما منّي شيء لم أحرّكه .

وهكذا يَصِفون مُلوكَ التُّرك ، يزعمون أنّ ساسان وخاقانَ الأكبر ، تواقفا ببعض الكسور ، وفَصَلا من الصُّفَين ، وطالت المناجاة، فلما انفتلا قالوا : كان خاقانُ أركنَ وآدَب ، وكان مَركَب كِسرى أركن وآدَب ، ولم يتحرَّك من خاقانَ إلاّ لسانُه ، وكان بِرذونُه يرفع قائمةً ويَضع أخرى ، وكان مركب كسرى كأنّما صُبَّ صبّاً ، وكان كسرى يحرِّك رأسَه ويُشير بيده .

قالوا : ومن الأعاجيب أنّ الحارثَ بن كعب لا يقوم لحَزْم ، وحزم لا تقوم لكندة ، وكندةُ لا تقوم للحارث بن كعب .

قالوا : ومثل ذلك من الأعاجيب في الحارث : أنّ العرب لا تقوم للتُّرك ، والتُّرك لا تقوم للرُّوم ، والرُّوم لا تقوم للعرب .

قال جهمُ بن صفوان الترمذيّ : قد عرفنا ما كان بين فارسَ والتُّركِ من الحرب ، حتّى تزوّج كسرى أبرَويز ، خاتونَ بنت خاقان ، يستميله بذلك

الصَّهر ، ويدفعُ بأسه عنه . وقد عَرفْنا الحروبَ التي كانت بين فارسَ والرُّوم ، وكيف تساجلوا الظفَر ، وبأيِّ سببٍ غُرِس الزَّيتون بالمدائن وسوسا ، وبأيِّ سببٍ بنيت الرُّوميَّة ولِمَ سمِّيت بذلك ، ولِمَ بَنَى كسرى على الخليج قُبالة قُسطنطينيَّة النَّواويس وبيوتَ النار . ولكن متى ظهرت الرُّوم على تُرك خراسان ظهوراً مواليَاً، ضَربُوا بها المثل إلى آخر دار سه، ومن هناك من الأشباه ، ومن يتخلَّل هذا النسب .

وكانت خاتونُ بنت خاقانَ عند أبرويز فولدت له شيرويه . وقد ملك شيرويه بعد أبرويز ، فتزوَّج شيرويه مريم بنت قيصر ، فولدت له فيروزا شاهي أمَّ يزيد الناقص والوليد . وكان يقول : ولدني أربعة أملاك : كسرى ، وخاقان ، وقيصر ، ومَرْوان . وكان يرتجز في حُروبه التي قُتل فيها الوليد بن يزيد بن عاتكة :

أنا ابنُ كسرى وأبي خاقانْ وقيصرٌ جدِّي وجدِّي مَروانْ

فلما صار إلى الافتخار في شعره بالنَّجدة والثَّقافة بالحرب ، لم يفخر إلَّا بخاقانَ فقط فقال :

فإنْ كنتُ أرمي مُقْبِلاً ثم مُدبِراً وأطلُع من طَودٍ زليقٍ على مُهْرِ
فخاقان جدِّي فاعرفي ذاك واذكري أخايِرَهُ في السَّهل والجبل الوعرِ

قوله « وأطلُع » يريد : وأنزل ، وهي لغة أهل الشام وأخذوها من نازلة العرب في أوَّل الدهر . وجعل دابَّته مُهراً ، لأنَّ ذلك أشدُّ وأشقّ .

وقال الفضل بن العبَّاس بن رَزِين : أتانا ذات يوم فُرسانٌ من التُّرك ، فلم يبق أحد ممن كان خارجاً إلَّا دخل حِصنَه وأغلقَ بابه ، وأحاطوا بحصنٍ من تلك الحصون ، وأبصر فارسٌ منهم شيخاً يطَّلع إليهم من فوق ، فقال له التركيّ : لئن لم تنزل إليَّ لأقتُلنَّك قِتلةً ما قتلتُها أحداً ! قال : فنزل إليه وفتح له الباب ، ودخلوا الحصن ، واكتسحوا كلَّ شيءٍ فيه ، فضحك من نُزوله إليه وفتْحِه له وهو

في أحصنِ موضعٍ وأمنعِ مكانٍ ، ثم أقبلَ به إلى حصنٍ أنا فيه فقال : اشتروه مني . قلنا : لا حاجةَ لنا في ذلك . قال : فإني أبيعُه بدرهمٍ واحد . فرمينا إليه بدرهمٍ فخلَّ سبيله ، ثمّ ادبرَ عنا ومَضى مع أصحابه ، فما لبث إلاَّ قليلاً حتّى عاد إلينا فوقف حيثُ نسمع كلامه ، فراعنا ذلك ، فأخرجَ الدّرهم من فمه وكسرهُ بنصفين . وقال : لا يَسْوى درْهماً ، وهذا غَبنٌ فاحشٌ ، فخُذُوا هذا النِّصفَ ، وهو على كلِّ حالٍ غالٍ جدّاً بالنِّصف الآخر .

قال : فإذا هو أظرفُ الخلق .

قال : وكنّا نعرف ذلك الرجل بالجُبْن ، وقد كان سمِعَ باحتيال التُّرك في دخول المُدن وعُبور الأنهار في الحروب ، فتوهَّم أنه لم يَتوعَّد بفتح الباب .

وقال ثُمامة : ما شبَّهتُ الذَّرَّ إلاّ بالتُّرك ، لأنَّ كُلَّ ذرَّةٍ على حِدَتها مَعها من المعرفة بادِّخار الطُّعم ، ومن الشَّمِّ والاسترواح ، ونَجْب المدَّخر حتّى لا ينبُتَ في جحره ، ثم الاحتيال للناس في الاحتيال لها بالصُّمامة والعِفاص والمزدجر ، وتعليق الطَّعام على الأوتاد والبَرَّادات ، مثلُ الذَّرّ مع صاحبتها .

وقال ابو موسى الأشعري : كل جنسٍ يحتاج الى أميرٍ ورئيسٍ ومدبِّر ، حتّى الذَّرّ .

وروى أبو عُمَر الضَّرير ، أن رئيس الذَّرّ الرَّائدَ الذي يخرج أوّلاً لشيءٍ قد شمَّه دونَ أصحابه ، لخصوصيّةٍ خصَّه الله تعالى بها ، ولَطافة الحِسّ ، فإذا حاولَ حمْلَه وتعاطى نَقْلَه ، واعجزهُ ذلك بعد أن يُبْليَ عُذراً ، أتاهنَّ فأخبرهنَّ فرجَع ، وخرجْتُ بعده كأنّها خيطٌ أسودُ ممدود . وليستْ ذَرَّةٌ أبداً تستقبل ذرَّةً أخرى إلاّ واقَفَتْها وسارَّتْها بشيء ثم انصرفتْ عنها .

وكذلك الأتراكُ كلُّ واحدٍ منهم غير عاجزٍ عن معرفةِ مصلحة أمره ، إلاّ أنَّ التفاضل واجبٌ في جميع أصناف الأشياء والنَّبات والمَوات . وقد تختلف الجواهر وكلُّها كريم ، وتتفاضل العِتاق وكلُّها جَواد .

وقد قلنا في مناقب جميع الأصناف بجُمَل ما انتهى الينا وبلغَه عِلمُنا ؛ فإنْ وقعَ ذلك بالموفقة فبتوفيق الله وصُنْعه ، وإن قصُر دون ذلك فالذي قصَّر بنا نُقصانُ علمنا ، وقلّة حفظنا وسماعنا . فأمّا حُسْنُ النيّة ، والذي نُضمِر من المحبّة والاجتهاد في القُربة ، فإنا لا نرجع في ذلك إلى أنفسنا بلائمة . وبين التقصير من جهة التفريط والتّضييع ، وبين التقصير من جهة العَجز وضَعف العَزْم ، فرقٌ .

ولو كان هذا الكتاب من كتب المناقضات ، وكتب المسائل والجوابات ، وكان كلُّ صنفٍ من هذه الأصناف يريد الاستقصاء على صاحبه ، ويكون غايته إظهارَ فضلِ نفسِه وإن لم يصل إلى ذلك إلاّ بإظهار نقص أخيه ووليّه ، لكان كتاباً كبيراً ، كثيرَ الورق عظيماً ، ولكان العددُ الذين يَقْضُون لمؤلّفه بالعلم والاتّساع في المعرفة أكثر وأظهر ، ولكنّا رأينا أنّ القليل الذي يجمع خيرٌ من الكثير الذي يُفرِّق .

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ، ونسأله العَونَ والتسديد ، إنه سميع قريبٌ ، فعّالٌ لما يريد .

تم الكتاب ولله المنة ، وبيده الحول والقوة

والله الموفق للصواب

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلامُه وهو حسبُنا ونعم الوكيل .

هامش رسالة مناقب الترك

وعامة جند الخلافة

(١) يجب اقتران القول بالفعل ، او المعرفة بالعمل . وقد كثر العارفون وقل العاملون بين الناس . وقد سبق ابن المقفع في كليلة ودمنة الى التأكيد على هذه الفكرة .

(٢) المتأول : الذي يفسر الأمور كما يحلو له . قارن معنى التأويل عند الجاحظ ومعناه الذي انتهى اليه ابن رشد الذي يقول ان التأويل هو ارجاع اللفظ من المعنى الحقيقي الى المعنى المجازي .

- المحكوم عليه : الذي صدر حكم إدانة بحقه .
- معدول عن الحكم : الذي نحي عن الحكم .
- المتعطل والمتصفح : الذي لا يعمل شيئاً ويكتفي بالمراقبة .
- المعجب برأيه : الذي يحب الاعتراض والنقد ، ويعتبر نفسه قائداً للناس ووكيلاً عنهم يدافع عن حقوقهم . يشك في كل شيء ، ولا يصدق احداً .
- المحروم : الذي لم ينل حقوقه .
- اللئيم الذي يفسده الاحسان ، يشبه قول الامام علي بن ابي طالب : اتق شر من احسنت اليه .
- المستبطيء والمستزيد : يعني الناس الذين يغلب عليهم الطمع فلا يرضون بما ينالون من السلطان مهما عظم شأنه .
- صاحب الفتنة : الانسان الذي ينزع الى اثارة الفتن . ويكون هذا رئيس فرقة سياسية او كلامية ابعده السلطان فاغتاظ وعمد الى التشنيع على السلطان واثارة الريب والاكاذيب والظنون به .

وتضم لائحة اعداء السلطان تسعة اصناف اجاد الجاحظ حصرهم .

(٣) جند الخلافة العباسية مكون من خمسة أقسام : خراساني وتركي ومولى وعربي وبنوي . ولم يلحظ الجاحظ نسبة الاقسام الى بعضها البعض ، وغلبة العنصر التركي عليها في عهد المعتصم والبنوي من كان ابوه فارسياً وامه عربية فهو مولد . والمولى هو الاعجمي الأصل الذي وقع في الاسر او السبي واصبح عبداً للعربي . وقد اشار الجاحظ الى اللحمة الجامعة التي نادى بها العباسيون لتكون رابطة توحدهم وهي الطاعة والمحبة الدينية . ولهذا يعترض على هذا التصنيف الذي زعمه بعضهم ـ ولم يسم اسمه ـ واتهمه بالاستبداد بالرأي والتفرد به وبالتعسف في المعاني . وقال الجاحظ إنهم متفقون .

(٤) لاحظ كيف يوفق بين الخراساني والتركي . إنهم اخوان لأن بلادهم متقاربة ، ولأن الاعراق في البدء كانت متشابهة

(٥) العرب امة واحدة رغم اختلاف اللغة بين عدنان وقحطان وتميم وقيس وهوازن . ويعني هنا باختلاف اللغة اختلاف اللهجات . وهذا ما يفسر قوله في الفقرة التالية : ان العرب لما كانت واحدة إستووا في التربة وفي اللغة . وهذا يعني ان اللغة العربية واحدة ولكنها ذات لهجات مختلفة .

ويشير الجاحظ الى مقومات وحدة العرب القومية وهي التربية واللغة والاخلاق والنسب . وبهذه المقومات « سبكوا سبكاً واحداً ، وافرغوا افراغاً واحداً ، وكان القالب واحداً » . . وبهذا يكون الجاحظ أقدم مفكر تكلم على وحدة العرب القومية .

ـ وقد ميز بين العربي الخالص والملهج الهجين ذي الام غير العربية ، والمذرع ذي الام العربية والأب الاعجمي ، والمزلج اي الدعي .

(٦) البنوي خراساني الاصل لأن نسب الابناء نسب آبائهم . بهذا يحدد الجاحظ معنى الابناء . فالابناء هم ابناء الفرس الذين جاؤوا مقاتلين الى اليمن لنصرة ابن ذي يزن ضد الاحباش قبل الفتح الاسلامي . وقد اقام هؤلاء المقاتلون هناك وتزوجوا من نساء عربيات فسمي اولادهم ابناء . ويمكن أن نعمم هذا الحكم على جميع الاولاد الذين ولدوا من آباء فرس وامهات عربيات في العصر الاسلامي والاموي والعباسي .

وعلى هذا الاساس يصبح الابناء والخراسانيين عرقاً واحداً لأن نسب الابناء نسب آبائهم .

ـ المولى عربي : والسبب في ذلك هو ان « لحمة الولاء كلحمة النسب » . تخريجاً لقول النبي « مولى القوم منهم » .

- « حليف القوم منهم » قول نسب للنبي وهو سبب آخر في النسب كسبب الولاء وهذا الحكم ينطبق على الاتراك . فهؤلاء صاروا من العرب بسبب الحلف .

(٧) الخراسانيون يؤكدون على فضلهم على العباسيين لانهم نصروهم ضد الامويين عندما ثاروا بقيادة ابي مسلم الخراساني وزحفوا نحو الشام لاسقاط الدولة الاموية . ويذكرون الرتب العسكرية التي تدل على تنظيمهم من نقباء ونجباء وخندقية وكفية والرغندية والازاذمردية .

- الشيعة هنا لا تعني الفرقة الاسلامية التي تتبع علي بن ابي طالب . وانما تعني الانصار أو المؤيدين بشكل مطلق .

- لاحظ توزع الاحزاب والفرق في البلاد الاسلامية في مطلع الدولة العباسية او نهاية الدولة الأموية : العثمانية في البصرة ، والمروانية في الشام ، والخوارج في الجزيرة العربية . اما بلاد فارس فلم تنتشر فيها الفرق ولم يغلب عليهم أحد .

- الصحصحية والدالقية والذكوانية والراشدية ، فرق كلامية أو حزبية ظهرت في العصر الأموي .

- لاحظ النزعة الشعوبية : تفضيل الخراسانين على جند الشام العرب .

- لاحظ انواع الاسلحة التي كان يستعملها الفرس : الحطبول ، والبنود ، والاجراس، والبازيكند (كساء يوضع على الكتف)، واللبود، والسيوف المعقوفة، والقلانس ، والخيول الشهرية (البراذين) ، والكافركوبات (المقارع) ، والطبرزينات (الفؤوس) ، والخناجر ، والدرع ، والركاب . عدا تلك التي تستعمل في التمارين العسكرية مثل الدبوق (لعبة للصبيان) ، والنزو على الخيل ، والطبطاب (مضرب الكرة) والصولجان ، والمحتمة (ما نصب من الحيوان للرمي والقتل) والبرجاس (غرض في الهواء على رأس رمح) والطائر الخطاف .

(٨) مفاخر العرب تقتصر على الشعر الموزون ، وقرابة النبي والسبق الى الدين الاسلامي وحمل لوائه ، والانساب النقية ، والخطابة . ورد دعوى الخراسانيين بانهم اصحاب الدعوة العباسية . ان قواد تلك الدعوة من العرب وقد سمى أهمهم امثال قحطبة ابن شبيب الطائي ، وسليمان بن كثير الخزاعي الخ . .

(٩) مفاخر الموالي تجمع النسب الذي يعتز به العرب لانهم عرب بالولاء ، والاصل الذي يفتخر به العجمي اي الفارسي .

ويفخرون بحب النبي اياهم ، فقد عقد لاسامة بن زيد وهو مولى على عظماء المهاجرين والانصار وقال عنه انه « الحب ابن الحب » .

(١٠) مفاخر الابناء تنحصر في الشجاعة والاقدام في الحروب والفتك وقمع الثورات

واهمال الشغب . ويبدو ان الخليدية والكتفية والبلالية والخربية حركات تمرد قمعها الابناء .

(١١) يؤكد الجاحظ من جديد اتفاق الاعراق والاجناس التي تتشكل منها الدولة العباسية . فليس الاختلاف في الاسم دليلاً على الاختلاف في الحقيقة . والروابط التي توحدهم هي الولاء والحلف والاصل الواحد لجميع البشر من آدم وحواء .

ـ ان الناس جميعاً عبيد الله يقلبهم كيف يشاء ويخلقهم ، كيف يشاء . وله ان يجعل من شاء عربياً ومن شا ء عجمياً ، من شاء ذكراً ومن شاء انثى ؛ وهو الذي خلق آدم من غير أب وام وخلق حواء من ضلعه ، وخلق عيسى من غير ذكر ، وخلق الجان من النار وخلق السماء من دخان والأرض من ماء ، وعلم سليمان منطق الطير .

والجاحظ يذكر مشيئة الله في خلقه ليبين انه لا فضل لمخلوق على آخر . وقد ميز بين الاعراق والاجناس كما ميز بين اصناف المعادن ولنلاحظ قوله مثل طاليس ان الماء أصل العالم .

(١٢) « هذا كتاب كنت قد كتبته ايام المعتصم رضي الله عنه فلم يصل اليه » . هذه العبارة تدل على تاريخ تأليف الكتاب او قسم منه في عهد الخليفة المعتصم . والقسم الاول الذي ينتهي هنا قد وضع ايام المتوكل . واذا كان القسم الذي وضع في عهد المعتصم يتناول مفاخر الاتراك (لأن الاتراك غلبوا على السلطة ايام المعتصم وكثر عددهم في الجيش) فان القسم الاول الذي وضع ايام المتوكل يتناول مفاخر الخراسانيين والعرب والموالي والابناء (لأن المتوكل حاول ايجاد التوازن في الجيش بين مختلف الاجناس) .

وعلى هذا الاساس ينبغي اعادة ترتيب مادة الكتاب . بحيث يوضع القسم الثاني الذي يبدأ بعبارة : « هذا كتاب كنت كتبته ايام المعتصم » في أول الكتاب .

(١٣) يذكر الجاحظ مناسبة تأليف الكتاب وهي السؤال الذي طَرَحَه الخليفة المأمون على قواده والمقربين اليه امثال . محمد بن حميد الطوسي والاخشيد وابي شجاع ويحيى بن معاذ : ايهما اشجع التركي او الخارجي .

(١٤) خصال الخوارج : صدق الاقدام ، والصبر ، والنصر ، وقلة الامتعة .

الحزون جمع حزن هو المرتفع .

بنات شحاج : البغال .

بنات صهال : الخيول .

(١٥) للتركي اربعة عيون : عينان في وجهه وعينان في قفاه، وللخارجي عين ـ ولا عيب ـ

في مستدبر الحرب وللخراساني عين في مستقبل الحرب . وبذا يصح المعنى . والعين هنا استعملت بمعنى البصر في الأمر والعلم به . فالتركي يتحسس الحرب في جميع الجهات والخارجي يحسن الكر الى الامام والخراساني الكر الى الامام .

الوهق : الحبل . الانتساف : الاقتلاع .

المهلب بن ابي صفرة ، الحريش بن هلال وعباد بن الحصين التميميان ، من الفرسان المشهورين . وكان المهلب والياً على خراسان ابان الدولة الاموية .

- الخوارج جمعوا في صفوفهم اجناساً مختلفة من اصقاع متباينة وانقسموا الى فرق عدة . فكان منهم اعداد من سجستان وخراسان والجزيرة واليمامة والمغرب وعمان ، وانضوى تحت لوائهم العربي والمولى والعجمي والاعرابي والعبد والمرأة والحائك والفلاح .

وقد انقسموا الى فرق ذكر منها الجاحظ هنا الازارقة والنجدات والاباضية والصفرية .

الازارقة نسبة الى رئيسهم نافع بن الازرق الحنفي ، قالوا بتكفير علي بن ابي طالب وكل مرتكب كبيرة ، وكل قاعد عن الجهاد .

وفرقة النجدات او النجدية نسبة الى رئيسهم نجدة بن عامر الحنفي . قالوا يجب على المسلمين معرفة الله ورسله وتحريم دماء المسلمين واموالهم . وما سوى ذلك فالناس معذورون فيه بجهلهم .

وفرقة الصفرية نسبة الى عبد الله بن الأصفر قالوا ان جميع مخالفيهم كفار يحل قتلهم .

- حمزة بن ادرك الخارجي : صاحب احدى فرق العجاردة من الخوارج ، خرج في خراسان ايام الرشيد وبقي يقاتل حتى ايام المأمون .

- الوليد بن طريف أحد رؤساء الخوارج قتله يزيد بن مزيد القائد العباسي .

- ثمامة بن اشرس احد شيوخ المعتزلة ومعاصر الجاحظ، هو كما يقول الجاحظ عربي بيد انه معجب الاتراك . وقد وقع في اسرهم مرة فاكرموه ، وشهد بعض وقائعهم

- الجاحظ يذكر انه رافق المأمون في بعض غزواته . ويبرر اصطناع المعتصم للاتراك عندما تولى الخلافة لشدة بطشهم وصبرهم على القتال . ويذكر ايضاً ما شاهده من انفلات فرس من الجنود الخراسانيين وغيرهم وعجزهم عن اخذها حتى جاء تركي فقبض عليها وسلمهم اياها .

- لاحظ كيف يفسر الجاحظ ظاهرة تعلق الاتراك بوطنهم وحنينهم اليه اكثر من

العرب وسائر الأمم . لأن تركيبتهم وطبيعتهم من تركيب بلادهم . وقد اورد بعض هذه الافكار في كتاب الاوطان والبلدان .

(١٦) قارن الجاحظ بين مختلف الأمم من عرب ويونانيين وأتراك وفرس وصينيين وخلص الى القول ان الاتراك تفوقوا في الحرب تفوق اليونانيين بالحكمة واهل الصين في الصناعة ، والعرب بالأدب ، وآل ساسان في الرياسة . وقد مهد السبيل في هذه المقارنة الى ابن صاعد الاندلسي صاحب كتاب طبقات الامم .

- لاحظ انساب العرب والأتراك واليهود . كلهم ينتهون الى جد مشترك هو ابراهيم ويتحدرون من ثلاث امهات تزوجهن ابراهيم : هاجر القبطية ، وسارة السريانية ، وقطورا بنت مفطون العربية .

- اسم الاتراك جاء من التَرْك تبعاً للحديث المأثور : تاركوا الترك ما تاركوكم . وبقوله « اتركوهم سموا الترك » .

- الجاحظ يترجم لابراهيم بن السندي مولى امير المؤمنين المعتصم . وقد حدثه عن خاقان ملك الترك الذي حارب الجنيد بن عبد الرحمن المري امير خراسان من قبل هشام بن عبد الملك الخليفة الاموي . ويروي ما دار بينهما من حديث حول احكام الدين الاسلامي في الزنا والسرقة والسلب والقتل الخ . . .

- الفرق بين العقل والنقل : اصحاب العقل يردون احكامهم الى جواز العقول وما يحسن في الرأي . واصحاب النقل يتبعون ما ورد في كتب الانبياء لعلمهم أن الله ادرى بصالح الخلق .

- جهم بن صفوان (١٢٨ هـ) مؤسس فرقة الجهمية . قال بالجبرية والاضطرار وانكر حرية الانسان او قدرته على فعل اعماله . وقال ان الايمان هو المعرفة بالله والكفر هو الجهل به ، وقتل في اواخر الدولة الاموية .

- ٨ -

فخر السودان على البيضان

[١ ـ مقدمة]

تولاك الله وحفظك ، وأسعدك بطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته .

ذكرت ـ أعاذك اللّهُ من الغشّ ـ أنّك قرأتَ كتابي في مُحاجَّة الصُّرحاء للهجناء ، وردّ الهُجَناء ، وجواب أخوال الهُجناء ، وأنّي لم أذكر فيه شيئاً من مفاخر السُّودان . فاعلَمْ حفِظَك اللّه أنّي أخّرت ذلك متعمّداً .

وذكرتَ أنّك أحببتَ أن أكتب لك مفاخرَ السُّودان ، فقد كتبتُ لك ما حضرني من مفاخرهم .

قال الأصمعيّ : قال الفِزْرُ عبدُ فزارة وكانت في أذنه خُربَة : إنَّ الوِثام يتَرَّع في جميع الطُّمْش : لا يَقرب العنز الضّأن ما وجدت الماعز ، وتنفر الشّاءُ من المِخلب ولا تأنس بالخُفّ .

وأنشد أبو زَيدٍ النّحويُّ :

لولا الوِئامُ هلَكَ الإنسانُ

وقال شدّادٌ الحارثيُّ ـ وكان خطيباً عالماً ـ : قلتُ لأمةٍ سوداء بالبادية : لمن أنتِ يا سوداء ؟ قالت : لسيِّد الحَضَر يا أصلع . قال : قلت أو لستِ بسوداء ؟ قالت : أو لستَ أصلع ؟ قلت : ما أغضبكِ مِن الحق . قالت :

الحَقُّ اغضبْك ، لا تَشْتُمْ حتى تُرهب ، وَلأن تَتركه أمثَلُ .

وقال شدّاد : لقد كلّمتها وأنا أظنُّ أنّي أفي بأهل نجد ، وما نَزَعَتْ عنّي إلّا وأنا عِندَ نفسي لا أفي بأَمَتِي .

وقال الأصمعيّ : قال عيسى بن عمر : قال ذو الرُّمّة : قاتل اللّهُ أمةَ آلِ فلانٍ السُّوداءَ ، ما كان أفصحَها وأبلغَها ! سألتُها كيف كان المطر عندكم ؟ قالت : غِثنا ما شئنا .

[٢ ـ نجباء السودان]

انّ لقمانَ الحكيمَ منهم ، وهو الذي يقول : ثلاثة لا تعرفهم إلّا عند ثلاثة : الحليم عند الغَضَب ، والشُّجاع عند الخوف ، والأخ عند حاجتك .

وقال لابنه : إذا أردتَ أن تخالط رجلاً فأغضِبْه قبل ذلك ، فإنْ أنصفَك وإلّا فاحْذَره .

ولم يَروُوا ذلك عنه إلّا وله أشباهٌ كثيرة . وأكثرُ من هذا مَدْحُ اللّه إيّاه وتسميتُه الحكيمَ ، وما أوصى به ابنَه .

ومنهم : سعيد بن جُبَير ، قتله الحجّاج قبل موته بستّة أشهر وهو ابن تسعٍ وأربعين سنة ، ومات الحجّاج وهو ابن ثلاث وخمسين سنة . وكان سعيدٌ أوْرعَ الخَلْق وأتقاهم ، وكان أعظمَ أصحابِ ابن عبّاس . وأصحابُ الحديث يطعنون في الذي يجيء من قِبَل أصحاب ابن عباس حتى يَجِيء [من] سعيدِ ابن جُبير . وأبوه مولى بني أسد ، وهو مولى بني أميّة ، وقُتِل يومَ قُتِلَ والناسُ يقولون : كلُّنا محتاجٌ إليه .

ومنهم : بلالٌ الحبشيُّ رضي الله عنه ، الذي يقول فيه عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إن أبا بكرٍ سيِّدُنا وأعتَقَ سيِّدَنا ، وهو ثلث الإسلام .

ومنهم : مِهْجَع ، وهو أوّل قتيلٍ قُتِل بين الصَّفَّين في سبيل الله .

ومنهم : المقداد ، وهو أوّلُ من عدا به فرسُه في سبيل الله .

ومنهم : وحشيٌّ قاتلُ مُسيلمةَ الكذّاب . وكان يقول : قتلتُ خيرَ الناس - يعني حمزةَ بنَ عبد المطّلب رضي الله عنه - وقتلتُ شرَّ الناس - يعني مُسيلِمَة الكذّاب .

ومنهم : مكحولٌ الفقيه .

ومنهم : الحَيقُطان الشّاعر ، الذي كان يَفضُل في رأيه وعقله وهمّته . وهو الذي يقول في الإخوان : لا تعرفُ الأخ حتّى ترافقَه في الحَضَر ، وتُزامله في السّفر .

ومنهم : جُليبيبُ الذي تحدّثت الرُّواةُ أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجَ في غزاةٍ فقال لأصحابه : هل تَفقِدونَ من أحد ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تَفقِدون من أحد ؟ قالوا : نفقد فلاناً وفلاناً . ثم خرج فقال : هل تَفقدون من أحدٍ ؟ قالوا في الثالثة : لا . قال : لكنّي أفقد جُليبيباً ، اطلبوه . فطَلبوه فوجدوه بين سبعةٍ قد قَتَلَهُمْ ثمّ قُتِل . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « قَتَلَ سبعةً ثمّ قتلوه . هذا منّي وأنا منه » . قال : ثمّ حمَلَه على ساعدَيهِ حتّى حَفَروا له ، ماله سريرٌ غير ساعِدَي رسولِ الله صلى الله عليه وسلم . قال : ولم يذكروا غسلاً .

ومنهم : فرجٌ الحجّام وكان من أهل العَدالة ، والمقدَّمين في الشّهادة . أعتقه جَعفر بن سُليمان ؛ وذلك أنّه خدَمه دهراً يُصلح شاربَه ولحيتَه ويهيّئه ، فلم يره أخطأ في قولٍ ولا عمل ، فقال : واللهِ لأمتحننّه ، فإنْ كان ما أرى منه عن تدبيرٍ وقصدٍ لأعتِقنّه ولأزوّجنّه ولأغنينّه . وإن كان على غير ذلك عرفتُ الصُّنعَ فيه . فقال له ذاتَ يوم وهو يحجمه : يا غلامُ ، أتحتجم ؟ قال : نَعم . قال : ومتى ؟ قال : عند الحاجة . قال : وتعرفُ ذلك ؟ قال : أعرفُ أكثرَه وربّما غلطت . قال : فأيَّ شيءٍ تأكل ؟ قال : أمّا في الشتاء فداكبراه خاثرة حلوة . وأمّا في الصّيف فسِكباجةٌ حامضة عذبة . فبلغ به جعفر

ابن سليمانَ ما قال . وهو الذي يقول فيه أبو فرعون :

خلُّوا الطَّريقَ زوجتي أمامي أنا حميمُ فرجِ الحجّامِ

قال: وبلَغ من عدالته ونُبله في نفسه وتوقّيه وورَعه، أنّ مواليَه من ولد جعفرٍ وكبارَ أهلِ المربد ، كانوا لا يطمعون ان يُشْهِدوه إلاّ على امرٍ صَحيح لا اختلاف فيه .

وأمّا الحُيقُطان فقالَ قصيدةً تحتجُّ بها اليمانية على قُريشٍ ومضر ، ويحتجُّ بها العجم والحبش على العرب ، وكان جريرٌ رآه يومَ عيدٍ في قميص أبيَض وهو اسود ، فقال :

كأنه لما بدا للناسِ أيرُ حمارٍ لُفَّ في قرطاسِ .

فلما سمعَ بذلك الحيقطانُ وكان باليمامة ، دخل الى منزله فقال هذا الشعر :

لئن كنتُ جَعدَ الرّأسِ والجلدُ فاحمٌ فإنّي لَسَبْطُ الكفِّ والعرضُ ازهرُ

وإنّ سوادَ اللّون ليس بضائري إذا كنتُ يومَ الرّوع بالسّيف اخطِرُ

فإن كنتَ تبغي الفخرَ في غير كنهه فرهطُ النّجاشي منك في الناس أفخر

تأبّى الجُلَنْدَى وابنُ كسرى وحارثٌ وهَوذةُ والقِبطيُّ والشيخُ قيصرُ

وفاز بها دونَ الملوك سعادةٌ فدامَ له الملكُ المنيعُ الموقَّرُ

ولقمان منهم وابنه وابنُ أمّه وأبرهةُ المَلْك الذي ليس يُنكَرُ

غزاكم ابو يكسومَ في أمّ داركم وانتم كقَبْضِ الرّملِ او هو اكثر

وأنتم كَطيرِ الماءِ لّما هوى لها بلقعةٍ ، حُجنُ المخالبِ أكدرُ

فلو كان غيرُ الله رامَ دفاعه علمتَ وذو التّجريب بالناس أخبرُ

وما الفخرُ إلاّ أن تبيتوا إزاءه وأنتم قريبٌ ناركم تتسعّرُ

ويَدلُف منكم قائد ذو حفيظة نُكافحه طوراً وطورا يدبّر

فأما التي قُلتم فتلكم نُبوّة وليس بكم صَونُ الحرامُ المسترُ

وقلتم لَقَاحٌ لا نؤدّي إتاوة | فإعطاءُ أريانٍ من الفرُّ أيسرُ
ولو كان فيها رغبةٌ لمتوّجٍ | إذاً لأتتها بالمقاول حِمْيرُ
وليس بها مشتٍّ ولا متصيّف | ولا كجُؤاثا ماؤها يتفجّر
ولا مسرتَعٌ للعين أو متقنّص | ولكنْ نُمْراً ، والتجارةُ تُحقَر
الستَّ كُليبيّاً وأمُّك نعجةٌ | لكم في سِمان الضّان عارٌ ومَفْخرُ

أما قوله :

تأبّى الجُلندَى وابنُ كسرى وحارثٌ | وهوذةُ والقبطيّ والشيخُ قيصرُ

فإنّه يقول : كتبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى بَني الجُلندَى فلم يؤمنوا وكذلك كسرى ، وكذلك الحارث بن أبي شَمِر ، وكذلك هَوذة بن علي الحنفيّ ، وكذلك المقوقس عظيم القبط صاحبُ الإسكندرية ، وكذلك قيصرُ ملك الرّوم . على أنَّ بني الجُلَندَى قد أسلموا من بعد ذلك الكتاب ، ولكنْ النّجاشيَّ أسلمَ قبل الفتح ، فدام له ملكُه ونزع الله من هؤلاء النّعمة . وقيصر إنْ كانَ قد بقي من ملكه شيءٌ فقد أخرجوه من كلِّ مكانٍ يبلغُه ظِلفٌ أو حافر ، وصار لا يتمنّع إلاّ بالخليج وبالعِقاب والحصون وبالشّتاء والثّلوج والأمطار .

وفخرَ بلقمان وابنه .

وأمّا قوله :

غزاكم أبو يكسومَ في أمّ داركم | وأنتم كقِبْض الرّمل أو هو أكثر

فإنّه يَعني صاحب الفيل حين أتى مكّةَ ليهدم الكعبة . يقول : كنتم في عدد الرّمل ، فلِمَ فررتمْ منه ولم يلقه أحدٌ منكم حتّى افضى إلى مكّة ، ومكةُ أمّ القُرى ، ودارُ العرب هي جزيرةُ العرب ، ومكة قريةٌ من قراها ، ولكنْ لما كانت أقدمَها قِدَماً ، وأعظمَها خطراً ، جُعِلت لها أمّاً . ولذلك قيل لفَتْح مكّة : فَتْحُ الفُتوح . وعلى مثل ذلك سمّيت فاتحةُ الكتاب : أمُّ الكتاب .

والعرب قد تجعل الشيء أمّ ما لم يَلِدْ . من ذلك قولهم : ضربه على أمّ رأسه ، وكذلك أمّ الهاوية . والضَّيف يسمى ربَّةَ منزِلِهِ أمَّ مَثْوايَ .

وقال أعرابيٌّ وقد أصابته براغيثُ عند امرأةٍ كان نزل بها :

يا أمَّ مثوايَ عدِمتُ وجهكِ — أنقذني ربُّ العُلا من مصرِك

ولذع بُرغوثٍ أراه مُهلِكي — أبيتُ ليلي دائبَ التحكُّك

تحكُّكَ الأجربِ عند المبرك

وقد أبان الله تعالى مكةَ والبيتَ حين قال : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ ﴾ .

يقول : فإذا غُزيت ـ وهي أمُّ القرى وفيها البيتُ الحرام الذي هو شرفُكم ـ فقد غُزِي جميعُكم .

وأمّا قوله :

وأما التي قُلتم فتلكم نبوّةٌ — وليس بكم صَونَ الحرامُ المستَّرُ

وقلتم لَقاحٌ لا نؤدّي إتاوةً — فإعطاء أريانٍ من الفرِّ أيسرُ

فاللَّقاح : البلد الذي لا يُؤدّي إلى الملوك الأريان . والأريان : هو الخراج ، وهو الإتاوة . وفي ذلك يقول عَبيد بن الأبرص :

أبَوْا دِينَ المُلوك فهم لَقاحٌ — إذا نُدِبوا إلى حربٍ أجابوا

قال : فقلتم إنّا لَقاحٌ ولسنا نؤدّي الخَراج والأريان .

قال : فإعطاء الخراج أهونُ من الفِرار وإسلامِ الدار وأنتم مثلُ عددِ مَنْ جاءكم المرارَ الكثيرة .

وأمّا قوله :

وليس بها مَشْقٌ ولا متصيِّفٌ — ولا كجُؤاثا ماؤها يتفجّرُ

يقول : ليس في الغَلَبة على مكّة رغبة ، ولولا ذلك لغزاها أهلُ اليمن وغيرُهم . وليس بها مشتىً ولا متصيَّف ؛ لأنهم يتبرَّدون بالطائف ويتدفَّوْن بجُدَّة . وجُؤاثا : عينٌ بالبحرين . وليس بمكّة شيءٌ يداني ذلك .

وقال :

ولا مرتعٌ للعَين أو متقنَّص ولكنَّ تجراً والتِّجارة تُحقَرُ

يقول : ليس بها متنزَّهات ، وصَيدُها حرام ، وإنّما تُجّار والتُّجّار يُحقَرون. يقول : هم عند الناس في حدِّ الضعف ولا يستجيز ملِكٌ أخذَ الذي به يتعيَّشون ، ولا يكون ما يُؤخذ منهم يقوم بنوائب الملوك ، وهم قومٌ ليس عندهم امتناعٌ . ولذلك يقول الشاعر معاوية بن أوس ، وهو جاهليٌّ :

وزِقٍّ سباتٌ لذى مَتجرٍ أُسَيودَ كالرَّجل الأسحمِ
ضربتُ بِفيه على نحره وقائمُه كيدِ الأجذمِ
إلى التَّاجر العربيِّ الشحيحِ أو خمرِ ذي النُّطَف الطُّمطِمِ

أراد بهذا كلّه قريشاً . يقول : هم تُجّار وقد اعتصموا بالبيت ، وإذا خرجوا علّقوا عليهم المُقْل ولحاءَ الشّجر حتّى يُعرفوا فلا يقتلهم أحد .

وأما قوله :

ألستَ كليبيّاً وأمُّك نعجةٌ لكم في سِمان الضَّأن عارٌ ومفخرُ

فإنّ بني كُليب يُرمَون بإتيان الضّأن ، وكذلك بنو الأعرج ، وسُليم . وأشجعُ تُرمَى بإتيان المَعْز .

وقال النَّجاشيّ :

ولو شتمتني من قُريشٍ قبيلةٌ سِوى ناكةِ المِعزى سُليمٌ وأشجعُ

وقال الفرزدق :

ولستُ مضحِّياً ما دمتُ حيّاً ... بشاةٍ من حَلوبةِ أعرجيٍّ
فما أدرى إذا أنفقتُ مالي ... لعلَّ الشاةَ تُبقَر عن صبيٍّ

وقال الآخر :

إذا أحببت أن تُغْلِي أتاناً ... فدُلَّ الدارميَّ على شِراها
يُقبِّل ظهرَها ويكاد لولا ... فُحول الظَّهر يدنو من قفاها
ووَدَّ الدارِميُّ لَوَ أنَّ فاه ... إذا نال الحمارَةَ نال فاها

وقال عبد بن رشيد :

قبيلةُ سَوءٍ خَيرهم مثلُ شرِّهم ... ترى منهمُ للضأن فحلاً وراعيا
إذا جُلِبتْ فيهم عروسٌ لبعلها ... ترى النَّعجةَ البَقعاءَ أبكى البواكيا

ولذلك قال الأخطل :

فانعَقْ بضأنك يا جريرُ فإنَّما ... منَّتكَ نفسُك في الخَلاء ضلالا

ولذلك قال الحَيقُطان :

ألستَ كليبيّاً وأمُّك نعجةٌ ... لها في سِمان الضَّأن عارٌ ومفخرُ

أمَّا العار فالذي شاع عليهم من ذِكر النِّعاج . وأما المَفخر يقول : إذا فَخَروا فخروا بالشَّاء ، ولا يبلغون إلى حدِّ الإبل .

ومن مفاخر السُّودانِ والزِّنج والحبَش مع ما ذكرنا من قصيدة الحيقطان ، أنَّ جرير بن الخطفى لَمّا هجا بني تَغلبَ [و] قال :

لا تَطلُبَنَّ خُؤولةً في تَغلبٍ ... فالزِّنجُ أكرمُ منهمُ أخوالا

غضِب سنيح بن رِبَاح شار ، فهجا جريراً ، وفخر عليه بالزِّنج فقال :

ما بالُ كلبٍ من كُليبٍ سبَّنا ... أن لم يُوازن حاجباً وعِقالا

إنَّ امرأً جَعلَ المراغةَ وابنَها ... مثلَ الفرزدق جائرٌ قد قالا
والزِّنجُ لو لاقيتَهم في صفِّهم ... لاقيتَ ثَمَّ جَحاجحاً أبطالا
فسلِ ابنَ عمروٍ حين رامَ رماحهم ... أرأى رماحَ الزِّنجِ ثَمَّ طِوالا
فجعوا زياداً بابنِهِ وتنازلوا ... لما دُعُوا لنزالِ ثَمَّ نِزالا
ومر بُطين خيولهم بفِنائهم ... وربطتَ حولَك شيُّها وبِخالا
كان ابن نَدبَة فيكمُ من نجلنا ... وخُفافٌ المتحمِّلُ الأثقالا
وابنا زُبَيبَة : عنترٌ وهَراسةٌ ... ما إن نرى فيكمْ لهم أمثالا
سَلْ ابنَ جيفر حين رام بلادنا ... فرأى بغزوتهم عليه خبالا
وسُلَيكٌ اللَّيثُ الهِزَبرُ إذا عدا ... والقَهرمُ عَبّاسٌ علوكَ فَعالا
هذا ابن خازمٍ ابنُ عَجْلَى منهم ... غلبَ القبائلَ نجدةً ونَوالا
أبناءُ كلِّ نجيبةٍ لنجيبةٍ ... أسدٌ تُربِّب عندها الأشبالا
فلنحنُ أنجبُ من كُليبَ خُؤولةً ... ولأنت الأمُّ منهمُ أخوالا
وبنو الحُبابِ مَطاعنٌ ومَطاعمٌ ... عند الشتاء إذا تهبُّ شَمالا

أما ابن عمروٍ الذي ذَكر ، فهو حَفص بن زياد بن عمروٍ العَتَكيّ ، كان خليفةَ أبيه على شُرطة الحجاج ، فغلبَ رِباح شَار الزِّنجي على الفُرات ، فتوجَّه إليه حفص بن زيادٍ فقتَله رِبَاحٌ وقتلَ أصحابه واستباح عسكره .

وأمّا ابنُ جيفر فهو النُّعمان بن جَيفر بن عُباد بن جَيفر بن الجُلَندى . كان غزا بلادَ الزِّنج فقتلُوهُ وغنِموا عسكره .

ثم ذكر أبناءَ الزِّنجيات حين نَزعوا إلى الزِّنج في البَسالة والأنفة . فذكر خُفافَ بن نَدبة ، وعبَّاسَ بن مِرداس ، وابنَي شَدّادٍ : عنترةَ الفوارسِ وأخاه هَراسة ، وسُليكَ بن السُّلَكة . فهؤلاء أُسدُ الرجال ، وأشدُّهم قلوباً وأشجعهم بأساً ، وبهم يُضرب المثل .

ومنهم : عبد الله بن خازمٍ السُّلمي ، وبنو الحُباب : عُمير بن الحُباب وإخوتُه .

وكان أيضاً منهم : الجحّاف بن حَكيم .

وهم أيضاً يفخرون بَرَباحٍ أخي بلال وحالِه وصلاحِه .

ويفخرون بعامر بن فُهيرة ، بدريٌّ استُشهِد يومَ بئر مَعُونة ، فرآه الناسُ قد رفعه اللّهُ بين السَّماء والأرض ، فليس له في الأرض قبر .

ومنهم : آلُ ياسر .

قالوا : ومنّا الغُذافُ صاحبُ عُبَيد الله بن الحُر . لم يكنْ في الأرض أشدُّ منه : كان يَقطع على القافلةِ وَحدَه بما فيها من الحُماة والخُفَراء .

وكَعْبَويهِ صاحب المُغيرة بن الفِزْر ، كان مثلاً في الشَّجاعة .

ويقولون : ومِنّا مرْبح الأشرم ، غلام أبي بحرٍ القائد ، الذي كان قدِم من الشام أيامَ قُتيبةَ بن مسلم ، وكان لا يُرام لقاؤه ، وأمره مشهور .

قالوا : ومنا المغلول وبنَوه ، وهم من الخَول ، ليس في الأرض أعرَفَ ولا أثقف ولا أعلمَ بالبادية منهم .

قالوا : ومنّا أفلح ، الذي قطع على القوافل بخُراسان وحده عشرين سنة . قالوا : وإنَّما قتلَه مالك بن الرَّيب ، لأنَّه وطئه في جوف اللَّيل وهو سكرانُ خائر . والشاهد على قولنا قولُ ابنه :

أَمَالِكُ لولا السُّكر ايقنتَ أنَّه أخو الوَرد أو يُربي على الأسَد الوَردِ

قالوا : ونحن قد ملكنا بلادَ العرب من لَدُن الحَبَشة إلى مكَّة ، وجَرَتْ احكامُنا في ذلك اجمع . وهزمْنا ذا نُوَاسٍ ، وقتَلْنا أقيالَ حمير . وأنتم لم تملكوا بلادنا . وقد قال شاعركم :

وخرّب غُمدانا وهدّم سَقفَه رِبَاطُ بأجنادٍ وصولتُهُ هَصرُ
أطافت به الأحبوش ليلاً ففوّضوا بِنا شدّةُ الأقيالُ في سالِف الدَّهرِ
بجَمعٍ من اليَكسوم سُودٍ كأنّهم أسودُ الشَّرَى اجتابتْ جلوداً من المرِ

قالوا : ومنا كباجلا ، لم يصعد نهر . مان ولا قاتلَ في المخارجات أحدٌ قطُّ يشبهُه .

قالوا : ومنّا الأربعون الذين خَرجوا بالفُرات أيّام سَوّار بن عبد الله القاضي ، فأجْلَوْا أهلَ الفُرات عن منازلهم ، وقتلوا من أهل الأُبُلّة مقتلةً عظيمة .

قالوا : ومنّا الذي ضَرَبَ عنقَ عيسى بن جعفر بُعُمَان ، بمنجلٍ بَحرانيّ ، بعدَ أن لم يجسُر عليه أحد .

[٣ ـ خصال السودان]

قالوا : والناسُ مجمعون على أنه ليس في الأرض أمّةٌ السّخاءُ فيها أعمُّ ، وعليها أغلب من الزّنج . وهاتان الخَلّتانِ لم تُوجدا قطُّ إلاّ في كريم .

وهي أطبع الخَلْق على الرّقص الموقّع الموزون ، والضّرب بالطّبل على الإيقاع الموزون ، من غير تأديبٍ ولا تعليم .

وليس في الأرض أحسنُ حُلوقاً منهم . وليس في الأرض لغةٌ أخفُّ على اللّسان من لغتهم ، ولا في الأرض قومٌ أذربُ ألسنةً ، ولا أقلُّ تمطيطاً منهم .

وليس في الأرض قومٌ إلاّ وأنت تصيب فيهم الأرَتَّ والفَأفاء والعَييّ ، ومَن في لسانه حُبسة ، غيرهم .

والرجل منهم يخطُب عند الملِك بالزّنج من لدنْ طلوعِ الشّمس إلى غروبها ، فلا يستعينُ بالتفاتةٍ ولا بسَكتةٍ حتى يفرغ من كلامه .

وليس في الأرض أمّةٌ في شِدّة الأبدان وقُوّة الأسرِ أعمُّ منهم فيها .

وإنّ الرّجلَ لَيرفعُ الحجرَ الثّقيل الذي تَعجز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم . وهم شجعاءُ أشداءُ الأبدان أسخياء . وهذه هي خصال الشرف .

[والزنجيُّ] مع حُسن الخُلق وقلّة الأذى ، لا تراه أبداً إلاّ طيّب النفس ، ضَحوكَ السّنّ ، حسنَ الظّنّ . وهذا هو الشرف .

وقد قال ناسٌ : إنّهم صاروا أسخياءَ لضعف عُقولهم ، ولقصر رَويّاتهم ، ولجهلهم بالعواقب .

فقلنا لهم : بئس ما أثنيتم على السّخاء والأثرة ، وينبغي في هذا القياسِ أن يكونَ أوفرُ النّاسِ عقلاً وأكثرُ النّاس علماً أبخلَ النّاس بُخلاً وأقلَّهم خيراً .

وقد رأينا الصّقالبةَ أبخلَ من الرُّومِ ، والرُّوم أبعد رويّةً وأشدُّ عقولاً وعلى قياس قولكم أنْ قد كان ينبغي أن تكون الصّقالبةُ أسخى أنفُساً وأسمحَ أكُفّاً منهم .

وقد رأينا النّساءَ أضعَفَ من الرّجال عُقولاً ، والصّبيانَ أضعَفَ عقولاً منهم ، وهم أبخلُ من النّساء، والنّساء أضعفُ عقولاً من الرجال . ولو كان العقل كلّما كان أشدُّ كان صاحبُه أبخل ، كان ينبغي أن يكون الصبيُّ أكرمَ الناس خصالاً . ولا نعلم في الأرض شرّاً من صبيّ : هو أكذبُ النّاسِ وأنمُّ النّاسِ ، وأشرهُ النّاسِ وأبخَل النّاس ، وأقلُّ الناس خيراً وأقسى الناسِ قسوة .

وإنّما يخرج الصبيُّ من هذه الخلال أوّلاً فأوّلاً ، على قدر ما يزداد من العَقْل فيزداد من الأفعال الجميلة .

فكيف صارت قلّةُ العقل [هي] سببَ سخاءِ الزّنج ، وقد أقررتم لهم بالسّخاء ثم ادّعيتم ما لا يُعرف . وقد وقّفناكم على إدحاض حجتكم في ذلك بالقياس الصّحيح .

وهذا القول يوجب أن يكون الجبانُ أعقلَ من الشّجاع ، والغادر أعقلَ من الوفيّ . وينبغي أن يكونَ الجزوعُ أعقلَ من الصّبور . فهذا ما لا حُجّةَ فيه

لكم ، بل ذلك هيبةٌ في النّاس من الله . والعقلُ هيبةٌ ، وحسن الخُلق هِيبة ، والسّخاء والشجاعة كذلك.

وقد قالت الزّنج للعرب : من جهلكم أنّكم رأيتمونا لكم أكفاءً في الجاهلية في نسائكم، فلمّا جاء عَدلُ الإسلام رأيْتم ذلك فاسداً ، و[ما] بنا الرّغبة عنكم . مع أنّ الباديةَ منّا ملأى ممّن قد تزوّج ورأس وساد ، ومنّع الذّمار ، وكَنَفَكم من العدوّ .

قال : وقد ضَربتُم بنا الأمثالَ وعظّمتم أمرَ ملوكنا ، وقدّمتموهم في كثيرٍ من المواضع على ملوككم . ولو لم تَرَوُا الفضلَ لنا في ذلك عليكم لَمّا فعلتم .

وقال النَّمر بن تولب :

أتى ملكَه ما أتى تُبّعاً وأبرهةَ الملكَ الأعظما

فرَفَعَه على ملوك قومه .

وقال لبيد بن ربيعة :

لو كان حيٌّ في الحياة مخلّداً في الدّهر أدركَه أبو يَكسُومِ

وهذا شيءٌ من وصف الفضل لم يوصف أحدٌ بمثله .

قالوا : ومما قدّمتم به ملوكَنا على ملوككم قوله :

غَلبَ الليالي خلفَ آلِ مُحرِّق وكما فعلنَ بتُبّعٍ وبهِرْقَلِ
وغلبنَ أبرهةَ الذي ألفيتَه قد كان خُلّد فوق غُرْفةِ مَوْكلِ

فقدّم أبرهة وأراد التّسوية .

قالوا : ومن الحَبَشة عُكَيْمٌ الحبشيّ ، وكان أفصح من العجّاج . وكان علماء أهل الشام يأخذون عنه كما أخذ علماء أهل العراق من المنتجع بن نَبهان .

وكان المنتجعُ سِنديّاً في أذنه خُرْبة ، وقع إلى البادية وهو صبيٌّ ، فخرجَ

أفصحَ من رُؤبة .

ولما قال حَكِيم بن عيّاشٍ الكلبيّ :

لا تفخرنَّ بخالٍ من بني أسد ... فإنَّ أكرمَ منها الزُّنج والنُّوبُ

اعترضَ عليه عُكَيمٌ الحبشيّ ، فقال :

ويوم غُمْدان كنّا الأسدَ قد علموا ... ويومَ يثربَ كنّا فِحْلةَ العربِ
وليلةَ الفيل إذْ طارت قلوبهمُ ... وكلُّهم هاربٌ مُوفٍ على قتبِ
منّا النَّجاشي وذو المقصين صهركمُ ... وجدُّ أبرهة الحامي أبي طَلَبِ
هَبْني غفرتُ لعدنانٍ تهتكهمْ ... فَما لحميرَ والمقوال في النسبِ
حمّارة جُمعت من كلِّ محربةٍ ... جَمْعَ الشُّبيكة نُونَ الزّاخر اللّجِبِ

غُمدان : حصنٌ كانَ ينزلهُ الملكُ الذي يكون على اليَمن ، وكان عجَبيّاً ، فلما ملكت الحبشةُ اليَمن أخربَتْه إلاّ بقايا هدمَها عثمان بنُ عفّانَ رضي الله عنه في الإسلام . وقال : « ينبغي لمآثر الجاهليّة أن تُمحَى » . وكان في الحصن مَصنعةٌ عليها قُبةٌ من طَلْقٍ ، وفيها يقول خلفٌ الأحمر :

ومَصنعة الطُّلق أوذى بها ... عَوادي الأحابيش بالصّيدنِ

وفيها يقول قُدامة حكيمُ المشرق، وكان صاحبَ كيمياء :

فأوقد فيها نارَه ولو أنّها ... أقامت كعمر الدهر لم تتصرَّمِ

لأنَّ الطُّلق لو أُوقِدَ عليه ألفَ عامٍ لم يسخُن . وبه يتطلّى النّفّاطون إذا أرادوا الدُّخول في النار .

وقال لبيد :

أصاحِ ترى بُريقاً هبَّ وهناً ... كمصباح الشَّعيلة في الذُّبالِ
أرِقتُ له وأنجدَ بعد هَدءٍ . ... وأصحابي على شُعَب الرِّحالِ
يُضيء رَبابُه في المزن حُبشاً ... قياماً بالحِراب وبالإلالِ

وقال ذلك لبيدٌ لأنّهم إذا أقبلوا بحرابهم ورماحهم وقِسِيِّهم وسيوفهم ، وراياتهم ، وخيولهم وفيولهم ، مع سَواد ألوانهم وضِخَم أبدانهم ـ رأيتَ هَوْلاً لم تَرَ مثلَه ولم تسمعْ به ، ولم تتوهَّمْه .

وأمّا قوله :

ويومَ يثربَ كنّا فِحلَةَ العربِ

فإنّ مُسرفَ بن عُقْبة المرّيّ ، حين كان أباحَ المدينَة ، زعموا أنّه قد كان هناك أمرٌ قبيحٌ من السودان والجند ؛ وفي ذلك يقول شاعر من شعراء مُضر :

فسائِل مُسرفَ المُرّيَّ عنكم غداةَ أباحَ للجندِ العذارِي
فما زَجْكم على حَنَقٍ زنوجٌ وفَزُّ الشّامُ كالأسدِ الضّواري
ودَافَعَ وَهْرِزٌ والفرسُ عنكم ورأسُ الحُبْشِ يحكُم في ذَمارِ
فأفسدَ نسلَكم بسوادِ لونٍ وأيرٍ مثلِ غُرمولِ الحمارِ

فذكر إباحَةَ الحَبَش لليمن كما ذكر إباحة مسرفٍ للمدينة .

وأمّا قوله :

حَمَارة جُمعت من كلِّ محزوة جمع الشُّبيكة نون الزاخر اللُّجبِ

فإنّه ذهبَ إلى ما تقول الرُّواة أنّ حِمْيرَ كانت حَمّارة .

وأمّا الشُّبيكة فأراد الشبكَةَ .

وقال السُّودان : فهذا الفضلُ فينا ، ولم يصلِّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم قط إلاّ على جنازةٍ أو قبر ، إلاّ النّجاشيّ فإنّه صلّى عليه وهو بالمدينة وقبرُ النّجاشيّ بالحبشة .

قالوا : والنجاشيُّ هو كان زوّجَ أمَّ حَبيبة بنتَ أبي سفيان من النبيِّ صلى الله عليه وسلم ، ودعا خالدَ بن سعيدٍ فجعله وليَّها ، وأصدقَ عن النبيِّ صلّى الله عليه وسلّم أربعمائة دينار .

قالوا : وثلاثة أشياء جاءتكم مِنْ قِبَلنا . منها الغالية ، وهي أطيبُ الطِّيب وأخزُه وأكرمُه . ومنها النَّعْش وهو أسترٌ للنِّساء وأصْوَنُ للحُرَم . ومنها المصحف ، وهو أوفَى لما فيه وأحصَنُ له ، وأبهى وأهيأ .

[٤ - مزايا اللون الاسود]

قالوا : ونحن أهوَلُ في الصُّدور وأملا للعيون ، كما أنَّ المسوَّدة أهْوَلُ في العُيون وأملا للصُّدور من المبيَّضة ، وكما أنَّ الليلَ أهولُ من النهار .

قالوا : والسَّوادُ أبداً أهول . وإنَّ العربَ لتَصِفُ الإبل فتقول : الصُّهب سُرع ، والحُمْر غُزْر ، والسُّود بُهْي . فهذا في الإبل .

قالوا : ودُهم الخَيل أبهى وأقوى ، والبَقَر السُّود أحسَنُ وأبهى ، وجلودُها أثمن وأنفع وأبقى . والحُمُر السُّود أثمَنُ وأحسَنُ وأقوى . وسُود الشَّاء أدسَمُ ألباناً وأكثر زُبداً ، والدُّبْس أغزر من الحُمْر .

وكلُّ جَبلٍ وكلُّ حجرٍ إذا كانَ أسودَ كان أصلبَ صلابةً وأشدَّ يُبوسة . والأسَد الأسود لا يقوم له شيء .

وليس من التَّمر شيءٌ أحلى حلاوةً من الأسْوَد ، ولا أعمُّ منفعة ولا أبقى على الدَّهر . والنَّخِيل أقوى ما تكونُ إذا كانت سُودَ الجذوع .

وجاء : « عليكم بالسَّوادِ الأعظَم » ، وقال الأنصاريّ :

أدِينُ وما دَيني علَيَّ بمُغرَمٍ ولكنْ على الشُّمِّ الطِّوال القَراوِحِ
على كلِّ خَوارٍ كأنَّ جذوعَها طُلِينَ بقارٍ أو بدمٍ ذبائحِ

قالوا : وأحسَنُ الخُضرة ما ضارَع السَّواد . قال الله جلّ وعلا : ﴿ ومِنْ دُونِهما جَنَّتانِ ﴾ ، ثم قال لَمَّا وصَفَهما وشوَّق إليهما : ﴿ مُدهامَّتانِ ﴾ قال ابن عباس : خَضراوانِ من الرِّيّ سوْدَاوان .

وليس في الأرض عودٌ أحسنَ خشباً ولا أغلى ثمناً ، ولا أثقلَ وزناً ولا أسلمَ من القوادح ، ولا أجدرَ أن ينشَب فيه الخطُّ من الآبنوس . ولقد بلغ من اكتنازه والتئامه ومُلوسته وشدَّة تداخُلِه ، أنه يرسُب في الماء دونَ جميع العِيدان والخَشب . ولقد غَلب بذلك بعضَ الحجارة ؛ إذْ صار يرسُب وذلك الحجرُ لا يرسُب .

والإنسانُ أحسنُ ما يكون في العَين ما دام أسودَ الشعر . وكذلك شعورُهم في الجنَّة .

وأكرمُ ما في الإنسان حَدَقتاه ؛ وهما سوداوان . وأكرم الأكحال الإثمِد ، وهو أسود . ولذلك جاء أنَّ الله يُدخِل جميعَ المؤمنين الجنة جُرداً مُرداً مكحَّلين .

وأنفع ما في الإنسان له كبِدُه التي بها تَصلُح مَعِدته ، وينهضم طعامُه ، وبصلاح ذلك قامَ بدنُه ، والكبدُ سوداء .

وأنفسُ ما في الإنسان وأعزُّه سويداءُ قلبه ، وهي عَلَقةٌ سوداءُ تكون في جوف فؤاده ، تقوم في القَلب مقامَ الدِّماغ من الرأس .

ومن أطيب ما في المرأة وأشهاه شَفَتاها للتقبيل ، وأحسن ما تكونان إذا ضارعتَا السَّواد .

وقال ذو الرُّمَّة :

لَمياءُ في شَفَتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ ... وفي اللِّثاتِ وفي أنيابِها شَنَبُ

وأطيبُ الظِّلِّ وأبردُه ما كانَ أسود . وقال الراجز :

سود غرابيب كأظلال الحجرْ

وقال حُميد بن ثور :

ظَلِلنا إلى كهفٍ وظَلَّت ركابُنا ... إلى مستكِفَّاتٍ لهنَّ غروبُ

إلى شجرِ المى الظِّلالِ كأنَّه   رواهبُ أحرَمْنَ الشَّرابَ عُذوب

وجعل الله اللَّيلَ سكناً وجَماماً ، والنَّهارَ للكسب والكدّ .

والذي يدلُّ على أنَّ السَّوادَ في وجهٍ آخرَ مقرونٌ بالشدّة والصَّرامة ، والهَيج والحركة ، انتشار الحيَّاتِ والعقارب وشدّةُ سُمومها باللَّيل ، وهَيجُ السِّباع واستكلابُها باللَّيل . وتحرُّك الأوجاعِ وظهورُ الغِيلان ، هذه كلُّها بالليل .

قال : وأشبْهنا اللَّيلَ من هذا الوجه .

قالوا : وأبلغ ما تكون القاتلةُ وأشفاها للنَّفس ، وأسرع لمجيئها إذا أردتَها ، وأبطأ لذهابها إذا كرهتها ، ما كان منها في الظُّلمة ، عند إسبال السُّتور وإغلاق الأبواب .

قالوا : وليس لونٌ أرسخَ في جوهره وأثبتَ في حُسنه من سَواد .

وقد جرى المثَل في تبعيد الشيء : « لا ترى ذلك حتّى يبيضَّ القار ، وحتّى يَشِيبَ الغُراب » .

وهو العَرَض المَلاَّءُ عند الحُكماء .

وأكرمُ العطر المِسك والعَنبر ، وهما أسودان .

وأصلبُ الأحجارِ سُودها . وقال أبو دهبلٍ الجمحيّ يمدح الأزرق المخزوميّ ، وهو عبد الله بن عبد شمس بن المغيرة :

فإنَّ شكرك عندي لا انقضاء له   ما دامَ بالجِزْع من لُبنانَ جُلمودُ
أنت المَمدحُ والمُغلَى به ثمناً   إذْ لا يعاتَب صخرُ الجندلِ السُّودُ

والعرب تَفخر بسواد اللَّون. فإنْ قال: فَعلامَ ذلك وهي تقول : فلانٌ هجانٌ ، وأزهرُ وأبيض ، وأغرُّ ؟ قلنا : ليس تريد بهذا بياضَ الجلد ، إنَّما تريد به كرمَ الجوهر ونَقاءه . وقد فخرَتْ خُضر محاربٍ بأنَّها سُود ، والسُّود عند

العرب الخُضْر . وقال الشّماخ بن ضرار :

وراحتْ رَوَاحــاً من زَرُودَ فنــازعَتْ زُبـالةَ جِلبـابـاً من اللَّيـل أخضـرَا

وقال الراجز :

حتّى انتضـاني الصُّبح من ليلٍ خَضِرْ مثلَ انتضاءِ البطل السيفَ الذَّكَرْ

وهم يسمُّون الحديدَ أخضر لأنّه صُلب ، لأن الأخضر أسود .

وقال الحارث بن حِلِّزة :

إذْ رَفعنـا الجمـالَ من سَعَف البحـ ـرينِ سيـراً حتّى نَهاهـا الحِسـاءُ
فـهـزمـنـا جمـعَ ابـنَ أمّ قَـطَام ولـه فـارسـيَّـةٌ خـضـراءُ

وقال المُحاربيّ وهو يفخر بأنّه من الخُضْر :

في خُضر قيسٍ نمـاني كـلُّ ذي فَخَـرٍ صعبِ المقـادة آبي الضَّيم شعشـاعِ

وبنـو المغيرة خُضْر بني مخزوم . قـال عُمـر بن عبـد الله بن أبي ربيعـةَ بن المغيرة المخزوميّ ـ ويقال إنّها للفضل بن العبّاس اللَّهَبي :

وأنـا الأخضرُ مَـن يَـعـرفُـني أخضرُ الجـلدةِ في بَيـت الـعـربْ
مَن يسـاجلْني يُسـاجِـل مـاجـداً يمـلأ الـدَّلـوَ إلى عَـقْـد الـكَـرَبْ

وخُضر غسّانَ بنو جفنةَ الملوكُ ، قال الغسّانيّ :

إنّ الخضـارمـةَ الخُضـر الـذيْن وَدَوْا أهـلَ البَـريص نمـاني منهمُ الحكم

وقد ذكر حسانٌ أو غيره الخُضْرَ من بني عُكيم حين قال :

ولستَ من بني هاشمٍ في بيتِ مكرمةٍ ولا بـني جُمَـح الخُضْرِ الجـلاعـيدِ

قالوا : وكـان ولد عبـد المطلب العَشَـرة السّادة دُلْماً ضُخْماً ، نظر إليهم عامرُ بن الطُّفيل يَطُوفون كأنّهم جمالٌ جُونٌ ، فقال : بهؤلاء تُمنع السِدَانة .

وكـان عبـد الله بن عبـاس أدلَمَ ضخـماً . وآلُ أبي طـالبٍ أشـرفُ الخلق ، وهم سُودٌ وأدمٌ ودُلْم .

قالوا : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بُعِثت إلى الأحمر والأسود » .

وقـد علمتَ أنّه لا يُقـال للزّنج والحبشـة والنُّـوبة بِيضٌ ولا حُمر ، وليس لهم اسمٌ إلاّ السُّود .

وقد علمنا أنّ الله عزّ وجل بعث نبيَّـه [إلى الناس] كـافة ، وإلى العـرب والعجم جميعـاً . فإذا قـال : « بُعثت إلى الأحمرِ والأسـود » ولسـنا عنـده حُمـرٌ ولا بيض ، فقـد بُعث إلينا ، فـإنما عنـانا بقـوله « الأسود » . ولا يَخـرج النـاسُ من هـذين الاسمين ، فـإن كانت العـرب من الأحمر ، فقـد دخلت في عِـداد الـرُّوم والصُّقـالبة ، وفـارسَ وخُراسـان . وإن كانت من السُّـود ، فقد اشتُقّ لهـا هـذا الاسم من اسمنـا . وإنما قيـل لهم وهم أدم وسمرٌ سـودٌ ، حـين دخلوا معنـا في جُملتنا ، كما يجعلَ العربُ الإناثَ من الذكور ذكوراً .

وإذا كـان النبي صلى الله عليـه وسلم يعلم أنّ الـزّنـج والحبشـةَ والنُّـوبـة ليسوا بحمرٍ ولا بِيض ، وأنّهم سُـود ، وقد بعثـه الله تعالى إلى الأسـود والأحمر ، فقـد جَعَلَنا والعـربَ سواءً ، ونكـونُ نحن السُّودَ دونهم . فـإنْ كان اسمُ أسـودَ وقع علينا فنحن السُّـودان الخُلَّص ، والعربُ أشبـاهُ الخُلَّص . فنحن المتقدِّمـون في الـدَّعوة . وإذاً كـان اسمُهم محمولاً عـلى اسمنـا ؛ إذْ كنّـا وحـدنـا يقـال لنـا سُودٌ ، ولا يقال لهم سُودٌ إلاّ أن يكونوا معنا .

[٥ ـ كثرة عدد السودان واتساع بلدانهم]

قالوا : وأنتم ترون كثرةَ العدد جِداً ، ونحن أكثر النّاس عدداً وولداً .

قالوا : ونحنُ صِنفان : النّمل والكِلاب .

قالوا : ولو عَدَلْتم بالنّمل العربَ كلّها لأربَتْ عليهـا . فكيف إذا قُرِنت

إليها الكلاب ؟ ثم كيفَ إذا ضممتم إليها الحبشة ، والنُّوبة وفَـزَّان ومرو وزُغاوة وغيرَ ذلك من أنواع السُّودان ؟

وليست قَحطانُ من عدنانَ في شيء . ونحن بالحبشة أشبه ، وأرحامنا بهم أمسُّ مِن عدنانَ بقحطان . وإنْ ذكرتم اختلافَ اللُّغات ؛ فإنَّ لغةَ عَجُز هوازن ، وقد تختلف اللُّغاتُ والأصل واحد ، وقد تتّفق والنَّجْر مختلف . ومَن دخَل أوائل خراسان وأواخرَها ، وأوائل الجبالِ وفارسَ وأواخرَها ، علِمَ أنَّ اللُّغاتِ قد تختلف لاختلاف طبائع البلدان والأصل واحد .

قالوا : وأنتم لم تَرَوُا الزَّنج الذين هم الزنجُ قطُّ ، وإنَّما رأيتُمُ السَّبْيَ يجيءُ من سوْاحل قنبلة وغياضِها وأوديتها ، ومن مهنتنا وسَفِلتنا وعبيدِنا ، وليس لأهل قنبلة جَمالٌ ولا عقول . وقنبلة : اسمُ الموضع الذي تُزفُّون منه سُفنَكم إلى ساحله . لأنَّ الزَّنج ضربانِ : قنبلة ولنجوية ، كما أنَّ العرب ضربان : قَحطان وعدنان . وأنتم لم تَرَوا من أهل لنجوية أحداً قطُّ ، لا من السَّواحل ولا من أهل الجوف ، ولو رأيتموهم نسيتم الجمال والكمال .

فإنْ قلتم : وكيف ونحن لم نر زنجيّاً قطُّ له عقلُ صبيٍّ أو امرأة ؟

قلنا لكم : ومتى رأيتم من سَبْي السِّند والهند قوماً لهم عقول وعلم وأدب وأخلاق حتَّى تطلبُوا ذلك فيما سقط إليكم من الزنج . وقد تعلمون ما في الهِنْد من الحساب وعلم النجوم وأسرار الطِّبِّ ، والخَرْط والنَّجر ، والتَّصاوير والصناعات الكثيرة العجيبة ، فكيف لم يتَّفق لكم مع كثرة ما سَبيتم منهم واحدٌ على هذه الصِّفة ، أو بعُشْر هذه الصِّفة ؟

فإنْ قلتم : أهلُ الشَّرف والعَقْل والعلم إنَّما ينزلون الواسطة ، وبقرب دار الملك ، وهؤلاء حاشيةٌ وأعلاجٌ وأكَرَة ، ونُزَّال السَّواحل والآجام والفيوض والجزائر ، من أكارٍ ومن صَيَّاد .

قلنا : وذلك مَن رأيتم ومن لم تَرَوْا منا . وجوابُنا هو جوابُكم لنا .

قالوا : ولو أنَّ الزِّنجيَّ والزنجيَّةَ إذا تناكحا بقيت أولادهما بعد الحيض والاحتلام ببلاد العراق ، كانوا قد غلبوا على الدّار بالعدد والجَلَد ، والعلم والتدبير ،ولكنَّ ولد الهنديّ والهنديّة ، والروميّ والروميّة ، والخراسانيّ والخراسانيّة ، يبقون فيكم وفي بلادكم كبقاء آبائهم وأمّهاتهم ، ولا يبقى ولد الزِّنجيَّين بعد الحيض والاحتلام . على اننا لا نُصيبُ في عشرة آلافٍ، واحدٌ يبلغ ما ذكرنا ، إلّا أن يَضرِبَ الزنجيُّ في غير الزِّنجيات ، والزِّنجية في غير الزِّنج . ولولا أنَّ الزنجيّ والزِّنجيّة قليلاً ما يريدان من الغرائب والغرباء، لكُنّا على حالٍ سنَرى لرجال الزِّنج نسلاً كثيراً. ولكنَّ الزنجية لا تكاد تنشَط لغير الزنجيّ .

قالوا : وكذلك البيضانُ منكم ، لا يكادون ينشطون لطلب النُّسل من الزِّنجيات . والزِّنجية أيضاً من الزِّنجيّ أسرعُ لِقاحاً منها من الأبيض .

قالوا : وأنتم لا تكادون تعدُّون ممَّن وُلِد له من صلبه مائةُ ولدٍ إلّا أن يكون خليفةً ، فيكون ذلك لكثرة الطُّروقة ، ولا تجدون ذلك في سائركم . والزِّنج لا تستكثر هذا ولا تستعظمه ؛ لكثرته في بلادهم ، لأنَّ الزنجية تلد نحواً من خمسين بطناً في نحو من خمسين عاماً ، في كلّ بطنٍ اثنين ، فيكون ذلك أكثر من تسعين . لأنّه يقال إنّ النساءَ لا يلدن إذا بلغن الستّين إلّا ما يحكى عن نساء قريشٍ خاصَّة .

والزِّنج أحرص مَنْ خَلَقَ اللّهُ على نسائهم ، ونساؤهم لهم كذلك ، وهنَّ أطيب من غيرهنّ .

قالوا : فتأمّلوا قولَنا واحتجاجنا ، فإنّا قد رَوينا الأخبار وقُلنا الأشعار ، وعرفناكم وعرفنا الأمم .

وقد كان الفرزدقُ أعلمَ النّاس بالنّساء، وكان قد جَرّب الأجناسَ كلَّها

فلم يجدْ مثلهنّ ، ولذلك تزوج أم مكيّة الزنجيّة وأقامَ عليها ، وترك النّساء، للذي وجَد عندها . وفي ذلك يقول :

يا رُبَّ خَوْدٍ من بنات الزِّنج   تَمشي بتنُّورٍ شديدِ الوَهج
أخشمَ مثلِ القدح الخَلَنج

وكانت دنانيرُ بنت كعبويه الزِّنجي عند أعشى سُليم، وكانت شديدةَ السَّواد ، فرآها يوماً وقد خضبت يَديْها بالحنّاء، واكتحلتْ بالإثمد ، فقال :

تخضب كفّاً بتكتْ من زندها   فتخضب الحِنّاءُ من مسوَدِّها
كأنّها والكُحلُ في مِرودَها   تكحلُ عينيها ببعضِ جلدها

فلما سمعَتْ ذلك قالت :

وأقبَحُ من لوني سَوادُ عجانِهِ   على بَشَرٍ كالقَلْب او هو أنصح

فسمُّوه أسودَ ، وصاح به الصبْيانُ فطلَّقها . وقد كان صبيحةَ عُرسها قال :

إنَّ الدَّنانيرَ تكون سُودا

فقالت :

بياض الراس أقبح من سوادي   وشيب الحاجِبَين هو الفضوحُ

فأمسكَ عنها حيناً ثم عاودَها ، فلما فضحَتْه طلَّقها .

قالوا : وإنْ نَظَر البيضانُ إلى نساء السُّودان بغير عين الشهوة فكذلك السُّودان في نِساء البيضان . على أنَّ الشَّهواتِ عاداتٌ وأكثرها تقليد . من ذلك أنَّ أهل البصرة أشهى النِّساء عندهم الهندِيّات وبناتُ الهِنديّات والأغوار . واليمن أشهى النِّساء عندهم الحبشيّاتُ وبنات الحبشيات . وأهل الشَّام أشهى النِّساء عندهم الرُّوميّات وبناتُ الروميّات . وكلُّ قومٍ فإنَّما يشتهون جَلَبهم وسَبْيَهم . إلاّ الشاذّ ، وليس على الشاذّ قياس .

قالوا : وأطيبُ الأفواه نَكهةً ، وأشدُّها عذوبةً ، وأكثرها ريقاً ؛ أفواهُ الزنج . والكِلاب من بين السِّباع أطيبُ أفواهاً منها .

قالوا : والسواد مُلاومٌ للعين ، وإذا اعتلَّت فخيف عليها لم يكن لها دواءٌ خيرٌ من القعود في الظُّلمة وفي يد صاحبها خرقةٌ سوداء. فالسُّوادُ للإبصار ، وخيرُ ما في الإنسان البصر .

وقالوا : والسُّودان أكثر من البيضان ، لأنَّ أكثرَ ما يُعدُّ البِيضانُ فارسَ والجبالَ وخراسان ، والرُّوم والصُّقالبة وفرنجة والأبر ، وشيئاً بعد ذلك قليلاً غير كثير . والسُّودان يعُدُّونَ الزُّنج والحبشة ، وفَزّان وبربر ، والقبط والنُّوبة ، وزَغاوة ومَرْر ، والسِّند والهند، والقَمار والدُّبيلا ، والصِّين وماصِين . والبحر أكثر من البّر ، وجزائر البحر ما بين الصِّين والزِّنج مملوءةٌ سُوداناً ، كسرنديب ، وكَلَه، وأمل، وزابج وجزائرها إلى الهند إلى الصين إلى كابُل وتلك السواحل .

قالوا : وكان الأعمى الاشتبام يقول : السُّودان أكثر من البيضان ، والصُّخر أكثر من الوحل ، والرَّمل أكثر من التُّراب ، والماء المالح أكثر من العذب .

قالوا : ومنّا العربُ لا من البيضان ؛ لقرب ألوانهم من ألواننا . والهندُ أسفرُ ألواناً من العرب ، وهم من السُّودان . ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « بُعثت إلى الأحمر والأسود ». وقد علم النّاسُ أنَّ العرب ليست بحمُر كما ذكرنا قبل هذا .

قال : فهذا المَفْخرُ لنا وللعربِ على جميع البيضان إنْ أحبَّتْ ذلك العربُ ؛ وإن كرهَتْه فإنَّ المفخر لنا بالذي ذكرنا على الجميع .

قالوا : ولو لم نكثُركم إلاّ بالزابج وحدَها لَفَضَلناكم بهم فضلاً مبيناً ؛ وذلك أنَّ ملك الزابج إنْ غضِب على أهل مملكة ولم يتّقوه بالخَراج بعث ألفَ

سُنبوقة في كلّ سُنبوقة ألفُ رجل على أن [لا] يجلدوهم ولا يقاتلوهم ، ولكن يأمرهم أن يقيموا أبداً فيهم حتى يتقوهم بالخراج ، فيكون ما يأكلون ويشربون ويُغذَون ويلبَسون ، أضرَّ عليهم من مقدار الخراجِ المرارَ الكثيرة . فإن اتّقوهم بالخَراج وإلاّ أرسلَ إليهم ألفَ سُنبوقة أخرى ، فلا يجد ذلك الملكُ بدّاً من أن يتّقيَه بكلّ ما طلب ، ولا يأمن أن يغضَبَ فيأتيَ عليه وعلى أهل مملكته .

قالوا : ولقد نزل ملك الزابج على خليجٍ مَرّةً والخليجُ فراسخُ في فراسخ ، فبينا هو على مائدته وفي سرادقه على شاطىء الخليج ، إذْ سمع صارخةً فقال : ما هذا ؟ وقطع الأكل . قالوا : امرأةٌ سقط ابنُها في هذا الخليج فأكله التمساح . قال: وفي مكانٍ أنا فيه شيءٌ يشاركني في قتل النّاس ! ثم وثب فإذا هو في الخليج . فلما [رآه] الناسُ سقطوا عن آخرهم ، فخضخضوه وهو فراسخ في فراسخ ، حتى أخذوا كلَّ تمساحٍ فيه أخذَ يدٍ .

فيقال : إنّ أهلَ الزابج وأغبابها أكثر من شَطر أهل الأرض .

قالوا : وآخرُ العُمرانِ كلّه سودانٌ ، وما استدار من أقاصي العُمران أكثر من أهل الواسطة ، كطوق الرَّحى الذي يلي الهواء، الذي هو أوسع وأكثر ذرعاً مما قَصر عنه من فَلَك الرَّحى ولنعتبر ذلك بالجناح المُطِيف ، لا يرى أحد ذَرْعَه مع قلّة عرضه ، ونجده أكثر ذرعاً من نفس الدار .

وليس خلف الزابج بيضانٌ ، وكذلك جميعُ بلاد السودان السّاكنةِ في الأطراف وفي آخر أطواق العمران .

قالوا : فهذا دليل على أنّا أكثر ، وإذا كنّا أكثرَ كنّا أفخر . وقد قال شاعركم :

ولستَ بالأكثر منهُ حصىً ... وإنّما العِزّةُ للكاثرِ

قالوا : والقبط جنسٌ من السودان وقد طَلَب منهم خليلُ الرحمن

[الولد] فوُلد لـه منهم نبيٌّ عظيم الشأن ، وهو أبو العرب إسماعيلُ عليه السلام . وطلب النبيُّ صلى الله عليه وسلم منهم الولد ، ووُلد لـه إبراهيم ، وكنّاه به جِبريل .

قالوا : والحجر الأسود من الجنّة . والنُّحاس إذا اشتدَّ سوادُه كان أثمنَ وأجود . فمن استنكرَ لونَ السواد فيما في فِرنجة والرُّوم والصَّقالبة من إفراط سُبوطة الشَّعر والرِّقّة والصُّهوبة ، والحُمرة في شعر الرَّأس واللحية ، وبياض الحواجب والأشفار ، أقبح وأسمج . وليس في السُّودان مُغْرَب ، ليس المُغْرب إلاّ فيكم . ولا سواءٌ من لم تنضجه الأرحام وما جازتْ به حدَّ التمام .

[٦ ـ اثر البيئة في لون السودان والبيضان]

قالوا : ولنا بعدُ معرفةٌ بالتفلسُف والنَّظَر ، ونحن أثقفُ النّاس . ولنا في الأسرار حجة . ونحن نقول : إنَّ الله تعالى لم يجعلنا سُوداً تشويهاً بخلقنا ، ولكنَّ البلدَ فعل ذلك بنا . والحجّة في ذلك أنَّ في العرب قبائل سُوداً كبني سُليم بن منصور . وكلُّ مَن نزل الحَرَّة من غير بني سُلَيم كلُّهم سود . وإنَّهم ليتخذون المماليكَ للرعي والسِّقاء، والمهنة والخدمة ، من الأشبانيِّين ومن الرُّوم نسائهم ، فما يتوالدون ثلاثةَ أبطنٍ حتّى تنقلهم الحرَّةُ إلى ألوان بني سُلَيم . ولقد بلغ مِن أمر تلك الحرَّة أنّ ظِباءَها ونعامَها ، وهوامَّها وذُبابها وثعالبها وشاءَها وحميرَها ، وخيلها ، وطيرَها كلُّها سودٌ . والسُّواد والبياض إنّما هما من قِبَل خلقة البلدة ، وما طبع الله عليه الماء والتُّربة ، ومن قِبَل قُرب الشَّمس وبعدها ، وشدّة حَرّها . وليس ذلك من قبل مسخٍ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقصير .

على أنَّ بلاد بني سُلَيم تجري مجرى بلادِ التُّرك . ومَن رأى إبلَهم ودوابَّهم وكلَّ شيء لهم تركيّ رآه شيئاً واحداً . وكلُّ شيءٍ لهم تركيُّ المنظر . وربَّما رأى الغُزاةُ دون العواصم أخلاطَ غَنَم الرُّوم فلا يخفى عليهم غَنَم الرُّوم

من غَنَم الشّام ، للرّوميّة التي يرونها فيها .

وقد نرى الناسَ أبناءَ الأعراب والأعرابيات الذين وَقعوا إلى خراسان فلا نشُكُّ أنّهم علوجُ القُرى . وهذا موجودٌ في كل شيء. وقد نرى جُرَاد البَقل والرَّيحان وديدانَها خُضراً ، ونرى قَمل رأس الشَّابّ سُوداً ، ونراها إذا ابيضَّ رأسُه بِيضاً ، ونراها إذا خُضِبت حُمراً .

فليس سوادُنا ، معشَرَ الزَّنج ، إلّا كسواد بني سُلَيم ومَن عددنا عليكم من قبائل العرب في صدر هذا الكلام .

وما إفراط سوادٍ من اسودَّ من الناس إلّا كإفراط بياض من ابيضَّ من الناس . وكذلك السُّمرة المتولِّدة من بينهما ، وكذلك الزِّيّ والهيئات ، وكذلك الصِّناعات ، وكذلك المطاعم والشَّهَوات .

وقد ذكر الشاعر ، حين مدح أُسيلِمَ بنَ الأحنف الأسديَّ ، سوادَ اليمانيَة فقال :

أُسيلِمُ ذاكم لا خَفًا بمكانه ... لعين تداحى أو لأذنٍ تَسمَّعُ
من النَّفَر الشُّمّ الذين إذا انتَمَوْا ... وهابَ الرِّجالُ حَلْقَةَ الباب قعقعوا
جلا الأذفرُ الأحوَى من المسك فرقَه ... وطيبُ الدِّهان رأسَه وهو أنزعُ
إذا النَّفَرُ السُّود اليمانونَ حاولوا ... لَهُ حَوكَ بُرديه أرقُّوا وأوسعوا

وقد عابَ بعضُ البِيضانِ عبدَ بني جَعدَةَ بلونه ، فقال :

قد عابَ لونيَ أقوامٌ فقلتُ لهم ... ما عابَ لونيَ إلّا مُفرِطُ الحُمُقِ
إنْ كان لونيَ فيه دُعجةٌ كَلَفٌ ... حَزنِ الإهابِ فإنّي أبيضُ الخُلُقِ
أُرضِي الصَّديقَ وأحمِي الظُّعنَ معترضاً ... صَدرَ القناةِ وأكنى كنه السَّرَقِ

وكانت امرأةُ عمرِو بن شاسٍ تجفو عِرَارَ بنَ عمرو، وكان ابنَ سوداء، فقال عمرو بن شاسٍ في ذلك ، وفي صفةِ أبناء الحبشيّات والزَّنجيات :

ألم يـأتِهـا أنّي صـحـوتُ وأنّـني تخشّعتُ حتّى مـا أعـارِم مـن عَـرَمْ
وأُطرِقُ إطراقَ الشُّجـاعِ ، ولو يـرى مَسـاغـاً لنـابيـه الشُّجـاع لقـد أَزَمْ
أرادت عِـرَاراً بـالهـوان ومـن يُـرِدْ عِـرّاراً لعمـري بـالهـوان فقـد ظَلَمْ
وإنّ عِـراراً إن يـكن غـيرَ واضـحٍ فـإنّي أحبُّ الجَـونَ ذا المَنكِب العَمَمْ
فـإن كنـتِ منّي أو تُحبّـينَ شيـمتي فكـوني لـه كـالسَّمْنِ رُبَّت لـه الأَدَمْ
وإلّا فـبيـني مـثـل مـا بـانَ راكـبٌ تـزوّد خِمسـاً لـيس في سَيـره أَتَمْ

وأمّا الهند فـوجدنـاهم يُقدّمـون في النُّجوم والحسـاب ، ولهم الخطُّ الهِنديُّ خـاصّـة ، ويقـدُّمـون في الـطبّ ، ولهم أسـرارُ الـطبّ وعـلاجُ فـاحش الأدواءِ خـاصة . ولهم خَـرط التَمـاثيـل ونَحتُ الصُّـور بـالأصبـاغ تُتّخـذ في المحـاريب وأشباهِ ذلك . ولهم الشِّطرنجُ ، وهي أشرفُ لُعبةٍ وأكثرُها تـدبيراً وفطنة . ولهم الـسُّـيوف القَلْعيّة ، وهم ألعَبُ النّاس بها واحـذقُهم ضـرباً بهـا . ولهم الـرُّقَى النّـافـذةُ في السُّمـوم وفي الأوجـاع . ولهم غنـاءٌ مُعجب . ولهم الكنكلة ، وهي وترٌ واحدٌ يمدُّ على قرعةٍ فيقوم مقامَ أوتار العُود والصَّنـج . ولهم ضروبُ الـرّقص والخِفّة ، ولهم الثُّقافة عند الثُّقاف خاصّة ، ولهم معرفـةُ المناصفـة ، ولهم السِّحر والتّـدخين والـدمازكيـة . ولهم خطٌّ جـامـعٌ لحـروف اللُّغـات ، وخـطوطٌ أيضـاً كثيـرة ، ولهم شعـرٌ كثير وخُـطب طـوال ، وطبٌّ في الفلسفـة والأدب . وعنهم أُخِـذ كتابُ كليلة ودمنة . ولهم رأيٌ ونجدةٌ ، وليس لأحـدٍ من أهل الصَّبـر مـا لهم . ولهم من الزِّيِّ الحسَنِ والأخلاق المحمـودة مثل الأخِلّة والقَـرن والسِّواك ، والاحتبـاء ، والفَـرق والخضـاب . وفيهم جمـال ومِلحٌ واعتـدال وطيـب عَـرَق . وإلى نسائهم يضرب الأمثـال . ومن عندهم جـاءوا الملوك بالعُـود الهنديّ الـذي لا يَعدِلُه عـود . ومن عنـدهم خـرج علم الفكر ، ومـا إذا تُكلِّم به على السّمّ لم يضرّ . وأصـلُ حسابِ النُّجـوم من عندهم أخـذه النّـاسُ خـاصّـةً . وآدم عليـه السلام إنّما هبط من الجنّة فصار ببلادهم .

قـالوا : ومن مفـاخر الـزنج حُسـن الخَلْق ، وجـودةُ الصَّوت . وإنّـك لتجد

ذلك في القِيان إذا كنّ من بنات السِّنْد .

وخَصلةٌ أخرى : أنه لا يوجد في العبيد أطبَخُ من السِّنديّ ، هو أطبع على طيِّب الطَّبخ كلّه .

ومن مفاخرهم أنّ الصَّيارفة لا يولُّون أكيِستَهم وبيوت صُروفهم إلاّ السِّندَ وأولادَ السِّند ؛ لأنّهم وجدوهم أنفَذَ في أمور الصَّرف ، وأحفَظ وآمَن . ولا يكادُ أحدٌ أن يجد صاحبَ كِيس صَيرفيٍّ ومفاتيحِهِ ابنَ روميّ ولا ابنَ خُراسانيّ .

ولقد بلغ من تبرُّك التجار بهم أنّ صَيارفة البصرة وبنادرة البَرْبَهارات ، لمّا رأوا ما كَسَبَ فرجٌ أبو رَوحٍ السِّنديُّ لمولاه من المال والأرَضِينَ اشترى كلُّ امرىءٍ منهم غلاماً سنديّاً ، طمعاً فيما كسبَ أبو رَوْحٍ لمولاه .

قال : وكان عبد الملك بنُ مروانَ يقول : « الأدغم سيِّد أهلِ المشرق » يعني عُبَيدَ الله بنَ أبي بَكْرة . وكان أشدَّ السُّودان سواداً . وإيّاه يعني عبدُ الله ابن خازمٍ حيث يقول :

حَبشيٌّ حَبشْشُه حَبشَة

فهذا جملة ما حَضَرنا من مفاخر السُّودان . وقد قلنا قبل هذا في مفاخر قحطان ، وسنقول في فَخر عدنان على قحطان في كثير مما قالوا إن شاء الله .

هامش كتاب فخر السودان على البيضان

(١) يذكر الجاحظ اسم احد كتبه الذي ذكره في مقدمة كتاب الحيوان اعني كتاب الصرحاء والهجناء . والصريح هو العربي الأب والام . والهجين هو العربي الأب ولكن امه أمة غير عربية .

- ينبغي ملاحظة الالفاظ الغريبة في كلام الأصمعي العالم اللغوي والراوية المشهور وقد أخذ عنه الجاحظ . امثال الخربة اي الثقب ، والترع اي التسرع ، والطمش اي الخلق : ولكن استعمال تترع بمعنى تسرع غير موافق لمعنى الجملة او المثل الذي ضربه : لا يقرب العنز الضأن ما وجدت الماعز ، وتنفر الشاة من المخلب ولا تأنس بالخف . وربما كان استبدالها بكلمة ينتزع افضل .

(٢) لقمان الحكيم تضاربت الأراء حول شخصيته وهويته ، وقد ورد اسمه في القرآن ، ونسبت اليه حكم ووصايا كثيرة لابنه .

- مهجع هو مولى عمر ، وقد قتل يوم بدر .

- المقداد : هو المقداد بن الاسود الكندي ابوه عمرو بن ثعلبة حليف كنده . حسن اسلامه وناضل في سبيل الدين وقتل في خلافة عثمان سنة ٣٣ هـ .

- وحشي بن حرب الحبشي مولى بني نوفل .

- مكحول بن سهراب ، عرف بفقهه وتوفي سنة ١١٢ هـ .

- الحيقطان شاعر عاش في العصر الأموي وتبادل الهجاء مع جرير وتفوح من شعره رائحة الشعوبية . وقد اثبت له الجاحظ في كتاب فخر السودان على البيضان قصيدة رائية يفخر فيها بقومه ويهجو جريراً .

- سنيح بن رباح شار : شاعر اسود عاش ايضاً في العصر الأموي وتبادل الهجاء مع جرير ، والقصيدة التي اثبتها الجاحظ له هنا تبين نزعته الشعوبية واعتداده بقومه السود . ولا حاجة لشرح معانيها لأن الجاحظ اعفانا من هذه المهمة فشرحها باسهاب .

(٣) القياس : سمى الجاحظ قياساً الجملة السابقة وهي : « انهم صاروا اسخياء لضعف عقولهم ولقصر رواياتهم ولجهلهم بالعواقب » ومعنى ذلك ان كل ضعيف العقل سخي . والزنج اسخياء لانهم ضعاف العقول . فالعلة في السخاء هي ضعف العقل والعلة في البخل هي رجاحة العقل .

بيد ان هذا القياس لا ينطبق على الصقالبة والروم ولا على النساء والصبيان . فالصقالبة ابخل من الروم مع انهم اضعف عقولا منهم . والنساء والصبيان ابخل من الرجال مع انهم اضعف عقولاً منهم.

ان القياس يعني إذاً بناء على هذه الامثلة التي ذكرها الجاحظ نقل الحكم من شيء الى آخر للعلة ذاتها . ولكن الجاحظ يعتبر قياس خصوم الزنج غير صحيح لأنهم قلبوا القياس وبدأوا بالنتيجة بدل البدء بالمقدمة العامة .

- ان السخاء او البخل ، والخلق عامة ، وكذلك العقل ، هبة من الله او فطرة اودعها الله في الناس . وهذا هو المبدأ الفلسفي الذي نادى به الجاحظ . فليس السخاء الذي نلفيه في الزنج او عند بعض الاشخاص نتيجة ضعف العقل او غير ذلك من الاسباب .

- عكيم الحبشي شاعر من السودان الاحباش عاصر الكميت الاسدي . وقد اثبت له الجاحظ هنا خمسة ابيات يفتخر بها ببلاء السودان في المعارك .

(٤) « سويداء القلب وهي علقة سوداء تكون في جوفه ، تقوم في القلب مقام الدماغ من الرأس » . لم يوضح الجاحظ ماذا يعني بذلك ، وما هو الشبه بين سويداء القلب ودماغ الرأس .

- لاحظ النعرة الشعوبية في تفسير قول النبي « بعثت الى الاحمر والأسود » . ان السود هم اصحاب الدعوة بنظر هؤلاء وهم المتقدمون على العرب .

(٥) لاحظ المبالغة في العصبية الشعوبية التي دفعت السودان الى اعتبار الصين والهند والعرب ومرو من بلاد السودان . والقمار والدبيلا وكلة وزابج من بلاد الهند .

(٦) انظر كيف يفسر الجاحظ اختلاف الوان البشر . انه تفسير طبيعي محض يتفق مع فلسفته الطبيعية . فالبيئة هي التي صيرت لون السودان اسود ولون البيضان أبيض بسبب شدة الحر او شدة البرد الخ . .

(٧) عدد علوم الهند لأنه اعتبر الهنود من السود . ولم يترك علماً لم ينسبه اليهم : الحساب ، الفلك ، الخط ، الطب ، صناعة الادوية ، النحت ، الشطرنج ، صنع السيوف ، الموسيقى وآلاتها ، الرقص ، السحر ، الشعر ، الخطابة ، الفلسفة ، الأدب .

- علم الفكر : احد علوم الهند ، وهو كلام يتل على السم ليصبح غير ضار .
- كليلة ودمنة اصله هندي برأي الجاحظ ، وهو أقدم من أشار الى ذلك .
- الدمازكية : لفظة هندية على الأرجح .
- اعمال الصيرفة كانت رائجة في البصرة وبغداد في عصر الجاحظ . وقد برع فيها الموالي من اصل سندي .
- بنا درة البربهارات: تجار العقاقير او التوابل .
- حبشي حبشته حبشة : اي اسود من بلاد الحبشة ، ولدته امرأة حبشية . يعني به عبد الله بن ابي بكرة الذي عاش في العصر الأموي . والشعر لعبد الله بن خازم البصري امير خراسان لبني أمية وقد ثار به اهل خراسان وقتلوه سنة ٧٢ هـ .
- يشير الى كتابين من كتبه هما : فخر قحطان ، وفخر عدنان على قحطان . انظر كشاف آثار الجاحظ .

- ٩ -

كتاب الحجاب

[١ - مقدمة]

أطال الله بقاءك ، وجعلني من كل سوءٍ فداءك ، وأسعدك بطاعته وتولّاك بكرامته ، ووالى إليك مزيده .

إنه يقال - أكرمك الله - « إن السَّعيد من وُعظ بغيره ، وأن الحكيم من أحكمتْه تجارِبُه ». وقد قيل : « كفاك أدباً لنفسك ما كرِهْتَ من غيرك » وقيل : « كفاك من سوءٍ سماعُه »، وقيل : « إنَّ يقَظة الفهم للمواعظ مما يدعو النَّفس إلى الحذر من الخطأ ، والعقلَ إلى تصفيته من القذى ».

وكانت الملوكُ إذا أتتْ ما يَجِلُّ عن المعاتبة عليه ضُرِبت لها الأمثال ، وعُرِّض لها بالحديث . وقال الشاعر :

العَبد يقرعُ بالعصا والحُرُّ تكفيه المَلامَةْ

وقال آخر :

ويكفيكَ سَوءاتِ الأمور اجتنابُها

وقال عبد المسيح المتلمِّس :

لِذِي الحلم قبلَ اليوم ما تُقرَع العصا وما عُلِّم الإنسانُ إلّا لِيعلما

وقال بعضهم : « في خفيِّ التعريض ما أغنى عن شنيع التَّصريح ».

وقد جمعتُ في كتابي هذا ما جاء في الحجاب من خبرٍ وشعرٍ ، ومعاتبة وعُذر ، وتصريح وتعريض ، وفيه ما كفى . وبالله التوفيق :

وقد قلت :

كفى أدباً لنفسك ما تراه   لغيرك شائناً بين الأنام

[٢ ـ النهي عن الحجاب]

رُويَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ثلاثٌ مَن كُنَّ فيه مِن الوُلاة اضطلعَ بأمانته وأمره : إذا عدل في حكمه ، ولم يحتجب دون غيره ، وأقام كتابَ الله في القريب والبعيد » .

ورُوِيَ عنه عليه السلام أنّه وجّه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه إلى بعض الوجوه ، فقال له فيما أوصاه به : « إنّي قد بعثتُك وأنا بك ضنين فابرزْ للناس ، وقدِّم الوضيعَ على الشّريف ، والضّعيفَ على القويّ ، والنِّساء قبل الرجال ، ولا تُدخلنَّ أحداً يغلبك على أمرك ، وشاور القرآن فإنّه إمامُك » .

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا استعمل عاملاً شرطَ عليه أربعاً : لا يركب برذونا ، ولا يتّخذ حاجباً ، ولا يلبس كَتّاناً ، ولا يأكل دَرْمَكاً .

ويوصي عمّاله فيقول : إيّاكم والحجابَ ، وأظهروا أمْركم بالبَرَاز ، وخذوا الذي لكم وأعطُوا الذي عليكم ، فإنَّ امرأ ظُلِم حقَّه مضطرٌّ حتى يَغْدُوَ به مع الغادين .

وكتب عمر رضوانُ الله عليه إلى معاوية وهو عاملُه على الشام :

« أمّا بعدُ فإنّي لم آلُكَ في كتابي إليك ونفسي خَيْراً . إيّاك والاحتجابَ دونَ الناس ، وأْذَن للضعيف وادنِه حتى ينبسط لسانُه ، ويجترىء قلبه ، وتعهَّد الغريب فإنّه إذا طال حبسُه وضاق إذنُه تَرَكَ حقَّه ، وضعُف قلبه ، وإنما أتْوى

حقَّه مَنْ خَبَسَهَ . واحرص على الصُّلح بين الناس ما لم يستبِنْ لك القضاء . وإذا حضرك الخصمان بالبيِّنة العادلة والأيمان القاطعة فأمضِ الحكم . والسلام ».

وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري :

« آسِ بين الناس في نظرك وحِجابك وإذنك ، حتّى لا يطمَع شريفٌ في حَيْفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . واعلم أن أسعد الناس عند الله تعالى يومَ القيامَة مَن سَعِد به النّاس ، وأشقاهم من شَقُوا بِه ».

وروى الهَيثم بن عديٍّ عن ابن عباس قال: قال لي عبيد الله بن أبي المخارق القيني :

استعملني الحجاج على الفَلُّوجة العُليا ، فقلت : أمَا ها هنا دِهقانٌ يُعاش بعقله ورأيه ؟ فقيل لي : بلى ، ها هنا جميل بن بَصْهَرَى . فقلت : عليَّ به . فأتاني فقلت : إن الحَجّاجَ استعملني على غير قرابة ولا دالّة ولا وسيلة ، فأشِرْ عليّ . قال :

لا يكونُ لك بوّابٌ حتّى إذا تذكّر الرجلُ من أهل عملك بابَك لم يَخَفْ حُجّابك ، وإذا حضركَ شريفٌ لم يتأخّر عن لقائك ولم يحكم على شرفك حاجبُك . وليَطُلْ جلوسُك لأهل عملك يَهَبْك عُمّالك ، ويبقى مكانُك ولا يختلفْ لك حكمٌ على شريف ولا وضيع ، ليكنْ حكمُك واحداً على الجميع ، يثِق الناسُ بعقلك . ولا تَقبل من أحدٍ هديّةً فإنَّ صاحبَها لا يَرضَى بأضعافها مع ما فيها من الشُّهرة .

قال موسى الهادي لحاجبه: لا تحجُب الناسَ عنّي، فإنّ ذلك يزيل التزكية، ولا تُلقِ إليّ أمراً إذا كشفتَه وجدتَه باطلاً ، فإنَّ ذلك يُوتِغ المملكة .

وقال بعض الخلفاء لحاجبه : إذا جلستُ فأذن للناس جميعاً عليّ ، وابرز لهم وجهي ، وسكِّن عنهم الأحراس ، واخفِض لهم الجَناح ، وأطِبْ لهم

بشرك ، وألِنْ لهم في المسألة والمنطق ، وارفعْ لهم الحوائج ، وسوِّ بينهم في المراتب ، وقدِّمهم على الكفاية والغَناء، لا على الميل والهوى.

[٣ ـ واجبات الحاجب]

وقال آخر لحاجبه : إنَّك عيني التي أنظُر بها ، وجُنَّةٌ أستنيم إليها ، وقد ولَّيتُك بابي فما تُراك صانعاً برعيتي ؟

قال : أنظرُ إليهم بعينك ، وأحملُهم على قدر منازلهم عندك ، وأضَعهم لك في إبطائهم عن بابك ولزومهم خِدمَتك مواضعَ استحقاقهم ، وأرتِّبهم حيث وضعهم ترتيبُك ، وأُحسِنُ إبلاغك عنهم وإبلاغَهم عنك .

قال : قد وَفيت بما عليك ولك قولاً ، إن وفيتَ به فعلاً . والله وليُّ كفايتك ومَعُونتك .

وعَهِد أميرٌ إلى حاجبه فقال : إنَّ أداء الأمانة في الأعراض أوجَبُ منها في الأموال ، وذلك أنَّ الأموالَ وقايةٌ للأعراض ، وليست الأعراض بوقاية للأموال . وقد ائتمنتك على أعراض الغاشِينَ لِبابي ، وإنَّما أعراضُهم أقدارُهم ، فصُنْها لهم ، ووفِّرها عليهم . وصُنْ بذلك عرضي ، فلعمري إنَّ صيانتك أعراضَهم صيانةٌ لعِرضي ، ووقايتَك أقدارَهم وقايةٌ لقدري ؛ إذ كنتُ الحظيَّ بزينِ إنصافهم إن أُنصِفوا ، والمبتَلَى بشَين ظلمهم إن ظُلموا في غِشيانهم بابي ، وحضورهم فِنائي .

أوفِ كلَّ امرئٍ قدرَه ، ولا تُجاوِزْ به حدَّه ، وتوقَّ الجَورَ في ذلك التوقِّيَ كلَّه . اقبلْ على من تحجب بإبداء البِشر وحلاوة العُذر ، وطلاقة الوجه ولِين القَول ، وإظهار الودّ ، حتّى يكون رضاه عنك لما يرى من بشاشتك به وطلاقتك له ، كرِضَا من تأذنُ له عنك لما يُمنحه من التكريم ، ويحويه من التعظيم ؛ فإنّ المنع عند الممنوع في لين المقالة يكاد يكون كالنُّبل عند العطاء

في نفع المَنالة .

أنّـه إليَّ حالاتِ كـلِّ مَن يغشى بابي من وجيهٍ وخامـل ، وذي هيئة وأخي رَثاثة ، فيما يحضُرون له بابي ، ويتعلّقون به من إتياني .

لا تحتقِرنَّ من تقتحمه العيون لرثاثةِ ثوبٍ أو لدمـامة وجـه ، احتقاراً يخفى عليّ أثره ، فربّما بَذَّ مثلُه بمخبره من يروقُ العيونَ منظرُه .

إنّـك إن نَقصتَ الكريمَ مـا يستحقُّه من مـال لم يغضَب بعد أن تستوعبـه منـه ، وإن نقصتَه من قـدره أسخـطْتَـه أشـدَّ الإسخـاط ، إذ كـان يـريـد دنيـاه ليصـونَ بها قـدرَه ، ولا يريـد قدره ليُبقي بـه دنياه . فكن لتحيُّف عِـرضه أشـدَّ توقّيّاً منك لتحيُّف ماله .

إن المحجوب وإنْ كان عذلْنا في حجابه كعـدلنا عـلى المأذون لـه في إذنه ، يتداخلُه انكسـارٌ إذا حُجِبَ ورأى غيـرَه قـد أُذِن لـه . فـاختصَّـه لـذلـك من بشاشتك به ، وطلاقتـك له ، بمـا يتحلّل به عنـه انكسارُه . فلعمـري لو عَـرف أنّ صـوابنـا في حجـابـه كصـوابنـا في الإذن لمن نـأذن لـه ، مـا احتجنـا إلى مـا أوصيناك به من اختصاصه بالبِشر دون المأذون له .

إن اجتمعَ الأعلَون والأوسطون والأدنَون ، فدعوتَ بواحـدٍ منهم دون مَن يعلوه في القَـدر ، لأمرٍ لا بـدَّ من الدعـاء به لـه ، فـأظهـرِ العُـذر في ذلـك لئلاّ تَخبثَ نفسٌ من عَـلاهُ ؛ فإنَّ النـاس يتغالـب لمثـل ذلـك عليهم سـوءُ الظُّنـون . والـواجبُ على من سـاسَهـم التـوقّي عـلى نفسـه سُـوء ظنـونهم ، وعليهم تقـويم نفـوسهم ؛ إذْ هـو كـالـرأس يـألم لألم الأعضـاء ، وهـم كـالأعضـاء يـألـمون لألم الرأس .

المدائني قال : قال زياد ابن أبيه لحاجبه :

يـا عَجلانُ : قـد ولّيتك بـابي ، وعزلتـك عن أربعة : طـارقِ ليلٍ ، فشرٌّ ما جاء بـه أو خيْر . ورسـولِ صاحب الثغر ؛ فإنّـه إن تأخّـر ساعـةً بطل سـه

عملٌ سَنَة . وهذا المنادي بالصلاة . وصاحب الطَّعام ؛ فإنّ الطعام إذا تُرك بردَ ، وإذا أعيد عليه التسخين فسد .

الهيثم بن عديّ قال : قال خالد بن عبد الله القسريّ لحاجبه : لا تحجبنَّ عنّي أحداً إذا أخذتُ مجلسي ؛ فإن الواليَ لا يحتجب إلّا عن ثلاث : إمّا رجلٌ عييٌّ يكره أن يُطّلع على عِيِّه ، وإمّا رجلٌ مشتمل على سَوءة ، أو رجلٌ بَخيل يكره أن يدخل عليه إنسانٌ يسأله شيئاً .

أنشدني محمودٌ الورّاقُ لنفسه في هذا المعنى :

إذا اعتصَم الوالي بإغلاق بابه ... وردَّ ذوي الحاجات دون حجابه

وأنشدني بعض المحدثين في ابن المدبِّر :

لولا مقارفة الرِّيَبْ ... ما كنتَ مِمّن يحتجبْ
أوْلا فعِيٌّ منك أو ... بُخلٌ على أهل الطَّلَبْ
فاكشفْ لنا وجه الحجا ... بِ ولا تُبال مَن عَتَبْ

[٤ - شروط الحاجب]

قال المنصور للمهديّ : لا ينبغي أن يكون الحاجب جَهولاً ، ولا غبيّاً ، ولا عييّاً ، ولا ذَهولاً ولا متشاغلاً ، ولا خاملاً ولا مُحتَقَراً ، ولا جهماً ولا عَبوساً . فإنّه إن كان جهولاً أدخل على صاحبه الضُّررَ من حيث يقدِّر المنفعة ، وإن كان غَبيّاً لم يؤدِّ إلى صاحبه ولم يؤدِّ عنه ، وإن كان غبيّاً جَهل مكانَ الشريف فأخلَّه غير منزلته ، وحطَّه عن مرتبته ، وقدَّم الوضيعَ عليه ، وجهل ما عليه وماله . وإن كان ذَهولاً متشاغلاً أخلَّ بما يحتاج إليه صاحبُه في وقته ، وأضاعَ حُقوقَ الغاشِينَ لبابه ، واستدعى الذَّمَّ من الناس له ، وأذن عليه لمن لا يحتاج إلى لقائه ولا ينتفع بمكانه . وإذا كان خاملاً محتقراً أخلَّ الناسُ صاحبَه في محلِّه وقضَوْا عليه به . وإذا كان جَهماً عبوساً تلقّى كلَّ طبقة

من الناس بالمكروه ، فترك أهلُ النصائح نصائحهم . وأخلّ بذوي الحاجات في حوائجهم ، وقلّت الغاشيةُ لباب صاحبه ، فِراراً من لقائه .

الهيثم بن عديّ عن مجالد عن الشّعبيّ ، أن عبد الملك بن مروان قال لأخيه عبد العزيز بن مروان ، حينَ ولّاه مصر :

إنّ الناس قد أكثروا عليك ، ولعلك لا تحفظ ، فاحفظ عنّي ثلاثاً .

قال : قل يا أمير المؤمنين .

قال : انظر من تجعلُ حاجبَك ، ولا تجعلْه إلاّ عاقلاً فَهِماً مُفْهِماً ، صَدوقاً لا يُورد عليك كذباً ، يُحسن الأداءَ إليك والأداء عنك . ومُرْهُ ألاّ يقفَ ببابك أحدٌ من الأحرار إلاّ أخبرَك ، حتى تكون أنت الآذِنَ له أو المانع ؛ فإنه إن لم يفعل كان هو الأميرَ وأنت الحاجب . وإذا خرجتَ إلى أصحابك فسلِّم عليهم يأنسوا بك . وإذا هممتَ بعقوبةٍ فتأنَّ فيها ؛ فإنّك على استدراكها قبل فوتها أقدرُ منك على انتزاعها بعد فوتها .

وقال سهل بن هارون للفَضْل بن سَهْل :

إنّ الحاجبَ أحدُ وجهَي ِ الملك ، يُعتَبَر عليه برأفته ، ويلحقُه ما كان في غلظته وفظاظته . فاتخذْ حاجبك سهلَ الطبيعة ، معروفاً بالرأفة ، مألوفاً منه البِرُّ والرَّحمة . وليكن جميل الهيئة حسن البسْطة ، ذا قصدٍ في نيّته وصالح أفعاله . ومُره فليضع ِ الناسَ على مراتبهم ، وليأذنْ لهم في تفاضُل منازلهم ، وليُعط كلّاً بقِسطِه من وجهه ، ويستعطفْ قلوب الجميع ِ إليه ، حتى لا يغشى البابَ أحدٌ وهو يخاف أن يقصرُ به عن مرتبته ، ولا أن يُمنع في مدخل أو مجلس ٍ أو موضع ِ إذنٍ شيئاً يستحقُّه ، ولا أن يمْنع أحداً مرتبته . وليضع كلّاً عندك على منزلته . وتعهدْهُ فإن قصرَّ مقصرٌ قام بحسنِ خلافته وتزيين أمره .

وقال كسرى أنوشروان في كتابه المسمى « شاهيني » :

ينبغي أن يكون صاحبُ إذن الخاصّة رجلاً شريفَ البيت ، بعيد الهمّة ،

بارغ الكرم ، متواضعاً طلقاً ، معتدلَ الجسم بهيَّ المنظر ، ليِّن الجانب ، ليس ببذِخ ولا بطِرٍ ولا مرِح ، ليِّنَ الكلام ، طالباً للذِّكر الحسن ، مشتاقاً إلى محادثة العلماء ومجالسةِ الصُلحاء، محبّاً لكلِّ ما زينَ عمله ، معانداً للسُّعاة ، مجانباً للكذّابين ، صدوقاً إذا حَدَّث ، وفيّاً إذا وعد ، متفهِّماً إذا خُوطِب ، مجيباً بالصواب إذا رُوجع ، منصِفاً إذا عامل ، آنساً مؤنساً ، محبّاً للأخيار ، شديد الحنوّ على المملكة ، أديباً له لطافةٌ في الخدمة ، وذكاءٌ في الفهم ، وبَسطةٌ في المنطق ، ورفقٌ في المحاورة ، وعلمٌ بأقدار الرجال وأخطارها .

وقال في حاجب العامّة :

ينبغي أن يكون حاجبُ العامّة رجلاً عبدَ الطّاعة ، دائم الحراسة للملك ، مَخُوف اليد ، خشِنَ الكلام مروِّعاً ، غير باطشٍ إلاّ بالحقّ ، ولا أنيساً ولا مأنوساً ، دائم العُبوس ، شديداً على المُريب ، غير مستخفٍّ بخاصّة الملك ومَن يهوى ويقرُّ ، من بطانته .

قال عبد الملك لأخيه عبد العزيز ، حين وجّهه إلى مصر :

اعرف حاجبَك ، وجليسَك ، وكاتبَك . فإنّ الغائب يُخبره عنك كاتبُك، والمتوسِّم يعرفك بحاجِبك ، والخارج من عِندك يعرفك بجليسك .

وقال يزيد بن المهلب لابنه مَخْلَد حين ولاّه جُرجان : استطرِفْ كاتبَك ، واستعقِلْ حاجبَك .

وقال الحجّاج : حاجب الرجل وجهُه ، وكاتبُه كلُّه .

وقال ابن أبي زُرعة : [قال] رجلٌ من أهل الشام ، لأبي الخطاب الحسن بن محمد الطائي يعاتبه [في حجابه]:

هذا أبو الخطاب بدرٌ طالعٌ	من دون مَطلعه حجابٌ مظلمُ
ويقال وجه المرء حاجبُه كما	بلسان كاتبه الفتى يتكلّم
أُدنيتُ من قبل اللّقاء، وبعده	أُقصيت ، هل يرضى بذا من يفهمُ

وإذا رأيتُ من الكريم فظاظةً فإليه من أخلاقه أتظلّمُ

وقال الفضل بن يحيى : إنّ حاجب الرجل عامله على عِرضه ، وإنّه لا عِوَض لحرٍّ من نفسه ، ولا قيمة عنده لحرّيته وقدره .

وأنشدني ابن أبي كامل في هذا المعنى :

واعلَمَنْ إن كنتَ تجهلُه أنّ عِرض المرء حاجبُه
فيهِ تبدو محاسنُه وبه تبدو معايبُه

[٥ ـ أخبار وأشعار عتاب وهجاء ومديح في الحجاب]

إسحاق الموصليّ عن ابن كُناسة قال :

خبِّرت أنّ هانىء بن قبيصة وفدَ على يزيدَ بن معاوية ، فاحتجب عنه أياماً ، ثم إنّ يزيد ركب يوماً يتصيّد فتلقّاه هانىء فقال : يا يزيد ، إنّ الخليفة ليس بالمحتجب المتخلّي ، ولا المتطرِّف المتنحّي ، ولا الذي ينزل على الغُدران والفلوات ، ويخلو للّذّات والشّهوات . وقد وَليتَ أمرَنا فأقمْ بين أظهُرنا ، وسهِّل إذْننا ، واعملْ بكتاب الله فينا . فإن كنت قد عَجَزتَ عمّا هنا فارْدُدْ علينا بَيعتَنا نُبايعْ من يعملُ بذلك فينا ، ويُقيمه لنا . ثم عليك بخلواتك وصيدك وكِلابك .

قال : فغضب يزيد وقال : والله لولا أن أسُنَّ بالشام سُنّة العراق لأقمتُ أوَدَك .

ثم انصرف وما هاجه بشيء، وأذِن له ، ولم تتغيّر منزلته عنده ، وترك كثيراً مما كان عليه .

المَوْصليّ قال : كان سعيد بن سَلْم والياً على ارمينية ، فورد عليه أبو دُهمان الغَلاّبي ، فلم يصلْ إليه إلاّ بعد حين ، فلما وصل قال ـ وقد مَثَل بين السّماطين ـ :

والله إنّي لأعرف أقواماً لو علموا أنّ سَفّ التُراب يُقيم من أود أصلابهم لجعلوه مُسكةً لأرماقِهم ، إيثاراً للتنزُّه عن العيش الرقيق الحواشي . والله إني لبعيدُ الوَثْبة ، بطيء العَطفة إنّه والله ما يثنيني عليك إلاّ مثلُ ما يَصرفني عنك ، ولأن اكونَ مملقاً مقرَّباً احبُّ إليّ من أن أكون مكثراً مبعَدا . والله ما نسأل عملاً لا نضبطه ولا مالاً إلاّ ونحن أكثر منه ، وإنَّ الذي صار في يدك قد كان في يدِ غيرك ، فأمسَوْا والله حديثاً ، إنْ خيراً فخيراً ، وإن شرّاً فشرّاً . فتحبَّب إلى عبادِ الله بحُسن البِشر ، ولِين الحجاب ؛ فإنّ حبَّ عباد الله موصولٌ بحبِّ الله ، وهم شهداءُ اللّهِ على خلقه ، وأمناؤه على من اعوجَّ عن سبيله .

إسحاق بن إبراهيم المَوْصلي قال :

استبطأني جعفر بن يحيى ، وشكا ذلك إلى أبي ، فدخلت عليه ـ وكان شديد الحِجاب ـ فاعتذرت إليه واعلمتُه أنّي أتيته مراراً للسَّلام فحجبني نافذٌ غلامُه . فقال لي وهو مازحٌ : متى حجبَك فِنكْه . فأتيته بعد ذلك للسلام فحجبني ، فكتبتُ إليه رقعةً فيها :

جُعِلتُ فداءَكَ من كلِّ سُوءٍ ... إلى حُسْنِ رأيك اشكو أناسا
يَحُولون بيني وبين السَّلامِ ... فما إن أسلِّمُ إلاّ اختِلاسا
وانفذتُ رأيك في نافذٍ ... فما زاده ذاك إلاّ شِماسا

وسألتُ نافذاً أن يوصِّلها ففعَل ، فلما قرأها ضحك حتى فحص برجليه وقال : لا تحجُبه أيَّ وقتٍ جاء . فصرتُ لا أُحجَب .

وحُجِب احمد بن أبي طاهر بباب بعض الكتّاب فكتب إليه :

ليس لحرٍّ من نفسه عِوَض ، ولا من قَدره خطر ، ولا لبذل حُرّيتّه ثمن . وكلُّ ممنوع فمستغنىً عنه بغيره ، وكلُّ مانعٍ ما عنده ففي الأرض عِوَضٌ منه ، ومندوحةٌ عنه . وقد قيل : أرخصُ ما يكون الشيءُ عند غلائه .

وقال بشار :

والـدُّرُّ يُترك من غلائه

ونحن نعوذ بالله من المطامع الدنيّة ، والهمّة القصيرة ، ومن ابتذال الحرّية ، فإنّ نفسي واللهِ أبيّةٌ ، ما سقطتْ وراء همّة ، ولا خذلها ناصرٌ عند نازلة ، ولا استرقّها طمع ، ولا طُبعت على طبع . وقد رأيتك ولّيتَ عرضك من لا يَصُونه ، ووكّلتَ ببابك من يَشينُه ، وجعلت تَرجُمانَ كرمك من يُكثر من أعدائك ، وينقُص من أوليائك ، ويسيء العبارةَ عن معروفك ، ويوجّه وفودَ الذّمّ إليك ، ويُضغن قلوبَ إخوانك عليه ؛ إذ كان لا يَعرف لشريفٍ قدراً ، ولا لصديقٍ منزلة ، ويُزيل المراتب عن جهاتها ودرجاتها ، فيحُطُّ العَليّ إلى مرتبة الوضيع ، ويرفع الدنيَّ إلى مرتبة الرفيع ، ويقبل الرُّشى ، ويقدِّم على الهَوى . وذلك إليك منسوبٌ ، وبرأسك معصوب ، يَلزَمك ذنبُه ، ويحِلُّ عليك تقصيره .

وقد أنشدني أبو عليٍّ البصير :

كم من فتىً تحمد أخلاقه وتسكن الأحرارُ في ذمّته
قد كثَّر الحاجبُ أعداءه وأحقدَ الناس على نعمته

وأُنشِدت لبعضهم :

يدلُّ على سَروِ الفتى واحتماله إذا كان سهلاً دونه إذنُ حاجِبه
وقد قيل ما البوّابُ إلا كربّه إذا كان سهلاً كان سهلاً كصاحبه

وقال الطائي :

خَشَم الصَّديقِ عيونهم بحَاثةٌ لصديقهِ عن صِدقه ونِفاقه
فليَنظرنْ المرءُ من غِلمانه فهمُ خلائفه على أخلاقه

وقال آخر :

اعرف مكانك من أخيـ ـك ومن صديقك بالحشَمْ

وقال ابن أبي عُيَينة :

إنَّ وجهَ الغلام يخبر عمّا   في ضمير المولى من الكتمانِ
فإذا ما جهلتَ ودَّ صديقٍ   فامتحِنْ ما أردتَ بالغلمانِ

وقال آخر :

وعنه تخبرني بيّنة   تُعرف قبل اللقاء بالحشَمِ

وأنشدني عبد الله بن أحمد المِهْزَميّ في عليّ بن الجهم :

أعليُّ دونك يا عليُّ حجابُ   يُدنى البَعيدُ وتُحجب الأصحابُ
هذا بإذنك أمْ برأيك أم رأى   هذا عليك العبدُ والبوّابُ
إنَّ الشريفَ إذا أمورُ عبيدِه   غَلَبَتْ عليه فأمره مُرتابُ

وأخذه من قول الطائيّ :

أبا جعفرٍ وأصولُ الفتى   تدلُّ عليه بأغصانه
أليس عجيباً بأنَّ أمرأً   رجاك لحادثِ أزمانه
فتأمر أنت بإعطائه   ويأمر فَتْشعُ بحرمانه
ولستُ أحبُّ الشريفَ الظريفَ   يكون غلاماً لغلمانه

وحُجب ابن أبي طاهر بباب بعض الكتاب ، فكتب إليه :

« إنه من لم يرفعه الإذْن لم يضعْه الحجاب ، وأنا أرفعك عن هذه المنزلة ، وأربأ بعدوِّك عن هذه الخليقة ، وما أحد أقامَ في منزله - عظُم أو صغُر قدره - إلاّ ولو حاول حجابَ الخليفة عنه لأمكنه . فتأمّلْ هذه الحالَ وانظُرْ إليها بعين النَّصَفة ، ترَها في أقبح صورة ، وأدنى منزلة . وقد قلت :

إذا كنتَ تأتي المرءَ تُعْظِم حقَّه   ويجهل منك الحقَّ فالهجرُ أوسعُ
ففي الناس أبدالٌ وفي العزِّ راحةٌ   وفي اليأس عمّن لا يواتيك مَقنعُ
وإنّ امرأً يرضى الهوانَ لنفسه   حريٌّ بجدع الأنف والجدعُ أشنعُ
فدعْ عنك أفعالاً يشينك فعلُها   وسهِّل حجاباً إذنُه ليس ينفعُ

وحدّثني عبد الله بن أبي مروانَ الفارسيّ قال :

ركبت مع ثُمامة بن أشرسَ إلى أبي عبّادٍ الكاتب ، في حوائج كتب إليَّ فيها أهلُ إرمينيّة من المعتزلة والشيعة ، فأتيناه فأعظمَ ثُمامة وأقعَده في صدر المجلس وجلس قُبالَته ، وعنده جماعةٌ من الوجوه ، فتحدّثنا ساعة ثم كلّمه ثمامةُ في حاجتي ، وأخرجتُ كُتبَ القوم فقرأها ، وقد كانوا كتبوا إلى أبي عبّادٍ كتبا ، وكانوا أصدقاءه أيّام كونه بإرمينية ، فقال لي : بكِّر إليّ غداً حتّى أكتبَ جواباتِها إنْ شاء الله . فقلت : جعَلني الله فداك ، تأمر الحاجبَ إذا جئتُ أن يأذن لي . فغضِب من قولي واستشاط وقال : ومتى حُجِبتَ أنا ، أوَلِي حاجبٌ ، أو لأحد عليّ حجاب ! .

قال عبد الله : وقد كنت أتيتُه فحجبني بعضُ غلمانه ، فحَلَف بالأيمان المغلَّظة أن يقلَع عينَيْ مَن حجَبني ، ثم قال : يا غلامُ ، لا يبقَ في الدار غلامٌ ولا منقطعٌ إلينا إلاّ أحضرتُمونيه الساعة ! قال : فأتى بغلمانه وهم نحوٌ من ثلثمائة ، فقال : أشِرْ إلى مَن شئتَ فيهم . فغمزني ثمامة فقلت : جُعِلتُ فداك لا أعرفُ الغلامَ بعينه . فقال : ما كان لي حاجبٌ قطُّ ، ولا احتجبت ، وذلك لأنّه سَبق منّي قول ، لأنّي كنت وأنا بالريّ وقد مات أبي وخلّف لي بها ضياعاً فاحتجب إلى ملاقاة الرجال والسُّلطان فيما كان لنا ، فكنت أنظر إلى الناس يَدخُلون ويَصِلون وأُحجَبُ أنا وأُقصَى ، فتتقاصر إليّ نفسي ، ويضيق صدري ، فآليتُ على نفسي إن صرتُ إلى أمرٍ من السُّلطان ألاّ أحتجبَ أبداً .

وحدّثني الزُّبير بن بكّار قال :

استأذن نافعُ بن جُبير بن مُطعِم على معاوية ، فمنعه الحاجبُ فدقّ أنفه ، فغضب معاوية وكان جُبَيرٌ عندَه ، فقال معاوية : يا نفاع ، أتفعلُ هذا بحاجبي ؟ قال : وما يمنعني منه وقد أساء أدبه وأساءَ اختياره ؟ ! ثم أنا بالمكان الذي أنا به منك . فقال جُبَير : فَضَّ الله فاك ، ألا تقول : وأنا بالمكان الذي أنا به من عبد مناف ؟ ! قال : فتبسّم معاوية وأعرضَ عنه .

قال : وفد رجلٌ من الأكاسرة على بعض ملوكهم ، فأقام ببابه حولاً لا يصلُ إليه ، فكلّم الحاجبَ فأوصل له رقعةً فيها أربعة أسطر :

السطر الأول فيه : الأمل والضرورة أقدماني إليك .

وفي الثاني : ليس على العَديم صبرٌ على المطالبة .

وفي الثالث : الرجوع بلا فائدةٍ شماتةُ العدوّ والقريب .

وفي الرابع : إمّا « نَعَمْ » مُثمِرة ، وإمّا « لا » مؤيسة ، ولا معنى للحجاب بينهما .

فوقّع تحت كل سطرٍ منها : « زِه » .

وأنشد الوليد بن عُبَيد البحتريّ في ابن المدبر يهجو غلامه بشراً :

وكم جئت مشتاقاً على بُعد غايةٍ　　إلى غير مشتاقٍ وكم ردّني بشرُ
وما بالُه يأبى دخولي وقد رأى　　خروجيَ من أبوابه ويدي صِفرُ

وأُنشِدت لبعضهم :

لعمري لئن حجبتني العبيدُ　　ببابك ما يحجبوا القافيهْ
سأرمي بها من وراء الحجاب　　جزاءَ قروضٍ لكم وافيه
تُصِمُّ السميعَ وتُعمي البصير　　ويُسأل من أجلها العافيه

وأنشدني أحمد بن أبي فَنَن ، في محمد بن حمدون بن إسماعيل :

ولقد رأيتُ بباب دارك جفوةً　　فيها لحسن صنيعةٍ تكديرُ
ما بال دارك حين تُدخَل جنّةً　　وبباب دارك منكرٌ ونكيرُ

وأنشدني أبو علي الدّرهمي اليماميُّ في أبي الحسن علي بن يحيى :

لا يُشبه الرجلَ الكريمَ نجارُه　　ذا اللُّبِّ غيرُ بَشاشة الحُجّاب
وبباب دارك مَن إذا حيّيتُه　　جَعل التبرُّمَ والعُبوسَ ثوابي
أوصيتَه بالإذن لي فكأنّما　　أوصيتَه متعمِّداً لحجابي

وأنشدني أبو علي البصير في أبي الحسن علي بن يحيى :

في كـلِّ يـومٍ لي بـبـابـك وقفـةٌ أطـوى إلـيـهـا سـائـر الأبـوابِ
فـإذا حضـرتُ وغبتُ عنـك فإنّـه ذنـبٌ عقـوبـتُـه عـلى البـوّاب

وأنشدني أبو علي اليمامي ، وعاتب بعض أهل العسكر في حاجبِه ، فلم يأذن له الحاجب بعد ذلك ، فكتب إليه :

صـار العـتـابُ يـزيـدني بُـعـداً ويـزيـد مَـن عـاتـبـتُـه صـدّا
وإذا شـكـوت إلـيـه حـاجِـبَـه أغـراه ذاك فـزادني ردّا

وانشـدني العجينيّ في بعض أهـل العسكـر ، يعاتبه في حِجابـه ويهجـو حاجبَه :

إنمـا يحـسُـن المـديـح إذا مـا أنـشـد المـادح الفتى الممـدوحـا
وأراني بـبـاب دارك عـمْـر تُ طـويـلاً مُقصى مُهـانـاً طـريحـا
إنّ بـالـبـاب حـاجـبـاً لـك أمسَى مُـنْكِـرٌ عـنـده ظـريـفـاً مـلـيحـا
مـا سـألـنـاه عـنـك قطُّ وإلاّ ردّ مـن بُـغـضـه مُـرَدّاً قـبـيحـاً

وأُنشِدت لبعضهم في هجاء حاجب :

سـاتـركُ بـابـاً أنت تملك إذنَـه ولـو كنتُ أعمى عن جميع المسالكِ
فلو كنتَ بـوّابَ الجنـانِ تـركـتُهـا وحـوّلت رَحْلي مسرعـاً نحو مـالكِ

وكتب بعض الكتّاب إلى الحسن بن وهبٍ ، في بوّابه :

قـد كنت احسب أنّ طـرفـك مَلّني ورُميتُ مـنـكَ بـجـفـوةٍ وعـذابِ
فـإذا هـواك عـلى الـذي قـد كـان لي وإذا بـلـيّـتُـنـا مـن الـبـوّاب
فـاعلم ـ جعلتُ فـداك ـ غـيرَ معلَّم أنّ الأديـب مـؤدّبُ الـحـجّـابِ

وقال رَزِينٌ العَروضيّ لجعفر بن محمد بن الأشعث :

إن كنت تحـجـبـني للذئـب مـزدهـيـاً فقـد لعمـري أبـوكم كلّـم الـذيـبـا
فكيف لـو كلّم الليث الـهَـصُـورَ إذاً تـركتم الـنـاس مـأمـولاً ومشـروبـا

هـذا السُّنيديُّ مـا سـاوى إتـاوتَـه   يكلِّم الفيـل تصعيـداً وتصـويبـاً
اذهَبْ إليـك فـما آسى عليـك ومـا   ألقى ببـابـك طُـلاّبـاً ومـطلوبـاً

المدائني قال: كـان يزيـد بن عمر الأسيـدي على شـرطة البصـرة، فأتـاه الفـرزدق في جماعـةٍ فوقَفَ ببابه، فأبـطأ عليه إذنـه، فقال ـ وكـان [ابن] عُمر يلقَّب الوَقَاحَ ـ:

ألم يـكُ من نَكْس الزَّمـان عـلى استـه   وقـوفي عـلى بـاب الـوَقـاح أسـائلُه
فـإن تـك شُـرْطيّـاً فـإني لِغـالبٍ   إذا نـزلـت أركـانَ فَـخٌّ مـنـازلُـه

وقال أبو عليٍّ البصير، وحجَبَه محمد بن غسّان، بعد أُنسٍ كانَ بينهما:

قـد أتينـا للوعـدِ صَـدرَ النَّهـارِ   فـدُفِـعْـنـا مـن دون بـابِ الـدار
وسمِعنـا، من غير قصـدٍ لأن نسـ   ـمـعَ، صـوتَ الـغـنـاء والأوتـارِ
فـاحطْنـا بكـل مـا غـاب من شـأ   نـكَ عنّـا خُبْـراً بـلا استخبـارِ
فـإذا أنـتَ قـد وَصلتَ صَبـوحـاً   بـغَـبـوقٍ ودُلجـةً بـابـتـكـارِ
وإذا نـحـن لا تخـاطـبـنـا الغـلـ   ـمـانُ إلاّ بـالجَـحْـد والإنـكـار
فـانصـرفنـا وطـالمـا قـد تَـلقَّـو   نـا بـأُنـسٍ منهـمْ وبـاستبـشـارِ
ذاكَ إذ كـان مـرّةً لـك فـيـنـا   وطـرٌ فـانـقـضى مـن الأوطـار
حـينَ كُنّـا المقـدَّمـين عـلى النـا   سِ وكـنّـا الشِّـعـارَ دونَ الـدِّثـارِ
كـم تـأنّيـتُ وانتـظرت فـأفـنيـ   ـتُ تـأنّيَّ كُـلَّه وانـتـظاري
فـعليـك السـلام كُنّـا مِـنَ الأهـ   ـلِ فـصِـرنـا كـسـائـر الـزُّوّارِ

وله إليه أيضاً:

قـد أطَلْنـا بـالبـاب أمسِ القُعـودا   وجُـفِـينـا بـه جـفـاءً شـديـدا
وذممْـنـا الـعـبيـدَ حـتى إذا نـحـ   ـنُ بلَونـا المـوْلَى عَـذَرنـا العبيـدا
وعـلى مـوعـدٍ أتـينـاك مـعـلـو   مٍ وأمـرٍ مُـؤكَّـد تـأكـيـدا
فـأقَـمنـا لا الإذنُ جـاء ولا جـا   ءَ رسـولٌ قـال انـصـرفْ مـطرودا

وصبَرنا حتى رأينا قُبيلَ الـ ـظُهر يرذون بعضهم مردودا
واستقرَّ المكانُ بالقوم والغلـ ـمانُ في ذاك ينحونا صدودا
ويُشيرون بالمضيّ فلمّا أحرجوا جرّدوا لنا تجريدا
فانصرفنا في ساعةٍ لو طرحت الـ ـلّحمَ فيها نيّاً كُفِيتَ الوَقودا
فلعمري لو كنت تعتدّ لي ذنـ ـباً عظيماً وكنتَ فظّاً حَقودا
وطَلبتَ المزيدَ لي في عذابٍ فوقَ هذا لَمَا وجدتَ مزيدا
كان ظني بك الجميلَ فألفيـ ـتُك من كلِّ ما ظننتُ بعيدا
فعليك السلامُ تسليمَ من لا يَضمن الدهرَ بعدها أن يعودا

وله في أحمد بن داود الشّيبي وقصد إليه بكتاب إسحاق بن سعد الكاتب :

يا ابن سعدٍ إن العقوبة لا تلـ ـزَم إلاّ من ناله الإعذارُ
وابن داود مستخفٌ وقد وا فَتْه مشحوذةٌ عليه الشِّفارُ
فاهده للتي يكون له منـ ـها مَفرٌّ ما دامَ يُنجِي الفِرارُ
سامَني أحمد بن داود أمراً ماعلى مثله لدَيَّ اصطبارُ
لي إليه في كلِّ يومٍ جديدٍ رَوحةٌ ما أغِبُّها وابتكارُ
ووقوفٌ ببابه، أمنَع الإذ نَ عليه ويَدخل الزُّوّارُ
خُطّةٌ مَن يُقم عليها من النا سِ ففيها ذُلٌّ له وصَغارُ
لو ينال الغنى لما كان في ذ لِكَ حظٌ ينالُه مختار
عزبَ الرأيُ فيَّ عنه وعزّتـ ـهُ أناةٌ طويلةٌ وانتظارُ

وحُجِب بباب بعض الكُتّاب فكتب إليه :

أقمتُ ببابك في جفوةٍ يُلوّن لي قوله الحاجبُ
فيطمعني تارةً في الوصول وربُّتَما قال لي : راكبُ
فأعلم عند اختلاف الكلام ومخليطه أنّه كاذبُ
وأعزمُ عزماً فيأبى عَلـ ـيّ إمضاءهُ رأيَيَ الثاقبُ

وإنّي أراقب حتى يثو ... بَ للحرُّ من رأيه ثائبُ
فإن تعتذرْ تُلفِني عاذراً ... صَفوحاً وذاك هو الواجبُ
وإلا فإني إذا ما الحبا ... لُ رُثَّتْ قُواها ، لها قاضبُ

وقال لعليّ بن يعقوبَ الكاتبِ وحُجِب ببابه :

قد أتيناك للسَّلام فصادفـ ... ـنا على غير ما عَهِدنا الغلاما
وسألناه عنك فاعتلّ بالنَّو ... مِ وما كان مُنكَراً أن تناما
غير أنّ الجواب كان جواباً ... سيِّئاً يُعقِب الصَّديقَ احتشاما
فانصرفنا نوجِّه العُذرَ إلاّ ... أنَّ في مضمَر القلوب اضطراما
يا ابنَ يعقوب لا يلومنَّ إلاّ ... نفسَه بعدَ هذه مَن ألاما

وقال لعلي بن يحيى المنجِّم ، وحجَبه غلامُه :

ليس يرضى الحُرُّ الكريم ولو أقـ ... ـطعتَه الأرضَ أن يذلَّ لعبدِ
فعليك السلامُ إلاّ على الطَّر ... قِ وحبِّي كما علمتَ ووُدّي

وقال أبو هِفّان لعلي بن يحيى ، يعاتبه في حجابه :

أبا حسنٍ وفُنا حقَّنا ... بحقِّ مكارمك الوافية
أألحجب دونك شرُّ الحجاب ... ويدخل دوني بنو العافية
أعوذُ بفضلك من أن أساءَ ... وأسألُ ربِّي لك العافية
فإني امرؤٌ تستقيني الملوكُ ... وندخل في خلقي الصافيه
كنبت على نفسٍ من رامَني ... ببعض الأذى لردًى صافيه

وأُنشِدت لبرقوق الأخطل وحُجِب بباب بعض الكتّاب :

قد حُجِبنا وكان خطباً جليلاً ... وقليل الجفاء ليس قليلا
لم أكن قبلها ثقيلاً وهل يثـ ... ـقُل من خاف أن يكون ثقيلا
غير أني أظنُّ لا زال ذاك الـ ... ـظَّنُّ ينقاد أن يكون ملولا

وأخذه من قول الآخر :

لَمَّا تحاجبتَ وقد خِفتُ أن ... تَدنُوَ من وُدِّك بالمقبلِ
أقللتُ إتيانكُمُ إنَّه ... من خافَ أن يُنقِلَ لم يثقُلِ

وأنشدني أبو عبد الرحمن العَطَويّ :

لأبي بكرٍ خليلي ... حَسَنُ رأيٍ في الحجابِ
يا أبا بكرٍ سقاكَ اللَّـ ... ـه من صَوبِ السَّحابِ
لن تراني بعدها من ... بَعدِها قارعَ بابِ
إن يَتُبْ خَطبٌ ففي الرُّسْـ ... ـلِ بلاغٌ والكتابِ

وللخالدِ الكاتب في جعفر بن محمود :

احتجبَ الكاتبُ في دهرنا ... وكان لا يحتجبُ الكاتبُ
القوم يَخلُونَ لحجّابهم ... فيُنكحُ المحجوبُ والحاجبُ

ولأبي سَعْدٍ المخزوميّ في الحسن بن سهل :

ترهَّبَ بَعدكَ الحسنُ بن سهلٍ ... فأغلقَ بابَه دون المديحِ
كذبتُ له ولم اكذبْ عليه ... كما كذبَ النَّصارى للمسيحِ

وأنشدني البَلاذُريّ في بعض كتاب أهل العسكر :

أيحجُبني من ليس من دون عرسه ... حِجابٌ ولا من دون وَجْعائه سِتْرُ
ومَن لو أماتَ اللهُ أهونَ خلقه ... عليه لأضحى قد تضمَّنَه قبرُ

وأنشدَني حبيب بن أوسٍ ، في موسى بن إبراهيم ، أبي المغيث :

أمُوَيسُ لا يُغني اعتذارُك طالباً ... وُدِّي فما بعدَ الهجاءِ عتابُ
هَبْ مَن له شيءٌ يريدُ حجابَه ... ما بالُ لا شيءٍ عليه حجابُ
ما إن سمعتُ ولا أراني سامعاً ... يوماً بصحراءٍ عليها بابُ
من كان مفقودَ الحياءِ فوجهُهُ ... من غير بَوّابٍ له بوّابُ

ولآخر :

بَخِلَ الأميرُ بإذنه فجلستُ في بيتي أميرا
وتركت إمرتَه له والله محمودٌ كثيراً

وأنشدني الزُّبير بن بكّارٍ لبعض الشعراء:

سأترك هذا البابَ ما دام إذنُه على ما أرى حتّى يَلين قليلا
إذا لم نجد للإذن عندك سُلَّماً وجَدنا إلى ترك المجيء سبيلا

الزُّبير بن بكّارٍ قال: وفَدَ ابنُ عمٍّ لداود بن يزيد المهلّبيّ عليه فحجبَه، وجعل يَمطُله بحاجته، فكتبَ إليه:

أبا سليمانَ وعداً غيرَ مكذوبِ اليأس أروَحُ من آمالِ عُرقوبِ
أرى حمامةَ مَطْلٍ غير طائرةٍ حتى تُنقّب عن بعض الأعاجيب
لا تركبنَّ بشعري غيرَ مَركبِه فيركبَ الشِّعر ظهراً غير مركوب
لئن حُجبتُ فلم تأذن عليك فما شِعري إذا سارَ عن أذنٍ بمحجوبِ
إن ضاق بابُك عن إذنٍ شددت غداً رحلي إلى المطرِّبين المناجيب
قومٌ إذا سئلوا رقّت وجوههم لا يستقيدون إلاّ للمواهبِ

وللأحوص بن محمد الأنصاريّ في أبي بكر بن حزم:

اعجبتَ أنْ ركب ابنُ حَزمٍ بغلةً فركوبُه فوق المنابر أعجبُ
وعجبتَ أن جَعلَ ابن حزمٍ حاجباً سبحانَ مَن جَعلَ ابن حَزمٍ يُحجَبُ

وأُنشِدت لابن حازمٍ يعاتب رجلاً في حجابه:

صحبتُك إذْ أنت لا تُصحب وإذْ أنت لا غيرك الموكبُ
وإذ أنت تفرح بالزائرين ونفسُك نفسُك تستحجبُ
وإذ أنت تُكثر ذمّ الزمانِ ومشيُك أضعافُ ما تركبُ
فقلتُ: كريمٌ له هِمّةٌ تنال فأدرك ما أطلبُ
فنِلْتَ فأقصيتَني عامداً كأنّيَ ذو عُرّةٍ أجربُ
وأصبحتُ عنك إذا ما أتيـ ـتُ دونَ الورى كلِّهم أُحجبُ

وأنشدني أبو تمّامٍ الطائيّ :

ومحجّبٍ حاولتُه فوجدتُه ... نَجْأً عن الرّكب العُفاة شسوعا
لما عَدِمتُ نوالَه أعدمتُه ... شكري فرُحنا معدِمَين جميعاً

ووقف العُتبيُّ بباب إسماعيل بن جعفرٍ يطلب إذنه ، فأعلمه الحاجبُ أنّه في الحمّام ، فقال :

وأميرٍ إذا أردنا طعاماً ... قال حُجّابُه أتى الحمّاما
فيكون الجواب منّيَ للحا ... جب ما إن أردتُ إلّا السّلاما
لستُ آتيكمُ من الدّهر إلّا ... كلَّ يومٍ نويتُ فيه الصّياما
إنّني قد جعلتُ كلَّ طعامٍ ... كان حِلّاً لكمْ عليَّ حراما

وأنشدني إسحاق بن خَلَفٍ البصريُّ له :

أيَحْجُبني أبو الحسَنِ ... وهذا ليس بالحسَنِ
وليس حِجابُه إلّا ... عن الزّيتون والجُبُنِ

وأنشدني بعضهم :

لا تتّخذْ باباً ولا حاجباً ... عليك من وجهك بوّابُ
أنت ولو كنتَ بذوّيّةٍ ... عليك أبوابٌ وحُجّابُ

ولعلي بن جبلة في الحسن بن سهل :

اليأس عزٌّ والذّلّة الطَّمَعُ ... يضيق أمرٌ يوماً ويتّسِعُ
لا تستريثَنَّ إذنَ محتجبٍ ... إن لم تكن بالدُّخول تنتفعُ
أحقُّ شيءٍ بطول مَهجَرةٍ ... من ليس فيه رِيٌّ ولا شِبَعُ
قل لابن سهلٍ فإنّني رجلٌ ... إن لم تَدَعْني فإنّني أدعُ
اليأس مالي وجُنّتي كرمٌ ... والصّبر والٍ عليّ لا الجزعُ

ولأبي تمام الطائيّ في أبي المغيث :

لا تَكْلَفَنَّ وأرضُ وجهـك وجهـه في غير منفعـةٍ ، مؤونـة حـاجب
لا تمتهني بالحجاب فإنني فَطِن البديهـة عالم بعواربي

ولبعض الشعراء في العباس بن خالد ، وخُبِّرت أنّه لابن الأعمش :

أتحجبني فليس لديك نيلٌ وقد ضيّعت مكرمـةً ومجدا
وفي الآفاق أبدالٌ ورزقٌ وفي الدنيا مَراحٌ لي ومَغدى

وأنشدني أبو الخطاب ، لِدعبِل ، في غَسّان بن عباد :

لقَطْعُ الرمال ونَقْل الجبال وشرب البحار التي تصطخبْ
وكشفُ الغِطاء عن الجنّ أو صُعودُ السّماء لمن يرتقب
وإحصاء لُؤم سعيدٍ لنا أو الشُّكلُ في ولدٍ مُنتجَبْ
أخفّ على المرء من حاجةٍ تكلَّفُ غشيانَها مرتقِبْ
له حاجبٌ دونه حاجبٌ وحاجب حاجبه محتجبْ

ولمرداس بن حزام الأسدي ، في بَشير بن جرير بن عبد الله :

أتيتُ بَشيراً زائراً فوجدته أخا كبرياءٍ عالِماً بالمعاذر
فصدَّ وأبدى غِلظةً وتجهُّماً وأغلقَ بابَ العُرف عن كلّ زائرِ
حجاباً لحرٌّ لا جواداً بماله ولا صابراً عند اختلاف البواتر

وحُجب أبو العتاهيَة بباب أحمدَ بن يوسُفَ الكاتب ، فكتب إليه :

ألم تَر أنَّ الفقرَ يُرجَى له الغنى وأنَّ الغنى يُخشَى عليه من الفقرِ
فإن نِلتَ تيهاً بالذي نلتَ من غنىً فإنَّ غناي بالتكرُّم والصَّبرِ

وله أيضاً فيه :

إنّي أتيتُك للسَّلا م تكلُّفاً مني وحُمقا
فصَدَدْتَ عنّي نخوةً وتجبُّراً ولَويتَ شِدقا
فلوَ انّ رزقي في يَدَيـ ـكَ لما طلبتُ الدهرَ رزقا

ولأحمد بن أبي طاهر :

ليس العجيب بأن أرى لك حاجباً ولأنت عندي من حجابك أعجبُ
فلئن حُجِبتُ لقد حجبتُ معاشراً ما كان مثلُهمُ ببابك يُحجَب

وله في بعض الكتاب :

ردّني بالذُّلّ صاحبُه إذا رأى أنّي أطالبُه
ليس كَشْخاناً فأشتُمَه إنّما الكَشْخانُ صاحبُه

وله أيضاً في علي بن يحيى يعاتبه في بعض قصائده :

اصَوَاباً تراه أصلحك اللهُ فيما إنْ رأيتَه بصوابِ
صرتُ أدعوك من وراء حجابٍ ولقد كنْتَ حاجبَ الحجّابِ

أتى ابو العتاهية باب أحمد بن يوسفَ الكاتب في حاجةٍ فلم يؤذَن له ، فقال :

لئن عدتُ بعد اليوم إنّي لظالمٌ سأصرف وجهي حيث تُبغَى المكارمُ
متى يُنجِح الغادي إليك بحاجةٍ ونصفك محجوبٌ ونصفك نائم

ولآخر :

رأيتُك تطرُدنا بالحجا ب عنك برفقك طَرداً جميلا
ولكنْ في طمع الطامعيـ ـنَ والحرّ من ذا يفُكُّ العقولا
فهل لك في الإذن لي بالرّحيـ ـلِ فقد أبتِ النفسُ إلا الرحيلا

وحدّثني ابو عليٍّ البَصير قال : حدّثني محمد بن غَسّان بن عباد قال : كنتُ بالرَّقّة ، وكان بها مُوسوَسٌ يقول الشِّعر المُحالَ والمنكر ، فغدّيتُه يوماً معي احتساباً للثواب ، فأتاني من غدٍ وعندي جماعةٌ من العُمّال ، فحجبَه الغُلام ، فلمّا كان من غدٍ وقف على الباب وصاح :

عليك إذنٌ فإنّا قد تغدّينا لسنا نعود لأكلٍ قد تغدّينا

يــا أكـلةً مــلَفتْ ابقت حــرارتُهــا   داءً بـقلبــكَ مــا صُمنــا وصلَّينــا

قــال : وما علمتُـه قال شعـراً على استـواءٍ غيرَه ، ولكنّي وُعـظتَ بـه فـوقـع مكروهي على لساني .

وأُنشِدت لحمَّادِ عجردٍ يعاتب بَعضَ الملوك :

إذا كــنــت مــكــتــفـيــاً بــالــكـتــا   ب دونَ الـلُّـمـام تــركتُ الـلُّـمـامـا

وإلاّ فــاوصِ هَــذاك الــمــلـيـ   ـكَ بــوّابـكـمْ بي وأوصِ الـغـلامـا

فــإن كــنــتُ أُدخــلــت في الــزائــريــ   ـن ، إمّــا قــعــوداً وإمــا قــيــامــا

وإنْ لم أكــن مــنــك اهــلاً لِــذاك   فــلا لــومَ لــسـت أحـبُّ المـلامـا

فــإنّي أذمُّ إلــيــك الأنــا   مَ أخــزاهــم الله ربّي أنــامــا

فــإنّي وجــدتهــمُ كــلُّهـمْ   يُمــيــتــون مجــداً ويُحــيــون ذامّــا

ولأبي الأسَد الشُّيبانيّ ، يعاتب أبا دُلَف في حجابه :

ليت شعــري أضــاقت الأرضُ عنّي   أم نــفــيٌ مــن الــبــلاد طــريــدُ

أم قُــدارُ أم الحَــبّــابــة أم أحــ   ـمــرُ لاقــت بــه الــبــلاءَ ثــمــودُ

أم أنــا قــانــعٌ بــأدنى مــعــاشٍ   همّتي الـقــوتُ والـقـلـيـلُ الــزهــيــدُ

مِقــولي قــاطــعٌ وسيفي حــســامٌ   ويــدي حُــرّةٌ وقــلـبــي شــديــدُ

رُبَّ بــاب أعــزَّ من بــابــك الــيــو   مَ عــلــيــه عــســاكــرٌ وجــنــودُ

قــد ولجــنــاه داخــلــينَ غــدُوّاً   ورَواحــاً وأنــت عــنــه ضَــذودُ

فــاكفف اليوم من حجــابك إذ لَسْـ   ـتَ أمــيــراً ، ولا خمــيــســاً تــقــودُ

لــن يقــيــم الــعــزيــز في البــلد الهُــو   ن ولا يــكــسَــدُ الأديــبُ الجــلــيــد

كــلُ مَــن فــرَّ من هــوانٍ فــإن الـ   ـرُحبَ يلقــاه والــفــضــاء الــعــتــيــد

ولعليّ بن جبلة في بعض الملوك :

حــجــابــك ضــيّــقٌ ونــداك نَــزرٌ   وإذنــك قــد يُــراد عــلــيــه أجــرُ

وذلٌّ أن يــقــوم إلــيــك حُــرٌّ   وطُــلاّب الــثــواب لــديــك نَــفْــرُ

وأنشدني اليماميّ في أبي الصَّقر إسماعيل بن بلبل ، يعاتبه في حجابه :

لكلِّ مؤمِّلٍ جدوَى كريمٍ   على تأميله يوماً ثوابُ
وأنت الحرُّ ما خانتك نفسٌ   ولا أصلٌ إذا وقع انتسابُ
وشكري ظاهر ورجايَ جزلٌ   ففيم جزايَ من ذلٍّ حجابُ
وحقّي أن تكافئني مزيداً   بشكري إذْ به نزلَ الكتابُ

وأنشِدت لأبي مالك الأعرج :

علّقت عيني بباب الدار منتظراً   منك الرسولَ فخلَّصْها من البابِ
لمّا رأيت رسولي لا سبيلَ له   الى لقائك من دفعٍ وحجّابِ
صانعت فيك بمثلي ما أؤمِّله   في لديك وهذا سَعيُ خيّابِ

ولبشّار بن برد ، في عُبيد الله بن قَزَعة :

إذا سُئل المعروفَ أغلَقَ بابَه   فلم تَلقه إلاّ وأنت كمينُ
كأنْ عُبيدَ الله لم يرِ ماجداً   ولم يدرِ أنَّ المكرماتِ تكون
فقل لأبي يحيى متى تدركُ العلا   وفي كلِّ معروف عليك يمينُ

وأنشِدَ لأبي زُرعة ـ رجلٍ من أهل الشام ـ في أبي الجهم بن سيف :

ولكنْ أبو الجهم إن جئتَه   لهيفاً حُجبت عن الحاجبِ
وليس بذي موعدٍ صادق   ويَبخَلُ بالموعد الكاذبِ

وحُجب سعيد بن حُميد بباب الحَسن بن مَخْلَد ، فكتب إليه :

ربّ بِشرٍ يصيِّر الحرَّ عبداً   لك غالته جفوةٌ في الحجابِ
وفتىً ذي خلائقٍ مُعجِباتٍ   أفسدَتْها خلائقُ البوّاب
وكريم قد قصَّرت بأيادِيـ   ـه عبيدٌ نسيءٌ للآداب
لا أرى للكريم أن يشتري الدنـ   ـيا جميعاً بوقفةٍ بالباب
إنْ تركتَ العبيدَ والحُكم فينا   صار فصلُ الرءوس للأذناب

فـأحلُّوا أشكـالهـم رُتَبَ الـفَضْـ ـلِ ، وحَظُّ الأحـرارِ غَفْـر التّـرابِ

وأُنشِدت لعبد الله بن العباس :

أنـا بـالـبـاب واقفٌ منـذ اصبَحْـ ـتُ عـلى السَّـرج ممسـك بعنـاني
وبـعـين الـبـوّاب كـلُّ الـذي بي ويـراني كـأنّـه لا يـرانـي

وأُنشِـدتُ لأبي عيـنة المُهلَّبي ـ واسمه عبد الله بن محمد ـ يعاتب رجلاً من قومه :

أتـيـتُـك زائـراً لـقـضـاء حَـقٍّ فـحـالَ السِّـتْرُ دونَـك والحجـابُ
ولـسـتُ بـسـاقطٍ في قـدر قـومٍ وإن كَـرِهـوا كـما يـقـع الـذبـابُ
ورائـي مـذهـبٌ عـن كـلِّ نـاءٍ بـجـانِـبِـه إذا عـزَّ الـذّهـابُ

وانشدني ابنُ أبي فَنَن :

مـا ضـاقـت الأرضُ عـلى راغـبٍ يـطْلُبُ الـرزق ولا ذاهـبِ
بـل ضـاقت الأرضُ عـلى صـابـرٍ اصبحَ يشـكـو جَـذوةَ الصّـاحبِ
مَـن شَـتَـم الحـاجـبَ في ذَنْـبِـهِ فـإنّمـا يَـقـصِـد لـلصّـاحـب
فـارغـبْ إلى الله وإحـسـانـه لا تـطلبِ الـرزق مـن الـطالـبِ

قال المدائني : أتى عُويفُ القوافي بابَ عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، فحُجِبَ أياماً ، ثم استأذنَ له حُبيش صاحبُ إذنِ عمر ، فلمّا قام بين يَديه قال :

أجبني ابـا حـفص ، لقيتَ مُحَمَّـداً عـلى حَوْضـه مستبشِراً بـدُعـاكـا

فقال عمر : أقول لبيَّك وسَعدَيك ! فقال :

وأنت امـرؤٌ كلتـا يـديـكَ طليقـةٌ شِـمـالُـك خـيرٌ من يمـين سِـواكـا
عـلامَ حـجـابي ، زادك اللّهُ رِفـعـةً وفضـلاً ، ومـاذا للحجـابِ دعـاكـا

فقال : ليس ذاك إلاّ لخير ! وأمر له بصِلة .

المدائني قال : أقام عبد العزيز بن زُرارَة الكلابيّ ، بباب معاوية حيناً لا

يُؤذَن له ، ثم دخل فقال :

دخلتُ على معاويةَ بنِ حربٍ وكنتُ وقد يئستُ مِنَ الدخولِ
رأيتُ الحظَّ يسترُ عيبَ قومٍ وهيهاتَ الحظوظُ مِنَ العقولِ

قيل لحُبّى المدنيّةِ : ما الجُرحُ الذي لا يندمل ؟ قالت : حاجة الكريم إلى اللئيم ثم لا يُجدَى عليه . قيل لها : فما الذُّلّ ؟ قالت : وقوف الشريف بباب الدنيّ ثم لا يُؤذَن له . قيل لها : فما الشُّرف ؟ قالت : اعتقاد المِنَن في أعناق الرجال ، تبقى للأعقاب في الأعقاب .

وقيل لعُبوة بن عديّ بن حاتم وهو صبيٌّ ، في وليمة كانت لهم : قِفْ بالباب فاحجُبْ من لا تعرف وائذَنْ لمن تعرفْ . فقال : لا يكون ـ والله ـ أوّلَ شيءٍ استُكفيتَه منعُ الناس من الطَّعام .

وأُنشِدتُ لأبي عُيينة المهلّبيّ :

بُلغةٌ تحجُب الفتى عن دُناةٍ وعتابٍ يخاف أو لا يخافُ
هو خيرٌ من الركوبِ إلى بابِ حجابٍ عنوانُهُ الانصرافُ
بئس للدولةِ التي تُرفع السفلةُ فيها وتَسقُطُ الأشرافُ

وأُنشِدتُ لموسى بن جابرٍ الحنفي :

لا أشتهي يا قوم إلّا مُكرَهاً بابَ الأمير ولا دفاعَ الحاجبِ
ومِنَ الرِّجالِ أسنّةٌ مذروبةٌ ومزنّدون شُهودُهم كالغائبِ
منهم أُسودٌ لا تُرام ، ومنهمُ مما قَمَشْتَ وضمّ حبلُ الحاطبِ

وأنشدَني بعضُ أصحابنا :

إني امرؤٌ لا أرى بالباب أقرعُه إذا تَنَمّرَ دوني حاجبُ الباب
ولا ألوم امرأً في ودّ ذي شرفٍ ولا أُطالبُ وُدَّ العكارِهِ الآبي

وأنشدني ابنُ أبي فَنَن :

الموت أهونُ مِن طول الوقوف على ... بـاب ، عـليّ لـبـوّاب عـلـيـه يـدُ
مـا لي اقيمُ عـلى ذلّ الحجـابِ كـأنْ ... قـد مَـلّني وطـنٌ أو ضـاقَ بي بَـلدُ

وأنشدني الزبير بن بكّار لجعفرِ بن الزُّبير :

إنَّ وُقـوفي مــن وراء الـبــابْ ... يَـعـدِلُ عنـدي قَـلعَ بعض أنيـابْ

وأنشد لمحمود الورّاق :

شـاد الـملوكُ حـصـونَهم وتحصَّـنـوا ... من كـل طـالب حـاجـةٍ أو راغـبِ
عـالَوْا بـأبـواب الحـديـد لعـزِّهـا ... وتـنـوّقـوا في قُبْـح وجـه الحـاجـب
فـإذا تَـلطَّف لـلدخـول إلـيـهـم ... راجٍ . تـلَقّـوْه بـوعـدٍ كـاذب
فـاضــرعْ إلى مَـلِك الملوك ولا تـكـنْ ... بـادِي الضَّـراعـة طـالبـاً من طـالب

وأنشدني أبو موسى المكفوف :

لـن تـراني لـك الـعـيـونُ ببـابِ ... ليس مـثـلي يُـطـيـق ذُلّ الحجـابِ
يـا أمـيـراً عـلى جَـريـبٍ مـن الأر ... ضِ لـه تِـسـعـةٌ مـن الحـجّـابِ
قـاعـداً في الخـرب تُـحجَـبُ عـنّـا ... مـا سـمـعـنـا إمـارةً في خـراب

وأنشدني أبو قَنْبَر الكوفيُّ :

ولـسـتُ بـمـتـخِـذٍ صـاحِـبـا ... يُـقـيـم عـلى بـابـه حـاجِـبـا
إذا جـئـتُـه قـيـل لي نـائـمٌ ... وإن غـبـتُ ألـفـيـتُـه عـاتـبـا
ويُـلزم إخـوانَـه حَـقَّـهُ ... ولـيـس يَـرى حـقَّـهـمْ واجـبـا
لـسـتُ بِـلاقـيـه حـتّى المـمـاتِ ... إذا أنـا لم آلْـقَـه راكـبـا

وأنشدني أبو بكر محمد بن أحمد، من أهل رأس العَيْن ـ لنفسه في بعض بني عمران بن محمدٍ الموصليّ :

يـابَا الفـوارسِ أنت أنت فتَى النَّدى ... شـهِـدَتْ بـذاك ولم تَـزَلْ قـحـطانُ
فـلأيِّ شيءٍ دون بـابـك حـاجـبٌ ... من بُـغـضِـه يـتـخـبَّطُ الـشَّـيطانُ

فإذا رآني مالَ عنّي مُعرِضاً　　فكأنني من خوفه سَرطانُ

قال الأشهب بن رُمَيلة :

أبلغ أبا داود أنّي ابنُ عمّه　　وأنَّ البَعيث من بني عمٍّ سالمِ
أتُولجِ بابَ الملك مَن ليس أهلَه　　وريشُ الذُّنابَى تابعٌ للقوادمِ

وقال عاصمٌ الزِّمّانيُّ، من بني زِمّان :

أبلغْ أبا مِسمعٍ عني مغلغَلةً　　وفي العتاب حياةٌ بين أقوامِ
أدخلتَ قبلي رجالاً لم يكن لهم　　في الحقّ أن يلْجوا الأوابَ قُدامي
فقد جعلتُ إذا ما حاجةٌ عَرضَتْ　　بباب دارك أدلُوها بأقوامِ

وقال هشام بن أبيض ، من بني عبد شمس :

وليس يَزيدُني حَسَبي هواناً　　عليَّ ولا تراني مستكينا
فإنْ قدمتمُ قبلي رجالاً　　أراني فوقَهم حسباً ودينا
السنا عائدين إذا رجعنا　　إلى ما كان قدَّمَ أوّلونا
فارجِعَ في أرومة عَبْشَميٍّ　　ترى لي المجدَ والحسبَ السَّمينا

وقال دينار بنُ نُعيمٍ الكلبيّ :

أبلغْ أميرَ المؤمنينَ ودونَه　　فراسخُ تَطوِي الطَّرف وهو حديدُ
بأنّي لدى عبد العزيز مدفَّعٌ　　يقدَّم قبلي راسبٌ وسعيد
وإنّي لأدنَى في القرابة منهما　　وأشرفُ إن كنتَ الشريفَ تُريدُ

المدائني قال : أتى ابن فَضالة بن عبد الله الغنويُّ باب قُتيبة بنِ مسلمٍ ، فأساء إذنَه فقال :

كيفَ المُقامُ أبا حفصٍ بساحتكم　　وأنت تُكرِمُ أصحابي وتجفوني
أراهمُ حين أغشَى بابَ حجرتكمْ　　تَدعوهم النَّقَرَى دوني ويقصوني
كم من أميرٍ كفاني الله سَخْطتَه　　مذْ ذاك أوليتُه ما كان يوليني

إنّي أبى ليَ أن أرضى بمنقصةٍ عمٌّ كريمٌ وخالٌ غير مأفونِ
خالي كريمٌ وعمّي غير مؤتشبٍ ضخم الحَمالة أبّاءٌ على الهُونِ

المدائني قال : كان مَسْلمة بن عبد الملك تزوّجَ ابنَةَ زُفَرَ بن الحارث الكلابيّ، وكان ببابه عاصمُ بن يزيد الهلاليّ ، والهُذَيل وكوثرٌ ابنا زفر ، فكان يأذن لهما قبل عاصم ، فقال :

أمَسْلَمُ قد منّيتني ووعدتَني مَواعدَ صدقٍ إن رجعتَ مؤمَّرا
أيُدعَى هُذيلٌ ثمّ أُدعَى وراءه فيا لكَ مَدْعيً ما أذلّ وأحقرا
وكيف ولم يشفع لي الليلَ كلّه شفيعٌ وقد ألقى قناعاً ومئزرا
فلستُ براضٍ عنك حتّى تحبَّني كحبِّك صهرَيك الهُذيلَ وكوثرا

وقال الأصحم ، أحدُ بني سعد بن مالك بن ضُبيعة بن قيس بن ثعلبة ، يذكر خالدَ بن عبد الله القسريَّ ، وأبان بنَ الوليد البَجَليّ ، وحجبَه خالد :

ومنزلةٍ ليست بدارِ تثيّةٍ أطال بها حبسي أبانٌ وخالدُه
فإنْ أنا لم أنزلْ بلاداً هُما بها فلا ساغَ لي من أعذب الماء باردُه
إذا ما أتيتُ البابَ صادفتُ عنده بَجيلَة ، أمثالَ الكلاب ، تُراصِدُه
عليهمْ ثياب الخزِّ تبكي كما بكت كَراسيُّه ، من لُؤمه ، ووسائده
ويُدعَونَ قُدّامي ويجعَل دوننا من السّاج مسموراً تئطُّ حدائده

المدائني قال : كان تَميم بن راشدٍ مولى باهلةَ ، حاجباً لقُتيبة بن مسلم بخراسان ، فكان يأذن لسُويد بن هَوبرٍ النَّهشليّ ، ومُجفَر بن جزيّ الكلابي ، قبل الحُصَين بن المنذر الرقاشي ، فقال الحُصَين :

إنّي لألقى من تميم وبابه عَناءً ويدعو مُجفَرا وابن هَوبرا
نَزيعَين من حيَّينِ شتّى كأنّما يرى بهما البوّابُ كسرى وقيصرا

وقال عُبَيد الله بن الحُرّ الفاتك ، لعبد الله بن الزُّبير ، وشكا إليه مُصعباً وحجّابَه :

أبلغ أمير المؤمنين نصيحتي ... فلستُ على رأي قبيح أواربُه
أفي الحقِّ أن أُجفى ويُجعلَ مصعب ... وزيريه مَنْ قد كنتُ فيه أحاربه
وما لامرىءٍ إلاّ الذي اللّهُ سائقٌ ... إليه وما قد خطَّ في الزُّبر كاتبُه
إذا ما أتيتُ البابَ يُدخَل مسلمٌ ... ويمنعني أن أدخل البابَ حاجبُه
لقد رابني من مُصعبٍ أنّ مصعباً ... لدى كلِّ ذي غشٍّ لنا هو صاحبُه

وقال ابن نوفل لخالد بن عبد الله القسريّ ، وحجّبه :

فلو كنتُ غَوْثيّاً لادنيتَ مجلسي ... إليك ، أخا قَسْرٍ . ولكنّي فحلُ
رأيتك تُدني ناشئاً ذا عجيزةٍ ... بمحجر عينيه وحاجِبه كُحلُ
فوالله ما أدري إذا ما خلوتُما ... وأرْخيت الأستارُ أيّكما الفحلُ

وقال عمرو بن الوليد ، في عُقبة بن أبي مُعَيط :

أفي الحق أن نُدنَى إذا ما فزعتمُ ... ونُقصَى إذا ما تأمنون ونُحجبُ
ويُجعلَ فوقي مَن يودُّ لَوَ انّكم ... شهابٌ بكفَّيْ قابسٍ يتلهّب
فمها أنتُم داويتمُ الكَلْمَ ظاهراً ... فمن لكلومٍ في الصُّدور تُحوّبُ
فقلتُ وقد أغضبتموني بفعلكم ... وكنت امرأً ذا مِرّةٍ حين أغضب
أماليَ في أعداد قوميَ راحةٌ ... ولا عند قومي إنْ تَعتَّبتُ مَعتَبُ

المدائنيُّ قال : كتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج أن يستعمل مِسمَع ابن مالك على سجستان ، فولاّه إياها ، فأتاه الضّحّاك بن هشام فلم يُنِله خيراً واقصاه، فقال :

وما كنت أخشى يا ابنَ كبشة أن أرى ... لبابك بوّاباً ولإستِك مِنبراً
وما شجَرَ الوادي دعوتَ ولا الحَصى ... ولكن دَعَوت الخُرقتين وجَحدرا
اخذنا بآفاق السماء فلم نَدَعْ ... لعينك في آفاقها الخُضرِ منظرا

قال أيمن بن خُريم في بِشْر بن مروان :

ولو شاء بشرٌ كان مِن دون بابه طَماطمُ سُودٌ أو صقالبةٌ حُمْرُ
ولكنْ بشراً أسهلَ الباب للتي يكون له مِن دونها الحمدُ والشُكرُ
بعيدُ مُرادِ الطَّرف ما رُدَّ طرفه حذارَ الغواشي بابُ دار ولا سِترُ

وله أيضاً في عبد العزيز :

لِعبدِ العزيز على قومِه وغيرهمُ مِنَنٌ ظاهرَه
فبابُك ألينُ أبوابهم ودارُك مأهولةٌ عامرة
وكلبُك آرأف بالمعتفينَ من الأمِّ بابنتها الزّائرة
وكفُّك حينَ ترى السائلـ ـنَ أندى من الليلة الماطرة
فمنك العطاءُ ومنّا الثناءُ بكل مُحَبَّرةٍ سائرة

ولآخر أيضاً :

مالي أرى أبوابَهم مهجورةً وكأنَّ بَابَكَ مجمعُ الأسواقِ
إنّي رأيتُك للمكارم عاشقاً والمكرُماتُ قليلةُ العُشّاقِ

وللتميمّي :

يزدحمُ الناسُ على بابه والمنهلُ العذبُ كثير الزّحامْ

ولأشجَع بن عمروٍ السُلميّ :

على باب ابن منصورٍ علاماتٌ من البذْلِ
جماعاتٌ وحَسْبُ البا بِ جوداً كثرةُ الأهلِ

وأُنشِدتُ لعُمارة بن عقيل ، في خالدِ بن يزيد :

تأبى خلائق خالد وفعالُه إلاَّ تجنُّبَ كلِّ أمرٍ عائبِ
وإذا حضرْنا الباب عند غَدائه أذن الغَداءُ برغم أنفِ الحاجبِ

وأنشِدتُ لبعضهم :

أبلج بين حاجبيه نورُه إذا تغذّى رُفعت سُتورُه

ولثابت قُطنَةَ ، في يزيد بن المهلّب :

أبا خالدٍ زدتَ الحياةَ محبّةً — إلى الناس أنْ كنتَ الأميرَ المتوجا
وحُقّ لهم أن يرغبوا في حياتهم — وبابُك مفتوحٌ لمن خاف أو رجا
تَزيد الذي يرجو نداك تفضُّلا — وتُؤمن ذا الإجرام إنْ كان مُحرَجا

المدائني قال : حضر أبو سفيانَ بنُ حربٍ بابَ عثمانَ بن عفّانَ رضي الله عنه ، فحُجِبَ عنه ، فقال له رجلٌ يُغرّيه به : حجبَك أميرُ المؤمنين يا أبا سفيان ؟ فقال : لا عَدِمتُ مِن قومي مَن إذا شاء أن يحجبَني حجبَني .

وأنشدني الطائيُّ في إسحاقَ بنِ إبراهيم الموصليّ :

يا أيُّها المأمول نائلُه — وجُوده لُراعي جُوده كَثَبُ
ليس الحجابُ بمُقصٍ عنك لي أملاً — إنَّ السماءَ تُرَجّى حين تحتجبُ

وله أيضاً في مالك بن طوق :

قل لابن طوق رَحى سعدٍ، إذا خَبطتْ — حوادثُ الدهر أعلاها وأسفلَها
أصبحتَ حاتِمَها جوداً، وأحنفَها — حلماً، وكيِّسها علماً ودَغفَلَها
مالي أرى الحجرةَ الفيحاءَ مقفلةً — عنّي وقد طال ما استفتحتُ مقفلَها
كأنّها جنّةُ الفِردوس معْرِضةً — وليس لي عملٌ زاكٍ فأدخلَها

ولأبي عبد الرحمن العَطَويّ في ابن المدبّر :

إذا أنت لم ترسل وجئتُ فلم أصلْ — ملأتُ بعذرٍ منك سَمعَ لبيبِ
قَصدتُك مشتاقاً فلم أر حاجباً — ولا ناظراً إلّا بعينِ غضوبِ
كأني غريمٌ مقتضٍ أو كأنني — طُلوع رقيبٍ أو نُهوضُ حبيبِ
عليَّ له الإخلاصُ ما ردعَ الهوى — أصالةُ رأيٍ أو وقارُ مَشيبِ

وأنشدني الخثعميّ :

كيفما شئتَ فاحتجب يا أبا اللّيـ — ـثِ ومن شئت فاتّخذ بوّابا

أنت لـو كنت دون أعـراضٍ قحـطا ... نَ واسـبـلْتَ دونها الأحـسـابـا
لـرأيـنـاك في مـرايـا أيـاديـ ... كَ يـقـيـنـاً ولـو أطلتَ الحـجـابـا

وأنشدني البلاذُريّ في عُبيد الله بن يحيى بن خاقان :

قـالـوا اصـطبـارُك للحجـابِ وذُلُّـه ... عـارٌ عليـك يـدَ الـزَّمـانِ وعـابُ
فـأجبتُهـم ولكـلِّ قـولٍ صـادقٍ ... أو كـاذبٍ عـنـد الـكـريـم جـوابُ
إنّي لأغـتـفـرُ الحـجـابَ لمـاجـد ... لـيـسـت لـه مِـنَـنٌ عـليَّ رِغـابُ
قـد يـرفـع المـرءُ اللئيمُ حجـابَـه ... ضَعـةً ، ودون العُـرف منـه حجـابُ
والحـرُّ مـبـتـذَل النَّـوالِ وإن بـدا ... مـن دونـه سِـتـرٌ وأُغـلِقَ بـابُ

* * *

تمّ كتاب الحجاب ، ولله الحمد والمنّة ، وبيده الحول والقوّة ، والله سبحانه الموفّق للصواب برحمته .

يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب « مفاخرة الغلمان والجواري » من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أيضاً ، والله المستعان وعليه التُّكلان ، إنّه سميعٌ مجيب الدعاء.

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامُه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

هامش كتاب الحجاب

(١) معنى « الحكيم من أحكمته التجارب » ، من الخير مقارنته بما ورد عند الفلاسفة ، امثال ارسطو والكندي والفارابي وابن رشد . الحكيم عند ارسطو هو من يعرف كل شيء على قدر الأمكان ، والحكمة علم يبحث في بعض العلل وبعض المبادىء . والحكيم بنظر الكندي هو الذي يعلم الأشياء بحقائقها . والحكيم برأي الفارابي هو الفيلسوف ويعني من يحب الحكمة . اما ابن رشد فيعرف الحكيم بانه الناظر في الموجودات واعتبارها من جهة دلالتها على الصانع .

- ود تصفية العقل من القذى » تعني نفي الأوهام عنه .

- العبد يقرع بالعصا والحر تكفيه الملامة .

هذا البيت نسبه الجاحظ في البيان والتبيين (ج ٣ ص ٣٦) الى الشاعر يزيد بن مفرغ .

وان قراب البطن يكفيك ملؤه ويكفيك سوآت الأمور اجتنابها

وهذا البيت الذي اورد الجاحظ صدره في كتاب الحيوان (ج ١ ص ٢٨٣) ، نسب الى الشاعر هلال بن خثعم ! وهلال بن جشم كما في عيون الأخبار .

(٢) « أقام كتاب الله في القريب والبعيد » يعني طبق الاحكام الواردة في القرآن على الناس جميعاً دون التفات الى القرابة .

- « وشاور القرآن فانه إمامك » يعني طبق احكام القرآن فهو مرجعك وهاديك الى طريق الصواب ، ومنهاجك . (الامام : المنهاج) .

- نلاحظ من اقوال الرسول وعمر بن الخطاب التركيز على ثلاثة أمور تشكل أسس السياسة هي : العدل ، وعدم الاحتجاب عن الرعية ، والمساواة بين الناس .

(٣) « انك عيني التي انظر بها وجنته التي استنيم اليها وقد وليتك بابي . . . » . يعني أن الحاجب بمثابة عين الحاكم التي يرى فيها الأمور ، وهو يشبه الدرع التي تقي الحاكم . وتوليه الباب تعني توليه الحجابة .
يعني بـ« اخي الرثاثة » الفقير البالي الثياب .
ـ ابن المدبر هو ابراهيم بن محمد بن عبيد الله . كان شاعراً وكاتباً كبيراً ووزر للمعتمد على الله والمعتضد وتوفي سنة ٢٧٩ هـ . ويريد الشاعر ان يقول في الابيات الثلاثة التي يهجو فيها ابن المدبر ان سبب احتجابه هو الخوف من انكشاف عيوبه او عيه او بخله .

(٤) لاحظ تمييز العقل والفهم .

(٥) الموصلي هو اسحق بن ابراهيم الموصلي راوية الشعر والاخباري المشهور توفي سنة ٢٣٥ هـ .
ـ سعيد بن سلم بن قتيبة الباهلي عالم بالحديث واللغة ، اخذ عنه ابن الاعرابي، عاش في العصر العباسي الاول .
ـ ابو دهمان شاعر بصري عاش بين دولتي بني امية وبني العباس واشتهر بظرفه .
وغـلا عـلـيـك طـلابـه والـنذر يـشـرك مـن غـلاتـه

نسب هذا البيت الى بشار بن برد الشاعر العباسي الذي اشتهر بهجائه ومديحه وقتل متهماً بالزندقة .
ـ ابو عبد الرحمن العطوي نسبة الى عطية ، شاعر ومتكلم معتزلي عاصر الجاحظ واتصل بابن ابي دؤاد . وقال مثل الحسين النجار بخلق الافعال .
ـ حبيب بن اوس الطائي هو الشاعر العباسي الكبير ابو تمام الذي اكثر من مديح المعتصم وبائيته في فتح عمورية آية في هذا الفن . وقد عرف الجاحظ وروى له .
ـ مرداس بن حازم الاسدي شاعر اسلامي كوفي اشتهر بخبثه وفحشه في الهجاء .
ـ ابو الاسد الشيباني هو الشاعر نباتة بن عبد الله الحماني ، عرف بنوادره وملحه وهجائه الخبيث ، وبالطيعة في الشعر . وقد عاش في عهد دولة بني العباس .
ـ ابو مالك الاعرج هو النضر بن ابي النضر التميمي ، مدح الرشيد ونال عطاءه .
ـ عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع بن يونس بن ابي فروة . اشتهر بشعره المطبوع وغنائه الحسن . ادرك الخليفة المنتصر العباسي .
ـ موسى بن جابر الحنفي الملقب بازيرق اليمامة والمكنى بابن الفريعة شاعر جاهلي غزير الشعر .

- أيمن بن خريم بن الأخرم من شعراء الدولة الأموية .

- ثابت قطنة فارس وشاعر عاش في الدولة الأموية وكان يغطي عينه المصابة بقطنة فلقب بذلك اللقب .

- ١٠ -

ذم اخلاق الكتّاب

[١ ـ المقدمة]

حفظك الله وأبقاكَ وامتعَ بك .

قد قرأت كتابك ومدحتَك أخلاقَ الكتّاب وأفعالَهم ، ووصْفَك فضائلهم وأيّامَهم ، وفهمتُه .

ومتى وَقَع الوصفُ من القائل تقصُّباً ، والنعت من الواصف تألُّفاً ، قلَّ شُهداؤه وكثُر خُصماؤه ، وخفَّت المؤونة على مجاوبيه في دعواه ، وسهُلتْ مُناصَبةُ الأدنياءِ له في مَعناه . لأنَّ أغلظ المحَن ما عُرِض على المشهود فأزاله ، وتصفّحه المعقولُ فأحاله .

واضعَفُ العلل ما التُمِس بعد المعلول ، ونصبتَ له علماً على الموجود بعد الوجود . وإذا تقدّم المعلولَ عِلّته والمخبر عنه خبره ، استُغني عن الحاكم ، وظهر عُوّار الشاهد .

فقد رايتك اطنبتَ بإحماد هذا الصِّنف من الناس ، وحكمتَ بفضيلة هذه الطبقة من الخَلْق ، فعلمتُ أنّ فرطَ الإعجاب عن القائل متى وافق صناعة المادح رسخ في التركيب هواه ، ورسَبَتْ في القلوب أوتاده ، واشتدَّ على المُناظر إفهامه ، وعلى المخاصم بالحقّ توقيفه ، وكان حكمُه في صعوبة فَسْخه وتعذُّر دفعِه حكمَ الإجماع إذا لاقى محكمَ التنزيل .

ولستُ أدعُ مع ذلك توقيفك على موضع زللك في الاحتجاج ، وتنبيهك على النكتة من غلطك في الاعتلال ، بما لا يمكن السامعَ إنكارُه ولا يتساغُ له

إبطاله . وأبيّن مع ذلك رداءة مذاهب الكتّاب وأفعالهم ، ولؤم طبائعهم وأخلاقهم بما تعلم أنت والناظرُ في كتابي هذا : أنّي لم أقل إلاّ بعد الحجّة ، ولم أحتجّ إلاّ معَ ظُهور العِلّة ، ثم أستشهِدُ مع ذلك الأضدادَ تبياناً ، وأجمع عليه الأعداء إنصافاً ، إذ كان في ذلك من التبيان ما يبهرهم ، ومن القول ما يسكتهم .

[٢ ـ نماذج سيئة من الكتاب]

ثم أقول : ما ظنّك بقوم منهم أوّل مرتّدٍ كان في الإسلام ، كَتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم فخالف في كتابه إملاءه ، فأنزل الله فيه آياتٍ من القرآن نَهى فيه عن اتخاذه كاتباً ، فهربَ حتّى ماتَ بجزيرة العرب كافراً ، وهو عبد الله بن أبي سَرْح .

ثم استكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم بعده معاويةَ بنَ أبي سفيان ، فكان أوّل من غَدر في الإسلام بإمامِه ، وحاول نَقضَ عُرَى الإيمان بأثامِه .

وكتب عثمان بن عفّان لأبي بكر رضوانُ الله عليهما ـ مع طهارة أخلاقه وفضائل أيّامه ـ فلم يمتْ حتى أدّاه عِرقُ الكتابة إلى ذمّ من ذمّه من أوليائه .

ثم كتب لعمر بن الخطّاب رضي الله عنه زيادُ بن أبيه ، فانعكسَ شرٌّ ناشيءٌ في الإسلام ، نُقِضت بدعوته السُّنّة ، وظهرت في آيام ولايته بالعراق الجَبْرية .

ثم كتب لعثمان بن عفان رضي الله عنه مَروانُ بن الحكم ، فَخَانَه في خاتَمه ، وأشعلَ الرّعيّة حرباً عليه في مُلكه .

ثم أفضى الأمر إلى علي بن أبي طالب رضوان الله عنه ، فتبيّنَ من البصيرة في الكتّاب ما لم يَرَ التنويه بذكرِ كاتبٍ حتّى مات .

[٣ ـ الرسول لم يعرف الكتابة]

ولو كانت الكتابة شريفةً والخطُّ فضيلة كانَ أحقُّ الخَلْق بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أولى الناس ببلوغ الغاية فيها ساداتُهم وذوو القدر

والشرف فيهم . ولكنّ الله منَع نبيَّه صلى الله عليه وسلم ذلك ، وجعلَ الخَطَّ فيه دَنيَّة ، وصَدَّ العِلْم به عن النبوَّة. ثم صيَّر المُلِكَ في مُلكه ، والشَّريفَ في قومه يتبجَّح برداءة الخط ، ويُنبل بشَنَج الكِتَاب . وإنَّ بعضهم كانَ يقصد لتقبيح خطِّه وإنْ كان حُلوا ، ويرتفع عن الكِتاب بيده ـ وإن كان ماهراً ـ وكان ذلك عليه سهلاً ـ فيكلِّفه تابعَه ، ويحتشم من تقليده الخطيرَ من جلسائه .

وكتب أحمد بن يوسف يوماً بينَ يدي المأمون خطّاً أعجبه فقال : وددتُ والله أنّي كتبتُ مثلَه وأنّي مُغرَّمٌ ألفَ ألف . فقال له أحمد بن يوسف : لا تأسَ عليه يا أمير المؤمنين ، فإنّه لو كان حَظّاً ما حُرِمَه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم .

[٤ ـ الكتاب اتباع وخدم]

ومع ذلك إنّ سِنخ الكتابة بُني على أنّه لا يتقلَّدها إلاّ تابع ، ولا يتولاّها إلاّ من هو في معنى الخادم . ولم نر عظيماً قطُّ تولّى كفاية نفسه ، أو شاركَ كاتبَه في عمله . وكلُّ كاتب فمحكومٌ عليه بالوفاء ، ومطلوبٌ منه الصَّبر على اللأواء. وتلك شروطٌ متنوعة عليه ، ومحنةٌ مستكمَلة لديه .

وليس للكاتب اشتراط شيء من ذلك ، بل يناله الاستبطاء عند أول الزَّلَّة وإن أكدَى ، ويُدركه العَذْل بأوّل هفوةٍ وإن لم يرضَ .

يجب للعبد استزادةُ السيِّد بالشكوى ، والاستبدال به إذا اشتهى . وليس للكاتب تقاضٍ فائتِه إذا أبطأ ، ولا التحوُّل عن صاحبه إذا التوى . فأحكامُه أحكام الأرِقَّاء، ومحلُّه من الخِدمة محل الأغبياء.

ثم هو مع ذلك في الذّروة القصوى من الصَّلَف ، والسَّنام الأعلى من البَذَخ ، وفي البحر الطامي من التِّيه والسَّرف . يتوهَّم الواحد منهم إذا عرُض جبْتُه وطوَّلَ ذيلَه ، وعقَص على خدِّه صُدغَه ، وتحذف الشابورتين على وجهه ، أنّه المتبوع ليس التابع ، والمليك فوق المالك .

[٥ ـ تكبر الكتاب وادعاؤهم العلم]

ثم الناشيء فيهم إذا وطيء مقعد الرياسة ، وتورَّك مشورة الخلافة ، وحُجزت السُّلَّةُ دونه ، وصارت الدواةُ أمامَه ، وحَفِظ من الكلام فَتِيقَه ، ومن العلم مُلَحَه ، ورَوى لبُزرجُمِهرَ أمثالَه ، ولأردَشِير عَهْده ، ولعبد الحميد رسائلَه ، ولابن المقفَّع أدبَه ، وصيَّر كتاب مَزْدَك معدِنَ علمه ، ودفتر كليلَة ودمنة كنْزَ حِكمته ـ [ظنَّ] أنَّه الفاروق الأكبر في التدبير ، وابنُ عبَّاسٍ في العلم بالتأويل ، ومُعاذ بن جَبلٍ في العلم بالحلال والحرام ، وعليٌّ ابن أبي طالب في الجرأة على القضاء والأحكام ، وأبو الهُذَيل العلَّاف في الجُزْء والطُّفرة ، وإبراهيم بن سيار النظَّام في المكامنات والمجانسات ، وحسينٌ النَّجار في العبارات والقول بالإثبات ، والأصمعيُّ وأبو عبيدة في معرفة اللغات والعِلم بالأنساب . فيكون أوّل بَدْوه الطعنَ على القرآن في تأليفه ، والقَضاءَ عليه بتناقضه . ثم يُظهر ظَرفه بتكذيب الأخبار ، وتهجين مَن نَقَل الآثار . فإن استرجَعَ أحدٌ عنده أصحابَ الرسول صلى الله عليه وسلم فَتَل عند ذِكرهم شِدقه ، ولوى عند مَحاسِنهم كَشحَه . وإن ذُكر عنده شُريح جرَّحه ، وإن نُعِتَ له الحسَنُ استثقلَه ، وإن وُصف له الشعبيُّ استحمقه ، وإن قيل له ابنُ جُبَير استجهله ، وإن قدِّم عنده النُّخَعيُّ استصغره .

ثم يقطع ذلك من مجلسه سياسةُ أردَشِير بابَكان ، وتدبير أنوشِروان ، واستقامة البلاد لآل ساسان .

فإنْ حذِر العيون وتفقَّده المسلمون ، رجع بذكر السُّنن إلى المعقول ، ومحكَمِ القرآنِ إلى المنسوخ ، ونَفَى ما لا يُدْرَك بالعِيان ، وشبَّهَ بالشاهد الغائبَ . لا يرتضي من الكُتب إلَّا المنطق ، ولا يحمد إلَّا الواقف ، ولا يستجيد منها إلا السَّائر .

هذا هو المشهور من أفعالهم والموصوف من أخلاقهم .

[٦ ـ فسق الكتاب]

ومن الدليل على ذلك ، أنّه لم يُر كاتبٌ قطُّ جعل القرآن سميره ، ولا علْمه تفسيره ، ولا التفقُّه في الدِّين شعاره ، ولا الحفظ للسُّنن والآثار عماده ، فإن وُجد الواحدُ منهم ذاكراً شيئاً من ذلك لم يكن لدوران فكّيه به طَلاقة ، ولا لمجيئه منه حلاوة . وإن آثر الفردُ منهم الشُّغْلَ في طلب الحديث ، والتشاغُلَ بذكر كتب المتفقِّهين ، استثقله أقرانُه ، واستوخَمَهُ الأُلَّه ، وقضَوا عليه بالإدبار في معيشته ، والحِرفة في صناعته ، حين حاولَ ما ليس من طَبعه ، ورامَ ما ليس من شكله .

قال الزُّهريّ لرجل : أيعجبك الحديث ؟ قال : نعم . قال : أما إنّه لا يعجب إلاّ الفحولَ من الرِّجال ، ولا يُبغِضه إلاّ إناثهم !

ولئن وافق هذا القولُ من الزُّهري فيهم مذهباً ، إنَّ ذلك لَبيِّنٌ في شمائلهم ، مفهوم في إشاراتهم .

[٧ ـ المعتزلة يكرهون الكتاب]

وسئل ثُمامة بن أشرسَ يوماً ، وقد خرج من عند عمرو بن مَسْعَدة ، فقيل له : يا أبا معن ، ما رأيتَ من معرفةِ هذا الرَّجل وبلوتَ من فَهمه ؟ فقال : ما رأيتُ قوماً نفرَتْ طبائعُهم عن قَبول العلوم ، وصغُرت هممُهم عن احتمال لطائف التمييز ـ فصار العلمُ سببَ جهلهم ، والبيانُ علم ضلالتهم ، والفَحْصُ والنظر قائدَ غيِّهم ، والحكمةُ مَعْدِنَ شُبَههم ـ [أكثر] من الكُتَّاب .

وذكر أبو بكرٍ الأصمُّ ابنَ المقفَّع فقال : ما رأيتُ شيئاً إلاّ وقليلُه أخفُّ من كثيره إلاّ العلم ، فإنّه كلّما كثُر خفّ محمله . ولقد رأيتُ عبد الله ابن المقفَّع هذا في غزارة علمه وكثرة روايته ، كما قال الله عزّ ذكره : ﴿ كمثلِ الحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾ . قد أوهنَه علمُه ، وأذهلَه حلمُه ، وأعمتْه حكمتُه ،

وحَيَّرتْه بصيرته .

وكنّا في مجلس بشرِ بن المعتمر يوماً وعندهُ المُرْدار ، وثُمامة ، والعَلّاف ، في جماعةٍ من المعتزلة وأصحاب الكلام ، فتذاكروا العوامّ واستحواذَ الفتنة عليهم في التقليد ، واستغلاقَ قلوبهم بكثيرٍ مما ليس في طبعهم ، فتعظُّمهم وتقضي لكلٍّ من نُبل مِنهم بالصَّواب في قوله وإنْ لم يعلموا . لا يَدِينون بالحقيقة ، ولا يَحمَدون إلا ظاهر الحِلْية .

ومن الدليل على نَذالة طبعهم ، والعلم بفَسالة رأيهم ، تقديمهم بالفضل لمن لا يفهمونه ، وقضاؤهم بالعلم لمن لا يعرفونه ، حتّى إنهم يضربون بالكاتب فيما بينهم المثل ، ويحكمون له بالبصيرة في الأدب ، على غير مُعاشرةٍ جرتْ بينهم ، ولا محبّةٍ ظهرت له منهم . ليس إلاّ أنّ هممهم صَغُرت عنهم ، وامتلأت قلوبهم منهم ، فصار المحفوظُ من أقوالهم ، والذي يدينون به من مذاهبهم : كيف لا يأمن فلانٌ الخطأ مع جلالته ، وكيف ينساغ لأحدٍ تجهيلُه مع نبله . فإنْ وُقفوا على تمييزه هابوه ، وإن دُعوا إلى تفهُّمِه أكبروه ، وقالوا : لم يُنْصَب هذا بموضعه إلاّ لخاصّةٍ فيه وإن جَهِلْناها ، وفضيلةٍ موسومة وإن قَصُرَ عِلْمُنا عنهم . ولعلّهُ عُمَرَ بن فَرَجٍ في السَّفَه والمباهَتة ، وإبراهيم ابن العبّاس في الشَّرَه والرَّقاعة ، ونجَاح بن سَلَمة في (الطّيش) والسخافة ، وأحمد بنُ الخَصيب في اللُّؤم والجَهَالة ، وآلُ وهب في النَّهَم والنَّذالة ، ويحيى بن خاقانَ في الذُّلّ والفاقة ، وموسى بن عبد الملك في الوَخَم والبلادَة ، وابن المدبّر في الخِبِّ والمكابرة ، والفَضْل بن مروان في القَذَامة مقصورةً .

وفي عمر بن فرج يقول الشاعر :

لا تطلبِ الخيرَ من بني فَرَجِ	لا باركَ اللّهُ في بني فَرَجِ
والعَنْ إذا ما لقيتَه عُمَراً	لَعناً يقيناً بأعظم الهَرجِ
فلعنةٌ إنْ لَعَنْتَها عُمَراً	تَعْدِلُ مقبولةً من الحِجَجِ
ليس على المفتري على عُمَرٍ	من ضَرْبِ حَدٍّ يُخْشَى ولا حرجِ

وخُبِّرْت أنَّ أبا العتاهية أتى يحيى بن خاقان يوماً ليسلِّم عليه ، فلم يأذنْ له حاجبُه فانصرفَ ، وأتاه يوماً آخرَ فصادَفه حينَ نزل فسلَّم عليه ، ودخل يحيى إلى منزله ولم يأذَنْ له ، فكتب إليه أبو العتاهية من ساعته رُقْعَةً فيها :

أُراكَ تُراعُ حين تَرى خيالي ... فما هذا يَرُوعُك من خيالي
لعلك خائف مني سؤالاً ... ألا فلَكَ الأمانُ من السُّؤالِ
كفيتُك إنْ حالُك لم تَمِل بي ... لأطلبْ مثلَها بدلاً بحالِي
وإنَّ العُسْرَ مثل اليُسر عندي ... بأيِّهما مُنيتُ فما أُبالي

فلما قرأ يحيى بن خاقان رُقْعَتَهُ ووثق بأمانه من السُّؤال أذنَ له ، فخرج الحاجب فوجَده قد انصرف ، ولم يَعُدْ إليه ، ولا التقيا بعد ذلك .

وَجَلَسَ الجاحظ يوماً في بعض الدواوين ، فتأمَّل الكتَّاب فقال : خِلَقٌ حُلوة ، وشمائل معشوقة ، وتظرُّف أهل الفهم ، ووقار أهلِ العلم ، فإن ألقيت عليهم الإخلاصَ وجدتَهم كالزُّبد يَذْهب جُفاءً ، وكنَبْتة الرَّبيع يُحرقها الهَيْف من الرياح ؛ لا يستندون من العلم إلى وثيقةٍ ، ولا يدينون بحقيقةٍ ؛ أخفرُ الخلق لأماناتهم ؛ وأشراهم بالثمن الخسيس لعهودهم ؛ الويلُ لهم مما كتبت أيديهم وويلٌ لهم مما يكسبون .

[٨ ـ قلة تعاطف الكتاب]

ثم وَصَفَ أصحاب الصناعات ، وذكر تعاطف أهلها على نظرائهم ، وتعصُّب رجالها على غيرهم فقال :

لا أعلم أهل صناعة إلا وهم يَجْرُون في ذلك إلى غاية محمودة ، ويأتون منه آيةً مذكورة ، إلا الكُتَّاب ، فإنَّ أحدهم يتحاذق عند نظرائه بالاستقصاء على مثله ، ويسترجح رأيه إذا بلغ في نكاية رجلٍ من أهل صناعته .

ثم ضرب لهم في ذلك مثلاً ، ثم قال : هم كالهرِمة من الكلاب في مرابضها ، يمرُّ بها أصناف الناس فلا تَحرَّكُ ، وإن مرَّ بها كلبٌ مثلها نهضَتْ إليه بأجمعها حتّى تقتله .

وحدّثني عُمَر بن سيف ، أنه حضر مجلس أبي عبّاد ثابت بن يحيى يوماً في منزله ، وعنده جماعة من الكتاب فذكر ما هم عليه من ملائم الأخلاق ومدانس الأفعال ، قال : ووصف تقاطعهم عند الاحتياج ، و[عدم] تعاطفهم عند الاختلال ، وزُهدَهم في المواصلة فقال :

معاشر الكتاب ، ما أعلم أهل صناعة أملأ لقلوب العامّة منكم ، ولا النعمُ على قوم أظهر منها عليكم . ثم إنّكم في غاية التقاطع عند الاحتياج ، وفي ذِروة الزُّهد في التعاطف عند الاختلال . وإنّه ليبلغني أنّ رجلاً من القصابين يكون في سُوقِهِ ، فيتلف ما في يديه ، فيخلِّي له القصّابون سُوقَهم يوماً ، ويجعلون له أرباحَهم ، فيكون بربحها منفرداً ، وبالبيع مُفرداً ، فيسدُّون بذلك خلَّته ، ويَجبُرون منه كسرَه . وإنّكم لتَناكرون عند الاجتماع والتعارُف ، تناكُر الضِّباب والسَّلاحف ، ثم مع استحواذكم على صناعتكم ، وقلّة ملابسة أهلِ الصناعاتِ لها معكم ، لم أر صناعة من الصناعات إلاّ وقد يجمع أهلُها غيرَها إليها فيعانونها جميعاً ، وينزلون لضربٍ من التجاراتِ معاً ، إلاّ صناعتكم هذه ؛ فإنّ المتعاطيَ لها منكم ؛ والمتسمِّي بها من نظرائكم ، لا يليق به ملابسةٌ سِواها ، ولا يسَاغ له التَّشاغل بغيرها . ثم كأنكم أولاد عَلاّتٍ ، وضرائر أُمّهات ، في عداوةِ بعضكم بعضاً ، وحنَقِ بعضِكم على بَعض . أفٌ لكم ولأخلاقكم !

إنّ للكُتّاب طبائع لئيمة ، ولولا ذلك لم يكن سائر أهلِ التجاراتِ والمكاسب بنظرائهم بَرَرةٌ ، ومن وَرائهم لهم حَفَظَة ، وأنتم لاشكالكم مُذِلّون ، ولاهل صنائعكم قالُون . قَبحَ اللّهُ الذي يقول قضينا في الأمور بالأغلب

وعرفنا علل الناس في مكاسبهم وتعامُلهم ، فمن كانت علّته أكرمَ كـان كرمُ فعاله أعمَّ .

ولسـتُ أعلَم عِلّةً في مكتسبٍ أنبلَ عند الخاصّة من مكسبكم .

[٩ - شؤم الكتاب]

ثمَّ وَصَف مَن سلف من هذه الطّبقة يوماً فقال : كتب سالمٌ لهشام بن عبد الملك ، وكان أشدَّ الناسِ غَلَطاً ، وأضعفَهم رأياً ، وكان هشامٌ يُحضره فيَسمع من ضَعْفه ويستمِيحه الرأيَ ، يهزأ به .

ثم كتب لهم مَسْعَدة وكان مؤدِّباً ، وكانت ضَعْفة المؤدِّبين فيه .

ثم كتب لهم عبدُ الحميد وكان معلِّماً ، وبتحامله على نصر بن سيار انتقضت خراسان ، وزال ملك بني مَرْوان .

ثم كتب لبني العباس عبد الله بن المقفَّع ، فأغرى بهم عبد الله بن علي ، ففُطِن له وقُتل وهُدم البيتُ على صاحبه .

ثم كتب لهم يونس بن أبي فروة ، وكان زنديقاً ، فطُلب فاختفى بالكوفة والنِّيل حتّى هلك .

واستكتب الرشيدُ أزدانقاذار على ديوان الخراج ، وكان ثَنَويّاً .

ثم لم ينوِّهوا بذكر كاتبٍ حتّى وليَ المأمون ، فقدِم معه ابن أبي العباس الطُّوسي ، فبه انتشرت السِّعاية بالعراق .

واستكتب أبا عبّاد ، وكان بالرَّي مؤدِّباً ، وكان سخيفاً حديداً ، ولم يزل بمكانه في ديوانه فيما لابن أبي خالد الأحول والاسمُ له .

ثم كتب له رجاء بن أبي الضحّاك ، وكان أظلمهم وأغشمهم ، واستخلف حفصويه على ديوان الخراج ، وكان ركيكاً لسعايته .

ثم كتب لهم ابن يزداد ، وكان أشفاهم ، حتّى هلك .

وكتب لهم عمرو بن مسعدة ، وكان رسائلياً فقط .

واسترجح المأمون وهو بخراسان قبل مقدمه من كتاب العراق على غير بَلْوَى إبراهيم بن إسماعيل بن داود ، وأحمد بن يوسف ، فلما قدم امتحنهما فتعنّتا ، فاستنهضهما في الأعمال ففشلا ، فلم يعملا على شيء حتّى هلكا .

وكان إبراهيم شُعوبياً ، وكان يتهم بالثّنويّة . فإن كان ذلك صحيحاً فقد كانت صَبابتُه بها على جهة التقليد فيها ، لا على جهة التفتيش والاحتجاج فيها . وهذه علة المرتدّ من سائر الكتّاب .

وقد قال أهل الفطن : إنّ محض العمى التقليد في الزندقة ؛ لأنّها إذا رسَخَتْ في قلبِ امرئٍ تقليداً أطالت جرأته ، واستغلق على أهل الجدل إفهامه .

وكان أحمد بن يوسف مأفوناً ، وهو أول من قُرِف بالآفةِ المخالفة لطبع الكتّاب .

واستَقْضى على ديوان الخراج والجند إبراهيمَ الحاسب ، والحسنَ بن أبي المشرف . فلَقِن إبراهيم من سائر الآداب والعلوم علمَ الحساب فقط ، ولم يُفزَع إليه في قضيةٍ ولا رأيٍ حتّى هلَك ، فكان الذي وضعه وأدناه شرهُه ، وهي علّةٌ قائمة في كتّاب الجند خاصة .

واستضعف ولاةُ الدواوين الحسنَ بن أبي المشرف عند قول الفضل [ابن] مروان له وهو على الوزارة : «يا حسَنُ ، احتجنا إلى رجلٍ جزلٍ في رأيه ، متوّفر لأمانته ، متصرِّف في الأمور بتجربته ، مستقْدرٍ على الأعمال بعلمه ، تصِف لنا مكانَه ، وتُشِير علينا به ، فنقلّده جسيماً من عملنا » . فأجابه سريعاً قال : وجدتُه لك ـ أصلحكَ الله ـ كذلك . قال : من هو ؟ قال : أنا . والحُ

عليه في قوله ، فتبسّم الفضل وقال : هذا مِن غيرك فيك أحسنُ منك بلسانك لك ، نَعُود وننظر إن شاء الله !

[١٠ ـ خساسة ارزاق الكتاب]

وحسبُك بقوم أنبلُهم أخسُّهم في الرُّزق مرتبة ، وأعظمهم غَناءً أقلُّهم عند السُّلطان عقلاً . يُرزَق صاحب ديوان الرسائل ـ وبلسانه يخاطَب الخلق ـ العُشرَ من رزقِ صاحب الخراج . ويرزق المحرِّر ـ وبخطّه يكون جمالُ كتب الخليفة ـ الجُزءَ من رزق صاحب النَّسخ في ديوان الخراج . لا يَحضر كاتب الرسائل لنائبةٍ ، ولا يُفزَع إليه في حادثة . فإذا أبرمَ الوُزراء التدبيرَ ووقفوا منها على التقدير ، طُرحت إليه رقعةٌ بمعاني الأمر لينسِّقَ فيه القولَ ، فإذا فَرَغ من نظامه واستوى له كلامُه ، أحضر له محرِّره فجلس في أقرب المواطن من الخليفة ، وأمنع المنازل من المختلفة ، فإذا تقضّى ذلك فَهُما والعوام سواء .

هذا وليست صناعتهما بفاشيةٍ في الكتّاب ، ولا بموجودة في العوامّ ؛ فأغزرهم علماً أمهنهم ، وأقربهم من الخليفة أهوَنُهم . فكيف بكاتب الخراج الذي علمه ليس بمحظور واشتراك الناس فيه ليسَ بممنوع ، يصلح لموضعه كل من عَمِل وعُمِل عليه ، أحمد أحواله عند نفسه التعقُّد على الخصوم ، وأسعد أموره التي يرجو بها البلوغَ الشّرهُ ومنعُ الحقوق . وأحذق ما يكون بصناعته عند نفسه حين يأخذ بإبطال السُّنن ، ويعمل بفلتات الدفوع .

ولذلك ما ذكر أنّ بعضَ رجال الشّعبيّ قال له : يا أبا عَمرو ، الكتّاب شرار خلق الله ! فقال : لا تفعل .

ولكنَّ الشعبيّ كان لسلطانه مُدارياً .

[١١ ـ بعض اخبار الكتاب]

ومن كتاب الجند : محمود بن عبد الكريم ، كان حُمَيد بن عبد الحميد عند دخول المأمون مدينة السلام وبعد سكون الهَيْج وخمود النائرة ، رفع إلى المأمون يذكر أن في الجند دغلاً كثيراً ممن دخل فيهم بسبب تلك الحروب في أيام الأجناد ـ [وهم] قومٌ من غير أهل خراسان ممّن تشبّه بهم وادّعى إليهم من الأعراب والدُّعّار ، وممن لا يستحقُّ الدّيوان ، وقومٌ من أهل خراسان صارت لهم الخواصُّ السَّنيَّة ، [و] لم يكن لهم من الغَناء ما يستحقُّون به مثلَها ـ وذكر أنَّ بيت المال لا يحتمل ذلك ، وسأل المأمونَ أن يولّيه تصنيفَ الجند . ولم يكن مذهب حُميدٍ في ذلك التوفير على المأمون ، ولا الشفقةَ على بيتِ مال المسلمين ، ولكنه تعصّب على أبناء أهل خراسان ، واضطغن عليهم محاربتَهم إياه أيّام الحسن بن سهل مع وَلَدِ محمد بن أبي خالد وغيرهم ، وما كانوا قد انتحَوْهُ به من تلك الوقائع والهزائم ، وما ذهب له من الأموال بذلك السَّبب .

فولّاه المأمونُ التصنيف ، وأمَر للجند برزق شهرين . فولّى حُميدُ العطاءَ والتصنيفَ محمودَ بن عبد الكريم الكاتب ، وعرف محمود ما غَزَا حُميدٌ ، فتحامَلَ على الناس واستعمل فيهم الأحقاد والذُّمن ؛ فخفض الأرزاق ، وأسقطَ الخواصَّ ، وبعث في الكُوَر وأنحى على أهل الشَّرف والبُيوتات ، حسداً لهم وإشفاءً لغليل صاحبه منهم ، فقصَد لهم بالمكروه والتعنُّت ، فامتنعت طائفة من الناس من التقدُّم إلى العطاء وتركوا أسماءهم ، وطائفة انتدبوا مع طاهر بن الحسين بخراسان . فسقط بذلك السبب بشرٌ كثير .

ثم إنّ المأمون أمر للناس بتمام عطاياهم ؛ واكتسب محمود بن عبد الكريم المَذَمَّة ، وصار مَلعنةً في محالّ بغداد وفي مجالسها وطُرقها .

ومنهم : زيد بن أيوب الكاتب ، عمل في ديوان الجند أربعين سنة ، ثم صار في آخر عُمره قوّاداً ليحيى بن أكثم القاضي . وذلك أن المأمون أمرَ له بفَرض ، فصيَّر بحيى بن أكثم أمرَ ذلك الفرض إلى زيد بن أيوب ، وأمره ألاّ يَفرِضَ إلاّ لأمرد بارعِ الجمال ، حسنِ القدِّ والصُّورة . فكان أمر ذلك الفرض مشهوراً مُتعالَماً . ففي ذلك يقول الحسن بن علي الجرمازيّ لزيد بن أيوب :

يا زيد يا كاتب فَرضِ الفِراشْ ... أكلُّ هذا طلبٌ للمعاشْ
مالي أرى فرضَك حُملانهم ... يثْبُتُ في القَرنينِ قبلَ الكِباشْ

وعلى ذلك فإنّه لم يبلُغني أنّه كان في ولاةِ ديوان الجند ولا في كتّابهم مثل المعلّى بن أيوب في نُبله وارتفاع همته ، وكرم صُحبته ، وعفافه ، وجميل مَذْهبه ، وشدة محاماته عمن صحبه وتحرُّمَ به . فكان المأمون يعرف له ذلك ومَن بعده من الخلفاء ، فثبتت وطأته ، ودامت ولايتُه ، وحُمِد أثره .

* * *

قد أتينا على بعض ما أردنا فيما له قصَدْنا ، ولم نستعمل الانتزاعات فيما ذكرنا ، وأعرضْنا عن التأويلات فيما وصفنا ، وقَصدنا إلى المأثور فحكيناه ، وإلى المذكور في الأزمنة فأجريناه . لئلا يجد الطاعنُ فيما وصفنا مَقالا ، والمنكِر لذم ما ذممنا مَساغاً ، وعَلِمْنا أنَّ من عاند مع ذلك فقد دَفع عِياناً وأنكر كائناً مذكوراً . وفي ذلك دليلٌ باهر على اضمحلاله ، وشاهدٌ عدل لأضداده .

ولو حكينا كلَّ ما في هذا الجنسِ من الأقوال ، وما يدخله من المقايسات والأشكال ، لطالَ الكتاب ، ولَملّه الناظر المعجاب ، فاكتفينا بالجزء من الكتاب ، والبعضِ دون التمام ، وعلمنا أنَّ الناظر فيه إنْ كان فطناً أقنَعه القليلُ فقضى ، وإن كان بليداً جهولاً لم يزده الإكثارُ إلاّ عِيّاً ،

ومن العلم بما له قصدْنا إلاّ بعداً . وبالله الكفاية والتوفيق .

* * *

تمَّ كتاب « ذم أخلاق الكتّاب » بعون الله ومنّه ومشيئته وتوفيقه ، والله تعالى الموّفق للصواب . والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وأصحابه الطيبين الطاهرين وسلامه ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

هامش كتاب ذم اخلاق الكتاب

(١) لاحظ غموض الفكرة في هذا المقطع . ويبدو ان الجاحظ يريد ان يقول ان الاسراف في الاستقصاء يعرض صاحبه للنقد من قبل الخصوم لأن الشيء المستقصى في الوصف يغدو سهل المتناول مكشوفاً للناقد .

ـ الوجود لا يحتاج الى برهان ، وبهذا يسبق الجاحظ هيغل . واذا وجد الموجود لم نعد بحاجة الى البحث عن العلة ، لأن المعلول يخبر عن العلة .

ـ اذا اجتمع الاعجاب في الشيء مع المديح ـ اي مديح الشيء ـ غدا من العسير ازالة الاعجاب والتحول عنه . ويشبه اجتماع الاعجاب مع المديح اجتماع الاجماع مع محكم التنزيل .

ـ الاعتلال هو التفتيش عن العلة او السبب ، والاحتجاج هو التفتيش عن الحجة . والحجة تثبت صحة الشيء ، اما العلة فتثبت وجوده . راجع حول مفهوم العلة والحجة عند الجاحظ كتابنا المناحي الفلسفية عند الجاحظ .

(٢) هنالك شك في رواية الجاحظ عن عبد الله بن ابي سرح . انظر الاستيعاب لابن عبد البر ، طبعة حيدر آباد سنة ١٣٨٨ ص ١٥٥٣ . وهو يذهب الى انه لم يمت كافراً .

ـ يتهم الجاحظ معاوية بن ابي سفيان بالغدر بعلي بن ابي طالب امامه ، كما يرميه بالاثم ، وقد عدد آثامه في رسالة النابتة ضمن مجموعة رسائل الجاحظ الكلامية .

ـ زياد ابن ابيه عمل كاتبا لعمر بن الخطاب ثم واليا لعلي بن ابي طالب ثم لمعاوية إبن ابي سفيان وقد ادعى معاوية انه أخوه اخذاً بقول والده ابي سفيان ونقض بادعائه السنة او خالفها .

والجبرية فرقة كلامية ظهرت في العصر الأموي ذهبت الى ان الانسان ليس حراً في اعماله بل هو مجبر وافعاله من صنع الله . واشهر رؤسائهم الجهم بن صفوان الذي قتل في آخر خلافة بني أمية .

(٣) لاحظ تعليل الجاحظ الاعتباطي لجهل النبي الكتابة .
(٤) لاحظ خطأ الجاحظ في رأيه أن الكتاب كانوا جميعاً تابعين أو خدماً .
(٥) انظر وصف الجاحظ لباس الكاتب : الجبة العريضة الطويلة ، والشعر المعقوص على الصدغ الخ . . .

- ثقافة الكاتب تتناول حفظ الكلام الفصيح او الفتيق ، وامثال بزرجمهر الحكيم الفارسي الذي وزر لكسرى ، ورسائل عبد الحميد الكاتب الذي كتب لمروان بن محمد آخر خلفاء بني امية ، وكتب ابن المقفع الذي كتب لاعمام المنصور وقتل بسبب كتاب العهد الذي خطه على المنصور أمانا لعمه عبد الله بن علي ؛ وقد ترجم كتاب كليلة ودمنة عن الفارسية ، وكتب الأدب الكبير والأدب الصغير ، وكتاب مزدك .

- وهو يعني بالفاروق عمر بن الخطاب ويعني بالتدبير السياسة .

- ويعني بابن عباس عبد الله بن العباس الفقيه والخطيب وقد ولي لعلي بن ابي طالب واشتهر بالعلم والتأويل : والتأويل هو تفسير آيات القرآن .

- أبو الهذيل العلاف (٨٤٩ م) احد شيوخ المعتزلة الكبار ، قال ان الاجسام تتألف من أجزاء لا تتجزأ او جواهر فردة او ذرات ، وعارض النظام لقوله بالطفرة أي قطع المسافة من مكان الى ثالث دون المرور بالمكان الثاني. وكان ابو الهذيل والنظام معاصرين للجاحظ واكبر منه سناً . وكان النظام أستاذ الجاحظ قال بان الجسم يمكن تجزئته الى غير نهاية كما قال بالكمون أي وجود شيء في شيء آخر يظهر متى ذهب المانع ، مثل كمون النار في الحطب . وقال ايضاً : بالمجانسات اي تقسيم الاشياء والحيوانات الى أجناس يشترك كل جنس بخصائص معينة موجودة في جميع افراد الجنس .

- وحسين النجار صاحب فرقة النجارية بحث في العبادات وقال بالتعطيل كالمعتزلة .

- والاصمعي ، عبد الله بن قريب الباهلي (٢١٦ هـ) كان اماماً في الاخبار والنوادر .

- وابو عبيدة معمر بن مثنى التيمي بالولاء (٢١٠ هـ) كان راوية ونحوياً كبيراً كالاصمعي واخذ عنه الجاحظ الكثير .

- وشريح بن الحارث الكوفي القاضي جعله عمر بن الخطاب قاضياً على الكوفة وابقاه عثمان وعلي في عمله وولاه زياد ابن ابيه القضاء على البصرة وتوفي سنة ٧٢ هـ .

- ويعني بالحسن (وان نعت له الحسن استثقله) الحسن البصري المتكلم والفقيه والواعظ المشهور وقد عاش في العصر الأموي .

- ابن جبير هو سعيد بن جبير الاسدي الكوفي مولى بني أسد كان فقيهاً عابداً وكتب في الدواوين القضائية ، وقتل لدى خروجه مع ابن الاشعث سنة ٩٥ هـ .

- النخعي هو ابراهيم بن يزيد النخعي . كان فقيهاً وتوفي سنة ٩٦ هـ .

(٦) عدم اهتمام الكتاب لعلوم التفسير والفقه والحديث يثير الدهشة .

(٧) ثمامة بن اشرس ، احد ائمة المعتزلة توفي سنة ٨٢٨ م . وقد اكثر الجاحظ من ذكره في كتبه ويبدو انه كان مقرباً من الخلفاء .

- وعمرو بن مسعدة احد الكتاب في عصر المأمون ، توفي سنة ٢١٧ هـ .

- وابو بكر الاصم معاصر الجاحظ واحد شيوخ المعتزلة .

بشر بن المعتمر معاصر الجاحظ واحد شيوخ المعتزلة توفي سنة ٨٢٥ م .

- وابو موسى المرداد معاصر الجاحظ واحد ائمة المعتزلة توفي سنة ٨٤١ م .

- عمر بن سرح وابراهيم بن العباس ونجاح بن سلمة واحمد بن الخصيب وآل وهب ويحيى بن خاقان ، وموسى بن عبد الملك ، وابن المدبر والفضل بن مروان من اعلام الكتاب في العصر العباسي .

- ابو العتاهية الشاعر العباسي المشهور بزهدياته ورقة شعره عاش في العصر العباسي الأول .

- « وجلس الجاحظ يوماً في بعض الدواوين » هذه الجملة دخيلة على الكتاب لأن الجاحظ لا يمكن ان يقول عن نفسه ذلك . ويمكنه ان يتحدث بضمير المتكلم فيقول جلست يوماً في بعض الدواوين فتأملت الكتاب وقلت . . .

(٨) اولاد علات : من امهات مختلفات ضرائر .

وضرائر أمهات : النساء اللواتي يكن لزوج واحد ولهن اولاد .

(٩) سالم الكاتب عمل في ديوان هشام بن الحكم والوليد بن يزيد .

- ويونس بن ابي فروة احد كتاب العباسيين .

- وابو عباد هو ثابت بن يحيى ، كان مقرباً من المأمون .

- رجاء بن ابي الضحاك هو والد الحسن بن رجاء . ولي على الخراج في عهد المعتصم ، وكان يقرض الشعر .

- ابن يزداد هو محمد بن يزداد بن سويد استعمله المأمون .

(١٠) لنلاحظ ان معظم الكتاب كانوا من اصل فارسي ، وقد اتهم اكثرهم بالشعوبية والزندقة امثال ابن المقفع ، ويونس بن ابي فروة ، وازدا نقاذار وابراهيم بن

اسماعيل بن داود .

(١١) محمود بن الكريم احد الكتاب في عهد المأمون .

- وحميد بن عبد الحميد من كتاب الجند في عهد المأمون .

- يحيى بن اكثم بن صيفي ينتهي بنسبه الى اكثم بن صيفي الحكيم والخطيب الجاهلي المشهور . اشتهر بفقهه وسعة علمه . ولاه المأمون القضاء وتدبير السياسة . وقد احله المتوكل مكان محمد بن احمد بن ابي دؤاد ، ثم عزله وتوفي سنة ٢٤٦ هـ .

فهرس الاعلام (١)

(١) لا يتناول هذا الفهرس رسالة فضل هاشم على عبد شمس .

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

فهرس المحتويات

محتويات المعاش والمعاد

(٦٣ ـ ٩٢)

الموضوع	الصفحة
٧ ـ لائحة الاسباب والعواقب	٧٦
٨ ـ الجود والبخل	٧٨
٩ ـ الصمت والمنطق	٧٩
١٠ ـ الشجاعة	٧٩
١١ ـ معاملة العدو	٨٠
١٢ ـ اجناس الناس	٨١
١٣ ـ معرفة الأمور الغائبة	٨٢
١٤ ـ الصداقة	٨٤
١٥ ـ الخلال المذمومة	٨٥
١٦ ـ امتداح الذات	٨٨
١٧ ـ سياسة السلطان	٩١
هامش رسالة المعاش والمعاد	٩٣

محتويات رسالة الاوطان والبلدان
(٩٧ ـ ١٢٢)

الموضوع الصفحة

محتويات رسالة العثمانية

(١٢٧ - ٣٢٨)

الموضوع	الصفحة

الموضوع | الصفحة

محتويات رسالة الحكمين وتصويب علي بن ابي طالب في فعله

(٣٣٧ ـ ٣٩٩)

الموضوع | **الصفحة**

الموضوع | الصفحة

محتويات رسالة فضل هاشم على عبد شمس
(٤٠٧ ـ ٤٦٠)

الموضوع | الصفحة

محتويات رسالة العباسية

محتويات رسالة مناقب الترك

(٤٧١ ـ ٥١٩)

محتويات رسالة فخر السودان على البيضان

(٥٢٧ ـ ٥٥٧)

الموضوع	الصفحة

محتويات رسالة الحجاب
(٥٦٣ ـ ٥٩٨)

محتويات رسالة ذم أخلاق الكتاب
(٦٠٣ ـ ٦١٨)